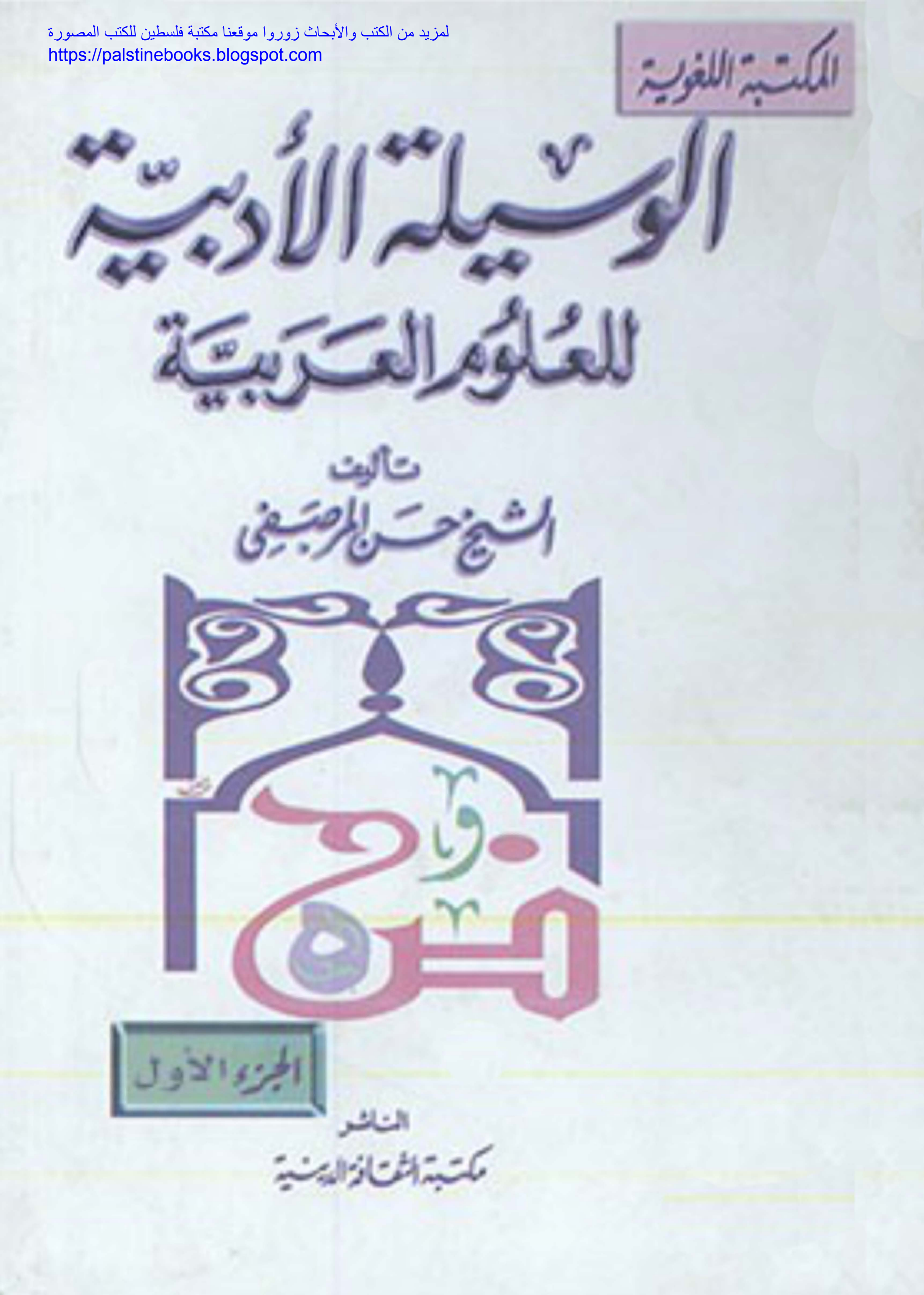
لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com



المكتبة اللغوية

الوسيلة الأدبية للعلوم العربية

تأليف
الشيخ حسن المرصفي

الجزء الأول

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

المكتبة اللغوية

الوسيلة الأدبيّة

للعلوم العربيّة

تأليف

الشيخ حسن المرصفي

الجزء الأول

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1433هـ-2012

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

526 شارع بورسعيد - القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المرصفي ،حسين بن احمد حسين المرصفي ،000-1889
الوسيلة الادبية الى العلوم العربية / تاليف حسين المرصفي ،حققة وقدم له محمد بن يوسف القاضي
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2012
مج1 ، 24 سم
تدمك : 978-977-341-562-8
ا- اللغة العربية
2- الادب العربي
أ/ القاضي، محمدبن يوسف (محقق، مقدم)
- العنوان

ديوى:410

رقم الايداع: 2012/2958

مصادر النقد العربي الحديث
تمهيد وتعريف

بقلم: الدكتور عبد العزيز الدسوقي

هذه سلسلة جديدة متخصصة تقدم مصادر نقدنا العربي الحديث لأساتذة الجامعات والمهتمين بالبحوث والدراسات النقدية.

وتتمثل مصادر النقد العربي الحديث، في بعض الكتب الهامة، والدراسات المبكرة التي شكلت الذوق العربي الحديث، وطورت المفهومات النقدية، وشقت الطريق للأجيال.

ثم هي تتمثل في بعض المجلات والدوريات الرائدة التي حملت لواء التجديد في مجال النقد والدراسات الأدبية.

وبعض تلك الكتب لم يطبع إلا مرة واحدة أو مرتين، ثم أصبح الحصول عليه عسيرًا، إن لم يكن متعذرًا. كالوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفي، وقد طبعت منذ نحو مائة عام.

وبعض هذه الكتب لم يطبع مطلقًا، وظل مخطوطًا حتى الآن، مثل كتاب تاريخ آداب اللغة العربية، لرائد من أهم رواد التجديد في النقد والدراسة الأدبية هو «حسن توفيق العدل».

أما أهم المجلات والدوريات، التي تعد بحق مصدرًا من أهم مصادر نقدنا العربي الحديث، فقد أصبحت مهددة بالتلف والانقراض.

من أجل هذا مست الحاجة إلى صدور سلسلة جديدة متخصصة لتقدم للقارئ العربي، أهم تلك الكتب والدوريات.

وفي نيتنا أن نقدم في البداية من الكتب:

١- كتاب «الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية» من تأليف حسين أحمد المرصفي. وقد طبع الجزء الأول منه في عام ١٨٧٥م. وتم طبع الجزء الثاني في عام ١٨٧٩م.

٢- تاريخ آداب اللغة العربية من تأليف محمد دياب. وقد تم تأليفه في عام ١٨٩٧م وتم طبعه في عام ١٩٠١م.

٣- تاريخ آداب اللغة العربية من تأليف حسن توفيق العدل. وقد أنجزه في مطلع القرن العشرين، ولا يزال مخطوطًا. وقد اطلعت على نسخة منه كتبها بخط الرقة «محمد فخر الدين» وعليها تاريخ (١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م).

٤- كتاب «المواهب الفتحية» من تأليف حمزة فتح الله.

وسنقدم من المجلات والدوريات ما تمس الحاجة إليه دون نظر إلى الترتيب التاريخي وقد أعددنا للنشر:

١- مجلة روضة المدارس باعتبارها أول مجلة أدبية في تاريخنا العربي الحديث.

٢- مجلة أبولو.

٣- مجلة «البيان» لليازجي.

٤- مجلة الضياء لليازجي.

٥- مجلة الزهور لأنطون الجميل.

٦- مجلة البيان للبرقوقي.

٧- مجلة الفجر لأحمد خيزي سعيد.

٨- مجلة مصباح الشرق للمويلحي.

* * *

وسنقدم بين يدي كل كتاب من هذه الكتب التي ننشرها، أو كل مجلة من المجلات التي نصدرها، دراسة وافية، نعرف فها بالكتاب أو المجلة، ونبين أثرهما في نقدنا العربي الحديث، وقيمتهما العلمية.

ويسعدنا أن نقدم في الحلقة الأولى من هذه السلسلة كتاب «الوسيلة الأدبية». نسأل الله العون والمدد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الدكتور عبد العزيز الدسوقي

القاهرة في ٨ من يوليه ١٩٨٠

المرصفي والوسيلة الأدبية
دراسة وتقديم

-١-

نقدم في الحلقة الأولى من سلسلة «مصادر النقد العربي الحديث» كتابًا من أهم الكتب في مجال النقد والدراسة الأدبية، هو كتاب «الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية» لمؤلفه الباحث الرائد «حسين أحمد المرصفي».

والمؤلف ظاهرة باهرة من الظواهر العلمية والأدبية في مصر، في القرن التاسع عشر. والكتاب نقطة تحول في مجال النقد والدراسة الأدبية في هذا القرن أيضًا، أثر تأثيرًا عميقًا في الحياة الأدبية والفكرية، وشكل ذوق رواد النهضة الأدبية والفكرية في مصر.

وعلينا – قبل أن نلقي الضوء على كتاب الوسيلة – أن نتوقف عند شخصية هذا العلامة الرائد الشيخ حسين بن أحمد المرصفي. ذلك النابغة المكفوف البصر الذي استطاع أن يتقن العربية، ويتبحر في علومها، وأن يتعلم الفرنسية ويترجم عنها، وأن يرود مجالات متعددة في البحث والدرس.

-٢-

حياته ومصادر ثقافته:

ويبدو أن العاهمة كان لها تأثير على مزاج ذلك المفكر المرهف الحس، المتواضع النفس، فانطوى على نفسه وعزف عن الشهرة، وارتياد المجتمعات، وعكف على عمله وتأليف الكتب.

ولهذا لفَّ الظلام تفاصيل حياته وسيرته.

فلا نعرف على وجه التحديد متى ولد، ولا نعرف كثيرًا من الظروف التي أحاطت به. ولولا بضعة سطور كتبها عنه علي مبارك في الخطط التوفيقية؛ لما اهتم به أحد من معاصريه ولم يكتب عنه أحد بعد ذلك، حتى التفت إليه صديقنا الباحث الشاعر الأديب الأستاذ محمد عبد الغني حسن، فكتب عنه فصلًا ممتازًا في كتابه «أعلام من الشرق والغرب» الذي صدر في أواخر الأربعينات. ثم كتب عنه الأستاذ محمد عبد الجواد كتابًا أصدرته دار المعارف في طبعة متواضعة عام ١٩٥٢. وكتب عنه المرحوم الدكتور مندور فصلًا من الفصول التي كان ينشرها في أواخر الخمسينات عن «النقد والنقاد المعاصرين» ثم جمعها في كتاب بعد ذلك.

وقد عجب الأستاذ محمد عبد الغني حسن من إغفال مؤرخي الأدب، تقديم ترجمة كاملة للشيخ. وقال: « ويظهر أن الترجمة للشيخ حسين المرصفي كانت شاقة لمن جاءوا بعد علي مبارك باشا، فأغفله المرحوم جرجي زيدان بك وهو يترجم لقرابة تسعين علمًا من أعلام النهضة في كتابه المشهور (تراجم مشاهير الشرق). كما تركه الأستاذ حسن السندوبي

في كتابه (أعيان البيان) الذي ترجم فيه لطائفة من أعلام الأدب والشعر، منذ عصر محمد علي. وأعجب من ذلك كله أن يتركه المغفور له أحمد تيمور باشا، وهو يترجم لأربعة وعشرين عينًا من أعيان العلم والأدب في كتابه (تراجمع أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر). الذي طبع بعد وفاته ... وما زال حظ الشيخ المرصفي يضؤل من الأسطر التسعة، التي تفرد بها علي مبارك باشا في (خططه) حتى بلغ نصيبه ثلاثة أسطر من الترجمة في كتاب (الآداب العربية في القرن التاسع عشر) للأب لويس شيخو اليسوعي. وهو نصيب لا يقوم كفاء ما أسداه الشيخ إلى دراسة تاريخ الأدب من خدمات. على أن مؤرخنا المنصف عبد الرحمن الرافعي بك، لم يفته وهو يترجم لأعلام الأدب في عصر إسماعيل أن يردد بضعة الأسطر، التي جاءت في كتاب علي مبارك باشا. وهي المصدر الوحيد في ترجمة الشيخ الجليل».

وقد عجب الأستاذ محمد عبد الجواد في كتابه عن المرصفي لهذا الإغفال أيضًا وراح يعلل ذلك بعدة تعليلات رآها سببًا لهذا الإغفال.

وهي ظاهرة تسترعى النظر حقًا، ولكني لا أعتقد مع الأستاذين الجليلين أنها كانت سببًا في إخفاء شيء من علم المرصفي أو فضله. فلا تزال كتبه المخطوطة والمطبوعة، رغم عدم إعادة طبعها تحمل للأجيال ذلك الرصيد الحضاري الذي أضافه المرصفي لحياتنا وفكرنا.

وأرى أن السطور التي كتبها المرحوم علي مبارك عن هذا الرائد الكبير تكفي لتحديد ملامح حياته ومعالم ثقافته، ونباهة شأن أسرته، فقد تحدث عن والده الشيخ أحمد أبو حلاوة، وكان من كبار علماء الأزهر.

وكان هذا المعهد العريق في هذا الوقت هو الجامعة التي تزود مصر والعالم الإسلامي برجال الفكر والثقافة.

ومعنى أن يتحدث علي باشا مبارك في خططه عن الشيخ أحمد أبي حلاوة والد المرصفي، أنه كان من أعيان الفكر والثقافة، وكان مرموقًا بارزًا في الحياة الاجتماعية. ثم استطرد بعد الحديث عن والد المرصفي إلى الحديث عنه قائلًا: «وقد ترك ابنه العلامة الشيخ حسينا من أجلاء العلماء وأفضلهم، له اليد الطولى في كل فن، وقل أن يسمع شيئًا إلا ويحفظه، مع رقة المزاج وحدة الذهن، وشدة الحذق. اجتهد في التحصيل وحفظ المتون، حتى متن جمع الجوامع وتلخيص المفتاح. وتصدر للتدريس، وقرأ بالأزهر كبار الكتب، كمغني اللبيب في النحو لابن هشام. وله تآليف مفيدة أجاد فيها وأفاد، منها؛ كتاب «الوسيلة الأدبية في علوم العربية»، جمع فيها نحو اثني عشر فنًا .. وتكلم باللسان الفرنساوي، وقرأ الخط العربي والفرنساوي في أقرب زمن مع انكفاف بصره، وهو حروف اصطلح عليها اصطلاحًا جديدًا تدرك بالحس باليد. وقد أنشأ الخديوي إسماعيل من ضمن ما أنشأ من المدارس مدرسة للعميان، يتعلمون فيها هذا الخط مع فنون أخر.

وكان الشيخ حسين معلم العربية في دار العلوم، وبالمدارس الكبرى وبمدرسة العميان».

ولا شك أن هذه المعلومات التي ذكرها علي مبارك تمثل أهم الحقائق، التي يحتاج الباحث إليها من سيرته ومصادر ثقافته ودراساته، ويمكن أن نضيف إليها بعض التفصيلات الأخرى نستقيها من الرسالة

الجيدة التي ألفها عنه المرحوم محمد عبد الجواد، وبعض المصادر الأخرى التي تناولته.

وسيبقى تاريخ مولده غامضًا مجهولًا. وقد ولد كما نرجح في مطلع العقد الأول من القرن التاسع عشر. نحو عام ١٨١٥م، وانتقل إلى رحاب الله يوم الأحد ٥ من جمادي الثانية عام (١٣٠٧هـ - ٢٦ يناير ١٨٩٠م).

أما ثقافته فكانت كما ذكر علي مبارك هي الثقافة الأزهرية. حفظ القرآن والمتون والتحق بالأزهر. وكان والده من كبار العلماء، فكان من الطبيعي أن يلقى من العناية والرعاية ما يدفعه دفعًا إلى التفوق والنبوغ. وكانت قدراته الذاتية ومواهبه الشخصية، إلى جانب الظروف المواتية سببًا في تحصيله لكثير من المعارف وتطلعه إلى البيئة الأزهرية؛ وتعلم لغات أخرى غير العربية، فتعلم اللغة الفرنسية بطريقة الحروف البارزة المعروفة بطريقة (برايل Brille).

ويروون عن سبب تعلمه الفرنسية قصصًا لا نميل إلى ترجيح شيء منها، فهذا الشيخ الطلعة المتفتح للعلم كان لا ينقصه الطموح ولا الموهبة، وكانت البيئة المحيطة به تدفعه دفعًا إلى ذلك، فقد كان زوج شقيقته «زين المرصفي» يعرف اللغة الإنجليزية والفرنسية والتركية، فلا عجب أن يتعلم الفرنسية في أقرب وقت، وقد ترجم عن الفرنسية بعض حكايات " لافونتين ".

وقد نقل الأستاذ محمد عبد الجواد في كتابه عن المرصفي بعض النصوص الفرنسية وترجمة المرصفي لها، وهي تؤكد قدرته على الترجمة وممارسته لها.

وقد مارس التدريس بالأزهر ومدرسة العميان.

وعندما أنشأ علي باشا مبارك مدرسة دار العلوم في أغسطس ١٨٧٢ ألحق بالمدرسة ٣٢ طالبًا من طلاب الأزهر، وكانت هيئة التدريس مكونة من خمسة مدرسين، منهم ثلاثة من علماء الأزهر، هم: الشيخ حسين المرصفي (مدرس عام) الشيخ أحمد شرف الدين المرصفي (مدرس تفسير) والشيخ عبد الرحمن الجيزاوي (مدرس فقه). وقد استمر يدرس في دار العلوم ثمانية عشر عامًا حتى انتقل إلى جوار الله.

ويحدثنا الأستاذ محمد عبد الجواد أن المراد بالعلوم الأدبية التي كان يدرسها الشيخ حسين المرصفي من كتابه الوسيلة الأدبية، ومن كتاب آخر في الإنشاء، هي؛ النحو، والصرف، والإملاء، وحروف المعاني، والعروض، والقوافي، والإنشاء، وعلوم البلاغة، وأدبيات اللغة والمنطق.

هذه هي أهم معالم سيرة حياته وشخصيته، والتي لا أعتقد أن الباحث يحتاج إلى غيرها، ليقف على أفكاره ومؤلفاته.

-٣-

مؤلفاته ومنهجه في التأليف:

من أهم المؤلفات المعروفة للمرصفي ثلاثة كتب هي:

١- الوسيلة الأدبية في مجلدين.

٢- دليل المسترشد في فن الإنشاء في ثلاثة مجلدات (ولا يزال مخطوط).

٣- رسالة الكلم الثمان، وهو كتيب صغير في نحو ٦٦ صفحة.

ودليل المسترشد مجلدات ثلاثة تتناول مجموعة من المعارف والعلوم، فإلى جانب حديثه عن الفكر وتقوية العقل واللغة، يتكلم عن الإنسان وجسمه وتركيبه ووظائفه، ويستطرد إلى الحديث عن فن الخطابة.

وفي المجلد الثاني يتحدث عن «الأغراض التي يحاول المنشئ حسن الصنعة في صياغة العبارة عنها، وإتقان الكتابة فيها باختيار العبارات الموافقة لأنواعها واللائقة بجزئياتها».

وافرد المجلد الثالث من دليل المسترشد للحديث عن طبقات الكُتاب.

وقد لاحظ الأستاذ محمد عبد الجواد أن المرصفي تناول في كتاب «دليل المسترشد» بعض موضوعات الوسيلة الأدبية بشيء من التفصيل أو الاختصار، كما في موضوع العقل، وأصناف للعقول، فقد ورد ذكره في المقصد الأول من الوسيلة (ص١١ – ١٩ – ج١) وجاء في المجلد الأول من الدليل في ص (٢٨-٣٤)، وكما في طبقات الشعراء والكتاب ونماذج من شعرهم وكتابتهم، ولعل هذا هو السبب في عدم الاهتمام بطبع الكتاب.

وكتاب «رسالة الكلم الثمان» كتاب يشبه الكتابة في العلوم السياسية. وقد وجهها للجيل الجديد، وتم طبعها في أكتوبر ١٨٨١، وكانت البلاد تغلي بالثورة وتموج بتيارات الإصلاح، وما لبثت أن اندلعت بعد ذلك الثورة العرابية.

هذا هو الإطار العام الذي يمكن أن نفهم على ضوئه هذه الرسالة، التي يتحدث فيها عن؛ «الأمة» و «الوطن» و «الحكومة» و «العدل» و «الظلم» و «السياسة» و «الحرية» و «التربية».

وأتمنى أن يدرس طالب من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية هذه الرسالة، ليقف على هذا الجانب الرائد من مجالات الشيخ حسين المرصفي.

أما كتاب الوسيلة الأدبية فهو أهم كتب الرائد العظيم وأشهرها، وسنحاول أن نفرده بدراسة متأنية بعض الشيء؛ حتى نقف على جوانبه المتعددة، ونتعرف على عناصره الأساسية، والموضوعات التي تناولها.

دراسة تحليلية

والوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، هي أهم كتب العلامة حسين المرصفي.

وقد أخذت شهرتها والاهتمام بها، من التأثير البالغ العمق الذي أحدثته في الحياة الأدبية.

وقد صدرت في مجلدين اثنين:

المجلد الأول: وهو صغير الحجم في مائتين وخمس عشرة صفحة، أي نحو ربع المجلد الثاني. وصدر عن مطبعة المدارس الملكية (١٢٨٩هـ - ١٨٧٢م) كما هو مكتوب على الصفحة الأولى بعد الغلاف، أي صفحة الغلاف الداخلي. ولكننا نلاحظ أن المشرف على طبعه قرر في نهاية الكتاب في صفحة (٢١٥) أن الكتاب قد تم طبعه في مطبعة المعارف الملكية في سنة (١٢٩٢هـ - ١٨٧٥م). أي أن طبع هذا الجزء الصغير قد استغرق نحو ثلاث سنوات.

أما المجلد الثاني، فهو الأهم والأكبر حجمًا والأعظم قيمة، ويبلغ حجمه ٧٠٣ صفحات.

وقد استغرق طبعه هو الآخر نحو أربعة أعوام، فقد كتب على غلافه الأول أنه طبع بمطبعة المدارس الملكية سنة (١٢٩٢هـ - ١٨٧٥م) وفي ختام صفحة ٧٠٣ وهي آخر صفحة في الكتاب كتب المشرف على

الطبع، وأنه قد تم طبعه بمطبعة وادي النيل بباب الشعرية في عام (١٢٩٦هـ - ١٨٧٩م).

وهذه ظاهرة تسترعى التأمل. إذ كيف يستمر طبع مجلد صغير في مائتين وخمس عشرة صفحة، هذه الأعوام الثلاثة؟

وإذا ساغ أن يبقى المجلد الثاني – وهو أكثر من سبعمائة صفحة – طوال هذه المدة، فإن اللافت للنظر أنه طبع في مطبعتين مختلفتين، كما يظهر من الاختلاف بين اسم المطبعة على صفحة الغلاف والصفحة الأخيرة، فقد كتب على الصفحة الأولى أنه طبع بمطبع المدارس الملكية بدرب الجماميز، بينما كتب على الصفحة الأخيرة من هذا المجلد أنه طبع بمطبع وادي النيل بباب الشعرية كما قلنا.

على أية حال هذه مسألة شكلية لا تتصل بموضوع الكتاب ولا بقيمته العلمية.

أما الموضوع نفسه فيجب أن نتوقف عنده في ريث وأناة؛ لنعرف كيف تمكن هذا الشيخ الأزهري المكفوف في القرن التاسع عشر، أن يقدم هذا الإنجاز الكبير، في مجال النقد والدراسة الأدبية، وأن يقود من خلاله حركة البعث الأدبي، كما بينت ذلك في كتاب «تطور النقد العربي الحديث في مصر».

ولا أريد أن أعود إلى ما جاء في هذا الكتاب حول الوسيلة الأدبية والمرصفي. فالكتاب والرجل لا يزالان في حاجة إلى درس وفحص، وارتياد جوانب جديدة تتصل بهما.

على أية حال نبدأ مع المجلد الأول من الوسيلة.

* * *

المجلد الأول

ولابد من الإشارة إلى أن الأصل في كتاب الوسيلة الأدبية. هي المحاضرات التي كان يلقيها المرصفي على طلبته في دار العلوم، وهي نفسها الفصول التي نشرت في روضة المدارس. وتلك الطبيعة الخاصة للكتاب هي التي أملت على المرصفي أن يجعل المجلد الأول بمثابة تمهيد للأفكار التي يريد أن يتحدث عنها، أو كالمدخل للفنون الأدبية التي تناولها بعد ذلك في المجلد الثاني. ولذلك اهتم بالقواعد وتعريفات العلوم، واهتم بالحديث عن بعض المسائل النظرية التي تتصل بالأدب، ولا تدخل في مباحثه، واهتم أيضا بالتأصيل النظري للمعارف الإنسانية.

ففي بداية المجلد الأول يحدثنا حديثًا نظريًا عن العلم، وكيف أنه «صفة واحدة لها تعلقات كثيرة، كل جملة منها متناسبة بوحدة موضوع وغاية ورسم. ومن هنا تعددت العلوم المدونة، وميزت بالأسماء، وهي قسمان: عقلية، براهينها من جهة العقل. ونقلية: دلائلها من جهة النقل. والقسم الأول نشوءه وبعض تربيته قبل الإسلام. وقسمه أصحابه إلى ثلاثة أقسام: الطبيعي والرياضي والإلهي. وجعلوا المنطق له مقدمة، إذ كان قانونًا تورد عليه البراهين مادة وصورة. والثاني نشوءه وتربيته في الإسلام، كتفسير الكتاب والسنة، والأحكام الشرعية، والعلوم الملقبة بعلوم العربية وفنون الأدب».

ثم يواصل المرصفي بعد هذا التأصيل النظري (تحديد العلوم التي سيتحدث عنها ووضع تعريفات لها:

فاللغة عنده: «علم يبين صور الألفاظ وتعيينها للأشياء التي يفهمها العالم بوضعها لها.

والصرف: علم يبين صيغ الألفاظ وكونها أصولًا وزوائد متبادلة الحروف، وكيفية النطق بها.

والاشتقاق: علم يبين جعل الألفاظ أصولًا، وتفريع بعضٍ آخر عنها.

والنحو: علم يبين أحوال أواخر الكلمات عند تركيبها، وتقديم بعض الكلمات عنده على بعض، جوازًا ووجوبًا. وحذف بعض وذكر بعض وجوبًا وجوازًا.

والمعاني: علم يبين الأغراض المترتبة على إيراد التراكيب في صورٍ مختلفة، وأن لكل صورة غرضًا.

والبيان: علم يبين المجاز والكناية.

والبديع: علم يبين أحوالًا تعرض للفظ فتكسوه حسنًا ورونقة.

والعروض: علم يبين الأوزان التي وزنت بها العرب شعرها كيفية وكمية.

والقوافي: علم يبين أحوالًا تعرض لأواخر الأبيات. منها ما يكون لازمًا، ومنها ما يكون زينة، ومنها ما يكون عيبًا.

والإنشاء: علم يبين كيفية تأليف الخطب ورسائل المخاطبات، وما أشبه ذلك، ويسمى فن الكتابة والنثر. وصاحبه الكاتب والناثر.

والنظم: ويقال له القريض، وقرض الشعر: هو علم يبين كيفية النظم في الأغراض المختلفة من حكم ووعظ ونسيب ومدح وعتب وتعطف وتأديب وغير ذلك.

والكتابة: ويقال لها فن الرسم والخط. وهو علم يبين رسم الحروف على هيئات مخصوصة حسب ما عليه الاصطلاح.

والتاريخ: علم يبين أسماء مشاهير الناس وأزمنتهم وأمكنتهم وأعمارهم وأعمالهم».

ولعل للتاريخ الإسلامي خصوصية أوجبت عدة من العلوم العربية. ولذلك أبدله بعضهم بالمحاضرات، وهي النوادر في الفنون المختلفة التي يحاضر بها بعض الناس بعضًا في مسامراتهم.

وقد نقلت هذه التعريفات وتلك المصطلحات بنص عبارة المرصفي؛ لنتعرف على منهجه في تحديد العلوم ووضع تعريفاتها وضوابطها بهذا الوضوح، بعيدًا عن التعقيدات والاستطرادات، التي كانت شائعة في التأليف، في تلك الحقبة من الزمان.

وقد اهتم أيضًا في بداية المجلد الأول بتحديد معنى كلمة الأدب. فهي تعني عنده: أدب القول وأدب النفس. فكتب تمهيدًا أكد فيه «أن الأدب معرفة الأحوال التي يكون الإنسان المتخلق بها محبوبًا عند أولي الألباب، الذين هم أمناء الله على أهل أرضه، من القول في موضعه المناسب له، فإن لكل قول موضعًا يخصه بحيث يكون وضع غيره فيه خروجًا عن الأدب».

وواضح أن المرصفي يقصد بظاهر هذا القول تعريف الأخلاق، وأدب النفس، وإن كان من الممكن أن ينطبق هذا القول أيضًا على التجربة الأدبية بمعناها الاصطلاحي الخاص، فهذا المعيار الذي وضعه للأخلاق يمكن أن يشمل الأدب.

على أن المرصفي لم يترك هذا الأمر للاجتهاد الخاص، فذكر بعض التفصيلات حول هذا المعيار، وذكر من بين هذه التفصيلات الشعر وبين أثره في النفوس، وقدرته على التأثير البالغ إذا وضع الكلام في موضعه المناسب. وروي أنه «صناعة من الصناعات يجود بدقة معناه، وملاحة لفظه، وإحكام بنائه، ويَرْدَأُ بخلاف ذلك لكنه متغير الأمر والحال بتغيير العوائد تغييرًا عظيمًا».

على أن أهم ما بدأ به المرصفي المجلد الأول في مجال المعارف النظرية العامة حديثه عن العقل فأفرد له «المقصد الأول» بعنوان «في العقل وبيان أصناف المعقول» وفي هذا القسم تناول جوانب هامة من المنطق والفلسفة.

والمقصد الثاني: جعله لتعريف اللغة وبيان الداعي لوضع علوم العربية. وفي هذا المقصد حديث رائد عن فقه اللغة، وفلسفة الوضع اللغوي. وتحدث في هذا المقصد عن حروف المعاني والاختصاص والاشتراك، والحقيقة والمجاز، والترادف والتباين، والمطلق والمقيد.

يبقى أن نشير إلى المرصفي تناول في المجلد الأول من الوسيلة، علومًا محددة تتصل اتصالًا مباشرًا باللغة ونظرية الأدب.

فتحدث بالتفصيل عن علم الصرف بتقسيماته وتفريعاته واشتقاقاته وأبوابه.

وتحدث عن علم النحو.

وأنهى المجلد الأول بخاتمة تحدث فيها عن أحسن الطرق لتحصيل علوم العربية، واختلافه بحسب العصور. وفي هذه الخاتمة تتجلى ثقافة المرصفي الغزيرة، ومواهبه وتفتحه على الجديد وإحساسه بأن الحياة دائمة التجدد في كل شيء.

ويحدثنا أن الناس إذا اقتصروا «على معرفة القواعد دون استعمال، ونظروا إلى الآلات نظر المقاصد، واقفين عند ذلك الحد، فصارت علومهم بمنزلة حبوب تخزن في أماكن صالحة لذلك أو غير صالحة حتى تصير ترابًا، وينقلب بعضها حشرات، وهوام بشعة. هؤلاء الناس يستحقون عند المرصفي «اللوم والتعنيف والمقت من الله»».

وهو من أجل ذلك يرى أننا بحاجة إلى تطوير علومنا ومناهجنا وتجديدها؛ لنواكب تطور العصور وتغير الأحوال. ويقدر أن الطريقة

المثلى في مجال الأدب واللغة «أن يبتدئ الطالب بتحصيل الفنون، صافية نقية من الشبهات والاعتراضات، وإيراد العبارات المنقوضة تحفظًا لها، وعملًا بها، فيما يرد عليه أثناء ذلك من الكتب التي يتعلم بها، والأشعار المضمنة فيها. فإذا أتقن ذلك، واعتاد لسانه أن ينطق بالكلم «العربية» كما كانت العرب تنطق بها، انتقل إلى معرفة الفنون البلاغية، التي يستفيد بها دقائق المعاني الإشارية الملحوظة وراء المعاني الأصلية؛ ليبلغ بذلك درجة إتقان الإنشاء، حسب اقتضاء الأحوال، فارقًا بين كل مقام وغيره، فخطبةُ المنبر غير خطبة عقد الصلح، وهما غير خطبة رفع المهادنة، ونبذ العهد. وهي غير خطبة الأملاك. والعبارات عن صيغ العقود والشهادات والمشارطات، غير عبارات التعزيات. والتهنئات والبشارات وهكذا. وطريق الوصول إلى ذلك، معرفة الفنون البلاغية، وكثرة القراءة في منشآت المتقدمين على اختلاف أنواعها بتعقل لسياقاتها ومسالكها ومباديها وأوساطها وغاياتها، مع الصبر على ذلك والتأني في تعقله، كما قيل».

ونحن نلاحظ أن المرصفي قد طبق هذه الفكرة على نفسه خير تطبيق.

فلا شك أنه قد قرأ كل ما يتصل بموضوعه الذي ألف فيه «الوسيلة الأدبية». ثم قدم في المجلد الأول هذه الوجبة الواضحة، التي اعتبرها بمثابة المدخل النظري والعلمي إلى موضوعه الأساسي، وهو الدرس الأدبي.

وبهذا الاعتبار يمكن أن نعلل صغر حجم هذا المجلد، فقد اقتصر على نشر المقدمات العلمية الواضحة، التي رآها لازمة لقارئه الذي وجه إليه المجلد الثاني من الوسيلة الأدبية.

المجلد الثاني

فإذا انتقلنا إلى المجلد الثاني وجدنا صورة مشرقة للجهد العلمي المتأني الصابر، والتذوق الجمالي النافذ، وانتهاج منهج يتلاءم مع التأليف في علوم البلاغة والأدب والنقد الأدبي.

ومع أن المرصفي قد تحدث في هذا المجلد الكبير - الذي تجاوز السبعمائة صفحة - عن علوم البلاغة الثلاثة: «المعاني والبيان والبديع، ونثر بين صفحاته المتعددة نظرات ذكية عميقة في النقد الأدبي، بنوعيه النظري والتطبيقي، فإنه حول هذا المجلد إلى سياحة عميقة هدفها مواجهة النص الأدبي وتذوقه.

وبذلك أسهم في تغيير الذوق والحساسية الفنية وكون مدرسة أدبية كان لها الفضل في بعث النقد العربي الحديث. بل لقد ألهم الرواد في مجال الإبداع الفني، فلا شك أنه من مفجري طاقة البارودي الشعرية، ومن الذين سددوا طريقه، والبارودي كما نعرف رائد البعث الشعري».

ومواجهة النص الأدبي وقراءته وتذوقه وبيان ما فيه، مشكلة من أعقد المشكلات التي تواجه الآن نقدنا العربي الحديث. وبذلك يكون المرصفي من رواد النقد الجمالي.

ولهذا يجب أن نتريث ونحن نعيد قراءة هذا المجلد الثاني من الوسيلة الأدبية؛ لنحدد بصورة دقيقة، جهود المرصفي العلمية والأدبية، فلا شك أن هذا الكتاب ثمرة من ثمار تحصيله العلمي الموصول، وحصيلة ممتازة لتذوقه الأدبي والجمالي.

بدأ هذا المجلد بما سماه «المقصد الثالث في فنون البلاغة».

تحدث فيه أولا عن «فن البيان»؛ وفي هذا الفن تناول المجاز والاستعارة والكناية. أما حديثه عن «علم المعاني» فقد تناول الجملة وأجزاءها: الجملة الشرطية – الذكر – الحذف – التقديم – التعريف – التنكير – التقييد – القصر، الجمل الإنشائية، كما تناول مواضع فصل الجمل، وتحدث عن الإيجاز والإطناب والمساواة.

ثم تحدث بعد ذلك عن «فن البديع» وقد أفرد لهذا الباب صفحات كثيرة (٥١-١٦٨) تناول فيها ألوانًا طائلة من البديع مثل حسن الابتداء والجناس بأنواعه المختلفة. والاستطراد والمقابلة والاستخدام، والافتنان واللف والنشر، والاستدراك والتوشيح، والتذييل والتورية والإيغال والتطريز والإبداع والتجريد والترصيع، والتمكين والاحتراس، وغيرها من أصناف البديع الكثيرة.

ثم تحدث بعد ذلك عن «فن العروض والقافية» ففصل الكلام عن موسيقى الشعر العربي وبحوره، والقافية والتجديد في هذا الفن.

بعد هذا الباب تناول بالحديث ما سماه «المقصد الرابع في الكتابة» وهو حديث مستفيض عن الإملاء.

ثم بدأ من صفحة (٢٠١) يتحدث عما سماه «كتابة الإنشاء، أو صناعة الترسل» وقسم هذا الباب إلى أنواع، سمي كل نوع منها «جهة».

الجهة الأولى: «فيما يجب تحصيله على من يريد أن يكون كاتبًا».

وتحدث في هذه الجهة عن صناعة الشعر، وأفاض في نقل قصائد لمشاهير الشعراء. ونقل كثيرًا من الأمثال العربية وتناولها بالدرس والتحليل. وفي هذه الجهة تحدث عن الشعراء وقسمهم إلى ثلاث طبقات.

وفي الجهة الثانية: جعل لها هذا العنوان «في أمور كلية» تحدث فيها عن حسن الافتتاح ومواقع الألفاظ الدائرة في الكتب إلى غير ذلك من الحديث النظري العام.

وفي الجهة الثالثة: التي سماها «في أمثلة تعين على تربية الذهن». حشد مجموعة كبيرة من النصوص النثرية وتناولها بالتحليل والعرض.

وفي هذه الفصول التي سماه المرصفي «جهات» برزت موهبته الفنية وقدرته على تذوق النصوص الأدبية وتفسيرها، وإلقاء الأضواء عليها، وتحليل قيمها الفنية والجمالية.

كما تجلت مقدرته الذهنية واستيعابه، وطريقته البارعة في التناول والعرض.

وقد استرعى انتباهي وأنا أقرأ كتاب «الوسيلة الأدبية» ذلك الأسلوب العلمي، الذي كان يستخدمه المرصفي في كل أجزاء الكتاب، وقدرته على الفحص والتحقيق والتدقيق والتأمل العميق، وبذلك سهل علينا أن نميز بين آرائه وبين آراء من يستشهد بأشعارهم وأقوالهم.

ثم كان حريصًا على نسبة النقول التي ينقلها في كتابه إلى أصحابها، وهذه مسألة علمية لم تكن معروفة في دنيا التأليف حينذاك.

وفي مطلع كل باب من الأبواب التي يتحدث عنها، كان يستحضر في ذهنه تاريخ العلم الذي يتناوله، وتطوره وأهم أعلامه.

كما كان يبدأ ببضعة سطور تكون بمثابة التأريخ للفن الذي يدور حوله الحديث.

ففي بداية حديثه عن المقصد الثالث «في فنون البلاغة» تناول في إيجاز وقصد نشأة البلاغة وتطورها فقال: وأول من تنبه لاستخراج هذه الفنون، واتخاذها معيار لصناعة الكلام حسب ما تقتضيه، الشاعران الشهيران: مسلم بن الوليد، وأبو تمام حبيب بن أوس الطائي، ولكن لم يدوناها، وإنما كان يتحدثان بها ويسميانها «البديع». ثم أخذ يتابع تطور هذا العلم حتى وصل إلى عبد القاهر.

وقد تنبه في تلك المقدمة التاريخية إلى دور المتكلمين وفلاسفة الإسلام في تغيير الحساسية الجمالية، وتطوير البيان العربي والبلاغة العربية فقال: «ولما اتسعت دائرة القول في العلوم الفلسفية بين المسلمين، حتى أفضى بهم التكلم في تخليص العقائد الإسلامية، وإزاحة الشبه عنها، إلى كشف حقيقة النبوة، وبيان جهة إعجاز القرآن، رأى الناس نفع هذه الفنون في معرفة إعجاز القرآن الذي هو برهان الدين الحق، فصار من العلوم الدينية وأكثروا فيها من التأليف، وأولهم الشيخ عبد القاهر.»

وبذلك تنبه إلى الفكرة التي ندعو إليها الآن ونتابع الكتابة فيها، وهي أن القرآن هو الذي غير الحساسية الجمالية والذوق العربي، وطور أسلوب التناول الفني والعلمي.

تنبه إلى ذلك ولكن بطريقة أخرى. وعلى أية حال ففي الوسيلة الأدبية مجموعة من الآراء والأفكار الرائدة التي كان لها أعمق الآثار، وبها قضايا ربما كانت تثار لأول مرة في العصر الحديث ومن أمثال هذه القضايا.

* الحديث عن اللهجات العامية بطريقة موضوعية.

* ودراسة علوم جديدة مثل فقه اللغة.

* ومناقشة نصوص لشعراء وكتاب معاصرين، بطريقة تحليل النصوص وتذوقها.

* وتحليل الأدب بصورة تقرب من التحليل النفسي.

* ولاشك أنه أول من أرسى قواعد المنهج التاريخي في الدرس الأدبي، ومن خلال هذا المنهج قسم الشعراء إلى ثلاث طبقات:

١- طبقة الجاهليين والإسلاميين من المهلهل إلى بشار بن برد.

٢- طبقة المحدثين الذين كانوا يحرصون على موافقة العرب، ويجتهدون في سلوك طرائقهم، من أبي نواس، إلى قبيل القاضي الفاضل.

٣- طبقة الشعراء الذين غلب عليهم استعمال النكات والإفراط في مراعاة البديع، وهم من القاضي الفاضل إلى اليوم.

وتتبع المرصفي خصائص كل طبقة من هذه الطبقات. وبذلك فتح المجال واسعًا أمام الذين جاءوا من بعده من تلاميذه وغيرهم، في دراسة الأدب من خلال المنهج التاريخي، فساروا على نهجه أو استلهموا نظراته

وأفكاره في الدرس الأدبي وتجاوزوها. وبذلك جاشت الحياة الأدبية بحركة البعث النقدي منذ أواخر القرن التاسع عشر.

بهذه المزايا وغيرها استطاع المرصفي أن يؤثر تأثيرًا عميقًا في الحياة الفكرية والأدبية، وأن يقدم التلاميذ الذين حملوا رسالته وطوروها وقدموها للناس.

* * *

خاتمة
المرصفي وتلاميذه

ولابد أن نتساءل في خاتمة هذه الدراسة عن المرصفي والوسيلة الأدبية: كيف تسنى لهذا الشيخ المكفوف البصر أن يكون على هذا المستوى العلمي والحضاري؟ وكيف واصل تثقيف نفسه من خلال القراءة بالحروف البارزة؟ وكيف هضم كل هذه المعارف العربية، ووقف على بعض الاتجاهات الأوروبية من خلال ما كان يترجم أو يعرفه من أصحاب البصر بتلك الاتجاهات، الذين كان يزاملهم في المعاهد التي كان يعمل بها؟

الحق أنها ظاهرة من أهم الظواهر الثقافية، التي أثرت في حياتنا منذ أواخر القرن التاسع عشر. ولا أدري لماذا تجاهلنا هذه الظاهرة طوال هذه الأعوام الطوال. وكان يمكن أن نحولها إلى معجزة حضارية، يتحدث عنها الناس في كل مكان، كما فعلنا مع الدكتور طه حسين يرحمه الله.

ولا أدري كيف تجاهله تلاميذه الذين تخرجوا على يديه بالفعل، وألهمهم ولم يعيدوا طبع كتبه المطبوعة، أو يطبعوا كتبه التي لا تزال حتى اليوم مخطوطة.

مع أن بعض هؤلاء التلاميذ تولي مناصب قيادية في مجالات الثقافة والتعليم، وكان يمكنه بسهولة نشر هذه الأعمال كاملة في طبعات محققة جميلة.

والذين قرءوا «الوسيلة الأدبية» ثم أتيح لهم أن يطلعوا على الكتب التي ألفت في النحو والصرف والبلاغة والأدب، وقررت على تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية، طوال خمسين عامًا أو أكثر، يدركون بسهولة أثر «الوسيلة الأدبية» في هذه الكتب منهجًا ومادة.

ويمكن أن نتوقف على وجه التحديد عند أسماء بعينها، تأثرت بالمرصفي وحذت حذوه في التأليف، واستلهمت الوسيلة الأدبية من أمثال:

(محمد دياب) و(محمد صالح) و(حفني ناصف) و(مصطفى طموم) و(محمود عمر) و(سلطان محمد) و(أحمد الحملاوي) وغيرهم.

ولهذا نعتقد أننا نقوم بواجب تأخر القيام به، عندما نقدم هذه الطبعة الجديدة من الوسيلة الأدبية.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الدكتور عبد العزيز الدسوقي

الوسيلة الأدبية
فاتحة (١)

باسمك اللهم نستفتح باب الرشاد، سائليكَ أنْ تصل بنا إلى غاية السداد، راغبين إليك في أقرب هداية، آملين تمام العصمة من مهاوي الغواية، رافعين لفضلكَ أكف الضراعة، خافضين لجلال عزك أرؤس الطاعة. ناصبين لأمرك قوائم الامتثال، جازمين بحسن الحال وأحسنية المآل.

وندعوك ربنا مبتهلين، ونحن من الإجابة على يقين أن تُديم لنا روح أرواحنا، وحافظ أشباحنا، ومحكم أسباب ارتياحنا، مَنْ صرفته فينا فحسُنت سيرته، وطابت بشهادة الحال سريرته.

عزيز مصر أدام الله دولته ويكرم الله عبدًا قال آمينا

فغير خاف على ذوي الأسماع والأبصار، ما قد اخترع لطيف فكره؛ وأبدى سديد رأيه من جلائل ثوابت الآثار، وإذا أطنب لسان الحال، فأحسن بأن يوجز لسان المقال.

أدِمهُ يا رب مُتمما مقاصده، واصلًا على همته بأكمل مساعدة، مفرحًا قلبه الرحيم في كل حال، بترقية أنجاله الكرام، ورعيته إلى أوج الكمال، ناظرًا بعين العناية لمن أحسن خدمته، وأعمل في تحصيل أغراضه همته، بجاه سيد المرسلين، صلوات الله عليهم وعلى أهاليهم أجمعين.

* * *

التمهيد النظري ..

* تعريف الأدب

* العقل وبيان أصناف المعقول

* تعريف اللغة

* بيان الداعي لوضع علوم العربية

تمهيد

أما بعد؛ فإن الله جل ذكره، هو المخصوص بكمال الذات والصفات، وبمحض فضله شرف النوع الإنساني بملابس من صفاته، وأباحه طرفًا من سماته، فكان سبحانه بذاته حيًّا عالمًا، مريدًا قادرًا فاعلًا، وجعل هذا النوع ذا حياة وعلم وإرادة وقدرة وفعل.

وهذا معنى ما ورد من خلق آدم على صورته؛ والعلم رئيس، أريكته الحياة، ورسوله الإرادة، ومنفذ أمره القدرة، ووظيفته تمييز الحسن والأحسن من غيرهما، فالله يقول: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣]. فهذا بعث على استعمال ما به من عليهم من قوة التميز. وبين أنموذج ذلك بما يقولون في خطاب المشركين: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ [الإسراء: ٥٤].

ومن ثم كان العلم أشرف الصفات، وما أكثر ما امتن به سبحانه، ومن ذلك: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

وضرب له المثل بالحياة، ومثل الجهل بالموت فقال: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فيستعمل الإنسان سمعه وبصره، فيعقل قلبه، وتربيته بالعمل بالقدر الذي حصل منه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم». وذلك بظهور ما يكون إتقان العمل وراءه، كما أرشده إليه أيضا بقوله: «إن الله يحب من عبده إذا عمل عملًا أن يتقنه».

ثم العلم صفة واحدة لها تعلقات كثيرة، كل جملة منها متناسبة بوحدة موضوع وغاية ورسم، ومن هنا تعددت العلوم المدونة، وميزت بالأسماء، وهي قسمان:

عقلية براهينها من جهة العقل. ونقلية دلائلها من جهة النقل.

والقسم الأول: نشوءه وبعض تربيته قبل الإسلام، وقسمه أصحابه إلى ثلاثة أقسام:

الطبيعي والرياضي والإلهي، وجعلوا المنطق له مقدمة، إذ كان قانونًا تُورد عليه البراهين مادة وصورة. والثاني: نشوءه وتربيته في الإسلام؛ كتفسير الكتاب والسنة، والأحكام الشرعية، والعلوم الملقبة بعلوم العربية، وفنون الأدب وهي التي نظمها محمد النواجي بقوله:

خـذ نظـم آداب تـضوع نـشرُها يَحكـيِ شـذا المنثـور حين يـضوعُ
لغـة وصـرف واشـتقاق نحوهـا علـمُ المعـاني والبيـانُ بـديعُ
وعـروض قافيـة وإنـشا نظمهـا بكتابـة التـاريخ لـيس يـضيعُ

فاللغة: علم يبين صور الألفاظ وتعيينها للأشياء، التي يفهمها العالم بوضعها لها.

والصرف: علم يبين صيغ الألفاظ وكونها أصولًا وزوائد ومتبادلة الحروف وكيفية النطق بها.

والاشتقاق: علم يبين جعل بعض الألفاظ أُصولا وتفريع بعضٍ آخر عنها.

والنحو: علم يبين أحوال أواخر الكلمات عند تركيبها، وتقديم بعض الكلمات عنده على بعض، جوازًا ووجوبًا، وحذف بعضٍ، وذكر بعضٍ وجوبًا وجوازًا.

والمعاني: علم يبين الأغراض المترتبة على إيراد التراكيب في صور مختلفة، وأن لكل صورة غرضًا.

والبيان: علم يبين المجاز والكناية.

والبديع: علم يبين أحولًا تعرض للفظ فتكسوه حُسنًا ورونقةً.

والعروض: علم يبين الأوزان التي وزنت بها العرب شعرها، كيفية وكمية.

والقوافي: علم يبين أحوالًا تعرض لأواخر الأبيات. منها ما يكون لازمًا، ومنها ما يكون زينة، ومنها ما يكون عيبًا.

والإنشاء: علم يبين كيفية تأليف الخطب ورسائل المخاطبات، وما أشبه ذلك. ويسمى «فن الكتابة والنثر» وصاحبه الكاتب والناثر.

والنظم: ويقال له القريض، وقرض الشعر. وهو علم يبين كيفية النظم في الأغراض المختلفة، من حكم ووعظٍ ونسيبٍ ومدحٍ وعتبٍ وتعطفٍ وتأديبٍ وغير ذلك.

والكتابة: ويقال لها «فن الرسم والخط» وهو علم يبين رسم الحروف على هيئات مخصوصة حسب ما عليه الاصطلاح.

والتاريخ: علم يبين أسماء مشاهير الناس، وأزمنتهم، وأمكنتهم، وأعمارهم، وأعمالهم، ولعل للتاريخ الإسلامي خصوصية أوجبت عدة من العلوم العربية. ولذلك أبدله بعضهم بالمحاضرات، وهي النوادر في الفنون المختلفة التي يحاضر بها بعض الناس بعضًا في مسامراتهم، وموضوع ما قبل علم الخط اللفظ.

وباختلاف الجهة تنوعت العلوم. وقد اختار بعض الناس في ترتيب تحصيل العلوم العربية، ما قال بعض شعراء المغاربة:

العلم شيء حسن ... فكن له ذا طلبِ
فأبداهُ بالنحو وخذ ... من بعده في الأدبِ
وإن أردتَ بعدَ ذَا ... جاهًا وفضلَ مكسبِ
فاحفظ أَصول مالكٍ ... واعرِفْ فروعَ المذهبِ

فـــــإنَّ قـــــول مالــــــك سلــــــسلةٌ مـــــن ذَهــــبِ

ولكون المغاربة أتباع مالك بن أنس - رضي الله عنه - قال: ذلك شاعرهم واختار بعض الابتداء باللغة، واختار بعض الابتداء بتعريف أنواع الأشياء التي عينت الألفاظ بإزائها.

ولكل وجه، والأخير أحكم. وإن كان لا بد من تحصيل مقدارٍ من اللغة، يكون به التمكن من المخاطبات الأولية.

* * *

تعريف الأدب

اعلم أن الأدب معرفة الأحوال التي يكون الإنسان المتخلق بها محبوبًا عند أولي الألباب، الذين هم أُمناء الله على أهل أرضه، من القول في موضعه المناسب له، فإن لكل قول موضعًا يخصه، بحيث يكون وضع غيره فيه خروجًا عن الأدب. كما قال جَرْوَل الشاعر المشهور بالحطيئة: فإن لكل مقام مقالًا، ومن الصمت وهو السكوت المقصود في موضعه، فإن للصمت موضعًا، يكون القول فيه خلاف الأدب. يرشد إلى ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم-: «رحم الله امرءًا قال خيرًا فغنم أو سكت فسلم»،

وفي لامية الطغرائي:

ويا خبيرًا على الأسرار مُطَّلِعًا اصمِتْ ففِي الصَّمتِ منجاةٌ من

ولبعضهم:

عجبتُ لإزراء الغبيِّ بنفسهِ وصمتُ الذي قَد كان بالعِلم أحزَمَا
وللصمتُ خير للغَبي وإنّما صحيفةُ لُبِّ المرء أن يتكلَّمَا

والكلام المنبه على مواضع الأقوال، وعلى مواضع الصمت كثير.

ومن الأحوال: التي يكون التخلق بها أدبًا، وضع الأفعال في مواضعها كما قال الله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] فنبه سبحانه على أن المطلوب العفو المصلح دون المفسد.

وقال النابغة الجعدي بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

ولا خيرَ في حِلم إذا لم تكنْ لهُ بوادرُ تحمي صفوهُ أن يُكدَّرا
ولا خيرَ في جَهل إذا لم يكن لهُ لبيبٌ إذَا ما أورد الأمر أصدرَا

فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم- «لا يفضض الله فاك» وقال أبو الطيب:

إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكته وإنْ أنتَ أكرمتَ اللئيم تمرَّدا
فوضعُ النَّدَى في موضِعِ السيفِ مُضِرٌ كوضعِ السيف في موضعِ النَّدَا

والناس في الأدب متفاوتون تفاوتًا عظيمًا. فمن قرأ العلوم وطاف في البلاد، وعاشر طوائف الناس بعقل حاضر، وتنبه قائم، وضبط جيد، حتى عرف العوائد المختلفة، والأهواء المتشعبة. وميَز الحسن منها وتخلق به، يكون بالضرورة أكثر أدبًا ممن قرأ وخالد ولم يطف، وممن قرأ وطاف ولم يعاشر. وموافقة جميع الناس أمر غير ممكن. فإن الدين والعقل يمنعان من ارتكاب أمور لا يسر بعض ذوي الأهواء غيرها، وأولئك هم السفهاء، الذين لا ألباب لهم، فهم بمنزلة قُشور الأشياء التي لولا لُبها لم تصلح إلا للنار، أو ما أشبه؛ فيجب على الإنسان لأجل أن يكون محبوبًا عند الناس حاصلًا على أغراضه منهم، أن يطلب الأخلاق المحمودة عند أولي النُّهي؛ ليتحلى بها، ويتخلى عن أضدادها، وأن يعرف أنه لا سبب لفساد الأقوال والأفعال، حتى تكون مشنُوءةً مبْغُوضة، إلا وضع الشيء في غير موضعه، فلا بد له من اجتهاد عظيم في طلب مواضع الأشياء ليأمن كثيرًا من الغوائل، ومكدرات النفوس، ومن العيب الفاحش، وهو نقص القادر على التمام كما قال أبو الطيب أحمد بن الحسين المشهور بالمتنبي:

ولم أر في عيوب الناسِ شيئًا كنقصِ القادرينَ على التمامِ

أمثلة:

هذه أمثلة ترشدك إلى كيفية تعرف محاسن الأشياء ومواضعها.

المثال الأول: في التخلق ببعض الأخلاق. غير خاف أن التخلق بالكبر والخيلاء والإعجاب والتعاظم على الناس بما أفضل الله به على الإنسان من علم وجاه ومال أمر غير حسن، لما جُبلت عليه النفوس من الإباء والنفرة عن من يتعاظم عليها، فما أكثر ما بدل حسن الود والتآلف بأشنع العداوة والتنافر، لكن لذلك موضع يكون فيه حسنًا، وبيانه أن من المشاهد كون النوع الإنساني محتاجًا في حسن تعيشه، وتحصيل أغراضه إلى اجتماع ألفة ومودة، وإنصاف. بأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، وكلما كانت الفرقة المجتمعة منه أكثر وأحفظ للحقوق؛ كانت أحسن حالًا في العلم والجاه والثروة؛ فإذا خرج بعض الناس عن الجمعية، وسعى في الأرض بالفساد، وجب على الناس تأديبه بما يعيده إلى الصلاح، وربما كان التكبر والزهو عليه أنكى له، وأرجى لمثاب فكره، وانحيازه إلى حيز الاستقامة. كما ورد أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –رأى فارسًا من أصحابه يمشي بين الصفين مختالًا يميل يمينًا وشمالًا. فقال: « هذه مشية يكرهها الله تعالى إلا في هذا الموضع »؛ فقد علمنا أن للتكبر موضعًا يكون فيه حسنًا.

المثال الثاني: التكلم بصحيح اللغة، أمر حسن، واللحن غير حسن. كما يحكى أن هند ابنة أسماء بن خارجة زوج الحجاج، لحنت بين يديه يومًا، فعاب ذلك منها، وازدراه عليها فقالت: ألم تسمع قول أخي مالك.

وحديثٌ ألذُّه هُو مما ... ينعتُ الناعتُون يُوزَنُ وزنًا

منطقٌ صائِبٌ وتلحنُ أحيَانًا ... وأحْلَى الحديثِ مَا كانَ لحنًا

فقال الحجاج: وهذا خطأ ثان، فإن التحريف والخطأ عيب لا يحسنه أحد.

فهو لم يرد باللحن ما فهمت، وإنما أراد به معنى له آخر، وهو الرمز والإشارة إلى أمر لم يكن الكلام المنطوق به موضوعًا له، ألم تسمعي إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠] ومن ذلك قول الشاعر:

ولقد لحنتُ لهم لكي ما يفهمُوا والللحـنُ يفهَمـهُ أولـو الألبَـابِ

لكن لما اعتاد الناس الميل بالكلام عن وجهه العربي، وصار فهمهم مربوطًا بالمنطق الملحون، وجب التكلم معهم بما جرت به عادتهم، يدخل ذلك في عموم قوله -عليه الصلاة والسلام-: «خاطبوا الناس بما يفهمون». وقوله: « خاطبوا الناس على قدر عقولهم ».

وقد قيل: خطأ مشهور، ولا صواب مهجور. فعلمنا أن للتكلم بالعربية، موضعًا يكون فيه حسنًا، كقراءة الكتب، ومحاورة الفطناء. حيث تكون في «المباحثات العلمية»، و «مراجعات التعليم والتعلم». وموضعًا يكون فيه غير حسن. وهي «المخاطبات السائرة بين عموم الناس».

المثال الثالث: الشعر كان زائد الحُسن بدليل شهرته وكثرته، وارتياح عقلاء السلف إليه، حتى إن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يستنشد الشعراء رجالًا ونساء، فكان يستنشد الخنساء، فإذا رأى منها بعض الفتور قال: هيه يا خُناس. طلبًا للمزيد يبعث من نشاطها، وأثاب على الشعر مِرارًا، وسنَّ الإجازة.

وقال: « إن من الشعر لحكمة » وقال: « أُنزلت الحكمة على ثلاثة أعضاء من بني آدم. على قلوب اليونان، وعلى أيدي أهل الصين، وعلى ألسنة العرب » وكان الملوك ونبهاء الناس، جاهلية وإسلامًا، مقبلين عليه غاية الإقبال، حتى قيل: إن الشعر يرفع قوما، ويضع آخرين. من ذلك ما ورد أن الحطيئة سافر مرة في طلب كريم يأوي إليه؛ فلقيه الزبرقان بن بدر في الطريق، وهو متوجه بصدقة قومه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فعرفه وهو لم يعرفه، فقال: إلى أين يا أبا مُليكة؟ وهي كنية الحطيئة. فقال: أطلب كريمًا. فقال: قد وجدت وعرفه بنفسه، واعتذر له عن الرجوع معه، وأرسله إلى دياره، وأوصى به. فلما وصل أكرمه أهل الزبرقان، وبنوا عليه بيتًا، واهتموا بأمره. وكان في ذلك الموضع قوم قد أسقطهم جدهم. يقال لهم: (بنو أنف الناقة) فعلموا حيلة لصرف الحطيئة إليهم، ونزلوه عليهم فجاءوا زوجة الزبرقان سرًا، وقالوا لها: إن زوجك أراد أن يتزوج ابنة هذا الشاعر. فتحيلي في إقصائه عنك. فأخذت في ذلك فجاءت الحطيئة يومًا، وأخبرته أنها تريد الانتجاع إلى مكان بعيد، وأن جمال الحمل التي عندها لا تكفي لحمل متاعها أو متاعه. فقالت: تحمل أنت، ثم أرسل الظهر ليلحقك، فقال: أنتم أحق بالسبق وانتظركم. فتحملت وتركته بين الأرض والسماء، وانتظرها، وفات الموعد ولم يجئه منها خبر؛ فاجتمع إليه أولئك القوم، وأخذوه وأكرموه وجمعوا له مالًا عظيمًا، وطلبوا منه أن يهجو (الزبرقان). فقال: كيف أهجو رجلًا لم يجن عليَّ؟ ولعله إذا اطلع على ما صنعت زوجته لم يرضه؛ ثم أنه حضر وعرف ما حصل فتغير، وطلب الحطيئة فامتنع ومنعه أولئك القوم، فطال الكلام، وفرط من الزبرقان فوارط فهجاه الحطيئة بقصيدة منها:

مَنْ يفعل الخير لم يَعدمْ جوازيهُ لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ

دَع المكــــارمَ لا ترحـــل لبُغيتهـــا   واقعـد فإنـك أنـت الطَّـاعمُ الكاسِـي

فوضع من قدره، وخفض من ذكره حتى رفع أمره إلى أمير المؤمنين، فاستحضره. وقال: بماذا هجاك؟ فأنشده ذلك. فقال أمير المؤمنين: لا أرى بأسًا دعاك إلى الراحة، وذكر كثرة نعم الله عليك. فقال: سل الشعراء يا أمير المؤمنين ليشهدوا لي عليه؟ فقال حسان بن ثابت الأنصاري شاعر النبي — صلى الله عليه وسلم — : هو ما هجاه، وإنما سلح عليه. وكان من أمره بعد ذلك مع أمير المؤمنين ما كان.

وأصل وضاعة بني أنف الناقة، وخمول ذكرهم ونبزهم بهذا اللقب؛ أن والد أنف الناقة كان له جملة أولاد من عدة أزواج وكان أنف الناقة واحد أمه، فنحر يومًا ناقة. وقال لأولاده: اذهبوا فاقتسموها، فتباطأ أنف الناقة، حتى لم يبق منها إلا رأسها، فذهب ليأخذه وأدخل ذراعه في أنفها واحتمله، فقيل له: أنف الناقة. وعُير بذلك، فلما قال: في مدحهم الحطيئة:

قـومٌ هـمُ الأنـفُ والأذنـابُ غَيـرُهم   ومَـنْ يُـسوى بـأنِفِ الناقـةِ الـذنبَا

علا قدرهم وارتفع ذكرهم، وصاروا يفتخرون بهذا اللقب، بعد أن كان الواحد منهم إذا سئل أن ينتسب؛ انتسب إلى بعض أجداده، ولم ينطق بهذا اللقب.

ومن ذلك أن قبيلة نمير كانت من أعز قبائل العرب، وكانت تسمى «جمرة العرب» إذ كانت أنسابهم مقصورة عليهم ليس فيهم دخيل، لا يخرجون من نسائهم، ولا يدخلون من رجال غيرهم. وإذا قيل لأحدهم

ممن الرجل؟ قال: نُميري وفخمها وملأ بها فاه. فلما قال جرير يهجو الراعي:

فغُضَّ الطرفَ إنك من نُمَير ... فلا كعْبًا بلغت ولا كِلابَا

ذل هذا الاسم واتضع، وانتسبوا بعد ذلك لحد أعلى منه، فكان الرجل يقول إذا سُئل الانتساب: عامري، إلى غير ذلك.

وبالجملة فقد كان الشعر هو الحاكم الأكبر، والمطاع الذي يتصرف الناس تحت أمره ونهيه، وبقي على ذلك حتى مضي شطر من أيام بني العباس. وإن يكن حصل له تنازل درجات في أثناء ذلك، فلقد كان بعض الشعراء يهجو الملك، يرى أنه يؤدبه حتى قال بشار بن بُرد:

بَنِي أميةَ هُبُّوا طال نومكُمُ ... إنَّ الخَليفةَ يعقوبُ بنُ داودِ

ضاعتْ خلافتكُم يا قومُ فالتمسوا ... خليفةَ الله بين النَّاي والعودِ

يريد: محمد المهدي ثالث ملوك بني العباس، فقتله ضربًا، ثم صار الشعر ليس بتلك المنزلة، بل صار كثير ما يتجدد منه لا يخف على الأسماع، ولا ترتاح إليه القلوب، ولا تميل إليه النفوس، ولا سبب لذلك، إلا وضع الشيء في غير موضعه. وبيانه أن الشعر كما سبقت الإشارة إليه، كثرت أنواعه بحسب كثرة أغراضه. وموضع تفصيل ذلك عند التكلم على قرض الشعر إن شاء الله تعالى. ولابد هنا من نبذة يسيرة لأجل تحقيق الغرض الذي نحن بصدده. فنقول: الشعر ينقسم إلى: نسيب، ومدح، وتأديب، وغير ذلك.

أما النسيب: فهو ذكر محاسن النساء خُلقًا وخَلقًا. يقال: نسب بفلانة ينسب نسيبًا أي: تغنى بذكر محاسنها.

والمدح: الإخبار عن الأشياء بالأوصاف الجميلة.

والتأديب الإخبار عن الإنسان بأشياء لا يستحسنها الناس. ولكن جودة ورداءة؛ فيحسن النسيب إذا كان جيدًا، منزها عن الإفحاش حتى يكون كما قيل: يدخل على العذراء في خدرها، فلا تستحي من إنشاده.

وكان إنشاده بحضرة فطناء الناس وظرفائهم، الذين تمت فحولتهم، وطابت طباعهم، واعتدلت أمزجتهم؛ فلقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : يستمع إليه وهو يُنشد بين يديه، والصحابة يتناشدونه في المسجد، ويشغلون به كثيرًا من أوقاتهم تروحًا واستنشاطًا واستجمامًا للأفكار والعقول. وكلما كان الرجل تام الفحولة، كان أميل إلى التقول. وهو أمر مقصود. ينبه على ذلك ما ورد أن عائشة – رضي الله عنها – كان عندها كفيلة لها، فزوجتها لبعض الأنصار، وزفتها بنفسها، وصواحب لها. فلما رجعت قال لها النبي – صلى الله عليه وسلم – : يا عائشة: « أما كان معكم لهو؟ فإن الأنصار قوم فيهم غزل، يُعجبهم اللهو ». قالت: لا. فقال: « هلا بعثتم جارية تضرب بالدفّ وتُغني؟» فقلت: يا رسول الله: ما كانت تقول؟ فقال: كانت تقول:

أتيناكمْ أتيناكم	فحيانا وحياكم
فلولا الذهب الأحمر	ما حلت بواديكم
ولولا الحنطة السمرا	ما سمنتْ عَذاريكم

ويحكى أن بعض أتقياء أهل الحجاز وعبادهم رأى بمني امرأة ذات حسن فائق، وجمال رائق، وهي ملقية على وجهها بُردا مهلهل النسج،

مُظهرًا لمحاسنها. فقال: يا هذه اختبئ ! فقالت له: أنا من اللواتي، قال فيهن عمر بن أبي ربيعة:

أماطتْ رداء الخز عن حر وجهها وألقتْ على الخدّين بُردًا مُهلهلًا

من اللاءِ لم يحجُجنَ يبغين جَنةً ولكنِ لِيقتُلنَ التقيَّ المغفَّلا

فقال: اللهم لا تعذب هذا الوجه. ومضى، فبلغ ذلك بعض الأئمة أصحاب المذاهب في وقته. فقال: تلك ظرافة أهل الحجاز، أما لو سمعها بعض متنطعة أهل العراق لشتمها وصخب عليها؛ فعلمنا من ذلك موضع حسن النسيب من غيره، وحسن المدح إذا كان مدحًا بالأوصاف القائمة، باعثًا على الازدياد وعلو الهمة من ممدوحه وممن يسمعه، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في تفضيل زهير على الشعراء: كان لا يعاظل في الكلام، ولا يمدح الرجل بغير ما هو فيه؛ فعلمنا أن مدح الرجل بغير ما هو فيه، وضع للشيء في غير موضعه، موجب لسقوط صاحبه وتفضيل غيره، كما قيل:

وإنما الشعر عقل المرء يعرضه على البرية إن كيسًا وإن حمقا

وإن أحسن بيت أنت قائله بيتٌ يقالُ إذا ما قلته صدقا

والمعاظلة في الكلام أن يدخل الشاعر أجزاء جملة في أجزاء جملة، حتى يصير معقدًا خارجًا عن الفصاحة والملاحة، لا يبين معناه إلا بعد لَأْي وشدة. كقول الفرزدق،: يمدح إبراهيم المخزومي خال هشام بن عبد الملك أحد ملوك بني أمية:

وما مِثله في الناسِ إلا مُمَلَّكا أبُو أمه حيٌّ أبُوه يُقاربه

ووجه الكلام: وما مثله حي يقاربه، إلا مملكا أبو أمه أبوه.

ومتى كان المدح شكرًا واعترافًا بالنعمة. كان داخلا في عموم قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١].

وهو المراد بقول النبي: «لا أحد أحب إليه المدح من الله». ومتى كان آلة كسب مُدخلًا لصاحبه في الملحقين المُلحين في السؤال، سيما إذا كان قادرًا ذا قوى يصرفها في منافع الناس. حتى يحصل على مطالبه باستحقاق، لم يكن أمرًا حميدًا، وهو المعنى بقوله – صلى الله عليه وسلم –: «احثوا التراب في وجوه المداحين».

ويقول بعضهم:

الكلبُ والشاعرُ في منزلٍ ... يا ليت أني لم أكن شاعرًا

أما تراهُ باسِطًا كفهُ ... يستوهب الواردَ والصادِرا

والله لولا حرقات الهَوى ... ما كنتُ إلا رجُلًا تاجرا

وأما التأديب: وهو الهجو، فإنما يحسن، إذا علم تأثيره وردعه المفسد، فهو من الغيبة التي لم ينه عنها. وإلا فهو أمر متناه في القبح؛ لأنه الغيبة المفظع أمرها في القرآن المجيد.

والقول العام في الشعر أنه وإن كان صناعة من الصناعات، يجود بدقة معناه، وملاحة لفظه، وإحكام بنائه، كما سيأتي بيانه، ويَرْدَأُ بخلاف ذلك، لكنه متغير الأمر والحال بتغيير العوائد تغييرًا عظيمًا. إذ لم يكن من حوائج الناس الأصلية، إذ كان بمنزلة الفاكهة التي لا تطيب إلا بعد الغذاء. وأول مغير له الإسلام. وقول الله عز وجل: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ ﴾

[الشعراء٢٢٤- ٢٢٦]. معناه: أن الشعراء كانوا مترسلين مع الأهواء، لا يمنعم مانع، ولا يردعهم رادع، حسبما تقتضيه وساوس الشهوات. ولهم قوة على تحسين القبيح، وتقبيح الحسن. وسفهاء الناس لهم تبع، فكان يتولد من ذلك ما يتولد من الفتن والفساد بين الناس. وقد استثنى سبحانه الشعراء الذين عقلوا الدين، فوقفوا عند حدوده، واجتنبوا الفحشاء والمنكر، حيث كانت أوقاتهم معمورة بذكر محاسن ما أرشد الله إليه. فهم لا يضعون الأشياء إلا في مواضعها. وهذا معنى كثرة ذكر الله في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٧]

فمعنى ذكروا الله كثير مفسر بقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقوله: ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ – تنبيه على موضع الهجو، ثم تغير أمر الشعر بعد ذلك تغييرًا عظيمًا، باشتغال الناس بالعلوم الكثيرة المتزادية، التي ارتبط بها مصالح الناس. حتى قال الشافعي – رضي الله عنه – :

ولولا الشعر بالعلماء يُزرى لكنتُ اليومَ أشعر من لبيدِ

وقال: لولا مجون أبي نواس لأخذت عنه العلم، وحرم قبل ذلك لبيد الشعر على نفسه، وقال: لا أقوله بعد أن حفظت البقرة وآل عمران.

وخلاصة القول في ذلك: أن مدارسة الأشعار العربية، لما فيها من الفوائد العلمية المتعلقة بأوضاع اللغة العربية، أمر لازم، لكونه معرفًا لمقاصد القرآن، وأقوال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ، فهو من الدين كما قيل:

حفـــظ اللغـــاتِ علينـــا فـــرضٌ كفـــرض الـــصلاةِ
فلـــيس يحفـــظ ديـــنٌ إلا بحفـــظِ اللغـــاتِ

وأما إنشاؤه فمع الإتقان بوضعه في مواضعه، وصرفه بحسب اللزوم، فهو حلية العلماء، وزينة الأدباء، والأعمال بالنيات، والله الهادي إلى أحسن المقاصد.

المقصد الأول في العقل وبيان أصناف المعقول

كلمة العقل لها معنيان:

المعنى الأول: جمع ساق البعير وفخذه بحبل يربط عليهما. ويسمى عقالًا، ليثبت مكانه فلا يشرد. المعنى الثاني: رؤية النفس الشيء واطلاعها عليه وضبطها له. والمراد بالنفس: الأمر الساكن في أبداننا الذي نجده يتحدث بالأشياء، ويكون تحدث اللسان تابعًا لتحدثه. تقول: عقلت الشيء عقلًا فأنت عاقل، والشيء معقول. ويستعمل الإدراك والعلم والمعرفة في هذا المعنى. وأصل الإدراك الوصول إلى غاية، ومنه: طلبت فلانًا الهارب فأدركته في مكان كذا. ومنه: أدرك الغلام. أي بلغ الحُلم. تقول: أدركت الشيء فأنت مُدرِك. والشيء مدرك. والحفظ: إثبات النفس صور الأشياء. والفهم: أن تدرك ما أريد منها. تقول: حفظت القرآن. أي عقلت ألفاظه وأثبتها إثبات النقوش على الأحجار. وفهمته: أي عقلت ما أريد بألفاظه، فالحفظ والفهم نوعان خاصان من التعقل.

وللعقل أربع مراتب

المرتبة الأولى: عقل الطفل قبل أوان التكلم، ويسمى العقل بالطبع وبالفطرة وبالقوة والهيولي.

المرتبة الثانية: عقله بعد أوان التكلم، ويسمى العقل بالفعل، وبالحال والتلقين. وفي هذه المرتبة يدرك الإنسان من صور الأشياء، ومن تأثيراتها إدراكًا به يطلب المحبوب، ويهرب من المكروه.

المرتبة الثالثة: عقل الغلام الذي حصل عنده كثير من المعقولات، وتمكن من استحضارها إذا أراد، وأخذ يستعمل شيئًا من القياس، حتى يستحصل ما لم يكن حاصلًا عنده، ويسمى العقل في هذه المرتبة العقل بالملكتين، وهما:

ملكة الاستحضار، وتسمى المذكِّرة، وهي: قوة للنفس، تتمكن بها من استحضار ما عقلت. وملكة الاستحصال: وتسمى «المفكرة» وهي قوة للنفس، تتمكن بها من استحصال ما ليس معقولًا لها بالقياس على ما هو معقول.

المرتبة الرابعة: عقله إذا مهر في الاستحصال، ودرب عليه، بالفكر والنظر الذي هو ملاحظة المعقولات الحاضرة عند المدرك، لتحصيل المجهولات الغائبة عنه، ويسمى العقل في هذه المرتبة العقل المستفاد.

وقد يراد من العقل قوة النفس التي تدرك بها الأشياء، ولذلك تسمعهم يقولون: العقل الغريزي، والعقل المطبوع، والعقل الكسبي، والعقل المسموع.

ثم الأشياء التي يتعلق بها العقل فتكون معقولة؛ أحد عشر صنفًا:

الصنف الأول: ذات ثابت ثبوتًا أزليًا، لم يسبقه عدم أبديًا، لا يلحقه عدم موصوف بصفات كذلك، يُسند العقل إليه جميع الكائنات بالسببية والمسببية، فهو السبب وغيره مسبب له، وهو الله جل ذكره.

الصنف الثاني: أعيان الكائنات وتسمى ذوات الكائنات وجواهرها، ويقابلون العين بالحال، والذات بالصفة، والجوهر بالعرض. ومعنى الحال والصفة والعرض واحد. ومعنى العين والذات والجوهر واحد. وهو: الأمر الثابت الذي تتعاقب عليه الأحوال. وينقسم الجوهر: إلى جوهر غير ممتد متحيز، أي شاغل فراغًا، والحيز: الفراغ المشغول به، ويسمى: جوهرًا فردًا وجزءًا لا يتجزأ، وإلى جوهر متحيز ممتد، ويسمى جسمًا. وينقسم الجسم إلى:

نامٍ: أي متزايد في الحجم. وإلى جامد، أي غير متزايد فيه. وينقسم النامي إلى: حساس متحرك بالإرادة. وإلى غيره، ويسمى: الحساس حيوانًا، ويسمى غيره نباتًا. وينقسم الحساس إلى: ناطق. أي: مطبوع على أن يتفكر فيما عقل ليعقل شيئًا بشيء، ويعبر عما حصل عنده من ذلك، وهو النوع المسمى: إنسانًا وبشرًا، ويسمى الإنسان: النوع، الآخر وهو مركب من أمرين: أمر مشترك بينه وبين الأنواع التي في رتبته، ويسمى هذا الأمر: جنسه القريب، ويعبر عنه بالحيوان، وأمر مختص به مميز له عن

غيره، ويسمى: فصلًا؛ فتقول الإنسان حيوان ناطق، والجمل حيوان راغ، والبقر حيوان خائر؛ فالحيوان جنس لكونه مشتركًا، والناطق والراغي والخائر فصول لكونها مختصة.

والشيء العام. الذي لا خصوص فيه وهو: الجوهر يسمى: جنسًا عاليًا، وجنس الأجناس، والأشياء التي بينه وبين الإنسان تسمى: الأجناس المتوسطة، إذا نسبتها لما تحتها، باعتبار شمولها له، وتسمى: الأنواع المتوسطة إذا نسبتها لما فوقها باعتبار كونها مشمولة له، وتسمى: فصولًا باعتبار ما فيها من الخصوص والتمييز. فالجوهر: جنس لا غير. والجسم والنامي والحساس، أجناس وأنواع وفصول بالاعتبارات الثلاثة. والإنسان وما في رتبته من الحيوان أنواع لا غير. وكيفية تعقل هذه المعاني، أنهم نظروا إلى الأشياء المحسوسة المتمايزة غاية التمايز وسموها أشخاصًا. ووجدوا أمورًا مشتركة بين جمل الأشخاص اشتراكًا متفاوتًا على الترتيب الذي سبق شرحه. فسموها بتلك الأسماء حسب اختلاف الاعتبارات. ويخبر بالنوع وسائر الأجناس عن الشخص، والشخص لا يخبر به.

والجنس العالي: لا يخبر عنه والحكماء يسمون الإخبار بالشيء عن الشيء حملًا وقولًا، ويسمون المخبر به محمولًا ومقولًا، ويسمون المخبر عنه موضوعًا ومقولًا عليه؛ فتقول زيد: إنسان، وحيوان، ونام، وجسم، وجوهر. والإنسان: حيوان، ونام، وجسم، وجوهر. والحيوان: نام، وجسم، وجوهر. والنامي: جسم وجوهر، والجسم: جوهر. وليس قبل الجوهر شيء يكون خبرا عن الجوهر. وليس بعد الشخص شيء يكون الشخص مخبرًا به. فالشخص موضوع لا غير. والجنس العالي: محمول لا غير. وما بينهما موضوع لما قبله، محمول على ما بعده. والأمر

الشامل: يسمى: عامًا، والمشمول يسمى: خاصًا والارتباط بين الشامل والمشمول يسمى: عمومًا وخصوصًا. وتفصيل العام الشامل إلى خاصية المشمولين له بضم الأمور المميزة التي سبق تسميتها بالفصول يسمى تقسما؛ وحينئذ يسمى الشامل مقسمًا ويسمى كل من المشمولين بالنسبة له قسمًا منه ويسمى كل منهما بالنسبة لصاحبه قسمًا له. والأنواع مقسمة للأجناس، والأجناس مقوِّمة للأنواع ومحصلة لها، بضم الفصول إليها، والجميع مقوم للشخص؛ فكل عال مقوم للسافل. وكل سافل مقسم للعالي.

الصنف الثالث: أحوال تسمى: كمًّا. والكم قسمان: متصل، وهو الأبعاد العارضة للجسم من الخط، وهو ما ينقسم طولًا فقط. والسطح، وهو: ما ينقسم طولًا وعرضًا. والجسم التعليمي: وهو ما ينقسم طولًا وعرضًا وعمقًا. ومعروض الجسم التعليمي! هو الجسم الطبيعي. والمراد بالطول: الامتداد المفروض أولًا. والمراد بالعرض: الامتداد المفروض ثانيًا. والمراد بالعمق: الامتداد الآخذ من السطح الأعلى ذاهبًا إلى السطح الأسفل؛ فإن اعتبر آخذًا من الأسفل إلى الأعلى سمي: سُمكا. وإن اعتبر قائمًا واصلًا بين السطحين من غير اعتبار أخذ من جهة إلى جهة يسمى: ثخنًا. وهذا القسم يسمى: المقدر. ومنفصل وهو: العدد، ويسمى المقدار متصلًا؛ لأن كل جزئين منه يشتركان في نقطة نهاية لأحدهما وبداية للآخر، وتسمى هذه النقطة: حدًّا مشتركًا، وليس للمنفصل حد مشترك.

الصنف الرابع: أحوال تسمى: كيفًا. والكيف: هو المبصرات من الألوان والأضواء والأشكال والمسموعات من الأصوات، والمشمومات

من الروائح. والمذوقات من الطعوم. والملموسات من الحرارة والبرودة والنعومة والخشونة. وجميع ما ذكر يسمى بالمحسوسات.

والوجدانيات: وهي الأحوال الباطنة. ما رسخ منها وثبت يسمى: ملكة، وغيره يسمى: حالًا والصلابة واللين لكونهما يدركان، ولو بالغمز بعود في اليد لم يعدوهما من المحسوسات وهما من الكيفيات.

الصنف الخامس: حال يسمى: أَيْنًا. وهو الحصول في المكان.

الصنف السادس: حال يسمى: متى. وهو الحصول في الزمان. والزمان أطول امتداد وجودي يتوهم تجزئته إلى الامتدادات المتفاوتة. واسم الزمان يطلق عليه. وعلى جميع الامتدادات كيفما كانت. والجزء الذي لا ينقسم من أجزاء الامتد د يسمى: آنًا. واسم الدهر واسم السرمد مختصان؛ فالدهر: الامتداد الطويل، والسرمد: الأطول.

الصنف السابع: حال يسمى: إضافة، وهو: حال لا يعقل إلا بتعقل حال آخر، كما أن الحال الآخر لا يعقل إلا به. كالأبوة لا تعقل إلا بتعقل البنوة. كما أن البنوة. لا تعقل إلا بتعقل الأبوة.

الصنف الثامن: حال يسمى: وضعًا، وهو: حال الشيء المأخوذ من نسبة أجزائه بعضها إلى بعض، وإلى الخارج عنها، كحال: القائم والقاعد والمقابل والمجانب والفوق والتحت وغير ذلك.

الصنف التاسع: حال يسمى: ملكًا وجدة ووجدًا، وهو: هيئة إحاطة طبيعية، أو غير طبيعية توجب انتقال المحيط بانتقال المحاط، كالجلود والملابس.

الصنف العاشر: حال يسمى: فعلًا، وهو التأثير أي: إيجاد الأثر، ويعبر عنه بأن فعل، وأن يفعل.

الصنف الحادي عشر: حال يسمى: انفعالًا، وهو: التأثر أي: قبول أثر المؤثر، ويعبر عنه بأن انفعل، وأن ينفعل.

وهذه الفصول التي شرحت الأصناف العشرة، الواقعة بعد الصنف الأول الذي هو وحده في مقابلة مجموع هذه الأصناف تسمى: بالمقولات العشر.

ومجموع هذه الأصناف هو المسمى: بالعالم وبالممكن في مقابلة ذات الصانع الواجب الثبوت.

ثم للمعقول حال تعقله تنوّع إلى أنواع؟ يستحق كل نوع منها لقبًا يخصه. ولنورد ذلك في مسائل:

المسألة الأولى: المعقول تارة يكون عينًا من الأعيان، وتارة يكون حالًا من الأحوال. وتارة يكون ارتباط أمر بأمر، ويسمى ذلك الارتباط نسبة. ونفسك محبة للاطلاع على الأشياء الواقعة، ونسبة أمر إلى أمر مترددة عندك بين أن تكون واقعة، وأن لا تكون، وإن كانت في نفسها على حال منهما، وحينئذ يكون تعقلك لها على ثمانية أوجه:

الوجه الأول: أن تتخيلها ضاربًا صفحًا عن كونها واقعة أو غير واقعة.

الوجه الثاني: أن تتعقلها منكرًا، لوقوعها مكذبًا به.

الوجه الثالث: أن تتعقلها مترددًا بين الوقوع وعدمه، لا يتميز أحد طرفيها عندك على الآخر.

الوجه الرابع: أن تتعقلها مرجحًا لطرف من طرفيها بسبب أمارة قامت عندك لا تصل بك إلى حد الجزم، وحينئذ يكون الطرف الآخر مرجوحًا، مع كونه يحتمل أن يكون هو الحق. فله تعقل أيضًا وهو:

الوجه الخامس: من وجوه تعقل النسبة.

الوجه السادس: أن تتعقلها جازمًا بأحد طرفيها عن تقليد الغير.

الوجه السابع: أن تتعقلها جازمًا بأحد طرفيها بسبب جزمك بمعقول آخر هو. «حق» يكون الجزم به موجبًا لجزمك بأحد طرفيها. ويسمى هذا الموجب: دليلًا وبرهانًا وحجة.

الوجه الثامن: أن تتعقلها جازمًا بأحد طرفيها، بسبب جزمك بمعقول آخر. هو «غير حق»، ويسمى هذا المعقول: شبهة التعقل في الوجه الأول، يسمى: «تخيلًا، وفي الثاني يسمى: تكذيبًا، وفي الثالث يسمى: شكًّا، وفي الرابع يسمى: ظنًّا. وفي الخامس يسمى: وهمًا، وفي السادس يسمى: تقليدًا، وفي السابع يسمى: يقينًا، وفي الثامن يسمى: جهلًا مركبًا، وكل من الظن والتقليد واليقين والجهل المركب، يسمى: تصديقًا. وما عدا هذه الأربعة. وهو ستة تعقلات يسمى: تصورًا. فالتعقل: إما تصور. وإما تصديق».

المسألة الثانية: التعقل إن كان مستفادًا من تعقل آخر، يسمى: نظريًا، وإن لم يكن مستفادًا من تعقل آخر سمي: بديهيًا. والبديهي ستة أنواع!

النوع الأول: ويسمى «بالأوليات». وهي نسب تجزم بها بمجرد تصور المنسوب والمنسوب إليه.

النوع الثاني: ويسمى «بالمشاهدات» وهي «المحسومات والوجدانيات».

النوع الثالث: ويسمى «بالتجريبيات» وهي التعقلات التي تستفاد من التجربة.

النوع الرابع: وتسمى «بالحدسيات» وهي التي تستفاد من الحدس والتخمين الكثير الصدق.

النوع الخامس: وتسمى «بالفطريات» وهي تعقلات مفيدها حاضر معها دائمًا.

النوع السادس: ويسمى «بالتواتريات» وهي تعقلات تفيدها أخبار تنقلها جماعة، لا يجوز العقل تواطؤهم وتوافقهم على الكذب عن مثلهم، حتى ينتهي ذلك إلى المشاهدة.

المسألة الثالثة: المعقول إن كان شاملًا لأكثر من شيء سمي: كليًا، وإن لم يكن له شمول سمي جزئيًا. ويسمى شمول الشيء للشيء: صدقًا. ويسمى الشامل: صادقًا على المشمول. ويسمى المشمول ما صدقًا، وفردًا.

المسألة الرابعة: المركب من شيئين يسمى: كلًا، والشيئان اللذان تركب منهما، يسميان، جزءين فينسب الجزء إلى الكل لكونه داخلًا فيه.

فيقال له: كلي. وينسب الكل إلى الجزء؛ لكونه صاحبه، فيقال: جزئي. ومن هنا يقال: كلُّ كُليِّ جزءُ لجُزْئيِّهِ، وكلُّ جُزْئيِّ كلٌّ لكليّةِ.

المسألة الخامسة: طبيعة الشيء ذاته من جهة كونها مَبْدَأً ومَنْشَأً لآثاره المختصة به، فالإنسان مثلًا منشأ للنطق وتوابعه، من حيث أنه إنسان لا من حيث كونه حيوانًا، وإلا لكان كل حيوان منشأ للنطق وتوابعه. والحيوان من حيث أنه حيوان منشأ للحس والحركة الإرادية، فالإنسان ذو طبيعتين: طبيعة مشتركة، وطبيعة مختصة، وهي: الجنس والفصل. وبهذا يسمى: حقيقة مركبة ونوعًا. والنوع والجنس والفصل تسمى «بالكليات الذاتية». وما يؤخذ من الأحوال المختصة بالنوع ليخبر به عنه يسمى: خاصة. كالضاحك المأخوذ من الضحك المختص بالإنسان. ليخبر به عنه، وما يؤخذ من الأحوال المشتركة بين نوعين فأكثر يسمى عرضًا عامًّا. كالماشي المأخوذ من المشي الذي هو عرض عام للإنسان، وغيره من أنواع الحيوان. والخاصة والعرض العام، كليان لكونهما شاملين.

فالكليات: خمسة: النوع، والجنس، والفصل، والخاصة، والعرض العام. وما عداها فجزيئات، وأفراد، وأشخاص.

المسألة السادسة: كل مفهومين قرنت بينهما لا محالة، يكون بينهما إحدى نسب أربع، وهي: التساوي، والتباين، والعموم، والخصوص المطلقان، والعموم من جهة والخصوص من جهة؛ لأنهما إن تصادقا تصادقا كليا بحيث يكون جميع الأفراد التي هي مشمولة لأحدهما مشمولة للآخر، كما بين النوع والفصل وخواصه فهي التساوي، وحينئذ يسمى المفهومان اللذان هذا شأنهما «بالمتساويين»، وإن تفارقا تفارقا كليا

بحيث لا يكون شيء من أفراد أحدهما فردًا للآخر، كما بين نوع ونوع فهو: التباين، وحينئذ يسميان «بالمتباينين».

وإن تصادقا على شيء، وانفرد واحد منهما بشيء يصدق هو عليه دون الآخر، فهو «العموم» و «الخصوص» المطلقان. وحينئذ يسميان «بالعام المطلق والخاص المطلق» كما بين الأجناس والأنواع. وإن تصادقا على شيء واختص كل منهما بشيء كما في العرضيات مع أنفسها أو مع غيرها، فالعموم من جهة، والخصوص من جهة، وحينئذ يسميان: «بالعام من جهة، والخاص من جهة». وهذه النسب: هي منشأ جميع الأحكام.

المسألة السابعة: الحُكم هو إدراك الارتباط بين الشيء على وجه الاعتراف بوقوعه، فهو بمعنى التصديق.

ثم الارتباط بين الشيئين ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ثبوت أمر لأمر، أو انتفاؤه عنه ويسمى: نسبة حملية.

وذلك كالنسبة في قولك: العدل حسن، والظلم ليس بحسن.

النوع الثاني: لزوم وقوع نسبة لوقوع نسبة أخرى. بمعنى: أن يكون بين وقوعيهما لزوم، وهو امتناع الانفكاك. بحيث يحصل واحد، ولا يحصل الآخر. وذلك كالنسبة في قولك: إن كانت الشمس طالعة، كان النهار موجودًا. ويسمى الأول: ملزومًا، والثاني: لازمًا.

النوع الثاني: عناد وقوع نسبة لوقوع نسبة أخرى، فهما لا يقعان معًا، ولا يرتفعان معًا. أو لا يقعان معًا، وقد يرتفعان، أو لا يرتفعان معًا، وقد

يقعان معًا، كالنسبة في قولك: إما أن تكون الشمس طالعة، وإما أن يكون النهار غير موجود. والنوع السابق يسمى: النسبة الشرطية الاتصالية، وهذا النوع يسمى النسبة الشرطية الانفصالية. ومنشأ الاتصال السببية في الوجود أو التضايف. ومنشأ الانفصال: التناقض والتضاد. والنقيضان هما: الأمران اللذان لا يجتمعان في موضوع، ولا يرتفعان معًا عنه، وهما الثبوت والانتفاء أو ما يساوى الانتفاء. مثل قولك: «العدد زوج أو لا زوج. وقولك: العدد زوج أو فرد. فقولك: فرد يساوي قولك: لا زوج. والضدان، هما الأمران الوجوديان اللذان لا يجتمعان في موضوع، وقد يرتفعان لحلول ثالث بدلهما، كالبياض والسواد المرتفعين عن الأحمر مثلًا، ويسمى الحكم إيجابًا وسلبًا وإثباتًا ونفيًا. ويسمى الطرف الأول في النسبة الحملية: موضوعًا. والثاني: محمولًا، كما سبق. ويسمى الأول في الشرطيتين: مقدمًا، والثاني: تاليًا».

المسألة الثامنة: تمييز الشيء بذكر ما يميزه من فصل أو خاصة يسمى تعريفًا، والتعريف بجنسه القريب وفصله يسمى: حدًّا تامًّا. وبجنسه البعيد. والفصل يسمى: حدًّا ناقصًا، وبجنسه القريب. وخاصته يسمى: رسمًا تامًّا. وغيره يسمى: رسمًا ناقصًا.

والأدباء يسمون كل مميز للشيء عن غيره حدًّا ورسمًا، ولا يفصلون تفصيل أهل المنطق.

المسألة التاسعة: العبارة عن النسبة وطرفيها؛ مركب تام، إن كانت النسبة مقصودة بالإفادة، بحيث يصح السكوت على المركب الذي يفيد النسبة بهيئته التركيبية، ويسمى المركب التام قضية، وكلامًا خبريًا إن كان حكاية عن واقع، وإنشائيًا إن لم يكن حكاية عن واقع. وناقص «إن كانت

النسبة غير مقصودة بالإفادة بحيث لا يصح السكوت على المركب الذي يفيدها بهيئته، وهي نسبة المملوك إلى المالك. وتسمى النسبة الإضافية. مثل: دار زيد، وعبد عمرو». ونسبة الصفة إلى الموصوف وتسمى «النسبة التوصيفية. مثل قولك: الرجل العاقل والإنسان الكامل». وكلتا هاتين النسبتين تسمى «بالتقييدية»، وهي لا تخرج المعقول عن كونه تصورًا .. والعبارة عن غير النسبة مفرد فعل، إن أفاد تأثيرًا أو تأثرًا في أحد الأزمنة الثلاثة: الماضي، والحال. والآتي. طلبًا لذلك أو إخبارًا عنه. واسم إن كان مفاده عينًا من الأعيان، أو أو حالًا مستقلًا بالمعقولية والملاحظة. وحرف إن كان مفاده حالًا غير مستقل بالمعقولية، بل كان لا يمكن تعقله إلا بالتبعية لتعقل غيره. فالعبارة: إما مركب، وإما مفرد. والمركب: إما تام، وإما ناقص. والمفرد: إما فعل، وإما اسم، وإما حرف.

ومن هنا: أمكن أن نشرع في العلوم العربية التي موضوعها الألفاظ، وأمكن أن نتمم المسائل المنطقية، التي ما سبق من المسائل بعضها فنقول على الإجمال.

المسألة العاشرة: القضية إن كان موضوعها شخصًا سميت: شخصية ومخصوصة. وإن كان موضوعها غير شخص، فإن حكم فيها على جميع الأفراد، وذكر في موضوعها لفظة كل سميت: كلية. ولفظة كل تسمى: سورًا. وإن حكم فيها على بعض الأفراد، وذكر في الموضوع لفظة بعض سميت جزئية. ويسمى لفظ البعض سورًا. وإن حكم على الأفراد ولم يذكر لفظ «كل» ولا «بعض» سميت مهملة. وهي: جزئية في الاستعمال وإن لم تلحظ الأفراد وكان الحكم على طبيعة المعنى الشامل. مثل: الحيوان جنس، والإنسان نوع، سميت: طبيعية.

فالقضية: شخصية، أو كلية، أو جزئية أو مهملة أو طبيعية. وما أفاد العموم من الألفاظ، يقوم سقام لفظة «كل» في التسوير مثل: جميعًا وقاطبة وطرًا في الإيجاب، ولا شيء ولا واحد في السلب. وكلفظ «البعض» ما أفاد البعضية والجزئية. إيجابًا وسلبًا كواحد وشيء. ورب واحد. وليس بعض وبعض، ليس، وليس كل.

المسألة الحادية عشرة: ثبوت شيء الشيء أو انتفاؤه عنه. إما أن يكون واجبًا لا يجوز العقل خلافه بحيث يقال بالضرورة: هذا كذا أو ليس كذا. وحينئذ تسمى القضية: ضرورية. وإن كان كل من الثبوت والانتفاء ممكنًا بحيث يجوز العقل كلًا بدل الآخر سميت: ممكنة. فالقضايا: ضروريات، أو ممكنات.

المسألة الثانية عشرة: حيث كانت القضية حكاية عن واقع جاز أن تكون مطابقة له وأن لا تكون مطابقة.

والمطابقة تسمى: صدقًا. وعدم المطابقة يسمى: كذبًا، وحينئذ لا يلتزم العقل الوقوف عن تجويزهما إلا بملزم. وذلك الملزم يسمى: دليلًا وحجة. وكذلك لا يرجح أحدهما إلا بمرجح. ويسمى: أمارة. والدليل ثلاثة أنواع: نوع يسمى: استقراء.

ونوع يسمى: تمثيلًا. ونوع يسمى: قياسًا.

والاستقراء: تتبع جميع أفراد الشيء ليحكم عليها بحكم كلي ويسمى: استقراء تامًا أو تتبع أكثر الأفراد لذلك. ويسمى: استقراء ناقصا كتتبع أكثر أفراد الحيوان، فقالوا: كل حيوان يحرك فكه الأسفل فوجد التمساح على خلاف ذلك، والتمثيل: إلحاق أمر بأمر في صفة؛ ليحكم على الملحق

بحكم الملحق به، حيث تكون تلك الصفة هي السبب في الحكم على الملحق به بذلك الحكم. والقياس: تصديقان يلزمهما تصديق ثالث. والتصديقان يسميان مقدمتي القياس. والتصديق الثالث: يسمى نتيجة. والنتيجة قبل الاستدلال تسمى مطلوبًا. والمقدمتان تشتمل إحداهما على موضوع النتيجة، والأخرى على محمولها. وتشتركان في شيء يكون سببًا لربط محمول النتيجة بموضوعها، وحينئذ يسمى موضوع النتيجة حال كونه في المقدمة التي اشتملت عليه؛ حدًّا أصغر. ويسمى محمولها حال كونه في المقدمة، التي اشتملت عليه؛ حدًّا أكبر. ويسمى المشترك: حدًّا وسطًا. وحين الاستدلال، يسقط المشترك، فتنتظم النتيجة وتسمى ذات المقدمتين مادة القياس. وتسمى هيئتهما الحاصلة لهما من تأليفهما: صورة وشكلًا. والشكل يكون على أنحاء شتى، كل نحو منها يسمى ضربًا. وللشكل صحة وفساد. فالأشكال الصحيحة تسمى ضروبًا منتجة. والفاسدة تسمى ضروبًا عقيمة.

ثم القياس باعتبار صورته نوعان: نوع يسمى اقترنيًا. ونوع يسمى استثنائيًا.

فالاقتراني مثل قولك: كل إنسان حيوان، وكل حيوان متنفس، ينتج كل إنسان متنفس. والاستثنائي مثل قولك: لو كان هذا الشيء حيوانًا لكان متنفسًا لكنه غير متنفس. ينتج: هذا الشيء غير حيوان.

والقياس: باعتبار مادته، خمسة أنواع: تسمى «بالصناعات الخمس»؛ لأنه إن كان مؤلفًا من مقدمات يقينية بديهية أو منتهية إلى البديهية، فهو نوع يسمى «بالبرهان» وإن كان مؤلفًا من مقدمة مسلمة عند الخصم، وإن لم تكن حقة في نفسها، فهو نوع يسمى «بالجدل». وإن كان مؤلفًا من

مقدمات مقبولة مشهورة صادرة عمن يحسن فيه الاعتقاد، فهو نوع يسمى «الخطابة». وإن كان مؤلفًا من مقدمات تخيلية، تؤثر في الأنفس قبضًا أو بسطًا. فهو نوع يسمى «شعرًا» وإن كان مؤلفًا من قضايا باطلة وهمية فهو نوع يسمى «السفسطة» والمتكلم بالبرهان يسمى: حكيمًا. والمتكلم بالسفسطة يسمى: سوفسطائيًا، وكلامه مع الحكيم يسمى: مغالطة، ومع غيره يسمى: مشاغبة. والبرهان: أشرف أنواع الدليل، والحصول عليه أحسن غاية. وحيث كان الغرض التكلم على العلوم العربية، وكان فهم كثير من مسائلها فهما حقيقيًا متوقفًا على الشعور بما أسلفنا من المسائل الحكمية، وجب أن نقتصر على هذا القدر، ونشرع فيما هو المقصود بالإصالة فنقول:

المقصد الثاني

اللغة العربية: ألفاظ معدودة عينت عند العرب للأشياء لتحضر بها في العقول عند الإرادة. كانوا ينطقون بها على صور معينة إفرادًا وتركيبًا.

اللفظ: يكون حرفًا ويكون أكثر. والحروف التي تتكون منها الألفاظ تسمى: حروف المباني. والحروف بالمعنى السابق في تفصيل العبارة من المسائل المنقطية تسمى: حروف المعاني. وربما كان حرف المعنى حرف مبنى واحدًا، ويكون حرفي مبنى. ويكون أحرفًا. وحرف المبنى: صوت مقطوع على مقطع من المقاطع التسعة والعشرين، التي تسمى: مخارج الحروف، حسبما وجد في اللغة العربية. والصوت: كيفية قائمة بالهواء. أي: حالة مسموعة منسوبة إلى الكيف الذي فصل من المقولة الثالثة. وتعيين اللفظ للشيء بحيث يكون وظيفة اللفظ إحضار ذلك الشيء في

أذهان المخاطبين عند إطلاقه وإرساله من الفم يسمى: وضعًا، ويسمى الشيء الذي وضع له اللفظ: معنى، أي: موضع العناية والقصد. وإحضار اللفظ معناه في ذهن من علم وضعه عند سماعه، يسمى: دلالة. واللفظ دال، والمعنى مدلول، وحروف اللفظ تسمى: مادته. والهيئة الحاصلة للحروف من تأليفها وأوصافها من حركات وسكنات تسمى: الصورة الإفرادية. ومادة المركب لفظان فأكثر، وصورته الهيئة الحاصلة له من التأليف المرتب على تألفه وارتباطه، معنى، والعلم الذي يعرفك أوضاع الألفاظ لمعانيها هو المسمى بعلم متن اللغة. وللألفاظ باعتبار تخالفها في المعاني التي وضعت لها أحوال. بحث بعض العلماء عنها وضبطوها وفصلوها، وسموها فقه اللغة. والعلم الذي يعرِّفك صور الألفاظ الإفرادية، وكيفية النطق بها هو المسمى بعلم الصرف. والعلم الذي يعرفك صور المركبات، وإن معاني المركبات تختلف باختلاف صورها، هو المسمى بعلم النحو. فالكلام على اللغة العربية في هذا المقصد ثلاثة أقسام: قسم فقه اللغة، وقسم الصرف، وقسم النحو.

وأما علم متن اللغة، فليس من القوانين، وإنما هو سرد الألفاظ وذكر مالها وضعت. وقد أكثر الناس فيه من وضع الكتب ما بين مكثر ومقل، وأسهلها وأنفعها ما كان مبوبًا بالأواخر، مفصلًا بالأوائل، مميز المواد «كقاموس المنجد».

واقيانوس عاصم رحمهما الله تعالى. وسيرد عليك عند الكلام على فقه اللغة ألفاظ مبينة المعنى، لا تخرجنا عن مقصد بيان القوانين. ولا بأس بالتكلم على أمة العرب، بما عسى أن يكون مفيدًا فيما إليه قصدنا، فنقول:

أمة العرب

أمة العرب: إحدى الأمم المتميزة بالألسنة والعوائد والمساكن.

أما مساكنهم فكان أولها أرض اليمن، فلما كثروا وانتشروا في البلاد. استقر أمرهم على سكنى جميع اليمن، وما تحتها إلى جهة الشمال من نجد والحجاز وتهامة، وهي في ترتيب الهبوط على هذا الترتيب أخذًا من الجنوب إلى الشمال وبعض أرض الشام من جهة الشمال أيضًا، ومن جهة الشرق الحيرة وما صاقبهما، ويسمى عراق العرب.

وأما عوائدهم فكثيرة مفصلة مبينة في أشعارهم وأخبارهم، وقد وضع لذلك كتب كثيرة،

منها: أنهم كانوا لا يخالطون غير جنسهم إلا مخالطة التجارة، يذهبون إلى أطراف بلادهم، وأطرف بلاد غيرهم، فيعطون ما عندهم، ويأخذون ما عند غيرهم، ثم يرجعون إلى مقارهم. ومنها: أنهم كانوا لا يدخلون في أنسابهم دخيلا من غيرهم، لا من جهة العصب، ولا من جهة الرحم. ويستنكرون ذلك استنكارًا عظيمًا، حتى إن ذلك إذا كان في خيلهم أو إبلهم، استنكروه واستنكفوا منه، وربما كان بعض الأوضاع أو من غلبت عليه الأحوال البهيمية داخل غير العرب، وكان منه نسل؛ فإذا كان الفحل عربيًا والأنثى غير عربية سمي النسل الحاصل بينهما هجينًا. ومنه اشتقاق الهجنة، وهجنة: أي قبح أمره. وإذا كانت الأنثى عربية والفحل غير عربي سمي النسل مقرفًا؛ فهم كانوا يتحاشون الإقراف والهُجنة. بل كان بعض القبائل يحافظون على أنفسهم لا يخالطون غيرهم من العرب.

ومنها: محافظتهم على الأنساب، ومن ذلك كانوا شعوبًا وقبائل وعمائر وفصائل وأفخاذًا وبطونًا وبيوتًا، كل اسم من هذه الأسماء لقب لجماعة، يجمعهم جد؛ فجدّ الشعب أعلى جد معروف، وجد البيت أدنى الجدود إلى جماعة البيت، فكان الواحد ينتسب فيمد من الجدود عددًا متفاوتًا، فمنهم: المقل والمتوسط والمكثر. وأعدل الأنساب: نسب النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - ، الذي ينتهي بالتحقيق إلى عدنان، وإلى عدنان تنسب «العرب العدنانية»، وهم غير أهل اليمن، وأهل اليمن يسمون بالعرب القحطانية، نسبة إلى قحطان الذي يقال: أنه أول من تكلم باللغة العربية. ومنه كان نشوءها، وكانت تربيتها وكثرتها واتساعها بحسب كثرة أولاده، حتى انتهت بانتهائهم. ويقال لأولاد قحطان قبل دخول إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فيهم: العرب العاربة والعرباء؛ فلما دخل فيهم إسماعيل، ونشأ فيهم وتكلم بلغتهم ونسل، حتى قام منه جيل عظيم. قيل له ولأولاده: العرب المستعربة والمتعربة. فالعرب إذا قسمان عرباء ومتعربة، وأول شعب اشتهر من ولد إسماعيل: عدنان. أول النسب الصحيح للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم اشتهر نزار، ثم اشتهر أربعة شعوب من أولاد نزار: مضر، وربيعة الفرس، وإياد، وأنمار أولاد صلب نزار. وصاروا قبائل أربعة كبارًا، ثم اشتهر كنانة، ثم اشتهر قريش. وبقيت له الشهرة، وهي قبيلة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولذلك يقال القرشي. ودخول إسماعيل ـ عليه السلام ـ في العرب وانتقاله من أرض كنعان التي كانت مهاجر أبيه من بلده «أرفة» إلى أرض الحجاز - : إن إبراهيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما خرج من بلده لأسباب اقتضت ذلك توطن أرض كنعان من الشام جوار بيت المقدس، وأخذ يطوف البلاد، فلما نزل مصر كان بها إذ ذاك ملك جبار، من حاله

أن له عيونًا ينظرون له في المتوطنين والأغراب. فمتى رأوا امرأة جميلة حملوها لـه، فعثروا بالسيدة سارة زوجة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ فحملوها إليه. وأخذ إبراهيم في توصيتها يقول: تعلمي أنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك. ولما سئل عنها إبراهيم، قال: هي أختي، أي: في الدين. فلما وصلت سارة إلى الملك، وهم بالدنو منها. فزعت إلى الله، وقامت تصلي فارتعدت فرائص الملك، وعجز عن الحركة، فخضع لها وسألها أن تدعو ربها الذي قامت تعبده، وفعل به ما حصل له فدعت، فسرى عنه. ثم تكرر هذا الحال مرارًا حتى أيقن أنه من ربها الذي تعبده، فعند ذلك أخذ في إكرامها وإجلالها هي وزوجها وأهدى لها في ضمن ما أُهدي من التحف والكرامة جارية اسمها «هاجر». فأخبرت إبراهيم بما جرى، وأهدته تلك الجارية، فواقعها وولدت له إسماعيل، فلحقت سارة الغيرة الطبيعية، وخافت الافتتان في دينها؛ فسألت إبراهيم أن يغيب عنها الجارية وولدها. فأوحى الله إلى إبراهيم أن أسكنهما مكة، فحملهما إليها، وهي حينئذ ليس بها أنيس، لكونها لا ماء فيها ولا مرعى، فأكرم الله إسماعيل، فأخرج له هنالك ماء كثيرًا طيبًا ومراعي، واتفق أن جاز بعض العرب وهم ناس من قبيلة يقال لها: «جرهم» بنواحي مكة؛ فوجدوا الطير صاعدًا هابطًا بذلك الموضع، فقصدوه، فوجدوا هنالك هاجرا وابنها، وسألوها أن ينزلوا معها بذلك الموضع، فاشترطت عليهم شروطًا عاقدوها عليها وسكنوا معها، وعمرت تلك الناحية. وكان بعد ذلك ما كان من كبر إسماعيل وتزوجه في «جُرهم»، وتجديده مع أبيه الكعبة وغير ذلك. فإسماعيل أول دخيل من العجم في ولد قحطان، الذين هم العرب، ثم كانوا بعد ذلك يتحاشون غاية التحاشي من مُداخلة العجم، حتى إن «إيادًا» أحد الشعوب الأربعة. لما ساكنت الفرس، وخلطتهم سقطت

منزلتهم بين العرب، واحتقروا احتقارًا شديدًا وعدوا من العجم، واتقيت مداخلتهم. يرشدك إلى تحقيق ذلك أن قبيلتي تغلب وبكر اللتين يجمعهما وائل من بني ربيعة، قوي أمرهما وعزا في العرب، وقهرا كثيرا من الناس، وفي بعض الأيام نزل منهم رجل بناحية قرية من بلاد الفرس، من منازل إياد ومعه ابنته، وكانت من أجمل نساء العالم فوشى بها رجل من إياد يقال له: «برد» كان من خاصة ملك الفرس، إذ ذلك؛ فقال له الملك: ما عسى أن تبلغ منها، والعربية تقدم القتل على أن يغشاها عجمي؟ فقال: نرغبها بمحاسن المطاعم، والمشارب، والملابس، والمساكن، والمطاعم، وكثرة المال، والخول، وتم بينهما هذا الخيال. وأرسل الملك فاغتصبها من أبيها، ثم عرض عليها جميع المشتهيات، وخوفها بجميع العقوبات، ومسها بكثير من المؤلمات، ليرى وجهها. فأبت، وخيرته بين أن يقتلها، أو يعيدها لأبيها؛ فلما يئس منها أسكنها في موضع، وأجرى عليها الوظائف الترفهية، واكتفى برؤية قامتها تحت ملابسها، في بعض الأحيان. وبسبب ذلك نشبت الحروف بين العرب والفرس، حتى قهر العرب الفرس، وأخذوا كثيرًا من بلادهم، وكان من بني بكر فارس عظيم، يقال له: «البراق» يهوى هذه المرأة، وهي تهواه، وخطبها من أبيها فامتنع، واشتد بينهما العشق، والبراق لا يرضى بقهر أبيها مع تمكنه من ذلك، وأشارت العرب عليه به، فما زال يحتال حتى خلصها، وقتل ملك الفرس. ومن كلام ليلى بنت لكيز هذه، في أثناء ما حصل لها:

ليت للبراق عينًا فترى	ما ألاقي من بلاء وعنا
يا كُليبًا وعقيلًا إخوتي	يا جُنيدًا أسعدوني بالبكا
عُذبت أختكمو يا ويلكم	بعذاب النكرِ صُبحًا ومَسا
غللوني قيدُوني ضربوا	ملمس العفَّةِ مِني بالعصَا

يكــذبُ الأعجــمُ مــا يقربنــي ... ومعــي بعــضُ حــشاشاتِ الحيَــا
قيــدوني غللِّــوني وافعلــوا ... كُلمــا شــئتم جميعًــا مــن بــلا
فأنــا كارهــة بَغــيَكُم ... ويقــين المــوت شــيءٌ يُرتجــى
يــا بنــي كهــلان يــا أهــل العُــلا ... أتَــذُلونَ علــيّ الأعجَمــا
يــا إيــادًا خــسرت أيــديكمو ... خــالط المنظــر مــن بــرد غَمــى
فاصــطبارًا وعــزاءٌ حــسنًا ... كــل نــصر بعــد ضُــرٍّ يُرتجــى
أصــبحت ليلــى يُغلــل كفُّهــا ... مثــل تغليــل الملــوك العُظمــا
وتقيــد وتكبــل جهــرةً ... وتطالــب بقبيحــات العنــا
قــل لعــدنان هُــديتم شــمرُوا ... لبنــي البغــوض تــشمير الوفــا
واعقِــدوا الرايــات فــي أقطارهــا ... واشــهروا البيض وسيروا لــي ضُحا
يــا بنــي تغلــب سـيروا وانـصروا ... وذروا الغفلــة عــنكم والكــرَى
احــذروا العــارَ علــى أعقــابكم ... وعلــيكم مــا بقيــتمْ فــي الــدُّنا

وللعرب في ذلك المعنى وقائع كثيرة.

* * *

وأما لسانهم: فهو هذا اللسان الذي يتكلم به أهل مصر والحجاز واليمن والشام. ومغرب مصر. غير أنه على صورة فاسدة خرج بها عن كونه لسانًا عربيًا، وصار يقال له لغة عامية. وهو لسان قد دخل فيه الاستحسان، على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: استحسان قدماء العرب الذين هم «العاربة» فإنهم كما قيل: كانوا يأخذون بعض الألفاظ مع اللغات فيختصرونها ويغيرون

أشكالها، إلى أن تصير خفيفة عذبة. وحكي صاحب المثل السائر أنه ورد في بعض سياحته مصر، فلقي رجلًا من بني إسرائيل عالمًا، فجرى بينهما ذكر اللغة بالفصاحة والملاحة، فقال اليهودي: كيف لا تكون فصيحة مليحة وهي منتخبة من اللغات؟ ومثل لذلك بلفظ الجمل. فقال: إنه كان بالعبرانية كوميلا، فغير إلى ما سمعت، فصار عذبًا فصيحًا.

المرتبة الثانية: استحسان إسماعيل ـ عليه السلام ـ وأوائل أولاده؛ فقد كانت له لغة عربية فصيحة، تنسب إليه بشهادة قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد سئل: مالَكَ ـ يا رسول الله ـ أَفْصَحُنا ولم تخْرُجْ من بين أظهرنا؟ قال: إن لغة إسماعيل كانت درست، فجاءني بها جبريل فحفظتها. وسبب دروس لغة إسماعيل ما جرى بين أولاده من الحروب الضرس، التي فني بها منهم كثير، وتشتت منهم في البلاد كثير، وبحكم العادة أن الإنسان إذا خالط أهل لسان غلب عليه، وغير لسانه.

المرتبة الثالثة: استحسان قريش، وهم سكان مكة وما حولها؛ فقد كانت العرب ترد إليهم في موسم الحج كل سنة، فيقيمون عندهم، قريبًا من خمسين يومًا، ثلاثة أيام بسوق ذي المجاز، وسبعة بسوق مجنة، وثلاثين بسوق عُكاظ. والباقي في مواضع مناسك الحج؛ يعرضون عليهم أشعارهم، ويتحاكمون في قضاياهم، ويتعاقدون ويتعاتبون، إلى غير ذلك من الأمور التي تقتضي كثرة المقاولة، فكانوا ينتخبون من سائر لغات العرب ما حَلى في الذوق؛ وخف على السمع مثلا، يسمعون الحوجم والحوجمة ـ بفتح الحاء وسكون الواو ـ والورد والوردة فيستعملون الثاني، ويتجنبون الأول. هذا ما كان قبل مجيء الإسلام؛ فلما جاء الإسلام وحصلت الدعوة إلى الاجتماع العام، والمخالطة الشاملة، جاءت

المرتبة الرابعة من الاستحسان. وهو استحسان فطناء الناس من بقايا العرب وغيرهم، الذين نصبوا أنفسهم لضبط اللغة العربية؛ مفردات ومركبات، وتدوينها في كتب، ونوَّعتهم مقاصدهم أنواعًا. منهم نقلة المفردات على صورها؛ وبيان معانيها ذاهبين إلى تمييز اللغات إلى رديء وغير رديء، وحُوشي غريب؛ ومستعمل مشهور.

ومنهم: نقلة صور المركبات، منبهين على اختلاف معانيها؛ باختلاف صورها، ذاهبين أيضًا إلى تمييز الفصيح من غير الفصيح.

ومنهم: نقلة الأشعار والخطب وعالي الكلام، منبهين على محاسن السياقات، ولطائف العبارات، وعلى توسعات العرب في الاستعمالات.

ومن ذلك تنوعت العلوم الباحثة عن اللغة العربية، مميزة بالألقاب، وجهات البحث والذي دعا الناس إلى النهوض في التفتيش في أحوال اللغة، أن العرب لما بعثهم الإسلام في البلاد، واختلطوا بغير جنسهم، اختلاط المعاشرة والمصاهرة، حصل في مدة يسيرة تغيير عظيم في اللغة، وفشا بين الناس اللحن، وصار من يضبط من العرب لسانه عن اللحن يفتخر بذلك، كما ورد أن خالد بن يزيد بن معاوية، حضر يومًا مجلس عبد الملك بن مروان؛ فجرت مخاطبة بينه وبين الوليد بن عبد الملك، فكان من كلام خالد التمدح بالسلامة من اللحن، والغض من الوليد بكونه لحَّانة. ولبعض شعراء العرب:

أبا ضبيعة لا تعجل بسيئة ... إلى ابن عمكَ واذكرهُ بإحسان
أما تَراني وأثوابي مقاربة ... ليست بخزولا من نسج كتّان
فإن في المجد هماتي وفي لغتي ... عُلوية ولساني غير لحّان

ومن اللحن في العرب ما دعا إلى وضع النحو. وذلك أن رجلًا من أصحاب علي كرم الله وجهه يقال له: أبو الأسود ظالم الدولي. قالت له ابنته ليلة: يا أبت ما أحسنُ السماءِ ــ بضم نون أحسن وكسر همزة السماء ــ فقال لها: نجومها، فقالت: أنا مخبرة لا سائلة. فقال لها: كان يلزم أن تقولي: ما أحسنَ السماءَ ــ بفتح النون والهمزة ــ فلما أصبح. أخبر بذلك عليًا ــ رضي الله عنه ــ وسأله النظر في طريقة لحفظ اللغة العربية من الضياع. فقال له علي ــ رضي الله عنه ــ: الكلام كله لا يخرج عن اسم وفعل وحرف، جاء لمعنى؛ فالاسم: ما أنبأ عن المسمى. والفعل: ما أنبأ عن حركة المسمى. والحرف: ما ليس كذلك.

ثم قال: انح هذا «النحو» يا أبا الأسود. ومن هنا جاء الاسم للعلم الباحث عن حال المركبات، فبدأ له علم النحو. وتكلم أبو الأسود بعد ذلك وأخذ الناس في تتميمه. ولا غرو أن يسرع الفساد إلى اللغة العربية، والأطفال يتعلمون التلفظ أولًا من أُمهاتهم. فإذا كن عجميات لا يقدرون على التكلم بصحيح اللغة، فكيف تبقى صورة اللغة العربية؟ وقد ابتدئ التعليم والتأديب في أوائل أيام مُلك بني أُمية، فكان الملك يحضر لأولاده وأولاد أتباعه من العلماء من يؤدبهم ويعود ألسنتهم على التكلم بفصائح اللغات، ويلقنهم مختار الأشعار. وكان للمؤدبين مع الأطفال نوادر، منها: أن مؤدب أولاد هشام بن عبد الملك، وكان اسمه عبد الصمد ورد عليه غلام من أولاد عظماء بني أمية؛ ليؤدبه مع أولاد الملك. وكان غُلامًا جميلًا؛ فاتفق في بعض الأيام أن أساء المؤدب أدبه مع ذلك الغلام، فقام يعدو للملك وتمثل بين يديه. وقال شعرًا:

إنــهُ واللهِ لــولا أنــتَ لــم ... يــنجُ مِنــي ســالِمًا عبــدُ الــصمد

فقال الملك: ولماذا؟ فقال الغلام:

إنـــهُ قـــد رام منـــي خطـــة لـــم يرمهـــا قبلـــه منـــي أحـــد

فقال الملك: وما رام؟ فقال الغلام:

رام جهـــلًا بـــي وجهـــلًا بـــأبي يـولج العـصفور فـي خـيس الأسـد

* * *

ثم أخذ التعليم في التزايد والكثرة، بتزايد انتشار المسلمين في البلاد، وظهور تغير اللسان، إلى أن تقررت العلوم المتعلقة باللغة، وتهذبت بعد أن كانت مختلطة كثيرة السقوط والغلط، خفية الدلالة، عسيرة الإرشاد، كما هو شأن الأمور المتجددة، فبتلاحق الأفكار يتزايد حسن المخترعات وإتقانها. حتى لو بذل واحد همته، وكان جيد الحفظ والضبط، أمكنه في مدة غيرة طويلة أن يقف على أمر اللغة العربية. ومن حيث كون اللغة قد فسدت صورتها في الصدر الأول، وتزايد فسادها كما شرحنا، كانت ألفاظها معدودة، إذ لم يبق من أهلها من ينسب إليه ما يضطر تجدّد الأحوال واستكشاف الأشياء إلى وضعه من الألفاظ للأشياء التي يتجدد ظهورها والاطلاع عليها، فلا جرم تكون ألفاظًا غير عربية، ما لم تكن مأخوذة بطريق الاشتقاق من ألفاظهم، وذلك أمر عسير، ومحتاج إلى نظر جم غفير، والتنبيه على ما حصل من الفساد في اللغة يقرب أن يكون معجزًا. وقد تعرض لذلك بعض المغاربة فوضع فيه كتابًا، فلم يأت بطائل عظيم، وإذا قرأ الطالب العلوم، وعرف الصحيح عرف الفساد، ولا بأس بالتنبيه على البعض ليظهر الداعي إلى وضع العلوم غاية الظهور. فمن عادة العامة إبدال الذال المعجمة حيثما كانت دالًا مهملة فيقولون في إذا. وذي. ده. ودي. وفي حاذق حادء فيبدلون القاف همزة حيثما كانت.

ويبدلون الثاء المثلثة تاء مثناة فوقية، أو سينًا. فيقولون في: ثابت ــ تابت. وفي ثوب ــ توب، وفي ثُمَّ ــ سُمَّ، ويحذفون بعض الحروف، ويبدلون الحركات. فيقولون في: وجه مثلًا: وش، فهذا يضطر إلى وضع علم متن اللغة. ويقولون فلان يوعد ويخلف ــ بكسر الياء وسكون ما بعدها ــ والصواب يعد ويخلف ــ بفتح الياء الأولى وحذف الواو، وضم الياء الثانية ــ ويقولون: إوعه ــ بهمزة مكسورة وواو ساكنة ــ والصواب عه بلا همزة ولا واو. فهذا وأمثاله أوجب وضع علم الصرف.

ثم اللغة العامية: وإن كانت بهذه المنزلة من الفساد؛ مشتملة على كثير من الألفاظ العربية الفصيحة بحسب الحاجة، ومتضمنة كثيرًا من محاسن السياقات ولطائف الكنايات وغير ذلك من الأمور، التي يسمى العالم بها العامل بمقتضاها فصيحًا بليغًا، كما يتبين ذلك عند التكلم على علوم البلاغة، فإذا تأمل المتعلم في كلام الناس، سهل عليه كثير من المسائل، التي صعبتها وأبعدت فهم معناها العبارات، الاصطلاحية والمناظرات فيها، بحيث يقرب أن يخرج غير المعتاد إلى المعتاد.

* * *

القسم الأول
في فقه اللغة

فقه اللغة

وقد آن أن نشرع في بيان الأقسام الثلاثة، التي ضمَّناها هذا المقصد فنقول:

القسم الأول في فقه اللغة: سبقت الإشارة إلى أن فقه اللغة هو: العلم الباحث عن أحوال عامة للألفاظ. ولنورد ذلك في ثلاثة تقاسيم وتتميم.

التقسيم الأول: اللفظ. إما أن يعين لشخص ما، وهو كما عرفت في المسألة الخامسة من المسائل المنطقية؛ الموجود البالغ إلى غاية التمييز؛ فيسمى اللفظ حينئذ باسم الشخص؛ وعلم الشخص. وإما أن يعين لأمر كلي، مشروطًا استعماله في معين عند المخاطب، معروف له، بسبب انضمام أمر آخر، ملحوظ له؛ هو المعين للمراد. ويسمى ذلك الأمر قرينة المراد باللفظ؛ ويسمى اللفظ الذي هذا شأنه معرفة بالقرينة؛ ويسمى علم الشخص معرفة بنفسه. وإما أن يعين لأمر كلي غير مشروط فيه ذلك، بحيث يكون صالحًا لأن يراد به كل واحد مما صدق عليه ذلك الأمر الكلي، فيكون المراد به مبهمًا على المخاطب، ويسمى نكرة.

ثم الأمر الكلي الذي عين له اللفظ المسمى نكرة، إما أن يكون جنسًا من الأجناس الجوهرية، ويسمى اللفظ حينئذ؛ اسم جنس جوهريًا جامدًا.

وإما أن يكون جنسًا من الأجناس العرضية، ويسمى اللفظ المعين له اسم جنس عرضيًا جامدًا. ويسمى مصدرًا؛ فله اسمان. وإما أن يكون أمرًا إجماليًا يمكن للعقل أن يفصّله إلى عَرَض منسوب؛ وإلى نسبة، وإلى منسوب إليه. وحينئذ: إن كان الملحوظ أولًا حالة الاستعمال هو العرض، والملحوظ ثانيًا النسبة؛ والملحوظ ثالثًا المنسوب إليه المعين عند المتكلم ملاحظة، وعند المخاطب حكمًا. بحيث يكون منتظر العبارة عنه فقط يسمى اللفظ المعين لذلك فعلًا.

وإن كان الملحوظ أولًا هو المنسوب إليه؛ والملحوظ ثانيًا النسبة. والملحوظ ثالثًا المنسوب العرض، سمي اللفظ المعين لذلك مشتقًا.

وإما أن يكون الأمر الكلي، نسبة أمر لأمر وارتباطه به؛ أو حال نسبة يعين له اللفظ مشروطًا استعماله في نسب معينة، متبدِّلة يتبدل المعاني والتراكيب، أو في أحوال كذلك طلبًا لمعرفته أو إخبارًا به؛ يسمى اللفظ الذي هذا شأنه «حرفًا».

ومن هذا التقسيم، يخرج تنويع اللفظ إلى الاسم؛ والفعل، والحرف ـــ بينة الحقائق.

وبتأمل ما سبق تعرف ضوابط عديدة، لكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة. وهذا تقسيم إجمالي للفظ؛ ولأجل تمام المعرفة، وجب أن نتكلم على أقسام اللفظ. قسمًا قسمًا؛ فنقول:

قسم العَلَم: العَلَم اسم معين لشخص، لا يراد به غيره وضعًا، ولا يخرجه عن ذلك عروض الاشتراك فيه بعد؛ وإن أحوج إلى قرينة تُعيِّن

المراد به حالة الاستعمال. ولذلك يسمى معرفة بالنفس. وينقسم العلم إلى ألقاب، وكني؛ وأسماء.

فالاسم: هو الموضوع أولًا لغرض تمييز المسمى به عن غيره عند الحاجة لذلك، واللقب ما وضع ثانيًا لذلك الغرض؛ ولغرض الإشعار بالمدح أو الذم تفاؤلًا أو استهزاء. والكنية ما صُدرت بأب أو أم أو ابن أو بنت. فالاسم: كزيد وخالد وعمرو وعيسى وموسى. واللقب كفخر الدين، وعلم الدين، وسيف الدولة، وعضد الدولة، والحاكم بأمر الله، والمستعين بالله، إلي غير ذلك من ألقاب الخلفاء والسلاطين وسائر الناس، وكبطة، وأنف الناقة. والكنية كأبي بكر؛ وأبي حفص؛ وأم هانئ، وأم كلثوم، وابن بطوطة، وابن المراغة، وبنت برى.

وقد أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالمبادرة إلى وضع الكُنى، فقال: « اكنوا أولادكم، قبل أن تغلب عليهم الألقاب » ونهى الله ــ جل ذكره ــ في كتابه العزيز عن التنابز أي الترامي بالألقاب فقال: ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ (الحجرات: ١١).

وقد سمت العرب بمفردات وبمركبات تامة، كَبَرَقَ نَحْرُه، وتَأَبَّطَ شرًّا، وشاب قرناها. وبمركب ناقص إضافي، كعبد شمس، وأبي قحافة. وبمركبات مزجية بمزج الكلمتين وجعلهما كلمة واحدة، كبعلبك، ومعدي كرب، وسيبويه، ودرستويه. وأسماء الأشخاص للناس، والبلاد، والأقطار، والجبال، والبحار، وبعض الحيوان.

وقد عامل العرب بعض الأجناس معاملة الأشخاص، فوضعوا لها أعلامًا أجروا عليها أحكام الأعلام الشخصية؛ لكونهم ميزوها من بين

الأجناس، ورأوا بها معنى خاصًا، فهم لا يزالون يستحضرونها، من ذلك تسميتهم الأسد أسامة؛ لظهور شره عندهم، وخوفهم إياه، وتسميتهم الثعلب ثُعالة وتكنيته بأبي الحُصين؛ لكثرة إفساده في غنمهم، وامتناعه منهم. وهكذا كل جنس سموه فإنه لابد أن يكون راعُوا فيه معنى مميزًا مُحْوجًا إلى تمييزه وأفراده بالعبارة عنه. وقد سموا بعض الأجناس المعنوية؛ فسموا المبرة «بَرَّة» بغير ميم، وسموا الفجور فجار، كنزال.

قال الشاعر:

إنا اقتسمنا خطتينا بيننا ... فحملتُ بَرَّة واحتملتُ فجار

وسموا الغدر كَيْسَان كسكران؛ ومنه:

إذا ما دعوا كَيْسَان كانت كهولُهم ... إلى الغدر أسعى من شبابهم المرد

وسموا اليسر يسار كفجار؛ ومنه:

فقلت امكثي حتى يسار لعلنا ... نحج معًا قالت وعامًا وقابله

قسم المعارف بالواسطة، هي ستة أصناف:

الصنف الأول الضمائر:

ضمائر المتكلم: معرفة بقرينة حكايته، عن شخصه الحاضر، ومثلها ضمائر المخاطب وضمائر الغائب؛ لا تذكر إلا بعد ذكر ما يدل على الغائب من الأسماء الظاهرة؛ فلا يجيء الضمير إلا ومعناه معين ملحوظ، وبيان الضمائر يأتي بعد.

الصنف الثاني أسماء الإشارة:

وهي أسماء موضوعة لكل مشار إليه بإحدى الجوارح حاضر مبصر، ودليل أنه المقصود بعينه، الإشارة إليه. وألفاظه: ذا لمفرد مذكر قريب؛ وذاك وذلك لمفرد مذكر بعيد أو أبعد. وذِي وذِه، وتي، وتِهْ، وتَا، وذاتُ للمفردة المؤنثة القريبة. وتيك وتلك للبعيدة أو البعدى. وذان للاثنين القريبين. وذانك للبعيدين. ولا تدخله اللام، وتان للاثنين القريبتين. وتانك للبعيدتين. وأولاء مشتركة بين جماعتي الذكور والإناث. وأهل الحجاز يأتون بالهمزة بعد الألف. وتميم: لا ويقال في البعد: أولئك. وأولاك.

ويشار بهذه الأسماء إلى كل شيء. وتختص الأمكنة بأسماء يشار بها إليها، وهي هنا للمكان القريب. وهناك، وهنالك، وثَمَّ ــ بفتح المثلثة ــ للبعيد. ويؤتى عند اختلاط ما يشار إليه بغيره باسم جنس المشار إليه؛ ليتم به التمييز؛ فنقول: ذلك الرجل، وذلك الكتاب.

الصنف الثالث الأسماء الموصولة:

وهي: أسماء تعبر بها عن الشيء الذي علمت أن مخاطبك عرفه؛ بسبب اطلاعه على حال من أحواله عينته عنده، فالواسطة في تعينه عهد المخاطب إيَّاه بتلك الحال. والعبارة عن الحال التي هي صفة معنى الموصول تسمى صلة، وللصلة أحكام تبين عند الكلام على الجمل من قسم النحو.

الأسماء الموصولة هي: الذي للمفرد المذكر. والتي للمفردة المؤنثة. واللذان للاثنين واللتان للاثنتين. والذين والألى لجماعة الذكور. واللاتي واللائي لجماعة الإناث. وهذه الأسماء تسمى بالموصولات المختصة.

ومن الموصولات أسماء تسمى بالموصولات المشتركة، وهي: مَنْ لذوي العلم، وما لغيرهم، وال، وأي. كما. وتستعمل الأسماء الموصولة في أجناس، وفي جميع أفراد جنس، وفي فرد معهود، وضابط ما يستعمل في جميع الأفراد أن يصح دخول كل عليه، وضابط ما يستعمل في الجنس أن لا يصلح دخول كل عليه، مثال ما يراد به الجنس: الذي تثير به الأرض وتسقي الحرث، نوع لحمه داء ولبنه شفاء، فإنه لا يصح أن تقول: كل واحد نوع، ومثال ما يراد به جميع الأفراد قولك: الله يعلم الذي غاب والذي حضر. فإنه يصح أن تقول: الله يعلم كل شيء غاب، وكل شيء حضر. ومثل ما يراد به واحد معهود قولك: الذي كان عندنا أمس رجل، أتاه الله الحكمة، وفصل الخطاب.

الصنف الرابع: الشيء المعهود القائم الصورة في الذهن بسبب حضوره أو شهرته، يعبر عنه باسم جنسه مفتتحًا بكلمة أل، ويسمى حرف التعريف، وحينئذ يسمى الاسم المقرون بها ــ ذا الأداة. والمحلى بأل، نحو: خذ الكتاب. واقرأ الكتاب بين يديك. وقدم الأمير. ونحو: ﴿كَمَا أَرْسَلْنا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ (المزمل: ١٥، ١٦). ويستعمل ذو الأداة كما يستعمل الموصول. وعند استعماله في الجنس تسمى أل ــ أل الجنسية. وعند استعماله في جميع الأفراد تسمى أل الاستغراقية. وعند استعماله في المعهود تسمى العهدية. مثال ما يستعمل في الجنس قولك: الرجل خير من المرأة. فإن المعنى هذا النوع إجمالًا خير من هذا النوع. ولا يسوغ أن تلاحظ في التفضيل، تفضيل الأشخاص. فلو قلت: كل رجل خير من كل امرأة. كذب الكلام بمريم مثلًا. وكثير من

الرجال، ونظير ذلك (القائم أكثر من القاعد) والماشي أقل من الراكب؛ إذ لا يمكن أن تقول: كل قائم أكثر؛ لأن الواحد لا يوصف بالكثرة.

ومثال استعماله في المعهود قولك: صبيحة يومنا جاء الرجل وأخبرني بكذا المعهود بينك وبين مخاطبك.

الصنف الخامس: المضاف لشيء من المعارف. ويستعمل كما يستعمل الموصول وذو الأداة. والأحكام تميز المراد من جنس وغيره. فما يراد به الجنس هو: موضوع القضية الطبيعية، وما يراد به جميع الأفراد هو: موضوع القضية الكلية. وما يراد به شخص معين من الأعلام، والضمائر، وأسماء الإشارة، والموصولات، وذي الأداة، والمضافات، وهو: موضوع القضية الشخصية.

وقد يراد بالأشياء التي لها الاستعمالات الثلاثة، واحد ما ملحوظ، تعينه بتعين جنسه، حيث يحصل الغرض بواحد من آحاد الجنس. فهو معين من جهة مبهم من جهة، ويسمى المعهود الذهني. مثل قولك: ادخل السوق فاشتر لنا طعامًا ما، فإنك لا تريد سوقًا بشخصه، بل تريد واحدًا من هذا الجنس لحصول الغرض، فتعريف الموصول وذي الأداة والمضاف أربعة أنواع، لكل نوع مواضع تخصه من الكلام.

الصنف السادس: الاسم المقرون بيا المطلوب به إقبال شخص بعينه، متوجه إليه. مثل: يا رجل، ويا زيد. فالمعارف سبع معرفة بنفسها. وهي: الأعلام الشخصية، والأعلام الجنسية. والعلم الجنسي بمنزلة ذي الأداة، الذي يراد به الجنس، إلا أن الإشارة إلى التعين بنفس اللفظ في الأول، وبكلمة أل في الثاني.

قسم اسم الجنس: الجوهري الجامد هو: كإنسان، وحيوان، وأسد، وحجر، وشجر وماء. ونار، ويقسم إلى ثلاثة أنواع: نوع يسمى: أسماء الجنس الأحادية. ونوع يسمى: أسماء الجنس الجمعية. ونوع يسمى: أسماء الجنس الإفرادية.

فالأول: هو ما وضع للجنس؛ ليراد به كل واحد من آحاده لا يتميز به واحد عن واحد، كإنسان، وأسد، وشجرة، ومدرة.

الثاني: هو ما وضع للجنس؛ يستعمل في كل جماعة من جماعات الجنس، إلى الجميع، فلا يستعمل في غير الجماعة: كشجر، ومدر وتمر، وبقر. وهذان النوعان فيما إذا تفصلت أفراد الأجناس وتشخصت بحيث تعد، فيكون فيها: الآحاد، والجماعات. وإذا دخلت على اسم الجنس الجمعي «التاء» صار للواحد: كشجر، وشجرة. ومدر، ومدرة. ورمل، ورملة، فذو التاء للواحد، والمجرد منها للجماعة، إلا في لفظ «كمْء، وكَمْأَة». فذو التاء «للجماعة والمجرد للواحد».

والثالث: ما وضع ليستعمل في الكثير والقليل منه، حيث لم تكن له آحاد مفصلة متميزة، كأسماء السوائل من: ماء، وزيت، وسمن، وعسل، فإن المفصل منها لو جمعته، صار شيئًا واحدًا. بخلاف الأجناس ذوي الآحاد.

* * *

قسم المصدر: عرفت المراد به ولفظه يكون على صور كثيرة، يأتي شرحها في قسم الصرف. ومعناه مطلق يتقيد بالنسب إلى متعلقاته، ويتبين في قسم النحو كما أن الكلام على قسمي الفعل، والمشتق يأتي بعضه في قسم الصرف، وبعضه في قسم النحو.

قسم الحروف: بيان معاني حروف المعاني من وظيفة علم متن اللغة. وتذكر في علم النحو لاحتياجه إلى بعضه، ورأيت إيرادها في هذا الموضع لتجيء المسائل الموقوفة على معرفتها بينه واضحة، ليس فيها إحالة، فنقول: سبعة عشر حرفًا تسمى أحرف الإضافة؛ لكونها لربط معنى كلمة بمعنى كلمة، والمربوط يسمى «متعلِّقًا» ـ بكسر اللام ــ والمربوط به يسمى «متعلَّقًا» ــ بفتحها ـ وهي: من، وإلى، وعن، وعلى، وعدا، وحاشا، وخلا، وفي، وكاف، ولام، وباء، وواو، تاء، ومذ، ومنذ، وحتى وكي».

الكلام في «مِنْ» بكسر الميم وسكون النون، وتفتح لوقوع أل بعدها، وتكسر لوقوع ساكن آخر مشتركة بين معان. الأول كون موضع أو وقت. وهما مدلول ما بعدها مبدأ مسافة فعل، وهو مدلول ما قبلها. مثاله: سعيت من الصفا، وطفت من الصبح. الثاني: كون ما بعدها علة لما قبلها. مثاله: أكرمتك من علمك. وكثيرًا ما يذكر بعدها كلمة «أجل». فيقال: من أجل علمك. الثالث: كون ما قبلها مبعضًا لما بعدها. مثاله: أنفق من مالك يخلف عليك. الرابع: كون الشيء بدل شيء بتعويض. أو بغير تعويض. مثاله: أرغب في الأعلى من الأدنى. الخامس: كون ما بعدها هو الجنس المراد من أجناس يحتملها لفظ سابق عليها، وتسمى «البيانية». مثاله: أنت على ما أسلفت من خير مأجور.

الكلام في «إلى» بكسر الهمزة، وألفها بدل من ياء. تظهر في بعض الكلام، وهي مشتركة بين معان. الأول: كون ما بعدها من مكان أو وقت، غاية مسافة فعل، وهي في مقابلة من الابتدائية. تقول: سار من المغرب إلى المشرق، من الصبح إلى العصر. الثاني: كون ما قبلها مصاحبًا لما بعدها. كقولك: فلان شرَّفه كرمُ حَسَب، وعُلُو نسب، إلى طبع نَقيٍّ. الثالث: كون ما بعدها مفعولًا لما قبلها لا فاعلًا، وهذه تقع في تركيب أحب، في مقابلة لام، تدل على أن ما بعدها مفعول لما قبلها. كقولك: زيد أحب إليّ من عمرو. فإلي تدل على أن ما بعدها محبوب بخلاف أحب لي. فاللام للدلالة على أن ما بعدها محب، ومثل أحب أبغض، وتسمى «اللام وإلي» في هذا التركيب حرفي التبيين.

الكلام في «عن»: بسكون النون وتُكسَرُ لوقوع ساكن بعدها. ومعناها: كون شيء فارق شيئًا بعد اجتماع.

الكلام في «على»: على ألفها بدل من ياء تظهر في بعض الكلام. ومعناها: كون شيء فوق شيء حسًّا أو معنى. نحو: زيد واقف على الأرض، على نية المشي.

الكلام في «عدا وحشا وخلا»، معنى هذه الحروف: كون ما بعدها مصروفًا عنه حكم، على أمر شامل للمصروف عنه وغيره. مثل: خرج أهل البلد عدا زيد، وحاشا عمرو، وخلا بكر.

الكلام على « في » هي مشتركة بين معان. الأول: كون ما بعدها ظرفًا لما قبلها. الثاني: كون ما بعدها سببًا. كقول النبي – صلى الله عليه وسلم – :« دخلت امرأة النار في هرة، حبستها لا هي أطعمتها، ولا هي

أرسلتها تأكل من خشاش الأرض». الثالث: كون شيء فوق شيء، فهي كعلي. نحو: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ (طه: ٧١).

الكلام في « الكاف »: هي مشتركة بين معنيين، أحدهما: كون ما قبلها شبيهًا بما بعدها. وثانيهما: كون ما بعدها علة لما قبلها. مثل: زيد كالقمر. ومثل ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٨).

الكلام في « اللام » وهي مشتركة بين معان؛ أحدها: كون ما قبلها مملوكًا لما بعدها، أو منزلًا منزلته. وثانيها: كون ما بعدها علة. وثالثها: كونه نهاية.

الكلام في «الباء»: هي مشتركة بين معان. أحدها: كون ما قبلها ملصقًا بما بعدها وثانيها: كونه مصاحبًا مثل: اشترى الفرس بسرجه، وأخذ الشيء برُمَّته وبأَسره. وثالثها: كون ما بعدها ظرفًا. ورابعها: كونه سببًا، مثل: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠] وخامسها: كونه عوضًا. وسادسها: كونه آلة، وتسمى باء الاستعانة. وسابعها: كون ما بعدها مقسمًا ومحلوفًا به لتأكيد الدعوى، أو الاستعطاف. «والواو والتاء» كالباء في معنى القسم لغير الاستعطاف.

الكلام في: «مذ ومنذ» هما بمعنى من أن صحبتا زمانًا ماضيًا، وبمعنى «في» إن صحبتا زمانًا حاضرًا، وبمعنى «من وإلى» إن صحبتا زمانًا ماضيًا بعضه.

مثل: مُذْ أَوَّلِ يوم، ومُذْ يومِنا، ومذ عام، ومذ يومين.

الكلام في «حتى» معناها: كون ما بعدها غاية لما قبلها، في أمر مرتب في الذهن شرفًا أو خسة. مثل: اقرأ العلم حتى السَّحَر.

الكلام في «كي»: هي في هذا الباب لا تصحب إلا كلمة سؤال، وهي «ما». مثل: كيمه، فهي للعلة المطلوبة بما.

حرفا التشبيه: هما الكاف السابقة، وكأن. مثل: كأن زيدًا قمر.

أحرف التوكيد: وهي التي تفيد بها أَنك جازم بنسبة أمر إلى أمر.

إِنَّ: بكسر الهمزة. وأَنْ: بفتحها. «ولام» تسمى لام الابتداء. نحو: لزيد أفضل من عمرو، وقد، وتختص بالأفعال . حرف الاستدراك لكن، والاستدراك رفع وهم نشأ من الكلام السابق. نحو: فلان عالم لكنه سيء الخُلُق. «حرف التمني ليت» والتمني تشوف النفس وطلبها حصول ما لا يمكن أو يبعد. «حرف التوقع لعل» ويقال الترجي والترقب.

«أحرف النفي» هي: ما، ولا، ولن، ولم، ولما، وإن، ولات.

«أحرف الجواب»: نعم، وبلى، وأَجل، وجَيْرِ، وإن وأي، فنعم، وأجل، وجير، وأن: لتصديق المخبر، ووعد الطالب، وإعلام السائل، ولا ضَّدها . وبلى لإبطال نفي سابق. «وأي» يغلب وقوعها بعد الاستفهام، ويصحبها القسم كقوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [يونس: ٥٣] ومنه قول: «إِيوه» بكسر الهمزة والاقتصار من القسم على واوه، وإلحاق هاء تسمى هاءَ السكت، تقع في مواضع من كلام العرب، يأتي بيانها في قسم الصرف.

أحرف «النداء» وهو التصويت طلبًا للإقبال، أَيْ، أَيَا، وآ، وياء، وهَمزَة مفردة.

«حرف العرْض» وهو الطلب برفق أَلَا.

«أحرف التحضيض» وهو الطلب بشدَّة أَلَّا، وهَلَّا ولولا، ولوما.

«حرفا الاستفهام»: الهمزة وهل. هل لطلب التصديق، فيكون المتكلم بها غير حاكم بوقوع النسبة يطلب أن تعلمه ليحكم، والهمزة مثلها ولطلب التصور، فيكون المتكلم بها حاكمًا، بوقوع النسبة مترددًا بين فاعلين، أو مفعولين، أو مكانين، أو زمانين، أو حالين، أو غيرهما. وبعد الهمزة التي لطلب التصوُّر، يؤتى بأمْ وتسمى «أَمْ المتصلة» و «المعادلة».

«همزة التسوية» هي التي تقع بعد سواء غالبًا، ويؤتى معها «بأَم المتصلة»، كما يؤتى بها مع همزة الاستفهام.

«أحرف الشرط» إِنْ، ولَوْ، وأَمَّا، ولَوْلاَ، ولَمَّا، فإن لتعليق حصول أمر على أمر آخر مشكوك في حصوله، لكن بفرض حصوله يلزم حصول ما علقته به، ووقفته عليه. وهذا هو معنى لفظ الشرط، وتمام الكشف عن ذلك أن كل أمر متردد بين: أن يكون، وأن لا يكون لا بد له. من سبب يرجح أحد طرفيه. وربما توقف تحقق ما يرجحه السبب على شروط. فمتى وجد السبب وتمت الشروط وجب حصول المسبب. مثل قولك: إن طلعت الشمس، ولم يحجبها الغمامُ أضاءت الآفاق، فطلوع الشمس سبب للإضاءَة، وعدم حجب الغمام شرط، فالعبارة الواقعة بعد إنْ عبارة عن سبب أو شرط. فهي لتعليق الأمور المستقبلة. وأما لَوْ فهي لربط أمر بأمر، والحكم باللزوم بينهما في الماضي. ولها في اللغة ثلاثة استعمالات:

الأول: أن يفاد بها أن شيئا انتفى، وامتنع وجوده لانتفاء سببه أو شرطه، كقوله الشاعر:

فَلَوْ طار ذوُ حَافِرٍ قَبْلَها لطارَتْ ولكنه لم يَطِرْ

وحينئذ يكون المراد منها. هذا المعنى يستدرك برفع ما يليها وهو المقدم؛ ليرتفع ما يليه، وهو التالي.

الاستعمال الثاني: أن يفاد بها أن مضمون التالي واقع على كل حال، وذلك حيث يعلق حصوله على ما ينافيه، فإذا كان واقعًا مع ما ينافيه، فوقوعه مع ما يلائمه أولى، كقول النبي - صلى الله عليه وسلم - في بعض الصحابة: « إن سالمًا شديد الحب لله، لو لم يخف الله لم يعصه» فعدم العصيان يلائمه الخوف، فلما علّق على المنافي، عرف أنه واقع على أي حال فرضت. وحينئذ يكون المراد منها هذا المعنى لا يستدرك إذ الغرض التقرير.

الاستعمال الثالث: أن يفاد بها أن بين مقدمها وتاليها لزومًا، فيستدل بوقوع المقدم الملزوم، على وقوع التالي اللازم، ويستدل بانتفاء التالي اللازم، على انتفاء المقدم الملزوم، فيستدرك بثبوت المقدَّم ليثبت التالي، ويستدرك بانتفاء التالي لينتفي المقدم. مثال ذلك قولك: لو كان زيد عالمًا، أحب العلماء، لكنه عالم، فهو يحب العلماء، أو لكنه لا يحب العلماء، فهو ليس بعالم. ولما كان اللازم قد يكون لازمًا لأكثر من شيء، كالمسبب الذي له أسباب كل واحد منها يكفي لوجوده. لم يكن وجود اللازم المسبب دليلًا على وجود سبب بعينه. ولم يكن انتفاء سبب بعينه دليلًا على انتفاء المسبب. مثال ذلك: الضَّوْء، فإنه يتسبب عن الشمس، ويتسبب عن النار، فلا يكون وجوده دليلًا على وجود الشمس، ولا يكون

انتفاء الشمس دليلًا على انتفاء الضوء. وهذا الاستعمال لَلَوْ هو المبحوث عنه في علم المنطق؛ لأنه هو العلم الباحث عن حال الاستدلال، وجميع استعمالات لَو واردة في الكتاب العزيز.

فالأول: كقوله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ [سورة الأنفال: ٢٣]، أي لكنه لم يعلم فيهم خيرًا فلم يسمعهم.

والثاني: كقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [سورة لقمان: ٢٧].

أي فكلمات الله غير متناهية على أي حال فرض.

والثالث: كقوله: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ [سورة التوبة: ٤٦].

أي لكنهم لم يعدوا، فهو دليل على عدم إرادتهم الخروج.

وأما كلمة «أما» فهي للتحقيق في صورة التعليق.

مثلًا تقول: أنا مسافر الحجاز، فيقول لك إنسان: إنَّ الوقت شديدُ الحر والطرق مَخُوفةٌ، ولولا ذلك لصحبْتُك.

فتقول: أما أنا فمسافر. ومعناه – مهما يكن من حرٍ أو بَرْدٍ أو اعتدالٍ، أو أَمْن أو خَوْفٍ فأَنا مسافرٌ. استغنت العرب بكلمة أمَّا عن مهما يكن وبيان مهما. وزُحْلِقَت الفاء اللازمة «لإمَّا» عن موضعها. فبان أن الغرض من تركيب أما هو التحقيق بصورة التعليق.

وأما «لَوْلَا» فهي لإفادة انتفاء شيء لوجود آخر. كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥١].

أي: انتفى الفساد لوجود الدفع.

ويقال في لولا لوما، وأما لَمَّا، فهي لإفادة حصول أمر، لحصول سببه في الماضي.

مثل قوله تعالى: ﴿ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ﴾ [سورة يونس: ٩٨].

وغيرُ سيبويه وأتباعه يقول: إِنَّ لَمَّا هذه اسم بمعنى أَن إِذ من أسماء الزمن الماضي.

«أحرف التنبيه»: يَا، وأَلَا، وأما. ويستفتح بهذه الكلام والتنبيه ينبئ عن الاعتناء. «وها» وتصحب أسماء الإشارة التي ليس معها لام مثل: هذا وهذاك. فلا يقال: هذا لك. وتصحب ضميرًا مصحوبًا باسم إشارة. مثل: ها أنا ذا، وها أنت ذا. لدقة الإشارة، وصغر لفظها، وغلبة الأشكال في المشار إليه. وتصحب وتعقب كلمة «أي». مثل: يا أيها الإنسان.

أحرف التشريك بين شيئين في حكم، أو حصول الفاء وثُمَّ. «للتشريك والترتيب مع الاتصال في الأُولى والفورية، ومع الانفصال في الثانية والمهلة. مثل: قَرأَ زيدٌ فعمُرٌ، أو ثم عَمْرَو، أو قَرأَ زيدٌ فقرأَ عمرُو، أَو ثمَّ. ورُبَّما أفادت الفاء سببية السابق لِلَّاحق».

و «الواو وحتى»، للتشريك المطلق بترتيب وبغير ترتيب. باتصال وغيره.

مثل: خرج زَيدُ وعَمْرُو، وزيد قبل أو بعد، أو مقارن.

لكن حَتَّى لا تكون إلا مع ذي أَجزاء، أَو جزئيات ويكون ما بعدها غايةُ لما قبلها في خسة أو شرف. مثل: خرج أهلُ البلد للنزهة حتى الكنَّاسُون أو أُمراؤُها.

حرف الترديد: للشك، أو التشكيك، أو الإبهام.

أو مثل: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[سبأ: ٢٤]. وتكون للتخيير بين أمرين لا يجوز جمعهما عقلًا أو شرعًا.

مثل: تكلَّمْ أَو اسكُتْ، وتزوج هندًا أو أُخْتَهَا. وللإباحة عند جواز الجمع.

مثل: جالِسِ العُلَمَاءَ أو الزُّهَّادَ.

حرف الإضراب والإعراض: أي الانتقال من ضرب إلى ضرب، وعُرضٍ - بضم العين إلى عرض-.

كلمة «بلْ»:

وهي عثل: جاء زيد بل عمرو، وأَحسن إلى زيد بل عمرو: ظاهرة في صرف الحكم عن الأَوَّل وتخصيصه بالثاني مع جواز اشتراكهما.

فإذا قلت: لا بل كان صرف الحكم قطعيًا.

وفي مثل: ما أَساء زيدُ بل عمرُو، ولا تهُنْ زيدًا بل عمرًا. التقرير ما سبق والانتقال بضدِّه لما بعدها. وما فيه تقرير السابق يسمى «إضرابًا انتقاليًا». وما فيه رفع السابق يسمى «إضرابًا إبطاليًا».

وتستعمل كلمة «أَم» بمعنى «بل» فقط. وبمعنى «بل». والهمزة، جميعًا في بعض الكلام، وحينئذ تسمى أم المنقطعة في مقابلة أم المتصلة، التي سبق القول بأنها تكون بعد همزة الاستفهام التصوَّري، وبعد همزة التسوية.

حرف التفصيل إِمَّا: بكسر الهمزة.

مثل: إِمَّا زيد. وإما عمرو.

وتقوم مقام الثانية.

أو مثل: إِمَّا زيدٌ أو عمْرٌو.

حرف النهي لَا:

في مثل: لَا تُحقِّرْ نَفْسَك.

حرف الأَمر اللام:

في مثل؛ ليَحْسُن رأْيك فلْيَزِدْ جدُّك، ولتطَب نفسُك، ثم لتطلب كلَّ خير، وتُسَكَّنْ بعد الواو والفاء، وتكسر مع غيرهما.

حرف الاستثناء إِلَّا:

مثل: كلُّ الكلام حَسَن إلا كلامًا أعقب شرًا.

أحرف التعليل: مِنْ، واللَّام، والكاف، والفاء، والباء:

مثل: أكرم زيدًا من أنه حكيم، أو لأَنه، أو كما أَنه، أو فإِنه، أو بأَنه.

أحرف الاستقبال: أي التي يكون ما بعدها مستقبلًا آتيًا لا يحتمل الكون في الحال.

«السين وسوف وأن»: بفتح الهمزة وسكون النون. و«إن» بكسر الهمزة. «ولن»:

مثل: سيقول، ولسوف يعطيك، وأن تصُومُوا خير لكم، وإن تجهد تسعد، ولن تغلبك صعوبة صعب إن صَبَرْتَ وسلكت إليه من مسالكه.

خمسة أحرف تسمى «الأحرف المصدرية والموصولات الحرفية والأحرف السوابك»؛ لأنها تجعل ما بعدها وهو صلتها من فعل أو مشتق آخر بمنزلة مصدر فكأنها سبكت ما بعدها مصدرًا، بحيث لو رفعتَها صلْتَها، ووضعت المصدر مكانهما، استقام لك الكلام. ولذلك تسمى هذه الأحرف مع ما بعدها «المصادر التأويلية»؛ لأنها في اللفظ أحرف وأفعال أو مشتقات أخر. وفي اللفظ هي مصادر، والمصادر التأويلية في مقابلة المصادر الصريحة.

والأحرف المذكورة هي «أَنْ» - بفتح الهمزة وسكون النون -.

«وأَنَّ»: بفتح الهمزة والنون المشددة. «وكَيْ، ومَا، ولَوْ» مثل: حسن أن تكتب العلم؛ لأن الكتبَ يَحفظُه من الضياع، ولكي تراجع الكتاب متى شئت. ومما وضَعتْ الكتبُ حُفظتَ العلومُ.

وقد يلحظ مع ما هذه معنى الوقت فتسمى «المصدرية الطرفية».

مثل: أنت حكيم محبوب ما طلبتَ الخيرَ وجهدت في تحصيهِ. فهو على معنى: مدة ما طلبت الخير. وعلى تأويل مدَّة طلبك. وأودُّ لو تتحفظ ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ .

حرف الردع والزجر كلا:
مثل قوله تعالى:﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا ﴾ [سورة التكاثر: ١-٣].

حرفا التفسير «أي» بفتح الهمزة وسكون الياء. «وأَن» بالفتح فالسكون. فَأَيْ تكونُ بعد ما يحتاج إلى البيان ويلاحقها. مثل: غَضَنْفَر أي أسد، وعَسْجَد أي ذهب. وأن تقع بعد مبهم مذكورٍ أو محذوف متعلق بفعل في معنى القول دون حروفه. كأمر، وإشارة وما بعد أن جملة مفسرة للمبهم السابق هي معناه.

مثل قوله تعالى: ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ ﴾ [سورة طه: ٣٨-٣٩].

ومثل قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ [المؤمنون : ٢٧]؛ أي وأوحينا إليه مُوحى هو: اصنع الفلك.

حرفا التوكيد الفعلي، نون ساكنة تسمى «نون التوكيد الخفيفة»، ونون مفتوحة مشددة تسمى «نون التوكيد الثقيلة». لا يلحقان الأفعال الماضية،

ويلحقان الأفعال الأمرية عند الحاجة إلى التوكيد. ويلحقان المضارع وجوبًا إذا كان مستقبلًا مثبتًا.

جواب قسم: مثل قوله تعالى: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٧].

وقريبًا من الوجوب إذا كان شرطًا، لأَن المزيد معها لفظ مَا.

مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٤١].

وكثيرًا إذا كان ذا طلب من: استفهام، أو تَمَنٍّ، أو نهي، أو عرض، أو حض.

مثل: هل تُضغِيَنَّ، وليتَك تحفَظَنَّ، ولا تَكْسَلَنَّ، ولا تَذْأَبَنَّ؟ وهلا تَطْلَبَنَّ. وقليلا والأحسن تركه، والاقتصار على ما سمع من العرب إذا كان منفيًّا بلمن أو زِيدّ قبلَه لفظُ مَا.

كقول الشاعر:

وَمِنْ عضَةٍ ما يَنْبُتنْنَّ شكيرَها

أو كان شرطًا لغير إِمّضا. ويمتنع توكيد المضارع بهما في غير هذه المواضع، فلهما مع المضارع خمس أحوال: وقد شذ بعض العرب. فلا ينطق بمثل ما به نطق، فأكد الفعل الماضي الدعائي تنزيلًا له منزلة الأمر لاشتماله على معنى الطلب.

فقال:

دامَنَّ سَعْدكِ إن رَحِمتِ متيَّمًا ... لولاكِ لم يكُ للصبابة جانِحا

فهو بمنزلة اللهم أَديمَنَّ سعْدهَا.

وشذ بعض آخر، فأكد اسم الفاعل تنزيلًا له منزلة المضارع:

فقال:

أَرَأَيْتَ إنْ جَاءتْ بِهِ أَمْلُودَا ... مُرَجَّلًا ويلبسُ البُرودا

أقائِلنَّ أحضِروا الشهودا

فهو بمنزلة: أتقولنَّ.

وللنطق بالأفعال معهما كيفيات، لم تكن له بدونهما تقف عليها في قسم الصرف تكملة للكلام على قسم الحروف: اعلم أن العرب قد يسمون الشيء باسم، ثم يزيدونه حرفًا، ويسمون به ما هو أكبر من ذلك الشيء من جنسه.

ومن هنا قالت العلماء: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. من ذلك ما حكاه الزمخشري عن نفسه قال: اجتزتُ يومًا بساحل البحرِ، فرأيت رجلًا أعرابيًا عند مركبين صغير وكبير، فسألته عن اسم الكبير فأشار إلى الصغير. وقال: أليس هذا الشُّقْدُف؟ فقلت له: بلى. فقال: فهذا الشُّقْدَاف. إذا وعيت هذا فاعلم أن بعض أحرف المعاني تستعمل في بعض الكلام زائدة، لا لإفادة معنى، بل لغرض التوكيد والتقوية من باب زيادة المعنى بزيادة المبنى.

وتلك الأحرف هي: من، والباء، واللام، وإِن - بكسر الهمزة- .

«ولا، وما، والكاف»: فتزاد من بعد نفي، أو نهي، أو استفهام داخلة على نكرة. مثل: [قوله تعالى]: ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [سورة الحاقة: ٤٧].

وما لباغ من مَفَر، ولن ترى من أحد يعرف الخير ولا يأتيه، ولا يجهل الشر وهو يبتغيه، ولا تَخَيّبْ من آمل وأنت قادر.

وتزاد الباء كثيرًا بعد نفي ما وليس. مثل: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة :٤٧].

ومثل: [قوله تعالى]: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [سورة الزمر: ٣٦]. ونادرًا في غيرهما. فلا يسوغ أن يحمل فصيح الكلام عليه مع إمكانه غيره ومن الشاذ قولهم: بحَسْبكَ دِرْهمٌ.

فلا يقال في «بسم الله الرحمن الرحيم» يحتمل زيادة الباء وتزاد اللام في مثل: للعلم يكتب من أحبه، وزيد كاتب للعلم. وتُزَاد «إن» بعد «ما» النافية في مثل: مَا إنْ أتيت بشيءٍ أنتَ تكرهُه. وتزاد مع بعض أحرف الإضافة: مثل قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ﴾ [نوح: ٢٥]، و ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٤١].

ومثل:

ونـنـصـر مولانـا ونعلـم أنّـه كَمَا النَّاسُ مجرومٌ عليه وجَارمُ

وتزاد أيضًا بعد «أَين، وأيِّ، وإذا، ومتى، وحيثُ، وكيفَ، وإنَّ، وأَنَّ، وليت، ولعلَّ، وكَأَنَّ، ولكنَّ» وتزاد «لا» بعد عاطف على منفي.

مثل: ما جاء زيد ولا عمرو.

وبعد «أن، واللام». مثل قوله تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ [سورة الحديد: ٢٩]. وتزاد «الكاف» في نحو قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [سورة الشورى: ١١] وثَمَّة: حرف يقال له الشبيه بالزائد وهو «رُبَّ» وذلك أنه يذكر مع أحرف الإضافة. وقد عرفت أن حرف الإضافة يفيد معنى، ويحتاج إلى متعلق. وبذلك سمي «حرفًا أصليًا» وما لا يفيد معنى، ولا يحتاج لمتعلق يسمى «زائدًا» فلفظ «رب» لكونه يفيد معنى، وهو غير محتاج إلى متعلق سمي «شبيهًا بالزائد والأصلي». ومعنى «رب»: تكثير شيء أو تقليله.

مثل قول الشاعر:

رُبَّما تكرهُ النفوس من الأمر ... له فُرجة كَحلِّ عِقَال

وقول الآخر:

رُبَّةُ فِتْيَةٌ دَعُوتُ إلىَّ ما ... يكسب المجدَ دائبًا فَأَجابُوا

وقول آخر:

رُبَّما أوفيتُ في عَلَم ... تَرْفَعنْ ثوبي شَمَالَات

ونستعمل في مقام التسلية، والإدلال، والافتخار، والامتنان، والتهديد.

وتحذف «رب» ويعوض عنها الواو. ويقال لها «واو رُبَّ». كقول الشاعر:

وفتيــــة زُهـــــرِ الآداب بيـــــنهُم أَزْهَـى وأزهـرُ مـن زهـر البساتين

مَـشَوْا إلـى الـرَّاح مَـشْي الـرُّخ والراحُ تَمشِي بهـمْ مَشي الفرازين

وقول آخر:

وليلـةٍ بـتُّ أَسـقي فـي غَيَاهبهـا راحًـا تَـسُلُّ شَـبَابي مـن يـد الهِـرَم

مـا زلـتُ أشـربها حتى نظـرتُ إلـى غزالـة الـصُّبح تَرْعـى نـرجِس الظُّلَـم

وقول آخر:

وأهيــفَ متبـــسم عـــن حَبَـــب مُـــوَرَّد الخـــدِّ ملـــيح الـــشنب

يُلُـــومني العـــاذل فـــي حبـــه ومـــا درى شـــعبان أنـــي رجـــب

انتهى الكلام على معاني الحروف، ولها أحكام يجيئك تفصيلها في قسم النحو.

التقسيم الثاني: من تقاسيم فقه اللغة: «اللفظ الواحد» إما أن يكون موضوعًا وضعًا أصليًا لمعنى واحد، ويسمى «مختصًا» ككثير من أسماء الأجناس، وإما أن يكون موضوعًا وضعًا أصليًا لأكثر من معنى، ويسمى «مشتركًا». وإما أن يكون موضوعًا وضعًا أصليًا لمعنى وتبعيًا لجميع ما يناسب ذلك المعنى وله به علاقة وارتباط، كالمشابهة، واللزوم، والسببية، والكلية، والجزئية، إلى غير ذلك من العلاقات بين المعاني، ويسمى اللفظ باعتبار الوضع الأصلي «حقيقة» وباعتبار الوضع التبعي «مجازًا» إن كانت المناسبة مرعية حالة الوضع والاستعمال دائمًا، فإن كانت المناسبة مرعية حالة الوضع فقط، بحيث صار المعنى الثاني الذي وضع له اللفظ وضعا

تبعيًا، وهو الذي يتبادر إلى الأفهام عند استعمال اللفظ، ويكون المعنى الأول مهجورًا، غير ملحوظ عند الاستعمال سمي اللفظ «منقولًا»؛ فإن كان الناقل عامة الناس سمي «حقيقة عرفية»، وإن كان الناقل الشرع سمي «حقيقة شرعية». وإن كان الناقل أهل فن من الفنون سمي «حقيقة اصطلاحية».

فالأول: كلفظ الدابة كان اسمًا لكل ما يدب على وجه الأرض، ثم تعارفه الناس اسمًا لذوات الأربع، وكالنجم كان اسمًا لكل كوكب، ثم تعارفه الناس اسمًا للثريا، وعليه ورد قوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ [سورة النجم: ١].

والمثَلُ: إذا طلع النجم عشاءَ ابتغى الراعي كساء. وكالعقبة كان اسمًا لكل كُذْية تعترض في الطريق، ثم تعارفه الناس اسمًا لعقبة أيلة، التي في طريق أهل مصر إلى الحجاز. وهذا النوع غير كثير.

والثاني: كالصلاة، والطهارة، والوضوء، والتيمم، والصوم، والزكاة. إلى غير ذلك من الألفاظ، التي نقلها الشرع عن معانيها اللغوية إلى معان تجددت بتجدد الإسلام.

والثالث: كلفظ الفاعل، والمفعول، والحال، والتمييز. إلى غير ذلك من الألفاظ التي نقلها أهل النحو.

وكذلك أكثر ألفاظ الفنون العلمية.

ثم الحقائق: تارة تستعمل في معانيها وهي المرادة بالإفادة، وتارة تستعمل في معانيها والمراد بالإفادة غيرها من المعاني المناسبة لها،

وحينئذ تسمى الحقائق بالاعتبار الأول «صرائح» وبالاعتبار الثاني: «كنايات».

مثال: ذلك زيد كثير الرماد، والرماد ما تبقيه النار بعد انتهاء فعلها، فتارة يكون المراد الإخبار بكثرة رماد زيد فقط، كأن يكون خبازًا أو طباخًا، وتارة يكون المراد الإخبار بكرم زيد، فإن كثرة الرماد دليل على كثرة الإحراق، وكثرة الإحراق دليل على كثرة الخبز والطبخ؛ وكثرة الخبز والطبخ دليل على كثرة الأكلة، وكثرة الأكلة دليل على كثرة الضيوف وسماحة لهم بما ملكت يداه واختص بحيازته.

وتفصيل العلاقات بين المعاني وتنويعها إلى أنواع بسببها تنوع المجاز، وبيان أنواع الكناية قد وضع له فن هو المسمى بفن «البيان».

المشترك:

وأما المشترك: فلا بد من تفصيلة في هذا الموضع نوعًا من التفصيل، وبيان ما تسهل بسببه للبلغاء من اللطائف.

فنقول: المشترك واجب الوقوع؛ لأن الأشياء التي تستحق العبارة عنها غير متناهية، والألفاظ متناهية لكونها مؤلفة من الحروف المتناهية، ولكثرة المشترك ادعى بعضهم: أن المشترك أكثر من المختص. واستدل بأن جميع الحروف مشتركة، والأفعال الماضية مشتركة بين الدعاء والأخبار، والأفعال المضارعة مشتركة بين الحال والاستقبال، والأفعال الأمرية مشتركة بين الطلب الجازم والإباحة والتخيير، والتهديد. وكثير من الأسماء مشتركة، فإذا ثبت أن قسمين وبعض الثالث من أقسام الكلمة من المشترك، ثبت أن المشترك أكثر من المختص، لكن الاستقراء مبطل

دعواه. ولتشريك المعاني في اللفظ الواحد أغراض منها: الثورية بالشيء عن غيره؛ لدفع المحذور مع الصدق.

كما روى أن أبا بكر – رضي الله عنه – يوم خرج مع النبي – صلى الله عليه وسلم – مهاجرين إلى المدينة، سأله رجل من هذا الذي معك؟ فقال له: هذا رجل يهديني السبيل. فالهداية مشتركة بين تعريف ما ينبغي وما لا ينبغي من الأعمال وبين الدلالة على الطريق الموصل إلى الجهة المقصودة، فأَوهم أنه يريد هداية الطريق. وهو يريد هداية الدين.

وروى أيضًا أن النبي – صلى الله عليه وسلم – : لما خرج يريد غزو المشركين غزوة بدر – وانتهى إلى – نصف الطريق من المدينة إلى مكة؛ وجد رجلًا أعرابيًا فسأله: ما علمك بقريش ومحمد؟ فقال له الأعرابي: مم أنت؟ فقال له النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى تخبرني فقال الأعرابي: بلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا ومحمدًا خرج يوم كذا، فإن كان هذا صدقًا، فمحمد بموضع كذا، وقريش بموضع كذا. ثم استنجز الأعرابي الوعد، فقال له النبي – صلى الله عليه وسلم – أنا من ماءٍ ومضي. فأوهم أنه من العراق؛ لأن من أسماء العراق ماء. وهو يريد أنه ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق: ٦-٧]، ومن قال عليه الصلاة والسلام: « إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب ».

ومن المشترك: ألفاظ موضوعة لأشياء وأضدادها، سماها نقلة اللغة بالأضداد، فتراهم يقولون مثلًا: الجَوْن بفتح فسكون: الأبيض والأسود ضد من ذلك الجَلَلُ للعظيم والحقير.

قال الشاعر من الأول:

قـومي هُمُـوا قَتَلُـوا أَمـيمَ أخِـي ... فـإِذا رميـتُ يُـصيبُني سَـهْمِي
فلـئِن عَفَـوتُ لأعفُـوَنْ جَلَـلا ... ولـئِن سـطوتُ لأوهِـنَنْ عظمِـي

ومن الثاني قول آخر:
كـل شـيءٍ مـا خَـلا المـوت جَلـل ... والفتَـى يـسعى ويُلهِيـه الأمـل

وقول الطُّغرائي:
فقلـت أدعـوكَ للجُلَّـى لتَنْـصُرَنِي ... وأنت تخذُلُني في الحادِثِ الجلل

ومنه الغابر لماضي الزمن وغيره وللآتي.

قيل، ومن الأضداد لفظ «سوى» فإنها تطلق على عين الشيء وعلى غيره، وخرجوا على ذلك قول حسان - رضي الله عنه - بمدح النبي - صلى الله عليه وسلم -:
أتانـا فلـم نعـدل سِـواه بغيـره ... نبيٌّ أتى من عندِ ذي العرش هاديًا

قالوا: إن معناه لم نجعل شخصه عديلًا لشخص من الأشخاص المغايرين له، بل فضلناه على الكل، وخرَّجه غير هؤلاء على أن لفظ «سوى» بمعنى غير. فقالوا: إن معناه لم نشتغل بتفضيل أحد على غيره إلا محمدًا، فإنا مشتغلون بإثبات فضله على كل من عداه.

فالضمير في بغيره يعود على سوى. وعلى التخريج الأول يعود الضمير على النبي، فإن التقدير: أتانا نبيٌّ فلم نعدل شخصَه بغيرِهِ.

ومن لطائف المشترك، تحسين الكلام بالنوع الذي عدَّه أهل فنِّ البديع من الأمور المحسنة، وسمُّوه «الجناس التام» وإن ازدراه بعض فطناء المتأخرين، حتى قال منفرًا عنه:

طبع المجنس فيه نوعُ قيادةٍ أوَ مَا ترى تأليفه للأحرفِ

وذلك أن ناسًا من المتقدمين لهجو باستعماله؛ حتى انصرفت أفكارهم إلى جهة الألفاظ مهملين جانب المعاني، حتى صار أكثر كلامهم ركيكًا مرذولًا وأحسن الجناس ما اقتضاهُ المعنَى حتى تكون الألفاظ في مواقعها متمكنة.

ويكون الشاعر أو الناثر بريئًا من تكلفه ساعيًا في الطريق، الذي تهجه بعض الأدباء بقوله.

إذا أحببتَ قولَ الشِّعر فَاخْتَرْ لنظمِكَ كل سهل ذِي امتناع
ولا تقصِد مُجانسة ومَكِّن قوافيه وكِلهُ إلى الطِّباع

ومن الجناس المقصود به إحصاء المعاني، التي اشتركت في اللفظ قول يحيى بن سلامة الحصكفي نسبة إلى «حصنكيفا» إحدى بلاد الشام. من أدباء القرن السادس عصر أبي محمد الحريري صاحب المقامات:

عادَك عيدٌ وطال ما عادَا وهكذا كُلما انقضى عَادا
عَدَاك عمّا تُريدُه زَمَنٌ لست بقِرنٍ لهُ إذا عادا
يجنح للسلم ماكرًا فإذا سالَم فاعلم بأنه عادَا
وكم عدا داؤه إلى مَلِك عَذاوَةُ مَخْشِيَّة فما عادا
قصَّر آمال قيصر ومَضى بكسر كِسرى وقبله عادَا
فإن رمَى صَرْفه عداك فلا تُبدِ شَماتا فرُبَّما عادا

كم ادعى مدع علىّ وَرَع فالتزم المدَّعي وما عادا
وكم عدا ظالم فأبصر من سلم فيه المُنى وما عادا
وكم عدا طالب فعيق وكم نال المدا من مشي فما عادا
وكم مريض أبل من مرض ومات من طبه ومن عادا

فلفظ «عاد» يعود مشترك بين ثلاثة معان:

الأول: اتخذ عادة وديدنا، وهو المراد بعادك عيد، والعيد ما تكرر وروده عليك من الأحوال، فكلما انصرف أو قل عاد.

والثاني: رجع بعد ذهاب، وهو المراد بقافية البيت الأول، والألف المرسومة بعد الدال ليست من اللفظ ترسم في رويّ الشعر المفتوح تسمى «ألف الإطلاق» لإطلاق الصوت بها، ولأجلها يرسم بالألف ما حقه أن يرسم بالياء، كالقوافي السبع من هذا الشعر، وهي غير الأولى والخامسة والأخيرة، وعاد في القافية الخامسة اسم القبيلة المشهورة المذكورة مع ثمود. وكان اسم أبيها، فسُمِّيت به، كما هو عادة العرب يسمون القبائل بأسماء آبائها.

والمعنى الثالث: لعاد زار المريض، وهو المراد بقافية البيت الأخير، وقد جمع ثلاثة المعاني بعض الأدباء يشكر أصحابه بقوله:

مرضت لله قوم ما فيهمو من جفاني
عادوا وعادوا وعادوا على اختلاف المعاني

أي: زاروا ورجعوا بعد انصرافهم واتخذوه عادة.

وعدا يعد مشترك بين أربعة معان:

عداه عن الأمر صرفه عنه. وربما قيل عاده بالقلب. وهو من سنين العرب ويسمى «القلب المكاني»؛ لكونه تقديم حرف عن مكانه وتأخير آخر فلا يرد نقضًا على حصر معاني عاد، وعدا الداء من موضعه إلى غيره، لم يقتصر عليه وجاوزه إليه وعدا عليه، بغى وظلم وعدا أحضر. أي: جرى شديدًا وعادى على صيغة المغالبة مشتركة بين سبعة معان:

نسردها على ترتيب القوافي.

عاداه صَارَفَهُ. أي: غالبه في الصَّرف والعطف عن الوجهة. وعاداه: كان عدوًّا مثل ما كان. وعاداه: جاوزه وتحامى أن يصل إليه. وعادى بين الشيئين: وإلى بينهما كأن يوالي بين صيدين في طلق. أي: شوط واحد من العدو.

وقال امرؤ القيس يصف حصانه:

فعادا عداءً بين ثَوْر ونعجة ... دراكًا ولم يَنْضَحْ بماء فيغسل

وعاداه: قابله بالظلم والبغي. وعاداه إلى الحاكم: رافعه بالخصومة إليه. وعاداه: جاراه. ومن هذا النوع قول المذكور:

أقول فربما نقع المقالُ ... إليكُ سهيل إذْ طَلَع الهلالُ

تكاثرني بالآت المعالي ... وكيف يكاثرُ البحرَ الهلالُ

وتطمع أن تنال المجد قبلي ... وأنى تسبق النُّجب الهلالُ

وتبطن شرِّة في لين مس ... كما لانتْ مع الشَّر الهلالُ

وتَبْسِم حين تُبصرني نِفَاقًا ... وشخصي في جوانحك الهلالُ

وتنتظر الدوائرَ بي ولكن ... عليك تدور بالشَّر الهلالُ

كـان وجـوهكم فـي ذل مشـوى وفـرط صـلابة فيهـا الهـلالُ
وإعـراض إذيلـست للأهـاجي كمـا تبـدو علـى القـدم الهـلال
ومـا تغنـي الكتـائف فـي صـدوع بهـا أن يـراب الـصدع الهـلال
وأعجـب كيـف يلـزمكم كتـاب وأعقـل مـن لبيـبكم الهـلال

للهلال ثمانية عشر معنى ذكرها صاحب القاموس، وأتى هذا الشاعر منها بعشرة. فلم يف بالمقصود، من مثل هذا الشعر، والذي ذكره الهلال المعروف: وبقية الماء في الحوض، والناقة الهزيلة، والحية، والحربة ذات الحدين. يعرقب بها الصيد والراحا، ونعل الدابة. وجمع هَلْ بفتح الهاء كالهلهل وهو الثوب لا يضم نسجه، والقطعة من السلك يشعب بها الإناء، وهي الكتيفة واحدة الكتائف. والطفل الصغير، وفيما ذكره بعض مخالفة لما في القاموس. ومثل هذا الشعر كثير، ولكون المقصود منه ما أسلفنا يحتمل ركاكته، ويرمي بالقصور أو التقصير من لم يوفه حقه، من استيفاء المعاني المشتركة في اللفظ.

ومن لطائف المشترك: أن تمكن بعض الأدباء من وضع أسئلة فقهية، يكون الجواب عنها مخالفة للشرع بحسب المعنى المتبادَر من المشترك، موافقًا بحسب غيره وسموه «فُتيا فقيه العرب» من ذلك ما وضع الحريري في المقامة الثانية والثلاثين، من مقاماته: السؤال على لسان شاب عربي، والجواب على لسان ابي زيد السروجي قال:

ما تقول فيمن توضأ ثم لمس ظهر نعله؟ قال: انتقض وضوءه من فعله. المتبادر من النعل المداس ولمسه لا ينقض الوضوء، وغير المتبادر الزوجة ولمسها ينقض الوضوء.

قال:

فإن توضأ ثم اتكأَهُ البردُ؟ قال: يجدد الوضوء من بعد. اتكأَه أضجعه على مرفقه. والمتبادر من البرد ضدُّ الحر، واتكاؤه صاحبه لا يبطل الوضوء، ولا يوجب تجديده: والبرد النوم. ومن كلامهم منع البردُ البردَ، واتكاء النوم صاحبه بحيث يخرجه عن التمكن مبطل للوضوء.

قال:

أيمسح المتوضئ أينْثَيِهِ – قال: قد نُدب إليه، ولم يَجب عليه. المتبادر من الأنثيَيْن – الخصيتان – وليستا من أعضاء الوضوء. والأُنثيان: الأذنان ومسحهما في الوضوء مطلوب محبوب غير لازم. قال:

أيجوز التوضؤ مما يقذفه الثعبان؟ قال: وهل ماء أنظفُ منه للعُريان؟ المتبادر من الثعبان الحيوان المعروف، ولا يجوز التوضؤ مما يقذفه من لعابه وغيره. والثعبان جمع ثَغْب بفتح فسكون، وهي مناقع الماء يقر فيها فيصفو. قال:

أيستباح ماء الضرير؟ قال: نعم. ويجتنب ماء البصير. المتبادر من الضرير فاقد البصر، ومن البصير واجده وماؤهما، وهو المني مجتنب لا يجوز استعماله. والضرير حرف الوادي، وماؤه كماء وسطه. والبصير الكلب. قال:

أيحل التطوف في الربيع؟ قال: يكره ذلك للحدث الشنيع. المتبادر من الربيع زمان نضارة النبات وكثرة الأعشاب. والتطوف: تردُّد الإنسان في البلاد لحوائجه، وذلك أمر جائز أو واجب في أي زمن. والتطوّف قضاء

الحاجة. والربيع النهر الصغير، وقضاء الحاجة فيه مكروه للنهي عن البول في الماء الدائم؛ أي الراكد. ومضي الحريري على هذا حتى استتم مائة مسألة من أبواب الفقه، وحذا حذوه في ذلك «الحصكفي» المقدم ذكره فوضع مسائل منها:

ما تقول في قاطع الطريق؟ قال: لم يزغ عن التحقيق. الطريق النحل القصار. قال: ما تقول في قتل العاقل؟ قال: حل وإن كان غير وأقِل العاقل: التين الوحشي. والواقل: الصاعد في الجبل. قال: فما نقول في ركوب الخيل؟ قال: هو يريدُ الويل.

الخيل الظن. قال: فما نقول في ركوب الدابة؟ قال: حل كصيد الجداية. الداية في ظهر الدابة، والجداية الظبية الفتية.

وقد ألف بعض أهل اللغة في المشترك مؤلفات سَمُّوْها «شجر الدر»، وذلك أنهم سلكوا في التأليف كيفية، بها يمكن وضع الكلام على صورة شجرة ذات أصل وفروع، وذلك أن المؤلف منهم اختار كلمة مشتركة فصدَّر بها الكلام. وبين أحد معانيها بلفظ مشترك، وترك معناه المتبادر، وبين معنى آخر له بلفظ مشترك، وعمل فيه ما عمل في سابقه. وهكذا. حتى وقف عند حدِّ. ثم قال فرع وأتى بالكلمة التي صدر بها وفسرها بمعنى آخر، ومضى على تلك الصورة، حتى استوفى معاني الكلمة الأولى. وهذا مثاله: العينُ عينُ الوجه، والوجه القصد، والقصدُ الكسر، والكَسْر جانب الخباء. والخباء مصدر خَابأْتُ الرجل إذا خبأت له خبأ وخبأ لك مثله. والخَبْءُ: السحاب من قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [سورة النمل: ٢٥].

والسحاب: اسم عمامة كانت للنبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ، والنبي التل العالي، والتل مصدر التليل، وهو المصروع على وجهه، والتليل صفح العنق، والعنق الرجل من الجراد.

ثم قال: فرع: والعينُ عين الشمس، والشمس شِمَاسُ الخيل، والخيلُ الوهم، والوهم الجمل الكبير، والجمل دابة من دواب البحر، والبحر الماء الملح، والملح الحُرمة، والحُرمة ما كان للإنسان حرامًا على غيره، وحرام حي من العرب، والحي ضد الميت.

فرع: والعين النقد، والنقد ضربك أذن الرجل أو أَنفه بإِصبعك، والأُذُنُ الرجل القابل لما يسمع. والقابل الذي يأْخذ الدلو من الماتح، والدّلْوُ السير الرفيق، والرفيق الصاحب، والصاحب سَيْف، والسَّيف مصدر سَافَ مالُهُ إذا أودَى. وأودَى الرجلُ إذا خرج من إحليله الوَدْيُ، والودْى الفسِيل.

فرع: والعين موضع انفجار الماء، والانفجار انشقاق عمود الصُّبح، والصُّبح جمع أصبح، وهو لون من أَلوان الأُسود، واللَّون الضرب، والضَّرب الرجل المهزول، والمهزول الفقير، والفقير المكسور فِقَر الظهر، والفقر البوادر، والبوادر أُنوف الجبال، والأنوف الأُوائل من كل شيء، والواحد: بضم الهمزة، وفي النون الضم والسكون.

فرع: والعين عين الميزان، والميزان برج في السماء، والسماء أَعلى متن الفرس، والمتْن الصُّلب من الأَرض، والأَرض قوائم الدابة، والقوائم جمع قائمة وهي السَّارية، والسَّارية المزْنَة تنشأ ليلًا، والليل فرخ الكروان، والفرخ ما اشتملت عليه قبائل الرأس من الدماغ، والقبائل من العرب دون الأَحياء.

فرع: والعين مطر لا يقلَع أيامًا، ومطرحي من أحياء العرب، والأحياء جمع حَيَا الناقة، والحياء الاستحياء، والاستحياء الاستبقاء، والاستبقاء التماس النظرة، والالتماس الجماع، والجماع ضد الفراق، والفراق جمع فَرَقٍ وهو ظرف يسع ستين رطلًا، والفرق جمع فارق، والفارق من النوق، والأُتُن التي تذهب على وجهها عند الولادة، فلا يدري أين تنتج.

فرع: والعين رئيس القوم، والرئيس المصاب في رأسه بعصا أو غيرها، والرأس زعيم القبيلة أي سيدها، والزعيم الصبير أي الكفيل، والصبير السحاب الأبيض المتراكم أعناقًا في الهواء.

فرع: والعين نفس الشيء، والنفس ملء الكف من دباغ، والكف الذب، والذب الثور الوحشي، والثور قشور القصب تعلو على وجه الماء، والقصَب رهان الخيل.

فرع: والعين الذهب، والذهب زوال العقل، والعقل الشدّ، والشدّ الأحكام.

وعلى هذا سياق تأليف المشجر في المشترك، وكل لفظ تعدَّد معناه يجب عند استعماله أن يكون مقرونًا بما يُعيِّن المراد منه، حيث كان الغرض من الكلام الإفادة والاستفادة. ولما كان الكلام عند أمة العرب كأنه صنعتهم، التي بإتقانها يتفاخرون وفي أحكامها يتفاوتون، حتى قيل: خطيب مِذْرَه ومِصْقع، وشاعر مُفْلِق وبليغ، كان المجاز والمشترك لما فيهما من المحاسن الكلامية، والمقاصد في المحاورات لازمين للغة العربية، ومن لم يقف من الأَعاجم على مراد اللغة منهما، وانتفاع أَهلها بهما عدَّهما من عيوب اللغة، والله يهدي من شاء لما شاء.

التقسيم الثالث

العدد من اللفظ إما أن يوضع لمعان متخالفة من: ذوات، أو صفات، أو موصوفات كإنسان، وفرس، ونُطْق، وصَهيل، وناطق، وصَاهِل.

وهذا النوع يسمى «الألفاظ المتباينة». وإما أن يوضع لمعنى واحد دون اعتبار أحوال زائدة على الشيء الموضوع له: كالحِنطة، والبُر، والقمح. وهذا النوع يسمى «الألفاظ المترادفة». وإما أن يوضع لمعنى واحد باعتبار أحوال زائدة على الشيء الموضوع له: كالصارم، والعَضْب، والباتر للسيف، وهذا النوع يسمى «الألفاظ المتكافئة»، ومنه أسماء الله تعالى من: العليم، والقادر، والمقتدر، وغيرها.

ويقال لهذا النوع: الأَوصاف التي غلبت عليها الإسمية؛ لأنها عند استعمالها لا يقصد بها إلا إحضار المسمى دون التوصيف. وادَّعَى بعض أهل اللغة أن «المترادف» متكافئ، وتكلف تبيين الاعتبارات في بعض الألفاظ، والجمهور على ما فصلنا.

وفائدة المترادف: التوسيع على الشاعر والناثر، فإذا لم يوافق اللفظ وزنًا أو سلاسة عدل إلى مرادفه الموافق.

قال المقري في مزدوجته في تعريف الحب:

فإن تشأ فقل عَذَاب يعذب أو ضربان في الهوى أَو ضرب

فلفظ الضرب مرادف للفظ العسل، فلما لم يوافق لفظ العسل عدل إلى مرادفه ومضى في شعره؛ ومعرفة ذلك في الشعر سهلة. وفي النثر تحتاج إلى دقة نظر ولطف حسن، وفضل ذوق. وقد تتمدَّد الأسماء

للشيء المسمى باسم واحد بسبب تنوعه لملاحظة قيود، بحيث لا يكون الاسم من تلك الأسماء محضرًا لجميع أنواع ذلك الشيء، كالمتكافئ والمترادف فلا تكون منهما. وذلك كالكأس والكوب والكوز والقدَح؛ فإن القدح اسم لكل ما تتناول به الماء وتشرب منه، والكأْس اسم للقدح الممتلئ من الماء أَو غيره، والكوب اسم للقدح الذي لا عُروة له، والكوز اسم للقدح الذي له عُروة. وكالدّلْو والذَّنَوب والسَّجْل، فالدلو اسم لما يشذُّ في الرشا، ليستخرج من البئر به الماء. والذنوب: اسم له بشرط أن يكون ممتلئًا.

ومن ذلك أسماء الصوت المختلفة بحسب اختلاف الإضافة. كصوت الريح في الشجر يسمى «حفيفًا»، وفي الفلوات« دويًا»، وكل صوت شيء له اسم يخصه كرُغاء الجمل، وخُوار البقر، ونُباح الكلاب، وعُواء الذئاب. وهذا يسميه أهل اللغة «المطلق والمقيد»، فإذا أردت إفادة الخاص وجب أن تأتي باسمه، ولم يصح أن تأتي بالاسم العام إلا إذا تركت الإيجاز إلى الإطناب؛ فتقول مثلًا: الحفيف ربما نشأَ من شدته الدوار، أو نقول صوت الريح في الأشجار. وهذه الألفاظ التي سَمَّوها مطلقًا ومقيدًا داخلة في قسم المتباين؛ لكونها من أسماء الأنواع المشتركة في أَمر المتميزة بآخر.

التتميم: أَوردنا في هذا التتميم أَربعة أَنواع من الأسماء العامة؛ أي «أسماء الأجناس» وهي: أَسماء الشرط، وأَسماء الاستفهام، وأَسماء الأَزمان، والضمائر. وأَلْممْنا بكلام عام على الأفعال.

أسماء الشرط: هي أسماء ذات معان مستقلة ضمنت معنى كلمة إن، فأَغنت عن النطق بها وهي: مَنْ لِذوي العلم؛ وَمَا ومَهْمَا وأَيُّ لكل شيء، ومَتَى، وإِذا، وأَيَّانَ للزمان، وحيثما، وأينَ، وأَنَّى للمكان، وكيفَما للحال.

فقولك: من يعمل خيرًا لم يلق ضيرًا، معناه: كل شخص إن يعمل خيرًا. فلفظة من وهي حرفان أغنتك عن قولك: كل شخص إن. وقولك: متى تجدّ تجد، معناه: إن تجدَّ في وقت من الأوقات، وهكذا بيان البقية.

أسماء الاستفهام: هي أيضًا أسماء ذات معان مستقلة، ضمنت معنى همزة الاستفهام التصوّري فأغنت عن النطق بها، وهي: من ومنذا لذوي العلم، وما وماذا وأي لكل شيء، ومتى للزمان، وأين للمكان، وكيف للحال، وأنَّى تكون بمعنى من أين فهي للمكان، وتكون بمعنى كيف فهي للحال، وكم للعدد، فإذا قلت: من عندك؟ فمعناه أزيدٌ عندكم أم عمرُو أم بكرُ، إلى غير ذلك من كل شخص يجوز أن يكون عندك، فلفظة من أغنتك عن الهمزة، وأم وما يعجزك من سرد الأسماء. وإذا قلت: كيف زيد؟ فمعناه؛ أمستقيمٌ زيد أم معوج؟ أم مريض؟ حاضرٌ أم غائب؟ إلى غير ذلك من الأحوال الممكنة. فلفظة كيف، أغنت عن هذا. وإذا قلت: كم بيتًا تحفظ؟ فمعناه: أعشرين بيتًا أم ثلاثين أم مائة، أم ألفًا؟ إلى غير ذلك من العدد، فلفظة كم مغنية عن هذا التفصيل. وهكذا بيان البقية.

* * *

أسماء الزمان

نقلت هذا الباب وتفسيره «من مقدمة الأدب» للزمخشري، يذكر المفرد وما ورد له من جمع قال:

باب م . وقت م = أوقات. ج = حين . م = أحيان . ج = أجل مدة بقاء الشيء. «ج»= آجال.

(أوَان) بفتح الهمزة وكسرها لغة: وقت وجود الشيء.

«ج» = آونة . م = إبان وقت صلاح الشيء وإقبال نضرته، وزنه فعلان من أبَّ الشيء أي تهيأَ. (ج) أبابين (م). دهر اسم للزمن معتبرًا اتصاله بخلاف الزمان، فإنه يعتبر فيه التفصيل إلى الساعات، والأيام والشهور والفصول إلى غير ذلك. (ج) دهور أدهار. حُقْب بضم فسكون مدة طويلة ثمانون سنة أو أكثر، ويضم ثانيه ج. حِقَاب وأَحْقاب. حِقب بكسر فسكون «ج» حِقَب كعنب. بُرْهة بضم فسكون وتفتح باؤها قطعة من الزمن. والسَّبْتُ بفتح فسكون. والسُبات بضم سينه. الدهر. والسَّبْتُ والسَّبتَةَ والسَّنْبة والسَّنبتة البرهة «قاموس». م. منون من أسماء الدهر مأخوذ من منَّ بمعنى لكونه قَطُوعًا غير وَصوُل على صيغة المبالغة. وريب المَنُون وريوبُه: حوادث الدهر م. عَصْر بفتح فسكون وبضمتين مدَّة الجيل (ج) أَعصار وعصور. أمة طائفة من الزمن، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥]

زمن «ج» أَزْمُن. زَمَان «ج» أَزْمِنَةَ. وصَرْف الزمان وصُروفه تغيراته وتنقلات أحواله. فترة. م. قرن مائة سنة «ج». قرون. سنة. «ج». سنون وسنوات وسَنَهات. وتقول: سانيت وسأنهتُ، وآجرت الدار مُسَاناة ومُسانَهة. حول «ج» أحوال «م» حِجة بكسر الحاء «ج» حجج عام «ج» أعوام. والأسماء الأربعة لمدة اثنى عشر شهرا، وتقول: أحج العام وحججت عام أوَّل، وأحج القابل. فصل اسم لربع السنة «ج» فصول: ربيع، صيف. خريف، شتاء. غرة أول شتوة مشتاء. شهر «ج» شهور وأشهر والأشهر المعلومات: اشهر الحج، غرة أول الشهر «م» محاق مثلث الميم، وسرار، وسَلخ الثلاثة آخر الشهر.

أسماء الشهور: المحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وشهر ربيع الآخر، وجُمادي الأولى، وجُمادي الآخرة، ورجب، وشعبان، وشهر رمضان، وشوال، وهو أول أشهر الحج وذوق القِعَدة، بفتح القاف وكسرها، وذو الحجة، كذلك وهو آخر أشهر الحج.

أسماء اليوم والليلة: الجديدان، والمَلَون، والعَصْران، والدائبان. مثنى لا يستعمل له مفرد. ليلة اسم جنس جمعي ليل «ج» ليال. قطعة اسم الجنس قطع «م» زُلْفَة قطعة «ج» زُلَف .. وهن ومَوْهِن: ثلث الليل الأول أو ربعه أو نصفه. وبَهْرَة الليل: وسطه. والسَّحَر والسُّحرَة آخره «ج» أسحار. والجنُح: جزء من الليل.

وتقول: زرت زيدًا الليلة للحاضرة التي أنت فيها، من المغرب إلى زوال الشمس. وتقول: البارحة لليلة التي مضى يومها. والبارحة الأولى للتي قبلها، وليلة غد لليلة المقبلة، وليلة السَّذَق بفتح الذال المعجمة، وليلة الوقود لليلة الأربعين من الشتاء، وليلة القدر، وليلة القضاء لليلة نصف شعبان، وليلة البراءة. وفي القاموس البراء اسم لآخر ليلة من الشهر أو لآخر يوم منه. أو لأول ليلة من الشهر أو لأول يوم منه ... يوم «ج» أيام. نهار من الفجر الصادق لغروب الشمس في لسان الشرع. ومن طلوع الشمس إلى غروبها في لسان أهل الهيئة «ج» نُهَرُ نحو النهار وصدره ووجهه لأوله.

تقول: صاحبت فلانًا مدة إقامته بمصر يومَ يوَمَ بالتركيب، والفتح أي جميع الأيام على التعاقب. وتقول: انتظر اليوم قدوم زيد للحاضر. وتقول: جئتك أمسِ بكسر آخره، للوقت المعين، الذي قبل وقتك بلا فصل. وتقول: لما قبله أوّلُ أمس. وتقول لما قبله: أوَّلُ من أول من أمس.

وتقول: ألقاك غدًا لما يلي يومك وبعد غد لما يليه. تباشير الصبح: عمود الفجر. الفَلَق لوقت انفصال الليل عن النهار، وذهاب الظلمة ويُدُوّ النُّور. الفجر والصبح والصباح والبُكرة، لوقت النور قبل الشمس. والغَدَاة لما قبل الضحوة وهو ربع النهار الأول والجمع: غَدَوَات. ومثلها الغُدْوَة بضم فسكون، والجمع: غُدُوات بضمتين أو بضم فسكون أو ففتح، ولا يقال: غدايا إلا مع عشايا للازدواج. وتقول: خرج زيد الغداة للحاضرة القائمة أو الذاهبة من يومك وغداة أمس، وغداة غد والضُّحى بضم أوله والقصر والضحوة لربع النهار الثاني. والظهر والظهيرة والجمع: ظهائر. والقَائِلَةُ لرُبْع النهار الثالث. والعصر والأصيل والجمع: أَصُل. وجمعه: آصال وجمعه: آصائل. والمُسئ والمَساء والعشيّة واسم الجنس العَشِيّ. والجمع العَشيّات والعَشَايَا لآخر النهار، والعشاء من أواخر النهار إلى منتهى الليل، والعَتَمَة لأول الليل. وتقول: تعهدت الشيء صباح مساء بالتركيب والفتح. أي كل صباح ومساء.

أسماء الأيام: في لسان العرب القديم يوم السبت: شِيار بكسر أوَّله. ويوم الأحد أول. ويوم الاثنين: أَهْون. ويوم الثلاثاء: جُبار بضم أوله وكسره. ويوم الأربعاء: دُبار كذلك. ويوم الخميس: مُؤْنِس. ويوم الجمعة العُروبة وبغير أل، فيكون علم جنس.

اسم مجموع الأيام: أسبوع «ج» أسابيع «م» يوم عاشوراء وتاسوعاء للتاسع والعاشر من المحرم. النَّوْروز: أول يوم من الخريف.

المهرجان: أول يوم من الربيع (عيد). الفطر عيد الضحية «ج» «أعياد» يوم الدَّوِيَة للثامن من ذي الحجة يوم عرفة للتاسع منه. يوم النحر للعاشر.

أيام التشريق للثلاثة بعده، وهي الأيام المعدودات، والأيام المعلومات العشر قبلها.

مُدة «ج» مُدَدَ. أَمد «ج» آماد. مَدَىَ «م» غاية «م» نهاية «م» أبد يقال: لا أفعل كذا أَبَدَ الدهر، ومدى الدهر، وجدَى الدهر. أي أبدًا. ساعة «ج» ساعات اسم جنس ساع. إنيُ «ج» آناء وأُنِيُّء. فينة: قطعة من الزمن. تقول: كنت أذهب لزيد الفينة بعد الفَيْنَة «ج» فَيْنَات. فُواق بضم أوله: الزمن بين الحلبتين. تقول: انتظرني فُوَاق ناقة. أي زمنًا قدر تلك المدة. وتقول: الساعة يجيء زيدُ للحاضرة. وتقول: حضر الآن للوقت الحاضر وآنفًا للوقت الذاهب.

ومن الأسماء الزمانية: متى وأيّان وإذْ وإذَا، التي سبق لها ذكر في أسماء الشرط والاستفهام، ومُذْ ومُنْذُ، اللتان تقدم ذكرهما في الحروف، فهما مشتركتان بين الأسمية والحرفية، والكَرَّة: الغداة والعشِيُّ، وتقول: ألقاه كَرَّتي النهار، أي طرفيه «م» تارة وطور حين «ج» تارات وأطوار.

وتقول: لقيته ذات مرة. أي مدَّة صاحبة مرة.

وعلى هذا التقدير: كل ما ورد من ذات كذا، وهي ذات سنة، وذات شهرٍ، وذات ليلة، وذات يوم، وذات غداة، وذات عشاء، ويؤتى ببعض أسماء الزمان مضافة إلى كلمة إذ مضافة إلى جملة مذكورة أو محذوفة، اعتمادًا على علمها من سياق الكلام. ويعوض عنها عند حذفها نون يُلفَظُ بها ولا تكتب تسمى التنوين نحو حينئذ وعامئذ وغداتئذ وعشيتئذ وساعتئذ ويومئذ وليلتئذ. تقول: حينئذ أطاع الله زيدٌ أكرمه الناس، وتقول: أطاع الله زيدٌ وأكرمه الناس حينئذ. أي حينئذ أطاع الله.

أسماء يوم القيامة: الساعة. يوم القيامة. يوم البعث. يوم الدين. يوم النشور. يوم الخروج. يوم الحشر. يوم الجمع. يوم الحساب. يوم العَرْض. يوم الهَيْبَة. يوم الحَسْرَة. يوم النَّدامة. الحاقَّة. القارعة. الواقعة. الطَّامَّة. الصَّاخَّةُ. الغاشية. الآزفة، وأكثرها وارد في القرآن المجيد، وأشراط الساعة جمع شَرَط بفتحات العلامات على قرب يوم القيامة.

أسماء مدة النشأة الأولى: الدنيا. والأولى. والعاجلة.

أسماء مدة النشأة الآخرة: الآخرة. الآجلة. الأُخرى.

أسماء المدة بين النشأتين: الرقدة. الهمدة. البرزخ.

انتهى ما نقلناه من مقدمة الأدب ببعض تصرف وزيادة.

الضمائر

أنا وإيَّاي وتاء مضمومة مثل: كتبتُ وياء ساكنة تفتح أحيانًا نحو: كتابي اذكرني؛ لكل متكلم يريد الحكاية عن نفسه وحده. ونحنُ وإيَّانا ونَا. نحو: عرفنا؛ لكل متكلم يريد الحكاية عن نفسه وغيره. وأنتَ وإيَّاكَ وتاء مفتوحة مثل: فهمتَ، وكاف مفتوحة مثل: عملكَ؛ لكل مخاطب مذكر. وأنتِ بكسر التاء وإياكِ بكسر الكاف وتاء مكسورة مثل: قرأتِ. وكاف مكسورة مثل: أخبركِ؛ لكل مخاطبة مؤنثة. وأنتما وإياكما. وتاء مضمومة بعدها ميم فألف مثل: حفظتُمَا. وكاف مضمومة فميم فألف مثل: هداكُمَا ربُّكُمَا؛ لكل مخاطبين مذكرين أو مؤنثين أو مختلطين. وأنتم وإياكم وتاء مضمومة فميم وكاف مضمومة فميم. لكل جماعة ذكور مخاطبين، وإن تكن الجماعة مختلطة غلبت الذكور على الإناث.

وأنْتُنَّ وإيَّاكُنَّ، وتاء مضمومة بعدها نون مُشَدَّدة وكاف مضمومة بعدها نون مفتوحة مشددَّة؛ لكل جماعة إناث مخاطبات.

وهو وإياه، والمستتر الملحوظ بعد عَرَفَ. نحو: زيدٌ عَرَفَ، لكل مذكر غائب. وهيَ وإيَّاها. والمستتر الملحوظ بعد عَرَفَتْ من نحو: هندُ عرفتْ؛ لكل مؤنثة غائبة. وهما وإيَّاهما، والألف من نحو: عَرَفَا، وعَرَفَتَا؛ لكل غائبين مذكرين أو مؤنثين أو مختلطتين لا فرق إلا مع الألف؛ فالتاء قبلها حرف يدل على أن المحكِي عنه مؤنث. وكانت ساكنة، ففُتحت لأجل الألف وتُسمى هذه التاء: تاء التأنيث الساكنة. وهم وإياهم والواو من نحو: عَرَفُوا، لكل جماعة ذكور غائبين.

وهن وإياهن والنون. في نحو: عَرَفْنَ؛ لكل جماعة إناث غائبات. والألف والواو والنون، تكون في الخطاب أيضًا مثل: اكْتُبَا واحْفَظُوا وأفهمْن. وما عدا هذه الأسماء يسمى: الأسماء الظاهرة.

وما كان من الضمائر ظاهر الاستقلال في النطق يسمى «منفصلة»، وما كأنه حرف من الكلمة السابقة عليه يسمى: متصلًا.

وللضمائر مواضع من الكلام يختص كل صنف منها بموضع. وبيان ذلك في قسم النحو.

* * *

الكلام العام على الأفعال

الفعل إن كان يكفي في حصول معناه شيءٌ واحد، محصل له وهو الفاعل، يسمى الفعل: قاصرٌ ولازمًا. والفعل ذا النسبة الواحدة.

وإن كان يفتقر في حصول معناه لأكثر من شيء يسمى: متجاوزًا ومتعديًّا. والفعل ذا النسبتين. فتارة يكون مفتقرًا الشيئين فاعله وشيء آخر، يقع به تاثيره وهو المفعول به. وحينئذ: يسمى «المتعدي لواحد». وتارة يكون يفتقر إلى ثلاثة أشياء: فاعل، ومفعولين. وهذا النوع ثلاثة أصناف.

الصنف الأول: أفعال تدل على أن فاعلها جعل شيئًا يفعل فعلًا في شيء آخر؛ فيكون المجعول فاعلًا مفعولا أول، والشيء الآخر مفعولًا ثانيًا. فالمفعول الأول في هذا الصنف: هو ما له فاعلية في المعنى. والمفعول الثاني: ما لا فاعلية له في المعنى، بل له المفعولية الخالصة. وهذا الصنف من الأفعال يسمى: باب أَعْطَى كأعطى ومنعَ ومَنح وكَسَى وَوَهَبَ وأَلبس وأطعم وأسقى وسَقي.

وبيان ذلك أَنَّ قولك: أَعطى زيدٌ عمرًا درهمًا. معناه: أن زيدًا جعل عمرًا عاطيًا. أي متناولًا درهمًا.

تقول: عطى عمرو درهمًا يعطوه وأعطيته إياه، فأنت متناول وعمرو متناول لنفسه مُناوَلٌ منك، والدرهم بينكم مفعولٌ خالص.

الصنف الثاني: أفعال تتعلق بنسبة أمر لأمر حقيقة وبطرفي النسبة ظاهرًا، وتسمى: الأفعال الإدراكية. وأفعال القلوب بعضها لليقين وبعضها للظن والحُسبان فما لليقين: فقط أربعة أفعال هي: وَجَد، وألفى، ودَرَى، وتَعلَّم بمعنى اعْلَمْ.

وهذه الكلمة وردت في اللغة، وليس لها فعل ماض ولا مضارع. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [سورة المزمل: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ [سورة الصافات: ٦٩].

وقال بعض العرب:

دُريت الوفِيَّ العهدَ يا عَرْوَ فَاغْتَبِطْ فإنَّ اغتباطًا بالوفاءِ حميدُ

وقال آخر:

تَعَلَّم شِفَاء النَّفْسِ قَهْر عَدُوِّهَا وبَالِغ بلُطفِ في التَّحيُّل والمكْرِ

وما للظن فقط خمسة أفعال، وهي: جعل، وحَجَا، وعُدَّ وهَبْ. ولا تكون إلا طلبًا فهي أخت تعلم السابقة، ولا ثالث لهما في اللغة، وزَعَم.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ [سورة الزخرف: ١٩].

وقال الشاعر:

قد كُنت أَحْجُو أبا عمرو أَخَاثقةً حتَّى أَلَمَّتْ بنا يومًا مُلِمَّاتُ

وقال آخر:

فلا تَعْدَدِ المَوْلَى شَريكَكَ في الغِنَى ... ولكنَّما المولَى شريكُك في العُدْم

وقال آخر:

فقلت أجزني أبا خالد ... وإلا فهبني امرءًا هالكًا

وقال آخر:

زعمتني شيخًا ولستُ بشيخ ... إنما الشَّيخ من يدِب دبيبًا

وما للأمرين: والغالب استعماله في اليقين فعلان: رأي، وعلم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ [سورة المعارج: ٦، ٧]. وقال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [سورة محمد: ١٩]. وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ [سورة الممتحنة: ١٠]. وما للأمرين: والغالب استعماله في المرجحات، ثلاثة أفعال: ظَنَّ، وحَسِبَ، وخَالَ.

قال الشاعر:

ظننتك إن شبَّت لظى الحرب صاليًا ... فعردَّت فيمن كان عنها معرِّدا

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ [سورة البقرة: ٤٦].

وقال الشاعر:

وكنَّا حسبنا كلَّ بيضاء شحمةً ... عشية لا قينا جُذام وحميرا

وقال آخر:

حسبت التُّقى والجُود خير تجارةٍ ... رباحًا إذا ما المرءُ أصبح ثاقلا

وقال آخر:

أخالك إن لم تغضض الطَّرف ذا يسومك ما لا يستطاع من الوجد

وقال آخر:

ما خلتني زلت بعدكم ضمنًا أشكو إليكم حموة الألم

الصنف الثالث: أفعال تدل على تحويل شيء ونقله من حالة إلى غيرها، وتسمى: أفعال التصبير، وهي: جعل، وردَّ، وترك، واتخذ، وتخذ، وصير، ووهب.

قال تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [سورة الفرقان: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ﴾ [سورة البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ [سورة الكهف: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [سورة النساء: ١٢٥].

وقال الشاعر:

تخذت غُرار إثرهم دليلًا وفرُّوا في الحجاز ليُعجزوني

وقال الراجز:

* فصيروا مثل كعصف مأكول *

وسمع من العرب: وهبني الله فداءاك. ولم يستعلموا منه غير الماضي.

«ولمفعولي أفعال الإدراك»، مباحث تأتي في قسم النحو، وتتعلق أحرف الإضافة بجميع الأفعال، لازمها ومتعديها.

ويقال لها مفاعيل غير صريحة، ويقال للأفعال اللازمة: متعدية بالواسطة؛ لأن أحرف الإضافة تربطها بما بعدها، فإذا قلت: خرجت من الدار إلى الطريق. فكلمتا: من، وإلى ربطتا خرج بالدار والطريق.

«وأما مفاعيل الأفعال المتعدية بنفسها»: فإنها تسمى: المفاعيل الصريحة.

تقسيم آخر للفعل

الفعل منه ما يكون معناه مقصودًا بالإفادة، بحيث يتم به وبشيء واحد معه وهو فاعله كلام، ويسمى: فعلًا تامًا. كقام زيدٌ وأعطى خالدٌ. ومن يسمع يخل.

وإما أن لا يكون معناه مقصودًا بالإفادة، بحيث لا يكون له فاعل يتم بهما كلام، بل يكون المقصود به الذهاب إلى حكاية نسبة أمر لأمر مفادًا بذلك الفعل وقت تلك النسبة وحالها. وهذا النوع من الفعل يسمى: ناقصًا. وألفاظه (كان) لمُطلق التوقيت، (وأصبح) للتوقيت بالصبح، (وأضحى) للتوقيت بالضحى، (وأمسى) للتوقيت بالمساء، (وظل) للتوقيت بالنهار، (وبات) للتوقيت بالليل، (وصار) للتوقيت والدلالة على التحويل من صفة إلى صفة ومثلها حار وآض. في ألفاظ أخر (وليس) للنفي، (وزال) (وبرح) (وفتئ) و(إنفك) (ودام) للاستمرار.

ولا تستعمل هذه إلا منفية أو منهيًا عنها (كما زال) (ولن يزال)، وما رام، ولا يريم. ولفظ ما دام لبيان مدة حكم يذكر قبلها؛ ولا تستعمل هذا الاستعمال إلا مع «ما» المصدرية الظرفية.

«وَعَسَى وحَرَى واخلَولَق». للدلالة على أن أمرًا قارب أن يحصل أمرًا بحسب الرجاء. وتسمى «الأفعال الثلاثة»: أفعال الرجاء، «وكاد وأوشك وكرب» للدلالة على أن أمرًا قارب أن يحصل منه أمر بحسب الواقع ونفس الأمر، فهي للإخبار بذلك وتسمى: أفعال المقاربة.

و«جعل، وأخذ، وطفق، وأنشأ، وأقبل» للدلالة على أن أمرًا شرع في أن يحصل أمرًا وتهيأ لذلك وتصدى. وكما تسمى هذه الأفعال: أفعالًا ناقصة تسمى: الأفعال النسبية؛ لكونها كما سبقت الإشارة إليه؛ لشرح حال نسبة تذكر بطرفيها بعدها، ولها اسم ثالث يأتي هو وأحكام تراكيبها في قسم النحو إن شاء الله تعالى.

قسم النحو ومقدمته

قسم الصرف

عرفت أن الصرف علم يبين صيغ الألفاظ، وكونها أصولًا وزوائد، ومتبادلة الحروف، وكيفية النطق بها.

ولنجعل الكلام عليه في مقدمة ومقالتين وخاتمة.

المقدمة

اعلم أن الناس الذين نصبوا أنفسهم لضبط صور مفردات اللغة، وجدوا أن العرب تقصد إلى الحروف، فنركب منها الكلمة لأجل أن تضعها لشيء تكون دالة عليه مفيدة له. فإذا أرادوا جعلها مفيدة لمعنى آخر يكون المعنى الأول جزءًا له، غيروا صورة الكلمة: إما بتبديل في الحركات، وإما بزيادة أو نقص في الحروف. ومن هنا جاء الاشتقاق.

فيكون اللفظ بصورته الأولى أصلًا، وبالصورة الأخرى فرعًا.

وحينئذ يسمى الأصل: مصدرًا، وتسمى الفروع: مشتقات.

فالاشتقاق: تبديل صورة كلمة ذات معنى بصورة أخرى، لتكون ذات معنى آخر.

وللمصدر أنواع يأتي بيانها، وبيان فروعها في الموضع المناسب لذلك.

ثم نظروا في الألفاظ فوجدوا أكثر الكلمات الموضوعة للمعاني الأصلية، لا تزيد على ثلاثة أحرف، فذهبوا إلى جعل أُصول الكلمات ثلاثة أحرف يعبر عن أولها بالفاء، وعن ثانيها بالعَيْن، وعن ثالثها باللام.

ووضعوا لوزن أصول الكلمة لفظ (فعل) مصوَّرًا عند النطق بصورة الموزون.

ثم الكلمات: الزائدة على ثلاثة أحرف ثلاثة أنواع: نوع تكون زيادته أصلية بأن تكون الكلمة من أول وضعها على الأحرف الزائدة على ثلاثة، وتسمى الكلمات التي هذا شأنها بالكلمات المجردة.

فإن كانت فعلًا لم تزد عن أربعة. وإن كانت اسمًا لم تزد على خمسة. فالأفعال المجردة ثلاثيات كنَصَرَ، وذَهَبَ. ورباعيّات كدَحْرَجض وعَرْبَدَ.

والأسماء المجردة أحادية كتاء: أكرمْتُكَ وكافِه، وثنائية كمن وكم. وثلاثيات كفَهِمَ وحَفِظَ وزيدٌ وعمرو. ورباعيات: كبَرْثَنَ وجَعْفَرَ وزَبْرَجَ. وخماسيات كسَفَرْجَلَ وحَجَمْرَش.

فإذا أردت أن تزن ما زاد على الثلاثة من هذا النوع كررت اللام، فجئت بلامين أو ثلاثة، فتقول: دحرج على وزن فَعْلَلَ. وتقول: سفرجل على وزن فعلَلْ. وجحمرش على وزن فعلَلِلْ. ونوع تكون زيادته بتكرير عين الكلمة أو لامها ويسمى: مضعفًا. فإذا أردت أن تزن كلمة من هذا النوع كررت العين في مضعف العين، وكررت اللام في مضعف اللام

فتقول: عَظَّم. وزنه فَعَّلَ بتشديد العين فتكون ناطقًا بعينين، ومجرده عَظُمَ بتخفيف الظاء. وتقول: جلبب. وزنه فعلل.

ونوع: تكون زيادته حرفًا أو أكثر من حروف سألتمونيها، وهي عشرة أحرف تسمى: أحرف الزيادة.

ولا يتجاوز الفعل بالزيادة ستة أحرف، ولا يتجاوز الاسم بالزيادة سبعة أحرف، وكل زائد أقل مما قبله في عدد الكلمات. فإذا أردت أن تزن الكلمة من هذا النوع نطقت بألفاظ الحروف الزائدة.

فتقول: ضارب. وزنه فاعل. واستخرج. وزنه استفعل، واقتدر وزنه افتعل. وهكذا. وتعيين مواضع الزيادات يأتي في مواضعه من الكلام على الأفعال والأسماء.

المقالة الأولى
الكلام على الفعل

للفعل تقاسيم:

التقسيم الأول: قد عرفت أن الفعل كلمة موضوعة لمنسوب ملحوظ أولًا، ونسبة ملوحظة ثانيًا. ومنسوب إليه معين ملحوظ ثالثًا.

فإن كان مخبرًا به عن حدوث أمر في الزمن الماضي، فهو الفعل الماضي. وإن كان مخبرًا به عن حدوث أمر في الحال، أي الزمن الحاضر الذي فيه المكالمة فهو الفعل المضارع الحالي. وإن كان مخبرًا به عن حدوث أمر في الزمن الآتي بعد زمن التكلم؛ فهو الفعل المضارع الاستقبالي. وإن كان مطلوبًا به تحصيل أمر في الزمن المستقبل فهو فعل الأمر.

فالفعل أربعة أصناف، وصيغة المضارعين واحدة مشتركة بينهما. وتعين المراد منها كسائر المشتركات بالقرينة، أي الدليل على المراد مثل: كتب زيد، وقرأ وحفظ، وعمرو يكتب وسيقرأ وسوف يحفظ، واكتب يابكر واقرأ واحفظ.

والتقسيم الثاني: الفعل إن كانت أصوله غير الألف والواو والياء يسمى: صحيحًا. كَعَلِمَ وشَرُفَ. وإن كان بعض أصوله من الأحرف الثلاثة يسمى «معتلًا»، فإن كانت فاؤه منها يسمى مثالًا: كوَعدَ ويَسَرَ.

وإن كانت عينه يسمى: أجوفًا. كعَورَ وغيد وقال: وإن كانت لامه يسمى: ناقصًا. كرضي وخشي وتلا ورمى.

وإن كان منها اثنان يسمَّى: لفيفًا مفروقًا. إن لم يجتمعا كوقى ووفى. ولفيفًا مقرونًا إن اجتمعا: كياوم، وغوَى وروى.

والأحرف الثلاثة تسمى «أعرف العلة»؛ لأن الفعل كثيرًا ما يتغير عن صورة نوعه بسببها، فإن كانت هذه الأحرف ساكنة سميت: أحرف اللين، فإن كانت ساكنة وقبل الواو ضمةٌ، وقبل الياء كسرة سميت: أحرف مدٍّ. فالألف حرف مد ولين؛ دائمًا لدوام سكونها وفتح ما قبلها لامتناع غير ذلك فيها.

وأما: الواو والياء، فلهما ثلاثة أحوال: يستحقان في واحدة منها اسمًا واحدًا وفي أخرى اسمين، وفي الثالثة ثلاثة أسماء تستحقها الألف مطلقًا.

وإن كان بعض الأصول همزة يسمى الفعل: مهموزًا. كأَخذ، وسأَل، وقرأَ. وإن كان أصلان من جنس واحد كباءين، أو لامين يسمى الفعل: مضعَّفًا. كسبَّ، وملَّ، وشدَّ.

ولكون الفعل يتغير عن صورة نوعه بسبب الهمزة والتضعيف. قال أهل الفن: يسمى الفعلُ «سالمًا» إذا خلا من الهمزة والتضعيف وحروف العلة. فكل سالم صحيح، وليس كل صحيح سالمًا.

ثم إن هذه الأسماء لتلك الأسباب لا تخص الفعل بل تكون في الاسم.

التقسيم الثالث: الفعل باعتبار مادته وعدد حروفه أربعة أصناف:

ثلاثـيٌّ، وربـاعيٌّ، وخماسـي، وسداسـي: كنَـصَر ودَحْـرَجَ وانْطَلَـقَ واسْتَخْرَجَ.

وباعتبار صورته التي هي هيئته الحاصلة له من الحركات أو الحركات والسكنات على التراتيب الخاصة سبعة وثلاثون بابًا:

ستة أبواب للثلاثي، وعشرة للرباعي، وثلاثة عشر للخماسي، وثمانية للسداسي، لكن أبواب الثلاثي باعتبار حال الماضي ومضارعه، لاختلاف صورة المضارع مع اتفاق صورة الماضي، بخلاف جميع الأبواب فإنها باعتبار حال الماضي فقط؛ لأن كل فعل منها يكون مضارعه على صورة واحدة.

الكلام على أبواب الثلاثي: هي مرتبة بحسب الكثرة والقلة، فكل سابق منها أكثر أفرادًا من لاحقه، ولا يخرج الماضي عن ثلاث صور: فعل بفتح العين: كنَصَر وضَرَب، وفتَح، وفعل بكسر العين كفرِح، وحسِب. وفعل بضم العين: كشرُف.

وكل منها بعض إفراده متعد. والبعض لازم إلا باب شرُف، فإن جميع أفراده لازمة فهي باعتبار التعدي واللزوم أحد عشر صنفًا.

الباب الأول

فَعَلَ (بفتح العين) يفْعُلُ (بضمها). ويسمى: باب نصَر. كنَصَرَ يَنْصُرُ، وأَخَذَ يَأْخُذُ، وقال يقوُل، ودعا يدعُو، وشدّ يشُدُّ، وقعد يقعُد. فهذه الأفعال وأمثالها بفتح العين في الماضي وضمها في المضارع.

والأمر من كل فعل على صورة مضارعة بحذف حرف المضارعة.

فإذا كان أوله ساكنًا وأردت الابتداء به جئت بهمزة مضمومة في مضموم العين، ومكسورة: في غيره تسمى «همزة الوصل»؛ لكونك تصل بها إلى التمكن من النطق بالساكن.

ولهمزة الوصل مواضع يأتي بيانها؛ لكن إذا كانت فاء الفعل من هذا الباب همزة: كأَخَذَ، وأَمَرَ، وأَكَلَ. أُبدِلت في المضارع ألفًا إذا سبقتها همزة المتكلم. لقاعدة: أنه متى اجتمع همزتان في أول الكلمة، وسكنت ثانيتها أبدلت من جنس حركة الأولى، فتبدل ألفًا للفتحة، واوًا اللضمة، وياء للكسرة، وحذفت همزة الفعل من الأمر، فيبقى عينه ولامه تقول. آخُذُ وآمُرُ وآكُلُ. وخُذْ ومُرْ وكُلْ. وحينئذ يستغنى الأمر عن همزة الوصل.

وإذا كانت عين الفعل واوًا كقول وروم. أبدلت ألفًا في الماضي ونقلت ضمتها إلى الساكن قبلها، وبقيت ساكنة سكونًا مرسلًا في المضارع، فإذا سكن آخره حذفت كما تحذف من الأمر إذا لم يتحرك آخر ه. فيكون النطق هكذا: قالَ يقوُل. لم يَقُل: قل قولًا، ورام يروُم لم يَرُم رُمْ روموا.

وإذا كانت لام الفعل واوا كدَعَوَ وعَلَو أبدلت ألفًا في الماضي، ولها في المضارع ثلاثة أحوال: السكون المرسل، والفتح، والحذف.

وبيان سبب ذلك من وظيفة النحو. ولها في الأمر ثلاثة أحوال: حذفها عند خطاب الواحد، وعند خطاب جماعة الذكور، وعند خطاب الواحدة. وفي هذا تبدل الضمة التي كانت قبلها كسرة. وبقاؤها مفتوحة عند خطاب

الاثنين. وبقاؤها ساكنة عند خطاب جماعة الإناث. فيكون النطق هكذا: عَلَا يَعْلُو، لَنْ يعلوَ بفتح الواو. لم يعلُ اعلُ. اعلوّا أعلِى اعلُو اعلُون.

وإذا كانت عين الفعل ولامه من جنس واحد، كدالين أو جيمين كردَّدَ سكنت العين، وأدغمت في اللام في الماضي، ونقلت ضمتها إلى الساكن قبلها، فتسكن وتدغم في المضارع والأمر. ولذلك يحرك آخر الأمر في موضع سكونه.

الباب الثاني

فعَل بفتح العين يَفْعِل (بكسرها)، ويسمى «باب ضَرَبَ. كضرَب وباع ورمى ووَعَدَ ووفَى ووجَد».

فإذا كانت عين الفعل ياء كبيع قلبت ألفًا في الماضي، ونقلت كسرتها إلى الساكن قبلها وبقيت ساكنة سكونًا مرسلًا في المضارع. وحذفت إن سكن آخره كما تحذف من الأمر إن لم يتحرك آخره. كباع يبيع لم يبع بِعْ بِعْنَ بيعًا بيعُوا بيعي.

وإذا كانت لام الفعل ياء: كرمَي قُلبت ألفًا في الماضي.

ولها في المضارع ثلاثة أحوال: سكونها وفتحها وحذفها.

ولها في الأمر ثلاثة أحوال: حذفها في خطاب الواحد والواحدة وجماعة الذكور. وتبدل الكسرة التي كانت قبلها في هذا ضمة وبقاؤها مفتوحة في خطاب الاثنين. وبقاؤها ساكنة في خطاب جماعة الإناث،

فيكون النطق هكذا: رَمَى يَرمِي لن يَرمِي بفتح الياء لم يرم ارم يا زيد ارمي يا هندُ ارمُوا يا رجال ارمِيا ارمِين.

وإذا كانت فاؤه واوًا حذفت من المضارع والأمر، فيبقى الفعل على حرفين هما: عينه ولامه: كوعد يَعِدُ عِدْ، ووزَن يزِنُ زنْ.

وإذا كانت فاء الفعل واوًا ولامه ياء: كوفَى ووفى عومل معاملة ما فاؤه واو وما لامه ياء فيكون نطقه هكذا وقَى يقِي لن يقِي لم يَق قِ قي قُوَاقِيا قِينَ.

وعند حذف لامه يبقى على حرف واحد هو عينه، وإذا أردت حينئذ أن تقف عليه أتيت بهاء السكت، فتقول: قِهْ وعِهْ وفِهْ.

وإذا كانت عينه ولامه من جنس واحد عملت فيه عملك في ردَّ. سوى أنَّ هنا كسرة وهناك ضمة.

الباب الثالث

فَعَل يفعَلُ بفتح العين فيهما، ويسمى باب فَتَح كفَتَح يفتَح، وذهَب يذهَب. ولم يرد هذا الباب إلا وعينه، أو لامه من الحروف الحلقية. وهي الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء. كسأَل يَسْأَل، ولجأَ يلجَأُ، ودهَم يدهَمُ، وشذ أبى يأبَى. وكان حقه يأبِي كيرمِي.

ومتى كانت لام الفعل ياء كسعى ورعى، أُبدلت ألفًا في الأفعال الثلاثة. وتحذف من المضارع، والأمر في بعض التراكيب على قياس أختيها الياء والواو من نحو يرمي ويدعو غير أن فتحتها تحفظ، ولا تبدل

كسرة لأجل الياء أو ضمة لأجل الواو فيكون النطق هكذا: سَعَى يَسْعَى لن يسعَى لم يسعَ اسعَ اسعَي بفتح العين اسعَوا بفتحها أيضًا اسعَيَا اسعينَ بالياء فيهما على الأصل، والمضعَّف منه كالمضعَّف من غيره والتخالف بالحركة.

الباب الرابع

فَعِلَ بكسر العين يَفْعَلُ بفتحها. ويسمى «باب فرح» كفرح يفرَحُ، وفهِم يفهَمُ، وخاف يخاف، وعور يعوَرُ.

ومن هذا الباب الأفعال الدالة على الفرح وتوابعه، والحزن وتوابعه والامتلاء، والخُلُو، والألوان، والعيوب، والخِلَق الظاهرة، التي تذكر لتحلية الإنسان في الغزل: كفرِح، وطرِب، وبطِر، وأشِر، وكغضِب، وحزِن، وكشبع وروِى وسكِر وعطِش وظمِئ وصدِى وهيِم وكحمِر وسوِد وكعوِر وعمِش وعشِى وجهِر وكغيِد وهيِف ولمِى.

وإذا كانت عين الفعل من هذا الباب واوًا أو ياء. فإن كان مصدره على فَعَل بفتحتين كعور عورًا وغيد غيدًا سلمت ولم تغير. وإن كان مصدره على فَعْل بفتح فسكون، كخاف يخاف خوفًا، أُبدلت ألفًا في الماضي، وكذا في المضارع بعد نقل فتحها إلى ما قبلها. وإذا سكن آخره حذفت، كما تحذف من الأمر إن لم يتحرك آخره: كخاف يخاف لم يخف خف خفن خافي خافا خافوا.

وإذا كانت لامه واوًا أبدلت ياء في الماضي، وألفًا في المضارع، والأمر. وعوملت معاملة ألف يسعى: كرضِى وعشِى أصلهما رضُو وعشو

بدليل الرضوان وعشواء. ومثل الياء المبدلة الياء الأصلية في إبدالها ألفًا في المضارع والأمر كلَمي يلمَى. والمضعف من هذا الباب كغيره.

الباب الخامس

فعُل يفعُل بضم العين فيهما، ويسمى «باب كرُم».

نحو: كرُم يكرُم. وشرُف يشرُف.

وجميع أفعال هذا الباب دالة على غرائز مطبوعة في الفِطر، ولك أن تحول كل ثلاثي إلى هذا الباب للدلالة على أن معناه قد صار كالغريزة في صاحبه. وربما تعجَّبوا بأفعال هذا الباب، فلا تكون للأخبار عن حدوثها كما هو وضع الأفعال ولهذا شرح في النحو.

الباب السادس

فعِل يفعِل بكسر العين فيهما ويسمى «باب حسِب» كحسِب يحسِبُ ووثِق يثِق. وهذا الباب أقل الأبواب أفعالًا ولذلك أخر. ولم يكن مع باب فرح كما تقتضي المناسبة لكسر عين الماضي فيهما.

ولم يوجد في اللغة العربية فهو مهمل فعِل بكسر العين يفعُل بضمها ولا فعُل بضم العين يفعِل أو بفعَل بكسرها أو فتحها. ولو وجدت لكانت أبواب الثلاثي تسعة.

الكلام على أبواب الرباعي

هي خمسة أقسام: قسم المجرد، وقسم ملحقات المجرد بالزيادة، وقسم المهموز، وقسم مضعف العين، وقسم المُفَاعلة. كدحْرجَ وبَعْثَرَ وعَرْبَدَ ودَرْبَجَ وكحَوْقَلَ وبيْطَر وجَهْوَر وعَثْيَرَ وجَلْبَبَ وسَلْقَى وكأكرم وكعظَّم وكفَاخَر.

ومن المجرد أفعال نحتها العرب من مركبات، كبَسْمَل من: بسم الله. وحَمْدل من الحمد لله. وحَوْقَل من لا حول ولا قوة. وطَلْبَق من أطال الله بقاءه. ودَمْعَزَ من دام عزه. وجَعْفَل من جعلني الله فداءك.

ويقتصر من هذا على ما سمع، فليس لنا أن ننحت كما نحتوا. والزيادة في الملحقات للدلالة على قوة الفعل أو كثرته. وأما صيغة المهموز، وصيغة مضعف العين، وصيغة المفاعلة، فهي لمعان يكثر في الكلام دورها. فلا بد من تفصيلها والتنبيه على مواضعها.

صيغة المهموز: يكثر استعمالها في ستة معان:

أحدها: تحصيير شيء فاعلًا فِعلًا. كأقمت زيدًا وأقعدتُه وأقرأتُه القرآن. أي صيرته فاعلًا للقيام والقعود والقراءة.

فمتى كان أصل الفعل لازمًا صار بالهمزة متعديًا لواحد. ومتى كان متعديًا لواحد صار متعديًا لاثنين. وذلك أن صيغة المهموز مشتملة على معنيين هما فعلا التصيير، ومعنى أصل الفعل. فإذا قلت أعطى زيد عمرًا درهمًا. فمعناه: صير زيد عمرًا عاطيًا درهمًا. فالتصيير فعل زيد وعمرو

ومفعوله، والعطوَ أي التناول والأخذ فعل عمرو والدرهم مفعوله، ولم يرد في اللغة إدخال همزة على فعل متعد لاثنين، ليصير متعديًا لثلاثة إلا رأى وعلم. وهما من الأفعال الإدراكية التي سبق معرفتك أنها متعدية لاثنين بعد الفاعل. فإذا أُدخلت الهمزة صار ما كان فاعلًا مفعولًا؛ فتقول: أرأيت زيدًا بكرًا نافعًا أو أعلمته.

ومن كلامهم: البركة أعلمنا الله مع الأكابر.

وثم خمسة أفعال متضمنة معنى الإعلام، فهي متعدية إلى ثلاثة، وهي: أَخْبَرَ وخَبَّرَ ونَبَّأَ وأَنْبَأَ وحَدَّثَ.

وثانيها: سلب شيء وإزالته عن شيء: كأعتب زيد عمرًا. وأشكاه وأقذى عينه، أي أزال عتبه عليه بترضِّيه والاعتذار له، وأزال شكايته منه، وسلب القذى عن عينه. والقَذَى ما يسقط في العين فيؤذيها.

ثالثها: مصادفة الشيء على صفة: كأكرمتُ زيدًا وأحمدته حين قصدتُه. وأَبْخَلتُ عمرًا وأذممته، أي وجدت زيدًا كريمًا محمودًا وصادفت عمرًا بخيلًا مذمومًا.

ورابعها: صَيْرُورة شيء ذا شيء بكونه مالكًا له كأَلْبَن وأتمر وأفلس وأنقد وأعرض. أي صار مالكًا للَّبن والتَّمر والفُلُوس. والنَّقد والعرض. أو حاصلًا فيه كأمسى وأصبح وأشأم وأعرق.

وخامسها: حَيْنُونَةُ الشيء للشيء. أي مجيء حِينه، وأوانه كأحصدَ الزرع وأجَدَّ النخلُ وأقطف الكرمُ وأجنى الوردُ وأَزْوَجَتْ عقيلة فلان: أي جاء حين ذلك.

وسادسها: تعريض الشيء لشيء كأَرْهَنْتُ المتاع، فما وجدت مُرتهنًا، وأبعت الجارية فلم أر مشتريًا. أي عرضتها لذلك وربما جاء المهموز كأصله، وهو نادر كلحق، وألحق وحرم وأحرم، وشغل وأشغل، وحب وأحب. فتارة يكون المتروك المسترد هو الثلاثي كحب، فالفصيح أحب. وتارة يكون المهموز كأشغل فالفصيح شغل.

يحكى: أن كاتبًا للصاحب إسماعيل بن عباد، رفع له ذات يوم كتابًا فيه. وأشغلني هذا الأمر؛ فوقع الصاحب تحته لا يصلح لعلمنا من يقول أَشْغلني، وأبعده عن الخدمة.

وربما كان الفعل الثلاثي متعديًا، فتدخل عليه الهمزة فيصير لازمًا على خلاف المعتاد من ذلك:

نَسلتْ ريشُ الطائر. وأَنْسل ريش الطائر. وعَرَضْتُ الشيء، أي أظهرته، وأعرض الشيء أي ظهر. وكببت زيدًا على وجهه. وأكبذَ زيدٌ. وقشعت الريح السحاب. وأقشعَ السحابُ.

قال الشاعر:

كما أبرقَتْ قومًا عِطاشًا سحابة فلما رأوْهَا أقشَعتْ وتجلَّتِ

صيغة المضعف: تشارك المهموز في معنيين:

أحدهما: تصيير الشيء فاعلًا. كقوَّمت زيدًا وقعَّدتُه وقرَّأتُه شعرًا.

وثانيهما: السَّلب والإزالة. كقشرت الشيء وجربته أي أزلت عنه قشرة وجربه.

وتنفرد بستة معان:

أحدها: صِيرورة الشيء شبه شيء كقوَّس زيد، وحجَّر عمرو، أي صار شبه القوس في الانحناء وشبه الحجر في الجمود.

وثانيها: نسبة شيء لشيء باعتقاد أو دونه. كوحَّدتُ الله وقدَّسته. وخطَّأ زيدٌ عمرًا وفسَّقَهُ أو صوَّبَه وحسَّن رأْيَه.

وثالثها: الحضور إلى شيء: كجمَّع وسوَّق ووسَّم. أي حضر الجُمعة والسَّوق والموسِم.

ورابعها: النطق بألفاظ تأخذ منها الصيغة كلبَّي وسمَّى وسبَّح.

وخامسها: قبول شيء وتحصيل الغرض منه كشفعّتُ زيدًا في عمرو. أي: قبلتُ شفاعته، وأَبرأْتُه من الدَّين.

وسادسها: التكثير وربما اعتبر مع التكثير التدريج.

نحو: نزَّل الله القرآن. أي أكثر من نزوله شيئًا فشيئًا، لكونه نزل على النبي – صلى الله عليه وسلم – نجُومًا. ثم التكثير يكون بالنظر للفعل في نفسه:

نحو: طوَّف زيد وجوَّل. وفَرَّيْتُ الأَدَيم.

وقد يكون بالنظر للفاعل حيث لا يكون الفعل في نفسه قابلًا للتكثير.

نحو: موَّقت الإبل أو برَّكت ورَّبَضت الشاة.

وقد يكون بالنظر للمفعول نحو: وغلَّقت الأبواب.

وربما لم يزد المضعف على أصله ولم يتغير معناه: كعَاض وعوَّض، بشَر وبشَّر وماز وميَّز.

وربما استعملت صيغة المضعف هذه بمعنى تفعل كولي بمعنى تولى وفكَّر بمعنى تفكَّر. وربما أغنت عن الثلاثي كعَرَّد في القتال إذا فرَّ وعيَّرة أي عابه. وعجَّزت المرأةُ أي: صارت للسن العالية.

صيغة الفاعل: تأتي لمعنيين:

أحدهما: أن شيئًا فعل فعلًا مع شيء آخر، فقابله ذلك الشيء الآخر بمثله. فيكون كلُّ فاعلًا مفعولًا لكن ليس النظر لمجرد الاشتراك، بل مع أن أحدهما بدأ والآخر قابل، فلذلك ينسب لأحدهما نسبة الفاعلية، وللآخر نسبة المفعولية.

وإذا كان أصله لازمًا صار متعديًا لواحد، وإذا كان متعديًا لواحد فربما صار متعديًا لاثنين نحو ماشيته. وأصله. مشي ومشيت، وجاذبته الثوب والأصل جذبت ثوبه وجذبه، وفي هذه الصيغة معنى المغالبة والمسابقة.

ويدل على سَبْق أحدهما. وغلبته بصيغة فعل من باب نصر إلا إذا كان واوي الفاء أو يائي العين أو اللام فإنه من باب ضرب.

تقول: كاثر زيد عمرًا وفاخره فكثَّره يكثرهُ وفخره يفخّره كنصره ينصُره. وتقول واثبه فوثبه يثبه. وبايعه فباعه يبيعه. وما شاه فمشاه يمشيه.

فمتى كان فعل للدلالة على الغلبة كان متعديًا. وإن كان أصله لازمًا ومن باب نصر، وإن كان أصله من أي باب تقول: كارم زيد عمرًا، فكَرَمه يكرُمُه. كنصَره ينصُره، وأصله كرم لازم من الباب الخامس.

وثاني المعنيين: تصيير الشيء ذا صفة .. كتابعتُ القراءة والثيت السفر. أي صيرت القراءة تابعًا بعضها بعضًا وصيرت السفر كذلك. وربما كانت هذه الصيغة بمعنى فعل مضعفًا كضاعفت الشيء بمعنى ضعفته أي: جعلت له ضعفًا وهو قدرة مرة. وربما كانت صيغة المفاعلة قائمة مقام فعل ثلاثيًا أو أفعل مهموزًا.

فالأول: كبارك وقاسي وباني. والثاني: كوارى الشيء. أي: أخفاه.

وربما كانت المفاعلة بتنزيل غير الفعل منزلة الفعل وجعله من جنسه مثل حاربَ الله الكفار، وجعل عنادهم ونفورهم عن قبول الحق حربًا وحربهم إيذاؤهم بسلب أموالهم وإهلاك أبدانهم.

* * *

الكلام على أبواب الخماسي

هي ثلاثة أقسام: خماسي الثلاثي، وخماسي الرباعي، وخماسي ملحقات الرباعي.

نحو: انبعث، واحمَّر، وتغافل وتصبَّر. واقتدر، ونحو: تدحرج. ونحو تشيطن وتجَوْرَب وترهوك وتجلبب وتقلنس وتقلَّس وتمسكن.

بيان المعاني التي تأتي لها تلك الصيغ:

صيغة انفعل: كانبعث وانطلق، تأتي لمعنى واحد وهو المطاوعة، أي قبول تأثير الغير ولا تكون إلا في الأفعال العلاجية وتكون لمطاوعة ثلاثي كثيرًا. كطبعته فانطبع، وبعثته فانبعث، وكسرته فانكسر. ولغيره قليلًا

كأطلقته فانطلق، وعدَّلته بالتضعيف فانعدل، فلا يقال: علمت الشيء فانعلم لكونه غير علاجي.

صيغة أفعل: كاحمر، وأسود، وأعور، وأعمش. تأتي لمعنى واحد هو قوة اللون أو العيب.

صيغة تفاعل: تأتي لأربعة معان؛

أحدها: تشارك شيئين فأكثر، فيكون كلٌّ فاعلًا مفعولًا، لا ينظر فيه للبدء والمقابلة. كما ينظر في المفاعلة. ولذلك إذا كان فاعل متعديًا لواحد صار بالتاء لازمًا، وإذا كان متعديًا لاثنين صار بها متعديًا لواحد.

فنقول: ضارب زيد عمرًا، وتضارب زيد وعمرو، وجاذب زيد عمرًا ثوبًا، وتجاذب زيد وعمرو ثوبًا.

فتلغى نسبة المفعولية ما لم تزد عن واحدة.

وثانيها: التظاهر بالفعل دون حقيقة: كتغافل، وتناوم، وتغابى. أي أظهر الغفلة والنوم والغباوة، ولا غفلة ولا نوم ولا غباوة.

قال الشاعر:

ليس الغبي بكامل في قومه لكن سيد قومه المتغابي

والثالث: حصول الشيء تدريجًا: كتزايد النيل، وتكاثف الغمام، أي: حصلت زيادة النيل وكثافة الغمام شيئًا فشيئًا.

والرابع: مطاوعة فاعل، كباعدته فتباعد.

صيغة تفعل: تأتي لخمسة معان؛

أحدها: تكلف الشيء ومحاولة أن يحصل، كتحلم، وتصبر، وتشجع حيث يقوم الغضب والجزع والجبن. فهو يتعقل ما في هذه الأشياء من المضار وما في تلك من المنافع فهو يحاول أن يتحلى بتلك الفضائل، ويحصل منافعها.

وثانيها: تجنب الشيء نحو: تحرج، وتأثم، وتهجد أي: تجنب الحرج والإثم والهجود.

وثالثها: اتخاذ الشيء شيئًا نحو: توسَّدت الحجر، وتفرَّشت الأرض، وتبيَّت الدنيا، أي اتخذت الحجر وسادة، والأرض فراشًا، والدنيا بيتًا.

ورابعها: تحصيل الشيء تدريجًا نحو: تحفظت العلم، وتفهمت مسائله.

وخامسها: مطاوعة فعل مضعف العين. نحو علمته فتعلم. ونبهته فتنبه.

وربما كانت صيغة تفعل مغنية عن النطق بفعل الثلاثي قائمة مقامه نحو: تكلم وتصدى.

صيغة افتعل: تأتي لستة معانٍ:

أحدها: الاتخاذ نحو: اختتم زيد واختدم. أي اتخذ خاتمًا وخادمًا.

وثانيها: الاجتهاد نحو: اكتتب، واحتمل، واجتهد.

وثالثها: التشارك في الفعل، فترادف صيغة «تفاعل».

نحو: اختصم زيد وعمرو أي تخاصما، واجتور العرب واختلف الناس. ومنه قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) [سورة الحجرات: ٩].

ورابعها: إظهار الشيء نحو: اعتذر واعتظم، أي أظهر عذره وعظمته.

وخامسها: القوة نحو: اقتدر، واحتدر، وارتد.

وسادسها: مطاوعة ثلاثي كثيرًا ومطاوعة غيره قليلًا.

نحو: عدلته فاعتدل، وهممته بالأمر فاهتم به، وغممته فاغتم، وقرَّبته بالتضعيف فاقترب، وحملته فاحتمل.

هذا ومتى كانت فاء افتعل زايًا أو دالًا وجب إبدال التاء دالًا، ليحسن اللفظ ويخف النطق به.

نحو: ازدان من الزينة، وأدان من الدين.

ومتى كانت ذالًا فأنت مخير بين أن تبدل التاء والذال دالين، وبين أن تبقى الذال وتقلب التاء ذالًا.

فتقول: في اذتكر ادَّكر أو اذَّكر وبكلتيهما يحصل المقصود. ومتى كانت أحد حروف الأطباق وهي: «الطاء، والضاد، والصاد، والظاء» وجب إبدال التاء طاء في الثلاثة الأول. نحو: اطَّحن من الطحن، واضْطُرَّ من الضُرِّ واصطبر من الصبر.

وفي الرابع: أنت مخير بين أن تبدل التاء طاء، أو تبدلها ظاء أو تبدل الظاء والتاء ظاءين.

فتقول: اظْطَلَم أو أظَّلَم أو أطَّلَم في ظلم. وبالأوجه الثلاثة روى قول زهير:

هو الجواد الذي يعطيك نائله عفوا ويظلم أحيانا فيظَّلم

ويظطلم ويطَّلم. ومتى كانت فاء «افتعل» واوًا أو ياء وجب إبدالها تاء.

نحو: اتكل واتئد واتقى. فأصله أوتكل وأوتئد وأوتقى. ونحو أتسر وأصله ائتسر. فهذه التغيرات التي تلحق هذه الصيغة.

صيغة تفعلل: نحو: تدحرج لمطاوعه، أصله في الأفعال المتعدية وفي غيرها لمجرد التقوى.

وقيل في نحو: تمسكن أنه ليس من الملحقات، بل هو من باب تفعلل بناء على توهم أصالة الميم في نحو: مسكين، ومكان، ومكرمة. وهي زائدة لكونها من السكون والكون والكرم. ومن ادعى هذا كمل أبواب الفعل بعد تكلم من الملحقات، وهي فعل وضع بهذه الصورة لم ينطق له بثلاثي.

* * *

الكلام على أبواب السداسي

هي قسمان: سداسي الثلاثي، وسداسي الرباعي.

كاحْمَارَّ من حَمِرَ واخْشَوْشَنَ من خَشِنَ، واجْلَوَّذَ من جَلَذ واقْعَنْسَسَ من قَعَسَ، واسْلَنْقَى من سلق، واستخرج من خرج، وكاحْرَنْجَمَ من حَرْجَمَ واقْشَعَرَّ من قَشْعَرَ. والخمسة الأُول من القسم الأَول للدلالة على قوة المعنى.

والصيغة السادسة منه تأتي لستة معانٍ؛

أحدها: طلب الشيء حقيقة أو مجازًا كاستكتب زيدًا أي طلب منه الكتب. واستخرجت المعدن أي طلبت منه الخروج. سميت علاجك ومحاولتك أن يخرج طلبًا.

وثانيها: اعتقاد الشيء كاستحسن زيد كذا أو استقبحه، واستنسب واستصوب أي اعتقد حسنه وقبحه.

وثالثها: صيرورة الشيء كاستحصن المهرُ أي صار حصانًا واستحجر الطين.

ورابعها: المصادفة والوجدان، كاستكرمت زيدًا حين قصدته أو استبخلته.

وخامسها: النطق بكلام أخذ منه الفعل، كاسترجع أي قال إنا لله وإنا إليه راجعون.

وسادسها: القوة: كاستحمق واستهتر أي قويت حماقته وهُتاره.
والصيغة الأولى من القسم الثاني للمطاوعة، كحرجمتُ الإبل أي جمعها، فاحرنحمت أي اجتمعت.

والصيغة الثانية: منه للتقوية.

تكملة فيها مسائل

المسألة الأولى: الهمزة التي تبدأ بها مواضي هذه الأفعال وأوامرها ـ همزة وصل، كما سبقت الإشارة إليه إلا همزة مهموز الثلاثي: كأكرم فإنها تسمى همزة قطع لا تسقط أصلًا بدأت بها أو وصلتها بغيرها، بخلاف السابقة.

فتقول: أكرمَ وأجملَ وأحسنَ. وأكرمْ وأجمِلْ وأحسِنْ كما أحسن الله إليك. فتنطق بالهمزة وتقول انطلق، واستخرج، فتنطق بالهمزة في الأولى فقط، مع كونها ترسم مطلقًا إلا في «بسم الله». كما قال بعض الشعراء مشيرًا لذلك:

أَفِي الحَقِّ أَنْ يُعْطَى ثلاثونَ شاعِـرًا ... وَيُحْرَمَ مَا دُونَ الرِّضَى شَاعِرٌ مِثْلِـي!
كَـمَا سَامَحُـوا عَمْـرًا بِـوَاوٍ مَزِيـدَةٍ ... وَضُويِقَ "بِسْمِ اللَّهِ" في أَلِفِ الوَصْـلِ

وبقية مواضع همزة الوصل ـ مصادر هذه الأفعال الآتي بيانها إلا همزة مصدر نحو: أكرم. وعشرة أسماء هي: اسم، وابن، وابنم، وابنة، وامرؤ، وامرأة، واست واثنان، واثنتان، وأيمن، القسمية.

كقول الشاعر:

وقال فريق لأيمن الله ما ندري.

وحرف واحد على خلاف فيه وهو أل «التعريفية» فمن قال: إن حرف التعريف هو اللام فقط حكم بوصلية الهمزة. ومن قال: مجموع الحرفين حكم بقطعتيها وتسقط تخفيفا لكثرة الاستعمال.

الثانية: الأحرف الأربعة التي يبتدأ بها المضارع ويجمعها قولك (أنيت) تسمى أحرف المضارعة وهي مفتوحة إلا في مضارع الرباعي مجردًا أو مزيدًا فإنها مضمومة. والهمزة للمتكلم المخبر عن نفسه وحده، والنون للمتكلم المخبر عن نفسه وغيره، والتاء للمخاطب والمخاطبة والمخاطبين والمخاطبتين والمخاطبات وللغائبة والغائبتين، والياء للغائب والغائبين والغائبات والغائبتين.

الأمثلة لذلك: أنا اكتب، نحن نكتب، يا رجل تكتب، يا امرأة تكتبين، يا رجلان تكتبان، يا امرأتان تكتبان، لا فرق بين خطاب الاثنين، وخطاب الاثنتين، يا رجال تكتبون يا نساء تكتبن بسكون الباء، هند تكتب، والهندان تكتبان. زيد يكتب، والزيدان يكتبان، والرجال يكتبون، والنساء يكتبن بسكون الباء.

المسألة الثالثة: الحرف الواقع قبل آخر المضارع من غير الثلاثي مكسور ولو تقديرًا. إلا في الأفعال المبتدأة بالتاء الزائدة كتصَّبر وتغافل فإنه مفتوح.

المسألة الرابعة: المضارع يشتمل على جميع أحرف الماضي غير همزة الوصل إلا في باب أكرم فتسقط همزته فتقول: أَكْرَم، وتُكرم وكان حقه أُأَكرِمُ كأُدَحْرِجُ فخفف بإسقاط الهمزة.

المسألة الخامسة: «الفعل الماضي» متى أسند للتاء أو نون الإناث أو نا، يسكن آخره. فإن كان قبله ألف حذفت لقاعدة متى التقى ساكنان، فإن كان أولهما مدًا ليس بعده حرف مشدد حذف وإلا حرك أحدهما للتخلص. وتعيين المتحرك منهما بالسماع فبناء على هذا تقول في قال وباع وخاف: قلت وبعت وخفت. والنساء: قلن وبعن وخفن، ونحن قلنا وبعنا وخفنا. فإن كانت الألف المحذوفة بدلًا عن واو غير مكسورة ضممت أول الفعل تنبيهًا على أنه من بنات الواو كقلت وطُلْتُ. الأول من باب نصر والثاني من باب كَرُم.

وإن كانت الألف بدلًا من ياء أو واو مكسورة، كسر أول الفعل تنبيهًا على أنه من بنات الياء في الأول، وعلى كسر عينه في الثاني. كخفت ونمت من الخوف والنوم، وهما من باب فرح.

ومتى أسند لواو جماعة الذكور ضم آخره، كقاموا، وباعوا، وأكلوا، وشربوا ويفتح في غير ذلك.

ومتى كان آخره ألفًا حُذفت عند إسناده للواو، لتلك القاعدة وتبقى الفتحة التي كانت قبلها فتقول رجال سعوا. ودعوا بفتح العين وحذف الألف من سعى ودعا.

وعند إسناده لغير الواو من الضمائر البارزة، يرجع الفعل لأصله فتقول: دعوت ودعونا. والنسوة دعون، ورميتُ ورمينا ورميا. والنسوة رمين.

ومتى كان آخره ياء لم تبدل: كرضي وخشي، حذفت عند إسناده لواو الجماعة، وأبدلت الكسرة التي قبلها ضمة.

فتقول: رضوا وخشوا.

المسألة السادسة: الفعل المضارع إذا أسند لألف الاثنين أو لواو الجماعة أو لياء المخاطبة، جيء بعد الضمائر بنون لا معنى لها. ولها فائدة تعرف في النحو. وحينئذ إذا كانت لام الفعل واوًا أو ياء حذفت مع ياء المخاطبة ونبدل الضمة التي قبل الواو كسرة كتدعين وترمين. وحذفت أيضًا مع واو الجماعة وتبدل الكسرة التي قبل الياء ضمة كترمون والأمر كالمضارع. لكن النون الزائدة لا ينطق بها معه، وإذا أكد بإحدى نوني التوكيد فإن اتصلت به فتح آخره. وإن انفصلت بأحد الضمائر الثلاثة حذفت النون الزائدة وحذفت واو الجماعة وياء المخاطبة إلا مع الفعل المعتل بالألف. فإنهما يبقيان وتضم الواو وتكسر الياء كتخشون وتخشين.

وأما الألف فلا تحذف ولا يقع بعدها من النونين إلا الثقيلة مكسورة. وكذلك بعد نون الإناث ويفصل بينها وبين نون التوكيد بألف كَتَعْرِفْنَان.

وإذا ولي الخفيفة ساكن حُذفت وبقيت الفتحة التي كانت قبلها.

كقول الشاعر:

لا تهينَ الفقيرَ علك أن   تركع يومًا والدهرُ قد رفَعَه

التقسيم الرابع: الفعل إن ذكرنا فاعله سمي « فعلًا معلومًا» وإن لم يذكر فاعله سمي «فعلًا مجهولًا». وحينئذ تتغير صورته فإن كان ماضيًا كسر ما قبل آخره وضم أوله وثانيه إن كان مفتتحًا بتاء زائدة، وضم أوله وثالثه إن كان مفتتحًا بهمزة وصل، وضم أوله فقط في غير ذلك. فإن كان بعد المضموم ألف قلبت واوًا: كبويع وتغوفل. وإن كانت عين الفعل ألفًا ـ سواء كانت بدل واو أو ياء ـ أبدلت ياء وكسر ما قبلها على الأفصح:

كقيل وبيع واختير وانقيد واستقيد. وإن كان مضارعًا ضم أوله وفتح ما قبل آخره. فإن كان ما قبل الآخر واوًا أوياء: كيقول ويبيع ويستطيل، أبدلت ألفًا: كيقال ويباع ويستطال.

التقسيم الخامس: الفعل إما متصرف تام التصرف يجيء ماضيًا ومضارعًا

وأمرًا؛ كنصر ينصر انصر، وناقصه يجيء ماضيًا ومضارعًا فقط؛ كزال يزال، وبرح يبرح، وفَتِئ يفتأ، وانفك ينفك، وكاد يكاد، وأوشك يوشك.

وإما: جامد لا يجيء منه غير الماضي؛ كليس، وأفعال الشروع، وبقية أفعال المقاربة، ونعم وبئس في المدح والذم، وعدا وخلا وحاشا في الاستثناء.

* * *

المقالة الثانية في الكلام على الاسم

للاسم تقاسيم:

التقسيم الأول: الاسم إما جامد؛ وهو أسماء الأجناس الجوهرية وأسماء الأجناس العرضية: كإنسان وسبع وفرس وشجر وورق، وكفهم وعلم وقيام وقعود.

وإما مشتق؛ كأكثر الأفعال. وهو الأسماء الدالة على أمر ذي صفة. والاشتقاق من أسماء الأجناس المعنوية: كالفهم والعلم والحفظ. وجاء

قليلًا من اسم العين: كأورق الشجر من الورق. وأسبعت الأرض من السبع.

والأصل الذي منه الاشتقاق غالبًا يسمى كما عرفت «مصدرًا» ويشتق منه عشرة أشياء: الماضي، والمضارع، والأمر، واسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة، واسم الزمان، واسم المكان، واسم الآلة، واسم التفضيل، فتحصل معنا أحد عشر شيئًا.

الأصل والفروع العشرة. وكل يحتاج إلى البيان. أما بيان الأفعال فقد مضى.

* * *

بيان المصدر

سبق أن الفعل باعتبار مادته أربعة أنواع، ولكل نوع مصادر فهي أنواع أربعة: (النوع الأول): مصادر الثلاثي، اعلمْ أنهم يقولون: هذا الشيء قياسي، وهذا الشيء سماعي.

أما القياسي: فهو كل شيء كثرت أفراده وصعب حصرها وعدها؛ فوضع له ضابط كلي ينتظم به جميع أفرادها أو أكثرها.

وأما السماعي: فهو ما قلت أفراده فعُدَتْ، ولم يوضع لها ضابط؛ فإذا سمعت القياسي والسماعي فهو على هذا المعنى:

كل فعل ثلاثي يدل على حركة واضطراب، فمصدره القياسي يوازن «فَعَلَانًا» بفتحات؛ كجال جولانًا، وطاف طوفانًا، وغلى غليانًا.

«وكل ثلاثي» يدل على حرفة أو صناعة، فمصدره القياسي يوازن «فِعالة» بكسر أوله، كولى البلاد ولاية، وساس العباد سياسة، وراض الخيل رياضة.

و«كل ثلاثي» يدل على إباء وامتناع، فمصدره القياسي بوازن «فِعالًا» بكسر أوله، كأبي إباء، وشرد شرادًا، وحزن حزانًا.

«وكل ثلاثي» يدل على سير. فمصدره القياسي يوازن «فعيلا» بفتح أوله كرحل رحيلا، ورسم رسيما، وذمل ذميلا.

«وكل ثلاثي» يدل على داء فمصدره القياسي يوازن «فُعالا» بضم أوله كدار رأسه دُوارًا، وصدع صُداعًا، ومشت بطنه مُشاء.

«وكل ثلاثي» يدل على صوت، فمصدره القياسي نوعان يتوزعانه: أحدهما يوازن فُعالًا بضم أوله. والآخر يوازن فَعِيلا بفتح أوله كصرخ صُراخًا، ونبح الكلب نُباحًا، وعوى الذئب عواء، وكزأر الأسد زئيرًا، وصهل الفرس صهيلًا.

«وكل ثلاثي» من باب كرُم، فمصدره القياسي نوعان يقتسمانه: أحدهما يوازن فُعولة بضم أوله. والآخر يوازن فَعالة بفتح أوله، كصعب صُعوبة، وخشن خُشونة، وسهل سُهولة. وجزل جَزالة، ونبه نَباهة، وظرف ظَرافة.

«وكل ثلاثي» لازم من باب فرح، فمصدره القياسي يوازن فعلًا بفتحتين، كفرح فرحًا، وهوى هوى، وشل شللًا. وكل ما دل من هذا

الباب على لون فمصدره القياسي يوازن فُعْلة بضم فسكون كحمر حُمْرة، وصفر صُفْرة، وحوى حُوْة.

«وكل فعل ثلاثي» لازم ليس من باب فرح، ولا من باب كرم، فمصدره القياسي يوازن فُعُولًا بضم أوله كقعد قُعُودًا، وجلس جُلُوسًا، وذهب ذُهُوبًا، ووثق وُثُوقًا.

«وكل ثلاثي» متعد كنصر، وضرب، وفتح، وفهم فمصدره القياسي يوازن فَعْلا بفتح فسكون كنصر نصرًا، وضرب ضربًا، وفتح فتحًا، وفهم فهمًا، وخاف خوفًا.

فهذه هي أنواع المصادر القياسية للأفعال الثلاثية، وهي ثلاثة عشر نوعًا. ولأهل العربية خلاف في تفسير القياسي؛ فمنهم من ذهب إلى أنه ما وضع له قانون كلي يضبط أفراده، بحيث متى سمعت فعلًا من أي باب نطقت بمصدره، حسب القانون الموضوع لمصدر نوع ذلك الفعل، وإن لم يكن مسموعًا من العرب وكان المسموع غيره، فلك إذن الخيار بين أن تنطق بالمسموع، أو أن تنطق بما اقتضاه القياس.

ومنهم من ذهب – وهو الصحيح – إلى أنه ما وضع للكثير المسموع منه قانون. فيكون الضبط لما كثر. لا لجميع الأفراد؛ فوجب أن تقف على حد ما سمع، فإن كان المسموع من المضبوط فذاك وإلا نطقت بما سمع.

وفائدة وضع القوانين حينئذ: التنبيه على الكثير، وإنك إذا سمعت مصدرًا من المضبوطات عرفت هيئة فعله.

وأما المسموع القليل من المصادر الثلاثية، فهي هذه نسردها عليك: شُرْب بضم فسكون، وحِفْظ بكسر فسكون، ورحَمْة بفتحة فسكون، ونِشْدة بكسر فسكون، ودَعْوى بفتح فسكون، وذِكْرى بكسر فسكون، وبُشْرى بضم فسكون، ولَيان بفتح فسكون، وحِرْمان بكسر فسكون، وغُفْران بضم فسكون، وطَلَب بفتحتين، وحَنِف بفتح فكسر، وصِغَر بكسر ففتح، وهُدَى بضم ففتح، وغَلَبَة بفتحات، وسَرِقة بفتح فكسر، وذَهاب بفتح أوله، وصِراف بكسره (شهوة الكلبة إلى الفحل) وزَهادة بفتح أوله، ودِراية بكسره، وبُغاية بضمه، وقَبول بفتحه، وكَراهية بفتحه، ورُجوليَّة بضمه وتشديد الياء، وشَيْخوخة بفتح فسكون.

وربما نطق للفعل بمصدرين فأكثر، فهذه خمسة وعشرون وزنًا، وردت مصادر لبعض الأفعال الثلاثية، لا يجوز على الصحيح أن تنطق بغير المسموع منها قياسًا على الكثير في مصدر نوعه، مثلًا: شرب فعل ثلاثي متعد كفهم، فالكثير في مصدر نوعه كما عرفت أن يوازن فَعْلًا بفتح فسكون كفهم، لكن المسموع شرب الماء شُربًا بضم أوله فهو ملتزم. وقد وردت ألفاظ على أوزان أُخر، اختلف أهل العربية في كونها مصادر.

فمنهم: من بني على ظاهر ما يعطيه الكلام فحكم بمصدريتها. ومنهم: من رأى سهولة التأويل محافظة على ضبط الانتشار، فحكم بكونها غير مصادر وأخرجها في أبواب أشكالها. وذلك كالمعقول، والمفهوم، والميسور، والمعسور، والجلود، والباقية والعاقبة.

في مثل: ليس لفلان معقول. على معنى ليس له عقل، مصدر عقل بمعنى أدرك.

فالظاهر أنه مصدر جاء على وزن مفعول؛ لأن الغرض من هذا الكلام كما عرفت نفي العقل بمعنى الإدراك، وبمصدرتيه بناء على هذا حكم الأولون فهو نفي للعقل بغير واسطة. وقال الآخرون معنى الكلام: ليس لفلان أمر معقول، وإذا لم يكن له أمر معقول لم يكن له عقل. فهو نفى للعقل بواسطة، ومن هذا قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [سورة الحاقة: ٨] يحتمل أن يكون معناه: فهل ترى لهم من بقاء؟ وأن يكون معناه: من فرقة باقية أو حالة باقية، فلفظ باقية على الأول مصدر جاء على وزن فاعلة، وعلى الثاني غير مصدر، والتأويل في بعض المواضع متكلف، وجاء للدلالة على الكثرة مصدر لهذه الأبواب يوازن التَّفْعال بفتح فسكون: كالتَّطواف، والتجوال، والتكرار، والتذكار. وشذ كسر الفاء في تِبيان وتِلقاء.

وثَمَّ لجميع الأفعال الثلاثية مصدر يقال له «المصدر الميمي» لكونه مبتدأ بميم زائدة لا خلاف في كونه مصدرًا، وإنما الخلاف في كونه مشتقًا من المجرد عن الميم أو مرادفًا له.

ومبنى الأول على أن الاشتقاق لا يلزم أن يغير المعنى، ومبنى الثاني على ذلك. وضابطه لتعرف كيفية النطق به أنه إذا كان مصدرًا لمثال حذفت فاؤه في المضارع وصحت لأمه، فهو بكسر عينه: كموعِد لوعد، وموئِل لوئل. تقول: وعدني زيد موعِدًا لم يخلفه، كما تقول: وعدني وعدًا. وفي غير ذلك بفتح عينه، كمنظَر ومضَرب ومجلَس ومفرَح ومكرَم وموجَل وميسَر ومعلَى ومرمَى. تقول: رميت مرمَى زيد، على معنى رميت مرمى مثل مرمى زيد. كما تقول: رميًا. مثل رمي زيد، فهو على معنى تمثيل الفعل الصادر منك بالفعل الصادر منه. وقد سمع ما يخالف هذا

الضابط في قليل من الكلمات، فيلتزم المسموع كلفظ «معرِفة» بكسر الراء. والضابط يقتضي فتحها «أو مقدِرة» بتثليث الدال. والموافق الفتح، ولوجود الشواذ لم تتم جميع القوانين، فأنت بعد مفتقر للكشف في كتب متن اللغة عن المصدر وغيره من الألفاظ، التي تريد أن تستعملها لتعرف صورتها، ولكن لوضع القوانين فوائد سبق تنبيهك لها.

(النوع الثاني): مصادر الأفعال الرباعية.

للرباعي المجرد وما ألحق به إلا نحو: زلزل وقلقل وبخبخ، وزن واحد هو «فَعْلَلَة» كدحرج دحرجة، وحوقل حوقلة، وبيطر بيطرة.

وأما نحو زلزل. فله وزنان هما «فَعْلَلة» بفتح فسكون ففتح، و«فِعْلال» بكسر فسكون كزلزل زلزلة وزلزالًا، ووسوس وسوسة ووسواسًا. قيل: ويفتح هذا.

وقيل: هو حينئذ غير مصدر، بل اسم موضوع لذلك المعنى.

ولمهموز الثلاثي، كأسلم وآمن «الإِفعال» كأسلم إسلامًا، وآمن إيمانًا، وأحسن إحسانًا، لكن إذا كانت فاء الإفعال همزة كالإيمان قلبت ياء، وإذا كانت واوًا فكذلك كأوصى إيصاء، وأوغل إيغالًا، وأوعد إيعادًا.

وإذ كانت عين فعله مبدلة ألفًا حذفت منه ألف الإفعال، وجئت بعده بتاء هي عوض منها، فيكون وزن المصدر «إِفَعْلة» بكسر ففتح فسكون، كأقام إقامة وأجاز إجازة، وأبان إبانة، ويقال في تصريفه أصل إبانة مثلًا إبيان كإكرام، نقلت فتحة الياء إلى الباء، وأبدلت ألفًا وحذفت ألف

الإفعال وعوض منها التاء، وذلك ليخف اللفظ ويعذب؛ إذ كان وضع اللغة على ملاحة المنطق ورشاقة اللفظ.

وإذا كانت لام فعله مبدلة ألفًا صارت فيه همزة كأحلى إحلاء، وألقى إلقاء، وأبقى إبقاء.

ولمضعف العين التَّفْعِيل: بفتح فسكون فكسر فسكون، كسبح تسبيحًا وجرب تجريبًا، لكن إذا كانت لام فعله معتلة حذفت منه ياء التفعيل وعوض منها تاء بعده، فوزنه «تَفْعِلة» بفتح فسكون فكسر، كزكي تزكية، وربى تربية، وحلي تحلية. وسمع هذا التغيير في بعض الصحائح فلا يتجاوز المسموع، كتجربة وتكرمة.

ومثل معتل اللام مهموزها مثل: جزأ تجزئة، ووطأ توطئة، وبرأ تبرئة.

ولفاعل: كضارب وخاصم مصدران: فِعال بكسر أوله، ومفاعلة كعيان ومعاينة، وخصام ومخاصمة، لكن إذا كانت فاؤه ياء كيَاوَم ويَامَن ويَاسَر، التزم الثاني وترك الأول لثقله، كمياومة، وميامنة، ومياسرة.

وإذا كانت لامه معتلة، فهي في الأول همزة، وفي الثاني ألف، كوالى ولاء وموالاة، وجارى جراء ومجاراة.

(النوع الثالث): مصادر الخماسي كتَفْعَلَلَ.

نحو: تدحرج وتشيطن «التَّفَعْلُل» بفتح أوله وثانيه وسكون ثالثه وضم رابعه كالتدحرج والتشيطن «ولتفعل» نحو: تصبر وتكلم «التَّفَعُّل» بفتح أوله وثانيه وضم ثالثه مشددًا إن لم تكن لامه معتلة فإن كانت كسر.

فالأول: كتصبر وتكلم.

والثاني: كتدلي تدليًا، وتألى تأليًا، وتأنى تأنيًا.

ولتفاعل: كتغافل وتقاصر «التفاعُل»، بضم ما قبل آخره إن لم يكن الآخر معتلًا وإلا كُسر، كتغافل وتداخل، وإن كان الآخر وما قبله من جنس واحد سكنت وأدغمت، كما هو الواجب في مثله، كتحابّ، وتوادّ، وتشادّ، والتغابي والتداني، والتقاضي.

ولانْفعل: كانطلق «الانْفعَال» كالانطلاق.

وإذا كانت لامه معتلة أُبدلت همزة، كالانجلاء، والانطواء، والانضواء. ولافْتَعَل: كاقتدر. الافْتِعَال كالاقتدار.

وإذا كانت لامه معتلة أبدلت همزة. كالاصطغاء، والاقتداء، والاختباء.

وإذا كانت فاؤه واوًا أو ياء أبدلت تاء وأُدغمت في تاء الافتعال كما فعلت بفعله: كاتِّقاء، واتّكال، واتّسار.

ولافْعل كاحْمَرَّ، الذي أصله قبل الإدغام الواجب في مثله احْمرر، وازْعوى الذي أصله قبل الإبدال الواجب في مثله ارعوى «الافْعِلال»: بكسر فسكون فكسر كاحمرار، واصفرار.

وإذا كانت لامه معتلة أُبدلت همزة كازْعواء.

(النوع الرابع): مصادر السداسي لاستفعل.

كاستخراج «الاسْتفعال» كاستخراج واستمهال.

وإذا كانت فاؤه واوًا أُبدلت ياء كاستوعد استيعادًا واستولى استيلاء.

وإذا كانت عين فعله مبدلة ألفًا حذفت ألف الاستفعال، وعوض منها تاء لزومًا، كاستعانة واستقامة واستطالة.

وإذا كانت لامه معتلة أُبدلت همزة، كاستبقاء واستيفاء واستهداء. ولنحو اخشوشن الاخشيشان بكسر فسكون فكسر وإبدال الواو ياء.

وإذا كانت لامه معتلة أُبدلت همزة كاعريراء.

ولمصادر الأفعال المبدوءة بهمزة الوصل ضابط: وهو أن المصدر كالفعل الماضي غير أنه يكسر ثالثه، وإذا كانت بعده ألف أو واو أُبدلت ياء، ويزاد قبل آخره ألف. وإذا كانت لامه معتلة أُبدلت همزة.

ومن وعى صور الأفعال لم يصعب عليه تمثيل المصادر.

(تكملة) بِنْيَتَان إحداهما: توازن «فَعْلة» بفتح فسكون. والثانية: توازن «فِعْلة» بكسر فسكون يصور بهما كل مصدر فعل ثلاثي لم يكن وضعه على إحداهما.

الأولى: تذكر بعد الفعل للدلالة على حصوله مرة.

والثانية: للدلالة على هيئة الفعل حال صدوره من فاعله.

تقول: زارني زيد زَوْرة، وجلس جلسة، وفرح فرحة. وتقول: مشي مِشْية الأمراء، وهو حسن السيرة، وخاتم جيد الصيغة، بإبدال الواو ياء. كما هو الواجب في مثله كقيمة.

فإذا كان وضع المصدر على «فِعْلة» كرحمة أو «فَعْلة» كنشدة. دللت على المرة والهيئة بما يفيد ذلك. تقول: رحم رحمة واحدة، ونشد الضالة نشدة المنادي، كما هو الحال إذا أردت الدلالة على الهيئة من غير الثلاثيات. تقول: عظمته تعظيم العناية والاحتفال، أو تعظيمًا قويًا. وأما الدلالة على المرة من غير الثلاثي؛ فبإلحاق التاء للمصدر والمشهور للفعل، كعظمته تعظيمة، وأكرمته إكرامة.

فإن كان المصدر مختومًا بالتاء، كإقامة ودحرجة. دللت على المرة بلفظ واحدة. ومن الشاذ قولهم: اعتم عمة الأعرابي، وتقمص قمصة الرعاة، واختمرت خمرة الحضر، وانتقبت نقبة حسنة، إذ لم تكن الأفعال ثلاثية، كما هو شرط البنية.

بيان اسم الفاعل

كل فعل ثلاثي متعد مطلقًا أو لازم، ليس من باب فرح أو كرم؛ فاسم الفاعل منه يوازن فاعلًا كناصر من نصر، وضارب من ضرب، وفاتح من فتح، وحافظ من حفظ، ووارث من ورث.

فإذا كانت عين فعله مبدلة ألفًا كقام وباع، فهي فيه همزة كقائم وبائع.

وإذا كانت لام فعله معتلة فهي فيه ياء، تحذف لوقوع ساكن بعدها كقاض وداع، وقاضي البلد، وداعي الخير، والقاضي والداعي، وتلحقه التاء في الأوصاف المشتركة بين الذكور والإناث للفرق كقائم وقائمة.

ولا تلحق الأوصاف المختصة بالإناث لعدم الحاجة، كحائض وامرأة حامل وحائل وفارك.

والغرض من اسم الفاعل الدلالة على أن صاحبه متلبس بإيجاد الفعل وإحداثه، فهو بمنزلة المضارع الحالي، وكقائم مقامه، بحيث يصح وضع كل مكان الآخر؛ فيحصل المعنى المقصود، أو الدلالة على أنه سيتلبس، أو سوف يتلبس بالفعل، فهو بمنزلة المضارع الاستقبالي كذلك. مثلا يسألك سائل: ما حال زيد الآن؟ فتقول: ها هو ذا قائم أو يقوم حال ما هو آخذ في نصب أعضائه والهوى برأسه إلى جهة الفوق.

أو ما يفعل زيد غدًا؟ فتقول: هو راكب فرسه ومسابق الفرسان، أو يركب ويسابق. ويقال لاسم الفاعل في هذين الموضعين: اسم الفاعل الذي يحل محله الفعل.

وقد يذكر لتعيين موصوفه حيث يكون سبق عهده به، كما تقول: هذا سائلك أمس، ويسمى حينئذ: اسم الفاعل الذي يحل محله الموصول وصلته؛ فإنه في معنى: هذا الشخص الذي سألك أمس وعرفته بذلك.

وكل فعل غير ثلاثي فاسم الفاعل منه يوازن مضارعه، غير أن اسم الفاعل مبدوء بميم مضمومة مكسور ما قبل آخره مطلقًا، كمدحرج ومكرم ومعظم ومخاصم ومنطلق ومقتدر ومتغافل ومستخرج. وهكذا.

بيان اسم المفعول

كل فعل غير ثلاثي فاسم المفعول منه يوازن اسم فاعله، غير أنه يفتح ما قبل آخره، كمدحرج ومنتظر ومستخرج.

وكل فعل ثلاثي فاسم المفعول منه يوازن مفعولًا كمخلوق ومرزوق وموجود ومقصود ومفروح به ومفروغ منه. وإذا كانت عينه واوًا نقلت

ضمتها إلى الساكن قبلها فتبقى ساكنة وتحذف إحدى الواوين؛ كمصون ومقول.

وإذا كانت عينه ياء نقلت الضمة، وحذفت الواو، وأبدلت الضمة كسرة للفرق بين ذوات الياء وذوات الواو، كمبيع، ومدين.

«وتميمٌ» تُصَحِّحُ هذا فيقولون: مَبْيُوع ومَدْيُون. وعليه لسان مصر قال شاعر تميم:

قد كان قومك يحسبونك سيدًا وإخال أنك سيد مَعْيُون

من عانه فهو عائن، وذاك معيون أصابه بعينه.

وإذا كانت لامه واوًا سكنت واو مفعول سكونًا مقيدًا وأدغمت. وشذ قلب الواوين ياءين وإبدال الضمة كسرة، كما هو لسان مصر. قال بعض الشعراء:

وقد علمتْ عِرسي مُلَيْكَةُ أنني أنا الليث معديًا عليه وعاديا

من عدا عليه يعدو. والفصيح: معدو عليه كمدعو، ومقلو. وإذا كانت لامه ياء أُبدلت واو مفعول ياء وأُدغمت، وأُبدلت الضمة كسرة، كمرمى ومرضى.

وقد جاءت ألفاظ كثيرة توازن «فعيلا» تستعمل بمعنى مفعول، ولا يفرق فيها بين المذكر والمؤنث غالبًا؛ كقتيل، وجريح، وكحيل.

وكذا وردت ألفاظ تستعمل بمعنى مفعل اسم «مفعول» نحو: حكيم. وألفاظ تستعمل بمعنى مُفاعل كسمير، وخليط، وجليس، وبمعنى فاعل،

كقدير وعليم، وبمعنى مفعل اسم فاعل نحو: أبدع. كبديع وحكيم وسميع. وندر هذا حتى نفاه الكثير، ومن أثبته عد منه اثنى عشر لفظًا.

* * *

بيان الصفة

الأوصاف من باب كرم وكذا من باب فرح اللازم تسمى: صفات مشبهة، ولا يقال لها اسم فاعل؛ وذلك لأنها لإفادة الأوصاف باعتبار قرارها وثبوتها لمحالها من غير نظر إلى حدوث وتجدد، كما هو المعتبر في حقيقة اسم الفاعل، بحيث لا يصح أن توضع الأفعال مكان تلك الصفات، حتى لو أريد أن يفاد بها معنى الحدوث والتجدد، وجب ردها إلى زنة «فاعل» مثل إذا قلت: زيد حسن الوجه. كان المعنى: زيد له صفة الحسن، لا أنها حدثت أو تحدث، فلو قلت: حسن وجهه أو يحسن، فات الغرض المقصود وتبدل المعنى، فلو أردت هذا المعنى الفعلي قلت: زيد حاسن وجهه. لاستعمال الأغذية اللطيفة، والأدوية المنضرة، فهو على معنى: آخذ وجهه في الحسن لذلك، بحيث يصح أن تقول: زيد يحسن وجهه.

وكل وصف: فاعل أو مفعول استعمل بهذا المعنى المشروح لأوصاف هذين البابين فهو من الصفة المشبهة.

الأوصاف: من باب كرم منها ما جاء على وزن «فَعْل» بفتح فسكون، كضخم وشهم، ومنها ما جاء على وزن «فَعِيل» بفتح فكسر، كجميل، وظريف وهذان الوزنان يقتسمان حسب السماع أكثر أوصاف الباب،

ومنها ما ورد بأوزان أخر كصُلْب بضم فسكون، وبَطَل بفتحتين، وشُجاع وجبان والفرق بين الإناث والذكور في هذه الأوصاف بالتاء.

الأوصاف: من باب فرح: جاءت أوصاف هذا الباب على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: يوازن فَعِلًا بفتح فكسر، ويؤنث بالتاء كفرح وطرب وبطر وأشر.

النوع الثاني: يوازن أَفْعَل بفتح فسكون ففتح للمذكر، وفَعْلاء بفتح فسكون وفي آخره همزة للمؤنث، كأحمر وحمراء، وأجهر وجهراء.

النوع الثالث: يوازن فَعْلان بفتح فسكون للمذكرن، وفَعْلى بفتح فسكون وآخره ألف للمؤنث، كغضبان وغضبي، وسكران وسكري.

ولهذه الأنواع: ضابط به تميز بين مواضعها.

فالأول: في أحوال تحصل ويسرع زوالها عادة، كالفرح والطرب والأشر.

والثاني: في صفات وضعها على البقاء، وهو دائر بين الألوان والعيوب والحُلي، كالحُمرة والصفرة والحمق والعمى والهيف والغيد.

والثالث: في أمور بطيئة الزوال، كالري والعطش والجُوع والشبع والسُّكر والغضب. وتسمية هذه الأوصاف «صفات مشبهة» يذكر سببه في النحو.

بيان (اسم زمان الفعل واسم مكانه من مادته) صيغتهما واحدة؛ فإن كانا من غير الثلاثي فهي: كصيغة اسم المفعول منه، وكذلك مصدره

الميمي، فالصيغة مشتركة بين أربعة أشياء تقول: استخرجت الذهب من المعدن صبحًا مستخرجًا حسنًا؛ فالذهب مستخرج، والصبح مستخرجه أي وقت استخراجه والمعدن مستخرجة أيضًا أي مكان استخراجه.

وقولك: مستخرجًا حسنًا. بمنزلة قولك: استخراجًا حسنًا فهو مصدره. ومنه قول الشاعر.

أظلــومُ إنَّ مُصـابكُم رجــلًا رَدَّ الســلام تحيــة ظلــم

معناه: إن أصابتكم بالمكروه رجلًا حياكم وسلم عليكم ظلم منكم له.

وإن كان من الثلاثي: فهما على وزن مَفْعَل، فإذا كان مضموم عين المضارع أو مفتوحًا أو معتل اللام فتحت عينه، كمَنْصَر ومَنْظَر ومَفْتَح ومَفْرَح ومَطْرَح ومَرْمَى ومَدْعَى ومَسْعَى.

وإن كان: مكسور عين المضارع، أو كان فعله مثالًا واويًا أو يائيًا كسرت عينه، كمَضْرِب ومَجْلِس ومَوْعِد ومَوْئِل ومَوْضِع ومَوْجِل ومَيْسِر.

وما جاء على خلاف ذلك. كمَسْجِد بالكسر، ومَشْرُبة بالضم وحقهما الفتح، لكون مضارعهما مضموم العين في الأول، ومفتوحها في الثاني؛ فإنه جعل اسمًا للموضع المعد للفعل، وإن لم يقع فيه الفعل، ألا ترى أنك إذا بنيت بيتًا للعبادة كان اسمه مسجدًا وإن لم يسجد فيه أحد.

وأما اسم مكان الفعل المضبوط فهو للموضع، الذي وقع فيه الفعل، فإذا أردت من لفظ المسجد هذا المعنى فتحت عينه، كما تقول: اسجد مَسْجَد زيد تعد عليك بركته. فمعناه في الموضع الذي سجد فيه زيد.

* * *

بيان (اسم آلة الفعل) آلة الفعل التي وقع بها يكون اسمها على وزن «مِفْعَل» بكسر فسكون ففتح أو «مفعال». بزيادة الألف، كمِفْصَل ومِفْصَد ومبضع ومقول ومقود ومخيط ومسبر ومسبار ومهماز ومخياط. وتلحقه التاء، كمِنْسَئة ومِكْنَسة ومقرعة. ولا يغير من أسماء الآلة ما عينه واوًا وياء، كما رأينا على خلاف «قاعدة» أنه إذا تحركت الواو أو الياء وسكن ما قبلهما، نقلت حركتهما إليه وبقيتا ساكنتين سكونًا مرسلًا، أو أُبدلتا ألفًا كما سبق التصريح به في مواضع، والإشارة إليه في غيرها، وكما استثنى من هذه القاعدة أسماء الآلات استثنى منها نحو:

أبيض وأسود وأقوم وأقبح، لكن إذا كانت فاء الكلمة واوًا أبدلت ياء، كما هو شأن كل واو وقعت إثر كسرة كميزان وميقات من الوزن والوقت، وديمة وقيمة وقيام. من يدوم ويقوم.

* * *

بيان اسم التفضيل

اسم التفضيل: هو اسم يوازن «أَفْعَل» بفتح فسكون ففتح، وكما يسمى اسم تفضيل يسمى: أَفْعَلُ مِنْ.

وهذه الصيغة للدلالة على أن شيئين اشتركا في صفة، وزاد أحدهما على الآخر فيها والزائد مفضل، والأخر مفضل عليه، وهو الذي يقرن بمن.

ثم لا تكون هذه الصيغة إلا لفعل ثلاثي متفاوت قوة وضعفًا، أو قلة وكثرة، متصرف، مثبت، ليس وصفه على وزن أفعل، ولا على صورة فعل المجهول، ولا من الأفعال الناقصة.

لأن غير الثلاثي لا تمكن فيه الصيغة، وغير المتفاوت لا يزيد فيه شيء عن شيء، والجامد لا يصاغ منه شيء، والمنفي مركب مع أداة النفي.

وما وصفه: على «أفعل» مشغول بهذه الصيغة لغير معنى التفضيل.

وما على صورة فعل المجهول يؤدي للإلباس، والأفعال الناقصة لم يقصد بها إفادة إحداثها.

ومن الشواذ قولهم: أشغل من ذات النحيين. وزيد أشهر من عمرو. فإن معناه أقوى مشغولية ومشهورية، فهو من فعل المجهول.

وقال أهل الكوفة: يصاغ اسم التفضيل من الأفعال التي وصفها يوازن «أفعل» وعليه قول أبي الطيب المتنبي يخاطب الشيب:

ابْعَدْ بَعِدْتَ بياضًا لا بياض له لأنت أسودُ في عيني من الظُّلَمِ

وقيل كلام أخصر صوغًا من اخْتُصِر فعل مجهول خماسي، ففيه شذوذان لكن أنت محتاج إلى التفضيل فيما فقد بعض تلك الشروط.

فالطريق لذلك أن تصوغ اسم تفضيل من نحو: قوى وكثر وعظم وزاد، ثم تأتي بمصدر الفعل الممتنع صوغ أفعل منه بعد ذلك، مبينًا بذلك أنه موضع التفضيل. مثلًا تقول: زيد أقوى إكرامًا لعمرو، وأزيد اشتغالًا بالخير، وأكثر استخراجًا للفوائد، وأقوى حمرة.

ويقوم مقام المصدر لفظ مركب من اسم فاعل، أو اسم مفعول وياء مشددة تسمى «ياء النسبة» وتاء كضاربية ومَضْرُوبية ومكْرُمِيَّة. فتقول: زيد أكثر مَكْرُمِيَّة بين الناس. متوصلًا بذلك لإفادة التفضيل في فعل مجهول؛ لأن معناه: أن زيدًا أكرم وغيره أكرم، من غير تعرض إلى بيان المكرم، وزيدًا أكثر من غيره في ذلك المعنى.

(ثم إن اسم التفضيل): له من جهة نطقه ثلاث حالات، ومن جهة معناه ثلاثة استعمالات:

أما كيفيات نطقه؛ فالأولى: أن تنطق به مفردًا مذكرًا دائمًا سواء كان صفة واحد، أو اثنين أو جماعة من الإناث أو الذكور، وذلك حيث نضيفه إلى نكرة، أو تأتي بعده بالمفضل عليه مقرونًا بمن. فتقول: زيد أفضل رجل، والزيدان أفضل رجلين، والزيدون أفضل رجال، وهند أفضل امرأة،

والهندان أفضل امرأتين، والهندات أفضل نساء؛ فتطابق الموصوف بالمضاف إليه وجوبًا كما رأيت.

وتقول: زيد أفضل من عمرو، والزيدان أفضل منه والزيدون أفضل منه، وهند أفضل من دعد، والهندان أفضل منها، والهندات أفضل منها.

الحالة الثانية: أن تنطق باسم التفضيل مطابقًا للمفضل، في: التذكير، والتأنيث والإفراد، والتثنية، والجمع.

وتأنيث اسم التفضيل: أن تجعله على وزن فُعلى بضم فسكون، وذلك حيث تُعرف اسم التفضيل بأل وحينئذ لا تأتي بمن فتقول: زيد الأفضل، والزيدان الأفضلان، والزيدون الأفضلون أو الأفاضل، وهند الفُضلى، والهندان الفُضليان، والهندات الفُضليات أو الفُضل.

الحالة الثالثة: أن تنطق به كيف شئت مطابقًا أو غير مطابق، وذلك حيث يُضاف لمعرفة، فتقول: الزيدون أفضل الرجال أو أفاضلهم، وهند أفضل النساء أو فضلاهن، وهكذا.

وأما استعمالاته بحسب المعنى:

فالأول: ما سلف شرحه.

والثاني: أن تُفيد به أن شيئًا زاد في صفة نفسه على شيء آخر في صفته، فلا يكون المفضل والمفضل عليه مشتركين في صفة، كما هو الحال في الاستعمال الأول كقولهم: العسل أحلى من الخل، والصيف أحر من الشتاء. معناه: العسل زائد في حلاوته على الخل في حموضته، وعلى هذا التأويل ما ورد من ذلك.

والثالث: أن تفيد به ثبوت الوصف لمحله، فهو كاسم الفاعل لم يقصد تفضيل شيء على شيء. وأهل العربية يمثلون لذلك بقول بعض العرب: الأشج والناقص أعدلا بني مروان. أي: هما العادلان ولا عدل في غيرهما.

ومن هذا الاستعمال قول الحسن بن هانئ.

كأن صُغرى وكُبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

أي صغيرة الفواقع وكبيرتها، وإلا لأفرد وذكر، لعدم التعريف والإضافة لمعرفة.

تكملة

كل من الفعل، واسم الفاعل، إذا نسبته لصاحبه كفى في صدقه حصوله منه ولو مرة، فهو يحتمل القلة والكثرة؛ فإذا أردت أن تنص على الكثرة ضعفت عين الفعل، فقلت في ضرب مثلًا: ضرّب. بتشديد الراء وقد سبق، وجئت بدل فاعل بإحدى صيغ ثلاث مطردة في ذلك، وهي «فَعَّال» بفتح أوله وتشديد ثانية. «ومِفْعَال» بكسر فسكون، «وفَعُول» بفتح فضم فتقول: زيد ركَّاب للخيل، ومِنْحار للإبل، وصبُور على الشدائد. وأهل الفن يسمون هذه الصيغ «صيغ المبالغة».

وسمع من العرب على قلة فيقتصر على ما سمع للدلالة على الكثرة صيغ أُخر: كعليم ورحيم وقدير. هذا بنقل الفعل لباب فعُل بضم العين الذي سبق القول بكونه مختصًا بالغرائز ونحو: حذِر ومِعْطِير وشرِّبت.

وإذا كانت: فاء مِفْعال واوًا أُبدلت ياء كميزان.

وإذا كانت: لامه أو لام «فعال» معتلة، أُبدلت همزة، كمِشْواء ومِقْلاء، وشَوَّاء وقَلَّاء.

وإذا كانت: عين «فعول» واوًا أبدلت همزة، وكقَؤُول وصَؤُول.

وإذا كانت: لامه واوًا أُدغمت فيها الواو قبلها، كعدُوّ وصبُوّ.

وإذا كانت: ياء أُبدلت الواو قبلها ياء، وأدغمت فيها، كبَغي وسَعي، وأصلهما بغَوِيٌّ وسعَوِيٌّ.

المذكر والمؤنث

الاسم: إما مذكر وإما مؤنث، فالمذكر ما وضع لذكر، والمؤنث ما وضع لأنثى. وقد اعتبرت العرب التأنيث في بعض الأشياء لأسباب، فعاملوها معاملة الإناث، كالشمس اعتبروها أنثى لوقوعها في مقابلة القمر، والكأس لوقوعها في مقابلة الإبريق، والحرب اعتبروها ولادة غرارة كما قال عمرو:

الحرب أول ما تكون فتيَّة ... تسعى بزينتها لكل جهول

حتى إذا التهبت وشبَّ ضِرامها ... عادت عجوزًا غير ذات حليل

ومن ثم قال أهل العربية: مؤنث حقيقي لذوات الفروج، ومؤنث مجازي لغيرها. ومعرفة المؤنث المجازى بتتبع كتب اللغة، إذ ليس لها ضابط.

وقد يكون التأنيث لفظيًا فقط، بمعنى أن اللفظ يكون معه علامة التأنيث ومدلوله من الذكور، كطلحة وبطة اسمي رجلين.

والمؤنث أحكام: كاختصاصه بإشارة وضمير، كما تقول: هذه الكأس لا أشربها.

لكن المؤنث اللفظي تتبعَّض فيه الأحكام، ففي بعض الأبواب يعامل معاملة المؤنث وفي بعضها يعامل معاملة المذكر، كما يتبن ذلك في مواضعه، والمؤنث المجازى يخالف المؤنث الحقيقي في بعض الأحكام، كما يتبين في مواضعه أيضًا.

ثم إن الأشياء التي لا يتميز ذكرها من أنثاها، ما كان منها بالتاء مؤنث كنملة وبعوضة. وما خلا منها مذكر، كبرغوث وجندب.

وللتأنيث ثلاث علامات: تاء متحركة يختم بها الاسم، وألف بعد ألف لا يمكن النطق بها فتبدل همزة، وتسمى: ألف التأنيث الممدودة، وألف مفردة، وتسمى: ألف التأنيث المقصورة.

الكلام على التاء: أكثر ما تلحق الأوصاف المشتركة للفرق، وقل لحوقها الأسماء لذلك، كرجل ورجلة، وغلام وغلامة، وفتى وفتاة. كما قل لحوقها للأوصاف المختصة بالإناث فلا يقال: حائضة ومرضعة إلا إذا أريد بها معنى الفعل، كما تقول: هي حائضة بعد شهر، فهي بمنزلة هي تحيض.

ولا تلحق من الأوصاف ما كان على وزن «مِفْعَال أو مِفْعِيل أو فَعُول» بمعنى فاعل أو فعيل بمعنى مفعول إن علم في هذا الموصوف، فتقول: امرأة مِكْسَال ومِعْطِير وصبور وجريح.

وتقول: رايت جريحة. وتكون التاء مع التأنيث للوحدة في أسماء الأجناس الجمعية، وتكون للمبالغة فقط، أو لتأكيدها كرواية وعلامة وفرُوقة، وتكون عوضًا عن حرف محذوف، كما سبق في نحو: إقامة وتزكية.

ويأتي لذلك مواضع.

الكلام على الألفين: قد اختص كل بأبنية، واشتركتا في أبنية؛ فمن أبنية المقصورة «فُعْلي» بضم فسكون «وفُعال» بضم أوله «وفُعَّلي» بضم أوله وفتح ثانيه مشددًا. «وفِعَلْى» بكسر ففتح فسكون «وفِعْلى» بكسر فسكون. «وفُعُلّي» بضم أوله وثانيه وتشديد ثالثه. «وفُعَّالي» بضم أوله وفتح ثانيه مشددًا:

فالأول: كبُهْمى لنبت، وحُبْلى وكبرى وطولي وأولى ورجعى وبشرى.

والثاني: كحُمَادى وسمانى وحُبارى؛ لطائرين.

والثالث: كسُمَّهَى للباطل.

والرابع: كسِبَطري ودِفَقي لنوعين من المشي.

والخامس: كحِجْلَى في جمع حَجَلَة بفتحات لطائر، وظِرْبَي في ظَرِبان بفتح فكسر لدابة مُنْتِنة الفَسْو في حجم الهرة، ولا ثالث لهذين الجمعين في أوزان الجموع، وكدِفْلَى لنبت، وكِيصَى للرجل يأكل وحده وينزل وحده، ولا يهمه غير نفسه.

وذِفْري للعظم خلف الأُذن، وضِيزَى بالياء، وهو بالهمز مثلث الأول، وربما نون بعض الكلمات الواردة على هذا الوزن، فتكون ألفه للإلحاق بدرهم من الأسماء الرباعية. من ذلك: ذِفري. فعلي كون الألف للتأنيث تقول: هذه ناقة ذات ذفري نضاخة بالألف، وعلى كونها للإلحاق تقول: ذفري بالتنوين.

والسادس: كحُذُرَّى للحذر، وبُذُرَّي للتبذير، وكُفُرَّي لوعاء الطلع.

والسابع: كخُبَّازَى وشُقَّارَى لنبتين.

ومن أبنية الممدودة «فَاعُولاَء ومَفْعُولَاء» بفتح فسكون فضم «وفِعْلِياء» بكسر فسكون فكسر. «وفِعَلاء» بكسر ففتح «وفَعالاء» بفتح أوله «وفَعِيلاء» بفتح فكسر «وفاعِلاء» بكسر ثالثه «وأَفْعِلا» بفتح فسكون فكسر.

فالأول: كتاسوعاء وعاشوراء.

والثاني: كمَشْيُخَاء؛ للشيوخ.

والثالث: ككِبْرياء وكِيمِياء وإِيلِياء؛ لبيت المقدس.

والرابع: كسِيَراء؛ للثياب المخططة ألوانًا.

والخامس: كبَراسَاء؛ للناس. يقال: لا أدري من أي البراساء هو، وبراكاء لمعظم القتال.

والسادس: كبَريساء. لغة في سابقه. وقَريشَاء؛ لنوع من التمر.

والسابع: كقَاصِعَاء ونَافِقَاء؛ لبابي جحر اليربوع.

والثامن: كأصدقاء وأنبياء وأَرْبِعَاء لليوم الرابع من الأسبوع، ويضم ثالثه ويفتح.

ومن الأبنية المشتركة بينهما: «فَعْلى» بفتح فسكون «وفُعَلى» بضم ففتح «وفَعَلَى» بفتحات «وأَفْعَلاء» بفتح فسكون ففتح.

فالمقصود من الأول: كسَكْرَى، وشَبْعَى، وقتلى، وجرحى، ودعوى، ونجوى، والممدود: كصحراء وحمراء وهطلاء وطرفاء.

والمقصود من الثاني: كأربى للشدائد وأدمى وجَنُفَى وشُعبَى لمواضع. ومن كلام جرير:

أعبدا حل في شُعَبَي غريبًا ... أَلُؤْمًا لا أبالك واغترابًا

والممدود: كجُفَنَاء. لغة في السابق وكُبَراء وعلماء وحُفَناء.

والمقصود من الثالث: كمَرَطَى وبَشَكَى وجَمَزَى لسرعة العدو، وحيدى. يقال: حمار حَيَدَى. أي يحيد عن ظله لنشاطه، وبَرَدَى لنهر بالشام، وهو المعنى في قول حسان رضي الله عنه:

يسقُون مَنْ وَرَدَ البريص عليهُمُ ... بردى يُصفق بالرحيق السلسل

والممدود: كقَرَمَاء وجَنَفَاء؛ لموضعين. ودَاثَاء للأَمة، وأين داثاء: الأحمق.

والمقصور من الرابع: كأَجْفَلى للدعوة العامة. يقال: فلان يدعو الأَجْفَلَى. والجَفَلَى بفتحات، ويقابلها النَّقَرَى بفتحات للدعوة الخاصة، ولبعض العرب:

نحن في المشتاة ندعُوا الجَفَلَى ... لا ترى الآدِبَ منا يَنْتَقِر

والممدود: كأَرْبعَاء.

والغرض من ذكر هذه الأبنية: التنبيه على أن لألفي التأنيث أبنية مشتبهة، بحيث ينبغي عند رؤية بعض الكلمات، التي يكون آخرها ألفًا، أن يبحث عن كونها ممدودة أو مقصورة؛ للتأنيث أو للإلحاق. وهذا الموضع من المواضع الصعبة في اللغة.

التقسيم الثالث:

الاسم إما مجرد وإما مزيد، والمجرد إما ثلاثي أو رباعي أو خماسي؛ ولكل أنواع من الأوزان لم يرد على غيرها.

بيان (أوزان الثلاثي) «فعل» بفتح أوله وسكون ثانيه، أو فتحه أو ضمه أو كسره، كسهل وجفن وسيف وثوب، وكشرط وحسن، وباب وحول وكندس، وعضد، وكفرح وكتف.

«وفعل» بضم أوله وسكون ثانيه. أو فتحه أو ضمه أو كسره. كحُسْن ونُغم، وكرُطَب وصُرَد، وكعُنُق وسُبُل، وكدُئِل ورئِم، وهو قليل جدًا.

«وفعل» بكسر أوله وسكون ثانيه، أو فتحه أو كسره؛ كذِكر ونِحى، وكعِنَب وقرب، وكإبل.

«وفعل» بكسر أوله وضم ثانيه غير موجود في اللغة؛ فأوزان الثلاثي أحد عشر.

بيان (أوزان الرباعي) «فَعْلَلَ» بفتح فسكون ففتح؛ كسهلب وجعفر.

«وفُعلل» بضم فسكون فضم؛ كبرقع وبرثن.

«وفِعلل» بكسر فسكون فكسر، كزبرج وجِرمل.

«وفِعَل» بكسر ففتح فسكون، كفِطَحْل وسِبَطْر.

«وفِعلل»: بكسر فسكون ففتح، كدرهم وضفدع؛ فله خمسة أوزان ليس غير.

بيان (أوزان الخماسي) «فَعَلْلَ» بفتحتين فسكون ففتحة؛ كسفرجل وشمردل.

«وفَعْلَل» بفتح فسكون ففتح فكسر؛ كقَهْبَلِس وجَحْمَرِش.

«وفِعْلَلْل»: بكسر فسكون ففتح فسكون، كقِرْطَعْب وجِرْدَحل.

«وفُعَلْلِل» بضم ففتح فسكون فكسر؛ كقُبَعْثِر وقُذَعْمِل، فهذه عشرون صيغة لم يرد اسم مجرد على غيرها، فما عداها فمزيد؛ كمنطلق ومُخرَنجم، وظريف وحُبلى، أو ناقص كعُلَبِط بضم ففتح فكسر أصله عُلابط، أو أعجمي الوضع كسَرَخس وبَلَخش بفتحتين.

والمزيد: كل لفظ قام دليل على أن بعض حروفه ليس أصلًا. وأدلة الزيادة تسعة:

الأول: سقوط بعض الكلمة من أصلها كضارب وتضارب من الضرب، فما زاد على الضاد والراء والباء، التي هي حروف الأصل تحكم بزيادته لذلك.

الدليل الثاني: سقوط بعض الكلمة من فرع كأسبل الزرع، وحنظلت الإبل، أي خرج سنبل الزرع، وتأذت الإبل من أكل الحنظل، فنونا سنبل وحنظل زائدتان، لسقوطهما في الفرعين.

الدليل الثالث: لزوم خروج الكلمة عن أوزان نوعها لو حكمنا بأصالة حروفها، كتَنْضُب وتَتْفُل بفتح فسكون فضم، فالتاء فيهما زائدة لعدم هذا الوزن في الرباعي المجرد.

الدليل الرابع: التكلم بالكلمة أربعة مرة وثلاثة مرة. مثلا: كأَبْطَل وأَطَل.

الدليل الخامس: ورود الكلمة على صورتين تخرج بإحداهما عن أوزان نوعها، لو حكمنا بأصالة حروفها دون الأخرى؛ فنحكم بالزيادة على كلتا الصورتين لوحدة الكلمة.

الدليل السادس: كون بعض الكلمة دالًا على معنى كأحرف المضارعة.

الدليل السابع: وقوع الحرف من الكلمة الجامدة في موضع لو كانت الكلمة مشتقة قطعنا بزيادته، كنون غضنفر التي هي في موضع نون جحنفل المحكوم بزيادتها؛ لسقوطها من أصل الكلمة وهي الجحفلة.

الدليل الثامن: وقوعه منها في موضع تغلب زيادته فيه من المشتقة، كهمزة الأفكل الموازنة للأحمر.

الدليل التاسع: اختصاص الحرف بموضع لا يقع فيه إلا حرف من حروف الزيادة، كالنون في كِنْتَأْو وحِنْطَأْ، وبكسر فسكون ففتح فسكون فيهما.

والأول: يستعمل بالمثناة فوق، وبالمثلثة: عظيم اللحية.

والثاني: يستعمل بالطاء والظاء، عظيم البطن.

وحاصل ذلك أنك تعرف الزيادة والأصالة بمعرفة الاشتقاق، فتقول: حروف الأصل أصول وما عداها في الفروع زوائد، وبضبط الأوزان التي جاءت عليها الألفاظ المقطوع بأصالة حروفها، فإذا سمعت لفظًا محتملًا للزيادة والأصالة، فإن وافق وزن نوعه على تقدير الأصالة فأصل، وإن لم يوافق فزائد. ويكون الحرف الذي نريد الحكم عليه معروف الزيادة، بطريق الاشتقاق في كثير من المواضع. مثلًا: همزة إصبع تحكم بزيادتها؛ لأن الاشتقاق دلك على زيادتها في أسماء التفضيل ومضارع المتكلم، وفي الجمع على أفعل، ثم إن خروج اللفظ عن التجرد تارة يكون بتكرر بعض أصوله، ويسمى: المضعف. ولا يختص التكرر ببعض الحروف دون بعض، وتارة يكون خروجه عن التجرد بزيادة بعض الحروف، وذلك مختص بالأحرف العشرة التي عرفتها سابقًا، وجمعها ابن مالك في بيت أربع مرات فقال:

هناءٌ وتسليم تلا يوم أنسه نهاية مسئول أمان وتسهيل

غير أن زيادة الهاء واللام قليلة، ومثلوا لزيادة الهاء بقولهم: إهراق الماء. وبأمهات في جمع أم على خلاف في هذا.

ومن مثل لزيادة الهاء بهاء السكت في نحو: لمه ولم تره وعه. رد عليه بكون الهاء السكتية كلمة مستقلة، ومثلوا للام بطيسل وزيدل. والأصل طيس، وهو الكثير وزيد.

ومن مثل لها بلام ذلك وتلك، رد عليه برد هاء السكت.

ولزيادة بقية الأحرف ضوابط؛ هي دلائل حاضرة معك، متى تحققت قطعت بالزيادة وإلا رجعت للدلائل السابقة.

وبيان ذلك: أنه متى صحبت الألف أكثر من أصلين فهي زائدة؛ كضارب وعماد وحُبلى، ومتى صحبت الواو أكثر من أصلين، ولم تتصدر ولم تكن كلمتها من باب سمسم فهي زائدة، كمحمود، وبويع، ومتى صحبت الياء أكثر من أصلين، ولم تتصدر سابقة أكثر من ثلاثة أصول، ولم تكن كلمتها من باب سمسم فهي زائدة، كيضرب فعلًا ويَرمَع اسمًا، ومتى سبقت الميم أكثر من أصلين فهي زائدة؛ كمحمود ومنطلق ومسجد ومفتاح. ومتى سبقت الهمزة أكثر من أصلين أو تأخرت مسبوقة بألف مسبوقة بأكثر من أصلين فهي زائدة؛ كاحفظ فعلًا وأفضل اسمًا مشتقًا، وإصبع اسمًا جامدًا. وأفلس في جمع فلس وكحمراء وصحراء.

ومتى تطرفت النون مسبوقة بألف مسبوقة بأكثر من أصلين، كسكران وعثمان، أو توسطت ساكنة غير مضعفة أربعة أحرف، كغضنفر وقرنفل، أو كانت في باب الانفعال، كانطلق ومنطلق، أو بدأت المضارع فهي زائدة.

ومتى كانت التاء في باب التفعل، كالتفهم أو التفعلل كالتدحرُج أو التفاعُل كالتعاون أو الافتعال كالاقتراب، أو الاستفعال كالاستخراج، وهو الموضع الذي تقطع بزيادة السين فيه، أو كانت التاء في التفعيل أو التفعال، أو كانت للتأنيث أو بدأت المضارع فهي زائدة.

التقسيم الرابع:

الاسم إن كان آخره ألفًا سمي: مقصورًا. وإن كان آخره همزة بعد ألف زائدة سمي: ممدودًا. وإن كان آخره ياء مكسورًا ما قبلها سمي: منقوصًا. وليس في الأسماء ما يكون آخره واوًا مضمومًا ما قبلها.

وألف المقصور: إما أصل بدل من واو؛ كعصي وقفًا بدليل عصوته وقفوته. أو من ياء كفتى ورحى.

وإما زائدة للتأنيث، كحُبلى وذِكرى، أو للإلحاق كذِفْرَى وأرطَى على ما سبق. وهمزة الممدود إما أصل: كقراء ووضاء من قرأ ووضأ.

وإما بدل: من أصل واو أو ياء: ككساء من الكسوة وولاء من الولي.

وإما بدل: من زائدة للتأنيث: كحمراء وصحراء أو اللإلحاق كعُلباء الملحق بزيادة الياء المبدلة همزة بقرطاس من الصحيح.

التقسيم الخامس:

الاسم إما مفرد وإما مثنى، وإما جمع تصحيح للذكور، وإما جمع تصحيح للإناث، وإما جمع تكسير: تارة يكون مشتركًا، وتارة يكون مختصًا، كما ستقف عليه عند تفصيله.

فالمثنى: اسم مشترك بين شيئين تزيد بعده ألفًا ونونًا في حال، وياء ونونًا في حال؛ ليدل على اثنين أو اثنتين.

وأما جمع تصحيح الذكور، فهو اسم مشترك بين ثلاثة أشياء فأكثر، تزيد بعده واوًا ونونًا في حال، وياء ونونًا في حال؛ ليدل على أكثر من اثنين.

وأما جمع تصحيح الإناث؛ فهو اسم مشترك بين ثلاث إناث أو أكثر، تزيد بعده ألفًا فتاء؛ ليدل على أكثر من اثنتين.

وأما جمع التكسير، فهو اسم مشترك بين أكثر من شيئين تغيره إلى صورة من الصور الآتي بيانها؛ ليدل على أكثر من شيئين.

الكلام على المثنى: الاسم الذي تريد تثنيته إن كان مقصورًا، فإن زاد على ثلاثة أحرف وجب إبدال ألفه ياء؛ كحُبليان ومصطفيان. وإن لم يزد فإن كانت ألفه بدل واو، عادت الواو كعصوان وقفوان.

وإن كانت بدل ياء عادت الياء كفتيان ورحيان، ويعرف ذلك بالتتبع. وإن كان الاسم ممدودًا؛ فإن كانت همزته للتأنيث، أُبدلت واوًا؛ كحمراوان وصحراوان.

وإن كانت أصلًا لم تبدل كقراءان ووضاءان، وإن كانت غير ما ذكر جاز إبدالها واوا والأحسن إبقاؤها؛ فتقول: علباوان وكساوان مثلا، والأحسن علباءان وكساءان.

وإن كان الاسم غير ما ذكر فتحت آخره فقط؛ كزيدان وقاضيان، والنون التي تزيدها للتثنية مكسورة.

الكلام على جمع تصحيح الذكور

الاسم الذي تريد جمعه إن كان مقصورا حذفت ألفه، وإن كان ممدودًا عملت به عملك بالمثنى، وإن كان منقوضًا حذفت ياءه وضممت آخر ما بقى مع الواو وكسرت مع الياء، كما هو الحال في بقية الأسماء غير المقصورة. ولا يجمع هذا الجمع إلا الأسماء الخالية من تاء التأنيث، والتركيب من أسماء الذكور العقلاء أو أوصافهم الواردة على غير «أفعل فعلاء» بالفتح والمد «وفعلان فعلى» بالفتح والقصر، وليست من الأوصاف التي يستوي فيها المذكر والمؤنث.

الكلام على جمع المؤنث السالم

تعامل الأسماء في هذا الجمع معاملتها في التثنية، وصورة المفرد عند زيادة الألف والتاء بعده؛ لتقوم صيغة هذا الجمع محفوظة، لا يعرض لها تغير إلا في الأسماء ذوات التاء، فإنها تحذف تاؤها وإلا في الأسماء الثلاثية الساكنة العين، التي لم تكن عينها مضعفة ولا حرف علة، فإنها إذا كانت مفتوحة الفاء وجب فتح عينها عند الجمع، كخطوة وخطوات، وجفنة وجفنات، ووثبة ووثبات، ودعد ودعدات. وإذا كانت مضمومة الفاء جاز في العين ثلاثة أوجه: الضم والتسكين والفتح. إلا إذا كانت لام الكلمة ياء؛ فإنه يمتنع ضم العين، ويجوز الوجهان الآخران فتقول في جمع غُرفة وخُطوة، غُرفات وخُطوات بالأوجه الثلاثة، وفي جمع زبية: زُبيات بتسكين الياء وفتحها لا يضمها، وإذا كانت مكسورة الفاء جاز في العين ثلاثة أوجه أيضا: الكسر والتسكين والفتح، إلا إذا كانت لامها واوا،

فإنه يمتنع الكسر فتقول في جمع كسرة: كسرات بالأوجه الثلاثة، وفي جمع ذروة: ذروات بالتسكين والفتح.

تنبيه: المراد بالاسم في أبواب الجموع ما قابل الصفة، فنحو ضخمة بفتح الضاد وسكون الخاء صفة من الضخامة إذا جمعتها قلت: ضخمات بسكون الخاء لا غير لما عرفت من أن فتح العين إتباعًا لفتح الفاء إنما هو في الأسماء كجفنة وشربة.

الكلام على جمع التكسير

هو نوعان: جمع قلة يستعمل في العشرة فما دونها إلى الثلاثة.

وجمع كثرة: يستعمل في الثلاثة فما فوقها إلى غير نهاية.

ولكل صيغ منها ما كثر واشتهر، ومنها ما قل وندر. والمقصود في هذا الباب ضبط الكثير المشتهر؛ لتقليل الانتشار وسهولة الحفظ.

صيغ جمع القلة هي أربع:

«أَفْعِلة»: بفتح فسكون فكسر.

«وأَفْعَال»: بفتح فسكون.

«وأَفْعُل»: بفتح فسكون فضم.

«فِعْلة»: بكسر فسكون.

الصيغة الأولى: تكون جمعًا لكل اسم مذكر رباعي قبل آخره مدة؛ كطعام وأطعمة، وجراب وأجربة، وغراب وأغربة، ورغيف وأرغفة، وسرير وأسررة، وعمود وأعمدة.

وما كان من أسماء هذا النوع الذي يجمع هذا الجمع مفتوح الفاء أو مكسورها مضعفًا أو معتل اللام ومدته ألف لم يكن له جمع غير هذا، كبتات وأبتة، وكزمام وأزمة، وكقباء وأقبية، وكإناء وآنية.

صيغة أفعال: تكون جمعًا لكل اسم ثلاثي على أي صورة إلا ما كان منها موازنًا لفُعَل بضم ففتح، فإن هذه الصيغة فيه قليلة والكثير غيرها، كما سيأتي التنبيه عليه، وإلا ما وازن فَعْلًا بفتح فسكون، وصحت عينه ولم تكن فاؤه واوًا ولم يكن مضعفًا كفَلْس وكَلْب؛ فإن هذه الصيغة لا تكون جمعًا له إلا نادرًا جدًّا كقوله:

ماذا تقول لأفراخ بذي سلم؟

وما عدا هذين النوعين من الأسماء الثلاثية فتلك الصيغة فيه: إما لازمة، وإما أكثر من غيرها، كبيت وأبيات، وثوب وأثواب، ووقت وأوقات، وجد وأجداد.

صيغة أفعل: كون جمعًا لنوعين من الأسماء. أحدهما: كل اسم موازن لفعل الذي سبق أنه لا يجمع على أفعال؛ ككلب وأكلب، وفلس وأفلس، وجرو وأجرٍ وظبي وأظبٍ، وما كان من هذا النوع واوي اللام، أو يائيها تكسر عينه في الجمع، وتحذف لامه إن وليها ساكن، كما رأيت في أجرٍ وأظبٍ.

وثانيهما: كل اسم مؤنث رباعي قبل آخره مدة، كعَناق بفتح أوله، وأعنق وذراع بكسر أوله على لغة تأنيثها. وأذرع ولسان كذلك وألسن، وعُقاب بضم أوله وأعقُب، ويمين وأيمن.

صيغة فعلة: هي من النوادر لكونها لم ترد إلا في أسماء معدودة، وإنما ذكرت لاستيفاء جموع القلة سمع: صِبية في جمع صبي وصبية وفتية في جمع فتى، وغِلْمة في جمع غُلام، وغِزْلة في جمع غزال، وثيرة في جمع ثور، وشيخة في جمع شيخ، وثنية في جمع ثني بضم المثلثة أو كسرها وسكون النون، وهو الثاني في السيادة.

(صيغ جموع الكثرة هي سبع عشرة)

الصيغة الأولى: فُعْل بضم فسكون تكون جمعًا، لكل صفة توازن أفعل أو فعلاء؛ كأحمر وحمراء وحُمْر؛ فإن كانت عين الكلمة ياء؛ كأبيض وبيضاء كسرت فاء الجمع كبِيض وغِيد.

الصيغة الثانية: فُعُل بضمتين تكون جمعًا؛ لنوع من الأسماء ونوع من الأوصاف.

فالأول: كل اسم رباعي قبل آخره مدة، ولم تكن لامه حرف علة، ولم يكن مضعفًا ومدته ألف، كحمار وحُمُر وأتان وأُتُن، وسرير وسُرُر، وعَمود وعُمُد.

والثاني: كل وصف على وزن فعُول بمعنى فاعل؛ كصبور وصُبُر، وصدُوق وصُدق.

الصيغة الثالثة: فُعَل بضم ففتح تكون جمعًا؛ لنوع من الأسماء ونوع من الأوصاف.

فالأول: كل اسم على وزن فُعْلة بضم فسكون، كبُرْمة وبُرم، وقُرْبة وقُرب، وغُرْفة وغُرف.

فإن كانت لام الكلمة واوًا أو ياء، أبدلت ألفًا في الجمع، كربوة ورُبى، وزبية وزبى، ومُنْية ومُنى.

والثاني: كل صفة على وزن فُعْلى بضم فسكون في تأنيث أفعل للتفضيل؛ كالكبرى والكُبر، والدنيا والدنا والعُليا والعلا، والقصوى والقُصي، بحذف ألف التأنيث وإبدال الألف من الواو والياء.

الصيغة الرابعة: فِعَل بكسر ففتح وتكون جمعًا؛ لكل اسم يوازن فعله بكسر فسكون؛ كقربة وقرب، وديمة وديم.

وربما نابت هذه الصيغة عن سابقتها ونابت سابقتها عنها، كصورة وقوة بالضم وصور وقوى، وكحلية ولحية بالكسر، وحُلى ولُحى بالضم.

الصيغة الخامسة: فُعَلة بضم ففتح تكون جمعًا لوصف عاقل على وزن «فاعل» منقوص، وتقلب الياء فيها ألفًا؛ كداع ودُعاة، وراو ورُواة.

الصيغة السادسة: فَعَلَة بفتحات تكون جمعًا لفاعل وصف عاقل صحيح اللام؛ فإن كانت عينه معتلة أُبدلت ألفًا مثل؛ كامل وكملة، وبائع وباعة.

الصيغة السابعة: فَعْلَى بفتح فسكون وألف التأنيث المقصورة تكون جمعًا لكل وصف فيه معنى الآفة أو الهلاك؛ كمريض ومَرْضَى، وأسير وأسرى، وشتيت وشتَّى، وجريح وجرحى، وأحمق وحمقى، وسكران وسكرى، وقتيل وقتلى، وهالك وهلكى، وزمنٌ وزَمنى، وميّت وموتى؛ ولكون عتيق يقع في مقابلة أسير قيل في جمعه: عتقى.

الصيغة الثامنة: فِعَلة بكسر ففتح تكون جمعًا لاسم صحيح اللام يوازن فُعْلا بضم فسكون، كدُرج ودِرَجة، وكوُز وكِوزة، وحُب وحببة.

الصيغة التاسعة: فُعَّل بضم أوله وفتح ثانيه مشددًا تكون جمعًا لكل وصف مذكر أو مؤنث صحيح اللام يوازن «فاعلًا» كعاذل وعاذلة وعذل، وصائم وصائمة وصُوم.

الصيغة العاشرة: فُعَّال بضم أوله وتشديد ثانيه، وبعده ألف تكون جمعًا لمذكر الصيغة الماضية؛ فله صيغتان.

الصيغة الحادية عشرة: فِعال بكسر أوله تكون جمعًا بكثرة لثمانية أنواع:

أحدها وثانيها: فعل وفعلة بفتح فسكون، اسمين أو وصفين، ليست عينهما ياء مثل، كلب وكلبة وكِلاب، وصعب وصعبة وصِعاب، وتبدل الواو ياء كثَوب وثِياب.

وثالثها ورابعها: فعَل وفعَلة بفتحات، اسمين صحيحي اللام، ليست عينهما ولامها من جنس مثل، جمل وجمال، ورقبة ورقاب.

وخامسها: فِعل بكسر اسمًا كقِدح وقِداح، وذِئب وذِئاب، ونِهى ونِهاء.

وسادسها: فُعْل بضم فسكون اسمًا صحيح اللام؛ كرُمح ورماح، وجُب وجِباب.

وسابعها وثامنها: فَعِيل وفَعِيلة وصفي باب كرُم صَحيحي اللام؛ كظريف وظريفة وظراف. وتلزم صيغة «فِعَال» فيما عينه واو من هذا النوع، فلا يجمع على غير هذه الصيغة، كطويل وطويلة وطوال.

وشاعت هذه الصيغة أيضًا في كل وصف على «فعلان» بفتح فسكون للمذكر «وفعلى» للمؤنث «وفُعلان» بضم فسكون له. «وفعلانة» لها كغضبان وغضبى وغضاب، وعطشان وعطشى وعطاش، وكخمصان وخمصانة وخماص.

الصيغة الثانية عشرة: فُعُول بضمتين تكون جمعًا لخمسة أنواع من المفردات:

النوع الأول: فَعِل بفتح فكسر مثل؛ كبد وكبود، وكرش وكروش.

النوع الثاني: فَعْل بفتح فسكون بشرط أن يكون اسمًا لا وصفًا، وأن لا تكون عينه واوا، كفلس وفلوس، وقلب وقلوب، وبيت وبيوت، ودلو ودلي، ونهي ونهى: وفي مثل هذين تقلب واو «فعول» ياء وتدغم في الياء؛ لقاعدة: متى اجتمع واو وياء وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء، ويدغم الأول في الثاني فلا يجمع الوصف كصعب، ولا واوي العين كحوض على هذه الصيغة إلا نادرًا.

النوع الثالث: فُعْل بضم فسكون بشرط أن يكون اسمًا، وأن لا تكون عينه واوًا، وأن لا تكون لامه ياء، وأن لا يكون مُضعفًا مثل جُند وجُنود،

وبُرد وبُرُود فلا يجمع على هذه الصيغة وصف كحلو، ولا واوي العين كحُوت، ولا يائي اللام كمُدى لنوع من المكاييل ولا مضاعف كخُفّ.

النوع الرابع: فِعْل بكسر فسكون بشرط أن يكون اسمًا كقِرْد وقُرُود وحِمْل وحُمُول، ونِحْى ونُحى، ونِهى ونُهى لغة في النهي مفتوح الأول اسم للنهر الصغير. وتلحظ فيه وفي أمثاله قاعدة الواو والياء، فلا يجمع على هذه الصيغة وصف كحِلف.

النوع الخامس: فَعَل بفتحتين بشرط أن يكون اسمًا، وأن لا يكون مضعفًا كأسد وأُسُود، وذَكَر وذُكُور، ورَحى ورُحِيّ، وعَصَى وعُصِي، وكل ما تصرفت فيه بقاعدة الواو والياء يجوز كسر أوله اتباعًا لثانيه، لتخفيف النطق فتقول: عِصي بكسر العين ورِحي ودِلِيّ كذلك، فلا يجمع على هذه الصيغة، الوصف منه كحسن وبطل، ولا المضعف كلبب وعدد.

الصيغة الثالثة عشرة: فِعْلان بكسر فسكون تكون جمعًا لأربعة أنواع من المفردات:

النوع الأول: فُعال بضم أوله، كغلام وغلمان، وغراب وغربان، وقراد وقردان.

النوع الثاني: فُعَل؛ بضم ففتح، كصُرد وصردان لطير. وجرذ وجرذان؛ لنوع من الفأر. وغلب الاكتفاء بهذه الصيغة في جمع هذا النوع عن صيغة «أفعال» التي هي جمع القلة لغالب الثلاثيات.

النوع الثالث: فُعْل بضم فسكون واوي العين؛ كحوت وحيتان، ونون ونينان، وكوز وكيزان.

النوع الرابع: «فَعَل» بفتحتين واوي العين أيضًا، كقاع وقيعان، وباب وبيبان. ولحركة الواو وفتح ما قبلها في هذا النوع تبدل ألف بحكم قاعدة: متى تحركت الواو أو الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفًا.

الصيغة الرابعة عشرة: فُعْلان بضم فسكون تكون جمعًا لثلاثة أنواع من المفردات:

النوع الأول: فَعْل بفتح فسكون بشرط أن تكون اسمًا لا صفة؛ كبطن وبطنان، وسيف وسوفان، وتبدل الياء واوًا لأجل الضمة.

النوع الثاني: فَعيل بشرط أن يكون اسمًا أيضًا مثل كثيب وكُثبان، وغدير وغُدران، وقضيب وقُضبان.

النوع الثالث: فَعَل بفتحتين بشرط أن يكون اسمًا صحيح العين، كحمل وحُملان، وذكر وذُكران.

الصيغة الخامسة عشرة: فُعَلاء بضم ففتح تكون جمعًا لنوع واحد من المفردات، وهو فَعِيل من أوصاف الفاعلين، بشرط أن لا تكون عينه واوًا، وبشرط أن لا يكون معتل اللام، وبشرط أن لا يكون مضعفا. نحو: بخيل وبخلاء، وكريم وكرماء، ونبيه ونبهاء. وحمل عليه من فاعل ما دل على ما يشبه المطبوع، كصالح وصلحاء، وفاسق وفسقاء، وعاقل وعقلاء.

الصيغة السادسة عشرة: أَفْعِلاء بفتح فسكون فكسر تكون جمعًا لنوعين:

أحدهما: فَعِيل المضعف، كخليل وأخلاء، وجليل وأجلاء، وذليل وأذلاء، وعزيز وأعزاء.

وثانيهما: فَعِيل معتل اللام، كنبيّ وأنبياء، وتقيّ وأتقياء، ووليّ وأولياء.

الصيغة السابعة عشرة: صيغة تسمى صيغة منتهى الجموع، والجمع الذي لا نظير له في الآحاد.

وذلك أن صيغ الجموع ربما جعلت مفردات وجمعت، فيكون جمعها جمع الجمع، كأفراس جمع فرس يجمع على أفارس. وحينئذ يكون لكل صيغة من الصيغ السالفة نظير من المفردات. مثلًا: غِربان جمع غُراب نظيره في المفردات سرحان اسمًا للذئب، وحُمر جمع أحمر نظيره في المفردات قُفل وهكذا. وهذه الصيغة لا تجمع، وليس لها في المفردات نظير، ولذلك منعت الصرف كما تعرفه في علم النحو.

ثم إن هذه الصيغة تكون على أوزان شتى، وضابطها أنها متحصلة من خمسة أحرف، إذا لم يكن قبل آخر المفرد حرف لين، وإلا كانت ستة أحرف: حرفان متحركان بعدهما ألف وبعد الألف حرف مكسور، وآخر الصيغة أو بينها ياء ساكنة كصَيْرَف وصَيارف، وفرعون وفراعين.

تفصيل أوزانها:

الوزن الأول: «فواعِل» يكون جمعا لستة أنواع من المفردات:

النوع الأول: فَوْعَل كجوهر وجواهر، وجورب وجوارب، وصومعة وصوامع.

النوع الثاني: فَاعَل بفتح ثالثه، كطابع وطوابع، وخاتم وخواتم، وقالب وقوالب.

النوع الثالث: فاعِلاء بكسر ثالثه؛ كقاصِعاء وقواصِع،ونافقاء ونوافِق، وراهِطاء ورواهِط أسماء أبواب جُحر اليربوع.

النوع الرابع: كل اسم غير صفة يوازن «فَاعلًا» مثل؛ كاهل وكواهل، وعامر وعوامر، وجابر وجوابر.

النوع الخامس: أوصاف الإناث الموازنة لفاعِلْ مختتمة بالتاء أولًا، كحائض وحوائض، وفارق وفوارك، وهي المبغضة لزوجها، وصائمة وصوائم، وقائمة وقوائم.

النوع السادس: أوصاف غير العقلاء الموازنة لفاعل: كصاهِل وصواهِل، ونَاهِق ونواهِق.

الوزن الثاني: من أوزان صيغة منتهى الجموع «فعائل» بفتح أوله وكسر ثالثه يكون جمعًا لكل اسم مؤنث قبل آخره مدة مختتم بالتاء؛ كسحابة وسحائب، ورسالة بكسر أوله ورسائل، وذؤابة بضم أوله وذوائب، وحمولة بفتح أوله وحمائل وفعيلة بفتح أوله كصحيفة وصحائف، وخميلة وخمائل، وتجمع الأوصاف الموازنة «لفعيلة» بهذه الصيغة، كعقيلة وعقائل، وكريمة وكرائم، إن لم تكن بمعنى مفعول كجريحة وقتيلة.

الوزن الثالث: «فَعَالى» بفتح أوله وكسر رابعه وآخره ياء، وتبدل الياء ألفًا في البعض، فيفتح ما قبلها ضرورة، وقد التزمت الهيئة الأولى في بعض المفردات، والتزمت الثانية في بعض آخر، وورد كل منهما في بعض ثالث؛ فأنت بالخيار بينهما. فمما التزمت فيه الأولى حذرية بكسر فسكون فكسر فهاء خفيفة، اسم للقطعة الغليظة من الأرض والأكمة،

فجمعها حذارى لا غير، وسعلاة بكسر فسكون اسم ساحرات الجن فجمعه سعالى، وعرقوه بفتح فسكون فضم فواو خفيفة كترقوة فالجمع عراقى وتراقى، والعرقوة: هي الخشبات التي تجعل للدلاء من فوق، يربط فيها الرشاء. والترقوة: العظم الذي لي العنق إلى الكتف من أعلى الصدر. ومما التزمت فيه الثانية كل وصف على «فعلان» للمذكر «وفعلى» للمؤنث كسكران وسكرى وسُكارى، وغضبان وغضبى وغضابى، وعطشان وعطشى وعِطاشى.

ومما ورد فيه كل منهما كل اسم على وزن «فعلاء» كصحراء فتقول: صحارى بالكسر والياء، وصحارى بالفتح والألف.

وكل اسم على وزن «فعلى» بفتح فسكون كعلقى اسم نبت فتقول: علاقٍ وعلاقي. وكل اسم على وزن «فعلى» بكسر فسكون كذفرى: اسم للعضو خلف أُذن الناقة، فتقول: ذفارِي وذفارى.

وكل وصف على وزن «فُعْلى» بضم فسكون المؤنث غير أفعل كحُبلى فتقول: حَبالي وحبالى.

الوزن الرابع: «فُعالى» بضم أوله وآخره ألف يكون جمعًا «الفعْلان وفعلى» كسكران وسكرى وسكارى، وهو أرجح من المفتوح.

الوزن الخامس: «فعالى» بفتح أوله وكسر رابعه وتشديد الياء يكون جمعًا لكل اسم مختوم بياء مشددة تُشبه ياء النسب ليست له مثل كُرسي وكراسي: وكركي وكراكي.

* * *

خاتمة فيها مسائل

المسألة الأولى: اعلم أن صيغة منتهى الجموع، إنما يجمع بها من الأسماء ما زاد على ثلاثة أحرف من الأسماء: الرباعية، والخماسية، والسداسية، والسباعية، وحيث كانت غير ممكنة فيما زاد على أربعة أحرف، وجب أن ترد ما زاد على الأربعة إليها؛ ليمكنك أن تجمعه بهذه الصيغة.

ولذلك تفصيل حاصله؛ أن الاسم إذا كان خُماسيًا مجردًا وجب حذف خامسه كسفرجل وسفارج: وإن كان خماسيًا بزيادة حذف الزائد إلا إذا كان لينًا قبل الآخر؛ فإنه يبدل ياء ويبقى؛ كغضنفر وقرنفل، وغضافر وقرافِل، وكفِرعون وفراعين، وغُرينق وغَرانيق، وكِرباس وكرابيس، وعُصفور وعصافيرَ.

وإن كان اسمًا مشتملًا على زيادتين أو أكثر، حذفت باختيارك من الزوائد ما يكون الباقي بعده صالحًا لأن يجمع بهذه الصيغة، إلا إذا كان أحد الزائدين ذا مزية، بحيث يكون دالًا على معنى محققًا لصيغة، أو كان حذفه مخرجًا للكلمة عن النظائر، فتقول في علندي وسرندي مثلا: علانِد وعلادٍ، وسراند وسرادٍ.

وتقول في مُستدع ومُقتدر: مداعِي ومقادر، وفي نحو: استخراج تخاريج على وزن تماثيل، فلا تحذف التاء وتبقى السين لخروجه بذلك عن النظائر، وإلا إذا كانت الكلمة كحيزبون وعيطبول، فإن الواجب حذف الياء دون الواو فتقول في جمعه: حزابين وعطابيل.

ومما علمت في هذا الموضع تعرف سائر أوزان صيغة منتهى الجموع، فتقول في جمع جعفر مثلًا: جعافر. وزنه فعالل، وفي جمع أفضل: أفاضل، وزنه أفاعل وفي جمع مسجد: مساجد. وزنه مفاعل. وبالتفكر لا يخفى عليك اعتبار ذلك.

المسألة الثانية: قد تتفصل آحاد النوع جملًا، وتتصنف أصنافًا، فيستعمل جمع في كل جملة، فإذا أردت أن تدل على تلك الجمل جمعت الجمع.

مثلًا إذا كانت لزيد جمال بخاتية، وجمال مصرية، وجمال شامية قلت: جمالُ زيد المصرية، وهو جمع جمل. وقلت: أحصيتُ جمالات زيد وهو جمع جمال الذي هو جمع جمل. وهذا ضابط جمع الجمع، فإذا لم تتفصل الآحاد جُملًا لم يصح أن تجمع الجمع، وذلك أن الجمع يقتضي ثلاثة أفراد، والجمع الأصلي مستغرق لجميع الآحاد، فمن أين يجيء مفرد ثاني وثالث، حتى تأتي بجمع الجمع ما لم تتفصل الآحاد جملًا؟

وتأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ۝ ﴾ [سورة المرسلات: ٣٢، ٣٣]، فإنه لو قال: كأنه جمال. لم يفد كون الشرار يخرج جماعة جماعة. فكان جمع الجمع لازما لإفادة هذا المعنى.

وعلى هذا الحد تعتبر جمع الجمع في نحو: بيوتات العرب، ورجالات قريش، وأفارس العسكر، وهكذا.

المسألة الثالثة يقولون: جمع، واسم جمع، واسم جنس جمعي.

والفرق بين هذه الأنواع الثلاثة: أن الجمع هو ما يعتبر فيه تفصيل الآحاد، بحيث يكون الحكم منصرفًا لكل واحد.

فإذا قلت: رجال البلد قائلون. فمعناه، كل رجل منهم قائل، وأن اسم الجمع هو ما وضع للجملة من غير تفصيل الآحاد، فيكون الحكم منصرفًا للمجموع مثلًا تقول: ارتحل قوم فلان وحلوا بكذا، وركب هؤلاء أحسن من ركب أُولئك.

وأن اسم الجنس الجمعي: هو ما وضع لماهية بشرط أن يستعمل في جماعة جماعةُ من آحادها إلى الجميع، فإذا أردت به واحدًا ألحقته التاء للفرق. كتمر وتمرة، وقمح وقمحة. وتثنى ذا التاء إذا أردت اثنتين، وكما يجمع الجمع، يُجمع اسم الجمع، وأسماء الأجناس الجمعية؛ للاختلاف وتعدد الجماعات فتقول: الأقوام والتمور والأعناب. والتثنية كالجمع عند الحاجة فتقول: قومانا مؤتلفان، ومدينة كذا يوجد فيها تمران أحدهما أحلى من الآخر.

المسألة الرابعة: المركبات الإضافية التي جعلت أسماء، تجمع أجزاؤها الأول كما تثنى فتقول: عبد اللهن وعبدان الله، وعباد الحق، وذوو القعدة والحجة، وأذواء القعدة وذوات القعدة.

وما كان من الأسماء؛ كابن عُرس، وابن آوى، وابن لبون يقال في جمعه: بنات عُرس، وبنات آوى، وبنات لبون.

والمركبات المزجية، والمركبات الإسنادية، والمثنى، والجمع، إذا جعلت أسماء جئت بذو وثنيت أو جمعت حسب حاجتك فتقول: ذو معدي كرب، وذوو بعلبك، وأذواء سيبويه، وهكذا.

المسألة الخامسة: الأسماء التي حذف منها لتصح صيغة منتهى الجموع، يجوز أن يزاد قبل آخرها ياء ساكنة في الجمع؛ لتكون عوضًا عن المحذوف.

المسألة السادسة: صيغة منتهى الجموع تلحقها تاء تأنيث، وهي على ثلاثة أصناف: أحدها: تاء تجعل عوضا عن الياء، التي قبل آخر الجمع بعد حذفها تقول في مثل قناديل: قنادلة.

وثانيها: تاء تلحق جمع المنسوب؛ للدلالة على أن الجمع له لا لأصله، كالأشاعِثة والأزارقة، والمهالبة في جمع أشعثي نسبة إلى أشعث، وأزرقي نسبة إلى الأزرق، ومهلبي نسبة إلى المُهلَّب.

فلو كان الجمع للأشعث والأزرق والمهلب قلت: المهالب والأزارق والأشاعث، دون تاء.

وثالثها: تاء تزاد لإلحاق الجمع بمفرد؛ كصيارفة في جمع صيرف، وصياقلة في جمع صيقل لإلحاقه بكراهية وطواعية، وما أدخلت فيه التاء من هذه الجموع، ينصرف بعد أن كان ممنوعًا من الصرف، وربما لحقت التاء بعض صيغ الجموع لتحقيق معنى الجمعية كالتاء في: حجارة جمع حجر، وفحولة، وعمومة، وخؤولة جمع فحل وعم وخال.

فالأصل: حجار كجبال، وفُحول وعُموم وخؤول.

المسألة السابعة: تبين لك أن النوع الواحد من المفردات، قد يعتوره صيغتا جمع أو أكثر مثل: كامل وكملة بفتحينن وكمل بضم أوله وفتح ثانيه مشددًا.

ومثل فحل وفحال، وفحول وفحلان، وأفحل. هذا مقتضى ما تقدم من توزيع صيغ الجموع على أنواع المفردات.

ولكن حيث كنت مريدًا أن تتكلم باللغة العربية كما نطق بها أهلها، فواجب عليك أن تبحث عن الصيغة التي نطقوا بها، فتارة تجدهم نطقوا بالصيغتين للمفرد الواحد، وتارة تجدهم اقتصروا على إحداهما، فتنطق كما نطقوا. وقد سبق التنبيه على أن هذه الضوابط، إنما هي للتقريب والتسهيل وإلا فالسماع لازم.

ولذلك ترى أصحاب كتب اللغة يذكرون المفرد ويعقبونه بذكر جمعه، وإن كان من المشاهير تنبيها على أنه المنطوق به للعرب.

* * *

التقسيم السادس:

الاسم: إما مكبر وهو المنطوق به على صيغته الوضعية، وإما مصغر وهو المحول إلى إحدى الصيغ الآتي بيانها، لغرض الدلالة على حقارة قدر مسماه، أو صغر حجمه أو قربه مكانًا أو زمانًا.

وربما استعملت الصيغة للتلطف والتملح أو فظاعة المسمى ونكارته، كرجيل وجبيل ودوين وقبيل وحبيب ودويهية.

بيان الصيغ هي ثلاث: «فعيل» بضم أوله وفتح ثانيه وزيادة ياء ساكنة، تسمى ياء التصغير لتصغير الثلاثيات.

«وفعيعل، وفعيعيل» بضم ففتح فزيادة تلك الياء وكسر ثاليها، ولأجل الكسرة تبدل الألف والواو الواقعتان بعدها ياء في تصغير الأسماء الزائدة على ثلاثة أحرف، وللتصغير أحكام ولنوردها في مسائل:

المسألة الأولى: الحرف الثاني من أحرف الاسم الذي تريد تصغيره إن كان ألفًا مبدلة من واو أو مبدلة من همزة لوقوعها ساكنة بعد همزة مفتوحة، أو كانت زائدة أو أصلية مجهولة لم يعلم أنها بدل عماذا، أو كان ياء مبدلة من واو، وجب أن تنطق به عند التصغير واوًا، كباب وبويب، وكآدم وأُويدم. أصلها أءدم بهمزتين؛ لكونه وصف المذكر من الأدمة ومؤنثه أدماء. ونحو. ضارب وضُويرب، وكاهل وكُويهل، وعاصم وعُويصم، وجاموس وجويمس. ونحو: صاب وصُويب (راسم شجر مر)، وعاج وعُويج اسم عظم الفيل. ونحو: قيمة وقُويمة، وديمة ودويمة، وميزان ومُويزين.

وإذا كان ذلك الحرف ألفًا مبدلة من ياء أو واوًا كذلك نطق به عند التصغير ياء كناب ونييب، وموقن وميقن وموسر وميسر. من اليقين واليسار.

وإذا كان ذلك الحرف ياء مبدلة من همزة، رد في التصغير همزة؛ كذئب وذؤيب.

وإذا كان ياء بدل حرف صحيح رُد لأصله، كدينار ودُنينير وقِيراط وقُريريط وديوان ودُويوين، فإذا كان ذلك الحرف ياء أصلية، فالأفصح إبقاؤها في التصغير. وفي لغة رديئة إبدالها واوًا، وعليه قول العامة: شوية في تصغير شيء، فتقول على الفصيح: بيت وبُييت.

وفي الأسماء: حيي بن أخطب، ويشارك التصغير في غالب ما سلف، وما سيأتي جمع التكسير. ولذلك اشتهر أن التصغير والتكسير يردان الألفاظ إلى أصولها.

ألا ترى أنك تقول في جمع باب: أبواب. كما قلت في تصغيره: بويب. وعليك باعتبار ذلك.

المسألة الثانية: الحرف التالي لياء التصغير، إن كان ياء مشددة حذفت أولاهما لتوالي الأمثال، تقول في تصغير صبيّ وصبيَة: صُبىَ وصُبيَة.

وإن كان ألفًا أو واوًا ساكنة، أُبدل ياء كمقام ومقيم، وعجوز وعُجيز.

وإن كانت الواو متحركة جاز إبقاؤها، والأفصح إبدالها ياء، فتقول في تصغير أسود وجدول: أُسيود وجُديول. والأفصح: أُسيد وجُديل إذا لم تكن الواو المتحركة لام الكلمة، وإلا وجب إبدالها ياء كدلو ودُلية، وكروان وكُربان.

المسألة الثالثة: الحرف التالي لياء التصغير، إن كان بعده تاء التأنيث أو ألفه أو مدته أو ألف «أفعال» جمعًا أو مدة «فعلان» الذي لم يجمع على «فعالين» كسراحين؛ يجب فتحه وإلا جرت عليه حركات الإعراب في الصيغة الأولى، وكسر في الصيغة الثانية، ولأجل كسرته إذا كان بعده ألف أو واو قلبت ياء فتقول: فُويطمة وحُبيلى وحُميراء وأُجيمال وسُكيران، وتقول: رُجيل. تجرى على اللام حركات الإعراب وتقول: جُعيفر، ودُنينير، وعُصيفر بالإبدال.

المسألة الرابعة: متى زاد الاسم الذي تريد تصغيره على أربعة أحرف، وجب حذف الزائد ورده إلى الأربعة؛ لتمكن صيغة التصغير على التفصيل الذي سبق في صيغة منتهى الجموع، إلا إذا كانت الزيادة ألف التأنيث الممدودة، أو تاءه أو ياء نسب، أو زائدي.

نحو: زعفران، أو علم تثنية، أو علم جمع تصحيح للذكور أو الإناث، أو جزءًا ثانيًا من المركب المزجي، فإنك لا تحذفها؛ لكونها في تقدير الانفصال وكأنها كلمات مستقلة، والتصغير وارد على ما قبلها.

وأما ألف التأنيث المقصورة إذا لم تكن رابعة، فإن كانت سادسة أو سابعة حذفت، وإن كانت خامسة فإن لم تسبقها مدة في الاسم الذي هي فيه بحذفها تصلح الصيغة حذفت أيضًا، وإلا فأنت بالخيار بين حذف المدة السابقة وإبقاء ألف التأنيث، وبين حذف ألف التأنيث وإبقاء المدة.

نحو: حُبارى. فلك أن تقول: حبير. بحذف ألف التأنيث وإبقاء المدة، التي هي الألف المبدلة ياء لأجل ياء التصغير، وأن تقول: حُبيري. بحذف المدة وإبقاء الألف.

المسألة الخامسة: إذا كان الاسم الذي تريد تصغيره باقيًا على حرفين، يحذف أحد حروفه كعدة أصلها وعد، وسنة أصلها سنوة أو سنهة، وشفة أصلها شفهة ويد أصلها يدي. رددت المحذوف ليمكن التصغير فتقول: وُعيدة وسُنية، أو سنيهة وشُفيهة، ويدية ودُمي.

وإذا كان على حرفين وضعًا وجعلته اسمًا، فإن كان ثانية صحيحًا ضعفته بزيادة حرف من جنس ثانية أو كملته بياء، فتقول في تصغير هل: هليل أو هُلي.

وإن كان ثانيه حرف علة كملته بحرف من جنسه كَلَو وكي وما، فتقول: لُوَي بإبدال الواو ياء، وكيي ومويي.

المسألة السادسة: الأسماء المؤنثة الثلاثية، ولو حال التصغير الخالية من علامة التأنيث، إذا صغرتها ألحقتها تاء التأنيث إلا إذا حصل لبس، فتقول: دُويرة وسنينة، ويدية، وعُيينة، وأُذينة، ولا تقول: شُجيرة لالتباسه بتصغير شجرة وأنت تريد تصغير شجر، ولا تقول: خُميسة لالتباسه بتصغير خمسة وأنت تريد تصغير خمس. وقد شذ التجريد من التاء في بعض الأسماء نحو: قُويس ونُعيل: وشذ إلحاق التاء بغير الثلاثي، فقالوا في تصغير أمام، ووراء، وقُدام: ورُيئة وأميمة بتشديد الياء فيهما وقد يديمة.

المسألة السابعة: قد يقتصر من الاسم على أصوله ويصغر ويسمى: تصغير الترخيم. فتقول في تصغير إرواد: رويد، وفي تصغير معطف: عُطيف، وفي تصغير حماد وحمدان وحمدون ومحمود ومحمد: حُميد. والاعتماد في بيان المراد على القرينة.

المسألة الثامنة: يتبين لك مما سلف أن التصغير خاص بالأسماء المتمكنة، لا يكون في الأفعال، ولا في الحروف، ولا في الأسماء المبنية. وشذ تصغير أفعل في التعجب، وتصغير أسماء الإشارة، وبعض الأسماء الموصولة؛ فسمع: ذيا وتيا واللتيا بفتح أوائلها، وأولياء بضم أوله قالوا بعد اللتيا واللتي. أي بعد الصغيرة والكبيرة وقال:

يامـا أُمَيلح غزلانا شدن لنا ... من هؤليائكن الضَّال والسَّمرِ

* * *

النسب

المنسوب: اسم قبيلة أو قطر أو بلد أو غير ذلك، تزيد بعد آخره ياء مشددة؛ ينتقل إليها الإعراب ولأجلها يكسر آخر الاسم؛ لأن المجموع صار كلمة واحدة؛ كنذاريّ ومُضريّ وحجازيّ وشاميّ ومصريّ ودمشقيّ وقُطنيّ وشاهيّ.

وبذلك العمل يصير الاسم وصفا ينعتُ به، ويعمل عمل الأوصاف كما يتبين في النحو.

وللمنسوب أحكام نوردها في مسائل:

المسألة الأولى: الاسم الذي تريد أن تنسب إليه إذا كان آخره ياء مشددة، فإذا كانت مسبوقة بحرف واحد، فتحت الياء الأولى ورددتها لأصلها إن كانت منقلبة عن واو وقلبت الياء الثانية واوًا مطلقًا، فتقول في النسبة إلى حي: حيوي وإلى طي، ولي مصدري طوي ولوي: طووي ولووي.

وإذا كانت مسبوقة بحرفين خففتها وقلبتها واوًا، وفتحت ثاني الاسم، فتقول في النسبة إلى علي وعدي وقُصي بضم أوله: علوي وعدوي وقُصوى.

وإذا كانت مسبوقة بثلاثة أحرف فأكثر، فإن كانت زائدة حذفتها كلمة واحدة، فتقول في النسبة إلى شافعي: شافعي. حذفت ياء الاسم، ووضعت مكانها ياء النسب.

وإذا كانت قائمة من أصلي وزائد كمرمى اسم مفعول أصله مرموي، فالياء لام الكلمة والواو زائدة قُلبت ياء كما هو القاعدة في مثله، فالأحسن أن تحذف كسابقه، وفي لغة تحذف الياء الزائدة وتقلب الأصلية واوًا فتقول على الأول مرمي، وعلى الثاني: مرموي.

المسألة الثانية: الاسم إذا كان مقصورًا أو منقوصًا.

فمتى جازت ألف الأول، أو ياء الثاني أربعة أحرف حُذفتا، ومتى كانتا ثالثتين قلبتا واوًا وفتح ما قبلها، فتقول في المصطفى اسم مفعول، والمصطفى اسم فاعل: مصطفى. وتقول في النسبة إلى العصا والرحا: عصوي ورحوي، وإلى الشجا: شجوي.

ومتى كانتا رابعتين فالأفصح حذف الياء، كقاضي وقالي. ويجوز قلبها واوًا فيفتح ما قبلها كقاضوي وقالوي. وأما الألف فإذا كانت ألف تأنيث، ولم يسكن ثاني الاسم الذي هي فيه حُذفت أيضًا، فإن سكن فالأحسن الحذف ويجوز قلبها واوًا. ولك زيادة ألف قبلها، فتقول في النسبة إلى نحو حُبلى: حُبلي وحُبلوي وحُبلاوى. وإذا كانت الألف لإلحاق كلمة بكلمة أخرى كلفظة أرطي، التي أصلها أرط فزيدت فيها الألف لإلحاقها بجعفر أو كانت الألف أصلية، كمعلى ومرمى فالأحسن فيهما القلب واوًا فتقول: أرطوي ومعلوي. ويجوز الحذف فتقول: أرطي ومعلي.

المسألة الثالثة: الاسم إذا كان مختوما بتاء التأنيث حذفت، فتقول في النسبة إلى فاطمة: فاطمي. وإذا كان نحو: طيب ونير حذفت الياء الثانية، فتقول: طيبي ونيري بياء واحدة ساكنة. وعليه فكان حق النسبة إلى طيء

طيئ، لكنهم شذوا فقالوا: طائي. وإذا كان الاسم على وزن «فُعيلة» بضم ففتح فسكون نحو: جُهينة ومُزينة حُذفت ياؤه، فقيل: جُهني ومُزني.

وإذا كان على وزن فعيلة بفتح فكسر فسكون، ولم يكن واوي العين ولا مضاعفًا حذفت ياؤه وفتحت عينه، فتقول في النسبة إلى حنيفة: حنفي. وفي النسبة إلى طويلة وجلبلة: طويلي وجليلي دون تغيير.

المسألة الرابعة: المركبات الإسنادية المسمى بها نحو: تأبط شرًا، وبرق نحره، وجاد الحق، والمركبات المزجية، والمركبات الإضافية، إذا نسبت إليها حذفت أعجازها، واقتصرت على صدورها ناسبًا لها، فتقول: تأبطيّ وبرقيّ وجاديّ.

وتقول: بعليّ في النسبة إلى بعلبك، ومعديّ وقاليّ في النسبة إلى معدي كرب وقالي قلي. وذو الياء كمعديّ وقاليّ من المنقوص؛ فإذا كانت الياء رابعة فحكمها ما مر في المنقوص، ويستثنى من المركب الإضافي الكُني والأعلام الغالبة. وما يكون فيه المضاف لفظًا واحدًا، أضيف إلى أشياء كثيرة على البدل؛ كأبي بكر، وأبي طالب، وأم كلثوم، وابن عباس، وابن الزبير، وابن عمر، وعبد الأشهل، وعبد قيس. فإنهم نسبوا في هذه المواضع إلى الأعجاز، وحذفوا الصدور، وقالوا: بكري وطالبي وكلثوميّ وعباسيّ وهكذا. وربما نحتوا من المضاف والمضاف إليه اسمًا على وزن «فعلل» بفتح الفاء وسكون العين، وفتح اللام الأُولى؛ كحضرم في حضرموت، وعبشم من عبد شمس، وعبقس من عبد القيس، ومرقس من امرئ القيس الشاعر.

فقالوا: الشعر المرقسي أول ما يستجاد من شعر العرب، وقال الشاعر:

وتضحكُ مني شيخةٌ عبشميةٌ كأنَ لمْ ترَ قبلي أسيرًا يمانيًا

المسألة الخامسة: الاسم إذا كان على وزن «فُعَل» بتثليث أوله وكسر ثانيه، كدُؤل بضم أوله، وأَبل ونَمر بفتح أوله، وجب عند النسبة إليه فتح عينه، فتقول: دُؤَليِ بفتح الهمزة، وإبليَ بفتح الباء ونمَري بفتح الميم.

المسألة السادسة: المنسوب إليه إذا كان ممدودًا، فإن كانت ألفه للتأنيث قلبت واوًا، فتقول: حمراويّ، وخضراويّ، وصفراويّ. وإذا كانت الهمزة بدلًا عن أصل نحو: كساء أصله كساو من الكسوة أو مزيدة بإلحاق الكلمة بكلمة أخرى؛ كعلباء أصله علب زيدت المدة لإلحاقه بقرطاس فلك قلب الهمزة واوًا وإبقاؤها، فتقول: كساويّ وعلباويّ، وكسائيّ وعلبائيّ.

وإذا كانت الهمزة الأصلية؛ كقراء ووضاء بقيت الهمزة، فتقول: قرائيّ ووضائيّ.

المسألة السابعة: المنسوب إليه إذا كان اسمًا ثلاثيًا حذف منه حرف في الاستعمال.

فإذا كان المحذوف لامه، فإن عهد رده في تثنية أو جمع تصحيح وجب رده في النسب؛ كأب وأخ. قيل في تثنيته: أبوان وأخوان. فينسب إليه بالرد فيقال: أبويّ وأخويّ، وكسنة وعضة: قالوا في الجمع: سنوات وعضوات وسنهات وعضهات على اللغتين؛ فتقول في النسب: سنويّ وعضويّ، أو سنهيّ وعضهيّ وإن لم يعهد ردًا للام في التثنية، وجمع التصحيح نحو: ثبة جاز الرد وعدمه فتقول: ثبيّ وثبويّ. إلا إذا كانت عينه معتلة، فإنه يجب الرد أيضًا فتقول في النسبة إلى شاة وذي بمعنى

صاحب: شاهيّ وذوويّ، ومن قال في يد ودم: يدان ودمان جاز عنده الرد والحذف. ومن قال: يديان ودميان وجب عنده الرد.

ويجب فتح عين هذه الأسماء عند رد لاماتها وتكون كالثلاثيات المقصورة في قلب ألفها عند النسبة واوًا.

والنسبة لأخت كالنسبة لأخ وبنت كابن، فتقول: أخويّ وبنويّ بفتح أولهما وثانيهما. وما كان كابن واسم محذوف اللام معوضًا عنها همزة الوصل، يجوز رد لامه وحذف الهمزة، ويجوز عكسه. وكلتا مثل كلا. واثنتان كاثنان، فتقول: كلويّ بفتح اللام، وثنويّ بفتح النون.

وإذا كان المحذوف الفاء فإن كانت اللام صحيحة لم يرد المحذوف. تقول في النسبة لعدة وزنة: عديّ وزنيّ. وإن كانت معتلة كشية ودية ردت فتقول: وشويّ بفتح أوله وثانيه.

وإن كان المحذوف العين فإن كانت لامه صحيحة لم ترد نحو: مذ أصلها منذ ينسب إليها مذيّ.

وإن كانت اللام معتلة ردت العين، فتنسب إلى مراسم فاعل من أرى فتقول: مرءي.

المسألة الثامنة: إذا كان المنسوب إليه ثنائيًا وضعًا، فإن كان ثانيه صحيحًا نحو: كم ولم. جاز تضعيفه عند النسب إليه، وإبقاؤه على صورته، فتقول: كمّي ولمّي. بالتشديد والتخفيف. وإذا كان ثانيه معتلًا، وجب تضعيفه، فتقول في النسبة إلى لا وما: لاءيّ وماءيّ.

وفي النسبة إلى كي: كيويّ كالنسبة إلى حيّ. وفي النسبة إلى لو: لوويّ كالنسبة إلى الدوّ.

المسألة التاسعة: إذا نسبت إلى الجمع أعدته إلى لفظ المفرد، ونسبت إليه فتقول في النسبة إلى أجمال: جملي. إلا إذا صار الجمع بمنزلة المفرد لاستعماله استعمال الأسماء كالأنصار، فإنه ينسب إليه على لفظه، فتقول: أنصاري، أو لكونه لا واحد له كعبابيد.

المسألة العاشرة: قد نسبوا في الحرف بلفظ على وزن «فعال» فقالوا: حداد ونجار وبزاز من البز وهو الأقمشة. وربما استعمل مع فعال النسب الأصلي، فقالوا لبائع العطر: عطار وعطريّ. وهذا كثير. واستعملوا أيضا وزن «فاعل». وهو قليل، فقالوا: لابن وتامر. أي ذو لبن، وذو تمر. وأقل منه وزن «فعل» بفتح فكسر. قال الشاعر: ولست بليليّ ولكنني نهر.

أراد لست ممن كسبه بالليل فأنسب إليه، ولكن كسبي بالنهار، فقوله: نهر كقوله: نهاري.

الخاتمة
في أمور لا تخص بعض أنواع الكلمة

الأمر الأول: أحكام الوقف وهو قطع النطق عند آخر الكلمة؛ إما لتمام الكلام أو للاستراحة إذا وقفت على الضمائر المتصلة نحو: له وبه وغلامه حذفت الواو والياء وسكنت الهاء إذا لم يكن قبل الضمير ساكن موجود أو محذوف، وإلا جاز لك حذف الواو والياء وإبقاؤهما. نحو: منه وإليه وادعه وارمه. ولا تحذف الألف من نحو: بها وغلامها، وإذا وقفت

على المنونات حذفت تنويناتها، إلا إذا كان التنوين بعد فتحة، فإنه يبدل ألفًا، وإذا كان آخر الموقوف عليه ألفًا وقفت على ألفه، وألحقوا إذا الناصبة للمضارع أحيانًا بالمنون المفتوح، فأبدلوا نونها ألفًا، وإذا وقفت على المنقوص، فإذا لم يكن منصوبًا ولا محذوف الفاء كيفي مسمى به، ولا محذوف العين كمر اسم فاعل من أرى فإن كان منونًا فالأحسن حذف يائه، وإن لم يكن منونًا فالأحسن إثباتها.

وفي المنصوب وما بعده يجب الإثبات، وإذا وقفت على متحرك غير تاء تأنيث سكنته وهو الفصيح في اللغة. وبعض العرب يميل بالحرف نحو الحركة ميلًا خفيفًا، ويسميه العلماء: رومًا.

وبعضهم إذا وقفت على المضموم ضم شفتيه ومدهما ويسمونه: إشمامًا. وبعضهم يشدد الحرف الموقوف عليه ويسمى: تضعيفًا، ومحل ذلك إذا لم يكن همزة ولا واوًا ولا ياء ولا ألفًا، ولم يكن ما قبله ساكنًا وبعضهم ينقل غير الفتحة من الحرف الصحيح لسابقه الساكن الذي يمكن تحريكه، ولم يثقل بالتحريك إذا لم يؤد النقل إلى صيغة لا نظير لها، ويغتفر ذلك إذا كان الموقوف عليه همزة، كما ينقل الفتحة من الهمزة؛ ونقل الحركة للمتحرك السابق بعد سلب حركته لغة لخمية، بقيت في لسان أهل مصر، فيقولون في الوقف على كتبه بكسر الباء: كتبه بضمها. وإذا وقفت على تاء التأنيث المتصلة بالأفعال أو الحروف أو في أخت وبنت، لم يتغير لفظها إلا بتسكين المتحرك منها، فتقول: ثمت ورُبت وأخت وبنت بسكون التاء، كما تقول: قالت.

وإذا وقفت على التاء من جمع المؤنث السالم وما أشبهه؛ فالأحسن إبقاؤها تاء ساكنة والأحسن في غير ذلك إبدالها هاء. وإذا وقفت على

الفعل المحذوف اللام للجزم أو البناء أو على ما الاستفهامية المخفوضة، يجب حذف ألفها عند ذلك أو على مبنى على حركة، وليس فعلا ماضيا، ولا اسم لا، ولا منادى، ولا قبل وبعد وما أُلحق بهما؛ جاز لك أن تقف على أواخر هذه الكلمات بالسكون، وجاز لك أن تجتلب هاء ساكنة تسمى: هاء السكت. إلا مع ما الاستفهامية المخفوضة بالاسم فإنه يجب، وإلا مع الفعل المحذوف اللام والفاء جميعًا فإنه يترجح، حتى قيل بوجوبه في المضارع، كلم يع ولم يق، ويجب في الأمر كقه وعه.

الأمر الثاني: من الأمور التي لا تخص بعض أنواع الكلمة الإبدال:

وهو جعل حرف مكان حرف جعلًا ملتزمًا، وسببه التخفيف ولطافة الألفاظ. والإبدال وإن سبق (التنبيه) عليه في كثير من المواضع، إلا أنه يحتاج لضبط واستيفاء؛ لتكون على بصيرة من أصول الألفاظ، وما آلت إليه إذ هو ركن عظيم من أركان الصرف.

الإبدال

اعلم أنه قد وقع الإبدال في لغة العرب على نوعين: نوع شائع مطرد في اللغات وهو المراد بالبيان والشرح في هذا الموضع. النوع الآخر: مختص ببعض اللغات يطلع عليه في كتب اللغة، وليس يحتاجه من يريد معرفة الفنون العربية، لأجل أن ينطق بالنطق الصحيح ويأمن الغلط في شائع الحديث، إذ المهم للطالب أن يعرف الأمور الكثيرة الاستعمال، التي تستوفي معظم أحوال الكلام.

ثم الأحرف التي يكون فيها التبادل تسعة يجمعها قولك: «هدأت موطيا». ومن هذه الأحرف ما يكون بدلًا عن غيره ويكون غيره بدلًا عنه كما ستطلع عليه إن شاء الله تعالى.

حرف الهاء: تكون بدلًا من تاء التأنيث في الوقف كما سلف بيانه، وربما نطقوا بها بدلًا من الهمزة، فقالوا في أراق الماء: هراق. وفي آتي: هاتي. وذلك مقصور على ما سمع منه.

حرف الهمزة: الهمزة تكون بدلًا عن غيرها على سبيل الوجوب في خمسة مواضع، وعلى سبيل الجواز في مواضع يأتي الإلمام بها.

الموضع الأول: من مواضع الوجوب الواو والياء إذا وقعتا طرفين بعد ألف زائدة وجب إبدالها همزة، نحو كساء من الكسوة، وسماء من السمو، ودعاء من دعوت، وظباء جمع ظبي، ودلاء جمع دلو.

الموضع الثاني: الواو والياء من اسم فاعل الفعل الأجوف، فإحداهما مبدلة ألفًا يجب إبدالهما همزة، كقال فهو قائل، وباع فهو بائع.

الموضع الثالث: المدة الثالثة الزائدة في المفرد إذا جمعته بصيغة منتهى الجموع، يجب إبدالها همزة، نحو: قلادة وقلائد، وصحيفة وصحائف، وعجوز وعجائز.

الموضع الرابع: إذا اجتمع في الكلمة وأوان، أو ياءان، أو ياء وواو، وجمعتها على صيغة منتهى الجموع، وجب إبدال الثانية منهما همزة، كالأوائل في جمع أول، والنيائف في جمع نيف، والسيائد في جمع سيد.

الموضوع الخامس: الواوان إذا اجتمعتا في أول الكلمة، وتحركت ثانيتهما أو سكنت وكانت أصلية وجب إبدال أولاهما همزة، فتقول في واصلة إذا صغرتها أُوَيْصِلة، وإذا جمعتها أواصل قال الشاعر:

ضربت صدرها إليّ وقالت يا عَدِيا لقد وقتك الأواقي

جمع واقية أي حافظة.

وتكون الهمزة على سبيل الجواز بدلًا من واو مضمومة ضمًّا لازمًا غير مشددة كوجوه وأجوه، ووقوت وأقوت، وأدور وأدؤر، وأنور وأنؤر في جمع دار ونار، وقؤول وصؤول صيغة مبالغة، من قال وصال. وصُؤول وغؤور، مصدري صال وغار. وخؤول جمع خال.

وكذلك تكون بدلا من ياء بعد ألف وقبل ياء مشددة كغائي في النسبة لغاية، ورائي في النسبة لراية.

وكذلك تكون بدلًا عن واو مكسورة في أول الكلمة، كإشاح وإفادة وإسادة، في وشاح ووفادة ووسادة.

وجاءت الهمزة بدلا من الهاء في ماء، لتصغيره على مُوَيه، وجمعهِ على أمواه.

تنبيه: إنما تبدل الهمزة من الواو والياء نطقًا، بعد ألف صيغة منتهى الجموع، إذا لم يكن لام الكلمة همزة أو واوًا أو ياء، وإلا نُطقت بالواو في جمع مثل هراوة، وبالياء في جمع مثل خطيئة وهدية ومطية، وتبدل لام الكلمة ألفًا فيها، فتقول: هراوا وهدايا وخطايا ومطايا. ذلك أمر لازم لا يصح النطق بغيره.

حرف الياء: تكون بدلًا عن الألف في موضعين:

الموضع الأول: إذا وقعت بعد كسرة، كما في جمع مصباح وقنطار على مصابيح وقناطير، وكما في تصغيرهما.

الموضع الثاني: إذا وقعت بعد ياء التصغير، كما في غزال وغُزيل.

وتكون بدلًا عن الواو في عشرة مواضع:

الموضع الأول: أن تقع متطرفة إثر كسرة، ولا يمنع من كونها طرفًا وقوع تاء التأنيث أو ألفه أو مدته، أو ألف ونون زائدتين بعدها نحو، رضي من الرضوان. وقوي من القوة، والغازي والداعي، من غزوت ودعوت.

الموضع الثاني: أن تقع عينًا لمصدر فعل أُعلت فيه، وقبلها كسرة وبعدها ألف، كصيام وقيام لصام وقام، وانقياد واعتياد من انقاد واعتاد.

الموضع الثالث: أن تقع عينًا لجمع قبلها كسرة وبعدها ألف إذا صحت في المفرد. فإذا أُعلت فيه لم يشترط الألف كديمة من الدوام، وقيمة من يقوم، وحيلة من يحول فجمعه ديم وقيم وحيل، وكحوض وثوب جمعه حياض وثياب. هذا إذا لم تعتل لام الكلمة، وإلا لم تبدل الواو ياء تقول في جمع جو جواء.

الموضع الرابع: أن تقع طرفًا رابعة فصاعدًا نحو: أعطيت وعاطيت وتعاطيت، وما تصرف منها.

الموضع الخامس: أن تقع ساكنة غير مشددة، إثر كسرة نحو: ميزان من الوزن، وميقات من الوقت، وإيصاء من الوصية.

الموضع السادس: أن تقع لامًا لوصف على وزن «فُعلى» بضم الفاء: كدُنيا من الدنو، وعُليا من العُلو.

وخالف أهل الحجاز في قصوى. وتميم يقولون: قُصيا على حكم القاعدة.

الموضع السابع: أن تجتمع مع الياء، ويكون السابق ساكنًا واجب الوجود في كلمة واحدة. كسيد من السؤدد، وعلى من العلو، وعُصي، وكطي من طويت، ولي من لويت، وطيان وليان.

الموضع الثامن: أن تقع لام مفعول لفعل مكسور العين، كرضي فهو مرضي.

الموضع التاسع: أن تقع لامًا لجمع على «فعول» كعصي ودُلي أصلهما عصوو ودلوو جمع عصا ودلو.

الموضع العاشر: أن تكون عينًا لجمع على «فُعَّل» ضم أوله وتشديد ثانيه كصيم ونيم. وذلك إبدال جائز والتصحيح أفصح كصوم ونوم.

حرف الواو: يكون بدلًا من الألف إذا اقتضى الحال ضم ما قبلها كبُويع مجهُول بايع، وضويرب مصغر ضارب.

ويكون بدلًا عن الياء في أربعة مواضع:

الموضع الأول: أن تقع بعد ضمة كمُوقن من اليقين، وموسر من اليسار، إلا إذا كانت الكلمة جمعًا لنحو: أبيض فإن الياء تبقى، ولأجلها تبذل الضمة كسرة، فتقول: بيض بكسر الباء.

الموضع الثاني: أن تقع لام كلمة بعد ضمة، مثل نهو من النهية، وقضو المحول من قضى يقضي للتعجب وإلحاقه بالطبائع.

الموضع الثالث: أن تقع لامًا لاسم على وزن «فَعْلى» بفتح الفاء كتقوى وفتوى.

الموضع الرابع: أن تقع عينًا لاسم على وزن «فُعْلى» بضم الفاء وما في حكم الاسم، وهي الصيغة التفضيلية كطُوبى من الطيب، والكُوسى من الكياسة.

حرف الألف: تكون الألف بدلًا عن الواو والياء إذا تحركتا تحركًا أصليًا، وانفتح ما قبلهما من كلمتهما وتحرك ما بعدهما إن كانتا غير لام كلمة، وإلا فالشرط أن لا يقع بعدهما ألف ولا ياء مشددة. ولا يبدلان إذا وقعتا عينًا في فعل الذي مصدره على فَعَل بفتحتين. وكذا في مصدره نحو: غيد غيدًا، وعور عورًا. ولا تبدل الواو إذا كانت عينًا لافتعل الدال

على التفاعل نحو: اجتوروا واشتورُوَا، واعتورُوَا. ولا يبدلان أيضًا إذا وقع بعدهما حرف أُعل بإعلاهما، كالهوى والجوى.

وكذلك إذا وقع بعدهما زيادة تخص الاسم، كالألف والنون من الجولان والطوفان والهيمان، والألف في نحو: صَوَرَى وحَيَدَى بفتحات.

حرف التاء: تكون التاء بدلًا من الواو والياء، إذا وقعتا فاء لصيغة افتعل.

نحو: اتقى، واتكل، واتسر. أصله أوتقى، وأوتكل، وابتسر.

حرف الطاء وحرف الدال: يكونان بدلًا من تاء الافتعال كما سبق تفصيله.

حرف الميم: يكون بدلًا من نون ساكنة، وقعت. قبل ياء.

الهمزة: إذا وقعت بعد همزة في آخر الكلمة قلبت ياء مطلقًا. ثم إن كان ما قبلها مفتوحًا قلبت ألفًا، وإن كان مضمومًا أو مكسورًا حذفت في غير النصب؛ إذا وقع بعدها ساكن لكون ما هي فيه صار منقوصًا. وإن كان ما قبلها ساكنًا بقيت ياء كما هو شأن مثلها.

وإذا كان الهمزتان في أول الكلمة؛ فإن سكنت ثانيتهما وجب إبدالها من جنس حركة السابقة. نحو: آثرت أُوثِر إيثارًا، وآمنت أُومِن إيمانًا. من الأثرة والأَمن.

وإن تحركت فإن كانت مضمومة أو مفتوحة بعد ضمة أو فتحة وجب قلبها واوًا. وإن كانت مكسورة أو مفتوحة بعد كسرة، وجب قلبها ياء.

وإذا كانت الهمزة الأولى همزة المضارع، تخيرت بين تحقيق الهمزة الثانية وبين قبلها على حُكم القاعدة، وعليك باستخراج الأمثلة ورعاية تفصيل الحكم فيما يرد عليك من الكلام. وإن كانت الهمزتان في أثناء الكلمة أُدغمت الأُولى في الثانية نحو: سآل ورآس ولآل.

فهذا تقريب ضوابط الإبدال الشائع في اللغة العربية، وهناك إبدالات تطلع عليها إذا توسعت في مطالعة كتب اللغة.

* * *

الأمر الثالث: نقل الحركات من مواضعها وحذف بعض حروف الكلمة متى تحركت الواو والياء، وكان ما قبلهما ساكنًا صحيحًا، ولم تكن الكلمة فعلًا تعجبيًا، ولا كأبيض وأسود، ولا مضارع لنحو: عَوَر، ولا اسم آلة كالمقود والمخياط نقلت حركتهما إلى الساكن قبلهما، وبقيتا ساكنتين سكونًا مرسلًا إن كان قبل الواو ضمة وقبل الياء كسرة، وإلا قلبتا ألفين نحو: يقول ويبيع، وأقام وأباع، واستقام واستباع.

وتحذف الألف من الإفعال والاستفعال، ويعوض منها تاء لازمة كما تقدم التنبيه عليه في باب المصدر، ويحذف لهذا الإعلال واو مفعول نحو: مصون ومبيع، بإبدال الضمة كسرة في نحو: مبيع.

* * *

الأمر الرابع: في الإدغام والفك: اعلم أنه إذا توالى حرفان من جنس واحد، كبائين، أو دالين في كلمة أو كلمتين، فهما موضع الفك والإدغام. واستيفاء الكلام في ذلك من وظيفة علم القراءات.

وإنما تكلم الصرفيون على المثلين في كلمة واحدة، حيث كان بحثهم عن أحوال المفردات، فوجب أن نسير مع القوم.

فنقول: إذا اجتمع المِثلان في كلمة فتارة يجب الفك، وتارة يجب الإدغام، وتارة يجوز كل منهما.

مواضع جوازهما: يجوز كل من الفك والإدغام في نحو: حيي من الحياة أو الحياء، وعيي أي عجز عن الإبانة فيجوز أن تقول: حيي وعيي وفي نحو: تتابع، فيجوز أن تقول: اتَّابع بجلب همزة الوصل. وفي نحو: استتر فيجوز أن تقول: سَتَّر بنقل الفتحة إلى السين. وكسر السين لغة، فيستغنى عن همزة الوصل. وفي المضارع الساكن الآخر الجزم أو الوقف، والفك لغة الحجاز، والإدغام لغة تميم. وبكلتيهما جاء (القرآن) وفي الأمر. وإذا أُدغمت في المضارع والأمر وجب تحريك ثاني الحرفين للتخلص، ويجب الفك في موازن «فُعَل» بضم ففتح كصُفَف وعُقَق. وفي موازن «فِعَل» بكسر ففتح مثل: كِلَل وحِبَبه. وفي موازن «فُعُل» بضمتين كذُلُل وسُرُر. وفي موازن «فَعَل» بفتحتين كملل ولبب ورددة، وفي صيغة إلحاقية كهيلل وجلبب وفي «فُعَّل» بضم أوله وفتح ثانيه مشددًا، نحو: جُسَّس في جمع جَاس.

وفي الأفعال الماضية إذا اتصلت بها الضمائر المرفوعة البارزة. نحو: حللتُ ومللتُ وصببت.

ويجب الإدغام في غير ذلك، فإن كان أول الحرفين ساكنًا فذاك. وإن كان متحركًا نقلت حركته للساكن قبله إن كان نحو: أزمة تشدّ وإلا حذفت كحلَّ وملَّ وصبَّ. وشذت العرب بالفك حيث يجب الإدغام، فقالوا: أَلِلَ

السقَاء يألَلُ. أي: فسَد، ودبَبَ زيدٌ يدببُ، أي نبتٌ الشعر في جبهته، وفي كلمات أُخر من الأفعال والأسماء نبهت عليها علماءُ اللغة.

مسألة: التاءان في أول المضارع إذا ابتدأت به، لا يجوز فيهما الإدغام كما لا يجوز في المتصدرين سوى ما سلف، ويكثر حذف إحدى تائي المضارع تخفيفًا نحو: تلظى وتيمموا، فإذا لم تُبتدأ بالمضارع جاز الإدغام، فلك فيه حينئذ ثلاثة أوجه تقول: لا تتردَّدَ ولا تردَّد، ولا تردَد.

مسألة: النون الساكنة ومنها «التنوين» لها خمسة أحوال:

الأول: إبدالها من جنس ما بعدها وإدغامها فيه بلا غنة. وذلك حيث تلاقى الراء واللام مثل: من ربهم، وأن لو.

الثاني: إبدالها من جنس ما بعدها وإدغامها فيه بغنة. والغنة: إخراج الصوت من الخيشوم في نوع ترنم. وذلك حيث تلاقى الميم والواو والياء إلا إذا لاقتهما في كلمة.

نحو: دُنيا وصِنوان، والإدغام بغنة حكمها إذا لقيت مثلها.

الثالث: إبدالها ميمًا مع غنة حيث تلاقي الباء كما مر.

الرابع: إظهارها حيث تلاقى حرفًا حلقيًا.

الخامس: إخفاؤها وهو حالة بين الإدغام والإظهار فيما عدا الحروف السابقة.

هذا: واعلم أن من وظيفة علم الصرف إبانة مخارج الحروف. أي مواضع خروجها وأوصافها لتعرف كيفية النطق بها، وقد وضع بعض

العلماء في ذلك رسائل مستقلة وسموه علم (تجويد القرآن)؛ لأن القارئ يلزمه شدة الحرص على إصابة النطق بحروفه. هذا وقد سبق إطلاعك على أن لكل حرف مخرجًا يخصه، ولكن العلماء مشوا مع الظاهر فشركوا بين الحروف في المخارج فلذلك عدوها سبعة عشر: أولها الجوف للألف وحرفي المدّ الآخرين، واعتبر الجوف أول المخارج؛ وجرى الترتيب على ما ترى؛ لأن الصوت قائم بالهواء الآخذ من الجوف إلى الخارج، ولو اعتبر وضع الإنسان وأن أوله رأسه كان أولها الشفتين، وثانيها أقصى الحلق للهمز والهاء.

وثالثها: وسطه للعين والحاء المهملتين.

ورابعها: أدناه للغين والخاء المعجمتين.

وهذه الأحرف الستة كما عرفت تسمى: الأحرف الحلقية.

وخامسها: ما يلي الحلق للقاف.

وسادسها: ما يلي ذلك للكاف وينسب الحرفان إلى اللهاة، التي هي الحد بين الحلق والحنك، فيقال: الحرفان اللهويان.

وسابعها: وسط اللسان وما فوقه من الحنك للجيم والشين والياء، وتسمى: الأحرف الشجرية. بسكون الجيم نسبة لشجر الحنك، وهو ما انفتح منه بين اللحيين.

وثامنها: إحدى حافتي اللسان مع ما يليها من الأضراس للضاد، وأكثر الناس يستعملون اليسرى، ومن قدر على استعمالها جميعًا يسمى

«أضبط». وكذلك كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ.

وتاسعها: حافة اللسان وما يليها واقعًا على الضاحك، والناب والرباعية والثنية للام، وهو أوسع الحروف مخرجًا، والثنية: إحدى الثنايا الأربع، وهي الأسنان الوسطى، اثنتان فوق واثنتان تحت، ويليها الرَّباعيات بفتح الراء وتخفيف الباء، ويليها الأنياب، ويليها من الأضراس الضواحك الأربعة، ويليها الطواحن الاثنا عشر، ويليها النواجذ المعروفة بأضراس العقل.

وعاشرها: ما يلي حافة اللسان واقعا على الثنيتين للنون الظاهرة.

والحادي عشر: طرف اللسان بين المخرجين السابقين للراء المهملة.

والثاني عشر: طرف اللسان منطبقًا على نِطع الحنك بكسر النون وسكون الطاء، وهو ما وراء الثنيتين الفوقيتين للطاء والدال والتاء، وتسمى لذلك: الأحرف النطعية.

والثالث عشر: طرف اللسان مما يلي الثنايا للصاد والزاي والسين، وتسمى: الأحرف الأسلية. نسبة لأسلة اللسان بفتح السين وهي طرقه.

والرابع عشر: طرف اللسان منطبقًا على طرف الثنيتين للظاء والذال، فالمخارج المنسوبة للسان اثنا عشر، وحروفها ثمانية عشر.

والخامس عشر: طرف الثنيتين موضوعًا على بطن الشفة السفلى للفاء.

والسادس عشر: الشفتان منفتحتين للواو، ومنطبقتين للميم والباء، فالأحرف الشفوية أربعة.

والسابع عشر: الخيشوم، وهو ما وراء الأنف إلى الرأس لغنة النون والميم، في نحو: لمّا وعمّا.

هذا: وأما أوصاف الحروف فهي: الهمس وحروفه يجمعها قول الجزري رحمه الله تعالى: «فحثه شخص سكت».

ويقابله الجهر، وحروفه ما عدا تلك الأحرف، فيقال: الحروف المهموسة والمجهورة لما في الأُولى من الخفاء بالنسبة للثانية، والشدة والرخاوة والتوسط؛ فالشديدة يجمعها قوله: «أجد قط بكت» والمتوسطة يجمعها قوله: «لن عمر» والرخوة ماعدا ذلك. والاستعلاء وأحرفه «خص ضغط قظ» ويقابله الاستفال والأطباق، وأحرفه: الصاد والطاء والضاد والظاء، ويقابله الانفتاح، ولا يخفاك مناسبة التسمية إذا تأملت عمل آلات النطق. والذلاقة وأحرفها: «فر من لب» ويقال: الأحرف الذلق. ويقابلها الإصمات، وهو المنع، قيل في وجه التسمية بالمصمتة: أنها ممنوعة من الانفراد أُصولًا في بنات الأربعة فما فوق؛ ولذلك حكموا بأعجمية لفظ «المسجد».

والصفير وأحرفه: الصاد والزاي والسين. والقلقلة، ويقال: اللقلقة وأحرفها: «قطب جد» فإذا سكنت هذه الأحرف ملت بها ميلًا خفيفًا نحو الفتحة.

واللين وحرفاه: الواو والياء إذا سكنتا، وانفتح ما قبلهما.

والانحراف وحرفاه: اللام والراء. ويقال لهما: المنحرفان.

قيل: ومن الصفات «التكرير» وحرفه الراء. ومعناه أنها قابلة للتكرير؛ لكونها يرتعد بها اللسان لا أنها تكرر في النطق، بل يجب الاحتراس منه.

والتفشي، وحرفه كما ذكره جميع المؤلفين الشين المعجمة. وقال بعضهم: أنه صفة الفاء والثاء المثلثة والضاد. وهو انتشار الهواء بالحرف واتساعه.

والاستطالة: وحرفها الضاد؛ لأنك إذا مكنتها في مخرجها وجدتها ممتدة زيادة عن سائر الحروف.

والتفخيم: وأحرفه المستعلية.

والترقيق: وحروفه المستفلة، وبعض الحروف كالراء واللام تارة يفخم، وتارة يرقق؛ كذكر، وفرعون، وصراط، وخير.

فهذه صفات الحروف التي يلزم المحافظة عليها سيما في تلاوة القرآن الشريف؛ لتكون ممتثلًا أمر الله تعالى في قوله:

﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [سورة المزمل: ٤] سواء قرأت بالترتيل وهو: التأني أو الحذر وهو العجلة، أو التدوير وهو التوسط. قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: «كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا قرأ تعد حروفه، لا كما تسردونه اليوم».

وينبغي للإنسان أن يروض آلات نطقه؛ لتكون ألفاظه بينة واضحة دون تكلف، حتى يخف على السمع ولا يمجه الطبع. وبالله التوفيق.

قسم النحو ومقدمته

قسم النحو

قبل المضي معك في تقرير المسائل النحوية، التي بإتقانها تعرف كيف كان فصحاء الأمة العربية ينطقون بلغتها، ولم كانت هيئات المركبات القرآنية على ما أنت واجدها عليه، لابد من دلالتك على السلوك الواصل بك في المدة اليسيرة إلى المنفعة التي هي غاية كل سعي وطلب لتلتزمه وتجتنب ما عداه، فتكون ممتثلا قوله – صلى الله عليه وسلم – : «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز». ومتحقق من إصابة قول القائل:

لما نافعٌ يسعَى اللبيب فلا تكن ... لشيءٍ بعيدٍ نَفعُه الدهرَ ساعِيًا

وذلك السلوك المنوه به والمدلول عليه، هو أن تجهد كل اجتهادك، وتصرف جميع همتك وقتًا ما في تخليص الأحكام، التي اشتملت عليها العلوم الآلية، من سواقط الشبهات وتناقض العبارات، حتى يسهل عليك ضبطها وجودة حفظها، ويتهيأ لك ملاحظتها متى شئت، حيث اعترفت أنها آلات وغيرها المقصود. قال أحد أكابر عقلاء الأمة: «وقدوة سائر الأمم في إخراج التاريخ عن كونه قصصًا وأحاديث يتعجب منها أو يضحك عليها، إلى جعله أكبر مرب للعقول، وأجل مظهر للإنسانية». (عبد الرحمن بن خلدون) رحمة الله تبارك وتعالى عليه.

اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين: علوم مقصودة بالذات؛ كالشرعيات من: التفسير، والحديث، والفقه، وعلم الكلام. وكالطبيعيات والإلاهيات من الفلسفة. وعلوم هي آلية ووسيلة

لهذه العلوم؛ كالعربية، والحساب وغيرها للشرعيات، وكالمنطق للفلسفة. وربما كان آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين.

فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها، وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار، فإن ذلك يزيد طالبها تمكنًا في ملكته، وإيضاحًا لمعانيها المقصودة.

وأما العلوم التي هي آلات لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالهما، فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط، ولا يوسع فيها الكلام، ولا تفرع فيها المسائل؛ فإن ذلك مخرج لها عن المقصود، إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير، فكلما أُخرجت عن ذلك خرجت عن المقصود، وصار الاشتغال بها لغوًا، مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها لطولها، وكثرة فروعها، وربما يكون ذلك عائقًا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول مسائلها، مع أن شأنها أهم، والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة، فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعًا للعمر، وشغلا بما لا يعني.

وهذا كما فعل المتأخرون بصناعة النحو والمنطق وأُصول الفقه، فإنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها، وأكثروا من التفاريع والاستدلالات، بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد، وربما يقع فيها أنظار لا حاجة بها في العلوم المقصودة، فهي من نوع اللغو وأنها مضرة بالمتعلمين على الإطلاق؛ لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها، فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل، فمتى يظفرون بالمقاصد؟

فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية، ألا يتبحروا في شأنها، وينبهوا المتعلم على الغرض منها، ويقفوا به عنده؛ فمن نزعت به همته إلى شيء من التوغل، فليرق له ما شاء من المراقي، صعبًا أو سهلًا، وكل ميسر لما خلق له.

وقال في موضع آخر: «كانت مدة التلميذ في تونس خمسة أعوام، وفي فاس ست عشرة سنة، وكانت المنفعة في أهل تونس كثيرة، والتقدم ظاهرًا. وأهل فاس على خلاف ذلك، وسببه أن علماء تونس جرت عادتهم أن يسلكوا بالتلامذة مسلك التعقل والتفهم لما تحفظوه، حتى إذا انقضت مدة التعلم، خرج التلميذ ومعه محصول معقول مفهوم يرشده إلى تحصيل ما لم يكن قد حصل له. ولا يعجز إلا عن بعض الأشياء بحيث متى ردد فكره، أو شارك بعض إخوانه فيما خفي عليه واستصعب، تجلى له وانقاد».

وأما أهل فاس فكانت عادتهم أن يأخذوا التلامذة بحفظ الكتب الطويلة، والعبارات العويصة، واللغات الحوشية دون تعقل، إلا أن يكون التعقل قهريًا بديهيًا أو شبيهًا به. وبما شرحناه من السبب وأشباهه تفاوت أهل الأمصار وأجيال الأعصار، في كثرة العلم وثباته وسرعة تحصيله، على ما كان من صعوبة المؤلفات وتقصيرها وكثرة أغلاطها، كما هو شأن الأمور المتجددة.

فبتلاحق الأفكار وتفاوت الأنظار واختلاف الأذواق، تسهل المؤلفات ويظهر الصواب، ويحصل الفائت، حتى تكون بمنزلة الثمار التي بدأ صلاحها وتم نضجها، فلسان حالها ينادي: تناولوني ولا تتركوني تتلفوني.

وينبهك على ذلك أنه لم يزل عمل المتأخرين؛ لما فيه من المحاسن، ينسخ عمل من سبق بهم الزمن.

ألا ترى إلى مؤلفات جمال الدين بن مالك، كيف أبطلت العمل بما سبق من التآليف، بل المتأخر من مؤلفاته أبطل العمل بالمتقدم منها وعلى ذلك القياس. وبالجملة؛ فقد تصفت العلوم وتهذبت وأمكنت من نفسها، فلا معطل عن سرعة تحصيلها إلا سوء طريقة التعليم والغفلة عن المعوقات التي يجب اجتنابها والحذر من الوقوع فيها؛ فمن المعوقات: المناقشة قبل فهم الأصل فربما تسمع المعلم يقول: قال المؤلف كذا وكذا، فقبل أن يفسر ألفاظه ويبين الغرض منه يقول: وفه شيء، أو بحث، أو إشكال، أو اعتراضات، إلى غير ذلك من الألفاظ. ومنها نقل عبارات الكتب الكبيرة في الكتب الصغيرة عند تفهمها، ويجمع الناقل تلك النقول في كتاب ويسميه حاشية، وربما صعب عليه نفسه بعض ما ينقله، فيكون التلميذ كمن يتعلم السباحة في نهر صغير؛ فيكلف أن يخرج إلى البحر يقطعه بالسباحة.

ومنها كثرة التأليف في الفن الواحد، وتكليف الطالب أن يقرأ جميع تلك المؤلفات، فإنه مع كونه تكرارًا مانع من تحصيل فن آخر: وربما كان سببًا لضياع الفن نفسه، فإن الطالب إذا تكرر استماعه للمسألة الواحدة مل وانصرف ذهنه عن الحضور. فلو فرضنا أن الكتاب الثاني والثالث والرابع كل يشتمل على أمر أو أمور لم يشتمل عليها الآخر، لم يكن ذلك مفيدًا، فإن نفس الطالب قد ملت وذهنه قد انصرف. وأشد من ذلك أن الكتاب له شرح، وللشرح شرح، ولشرح الشرح شرح، وهلم جرا.

يريد الشارح الأول أن يوضح الكتاب ويفتح مُقفله، فيعمد الشارح الثاني لإغلاقه ويزيده الثالث إغلاقًا. وبالجملة؛ فالطالب يقع من كثرة الشروح المستعملة في وقت واحد، في أمر عظيم، وورطة شديدة، وتستشعر نفسه اليأس من تحصيل العلم.

ومن المعوقات حمل المتعلم على التطبيق قبل المعرفة، فضلًا عن جودتها اللازمة لذلك. مثلًا يحضر المبتدئ الذي سمع كلمة النحو ليتعلمه، فقبل أن يعرف شيئًا ما من النحو يسمع الشيخ يقول: بسم الله، الباء حرف جر أصلي، ويشرع في تقرير الأصلي والزائد ونقل الخلافات، وتكثير الأوجه، بالعبارات الطويلة والاستدلالات الدقيقة، فالطالب الشديد الذكاء يحفظ تلك الألفاظ، ولا يتعقل لها معنى، ويبقى على ذلك مدة طويلة يقرأ فيها كتبًا عديدة، فبعد انقضاء سنوات يكون قد تحصل معه ألفاظ كثيرة وقد وصل لسن الاحتياج، تمييز النافع من غيره، فيبتدئ أن يتعقل المراد من تلك الألفاظ، ويكون ذلك الوقت أو طلبه ومعرفته.

وينقسم الطلبة حينئذ قسمين:

أحدهما: إنسان تذكر منفعة الاستكمال، فيأخذ في التفكر والتعلم بنفسه.

وآخر يقول: إني حصلت ملكة العلم، فأفهم الكتب وأُعلم الناس، وأكون في درجة الفضلاء.

فيذهب الأول صاعدًا، والثاني هابطًا، حتى يستويا.

فيجب ديانة وعقلًا تدارك هذا الخلل، واختيار أقرب الطرق ومثلاها؛ لتصل طلبة العلم إلى حقيقة المعرفة، ويعود لهم شرف العلماء، ويظهر عليهم رونق التهذب وجمال السيادة، ويكونوا قد حفظوا جوهرة العقل، التي ميزتهم من بين أنواع جنسهم، واستعملوها فيما خلقت لأجله، ويقتطف ثمرات الامتثال بالدخول في المخاطبين بقوله تعالى شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة المجادلة: ١١].

وقد آن أن نمضي معك في تقرير المسائل النحوية، على ترتيب الخلاصة لحسنه وعموم استعمالها، والانتفاع بها شرقًا وغربًا، منذ نظمها ابن مالك - رحمه الله تعالى- ؛ فلقد كان صادق النية، صحيح العزم، شديد الاجتهاد في تأييد الإسلام ونفع المسلمين، حتى أن الناس بعده أكثروا من نظم ألفيات مختلفة، وزادوا فيها على الخلاصة ولم يلتفت إليها فنقول: ينبغي أن نجعل الكلام في النحو منقسمًا إلى مقدمة وخمسة أقسام وخاتمة.

المقدمة

اعلم أن الإفراد جعل الشيء فردًا ليس معه آخر، ويقابله التزويج، وهو جعل الشيء زوجًا يقارنه زوج آخر. قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [سورة النساء: ١]، وقال تعالى:﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [سورة الذاريات: ٤٩].

ثم نقله النحويون كما هو شأن أكثر الألفاظ المستعملة في الفنون، فتارة يريدون بالمفرد ما ليس مركبًا من الألفاظ، وتارة يقابلون به المثنى والجمع، وتارة يقابلون به الجملة، وطورًا يقابلون به المضاف والشبيه به. وأن التركيب وضع الشيء على الشيء، ونقل إلى جمع كلمتين فأكثر بحيث يفيد الاجتماع معنى لم يكن قبل.

وقد عرفت أن موضوع النحو المركب، لكونه يبحث عن أحوال الكلمات حيث تكون أجزاء له من: الإعراب والبناء، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر. ولذلك تأخرت رتبته عما سبقه من العلوم العربية؛ لكونها تبحث عن المفردات. وضابط المفرد في هذا الموضع: ما يكون إعرابه واحدًا وإن كان قائمًا من كلمتين يفيا كل منهما معنى مثل: الرجل وفاطمة ومصري.

وضابط المركب: ما يتعدد فيه الإعراب، وإن كان معناه واحدًا كعبد الله، والإنسان الكامل علمين.

وعرفت أن الكلام، هو المركب التام المشتمل على النسبة التامة، التي شأنها أن تقصد إفادتها ويتلوها مقطع وفصل بينها وبين غيرها، سواء قصدت الإفادة بالفعل أم لا، وسواء زاحت جهالة وحصلت علمًا أم لا.

وإن كان الكلام لا عتد به ولا يعتبر، إلا إذا وافق الحكمة الأصلية في تشريف الخالق، نوعنا بمزية الكلام، وهي: الإفادة والاستفادة.

وشك أهل اللغة في تفسير الكلام، هل هو مساوق للقول والنطق، أو هو ما اكتفى بنفسه؟ ويستعمل موضع التكليم كما قال شاعرهم:

فإن تُمس ابنةَ السَّهمي منا بعيدًا ما تُكَلِّمُنَا كلامَا

وإطلاق الكلام على المعاني النفسية المتعرضة للعبارة عنها مجاز، وجعلها الأخطل هي الجديرة باسم الكلام، والأحق به حيث يقول:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جُعل اللسانُ على الفؤادِ دليلًا

وأراد الأخطل بهذا البيت الردع والزجر؛ لفريق، والتسلية، وتسكين الخاطر لفريق آخر.

وبيان ذلك أن بعض الناس إذا تجبر وعتا، وساءت أخلاقه، وقبحت أفعاله، وكان معه من القهر والسلاطة ما يحبس الألسن، فهو مشتوم بالضمير، ممقوت بالقلوب، متمني الزوال. وحسب امرئ جهلًا أن يعرف بُغض القلوب، وشحناء النفوس ويتمادى في غيه، وأن بعض الناس تحسن أحواله، وتطيب أفعاله وتملأ الرحمة قلبه، ثم يمنع خوف ضد غشوم من انطلاق الألسن بتقريظه، والثناء عليه، وبث فضائله، ولكن القلوب منطوية على حبه ناطقة بمدحه وشكره، فهو يقول: إن العبرة بالبواطن فعندها الحقائق.

وخص – النقل – الكلمة بالقول المفرد، وفي اللغة: تطلق على الجملة ومنه الكلمة الباقية، وهي كلمة الإخلاص، وعلى القصيدة يقولون مثلًا: قال امرؤ القيس في كلمته الفلانية. والكلمة بفتح الكاف وكسر اللام أو سكونها، وعليه تفتح الكاف، وتكسر ثم إنها بمعنى المفرد واحد الكلم، الذي هو اسم جنس جمعي موضوع؛ ليستعمل بالمشيئة عند الحاجة في جميع الألفاظ، وكل جماعة منها دون الاثنين، والواحد، ويذكر ويؤنث، ويفرق بينه وبين واحده بالتاء، كما هو شأن هذا النوع من الأسماء، فتقول: الكلم منه كلم طيب وكلم غير طيب.

وعرفت تنوع الكلم وتميز أنواعه الثلاثة بالحقائق، ويذكر لأجل التنوير على الطالب المبتدئ وإرشاده بمرشد محسوس خواص لكل نوع منها، فيقال له: إذا سمعت الكلمة مخفوضة الآخر نحو: بسم الله، أو منادي معناها مطلوب الإقبال بأحد الأحرف الموضوعة لذلك، أو مختومة بنون ساكنة تلفظ ولا تكتب ولا يكتب لها بدل غالبًا، أو مفتتحة بأل التعريفية أو مسندًا إليها أو مضافة أو مثناة أو مجموعة، فاعرف أنها اسم. وإذا رأيت الكلمة مصحوبة بتاء، نحو: أنا كتبتُ وأنتِ كتبتِ وهند كتبتْ. أو ياء نحو: تكتبين يا هند واقرئي، أو نون نحو ﴿ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا ﴾ [سورة يوسف: ٣٢]، و﴿ لَأَكِيدَنَّ ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٧]. و﴿ لَنَسْفَعًا ﴾ [سورة العلق: ١٥].

أو بقد في نحو: قد قامت الصلاة. وقد يعلم. أو بالسين في نحو: سيقول أو بسوف في نحو: ولسوف يعطيك. فاعرف أنها فعل.

وتعرف المضارع بدخول لم عليه في نحو: لم يكن، ولما في نحو: لما يذوقوا، واللام في نحو: لينفق، ولا في نحو: ولا تلقوا.

وتميز الماضي بتاء نحو: أنا كتبتُ، وهند كتبتْ.

وعلامة فعل الأمر: دلالته على الطلب، وتوكيه بنون التوكيد.

وهنالك ألفاظ تدل على معاني الأفعال، ولا تصحبها سمات الأفعال وعلاماتها يقال لها أسماء الأفعال؛ لأنها وضعت ليستغنى باستعمالها عن النطق بألفاظ الأفعال، وهي مثل أفعالها في التعدي واللزوم غالبًا فتقول: دراك زيدًا. كما تقول: أدركه، ونزال يا عمرو، وكما تقول: انزل.

ومن النادر لفظ: آمين. فلا تقول: آمين دعاءنا، كما تقول: استجب دعاءنا، وهي أيضًا مثل أفعالها في أن فاعل بعضها ضمير مستتر أبدًا، وبعضها يكون فاعله ضميرًا مستترًا تارة، وتارة، يكون اسمًا ظاهرًا، وبعضها في مقابلة أفعال ماضية، وبعضها في مقابلة أفعال مضارعة، وبعضها وهو الأكثر في مقابلة أفعال أمرية.

ثم إنها ثلاثة أقسام: قسم موضوع من أول أمر اسم فعل، وقسم نقل عن ظرف، وقسم نقل عن مصدر.

فمن الأول الماضي: هيهات أي بعد، وشتان أي افترق، وسرعان بفتحات، ووشكان بفتح فسكون أي أسرع، وبُطئان بضم فسكون أي أبطأ.

وللمضارع وي أي أتعجب، وأوّه أي أتوجع، وأف أي أتضجر، وبَخ بَخ بفتح باءيهما، وكسر الخاء في الأولى منونة أي استحسن وأتعجب ولأمر تيد بسكون بين فتحتين. «أي: ارفق»، وآمين أي استجب، وها أي خذ وتمد ويخاطب بها الواحد وغيره بلفظ واحد، وتتصل بها كاف الخطاب متصرفة تصرف الكاف الضمير، وتبدل الكاف همزة ومنه: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [سورة الحاقة: ١٩]. وهيتَ كتيدَ، وهِئتَ كشِئتَ، وهيا بفتح الهاء وكسرها وتشديد الياء، وهيت كبيت أي أسرع، وهلم أي أقبل، وحيهل مثل هلُمَّ، وينطق بحي وحدها، وتستعمل في استحثاث العقلاء، وتستعمل هل في استحثاث غيرهم غالبًا، ومن النادر:

ألا حييا ليلى وقولا لها: هلا.

ومهيم كمريم أي: أخبر. ومن المنقول عن ظرف: عليك زيدًا، أي ألزمه، وإليك، أي تأخر وإليّ أي أقبل، وعندك ودونك أي خذ، ومكانك أي اثبت ومن المنقول عن مصدر لم ينطق له بفعل: بله بسكون بين فتحتين.

قال كعب بن مالك الأنصاري في ذكر السيوف:

تذرُ الجماجمَ ضاحيًا هَاماتُها بَلهَ الأَكُفَّ كأنها لم تُخلَقِ

ومعناه: اترك. ورُويد مصغر ارواد، مصدر أرود. أي أمهِل تصغير ترخيم.

وبعض أسماء الأفعال قد ينونُ، وحينئذ يكون نكرة ويسمى تنوينه: تنوين التنكير مثلًا إذا أردت أن تنهى جليسك، عن حديث بعينه مُبيحًا له غيره قلت: صه دون تنوين ومعناها: اسكت السكوت المتعلق بهذا الحديث وحدث ما شئت. وإذا أردت أن تنهاه عن الحديث مطلقًا قلت: صهٍ بالتنوين. ومعناه: اسكت سكوتًا متعلقًا بكل حديث.

وعلى ذلك قياس ما يرد عليك من هذا النوع كمه ومهٍ. أي انكفف وإيه وإيهٍ أي زد في الحديث.

ومن أسماء الأفعال ما يقوم مقام جملة مثل: همهام، ومحماخ، وحمحام وبحباح بفتح فسكون ساكنة الأواخر، أي لم يبق شيء.

ويذكر مع أسماء الأفعال ألفاظ يقال لها: أسماء الأصوات وهي نوعان:

الأول: الألفاظ التي تخاطب بها الحيوانات مثل: هلا في زجر الخيل، وعدس في زجر البغال.

والثاني: الألفاظ التي تحكي بها الأصوات المسموعة من الحيوانات وغيرها كقولهم في حكاية صوت الغُراب: غاق غاقْ. وفي حكاية صوت الذباب: خَاز بَازْ. وفي حكاية صوت السيف في الضريبة: قَبْ قَبْ.

ومن أراد التوسع في معرفة أسماء الأفعال والأصوات، فعليه بكتب اللغة فإنها موضع ذلك، وإنما يذكرها النحوي لتنبيه المتعلمين، وحفظهم من اعتقاد كونها أفعالًا، حيث دلت دلالتها وأفادت معانيها.

[وبما أوردناه في هذا الموضع تستغنى عن وضع باب لأسماء الأفعال].

القسم الأول في الإعراب والبناء والمعرب والمبنى

الإعراب: كلمة مشتركة بين معان كثيرة منها: الإبانة والإظهار. وهو الأنس بالمعنى المنقول إليه، الذي هو الآثار المختلفة على آخر الكلمة المركبة، حسب اختلاف الاقتضاء؛ لتمييز المعاني المتعاقبة على الكلمة من الفاعلية والمفعولية وغيرهما.

والبناء: وضع حجر على حجر بلاصق بينهما؛ لحفظ الصورة المراد بقاؤها نقل إلى حالة آخر الكلمة اللازمة، التي لا تتبدل مع اختلاف المقتضيات.

أنواع الإعراب أربعة: رفع ونصب وخفض وجزم.

الرفع: ضمة وألف وواو ونون. يقال للضمة: أصل. وللأحرف الثلاثة: نائبة عنها.

والنصب: فتحة وألف وياء وكسرة وحذف نون كسابقه: أصل ونائب.
والخفض: كسرة وياء وفتحة كذلك.

والجزم: سكون وحذف حرف علة، وحذف نون أصل ونائبان.

والبناء أربعة أنواع: سكون وفتح وضم وكسر. وينوب عن السكون حذف حرف علة، وحذف نون. وينوب عن الفتح ياء وكسرة. وينوب عن الضم ألف، ولا ينوب عن الكسر شيء، وسيرد عليك مواضع ما ذكر فلتكن على ذُكر منه.

* * *

المبنى

المبنى موضع البناء: وهو جميع الحروف، وجميع الأفعال الماضية، وجميع الأفعال الأمرية، والفعل المضارع المتصل بإحدى نوني التوكيد، أو بنون الإناث.

ومن الأسماء: الضمائر، وأسماء الإشارة، وأسماء الاستفهام، وأسماء الشرط، وأسماء الأفعال، والأسماء الموصولة، والأعداد المركبة من أحد عشر إلى تسعة عشر، وما أجرى مجراها: كبيت بيت، وصباح مساء، وأول أول، ويوم يوم.

والمركبات المزجية المختومة بويه، واسم لا، والمنادى المفردان، وحيث وإذ وإذا، وباب قبل وبعد ويحسن، ولا يجب بناء أسماء الزمن المضافة إلى جُمل مُصدرة بمبنى.

ويجوز بناء كلمة غير ومثل وشبه إذا أُضيفت لمبنى، فما كان من المبنيات ساكنًا فهو ساكن أبدًا كلم ومن وكم، وكذلك المفتوح والمضموم والمكسور.

والفعل الماضي إذا اتصل بغير الألف والواو من الضمائر البارزة مبنى على السكون ومع الواو على الضم، وفي غير ذلك على الفتح ظاهرًا أو مقدرًا.

والأمر الصحيح الآخر في خطاب الواحد، وفي خطاب جماعة الإناث مبنى على السكون، وفي غير ذلك على حذف النون.

والمعتل الآخر بمنى بحذف حرف العلة في خطاب الواحد، وفي خطاب جماعة الإناث مبنى بالسكون، وفي غيرهما بحذف النون، والمتصل بإحدى نوني التوكيد مبنى على الفتح. والمضارع المتصل بإحداهما مبنى على الفتح، والمتصل بنون الإناث مبنى على السكون، وما كان من الأسماء على صورة المثنى مبنى على الألف في مواضع الرفع، وعلى الياء في مواضع النصب والخفض. ويبنى الذين الدال على الجماعة بالياء مطلقًا.

وجمع المؤنث السالم في موضع النصب حيث يستحق البناء مبنى على الكسر، والمعرب غير ما ذكر.

وحيث كان الغرض من الإعراب تمييز المعاني المتواردة على الكلمة، كان حق الأسماء أن لا يبني منها شيء، ولذلك نجد النحويين يلتمسون العلة لبناء ما بني منها فيقولون: إنما بنيت الضمائر لأمرين:

الأول: أن كثيرًا منها كائن من حرف أو حرفين، وتلك حال أكثر الحروف، وما زاد من الضمائر محمول على غيره، ويسمون ذلك بالشبه الوضعي.

والثاني: أن الضمائر أنواع كل نوع منها مختص بباب، فلم تتوارد عليها المعاني. مثلًا: التاء المضمومة في نحو: كتبتُ مختصة بالفاعلية، وكلمة أنا مختصة بالابتداء، وهكذا.

وبنيت أسماء الشرط لتضمنها معنى إن. وأسماء الاستفهام؛ لتضمنها معنى الهمزة.

وأم وأسماء الإشارة؛ لتضمنها معنى أل التعريفية.

ويمكن اعتبار ذلك في الضمائر أيضًا، ويسمون ذلك، الشبه المعنوي. وبنيت أسماء الأفعال؛ لأنها لا يؤثر فيها عامل لفظي، وهي مؤثرة في غيرها بسبب نيابتها عن الفعل، فأشبهت إن التي معناها أحقق، ولكن التي معناها استدرك، ويسمونه الشبه الاستعمالي.

وبُنيت الأسماء الموصولة، وحيث وإذ وإذا؛ لافتقارها في تحصيل عين المراد بها إلى ضميمة جملة، كما أن الحرف لا يتحصل معنها المراد إلا بضميمة، ويسمونه الشبه الافتقاري.

وبني العدد لركب وما أشبهه؛ لتضمنه معنى حرف العطف، وبُنيت قبل وبعدُ وقبيلهما؛ تضمنها معنى أل التعريفية.

وأثبت بعض النحويين موجبًا للبناء، وسماه: الشبه اللفظي، وجعل المبنى به لفظ لدى وعلى وعن والكاف حيث استعملت على وما بعدها أسماء، ولا ترد لفظة: إلى بمعنى النعمة مفرد الآلاء؛ لكونها مقصورة كالفتى والعصا، فكما تقول: فتلك وفتى بالألف والتنوين. تقول: ألاك وإلى فلم تشبه إلى الحرفية بخلاف لدى فإنها لا تنون، وإذا أضفتها قلت: لديك ولدينا، كما تقول: عليك وعلينا.

* * *

أصناف المعرب

الاسم المفرد وجمع التكسير المنصرفان الصحيحا الآخر، يرفعان بضمة ظاهرة، وينصبان بفتحة ظاهرة، ويخفضان بكسرة ظاهرة، وغير المنصرفين يخفضان بفتحة ظاهرة نيابة عن الكسرة.

والمعتلان بالألف تقدر فيهما الحركات الثلاث لامتناع تحريك الألف. والمعتلان بالياء المكسورة ما قبلها يقدر فيهما ماعدا الفتحة لثقل تحريكها بغيرها. والمعتلان غير المنصرفين تقدر فيهما الحركتان إلا فتحة النصب في المنقوص. ويقال مخفوض بفتحة مقدرة نيابة عن الكسرة.

المضاف إلى ياء المتكلم: تقدر فيه الحركات الثلاث؛ لاشتغال آخره بالكسرة المجلوبة لمناسبة الياء قبل جعل ذلك المضاف جزء كلام، فتعذرت ولم تمكن حركات الإعراب. وتقدر الحركات أيضًا في الجمل المجعولة أعلامًا، وفي الأعداد المركبة المسمى بها؛ إذا حكيتها ولم تعربها لفظًا لجواز الأمرين فيها.

أبوك وأخوك وحموها وفوه وذو جاه، مخرجة من حكم المفردات، فهي معربة بالواو رفعًا نيابة عن الضمة، وبالألف نصبًا نيابة عن الفتحة، وبالياء خفضًا نيابة عن الكسرة بشرط أن لا تصغر، ولا تجمع ولا تضاف للياء، ولا تثنى ولا تقطع عن الإضافة، وغلا أُعربت بالحركات أو بإعراب المثنى.

المثنى: إعرابه حرفان ألف مكسور ما بعدها نيابة عن الضمة، وياء ساكنة مفتوح ما قبلها مكسور ما بعدها نيابة عن الفتحة والكسرة، وأُلحق به اثنان واثنتان، وكلا وكلتا مضافتين لضمير وإلا فهما من المقصور.

جمع المذكر السالم: إعرابه حرفان ولو مضموم ما قبلها مفتوح ما بعدها نيابة عن الضمة، وياء ساكنة سكونًا مرسلًا مكسور ما قبلها مفتوح ما بعدها نيابة عن الفتحة والكسرة. وأُلحق به باب عشرين وألو جاه، وما شذوا بجمعه على هذه الصيغة، كأرضين وسنين وبابه من جمع كل كلمة ثلاثية حذفت لامها وعوض عنها تاء التأنيث، كعضين وعزين، وما سمي به من ذلك.

جمع المؤنث السالم: تنوب فيه الكسرة عن الفتحة، فإعرابه حركتان الفعل المضارع المعرب له أربعة أحوال: الأولى أن يكون صحيح الآخر غير متصل بأحد الضمائر الثلاثة التي هي: واو الجماعة، وألف الاثنين، وياء المخاطبة، وإعرابه إذن رفع بضمة ظاهرة، ونصب بفتحة ظاهرة، وجزم بسكون. الحالة الثانية: أن يكون معتل الآخر بالألف، فيرفع بضمة مقدرة، وينصب بفتحة مقدرة، ويجزم بحذف الألف نيابة عن السكون.

الحالة الثالثة: أن يكون معتل الآخر بالواو أو الياء، فيرفع بضمة مقدرة لثقل تحريكهما بها، وينصب بفتحة ظاهرة لخفته، ويجزم بحذفها نيابة عن السكون. الحالة الرابعة: أن يتصل بأحد الضامئر الثلاثة، فيرفع بالنون نيابة عن الضمة، وينصب ويجزم بحذفها نيابة عن الفتحة والسكون، وهذه فائدة تلك النون.

هذا ولقائل أن يقول: إنك قلتم أن الغرض من الإعراب تمييز المعاني المتواردة على الكلمة. وكيف يحصل ذلك مع نيابة حركة عن حركة، وحرف واحد عن حركتين، ومع كون الإعراب تقديريًا؟

فيقال له: إن الإنسان ينشأ خالي الذهن مطبوعًا فيه حب المعرفة، لكن في أول أمره يكون مشغولًا بالمحسوسات، فرحًا بالاطلاع عليها، طالبًا لمعرفة أسمائها دون أن يسري في المعقولات، فينبغي كما تقتضي الحكمة أن يكون تعريفه في هذه الحالة بأمور ظاهرة وعلامات محسوسة.

فإذا انتقل عن هذه الحالة، وتراسخت عنده المعاني، وصار موكولًا إلى تعقله، أُحيل في المعرفة على إدراك ارتباط الكلمات في التراكيب، واستغنى بذلك عن العلامات الظاهرة والتمييز بها.

القسم الثاني في الجملة الاسمية

الجملة الاسمية: هي المصدرة بالاسم. ويقال لأحد جزأيها: مبتدأ، وللجزء الآخر: خبر. نحو: العلم نافع، والأدب حسن. فالعلم والأدب مبتدءان، ونافع وحسن خبران.

المبتدأ قسمان: مبتدأ حقيقة وصورة، ومبتدأ صورة فعل حقيقة.

ويسمى القسم الأول: المبتدأ ذا الخبر، ويسمى القسم الثاني: المبتدأ ذا المرفوع المغني عن الخبر.

بيان المبتدأ ذي الخبر: هو اسم ظاهر صريح أو مؤول، أو ضمير يلحظ العقل معناه أولًا؛ ليحكم عليه بحال من أحواله، أو بحال من أحوال متعلقة.

فالاسم الصريح نحو: زيد قائمٌ، والزيدان قائمان، والزيدون قائمون، والرجال قوم، وهند قائمة، والهندان قائمتان، والهندات قائمات، والهنود قوم، والفتى حاضر، وغلامي شاهد، والقاضي حاكم.

والاسم المؤول نحو قوله تعالى: (وأن تصوموا خير لكم) [سورة البقرة: ١٨٤]. وما تقرأ العلم حسن، ومعتقدي أنك فاضل.

وأما الضمير، فهو: أنا قائم، ونحن قائمان وقائمون، وأنت قائم، وأنتِ قائمة، وأنتما قائمان أو قائمتان، وأنتم قائمون، وأنتن قائمات، وهو قائم، وهي قائمة، وهما قائمان أو قائمتان، وهم قائمون، وهن قائمات.

وهذه الضمائر تسمى: ضمائر الرفع المنفصلة؛ لأنها لا تقع إلا مبتدأ أو فاعلًا أو نائبًا عن الفاعل والكل مرفوع.

وفي اللغة العربية ضمير يسمى: ضمير الشأن أو القصة، وهو ضمير غائب أو غائبة لا يتقدم له مرجع، بل يكون عبارة عن مضمون جملة تذكر بعده وتسمى: مفسرة الضمير.

وذلك إنما يستعمل في الأخبار الخطيرة نحو: هو الله أحد، فلفظ هو ضمير غائب لم يتقدم له مرجع، بل هو عبارة عن مضمون الجملة بعده وهي: الله أحد فهي مفسرته، ونحو: هي النفس ما حملتها تتحمل.

يؤتى بهذا الضمير مذكرًا ويسمى: ضمير الشأن إن كان عمدة الجملة بعده مذكرًا، ويؤتى به مؤنثًا ويسمى: ضمير القصة إن كان عمدتها مؤنثًا.

فالمبتدأ ذو الخبر: اسم صريح ظاهر أو اسم مؤول، أو ضمير معتاد، أو ضمير شأن. وهذا القسم يجب أن يطابقه المرفوع الذي منه، وهو خبره إفرادًا وتثنية وجمعًا وتأنيثًا وتذكيرًا، كما سبق في الأمثلة، فلا يجوز أن يقال: الزيدان قائم مثلًا، بل قائمان.

* * *

بيان المبتدأ ذي المرفوع المغني عن الخبر

هو كل اسم فاعل أو اسم مفعول ولو تأويلًا نُفي أو استفهم عنه نحو: ما قائم الزيدان، وما مضروب العمران، وأذاهب أخوك، وهل أسد هو، ولا مؤدب غلاماك، وغير ضائع عمل مخلص.

و: غيرُ مأسوفٍ على زمنٍ ... ينقضِي بالهمِّ والحزَنِ

و: غيرُ لاهٍ عِداك فاطر اللهوَ ولا تغترِرْ بعارض سلِم

ولا قائمٌ إلا زيدٌ. وهذا القسم يقال في إعرابه: الوصف مبتدأ والمرفوع بعده فاعله أغنى عن الخبر ونائب فاعله كذلك ما لم يخرج إلى باب آخر، وإلا سمى بالاسم الذي له في ذلك الباب، لكن إذا كان النافي اسمًا جعل هو المبتدأ وأُضيف للوصف. وشرط تعين هذا الإعراب في هذا القسم: أن لا يشتمل الوصف على علامة تثنية، أو علامة جمع؛ لأن الوصف حينئذ عومل لفظه معاملة الفعل، فأسند للمثنى والجمع، وهو بصورة واحدة كما أن معناه معنى الفعل، إذ عرفت أنه فعل حقيقة واسم صورة، فلا يصح أن يكون خبرًا مقدمًا والمرفوع مبتدأ مؤخرًا؛ لعدم التطابق الواجب بين المبتدأ ذي الخبر وخبره، فلو طابق الوصف المرفوع في التثنية والجمع على حد المثنى، تعين أن يكون الوصف خبرًا مقدمًا والمرفوع مبتدأ مؤخرًا؛ لوجود شرطه وهو التطابق، ولعدم إجراء لفظ الوصف مجرى الفعل، حيث كان فيه علامة التثنية، وعلامة الجمع، إذ الفعل يجب تجريده من العلامتين عند إسناده لغير المفرد، وفي غير موضعي تعين أحد الإعرابين يجوز كلاهما.

فللوصف المنفي أو المستفهم عنه مع المرفوع بعده ثلاث حالات: تعين الابتداء والفاعلية، وتعين الخبرية والابتداء، وجواز الأمرين.

فلو جاء الوصف بعد المرفوع، أو لم يكن منفيًا ولا مستفهمًا عنه وجب المطابقة بينه وبين المرفوع، وكان من القسم الأول.

واعلم أن من تراكيب هذا القسم كلمة التوحيد، كما أشار إليه الزمخشري حيث قال: الأصل الله إله فقدم وأخر. وبيانه أن مثل هذا

التركيب يقال له: عبارة القصر والتخصيص. ومفاده حكم إجمالي يتفصل إلى حكمين: إثبات، ونفي. فنقول: لا إله إلا الله. أصله: الله إله، وغيره ليس بإله، فإذا أردت تحويله إلى عبارة الاستثناء قلت: لا شيء إله إلا الله، أو لا إله شيء إلا الله على أن يكون التركيب من القسم الأول، أو من القسم الثاني، لكن الموجود معنا في عبارة القصر: لا إله فتعين أن يكون من القسم الثاني، فالمحذوف المستثنى منه هو المرفوع بكلمة إله. وذلك أنه ملحوظ في معناها الفاعل بالقدرة عن إرادته التابعة لعلمه، فهو مثل: لا أسد إلا زيد. فالمعنى لا فاعل شيء من الأشياء الموجودة إلا الله، فيكون هدمًا قريبًا لمعتقدات الباطل.

* * *

بيان الخبر

الخبر: ما يلحظ العقل معناه ثانيًا ليحكم به على المبتدأ، أو ليفسره ويبين المراد به. وهو قسمان: خبر حقيقي، وخبر سببي.

فالحقيقي: ما يكون حالًا من أحوال المبتدأ المنتسبة له نسبة الفاعلية، أو نسبة المفعولية أو مبينًا لحقيقته نحو: زيد قائم ومُكرم، وزيد أكرمُ أو أكرمُ وأكرمه عمرو. وهذا القنديل ذهب.

والسببي: ما يكون حالًا من أحوال شيء له تعلق بالمبتدأ فيكون الخبر منتسبًا لذلك المتعلق، لكن لكون الحال حال متعلق بالمبتدأ يخبر بها عنه، نحو: زيد قائم أبوه، وركبت فرسه، وجلس في داره. ثم الخبر يكون مفردًا جامدًا غير مؤول بمشتق، فلا يكون مشتملًا على ضمير نحو: هذا القنديل زجاج، وهذا الخاتم حديد. ويكون مفردًا مشتقًا فيكون مشتملًا على

ضمير مستتر يعود للمبتدأ إن لم يرفع ظاهرًا، ولا ضمير منفصلًا نحو: زيد قائم. تلحظ في قائم معنى هو، وهند قائمة تلحظ معنى هي، والزيدان قائمان تلحظ معنى هما وهكذا.

ويكون مفردًا جامدًا مؤولًا بمشتق، فيشتمل على ضمير كذلك نحو: زيد أسد، وعمور ذئب، وخالد سيف، إذ المعنى شجاع يشبه الأسد، وختال يشبه الذئب، وصارم ماض يشبه السيف. ويكون: جملة فعلية ماضوية، أو مضارعية أو أمرية، وجملة اسمية، ولابد أن تشتمل على ضمير المبتدأ ليربطها به ويعين أنها خبره، ويكون مذكورًا أو محذوفًا يدل الكلام عليه نحو: زيد جاء، وعمرو ذهب أبوه، وخالد يتكلم، وبكر اضربهن وحسن غلامه ظريف، والسمن منوان بدرهم أي: منوان منه، ويدل الكلام عليه.

والمذكور: مستتر وبارز، كما رأيت. فالخبر: مفرد أو جملة. وجميع المشتقات إن كان الملحوظ فيها المعنى الوصفي، لا تكون إلا أخبارًا أو مبتدآت صورية. وإذا كان الملحوظ فيها الموصوف كانت مبتدآت حقيقية، وكانت أخبارًا فنحو: زيد ضارب. معناه يضرب أو سيضرب، فضارب بهذا المعنى لا يكون مبتدأ حقيقيًا؛ لأن الملحوظ فيه المعنى الوصفي، فهو بمنزلة الفعل الذي لا يكون إلا مسندًا، ونحو: ضارب زيد هو ضارب عمرو معناه الشخص الذي ضرب زيدًا هو الشخص الذي ضرب عمرًا، فضارب هنا مبتدأ حقيقي وخبر؛ لأن الملحوظ فيه الموصوف، فهو بمنزلة الموصول الذي يكون مسندًا ومسندًا إليه، ونحو: السفر الحميد في يوم الاثنين، والسير الرفيق في الأرض السهلة، وزيد في الدار وعمرو عند خالد. من كل اسم من أسماء الأعيان الجواهر، أو

أسماء المعاني الأعراض أخبر عنه بالكون والحصول من غير اعتبار حال خاصة في مكان أو زمان مختصين جملة تامة مركبة من مبتدأ وخبر؛ لكن اللغة التزمت أن تحذف منها شيئًا؛ لأنه يقرب جدًا فهمه من نفس الكلام، فنحو: زيد في الدار. على معنى زيد حاصل أو كائن أو ثابت، إلى غير ذلك من الأفعال العامة أو حصل أو كان، أو يحصل أو يكون حسبما تريد من الأزمنة، فإذا لاحظت حاصل ونحوه كان من قبيل الخبر المفرد، وإذا لاحظت حصل أو يحصل كان من قبيل الخبر الجملة، لكن ليس لك أن نطق به، بل عليك أن تلاحظه فقط، لكن أسماء الأعيان الجواهر لا يفيد الإخبار عنها بالكون والحصول في الأزمنة مثلًا إذا قلت: زيد يوم الخميس أو عمرو في شهر العيد. لم يكن مفيدًا فائدة مطلوبة، فيكون كلامًا غير معتد به. نعم: قد يفيدكما تقول للناسي أو الغاوي: نحن في شهر رمضان. لكن الفائدة حينئذ ليست من مجرد الإخبار بالكون في الزمان، بل مما يستتبعه الكلام، إذ معنى: نحن في شهر رمضان تذكر فلا تأكل ولا تشرب، أو احترم الشهر المعظم، فلا تفسق ولا تفجر، واعتبر مثل ذلك. وقد تكون الأعيان مرتبطة بالأزمنة تحدث وتزول متجددة فتشبه المعاني، التي وضعها وفطرتها على التجدد والتقضي بالارتباط بالأزمنة التي شأنها ذلك، فيكون الإخبار عنها بالحصول في الزمن مفيدًا، كما تقول: الهلال الليلة أي يكون، والورد في شهر من السنة أي يحصل، والرطب شهرين. ومنه: اليوم خمر وغدًا أمر. فاسم المعنى يخبر عنه بالكون في المكان، ويخبر عنه بالكون في الزمان. واسم العين يخبر عنه بالكون في المكان، ولا يخبر عنه بالكون في الزمان إلا حيث الإفادة كما رأيت والاعتماد على حصول الفائدة، فمتى حصلت كان الكلام معتدًا به، ومتى لم تحصل كان من لغو القول. وإذا توالى مبتدآن مذكران أو مؤنثان،

وأُخبر عن ثانيهما بحال أولهما بحيث تكون الحال منتسبة للأول نسبة قوية كنسبة الفاعلية، ومنتسبة للثاني نسبة ضعيفة كنسبة المفعولية، فتكون الحال حال الأول وصفته بسبب قوة نسبتها إليه ويصح الإخبار بها عن الثاني؛ لكونها منتسبة إليه نحو: أزيد عمرو ضاربه أو ضربه أو يضربه، لا فرق بين الفعل وغيره. ونحو: هند دعد ضاربتها أو مضروبتها، فزيد مبتدأ وعمرو مبتدأ ثان، وكذا هند ودعد، فإذا أردت أن الضرب حاصل من زيد وهند واقع بعمرو ودعد، فقد أخبرت عن ثان المبتدأين بحال أولهما وهذه إرادتك ونيتك، لكن الكلام يأبى بظاهره أن يفيد ذلك، إذ المتبادر للفهم أن يكون الخبر صفة المخبر عنه وحاله، فيكون القريب للفهم أن فاعل الضرب عمرو ودعد ومفعوله زيد وهند. فالملخص من ذلك أن تأتي بدل الضمير الذي كان واجب الاتصال والاستتار بضمير منفصل مؤخر؛ لأجل أن يدل ذلك على أن الحال التي أخبر بها عن الثاني ليست له، بل هي حال الأول فتقول: زيد عمرو ضاربه هو وضربه هو، وهند دعد ضاربتها هي أو ضربتها هي إلى غير ذلك.

فإذا كان المبتدآن مختلفين تذكيرًا وتأنيثًا نحو: هند زيد ضاربته. وزيد هند ضاربها، كنت مستغنيًا عن فصل الضمير لظهور المراد بالاختلاف، وأن الصفة للمبتدأ الأول بعلامة التذكير والتأنيث.

وحيث كان الغرض من إعطاء النوع الإنساني قوة النطق أن يفيد المتكلم بكلام سامعه فائدة لم تكن عنده، كان تكلمه بما يعرف أن مخاطبه عارف به ضائعًا لغوًا لا يعتد به نحو: السماء فوقنا، والأرض تحتنا، والنار حارة، والنخل طويلة، ورجل جاء، ودار في البلد وهذا الغلام قائم، وهذا الفرس ياكل، لمن يبصر ذلك. هذا وقد سبق لك أن

الأسماء: إما مُعينة لأشخاص، وإما مُعينة لأجناس. وأن الأسماء المعينة للأجناس إما أن يراد بها أنفس الأجناس، وإما أن يراد بها جميع أفراد الأجناس، وإما أن يراد بها بعض منها معين بواسطة عهد أو حضور أو بعض مبهم، وذلك بحسب الأحكام التي تريد إفادتها.

فأحكام الأشخاص غير أحكام الأجناس، وأحكام الأجناس غير أحكام جميع الأفراد وهكذا. مثلًا: إذا أردت أن تجعل زيدًا مبتدأ كان المحكوم عليه الشخص المسمى بزيد، وإذن تحكم عليه بحالة التي تعرفها له وتريد أن تفيدها من يجهلها، فتقول: زيد كاتب، وعمرو شاعر. وهكذا كل لفظ تريد به شخصًا بعينه نحو: هذا الغلام طبيب، والذي هو قائم بين يديك يتكلم بكثير من الألسنة.

وإذا أردت أن تجعل لفظ الإنسان مثلًا مزيدًا به نفس الجنس مبتدأ كان المحكوم عليه نفس جنس الإنسان من غير اعتبار أفراده رأسًا، وإذن تحكم عليه بالأحوال الثابتة للأجناس، فتقول: الإنسان نوع شريف بفكره ونطقه، والحيوان منه متفكر ومنه غير متفكر، فأمثال هذا يكون المراد فيها نفس الجنس، إذ لا يصح أن تقول: كل فرد من أفراد الإنسان نوع، ولا بعض الأفراد ولا كل حيوان منه متفكر، ومنه غير متفكر، ولا بعض الأفراد.

وإذا أردت أن تجعل اسم الجنس كالإنسان والحيوان والغائب والشاهد مريدًا به جميع الأفراد مبتدأ، كان المحكوم عليه كل فرد، فتخبر بالأحوال العامة لكل واحد واحد، فتقول: الحيوان متنفس متيقظ نائم يصح ويمرض، إذ يصح أن تقول: كل حيوان كذلك، وضابط ما يراد به جميع الأفراد صحة وضع كل معه نحو: الغائب والشاهد معلومان لله،

يصح أن تقول: كل غائب وشاهد. وضابط ما يراد به نفس الجنس أن لا يصح وضع كل معه نحو: النخل منه طويل، ومنه قصير ومنه متوسط لا يصح أن تقول: كل نخل. وإذا أردت أن تجعل اسم الجنس مرادًا به واحدًا ما مبتدأ، أخبرت بالأحوال التي تحصل بأي واحد من أفراد الجنس، كقول عمر حين استفتى في فدية الجرادة على قاتلها في الحج، فأفتى بالتصديق بتمرة؛ فرأى بعض الناس يقلل ذلك تمرة خير من جرادة؛ فواحد من آحاد جنس التمر يصلح للفدية، وهو خير من الجرادة.

فتلخص أن المحكوم عليه الذي تجعل اسمه مبتدأ، وهو ما يقتضيه الحال من واحد معين أو غير معين، ومن نفس جنس أو جميع أفراده، وإنما المدار على حصول الفائدة، وحيث كان المبتدأ محكومًا عليه موصوفًا، وكان الخبر محكومًا به صفة، كان المناسب أن يقدم المبتدأ في النطق، لكن أجازت اللغة تقديم الخبر فيه حيث لم يحصل اختلال، فإذا حصل اختلال بتقديم الخبر وجب تأخيره وإلزامه موضعه، وإذا حصل اختلال بتقديم المتبدأ وجب تأخيره وإزالته عن موضعه، والاختلال الذي يحصل من ذلك فساد في المعنى الذي تريد أن تفيده، وقد استقرئت المواضع التي يحصل فيها فساد المعنى بتأخير المبتدأ عن الخبر فوجدت خمسة، والمواضع التي يحصل فيها فساد المعنى بتأخير الخبر عن المبتدأ فوجدت خمسة أيضًا، فأحوال المبتدأ مع الخبر ثلاثة: جواز التقديم والتأخير، وجوب التقديم، وجوب التأخير.

* * *

مواضع وجوب تقدم المبتدأ

الأول: كل جملة مركبة من كلمتين تصلح كل منهما؛ لأن تكون مبتدأ ولأن تكون خبرا، فلا يتعين المبتدأ لكونه مبتدأ ولا يتعين الخبر لكونه خبرًا، إلا بالرتبة بجعل المبتدأ أولًا في اللفظ والخبر آخرًا فيه، حتى يتبين كون الأول محكومًا عليه والثاني محكومًا به، فيفيد التركيب المعنى المراد، فلو عكست لتبادر إلى الفهم بحسب هذا الأصل المقرر أن المقدم مبتدأ محكوم عليه، والمؤخر خبر محكوم به ويفيد التركيب حينئذ معنى غير المقصود مثلًا تخاطب إنسانًا بقولك: عدوى حبيبك. فهذا القول جملة مركبة من كلمتين تصلح كل منهما لكونها مبتدأ وكونها خبرًا فعدوى مبتدأ أو حبيبك خبرهن ولو قلت: حبيبك عدوى كان حبيبك مبتدأ وعدوى خبرًا. ولكل من التركيبين معنى يخالف معنى الآخر، فمعنى قولك: عدوى حبيبك أن الشخص الذي أُعاديه تحبه أنت فأنت عدوى؛ لأن محب العدو عدو. فالخلاصة: أنك تريد بهذا التركيب أن ترى مخاطبك، الذي يدعى حبك والصداقة لك بالكذب في دعواه واتصافه بضدها.

ومعنى حبيبك عدوى: أن الشخص الذي تحبه أنت أُعاديه أنا فأنا أبغضك وأكرهك؛ فخلاصة الأمر من هذا التركيب: أن المتكلم يريد أن يبعد المخاطب عن نفسه ويصده عن وداده ويعرفه أنه مكروه له؛ فهذان معنيان مختلفان كل منهما مخصوص بتركيب من التركيبتين، ولا يستفاد أحدهما إلا بتعيين المحكوم عليه وتعيين المحكوم به، وذلك لا يحصل

إلا بتقديم المبتدأ وتأخير الخبر فوجبا، فلو نطقت بأحد التركيبتين مريدًا به معنى التركيب الآخر كنت مخطئًا إذا لم تفد مرادك لمخاطبك.

وهذا المعنى هو الذي يعبر عنه النحويون بالإلباس، الذي يجب اجتنابه فالإلباس في الكلام كونه يتبادر منه خلاف المراد به، ونظير: عدوى حبيبك. أفضل مني أفضل منك. حيث تريد الاستعلاء على مخاطبك، وأفضل منك أفضل مني. حيث تريد الاستدناء عنه، فإذا لم تصلح كل من الكلمتين لأن تكون مبتد أو لن تكون خبرًا، بل تتعين إحداهما لأحدهما، والأخرى لآخر، لم يجب التقديم والتأخير، بل كان على أصل الجواز مثلًا إذا أردت أن تلحق صغيرًا معلومًا أنه الصغير بكبير معلوم أنه الكبير على وجه التشبيه بإسقاط أداة التشبيه للمبالغة في الإلحاق، كما تقول: أبو يوسف أبو حنيفة على معنى أن ابا يسوف التلميذ مثل أبي حنيفة الشيخ، فتسقط لفظة مثل وتجعل الكلام مبتدأ وخبرًا بلا واسطة، فتقول: أبو يوسف أبو حنيفة. فيعلم أن المحكوم عليه بالمشابهة واللحوق هو: أبو يوسف، فهو متعين لكونه مبتدأ فلو قدم أو أخر لم يختل المعنى، ومن هذا قول الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنُوهن أبناءُ الرجال الأباعدِ

الموضع الثاني:

كل جملة يكون خبر مبتدئها جملة فعلية فاعل فعلها ضمير مستتر. نحو كل إنسان لا يبلغ حقيقة الشكر. فيجب في مثل هذه الجملة تقديم المبتدأ، إذ لو أخرته لتبادر كونه فاعلًا ويختلف المعنى، إذ معنى كل إنسان لا يبلغ ـ نفي البلوغ عن جميع أفراد الإنسان، ومعنى لا يبلغ كل إنسان نفي الكون للكل؛ فيحتمل النفي عن الجميع، ويحتمل النفي عن

البعض والإثبات للبعض، ويتعين الحمل عليه ما لم تقم قرينة على خلافه؛ لأنه القدر المتيقن، وتلك العبارة يعدها المنطقي من أسوار الجزئية؛ لأنه لا يعتبر غير المتقين، والغرض النص على نفي البلوغ عن الجميع، وذلك على جعل كل إنسان مبتدأ فيجب تقديمه لذلك، فلو كان فاعل الفعل اسمًا ظاهرًا أو ضميرًا بارزًا نحو: زيد قام أبوه، وزيد قاما أخواه، وزيد قاموا إخواته. جاز تأخير المبتدأ إذ لا يتبادر كونه فاعلًا لاستيفاء الفعل فاعله ظاهرًا.

الموضع الثالث:

كل جملة تريد أن تقصر معنى مبتدئها على معنى خبرها، ويسمى قصر الموصوف على الصفة ردًّا على من زعم اتصافه بغير المذكور ويسمى: قصر قلب، أو زعم اتصافه بالمذكور وغيره ويسمى: قصر إفراد، أو قطعًا لشك من تردد في اتصافه بالمذكور وغيره ويسمى: قصر تعيين. والقصر حكم إجمالي يتضمن حكمين أحدهما: إثبات المذكور. والثاني: نفي غيره. نحو: إنما زيد كاتب. معناه زيد مقصور على الاتصاف بالكتابة ليس متصفًا بغيرها لا وحده ولا معها، وما زيد إلا شاعر، أي: مقصور على الاتصاف بالشعر، فلو أخرت المبتدأ فقلت: إنما قائم زيد لتبادر كونه من قصر معنى الخبر على معنى المبتدأ، ويسمى: قصر الصفة على الموصوف، فيكون المعنى أن القيام ثابت لزيد لا لعمرو وحده أو مع زيد، فلو كان مرادك هذا المعنى كان التركيب من المواضع التي يجب فيها تقديم الخبر كما سيأتي.

الموضع الرابع:

كل جملة أجريت مبتدأها مجرى الشرط وخبرها مجرى الجزاء؛ فأدخلت الفاء بينهما. وذلك إذا كان المبتدأ اسمًا موصولًا بجملة استقبالية أو موصوفًا به أو مضافًا لأحدهما، أو نكرة موصوفة بجملة استقبالية، أو مضافًا إليها. نحو. الذي يدلني على مطلوبي فله دينار، والرجل الذي يطيع الله فله الجنة، وغلام الذي يعقل الأمور فهو مؤدب، ورجل يصدقني أو كل رجل يصدقني فهو حقيق بالثناء، إذ المعنى في هذه التراكيب هو المعنى الذي يقصد بالجملة الشرطية كأنك قلت: إن دلني أحد على مطلوبي فله دينار.

الموضع الخامس:

كل جملة يكون مبتدؤها كلمة يجب تصديرها في جملتها وهي: كلمات الاستفهام، وكلمات الشرط، وضمير الشأن، ومبتدآت الأمثال، والمبتدأ الذي تدخل عليه لام التأكيد التي تسمى لام الابتداء يفيد بها المتكلم جزمه بمضمون الخبر. نحو: من يكره الحق؟ استفهامًا، ومن تكرمه أكرمه، شرطًا، وهو الله أحد ضمير الشأن، وطوبى لك، والشرط أملك عليك أم لك. من الأمثال، وتقديم المبتدأ في هذا المواضع التزام لغوي لا فرارًا من فساد معنى إلا في ضمير الشأن.

مواضع تقديم الخبر خمسة أيضًا

الموضع الأول:

كل جملة يكون مع مبتدئها ضمير يعود على شيء في الخبر. نحو: في الدار صاحبها. ونحو:

للفتى عقل يعيش به حيث تهدي ساقه قدمه

لئلا يلزم وجود ضمير غائب، لم يسبق مبينه فينفر السامع.

الموضع الثاني:

كل جملة يكون الخبر فيها واجب التصدير. نحو: أين زيد؟ وكيف عمرو؟ ومن أي باب دخولك؟

الموضع الثالث:

كل جملة تريد أن تقصر معنى خبرها على معنى مبتدئها نحو: إنما شاعر زيد، وما لنا إلا الإسلام.

الموضع الرابع:

كل جملة تكون مثل: لكل نبإ مستقرّ، وفي كل أرض سعد.

الموضع الخامس:

كل جملة يكون مبتدؤها أن وصلتها نحو: عندي أنك فاضل، ومرادي أنك تتعلم. إذ لا يتعين كون أن وصلتها مبتدأ إلا بتأخيرها، وتقديم الخبر،

وحيث كان الكلام منبئًا عن أحد الجزأين، لو حذف جاز حذفه، وكان أولى من ذكره. مثلًا إذا سألك سائل فقال: من عندك؟ فجوابك: زيد أو عمرو بالشخص الذي يكون عندك؛ فزيد في جوابك مبتدأ لم ينطق له بخبر، والكلام لكونه جوانب سؤال مبنئ عن الخبر المحذوف، إذ السائل المخاطب يفهم أنك نويت: زيد عندي. والمدار في الكلام على فهم المخاطب مراد المتكلم، وإذا سألك سائل بكيف زيد الذي معناه: أصحيح زيد أو مريض؟ مثلا فجوابك صحيح؛ فصحيح خبر لم تنطق بمبتدئه، والتقدير: زيد صحيح، والمخاطب يفهم ذلك، فالعمدة في الحذف أن يفهم المخاطب المحذوف بسبب دليل يدل عليه.

وفي أربعة مواضع يجب حذف المبتدأ فيكون النطق به خطأ، وفي أربعة مواضع يجب حذف الخبر، فيكون النطق به خطأ أيضًا.

* * *

مواضع وجوب حذف المبتدأ

الموضع الأول:

الأوصاف المذكورة لغرض المدح أو الذم أو الترحم إذا رفعت. نحو، زرت زيدًا الولي، وأرفق بخالد المسكين، فهو على تقدير: هو الولي، وهو المسكين. وتمام القول في ذلك يأتي في باب النعت.

الموضع الثاني:

كل تركيب يكون كقولك: في ذمتي لأفعلن كذ. على معنى اليمين، فقولك: في ذمتي خبر لمبتدأ واجب الحذف تقديره: في ذمتي يمين أو

قسم أو حلف؛ كما تلحظ ونظيره: في ضماني وفي عنقي لأفعلن كذا على ذلك المعنى.

الموضع الثالث:

كل تركيب يكون كقولك: نعم الرجل عمرو، وبئس الإنسان خالد. تمدح بنعم وتذم ببئس معبرًا عن الممدوح والمذموم أولًا باسمه العام، ثم تعبر عنه باسمه الخاص على نية مبتدأ يكون الاسم الخاص خبرًا عنه، فقولك: نعم الرجل. جملة تامة يفهم منها المخاطب أنك تمدح شخصًا معينًا وعبرت عنه باسمه العام، فنفسه تتشوق لذكر اسمه الخاص كأنه يقول: من هو ذلك الرجل تمدحه فتقول: زيد على تقدير: هو زيد، فهذا المبتدأ لا ينطق به.

الموضع الرابع:

نحو قولك: سمع وطاعة جوابًا لمن يأمرك بأوامر من كل مصدر يصح وضع الفعل موضعه؛ لأن المقصود هو المعنى الفعلي، إذ معنى قولك: سمع وطاعة أسمع قولك وأطيع أمرك. فمن يقول: سمع وطاعة ينوي أمري وحالي وشأني سمع وطاعة، فيجب حذف هذا المبتدأ.

كيفية وقوع هذا في المحاورة:

يقول ذلك إنسان تعظمه وتعتبره: افعل كذا وافعل ولا تفعل كذا. يأمرك وينهاك فتقول: امتثال لأمرك واجتناب عن نهيك تعني حالي أو صفتي امتثال واجتناب يصح أن تضع موضعه، امتثل أمرك واجتنب نهيك.

* * *

مواضع وجوب حذف الخبر

الموضع الأول:

كل تركيب تبدؤه بلفظ: لعمرك أو لعمر الله أو لأيمن الله. وهذان اللفظان مستعملان في القسم لا يستعملان في غيره، فإذا قلت: لعمرك لأتبعن رأيك. فمعناه لعمرك قسمي ويميني، فلفظ قسمي خبر مبتدؤه لعمرك وعمر بفتح العين وبضمها مدة الحياة لكن لم يقع في الحلف إلا المفتوح، وكذلك لأيمن الله لأقتدين بك، فهو على ذلك المعنى فالخبر محذوف وجوبًا.

الموضع الثاني:

كل تركيب يكون كقولك: كل إنسان وعمله، وكل عامل ونيته، وكل شخص وحرفته. فإن معناه كل شخص وحرفته مصطحبان، والواو الواقعة في التركيب تفيد معنى مصطحبان الذي هو الخير المحذوف من قولك: كل شخص وحرفته الذي هو المبتدأ المذكور، فلما كانت الواو تفيد المعية والمصاحبة قطعًا وهو معنى الخبر وجب حذفه.

الموضع الثالث:

كل تركيب يكون كقولك: نصحي الأخوان قابلين، وأخذي المال حلالًا، وأكمل ما يكون الإنسان متقيًا ربه، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، إذ المعنى: نصحي الأخوان إذا وجدتهم قابلين، وأكمل ما يكون الإنسان إذا استمر متقيًا، وهكذا. وضابط هذا الموضع أن يكون المبتدأ مصدرًا صريحًا أو مؤولًا عاملًا في اسم يعود عليه الضمير من

الخبر المحذوف، أو اسم تفضيل مضافًا إلى مصدر. كذلك فلفظ إذا المقدر في هذا التركيب هو الخبر حذف وجوبًا لانفهام الكلام بدونه، إذ معناه نصحي الإخوان حاصل في وقت وجد أنهم قابلين للنصح، فهذا المعنى منفهم بلا تأمل ولا يعد من قولك: نصحي الأخوان قابلين، كأنك قلت: نصحي: الأخوان في حال قبولهم وهو غير خفي.

الموضع الرابع:

كل تركيب يكون كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥١] وهي التراكيب المفتتحة بلولا، التي وضعتها اللغة لتفيد انتفاء مضمون جملة بسبب ثبوت مضمون جملة أخرى، وتسمى: لولا الامتناعية. ويقول النحويون: لولا لامتناع الجواب لوجود الشرط؛ فلابد بعدها من جملتين ينتفي مضمون ثانيتهما بسبب ثبوت مضمون أولاهما، وتسمى الجملة الأُولى: جملة الشرط. والثانية: جملة الجواب والجزاء. لكن الجملة الأولى يجب أن تكون جملة اسمية مركبة من مبتدأ يذكر، وخبر يحذف وجوبًا إذا كان وصفًا من الأوصاف العامة التي هي: الكون والوجود، والثبوت والحصول. فمعنى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾: لولا الدفع موجود وحاصل وثابت فيما بين الناس لفسدت الأرض. فانتفاء فساد الأرض لثبوت وجود الدفع؛ فلو كان سبب انتفاء الجواب ثبوت صفة خاصة؛ كما في قولك: لولا زيد يكرم عمرًا ويعظمه لأهانه الناس واحتقروه، فلفظ يكرم ويعظم خبر عن زيد لا يفهم إلا بذكره وجب ذكره، ولم يصح حذفه إلا إذا دل عليه دليل، وتحرير هذا الموضع الذي يجب فيه حذف الخبر هو حيث يكون سبب انتفاء مضمون الجواب مجرد الكون والحصول فلو

قلت: لولا زيد لهلك عمر، وفهم المخاطب بسرعة أن المعنى: لولا زيد موجود. فمتى كان خبر المبتدأ الواقع بعد لولا هذه كونًا عامًا لم يلفظ، ومتى كان كونًا خاصًا فإن كان لو حذف فهم صح حذفه وإلا وجب ذكره؛ وبتأمل المثالين يظهر الحال.

* ويتعدد الخبر، فيكون اثنين وأكثر والمبتدأ واحد في اللفظ وهو على نوعين.

النوع الأول:

أن يكون المبتدأ الواحد في اللفظ واحدًا في المعنى أيضًا، وتعدد خبره يكون على ثلاثة أنواع:

النوع الأول:

أن تخبر عنه بوصفين ممتزجين قام منهما وصف ثالث فيجوز أن تخبر بالوصفين وأن تخبر بذلك الوصف كقولك: الرمان حلو حامض والرمان مز؛ فالحلاوة والحموضة وصفان ممتزجان قام منهما وصف واحد يسمى: المزوزة. فلك أن تقول: حلو حامض. ولك أن تقول: مز. ونظيره: هذا الماء حار بارد. أي فاتر. وهذا الفرس أبيض أسود. أي أكهب، ولا يصح أن تدخل بين الوصفين الممتزجين واوًا، فلا تقول: حلو وحامض إلا إذا أثبت الأمر المتوسط بنفي الضدين، كما تقول: هذا الرمان لا حلو ولا حامض.

النوع الثاني:

أن تخبر بوصفين متجاورين متميزين، كقولك: هذا الفرس أبيض أسود. أي أبلق، وهذا يصح بواو وبدونها: فتقول: أبيض وأسود، وأبيض أسود.

النوع الثالث:

أن تخبر بأوصاف لا امتزاج فيها ولا تجاور، كقولك: الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ومفاخرات.

النوع الثاني:

أن يتعدد المبتدأ معنى وهو واحد لفظًا، وتعدد الخبر فيه يكون على نوعين:

النوع الأول:

أن يكون الوصف مشتركًا بين الجميع كقولك: غلاما زيد شاعران كاتبان صانعان أو شاعران وكاتبان وصانعان، فهو كالواحد لفظًا ومعنى.

النوع الثاني:

أن يكون لكل واحد وصف يخصه فتجب الواو كقولك: أبناؤك كاتب وشاعر وتاجر، فجمعي هذه الأخبار التي فيها التعدد يقال فيها: خبر أول وخبر ثاني وخبر ثالث وهكذا إن لم تكن الواو، فإن كانت الواو قيل للأول خبر، وللباقي معطوفات وللواو حرف عطف كما يبين في التوابع، وإن كانت الكل أخبارًا بحسب المعنى.

وقد يكون لفظ الخبر هو لفظ المبتدأ، حيث يراد التعظيم أو التحقير كقول الراجز: أنا أبو النجم وشعري شعري.

وطريق التعظيم أن المتكلم بمثل هذا الكلام يخيل أنه لما ذكر المبتدأ ليصفه بجمائل صفاته تحير؛ لكثرة تواردها عليه مع كونه ظاهر الشرف والكمال، فهو يقول: لا حاجة لذكر صفاته لاستغنائه بظهور كماله واضطرار المطلع عليه بالاعتراف له بكمال رتبته في بابه ويقول الناس: العالم عالم، والجاهل جاهل. وقال الشاعر:

السبع سبع وإن كلت مخالبه والكلبُ كلبُ وإن طوقته ذهبًا

ويحتمل أن يكون من هذا القبيل قول الله جل ذكره: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ ﴾ [سورة الواقعة: ١٠،١١] ونظيره من باب الشرطية، قوله عليه الصلاة والسلام: « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله». هذا؛ واعلم أن للمبتدأ والخبر أربع أحوال:

الحالة الأولى:

أن تنطق بهما مجردين وحكمهما حينئذ رفعهما لفظًا أو تقديرًا أو محلًا، ولا يفيد التركيب إلا مجرد الحكم بوقوع النسبة.

الحالة الثانية:

أن تقرن بهما كان أو إحدى أخواتها، وحكمهما حينئذ رفع المبتدأ، ونصب الخبر ويتغير الاسم فيقال: للمبتدأ اسم كان أو إحدى أخواتها، وللخبر خبر كان أو إحدى أخواتها، ويفيد التركيب الحكم بوقوع النسبة،

مع ما لتلك الألفاظ من المعاني المراد بها بيان زمان النسبة وبعض أحوالها.

الحالة الثالثة:

أن تقرن بهما أحد الأحراف الثمانية التي هي: إنَّ وأنّ وأخواتهما، وحكمهما إذن نصب المبتدأ ورفع الخبر، ويقال للمبتدأ اسم إن مثلًا، وللخبر خبرها، ويفيد التركيب الحكم بوقوع النسبة مقترنًا بمعاني تلك الكلمات.

الحالة الرابعة:

أن تقرن بهما كلمة ظن أو إحدى أخواتها، وحكمهما حينئذ النصب، ويقال للمبتدأ: مفعول أول، وللخبر: مفعول ثاني. ويفيد التركيب الحكم بوقوع النسبة على وجه الظن أو اليقين، ولكون تلك الكلمات في الأبواب الثلاثة تغير حكم المبتدأ والخبر واسمهما ــ يسمونها: نواسخ الابتداء. من النسخ بمعنى الإبطال والإزالة.

بيان باب كان

كان وأخواتها إلا كاد وصواحبها تدخل على جملة الابتداء كيف كانت لكن لا يقع الأمر هنا خبرًا، وكذلك لا يقع الماضي خبرًا لـ « صار، وليس، وأفعال الاستمرار» وذلك لأن « صار» دالة على الانتقال والتحول إلى صفة لها استمرار ودوام نحو: صار زيد أسدًا وشجاعًا ويصنع المعروف، وهذا هو المانع من وقوعه خبرًا لأفعال الاستمرار، وكذلك لا يقع خبرًا لـ « ما دام» إلا إذا كان ذا أثر مستمر. نحو: واجب عليك أن تفعل كيت وكيت ما دمت أعطيت به عهدك والتزمت فعله.

وفيما عدا ذلك يقع خبرًا لتحقيق الحصول أو الدلالة على تقادمه، فتقول: كان زيد قائمًا، وأصله زيد قائم، وكان الزيدان قائمين، وأصله الزيدان قائمان، وكان الزيدون قائمين، وأصله الزيدون قائمون، وكان أن تصوموا رمضان خيرًا؛ والأصل: أن تصوموا رمضان خير. على تأويل: صومكم رمضان خير. وكان ما تحفظ العلم حسنًا، وأصله ما تحفظ العلم حسن، على تأويل: حفظك العلم حسن. وكان الله أحدًا والأصل هو الله أحد، على أن المبتدأ ضمير الشان مفسرًا بالجملة بعده، وأضحيت وأمسيت مرشدًا، والأصل أنا مرشد. فحين دخل العامل عليه جئت بضمير الرفع المتصل بدل ضمير الرفع المنفصل، إذ لا يصح الفصل مع إمكان الوصل. وكذلك بقية الضمائر ومع الاتصال يستتر، وليس له لفظ في كان وكانت ويكون وهند تكون وأكون ونكون وتكون وكن وكان زيد يقوم أبوه، وكان زيد أبوه قائم.

وقال زهير:

وكان طوى كشحًا على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتقدم

وقال آخر:

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة عشية لاقينا جُذام وحميرًا

في الخبر الجملة، وكان زيد في الدار، وكان زيد عندك في الخبر المحتمل أن يكون جملة، وأن يكون مفردًا. واعلم أن تركيب كنت أفعل، وأكون أفعل، وكن افعل، وهو نادر للدلالة على تكرر الفعل والتحاقه بالعادات أمرًا بذلك أو إخبارًا عنه، وطريق ذلك أن الفعل القابل للاستمرار حين يعلق بالكون المستمر يدل على إرادة الاستمرار، فمعنى قول الشاعر:

قد كنتُ أحجُو أبا عمرٍو أخا ثِقةٍ حتى ألمت بنا يومًا ملِمَّاتُ

أن حسبانه أخوة أبي عمرو وصداقته، أمر مستمر إلى أن أظهرت الشدة فساد طويته وتمويه أخوته، ومعنى قول الآخر:

وكوني بالمكارِم ذكريني

ليكن تذكيرك إياي بالمكارم فعلًا مستمرًا وعادة دائمة، ولو قال لها: ذكريني. لكفى لامتثال أمره التذكير مرة واحدة.

وتقول: إن دام هذا الطالب كما أرى في الاجتهاد وتحفظ الأحكام الأصلية فسيكون يفهم في عويصات المسائل، وخبر كان لكونه أحد المنصوبات التي ستقف على عددها عند مرور أبوابها عليك، يكون تارة ضميرًا من ضمائر النصب المنفصلة التي هي: إياي وإياك وإياه وفروعها،

وتارة ضميرًا من الضمائر المتصلة المشتركة بين النصب والخفض. قال الشاعر:

ببذلٍ وحلمٍ سَادَ في قومه الفتى ... وكونك إيَّاه عليك يسير

وقال - صلى الله عليه وسلم - لعمر حين همّ بقتل ابن صائد، الذي ظهر في عهد الرسالة من اليهود على صورة المسيخ الدجال، الذي أنذرته الأنبياء أممها، وكان يتحدث ببعض المغيبات إن يكنه فلن تسلط عليه وإلا يكُنه فلا خير لك في قتله. ولا تدخل هذه الأفعال على جمل يجب حذف مبتدآتها، ولا على مبتدآت ملازمة للابتدائية نحو: ما التعجبية. ونحو: سلام عليك. ومبتدآت الأمثال ويجوز في هذا الباب تقديم الأخبار على الأسماء، ويجب إن كان مع الاسم ضمير يعود على شيء في الخبر أو اقترن بإلا لفظًا أو تقديرًا، أو كان نكرة والخبر ظرف، أو كان أن وصلتها، ويمتنع إذا كان مقصورًا عليه، ويجوز تقديم الأخبار على أنفس الأفعال إلا دام وزال وصواحبها لامتناع الفصل بين هذه الأفعال والأدوات التي يلزم أن تكون معها وإلا ليس على الأفصح، ويمتنع تقديمها على ما النافية وحدها أو مع هذه الأفعال، ويجب تقديمها إن كانت من المتصدرات، ويمتنع تقديم الأسماء على الأفعال، كما يمتنع الفصل بينهما بغير الظرف والجار والمجرور من معمولات الخبر، واختصت كان بورودها زائدة لا يفاد بها غير التوكيد، وملغاة لإفادة الزمن بلا عمل؛ فالأولى كقول الشاعر:

سراة بني أبي بكر تسَامى ... على كان المُسَوَّمةِ الجيادِ

والثانية نحو قولك: ما كان أصح علم من تقدم، ولا أرى موجب لإلغائها في مثل هذا، ويكون اسمها ضميرًا عائدًا على ما، والجملة بعد

خبر، والتعجب من الأمور الماضية، وفي مثل: ما أحسن تقريرك وأقوى اجتهادك من الأمور الحاضرة، واختصت كان أيضًا بجواز حذفها مع اسمها ويبقى خبرها وهو جيد، أو مع خبرها وهو رديء، واشتهر الحذف مع لو، ومع أن كقوله عليه الصلاة والسلام: « التمس ولو خاتمًا من حديد ». أي ولو كان الملتمس خاتمًا، وكقوله: « لا تحقرنّ جارة لجارتها ولو فرسن شاة » أي ولو كانت الهدية فرسن.

وكقول الشاعر:

قد قيل ما قيل إن صِدقًا وإن كَذبًا فما اعتذارك من قول إذا قيلا

ومنه العبارة ذات الأوجه كقوله: « كل امرئ مجزى بعمله أن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر». أي إن كان عمله خيرًا فجزاؤه خير، وهو أرجح الأوجه. والثاني وهو رديئها: رفع الأول ونصب الثاني. أي إن كان في عمله خير، فهو يجزى خيرا وكان رديئا؛ لأن فيه حذف الخبر مع كان وكثرة الحذف من الجزاء، ولأن فيه ضعفًا بحسب المعنى؛ لأن الغرض إن كان عمله خيرًا لا إن كان بعضه وبعضه ورفعها يلي الرديء، ونصبهما يلي الجيد، وإنما يجوز رفع الأول حيث يمكن تقدير الخبر وإلا وجب النصب نحو: أنا ماض مع زيد إلى مقصده إن راكبًا فراكب، وإن ماشيًا فماش. وعلى هذه المسألة بني أبو محمد الحريري مقامته الرابعة والعشرين الموسومة بالمقامة النحوية، ورأيت إيرادها في هذا الموضع ملتمسًا من الطلبة أن ينعموا أنظارهم في كيفية سياقها، وتحيل البلغاء على إيراد المسائل العلمية، في الأساليب الأدبية، عسى أن يلمحو الغاية التي لها معنى من يكد نفسه، ويتحامل على قواه ويصرف من نفيس عمره في تعلم الفنون المتعلقة باللغة العربية وهي:

« حكى الحارثُ بن همام قال: عاشرتُ بقطيعةِ الربيعِ في إبان الربيع فتيةً وجوههم أبلجُ من أنواره وأخلاقهم أبهج من أزهاره * وألفاظهم أرق من نسيم أسحاره * فاجتليت منهم ما يزرى * على الربيع الزاهر ويغني عن رنات المزاهر * وكُنا تقاسمنا على حفظ الوداد * وحظر الاستبداد وأن لا يتفرّد أحدُنا بالتذاذ * ولا يستأثر ولو برذاذ فأجمعنا في يومٍ سما دجنه * وتما حسنه * وحكم بالاصطباح مزنه على أن نلتهي بالخرج * إلى بعض المروج * لنسرح النواظر * في الرياض النواضر * ونصقل الخواطر * بشيم المواطر * فبرزنا ونحن كالشهور عدة * وكندماني جذيمة مودة * إلى حديقة أخذت زخرفها وازينت * وتنوعت أزاهيرها وتلونت * ومعنا الكُميت الشموس * والسقاة الشموس * والشادي الذي يطرب السامع ويلهيه * ويقرى كل سمع ما يشتهيه * فلما اطمأن بنا الجلوس * ودارت علينا الكؤس * وغَل علينا ذِمر * عليه طمر فتجهمناه تجهم الغِيدِ الشيب * ووجدنا صفو يومنا قد شيب * ألا أنه سلم تسليم أُولى الفهم * وجلس يفض لطائم النثر والنظم * ونحن نزوي من انبساطه * ونبري لطيِّ بساطه * إلى أن غنَّى شادِينا المُغرِبِ * ومُغردُنا المُطربِ * إلام سعاد لا تصلين حبلي ولا تأوين لي مما ألاقي صبرتُ عليك حتى عيلَ صَبري وكادت تبلغ الروح التراقي وها أنا قد عزمتُ على انتصاف أُساقِي فيه خِلِّي ما يُساقي فإن وصلًا ألذ بهِ فوصلٌ وإن صَرمًا فصرمٌ كالطلاقِ قال: فاستفهمنا العابِثَ بالمثَانِي * لم نصبَ الوصلَ الأول، ورفَعَ الثاني * فأقسم بتُربةِ أبويه * لقد نطق بما اختارهُ سيبويه * فتشعبت حينئذ آراء الجمع * في تجويز النصب والرفع * فقالت فرقةٌ: رفعُهما هُو الصواب * وقالت طائفةٌ: لا يجوزُ فيهما إلا الانتصاب * واستبهم على آخرين الجواب * واستعر بينهم الاصطخاب * وذلك الواغل يُبدي ابتسام ذي معرفه * وإن لم يفه

ببنتِ شفه * حتى إذا سكنتِ الزماجر * وصمت المزجور والزاجر * قال: يا قوم أنا أُصبئُكم بتأويله * وأُميزُ صحيح القول من عليله * إنهُ ليجوز رفعُ الوصلين ونصبُهما * والمُغايرةُ في الإعرابِ بينهما * وذلك بحسب اختلاف الإضمار * وتقدير المحذوفِ في هذا المضمار * قال ففرط من الجماعة إفراط في مُماراته * وانخراط * إلى مُباراته * فقال: أما إذ دعوتم نزال * وتلببتم للنضال * فما كلمةٌ هي إن شئتم حرفٌ محبوب * أو اسمُ لما فيهِ حرفٌ حلُوب * وأي اسم يترددُ بين فرد حازم * وجمعٍ مُلازم * وأيةُ هاء إذا التحقت أماطت الثقل * وأطلقت المعتقل * وأين تدخلُ السينُ فتعزلُ العامِلَ * من غيرِ أن تُجامِلَ * وما منصُوبٌ أبدا على الظرف * لا يخفِضَهُ سِوى حرف * وأي مُضاف أخل مِن عُرى الإضافة بعُروه * واختلف حُكمه بين مساء وغُدوه * وما العامل الذي يتصل آخره بأوله * ويعمل معكوسه مثل عمله * وأي عامل نائبه أرحب منه وكرًا * وأعظم مكرًا * وأكثر لله تعالى ذكرًا * وفي أي موطن يلبس الذكران * براقع النسوان * وتبرز ربات الحجال * بعمائم الرجال * وأين يجب حفظ المراتب * على المضروب والضارب * وما اسم لا يعرفُ إلا باستضافةِ كلمتين * أو الاقتصار منهُ على حرفين * وفي وضعه الأول التزم * وفي الثاني إلزام * وما وصفٌ إذا أُردِف بالنون * نقص صاحِبُهُ في العُيون * وقوم بالدون * وخرج من الزبون * وتعرض للهون * فهذه ثنتا عشرة مسالة وفق عددكم * وزنةً لددكُم * ولو زدتم زدنا * وإن عُدتُم عُدنا * قال المُخبرُ بهذه الحكاية فورد علينا من أحاجيه اللاتي هالت * لما انهالت * ما حارت له الأفكار وحالت * فلما أعجزنا العومُ في بحره * واستسلمت تمائمنا لسحره * عدلنا من استثقال الرُّؤية إلى استنزال الرواية عنه * ومن بغي التبرم به إلى ابتغاء التعلم منه * فقال: والذي نزل النحو في الكلام *

منزلة الملح في الطعام * وحجبه عن بصائر الطعام * لا أنلتكم مرامًا * ولا شفيتُ لكم غرامًا * أو تُخولني كل يد * ويختصني كُل منكم بيد فلم يبق في الجماعة إلا من أذعن لحُكمه * ونبذ إليه خُبأَةَ كُمه فلما حصلت تحت وكائه * أضرم شُعلة ذكائه * فكشف حينئذ عن أسرار ألغازه * وبدائع إعجازه * ماجلا به صدأ الأذهان * وجلى مطلعه بنور البرهان * قال الراوي: فهمنا حين فهمنا * وعجبنا إذ أجبنا * وندمنا على ما ندمنا * وأخذنا نعتذر إليه اعتذار الأكياس * وتعرض عليه ارتضاع الكاس * فقال: مأرب لا حفاوة * ومشرب لم يبق لهُ عندي حلاوة * فأطلنا مراودته * ووالينا معاودته * فشمخ فأنفه صلفا * ونأى بجانبه أنفًا * وأنشد:

نهاني الشَّيبُ عما فيه أفرَاحي … فكيفَ أَجْمَعُ بين الرَّاحِ والرَّاح
وهَلْ يجُوزُ اصطباحي من مُعتَّقةٍ … وقدْ أنارَ مشيبُ الرأس اصباحي
آليتُ لاخامَرتني الخمْرُ ما عِلقَتْ … رُوحي بِجسمي وألفاظِي بإِفصاحي
ولا اكتست لي بكاسات السُّلاف يدٌ … ولا أجلتُ قِداحِي بين أَقداحِ
ولا صرفتُ إلى صِرف مُشعْشعهٍ … همّي ولا رُحتُ مُرتاحًا إلى راح
ولا نظمتُ على مشمولةٍ أبدًا … شَمْلي ولا اخترتُ نَدْمانًا سِوى
محا المشيبُ مِراحِي حين خط على … رأسي فأَبْغِضْ به من كاتبٍ ماحي
ولاح يلْحي على جرى العِنَانَ إلي … ملْهَى فَسُحْقًا لهُ من لائحٍ لاحِي
ولو لَهَوتُ وفَوْدِي شائبٌ لَخَبا … بين المصابيحِ من غَشان مِصباحي
قومٌ سجاياهُم توقيرُ ضيفِهِمْ … والشُّيبُ ضيفٌ لهُ التوقِيرُ يا صاحِ

قال: ثم إنه انساب انسياب الأيم وأجفل إجفال الغيم * فعلمتُ أنه سراجُ سروجٍ * وبدرُ الأدبِ الذِي يجتابُ البرُوج * وكان قُصارانا التحرق لبعده * والتفرُّق مِن بعدهِ».

تفسير ما أودع هذه المقامة
من النكت العربية والأحاجي النحوية

أما صدر البيت الأخير من الأغنية، الذي هو: (فإن وصلًا ألذ به فوصل) فإنه نظير قولهم: المرء مجزي بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر. وهذه المسألة أودعها سيبويه كتابه وجوّز في إعرابها أربعة أوجه:

أحدها وهو أجودها: أن تنصب خيرًا الأول وترفع الثاني، وتنصب شرًّا الأول وترفع الثاني، ويكون تقديره: إن كان عمله خيرًا فجزاؤه خير، وإن كان عمله شرًّا فجزاؤه شر، فتنصب الأول على أنه خبر كان، وترفع الثاني على أنه خبر مبتدأ محذوف وقد حذفت في هذا الوجه كان واسمها لدلالة حرف الشرط الذي هو أن على تقديرهما، وحذفت أيضًا المبتدأ لدلالة الفاء التي هي جواب الشرط عليه؛ لأنه كثيرًا ما يقع بعدها.

والوجه الثاني: أن تنصبهما جميعًا ويكون تقدير الكلام: إن كان عمله خيرًا فهو يجزى خيرًا، وإن كان عمله شرًّا فهو يجزى شرًّا؛ فينتصب الأول على أنه خبر كان وينتصر الثاني انتصاب المفعول به.

والوجه الثالث: أن ترفعهما جميعًا ويكون تقدير الكلام: إن كان في عمله خير فجزاؤه خير. فيرتفع خبر الأول على أنه اسم كان، ويرتفع خبر الثاني على ما بُيّن في شرح الوجه الأول. وقد يجوز أن يرتفع خبر الأول على أنه فاعل كان، وتجعل كان المقدرة ههنا هي التامة التي تأتي بمعنى حدث ووقع فلا تحتاج إلى خبر، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة:١٨٠] ويكون التقدير في المسألة. إن كان خير فجزاؤه خير. أي إن حدث خير فجزاؤه خير.

والوجه الرابع وهو أضعفها: أن ترفع الأول على ما تقدم شرحه في الوجه الثالث، وتنصب الثاني على ما بُين ذكره في الوجه الثاني ويكون التقدير: إن كان في عمله خير فهو يجزى خيرًا وعلى حسب هذا التقدير، والمقدرات المحذوفات فيه يجرى إعراب البيت الذي غنى به ومما ينتظم في هذا السلك قولهم: المرء مقتول بما قتل به إن سيفًا فسيف وإن خنجرًا فخنجر.

(وأما الكلمة التي هي حرف محبوب أو اسم لما فيه حرف حلوب) فهي إن أردت بها تصديق الأخبار أو العدة عند السؤال فهي حرف، وإن عنيت بها الإبل فهي اسم والنعم تذكر وتؤنث، وتطلق على الإبل وعلى كل ماشية فيها إبل وفي الإبل الحرف، وهي الناقة الضامرة سميت حرفًا تشبيهًا لها بحرف السيف، وقيل: إنها الضخمة تشبيهًا لها بحرف الجبل.

(وأما الاسم المتردد بين فرد حازم وجمع ملازم) فهو سراويل. وقال بعضهم: هو واحد وجمعه سراويلات فعلى هذا القول هو فرد وكنى عن ضمه الخصر بأنه حازم. وقال آخرون: بل هو جمع واحده سروال مثل شملال وشماليل وسربال وسرابيل، فهو على هذا القول جمع. ومعنى قوله: ملازم أي لا ينصرف، وإنما لم ينصرف هذا النوع من الجمع، وهو كل جمع ثالثه ألف وبعدها حرف مشدد أو حرفان أو ثلاثة أوسطها ساكن لثقله، وتفرده دون غيره من الجموع بأنه لا نظير له في الأسماء الآحاد، وقد كني في هذه الأحجية عما لا ينصرف بالملازم، كما كني في التي قبلها عما ينصرف باللازم.

(وأما الهاء التي إذا التحقت أماطت الثقل وأطلقت المعتقل) فهي الهاء اللاحقة بالجمع المقدم ذكره كقولك: صيارفة وصياقلة. فينصرف

هذا الجمع عند التحاق الهاء به؛ لأنها قد أصارته إلى أمثال الآحاد، نحو: رفاهية وكراهية. فخفف بهذا السبب وصرف لهذه العلة. وقد كني في هذه الأحجية عما لا ينصرف بالمعتقل، كما كني في التي قبلها عما لا ينصرف بالملازم.

(وأما السين التي تعزل العامل من غير أن تجامل) فهي التي تدخل على الفعل المستقبل، وتفصل بينه وبين « أن » التي كانت قبل دخولها من أدوات النصب، فيرتفع حينئذ الفعل وتنتقل « أن » عن كونها الناصية للفعل إلى أن تصير المخففة من الثقيلة. وذلك كقوله تعالى: ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى ﴾ [المزمل: ٢٠] وتقديره: علم أنه سيكون.

(وأما المنصوب على الظرف الذي لا يخفضه سوى حرف) فهو عندئذ لا يجره غير « مِنْ » خاصة. وقول العامة: ذهبت إلى عنده ـ لحن.

(وأما المضاف الذي أخل من عرى الإضافة بعروة، واختلف حكمه بين مساء وغدوة) فهو « لدن » من الأسماء الملازمة للإضافة، وكل ما يأتي بعدها مجرور بها إلا غدوة؛ فإن العرب نصبتها بـ « لدن » لكثرة استعمالهم إياها في الكلام، ثم نونتها أيضًا ليتبين بذلك أنها منصوبة؛ لا أنها من نوع المجررات التي لا تنصرف. وعند بعض النحويين أن « لدن » بمعنى « عند » والصحيح أن بينهما فرقًا لطيفًا وهو أن « عند » يشتمل معناها على ما هو في ملكك ومكنتك مما دنا منك وبعد عنك،

و« لدن » يختص معناها بما حضرك وقرب منك.

(وأما العامل الذي يتصل آخره بأوله ويعمل معكوسه مثل عمله) فهو « يا » ومعكوسها « أي » وكلتاهما من حروف النداء وعملهما في الاسم المنادى سيان، وإن كانت « يا » أجول في الكلام وأكثر في الاستعمال، وقد اختار بعضهم أن ينادي بـ « أي » القريب فقط كالهمزة.

(وأما العامل الذي نائبه أرحب منه وكرًا وأعظم مكرًا وأكثر لله تعالى ذكرًا) فهو « باء القسم » وهذه الباء هي أصل حروف القسم بدلالة استعمالها مع ظهور فعل القسم في قولك: أُقسم بالله. ولدخولها أيضًا على المضمر كقولك: بك لأفعلن. وإنما أبدلت الواو منها في القسم لأنهما جميعًا من حروف الشفة، ثم لتقارب معنيهما؛ لأن الواو تفيد الجمع والباء تفيد الإلصاق والمعنيان متقاربان. ثم صارت الواو المبدلة من الباء أدور في الكلام وأعلق بالأقسام، ولهذا ألغز بأنها أكثر لله تعالى ذكرًا. ثم إن الواو أكثر موطنًا من الباء؛ لأن الباء لا تدخل إلا على الاسم، ولا تعمل غير الجر، والواو تدخل على الاسم والفعل والحرف وتجر تارة بالقسم، وتارة بإضمار « رُبَّ » وتنتظم أيضًا مع نواصب الفعل وأدوات العطف؛ فلهذا وصفها برحب الوكر وعظم المكر.

(وأما الموطن الذي يلبس فيه الذكران براقع النسوان، وتبرز فيه ربات الحجال بعمائم الرجال) فهو أول مراتب العدد المضاف وذلك ما بين الثلاثة إلى العشرة فإنه يكون مع المذكر بالهاء ومع المؤنث بحذفها كقوله تعالى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّام ﴾ [الحاقة:٨] والهاء في غير هذا الموطن من خصائص المؤنث كقولك: قائم وقائمة وعالم وعالمة، فقد رأيت كيف انعكس في هذا الموطن حكم المذكر والمؤنث، حتى انقلب كل منهما في ضد قالبه وبرز في بزة صاحبه.

(وأما الموضع الذي يجب فيه حفظ المراتب على المضروب والضارب) فهو حيث يشتبه الفاعل بالمفعول لتعذر ظهور علامة الإعراب فيهما أو في أحدهما؛ وذلك إذا كانا مقصورين مثل موسى وعيسى أو من أسماء الإشارة نحو: ذاك وهذا. فيجب حينئذ لإزالة اللبس إقرار كل منهما في رتبته ليعرف الفاعل منهما بتقديمه والمفعول بتأخره.

(وأما الاسم الذي لا يفهم إلا باستضافة كلمتين أو الاقتصار منه على حرفين) فهو « مهما» وفيها قولان: أحدهما أنها مركبة من « مه » التي هي بمعنى أكفف ومن « ما ». والقول الثاني وهو الصحيح: أن الأصل فيها « ما » فزيدت عليها « ما » أخرى، كما تزاد « ما » على أن فصار لفظها « ما ما » فثقل عليهم توالي كلمتين بلفظ واحد؛ فأبدلوا من ألف « ما » الأُولى هاء فصارتا « مهما».

و« مهما» من أدوات الشرط والجزاء، ومتى لفظت بها لم يتم الكلام ولا عقل المعنى إلا بإيراد كلمتين بعدها كقولك: مهما تفعل أفعل، وتكون حينئذ ملتزمًا للفعل، وإن اقتصرت منها على حرفين وهما « مه» التي بمعنى أكفف فهم المعنى وكنت مُلزِمًا من خاطبته أن يكف.

(وأما الوصف الذي إذا أُردف بالنون نقص صاحبه في العيون وقوم بالدون وخرج من الزبون وتعرض للهون) فهو « ضيف » إذا لحقته النون استحال إلى « ضيفن » وهو الذي يتبع الضيف ويتنزل في النقد منزلة الزيف. وحيث أوردنا هذه المقامة طلبًا لتلك الفائدة فمن اللازم لإتمامها أن نلمح بكيفية شرحها، ونذكر ما إليه أشار الحريري – رحمه الله تعالى – من قصة ندماني جذيمة، وما يحسن إلحاقه بحفظها مما يكون حلية من حلى الرجال العلماء. فنقول: « المعاشرة »: المخالطة، واشتقاقه من لفظ

العشرة آخر أولى مراتب العدد. وذلك أنه كان من عادات العرب أن القوم الذين يجتمعون في معيشة أن يجلسوا على الجفان عشرة عشرة يقال: عشرت القوم. من باب نصر، أي كلمتهم عشرة بكوني معهم. كما يقال: تسعتهم وثمنتهم إلى غير ذلك، ومنه جاءت المفاعلة والتفاعل. و« قطيعة الربيع » ناحية عند غربية بغداد كان أقطعها أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء من بني العباس وزيره أبا الفضل الربيع، فبني فيها وبنى الناس معه فصارت قرية كبيرة، وإليه نسبت يقال: أقطع السلطان بعض رعيته أرض كذا. أي ملكه إياها لينتفع بها كيف شاء وتورث عنه دون مقابل. وكان الموضع المحيط بجامع أحمد بن طولون يسمى بالقطائع؛ لأنه كان إذ ذاك فضاء، فملكه ذاك الوالي لبعض الناس، فبنوا فيه وصار بلدًا كما تراه في وقتنا هذا من العمارة الاسماعيلية. و« البلج »: الوضوح والظهور، ومنه الحقّ أبلج. و« الأنوار » جمع نور بفتح النون، وهو الأبيض من الأزهار، وخصت الأزهار بغير الأبيض ويقال: زري عليه من باب ضرب أي عابه وأزري به من المهموز أي نقصه، وكان غير لائق به. و« المزهر » كمنبر: عود الضرب المطرب. و« الإجماع على الأمر » العزم والتصميم. وأما قصة جذيمة وندمانيه واسمهما: مالك وعقيل، فهي أن جذيمة هذا كان ملك أيام الطوائف بشاطئ الفرات وما والاه إلى السوادستين سنة. قال ابن الكلبي: جذيمة أول من ملك قضاعة بالحيرة وأول من حذا النعال وأدلج من الملوك ورفع له الشمع. وكان من أفضل ملوك العرب رأيًا وأظهرهم حزمًا، وهو أول من استجمع الملك له بأرض العراق وغزا بالجيوش وكان به برص فكنت العرب عن البرص إعظامًا. فقالت له: جذيمة الوضاح، وجذيمة الأبرش. وكان غزا طسمًا وجديسًا في منازلهم،

فصادف حسان بن تبع قد أغار عليهما فانصرف جذيمة، وصادفت خيول تبع سرية له فقتلوهم؛ فبلغ الخبر جذيمة فقال:

ربما أوفيت في عِلم ترفعن ثوبي شمالاتُ
في فنون أنت كالؤهم من بلايا غزوة ماتوا
ليت شعري ما أماتهم نحن أسرينا وهم باتُوا

وكان جذيمة قد تنبأ وتكهن واتخذ صنمين وسماهما: الضيرتين. ومكانهما بالحيرة معروف وغزا إيادًا بعين أباغ، فبعثوا قومًا منهما سرقوا منهم الضيرتين، وأصبحوا بهما في إياد فأرسلوا إليه أن صنميك أصبحا عندنا زهدًا فيك ورغبة فينا، فأعطنا عهدًا أن لا تغزونا ونردهما إليك ففعل وكان بلغه: أن غلامًا من لخم يسمى عدي بن نصر مقيم في أخواله من إياد، وله ظرف ولب وأنه لحسن أن ينادم الملك ويقوم بمجلسه؛ فاشترط على إياد أن يبعثوا مع الصنمين بعدي بن نصر. وكان له جمال وظرف، فدفعوه إليه معهما فضمه إلى نفسه، وكان ينادمه فتعشقته رقاش أُخت جذيمة فبعثت إليه: إذا سقيت أخي واستنشى فاخطبني لك، وأشهد عليه ففعل، فلما طرب جذيمة خطبها، فأنعم عليه وأشهد عليه، فقال له: عرس بأهلك ففعل، وأصبح على جذيمة مضرجًا بالطيب، فقال له: ما هذه الآثار؟ فقال: آثار العرس. قال: وأي عرس؟ قال: عرس رقاش. فأكب جذيمة على الأرض، وفرّ عدي، وطلبه جذيمة فلم يدركه وقيل: ظفر به، وقال لرقاش:

حذيني رقاشُ لا تكذبيني أبحرّ زنيتِ أم بهجين
أم بعبدٍ فأنت أهل لعبدٍ أم بدونٍ فأنت أهل لدون

فقالت له:

أنت زوّجتني وما كنت أدري ... فأتاني النساء للتزيين
ذاك من شريك المدامة صِرفا ... وتماديك في الصبا والمجون

فحبسها في قصرها فاشتملت على حمل، فأتت بغلام وسمته عمرًا، وربته حتى ترعرع فجملته وأعطرته وألبسته كسوة مثله، ثم أزارته خاله فأعجب به وأُلقيت عليه محبتة. وخرج جذيمة في سنة قد أكمأت وبسط له في روضة وعمرو مع غلة يجتنون الكمأة فكانوا إذا أصابوا كمأة طيبة أكلوها، وإذا أصابها عمرو خبأها، ثم أقبلوا يتعادون وعمرو يقدمهم يقول:

هـذا جنـاي وخيـاره فيـه ... إذ كـل جـان يـده إلـى فيـه

فالتزمه جذيمة وحل منه بمكان، ثم إن الجن استهوته فطلب زمانًا وأرسل فيه في الآفاق فلم يجد له خبرًا، ثم إن عمرًا أوفى على مالك وعقيل ابني فارج بن مالك بن كعب ابن قيس بن حمير بن قضاعة، وقد نزلا منزلًا، وهما متوجهان إلى خاله جذيمة، ومعهما قينة يقال لها: أم عمرو، وهي تغنيهما وتسقيهما، فرأت عمرًا وقد تلبد شعره وطالت أظفاره وساءت حاله فاحتقرته، فرمت إليه بكراع من طعامهما وناولتهما وأوكأت زقها، ولم تناول عمرًا شيئًا؛ فقال لها عمرو:

صددت الكأس عنّا أم عمرو ... وكان الكأس مجراها إلينا
وما شر الثلاثةِ أم عمرو ... بصاحِبك الذي لا تصبحينَا
فما شرب الشراب كمثل عمرو ... وما نالَ المكارم فأصبحينَا
فـالا تنكري عمرًا فإني ... أنا ابن عدِي حقًّا فاعرِفينَا
وخالي لا أبالكِ ذُو المعالي ... جذَيمةُ كيف ويحكِ تُنكرينَا

فقالا له: من أنت يا فتى؟ قال: أنا عمرو بن عدي فضماه إليهما وغسلا رأسه وأخذا من شعره وقلما أظفاره وألبساه بعض الثياب التي كانت معهما، وقالا: ما كنا نهدي جذيمة أنفس من ابن أخته، ثم وردا به على جذيمة فسر به سرورًا شديدًا. وقال لهما: تمنيا فسألاه أن يكون نديميه ما عاش وعاشا، فنادماه أربعين سنة ما أعادا عليه حديثا فضرب بهما المثل في تأكيد الأُلفة. وقال متمم بن نويرة في مالك أخيه حين قتله خالد بن الوليد في غزوة أهل الردة؛ وكان متمم أخوه أحد الصحابة، ولما قتل مالك أخوه جزع جزعًا شديدًا، وأكثر من قول الشعر في ذلك، وقال له يومًا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: ليت أخي زيدًا قيل في رثائه مثل ما تقول في مالك أخيك ! فقال: لو علمت أن مالك مات على الإسلام كزيد أخيك ما رثيته. والبيتان الموردان في هذا الموضع من قصيدة طويلة:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وقال أبو خراش الهذلي يرثي أخاه:

تقول أراه بعد عروة لاهيًا ... وذلك رزء لو علمت جليل
فلا تحسي أن قد تناسيت عهده ... ولكن صبري يا أميم جميل
ألم تعلمي أن قد تفرق قبلنا ... خليلا صفاء مالك وعقيل

وغزا جذيمة عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة الصميدع العمليقي من العماليق وهم قوم من حمير، وكان ملك الجزية وملك الحضر، وهي مدينة قديمة بين دجلة والفرات، فهزم جذيمة جيوش عمرو وقتله ومزق جموعه، وقال في ذلك شاعرهم:

كأن عمر بن برقي لم يكن ملكًا ولم تكن حوله الرايات تختفق
لاقى جذيمة في شعواء مشعلة فيها حراشف بالنيران ترتشق

فملكت بعده الزباء ابنته واسمها نائلة. قال ابن الكلبي: ولم يكن في عصر الزباء أجمل منها جمالًا، وأكمل منها كمالًا، وكان لها شعر إذا مشت يتدلى وراءها وإذا نشرته جللها فسميت الزباء، لكثرة شعرها، فجمعت خيل أبيها، وغزت بالجيوش من حواليها من الملوك فذللتهم فضرب بها المثل، فقيل: أعز من الزباء. واشتهر عنها علو الهمة وسمو القدرة، وقوة المنعة، ومضاء العزم، وبذل الأموال، فلما استحكم ملكها أرادت أن تغزو جذيمة، لتدرك فيه ثأر أبيها، فنهتها أختها زبيبة عن ذلك وقالت: لا طاقة لك به ولكن ابني أمرك فيه على المكر والحيل، فبعثت إلى جذيمة تخطبه على نفسها ليتصل ملكه بملكها فيصيرا بذلك أعز الملوك، وكان بلغه عن جمالها ما أطمعه في الظفر بها، فأخبر أرباب دولته بمخاطبتها إياه، فكلهم أشار عليه أن يتزوجها إلا قصير بن سعد بن عمرو، وكان لبيبًا عاقلًا له عزم وحزم، وكان خازنه وعميد دولته، فإنه قال له: هذا رأي فاتر لأن الزباء قتلت أباها والدم لا ينام، ولك في بنات الملوك الأكفاء متسع، فقال له الملك: إن النفس إلى ما تحب تواقة، وإن كان القدر قد جرى بشيء فلا مفر عنه، وكتبت إليه الزباء تطلب منه قدومه عليها للنكاح. وقالت له: لولا أن السعي في مثل هذا بالرجال أجمل، ولهم ألزم لسرت إليك. وأهدت مع كتابها من العبيد والسلاح والأموال والذهب هدية سنية، فلما وصلت أبهجته، وحسب أن ذلك لفرط رغبتها فيه، فشاور قومه وابن أخته عمرًا فشجعوه على المسير إليها، واستخلف عمرًا على ملكه، وسار في خواصه حتى نزلوا بالفرضة فشاور خواصه وقصيرًا في الجملة، فأشاروا عليه بالمسير إلا قصيرًا فإنه قال: أيها الملك

كل عزم لا يؤيد بحزم فآخره إلى فساد، ولولا أن الأمور تجري على المقدور لعزمت على الملك أن لا يفعل!

فقال جذيمة: الرأي مع الجماعة. فقال قصير: أرى القدر سابق الحذر، ولا يطاع لقصير رأي ! فلما قرب من ديارها أرسل إليها يعلمها بموضعه فأظهرت السرور به، وأخرجت له هدايا وأنواعًا من الأطعمة والأشربة، فقال لقصير: كيف ترى؟ فقال قصير: من لم ينظر في العواقب لم يأمن المصائب، فاستدرك الأمر قبل فوته وارجع فإن في يديك بقية تستدرك بها الصواب، وإن كنت لابد فاعلًا فإن القوم إن تلقوك غدًا يجيء قوم ويذهب قوم فالأمر في يديك، وإن تلقوك صفين فإذا توسطتهم، وأحد قُوابك فقد ملكوك، وهذه العصا - وهي فرس لجذيمة - تسبق الطير فسأعرضها لك فاركبها لتسلم عليها فإنه لا يشق غبارها. فأرسلها مثلا، فلما كان غد لقوه صفين، فلما توسطهم انقضوا عليه، فقال لقصير: صدقت فما الرأي؟ فقال له: قد تركت الرأي وهذه العصا اركبها. فشغله الأمر عنها، فلما رأى قصير الجيوش تسير بجذيمة أعطى العص عنانها، فهوت به هوى الريح فتطاول إليه جذيمة ينظره، فقال: ويل له جذيمة، فجرت به إلى غروب الشمس. قال الأصمعي - رحمه الله تعالى - لم تقف حتى جرت ثلاثين ميلًا، ثم وقفت فبالت؛ فبنى على الموضع برج يسمى: برج العصا. وأشرفت الزباء من قصرها تنظر إلى جذيمة - وهو يساق - فقالت: ما أحسنك من عروس يزف إليّ! فدخلوا به إليها وحولها ألف وصيفة لا تشبه واحدة صاحبتها في خلقٍ ولا زي، وهي بينهن كالقمر حفت به النجوم، فأمرت بالأنطاع فبُسطت وقالت للوصائف: خذن بيد سيدكن وبعل مولاتكن، فأجلسته على الأنطاع ففعلن به ذلك، ثم كشفت له عن شعرتها فرأى شعرها قد طال حتى عقدته من وراء ظهرها، فقالت

له: يا جذيمة أشوار ذات عروس؟ قال: بل شوار بظراء تفلة، وأمر غدر قد بلغ المدى. فقالت: والله ما ذاك من عدم المواسي، ولكنها شيمة أناسي، ثم أمرت به فسقي الخمر حتى أخذت فيه، وكانت الملوك لا تضرب الأعناق إلا في الحرب، ثم أمرت أن تقطع رواهشه، وقالت: تحفظن بدمه لأنه إن قطرت من دمه قطرة في غير الطست طلب بدمه، فجرت دمه في طست ذهب، فلما ضعفت يدا سقطتا فقطرت على النطع من دمه قطرات، فقالت: لا تضيعوا دم الملوك. فقال لها: لا يحزنك دم ضيعه أهله. فذهبت مثلًا.

فقالت: إن دماء الملوك شفاء من الكلب، والله ما وفيّ دمك، ولا شفى قتلك، ثم أمرت به فدفن.

وكان عمرو بن عدي يخرج كل يوم لبعض الحيرة يستطلع أمر خاله؛ فنظر يومًا إلى فارس قد أقبل، فأشرف عليه قصير، فقال له: ما وراءك. فقال له: سعى القدر بالملك إلى حتفه فاطلب بثأره، فقال عمرو: وأي ثأر يطلب من الزباء، وهي أمنع من عقاب الجو؟ فقال قصير: والله لا أنام عن طلب دمه ما لاح نجم، فاجدع أنفي واضرب ظهري ودعني وإياها. فقال عمرو: ما أنت لذلك بأهلٍ وقد علمت نصحك لخالي. فقال: خل عني إذا فجدع أنفه فلحق بالزباء، فقالت: ما جاء بك؟ فأشار بظهره، وأنفه. فقالت العرب: لأمر ما جدع قصير أنفه. فقالت: يا قصير وبيننا دم خطير ! فقال يا ابنة الملوك العظام: لا ثأر ولا قود، ولقد أيت فيه ما يأتي مثلك في مثلهن وقد جئتك مستجيرًا بك من عمرو، فإنه علم أني أشرت على خاله بالمجيء إليكن فجدع أنفي وأذني وأوجع ظهري، وحال بيني وبين مالي وولدي، فاستجرت بك لعلمي أني لا أكون مع أحد أثقل عليه منك.

فقالت له: أهلًا وسهلًا، وكان يبلغها من رأيه وحزمه فاختصته وأنزلته واصطفته، فلما وثقت به أخذت تستشيره في أمورها، فقال لها يومًا: إن عمرًا يطلبك بخاله، والرأي أن تتخذي نفقًا لعلك تحتاجين إليه. فقالت له: إني قد اتخذته تحت سريري، وخرجت به تحت سرير أختي. وكان الفرات يشق بين قصريهما، فأظهر لها السرور، ثم قال لها: إن لي بالعراق أموالًا كثيرة تصلح للملوك، فإن جهزتني بمال للتجارة توصلت به إلى أخذ تلك الذخائر ونقلها إليك فجهزته، فاحتال حتى وصل إلى عمرو فجهزه بطرف من الجواهر والخز والديباج والأسلحة فرجع بها، فلما تحققت نصحه أرسلته إلى العراق ثالث سفرة؛ ليضرب لها بها عدة من السلاح ويشتري لها خيلًا وعبيدًا لتجهز جيشًا إلى من حواليها من الملوك، فمشي فيما أمرته به وتوصل إلى عمرو، وقال: قد أصبت الفرصة من الزباء. فقال عمرو: قل أسمع ومر أفعل، فأنت طبيب هذه القرحة. فقال: الرجال والمال. فقال: حكمك فيما عندي مسلط. فعمد إلى ألفي رجل من أهل القتال وجعلهم في غرائر سود، وجعل سلاحهم السيوف والحجف، وجعل رؤوس الغرائر مربوطة من داخلها وجعل عمرًا في الحملة وساق الخيل والعبيد، فلما قاربها بعث إليها البشير بسلامة قصير وكل ما جاء به، فسألت عن العير: أين نزل؟ فقيل لها: بالغوير. وكانت تنظره من غير طريق الغوير، فقالت: عسى الغُويرُ أبؤسًا.

وتقدم قصير فدخل عليها يسرها، فرقيت سطحًا عاليًا لتنظر مجيء الإبل، فنظرت قوائمها تسوخ في الأرض لما عليها من الأثقال، فقالت، يا قصير:

ما للجمال مشيُها وئيدًا	أجندلا يحمِلن أمْ حدِيدًا
أم صرفانا باردًا شديدًا	أم الرجالُ جُثَّمًا قُعودًا

وكانت قالت لجواريها: إني أرى الموت الأحمر في الغرائر السود. فذهبت مثلًا، فدخلت الجمال المدينة، فجس بواب بمخصرةٍ في يده غرارة على آخر بعير فأصابت المخصرة خاصرة رجل فضرط، فصاح الشر الشر، فأظهروا علامة كانت بينهم فحلوا رؤوس الجوالق فخرج منها الفا دارع بألفي سيف، فصاحوا يا لثأر الملك المقتول غدرًا ! وهربت الزباء تطلب النفق إلى تحت الفرات، فسبق عمرو إلى بابه مع قصير، وكانت صورة عمرو مصورة في جانبها، فعندما رأته عرفته، وكانت جعلت تحت فص خاتمها سم ساعة، فمضت الفص وقالت: بيدي لا بيد عمرو. فسقطت وعمرو وقصير يضربانها بالسيف، فماتت بين السم والسيف، فاستباحوا بلدها بما فيه، واستولى عمرو على مملكتها، واتخذ عمرو الحيرة دار ملكه، وتوارثها بنوه واحدًا واحدًا إلى النعمان ابن المنذر — وهو الذي أدرك زمن المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقتله كسرى — وهو آخرهم — وكان مقتل والد الزباء عند بعث عيسى ـ عليه السلام ـ وقال ابن دريد:

لقد سما عمرو إلى أوتاره ... فاختط منها كل عالي المنتمى

واستنزل الزباء قسرًا وهي من ... عقاب لوحِ الجو أعلى منتهى

هذا وتجويز الحريري: أن يكون المحذوف كان التامة، التي بمعنى حدث والمرفوع فاعلها رده العلماء بعدم انسياق الفهم لها، حيث لم يكن معتادًا حذفها.

ولكان موضع آخر كثر حذفها فيه وتعويض كلمة: « ما » التأكيدية. عنها كقول الشاعر:

أبا خُراشة أما أنتَ ذا نَفَر ... فإن قومي لم تأكلُهم الضَّبع

الأصل: أن كنت. مثل قوله تعالى: ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ ﴾ [سورة القلم: ١٤]. فحذفت كان وحلت « ما » محلها، وانفصل الضمير، وحل البيت: يا أبا خراشة لأجل أن كنت ذا نفر، وصاحب عشيرة يحمونك ويدافعون عنك جزت حدك وتعديت طورك وأدللت عليّ، كأنك ظننتني فريدًا لست ذا عشيرة مثل عشيرتك؛ فاكفف من غربك وألزم أدبك وقف عند حدك، فإن قومي الذين عرفتهم لم تأكلهم الضبع، والمراد بالضبع الحيوان المعروف أو السنة المجدبة؛ إذ كان من عاداتهم أن يتركوا القتلى في الحروب، حتى تأكلهم السباع. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين قتل حمزة عمه ـ رضي الله عنه ـ: «لولا أن تجد صفية – وهي أخت حمزة – لتركته حتى يُحشر من أجواف السباع وحواصل الطيور».

وقال الشنفري:

فلا تقبُروني إنّ قبري مُحرّم ... عليكم ولكن أبشري أم عامر

إذا حملوا رأسي وفي الرأس أكثري ... وغودر عند الملتقى ثم سائري

هنالك لا أرجو حياةً تسُرني ... سجيس الليالي مبسلًا بالحرائر

وأم عام كنية الضبع. فكأنه قال: فإن قومي لم تفنهم الحروب حتى أكلتهم السباع، أو فإن قومي لم تتتابع عليهم أيام قحط وجدب حتى أفناهم الجوع. ومن الضبع بمعنى السنة قول أبي العلاء المعري:

إذا الضبع الشهباء حلت بساحتي ... تضوت عليها كل موارة الضبع

واختصت أيضًا كان:

بجواز حذف نون مضارعها حيث يجزم، ولم يتصل به ساكن، ولا ضمير، وأفعال هذا الباب من الألفاظ المشتركة فتستعمل تامة مقصودة

المعاني بالإفادة، كما تقول لصاحبك: أمسيت. أي دخلت في المساء، إلا « فتيء، وليس، وزال، التي مُضارعها يزال».

وأثبت النحويون إعمال أربعة أحرف من حروف النفي إعمال « ليس » وهي: « ما، وإن، ولا، ولات ».

أما كلمة « ما»، فنسبوا إعمالها لأهل الحجاز، فيقال: « ما» حجازية، ويقال عند إهمالها: تميمية. وباللغتين ورد قوله تعالى: ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ [سورة يوسف: ٣١]. بنصب بشر ورفعها، وألطف الشاعر في قوله:

ومهفهف الأعطافِ قُلتُ له انتسب فأجاب ما قتلُ المحبِ حرام

يقول: أنه انتسب إلى تميم حيث تكلم بلغتهم، ولكن إعمالها مشروط. بأربعة شروط:

الأول: ألا تصحبها « إن » مثل: ما إن الحق خاف.

الثاني: الا ينتقض نفيها بالأمثل: ما أنت إلا مجتهد فبالغ أو متوان فمحروم لأن إعمالها إنما هو بجهة نفيها. ولذلك إذا استدركت أو أضربت بعد منصوب بإثبات مخالفه رفعت، وكان المرفوع جزء جملة حذف صدرها. مثل: ما زيد كاتبًا لكن شاعر أو بل شاعر. أي لكن هو أو بل هو.

الثالث: أن لا يتقدم معمول الخبر على المبتدأ أو ليس ظرفًا ولا صاحبه.

الرابع: أن لا يتقدم الخبر على المبتدأ ولذلك حكموا بغلط التميمي، وهو أو فراس همام بن غالب المشهور بالفرزدق، حيث أراد أن يتكلم بلغة ممدوحه الحجازي، فقال:

فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم إذ هم قريش وإذ ما مثلهم بشر

فنصب لفظ: مثل، والصواب رفعه بذلك الشرط. وأما كلمة: « إن » فنسبوا إعمالها لأهل عالية نجد خاصة. قال شاعرهم:

إن هو مُستوليًا على أحدٍ إلا على أضعفِ المجانين

ومن كلام بعضهم: إن أحد خيرًا من أحد إلا بالعافية. ولقلة من أعملها حكم النحويون بقلة إعمالها.

وأما « لا ، ولات بزيادة التاء »، فلم ينسبوا إعمالها لأحد، غير أنهم نقلوا اختصاص « لات » بالعمل في أسماء الأزمنة، كالحين والوقت والمدة والأوان، وأنه يلزم حذف أحد معموليها وحذف المرفوع أكثر كقوله تعالى: ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [سورة ص: ٣]. تقديره: ولات الحين حين مناص. وأثبت الكوفية: أن بعض العرب يجر بها على اختصاصها بأسماء الأزمنة، وشاهدهم على ذلك قول أبي فراس:

طلبوا صُلحنا ولات أوانٍ فأجبنا أن ليس حينَ بقاءُ

وهي عندهم حينئذ مثل: « رب، ولعل» وجرى على ذلك أبو الطيب حيث كانت الكوفة منشأة، وبها تأدب فقال:

لقد تصبَّرتُ حتى لات مصطبر والآن أقحم حتى لات مقتحِمِ

وتفسير البيت تصبرت إلى زمن غير زمن اصطبار، والآن أقحم إلى زمن غير زمن اقتحام، ويظهر أنهم حكموا بإسميتها وتصرفها تصرف كلمة غير، فيكون التقدير في قول أبي فراس: طلبوا صلحنا وغير أوان صلح أوان طلبهم. وقد نصوا على اسمية « لا » في نحو: جئت بلا زاد. وأما « لا » فقال البصرية: إنها تعمل بشروط « ما » في النكرات لا غير كقوله:

تعز فلا شيءٌ على الأرض باقيًا ولا وزرٌ مما قضى الله واقيًا

وأثبت الكوفية إعمالها في المعارف، وعليه قول أبي الطيب:

إذ الجودُ لم يُرزق خلاصًا من فلا الحمدُ مكسوبًا ولا المال باقيًا

..

وإنما تعرضت في هذا الموضع لحكاية نقل الكوفيين؛ ليعرفه الطلبة في كلام أبي الطيب المتنبي حيث يمر بهم عند قراءته اللازمة لطلبة العلم؛ ليعرفوا تفاوت الأقوال في البلاغة، وحسن السياق واختيار العبارات؛ إذ كان ذلك هو الطريق لمعرفة إعجاز القرآن.

وأما كاد وأخواتها، فإنها تختص من بين الجمل الابتدائية بجملة يكون خبرها فعلًا مضارعًا رافعًا لضمير المبتدأ، مثل: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ [الإسراء:٧٣]، ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ [القلم:٥١]، ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧١].

وأما نحو:

فأبت إلى فهم وما كدت آيبًا وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

ونحو:

أكثرتُ في العذلِ ملِحًا دائمًا لا تكثِرن إني عسيتُ صائمًا

ونحو: عسى الغوير أبؤسًا.

فمحكوم بندرته وعدم جواز استعمال مثله، لكن يجب اقتران خبر« حرا، واخلولق» بكلمة « إن » مثل: اخلولقت السماء أن تمطر. وهو الأكثر في خبر« عسى، وأوشك» وفي خبر« كاد وكرب » الأكثر التجرد منها؛ فمن الكثير قول العرب: كاد المنتعل يكون راكبًا، وكاد العروس يكون ملكًا، وكاد الحريص يكون عبدًا، وكاد سيء الخلق يكون سبعًا، وكاد الفقر يكون كفرًا، وكاد البيان يكون سحرًا، وكاد النعام يكون طيرًا، وكاد الخيل يكون كلبًا.

ومن القليل ما وقع في بعض المروى عنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ: « كاد الحليم أن يكون نبيًا. وكاد الفقر أن يكون كفرًا. وكاد الحسد أن يسبق القدر».

ويجب التجرد في أخبار أفعال الشروع، ولـ « عسى واخلولق وأوشك » استعمال آخر، وهو: أن يؤتى بعد الأفعال بـ « أن » ومدخولها. ويقال: « أن وما » دخلت عليه سدت مسد الاسم والخبر نحو: عسى أن ينجلي الحق، وأوشك أن يحسن التحصيل. وحينئذ يكون لك في إعرابه وجهان:

الأول: أن تقول « أن وما » دخلت عليه في موضع الاسم والخبر وسادّة مسدّهما.

والثاني: أن تقول خبر مقدم واسم مؤخر.

وبناء على الأول تقول: عسى أن يقوم الزيدان، وعسى أن يقوم الزيدون، وعسى أن تقوم الهندات، وعسى أن تظهر الشمس، وعسى أن

يظهر الشمس، والزيدان عسى أن يقوما، والزيدون عسى أن يقوموا، والهندات عسى أن يقمن، وهند عسى أن تقوم.

وبناء على الثاني تقول: عسى أن يقوما الزيدان، وعسى أن يقوموا الزيدون، وعسى أن يقمن الهندات، وعسى أن تظهر الشمس لا غير، والزيدان عسيا أن يقدما. والزيدون عسوا أن يقوموا، والهندات عسين أن يقمن، وهند عست أن تقوم.

وبعض العرب يكسر سين عسى عند إسناده للضمائر البارزة، وبه قرأ نافع.

* * *

إن وأخواتها

بيان الأحرف (الثمانية) التي تنصب المبتدأ، ويقال له اسمها وترفع الخبر ويقال له خبرها، وهي: « إنَّ، وأنَّ، ولكن، وكأن، ولعل، وليت، ولا، وإلا ».

الأحرف الستة الأول يمتنع تقديم أخبارها على الأسماء ما لم تكن ظروفًا أو صواحبها، ولنفرد كل حرف بالكلام عليه فنقول:

- الكلام على « إنَّ »: تكون في جملة مستأنفة، وجملة صلة، وجملة جواب القسم، وجملة حكيت بقول، وجملة أخبر بها عن اسم عين، وجملة أُضيفت لها حيث، وجملة وقعت حالًا، وجملة وقعت بعد « حتى الابتدائية » وهي التي لا يقصد فيها معنى الغاية، بل يقصد فيها معنى السببية. كقولك: أصلح زيد أحواله حتى إنَّ

الناس متفقون على شكره. وتصحبها لام الابتداء فتزحلق عن موضعها الذي كان لها، حيث كان اسم « إنَّ » مبتدأ إلى خبر أن فتدخل عليه وعلى معموله المتقدم عليه، وعلى الفصل في نحو: إنَّ زيدًا لهو المنطلق، وإنَّ هندًا لهي المنطلقة. تقريبًا للام من موضعها حسب الإمكان، فلو تأخر الاسم عن المبتدأ صحبته ولم تصحب الخبر لزوال المنكر، الذي هو اجتماع مؤكدين حرفين شبيهين بالزائد في الكلام.

وإذا كان خبر « إن » منفيًا، أو فعلًا ماضيًا متصرفًا خاليًا من « قد » امتنعت اللام وتخفف « إن » بحذف النون الثانية، وبقائها حرفين متحرك وساكن، فيزول اختصاصها بالاسم، وتدخل على الفعل، ويكثر إهمالها مع وجود الاسم بلصقها، وحينئذ تلزم اللام معها لرفع اشتباهها بـ « أنْ » النافية، فلو تعينت بدون اللام لم تلزم كقوله: إن الحق لا يخفى على ذي بصيرة. وقوله:

أنا ابنُ أباةُ الضيم من آل مالك وإنْ مالك كانت كرام المعادن

إذ لا يحتمل الكلام النافية لظهور فساد المعنى، وإذا دخلت على الفعل فأكثر ما يكون فعلًا ماضيًا ناسخًا نحو: ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾ [الفرقان:٤٢] . ﴿ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ [الاعراف: ١٠٢]. ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ [البقرة:١٤٣]. ودونه أن يكون فعلًا مضارعًا ناسخًا نحو: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ [القلم:٥١]. ﴿ وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٦]. وإنه أن يكون فعلًا ماضيًا غير ناسخ نحو، إن قتلت لمسلمًا.

واختلفوا في صحة القياس عليه. ودونه: أن يكون فعلًا مضارعًا غير ناسخ نحو: إنْ يزينك لنفسك، وإنْ يشينك لهية.

وأجمعوا على امتناع القياس عليه، والسر في ذلك أن وضعها على الاختصاص بالجملة الاسمية، فحاولت اللغة عند تخفيفها أن لا يزول اختصاصها بالمرة، فأصحبوها النواسخ التي هي مصاحبة دائمًا لجمة المبتدأ والخبر فكأنها لم تزل عمالها.

- الكلام على « أنَّ »: هي من الموصلات الحرفية كما سبق، فالجملة بعدها مفرد مطلوب لإتمام الكلام أو متعلق من متعلقاته. وذلك المفرد مصدر يؤخذ من خبرها، ويضاف لاسمها إن كان الخبر مشتقًا ونفس الخبر مصحوبًا بـ « ياء النسب » التي تسمى « ياء » المصدرية، و« تاء » التأنيث إن كان الخبر جامدًا فتقول في نحو: بلغني أن زيدًا قائم. تقديره: بلغني قيام زيد، وفي نحو: بلغني أن زيدًا أسد. تقديره بلغني أسدية زيد أي كونه أسدًا. وتقع فاعلًا كما مرّ، ومفعولًا نحو: علمت أنَّ زيدًا كاتب. ومجرورًا نحو: قصدتك أنَّك فاضل. أي: لأنك، وتثاب في الآخرة بأنك تعمل الخير في الدنيا، ولأجل أنك مستقيم أحبك الناس. ومبتدأ نحو: يقيني أنَّ زيدًا مدرك.

وخبر المبتدأ هو اسم معنى غير قول ولا يكون خبر « إن » صادقًا عليه، بحيث يكون من أفراده وإلا كان موضع المكسورة نحو: زيد إنه فاضل. في الإخبار عن اسم العين، وقولي أنه مستقيم واعتقادي أنه حق، وخبر زيد أنه صادق. فالاعتداد فرد من أفراد الحق، وخبر زيد فرد من أفراد الصادق، فلا يصح اعتقادي حقيقته، ولا خبر زيد صدقه. والمثال

الجامع للشروط حال زيد أنه يقول الحق، ومعتقدي أنه شاعر. تقول: حاله قول الحق، ومعتقدي شعره.

وتقع معطوفة على تلك الأشياء، فالحاصل أن جملتها بالنسبة لأجزاء الكلام غير مقصودة الجملية، وإن كانت جملتيها بحسب المعنى مقصودة، إذ مركز التوكيد والتقوية هو نسبة الخبر للمبتدأ، حتى أنه ليس معنى قول من يقول: أعجبني أن زيدًا قائم. على تقدير: أعجبني قيام زيد، أن نفس القيام الذي هو الانتصاب هو الذي أعجبه من حيث سرعته أو مهلته مثلًا، بل معناه أن الذي أعجبه صدور القيام وحصوله من زيد، وهذا هو معنى الجملة.

وتخفف « أن » فلا يزل اختصاصها، لكنها تلزم حالًا هي أن اسمها لا يذكر، وهو ضمير شأن إن لم يكن المحل صالحًا لضمير عادة، وأن خبرها يجب أن يكون جملة: اسمية أو فعلية فعلها جامد، أو دعاء، أو منفي، أو مبتدأ بقد، أو مبتدأ بالسين أو سوف أو لو نحو: علمت أن زيد قائم، وبلغني أن نعم زيد، ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ [النور: ٩]، ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ [البلد: ٥]، ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ ﴾ [المزمل: ٢٠].

واعلم فعلم المرء ينفعه   أن سوف يأتي كل ما قدرا

وسرني أن قد قام زيد، ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ [الجن: ١٦]

وهنالك أربعة مواضع يجوز فيها على اختلاف الملاحظة أن تأتي بالمفتوحة، وأن تأتي بالمكسورة.

الأول: حيث يقع التركيب بعد إذا الفجائية. كقوله:

وكنتُ أرى زيدًا كما قيل سيدًا إذا أنه عبد القفا واللهاذِم

معنى البيت: كان يخيل لي سيادة زيد وفق المشهور عنه، فلما اختبرته وجدته مبذول الهمة في تسمين بدنه، فهو عبد شهواته لا يحتمل مكارم السيادة اللازمة لمن أراد الشرف والرئاسة والتقدم على الغير. قال العربي:

ببذلٍ وحلم ساد في قومه الفتى وكونك إياهُ عليك يسير

وقال أبو الطيب:

لولا المشقةُ ساد الناسُ كلهم الجودُ يُفقر والإقدامُ قتال

فـ« إن » الواقعة بعد « إذا » يجوز فتحها على أن المذكور أحد ركني الجملة، والآخر محذوف. والتقدير: فإذا عبوديته لقفاه ولهاذمه هي الواقع، ويجوز الكسر على أن المذكور الجملة بتمامها.

الثاني: إذا وقعت بعد قسم، وليس معها لام نحو: أحلف أو أُقسم بالله أن اليقين خير من الظن، فإذا كان التقدير: أحلف على أن اليقين خير. فتحت « أن » وتكون حذفت الجار.

الثالث: إذا وقعت بعد فاء جواب الشرط. نحو: ﴿ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤]. الفتح على تقدير: فمغفرته له ورحمته إياه واقعتان حسبما ما تفضل بكتابته على نفسه جل ذكره.

الرابع: حيث يكون خبرها يمكن أن يؤخذ منه ما يصدق على المبتدأ. نحو: أول كلامي وآخره أني أشكر الله على تواتر نعمائه.

فالكسر على أن المقصود أول الكلام وآخره هذا اللفظ، والفتح على أن التقدير: أول الكلام وآخره شكر الله.

وأما « كأن » فإنها إذا خففت لم تهمل ويكون اسمها مذكورًا ومحذوفًا، واسمًا ظاهرًا وضميرًا، وإذا كان خبرها مضارعًا غلب كونه منفيًا نحو: ﴿ كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ [يونس:٢٤]. وإذا كان ماضيًا كان مقترنًا بـ« قد » نحو: كأن قد ألما، ووقوعه مذكورًا. نحو:

ويومًا توفينا بوجه مقسم كأن ظبية تعطو إلى وارق السلم

وأما « لكن » فإنها إذا خففت أهملت في الفصيح. وأما « ليت ولعل» فإنهما لا يخففان. وهذه الأحرف الستة تعقبها « ما » فيزول اختصاصها بالاسم، وتدخل على الفعل؛ فيجوز إعمالها حينئذ وإهمالها حيث تدخل على الاسم، إلا ليت فلا يزول اختصاصها، ولذلك كان إعمالها أكثر من إهمالها بل أوجبه بعضهم، ودخولها على الفعل نحو: زيد كأنما ينظر بعيني أسد. ونحو: إنما رأيته وهو ساكت. إلا « أن، ولكن، وإن » إذا أتيت بعد استكمال جملتها من الاسم والخبر باسم يشارك اسمها في حكمه، جاز لك عطفه عليه وجاز لك رفعه بالابتداء، والخبر محذوف لدلالة السابق، أو بالعطف على الضمير المستتر في خبر « إن » وحينئذ لا بد من الفصل بينه وبين حامل الضمير، كما ستقف عليه عند القول في التوابع نحو: إن زيدًا قائم وعمرو. أي كذلك، وإن زيدًا قائم هو وعمرو.

● الكلام على « لا »: إذا أردت أن تنص على انتفاء شيء عن جنس شيء، بحيث يكون الانتفاء عن جميع أفراده جئت بـ« لا » وتسمى: لا التبرئة، ولا النافية للجنس. ونصبت بها الاسم لفظًا إن كان مضافًا أو رفع فاعلًا، ويسمى هذا وما بعده: شبيهًا بالمضاف

أو نصب مفعولًا أو تعلق به ظرف نحو: لا غلام خدمة عند زيد، ولا ظريفًا طبعه مذموم، ولا قارئًا علمًا محروم، ولا رفيقًا بالناس مشتوم. ولا واقفًا عند حده مزيف. ونصبته محلًا وبنيته على الفتح إن كان غير ذلك. نحو: لا رجل قائل ما تقول. وعلى الياء في نحو: لا رجلين ولا غافلين. وعلى الكسر في نحو: لا ذا كرات. نيابة عن الفتحة.

وشاع في تركيب « لا » هذه ترك اللفظ بالخبر لانفهامه. ومنه قول القارئ: لا أحد بعد قراءته، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٨٧]، وقوله تعالى: ﴿ لَا مِسَاسَ ﴾ [طه: ٩٧]، وربما أُريد بتركيبها الذي هو من الخبريات النهي؛ فيصير من الانشائيات مثل هذا، ومثل قوله صلى الله: «لا ضرر ولا ضرار» ولا بأس باستيفاء القول في « لا » في هذا الموضع.

قد عرفت أنها من أحرف النفي، لكنها ذات أحوال مختلفة، فإذا دخلت على المضارع لم تعمل شيئًا، ولك تكرارها وعدمه حسب حاجتك نحو: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩]. ونحو: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ١، ٢].

وإذا دخلت على الفعل الماضي، فإن كانت للدعاء فكذلك نحو: لازال طالب الخير يجده، ولا برح باغي الشر يهديه الله ويصرفه عنه.

وإن كانت للأخبار وجب تكرارها نحو: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ﴾ [القيامة: ٣١]، ولا راح ولا جاء. وإذا دخلت على الجملة الاسمية، فإن كانت أجزاؤها نكرات ولم تفصل من المبتدأ أعملتها عمل « إن» حيث

تريد النص على النفي عن الجنس، وأعملتها عمل ليس حيث تريد النفي عن الواحد. نحو: لا رجل يقول ذلك، بل جميع أهل المدينة. ونحو: لا رجل يقول ذلك، ولا رجلان بل جميع الناس. وإذا وردت عاملة هذا العمل ولا قرينة على مراد وجب الحمل على النفي عن الجنس، إذ هو الظاهر ولا مقتضى للعدول عنه. فإذا كانت أجزاء الجملة معارف أو نكرات، وفصلت« لا » من المبتدأ لم تعمل شيئًا، ولزم تكرارها نحو: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ [الصافات: ٤٧]. ونحو: لا زيد في الحق ولا عمرو.

وتجيء مكررة مع الأوصاف إما لإثبات الوسط، نحو: لا حار ولا بارد. أي فاتر. ولا حلو ولا حامض. أي مز. وإما لغير ذلك نحو: ﴿ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ [المرسلات: ٣١].

● الكلام على « إلا »: هي من النواسخ إذا كانت بمعنى « لكن » وجاء بعدها ما ليس من جنس ما قبلها، بشرط أن يتوهم شمول الحكم له حتى يصح الاستدراك. وإذا كان ما بعدها من جنس ما قبلها، وحكم عليه بغير نقيض الحكم السابق. نحو: خرج أهل البلد للنزهة إلا حمارًا. على معنى: لكن حمارًا لم يخرج وبقي في البلد، فإن الكلام السابق يوهم أنه لم يبق حيوان من المستعملات في الركوب، حيث كان الخروج عامًّا لأهل البلد، ونحو قوله تعالى: ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝ إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ۝ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ [سورة الغاشية: ٢٢-٢٤]. على معنى لست عليهم بمحافظ تلجؤهم إلى الدخول في الدين، لكن

المتولي الكافر يعذبه الله، والكلام السابق على « إلا » ربما أوهم إهمالهم هذا. وقد رأيت تأخير الكلام على مفعولي الأفعال الإدراكية، والأفعال التصييرية اللذين عرفت أنهما النوع الثالث من النواسخ إلى باب المفعول به؛ ليكون الكلام آخذًا بعضه بحجز بعض.

* * *

القسم الثالث في الجملة الفعلية

عرفت أن الجملة الفعلية: هي المصدرة بالفعل.

(الكلام على الفاعل ونائبه): الفاعل يرفعه فعل المعلوم بما تضمنه من المعنى، الذي تنسبه إليه على وجه طلبه منه، أو الأخبار بصدوره عنه؛ فجميع ما دل دلالة فعل المعلوم يرفع الفاعل؛ فيرفعه المصدر، والأفعال، واسم الفاعل، والصفة، واسم التفضيل والمصغر لالتحاقه بالصفات، والمنسوب إن لاحظت في معناه منتسب، والظروف المستقرة بما فيها من معاني الأفعال نحو: أعجبتني كتابة العلم زيد وحرصه على الفائدة، ونعم ما يصنع فأكرموه، فإنه عالي الهمة حسن الصنع، ولم أر رجلًا أجمل به الإكرام منه بطالب العلم، وما في ذلك شك، وهل عند أحد فيه ريبة؟ وكل محمدي الطريقة مصدق بذلك، وهل مسيكين إلا من يجهل قيمة أعماله؟

ويكون الفاعل اسمًا ظاهرًا، ويكون ضمير مستترًا. أي ملحوظًا ليس له لفظ، وبارزًا ومتصلًا ومنفصلًا. يكون ضميرًا مستترًا في أمر الواحد، وفي مضارع المتكلم الحالي عن نفسه وحده، والحاكي عن نفسه وغيره وفي مضارع المخاطب الواحد، وفي فعل التعجب، وفي أفعال الاستثناء، وفي اسم التفضيل غير نحو ما في المثال السابق.

ويكون ضميرًا بارزًا في غير ذلك، وفي غير أفعال الغيبة، ويكون ضميرًا بارزًا تارة واسمًا ظاهرًا تارة في أفعال الغيبة غير فعل الغائب الواحد والغائبة الواحدة، وفيهما يكون اسمًا ظاهرًا تارة وضميرًا مستترًا تارة، وبسبب كون الفاعل في هذين الموضعين تارة يكون ضميرًا مستترًا،

وتارة يكون اسمًا ظاهرًا، تسمع المعربين يقولون في نحو: زيد عرف، الفاعل فيه ضمير مستتر جوازًا، فالجواز صفة مجموع كونه ضميرًا مستترًا لما عرفت أن كونه ضميرًا غير لازم، وفي المواضع التي لا يكون الفاعل فيها إلا ضميرًا مستترًا نحو: أكرم زيدًا يقولون: الفاعل ضمير مستتر وجوبًا على معنى أنه لا يكون غير ضمير البتة.

ويكون ضميرًا منفصلًا إذا حصر فيه الفعل بـ« ما، وإلا » أو بـ« إنما»، أو فصل بأداة التفصيل أو حذف فعله. الأمثلة لذلك: أعرف أعرف نعرف تعرف. ما أعرف زيدًا، عرف القوم ما خلا زيدًا. وما عداه وحاشاه وليس ولا يكون، وهو أعرف من عمرو. وعرفت وعرفنا، وعرفت وعرفت وعرفتما وعرفتم وعرفتن وتعرفين وتعرفان وتعرفون وتعرفن. واعرفي واعرفا واعرفوا واعرفن وعمرف، ويعرف الرجلان، والرجلان عرفا ويعرفان. وعرفت وتعرف المرأتان والمرأتان عرفتا وتعرفان، وعرف ويعرف الرجال، والرجال عرفوا ويعرفون، وعرفت وتعرف الناس والناس عرفن، ويعرفن وعرف. ويعرف الرجل، والرجل عرف، ويعرف وعرفت وتعرف المرأة، والمرأة عرفت وتعرف، وما عرف إلا أنت، وإنما عرف هو، ويقرأ إما أنا وإما أنت، ويقول إنسان: من قرأ. فتقول: أنا. على ملاحظة قرأت فحذفت الفعل اتكالًا علي فهمه بقرينة السؤال وفصلت الضمير. ومما سلف تعرف أن الفعل مني أُسند إلى الأسماء الظاهرة كان على صورة فعل الغائب الواحد دائمًا، فلا تقول: عرفا الزيدان، ولا عرفوا الرجال، ولا عرفن النساء، بل تقول: عرف الزيدان، وعرف الرجال، وعرفت النساء، كما تقول: عرف زيد، وعرفت هند. وهنالك لغة ردئية يسميها النحويون لغة: أكلوني البراغيث. تلحق الفعل الألف والواو وألنون أحرفا تدل بها على الاثنينية والجمعية، وذلك المثال المسموع من

أهل تلك اللغة المشهور عنهم، والأوصاف الملحوظة ملاحظة الأفعال لها حكمها، ولذلك تقول كما عرفت: أقائم الزيدان، وما قائم العمرون، كما تقول: أقائم زيد، وما قائم عمرو. فالتركيب مبتدأ صوري وفاعل، وإذا قلت: أقائمان الزيدان، وما قائمون العمرون، فالتركيب خبر مقدم ومبتدأ مؤخر، والوصف ومرفوعه غير جملة إلا في مثل هذا التركيب. وإذا كان الفاعل متصلًا بالفعل، وكان ضمير أنثى حقيقة أو اعتبارًا، أو اسمًا ظاهرًا لأنثى حقيقة، أو جمع مؤنث سالم لم يجر مجرى جمع التكسير، وليس مفرده اسم ذكر وجب لأجله تأنيث الفعل؛ فتأتي مع الماضي بتاء التأنيث الساكنة وتفتتح المضارع بالتاء، فتقول: هند كتبت وتكتب، والشمس طلعت وتطلع، وقرأت وتقرأ عمرة. وإذا فصل أو كان اسمًا ظاهرًا لأنثى اعتبارًا، أو كان جمع غير مذكر سالم وغير مؤنث، لم يجر مجرى المكسر وليست آحاده ذكورًا، جاز التأنيث على ملاحظة معنى الجماعة في الجموع، والتذكير على ملاحظة معنى الجمع فيها.

وأما جمع المذكر السالم فيجب معه تذكير الفعل وقد سلف حكم جمع المؤنث السالم والأحسن التأنيث مع الإناث إلا في نحو: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ [يوسف: ٣٠]. والأحسن التذكير في نحو: ما قام إلا هند. وإنما كتب عمرة ونعم المرأة هند.

ويحذف الفعل جوازًا في نحو: قول المرأة إلا حظية فلا ألية. معناه إلا تتفق وتحصل حالة أحظى بها، فلا آلو، أي: أقصر في أمور النساء، وكلام هذه المرأة تخبر به أنها عاملة بقول الشاعر:

على المرءِ أن يسعى لما فيه نفعهُ ويقضي إلـهُ الخلق ما كان قاضِيًا

وفي رواية: وليس عليه أن يساعده الدهر.

وفي ثالثة: وليس عليه أن تتم المطالب.

ومن حذف الفعل جوازًا قول الحارث بن نهيك:

لُيبكَ يزيدُ ضارعٌ لخصُومة ومُختبِط مما تُطيح الطوائح

أمر ببكاء يزيد ولم يذكر الباكي، فإن الفعل في: ليبك يزيد. فعل مجهول. فاقتضى الحال السؤال عنه، فكأنه قيل: من يبكيه؟ فقال: يبكيه ضارع. فحذف الفعل اعتمادًا على السؤال المقدر.

ويحذف وجوبًا في نحو: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴾ [التوبة: ٦]. وهل زيد كتب؟ من كل تركيب ذكر فيه مفسر مع ما يختص بالفعل، ولا يحذف الفاعل أصلًا ويحذفان معًا، ومنه الحذف مع أحرف الجواب نحو: هل قام زيد؟ فتقول: نعم أو لا. أي قام زيد أو لم يقم. ولا يجوز تقديم الفاعل على الفعل. وأما نائب الفاعل فيرفعه فعل المجهول واسم المفعول، ومنه المنسوب إذا لاحظت معنى المنسوب والمعزو والممنى وينوب عن الفاعل المفعول به، والمصدر الذي لم يلازم النصب. نحو: الليلة قرأت قراءة جيدة. والمصادر الملازمة للنصب نحو: معاذ الله، سبحان الله. غير قابلة لذلك. وينوب عنه أيضًا الظروف المتصرفة. نحو: تصدق الليلة على غني، تصدق الليلة على سارق، تصدق الليلة على بغي.

ومثل الظرف الجار والمجرور نحو: بيع واشترى في المسجد، وقرئ في الأسواق، وإذا كان الفعل ذا مفعولين فالأفصح إنابة أولهما. ويجوز

إنابة الثاني مع وجود الأول إذا لم يلزم لبس نحو: كسيت جبة زيدًا. ولا يجوز: أعطى سالم غانمًا؛ لأنه يتبادر أن سالما هو الآخذ وغانمًا هو المأخوذ، والقصد خلاف ذلك؛ فالواجب أعطى غانم سالمًا ليفهم سامعك مرادك حسب الغرض من الكلام.

وإلى هنا عرفت الأنواع المرفوعة من نوع الاسم، وهي ستة: المبتدأ، والخبر، واسم باب « كان »، وخبر باب « إن»، والفاعل ونائبه، والمنصوبات منه عشرة أنواع، مضى منها اثنان هما خبر باب « كان »، واسم باب « أن » وبقيته ثمانية وهي: المفعول به، والمفعول المطلق، والمفعول لأجله، والمفعول فيه، والمفعول معه، والمستثنى، والحال، والتمييز.

* * *

الكلام على المفعول به

المفعول به: هو اسم الشيء الذي تعلق به الفعل على وجه التأثير فيه، ويكون صريحًا نحو: نقشت الخاتم، وكتبت الكتاب، وبريت القلم. ومؤولًا نحو: أود لو تحفظ العلم. فلو موصول حرفي يؤول صلته بمصدر هو المفعول به؛ فالتقدير: أود حفظك العلم. ونحو: أسألك أن تجتهد في التعلم. تقديره: أسألك الاجتهاد. ونحو: بلغت زيدًا أنك مجتهد. تقديره: بلغت زيدًا اجتهادك. ونحو: أشكر ما تكرم زيدًا تقديره: أشكر إكرامك. ويكون ظاهرًا كما مرَّ، وضميرًا متصلًا وهو النوع المشترك بين مواضع النصب نحو: غلامي أعجبني ومواضع الخفض. ومنفصلًا وهو النوع المختص بمواضع النصب نحو قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

[سورة الفاتحة: ٥]. ويكون واحدًا واثنين وثلاثة كما عرفت، المفعول الواحد يكون لكل فعل لا يكفي في حصوله فاعله، بل يحتاج في حصوله لغير فاعله وهو المتعدي والمتجاوز، فإن كفى في حصوله شيء واحد مع الفاعل فهو المتعدي لواحد نحو: قرأت القرآن، وحفظت المسائل، وفهمت ما نطقت به حين سمعته. فإذا كان المفعول الواحد ضميرًا وجب أن يؤتى به متصلًا بعامله إلا إذا قدمته عليه أو حصرت فيه الفعل، أو فصلته بـ« إما » أو حذفت عامله، فإنه يجب أن يؤتي به منفصلًا في هذه المواضع.

(المتصل): أكرمني وأكرمنا وأكرمكَ وأكرمكِ وأكرمكما وأكرمكم وأكرمكن وأكرمه وأكرمها وأكرمهما وأكرمهم وأكرمهن.

(والمنفصل للتقديم): إياي أكرم زيد، وإيانا وإياكَ وإياكِ وإياكما وإياكم وإياكنّ وزيد إياه أكرم، وهند إياها أكرمتُ، وإياهما وإياهم وإياهنّ.

(المنفصل للقصر): زيد ما أكرم إلا إياي، وإنما أكرم إياي وهلم.

(المنفصل للتفضيل بـ« إما ») نحو: أنا وزيد لا نجتمع فادع إما إياي وإما إياه.

(المنفصل لحذف العامل): إياك وأفعال الأراذل تحذيرًا، ونحو: من ذكر عمرو بخير، فتقول في جوابه: إيّاك، والأصل ذكرك. والأصل في سابقه: أحذرك، فلما حذف العامل لم يجد الضمير ما يتصل به فانفصل ضرورة.

المفعولان اللذان يطلبهما بابا أعطى وظن .. ولمفعولي كل من البابين مسائل تتعلق بهما يتعين إيرادها هنا.

* * *

مفعولا باب أعطى

قد عرفت أن المفعولين لباب أعطى يسمى أحدهما: مفعولًا أول وضابطه أن يكون له فاعلية في المعنى. ويسمى الآخر: مفعولًا ثانيًا وضابطه أن لا يكون له فاعلية في المعنى، بل له المفعولية الخالصة، والذي يجب أن تعرفه هنا أنه يكثر حذفهما، ويكون الفعل منزلًا منزلة الأفعال اللازمة حيث يكون الغرض الإخبار بنفس الفعل، كقولك: الله هو الذي يعطي ويمنع. كما يكثر حذف المفعول الواحد، ويكون فعله كذلك نحو: هو الذي يحيي ويميت، ويضحك ويبكي، ويغني ويفقر. فهذه الأفعال منزلة منزلة الأفعال اللازمة، إذ الغرض الإخبار بحصولها أنفسها وذلك مفيد كما رأيت، ويجوز حذف أحدهما من غير دلالة عليه، فيكون الفعل منزلا منزلة المتعدي لواحد حيث لا يتعلق الغرض بذكر المحذوف كقولك: أعطى زيد عمرًا؛ حيث لا يقصد الإخبار بالشيء الذي أعطاه، وكقولك: أعطى زيد دراهم ودنانير؛ حيث لا نقصد الإخبار بالأشخاص الذين أعطاهم، ويسمى هذا الحذف، الحذف اقتصارًا.

وأما حذف أي لفظ من الكلام اعتمادًا على دليل يدل عليه، فيكون المحذوف ملحوظًا غاية الأمر أنك استغنيت عن ذكره بسبب كونه مفهومًا من الدليل الذي يدل عليه، فإنه يسمى: الحذف اختصارًا، وهو جائز في المفاعيل وغيرها. وإذا كان المفعولان ضميرين فإن كانا من جنس واحد

كقولك لعبدك: ملكتك إيّاك. فيقول العبدك سيدي ملكني إيّاي. فتخبر أنت عن ذلك فتقول: عبدي ملكته إيّاه. وجب فصل الثاني فلا يصح: ملكتك ولا ملكني ولا ملكتهوه؛ للقبح الظاهر في غير ضميري الغيبة، وفيهما يخف الوصل خفة ما سيما عند اختلافهما تذكيرًا وتأنيثًا وإفرادًا وتثنية وجمعًا؛ فالأفصح فيهما الفصل، وجاء الوصل قال:

وقد جعلت نفسي تطيب لضغمة ... لضغمهما ها يقرع العظم نادمه

وإن لم يكونا من جنس واحد جاز لك في الذي تجعله ثانيًا في اللفظ أن تأتي به منفصلًا وأن تأتي به متصلًا نحو: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ [هود: ٢٨]. لكن لا يجوز أن تأتي به متصلًا إلا إذا كان سابقه أخص منه، والمراد بالأخص من الضمائر الأعراف والأبعد عن الاحتمال والاشتباه، فالأخص ضمير المتكلم إذ لا شبهة فيمن يقول: أنا. أنه يقصد شخصه وأنزل منه ضمير المخاطب، إذ لو كان بين يديك اثنان وخاطبت أحدهما بأنت حصل اشتباه في مرادك منهما، ولذلك تحتاج في رفعه إلى التوجه إليه والإشارة حسبما يحتاج لتعيينه، فأنزل الضمائر ضمير الغيبة لأنك تعتمد في تعيين المراد به مرجعه، وربما خفى المرجع بسبب كونه التزاميًا أو تضمنيًا أو مختلطًا بأشياء تصلح أن تكون مرجعًا حتى أنه قد يوجب السؤال، فالمرجع الالتزامي كقوله تعالى: ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [سورة ص: ٣٢].

وكقول لبيد:

حتى إذا ألقت يدًا في كافر ... وأجن عوراتِ الثغور ظلامُها

والتضمين كقوله تعالى: ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [سورة المائدة: ٨] وتقول: زيد خزن مالًا وصرف مالًا، ولو كان صرفه في وجوه بر لكان له خيرًا فتقول: الدرهم أعطيتكه وأعطيتك إياه مخيرًا، فإذا قلت: الدرهم أعطيته. وجب الفصل فتقول: إياك والمعروف سألته إياك، والجبة كسوتها إياك. فمتى قدمت الأخص جاز لك في المؤخر الفصل والوصل، ومتى أخرته وجب فصله، كما أنه يجوز الفصل في خبر كان وأخواتها إذا وقع ضميرًا وكان الاسم ضميرًا، كقولك: الصديق الخصيص كنته وكنت إياه، والعدو البغيض زيد كانه وكان إياه. وكمفعولي أعطى إذا كانا ضميرين مفعولا ظن وأخواتها، ولمفعولي ظن وأخواتها مسائل تتعلق بهما:

(الأولى): مفعولا باب ظن أصلهما المبتدأ والخبر كما سبق، وجميع صور المبتدأ والخبر، والمبتدأ ذي المرفوع ومرفوعه تقع بعد الأفعال الإدراكية، التي هي ظن وأخواتها، فتقول: ظننت زيدًا قائمًا، وظننته قام، وظننته يقوم، وظننته أبوه قائم، وظننته في الدار، وظننته عندك، وظنته الأمر غير هين على زيد.

لكن الضمائر المنفصلة المرفوعة تصير ضمائر متصلة منصوبة؛ لأنك تجعل المبتدأ والخبر مفعولين لهذه الأفعال، ونحو: أظن زيدًا أن تكرمه يكرمك، وأظن ما مستقيم الزيدان، وعلمت أراض أخواك. وحيث كان مفاد هذا التركيب أن ظنك أو علمك تعلق بوقوع نسبة أمر لأمر في زمن ما لم يمكن جعل الجملة التي يكون خبرها طلبًا متعلقًا للظن أو العلم إلا على التأويل.

مثلًا إذا قلت: زيد وسكت، قال سامعك: ما له، فإذا قلت: اضربه، أو لا تهنه؛ أو هل رضي أبوه عنه. حصلت الإفادة وانقطع تشوف السامع

دون تأويل وإعمال فكر بخلاف ما إذا قلت: ظننت زيدًا، فإن سامعك يقول: ظننته ماذا؟ فإذا قلت: أكرمه. رجع السامع بفكره إلى التركيب واستبان أن مرادك بقولك: ظنت زيدًا أكرمه، ظننت زيدًا بسبب كونه مستقيم الأحوال حسن السيرة، طيب السريرة مستحقًا لأن تؤمر بإكرامه، فحاصله أن معنى كلامك: ظننت زيدًا خيرًا، ثم تبينت خلاف ذلك.

(الثانية): هذه الأفعال تتعلق في الحقيقة بنسبة الخبر للمبتدأ؛ لأنك تفيد أن أمرًا مظنون لك وأن أمرًا معلوم لك، فإذا قلت: علمت زيدًا قائمًا، فليس غرضك أن تفيد كون شخص زيد معلومًا لك، ولا أن معنى القائم وهو شيء منسوب له القيام معلوم لك، ولكن تريد أن تفيد أن ثبوت القائم لزيد أمر معلوم لك؛ فالموصوف بالمعلومية هو ثبوت الخبر للمبتدأ أو انتفاؤه عنه، فهو المفعول في الحقيقة لكن لما لم يمكن إبراز النسبة إلا بالتركيب أورد التركيب، وجعل النصب الذي هو علامة المفعولية على وجه ثبوت الثاني للأول أو انتفائه عنه.

(الثالثة): إذا قدمت الجزءين على الأفعال أو وسطت الأفعال بينهما، جاز لك أن تنصبهما مفعولين وأن ترفعهما مبتدأ وخبرًا فتقول: زيدًا أظن قائمًا، أو زيد أظن قائم وزيدًا قائمًا أظن، أو زيد قائم أظن، وتسمى الأفعال عند الرفع: ملغاة.

(الرابعة): إذا كانت جملة المبتدأ والخبر مصدرة بما النافية، أو بأن النافية، أو بلا النافية، أو مصدرة بقسم، أو مصدرة باستفهام، أو مشتملة على لام الابتداء مصدرة فيها، أو مزحلقة لوجود أن في صدر الجملة، وجب رفع الجزءين مبتدأ وخبرًا. ويقال: إن الجملة في محل نصب مشتملة على مفعولي ظن.

مثلًا: كما إذا كانت الجملة شرطية، وحينئذ تسمى الأفعال: معلقة عن العمل حيث لم يكن لها تسلط على لفظ ما بعدها بالنصب نحو: علمت ما زيد قائم، وأظن لا زيد ولا عمرو، وأر أن الأيام إلا مخلفة ما وعدت، وعلمت والله لزيد قائم، وعلمت أعندك زيد أم عمرو، وعلمت هل زيد في الدار، وتظن أي الرجلين أفضل، وأنا ظان أو عالم لزيد قائم، واعلم أن زيدًا القائم.

فإذا وقعت أن بعد علم ولا لام معها وجب فتحها، وحينئذ يقال: أن وصلتها في تأويل مفرد مصدر ساد مسد مفعولي نحو: علمت أن الله على كل شيء قدير. والتقدير: علمت قدرة الله على كل شيء ونحو: علمت إن يقم زيد يقم عمرو، وتعلم مهما يرد الله يكن. فلا يكون المفعول جملة إلا في باب ظن، وقد عرفت أن المفعول في الحقيقة هو النسبة، فجعل الجملة مفعولًا مشي مع الظاهر.

(المسألة الخامسة) يندر حذف المفعولين أو أحدهما في هذا الباب اقتصارًا؛ لعدم الفائدة في الإخبار بأن عندك ظنًا أو علمًا غالبًا، فإذا قلت: أظن أو أعلم تفيد أن عندك ظنًا أو علمًا لم يكن مسموعًا منك، بخلاف: زيد يعطي ويتفضل؛ فإن له فائدة ظاهرة، ومن النادرة قولهم: من يسمع يخل. وهو مفيد وتقول مثلًا: خلق الإنسان يعلم ويظن ويتخيل ويشك ويتوهم فكيف تكلفني ترك ما هو خاصة نوعي فيكون مفيدًا كذلك، وقد عرفت أن الاعتماد في جميع الكلام على حصوله الفائدة: التي لم تكن عند المخاطب وإلا كان لغوًا.

(تكلمة) القول يتعلق باللفظ فيكون مفعوله اللفظ المحكي بعده مفادًا أنه المنطوق به، فتقول: قلت كلمة. أي هذا اللفظ أو لفظًا آخر عبرت عنه

بالكلمة كزيد أو عمرو، وقلت: زيدًا. أي هذا اللفظ وقلت: زيد قائم وهكذا فالمفعول به للقول وما تصرف منه هو الألفاظ. والمفعول به لباب ظن هو النسبة، والمفعول به لبقية الأفعال هو الأشياء التي تعلقت بها الأفعال على وجه التأثير فيها.

وحيث عرفت أن معنى الفعل منسوب يلحظ أولًا، ونسبة تلحظ ثانيًا، ومنسوب إليه يلحظ ثالثًا، وكانت نسبة الفعل إلى فاعله سابقة في التعقل عن نسبته إلى مفعوله ونسبته إلى مفعوله الأول كذلك، فالمناسب أن يكون اللفظ على هذا الترتيب تقول: كتب زيد كتابًا، وأعطى بكر أباه دارًا، ولكن تارة يقتضي الحال خلاف ذلك.

أما الفاعل فلا يتقدم على الفعل أصلًا، وأما غيره فإن كان كلمة لها صدر الكلام وجب تقديمه نحو: ما تكتب؟ ومن تخاطب؟ ومن تكرم أكرم. ومن تهن إن زيدًا وإن غيره أهن، وإن كان الفاعل ضميرًا أو كان هو والمفعول غير ظاهري الإعراب، أو كان المفعول مقصورًا عليه فعل الفاعل وجب تأخير المفعول عن الفاعل نحو: أكرمت زائرًا؛ لأن تقديمه عليه يوجب فصله مع إمكان وصله وهو ممتنع، ومنه تفهم أن الغرض عدم تقديمه على الفاعل فقط، والفصل بينه وبين الفعل فيتقدم على الفعل حيث لا مانع ونحو: أساء ذلك هذا، وأكرم عيسى موسى، فإنه لا يتميز الفاعل من المفعول إلا بالموضع لصلاحية كل لأن يكون فاعلًا، ولأن يكون مفعولًا، ولا ظهور للإعراب، فلو تعين كل لكل بغير الموضع لم يلزم ذلك نحو: أكل الكمثري هذا الفتى، وسبق عيسى موسى بألف سنة ونحو: إنما قصد زيد دارك. أي قصد دارك ولم يقصد دار غيرك.

وأجاز النحويون هنا أن يتقدم المقصور عليه بإلا معها نحو: ما قصد الإدراك زيد، فإنه لا يعرف المقصور عليه بإنما إلا بالموضع، بخلاف المقصور عليه بما وإلا، وإذا كان المفعول ضميرًا أو كان الفاعل مقصورًا عليه بإنما، أو كان مع الفاعل ضمير مرجعه المفعول وجب تقديم المفعول على الفاعل نحو: أكرمني زيد، وإنما أهان عمرًا زيد، وزان الشجر نوره، واجعل المفعول الأول فاعلًا، واعمل فكرك في قياسهما على الفاعل والمفعول؛ لتستخرج أحكامهما نحو: أعطيتك عبدًا، وأعطى زيدًا سالمًا غانمًا، وإنما كسى زيد عمرًا جبة، وإنما كسى بكر جبة خالدًا، وهكذا.

وقد سمعت غير مرة أن كل لفظ يفهم معناه دون ذكره لدلالة قرينة لفظية أو حالية عليه جاز لك حذفه كما قال: وحذف ما يعلم جائز. وسمعت أيضًا أن بعض الألفاظ يجب حذفه وبعضها يجب ذكره، فيجب ذكر المفعول به كغيره إذا كان جوابًا أو مقصورًا عليه أو متعجبًا من صفته ما لم يكن في معطوف كقولك: أكتب. جوابًا لمن يسألك: ماذا تكتب؟ ولا أقصد إلا إبانة الحق، وما أحسن زيدًا وأجمل.

ويجب حذف ناصب المفعول به في خمسة مواضع بإنابة شيء عنه وبدونها:

(الموضع الأول) تراكيب معدودة مسموعة وهي الأمثال، وما جرى مجراها من ذلك قوله تعالى: ﴿ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ [سررة النساء: ١٧١] أي: انتهوا عن التثليث وائتوا خيرًا. ومثله قولهم: حسبك خيرًا. وقول أبي الأسود: وراءك أوسع لك. والقرينة ذكر ما يؤمر به لملائمته وموافقته عقب النهي عن غيره. ومنها قولهم: أمرأً ونفسه. أي: دع امرأً ونفسه أو

مع نفسه نهيًا عن التعرض بالنصيحة لغير قابل. وربما استعقبت شرًّا. وفي الحديث: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه؛ فإن لم يستطع فبقلبه». ولبعض الشعراء:

لا ترجـع الأنفـس عـن غيهـا ... مـا لـم يكـن منهـا لهـا زاجـرٌ

ولآخر:

إذا مـا هـديتَ امـرأ مخطِئًـا ... أضـلَّ السـبيلَ إلـى قـصدِهِ

ولـم تـره سـامعًا قـابِلًا ... فحـسنٌ لـه المـشيُ فـي ضِـدِّه

أي إن اضطررت لذلك، ومن جرب عرف، ولأبي الطيب:

إنمـا تـنجح المقالـةُ فـي المـرء ... إذا صـادفت هـوى فـي الفُـؤاد

ومنها قولهم: أهلًا وسهلًا ومرحبًا. أي: لقيت أهلالًا أجانب وصادفت مكانًا سهلًا وحللت موضع رحب. أي سعة. رحُبت دارك. أي: كانت رحبة بسكون الحاء، وصف المؤنث من رحب فهو رحب، من الباب الخامس. ومنها قولهم: هذا ولا زعمائُك. تقوله إذا رميت مخاطبك بحكاية الأكاذيب عند سماعكما خبرًا عليه سيما الصدق أي: هذا أقبل وأصدق وأزعم، ولا أسمع زعماتك ولا أقبلها ولا أعتبرها. وقدر ما يناسب الحال. ومنها قولهم: عذِيركَ مِن فُلانٍ وعذِيرِي منه. تقوله لمن أساء شخصًا يظهر أنه لا يستحق الإساءة عتابًا أو يستحق ثناء. أي: اذكر عذرك أو عاذرك. أي: الحال التي بها تعذر أو أعلم أنا عذرك أو الحال التي بها تعذر.

ومنها قولهم: الكلاب على البقر. أصله في الصيد وهو مورد المثل، وتقوله لإرشاد صاحبك إلى متاركة الناس وأعمالهم. ومنها قول العربي

لغيره: أهلك والليل. أي ائت أهلك مع الليل، أو ائت أهلك نهارًا وأسبق الليل؛ فإن الليل تنتشر فيه السباع والحشرات واللصوص.

ومنها قولهم: عمرك الله. بنصب الكلمتين أي: سألت الله تعميرك ومدّ أيامك. بحذف زيادتي المصدر وهذا أنموذج ينبهك على التقادير المناسبة فيما يرد عليك من الأمثال وما يجري مجراها، فإنك مطالب بما فيه زيادة منفعتك من الاطلاع على أمثال العرب وغيرهم، حيث كانت الأمثال أحرار الكلام ومستقر البلاغة وينابيع الحكم، منها تستفيد وبها تتأدب وعليها تعتمد.

(الموضع الثاني): تراكيب النداء بضم أوله على أنه مصدر صوتي، وبكسره على أنه مصدر مفاعلة، فالمنادي مفعول به لا يذكر ناصبه مع إقامة أحرف النداء مقامه غير أن له أحوالًا بحسبها تختلف أحكامه:

(الحالة الأولى): أن يكون مفردًا معرفة فراده، وتعرفه اللذين عرفتهما منادًا مطلوب الإقبال فقط، وحكمه في هذه الحالة البناء على ما يرفع به؛ لو كان معربًا فيبني على الضم الظاهر في نحو: يا زيد ويا رجل، والمقدر في نحو: يا هذا، ويا أنت، ويا إياك على لغة من قال: يا إياك قد كفيتك، ويا سيبويه ويا فتى ويا قاضي؛ لامتناع ظهوره أو ثقله، وعلى الألف في المثنى، وعلى الواو في جمع المذكر السالم، وهو في موضع نصب لكونه مفعولًا به لفعل ملتزم الحذف تقديره: دعوت بلفظ الماضي؛ لأنه صار إنشاء والمعهود نقله إلى الإنشاء هو الماضي كبعت واشتريت. نعم: إذا كان المنادى علمًا موصوفًا بابن أو ابنة متصلين به مضافين لعلم أبيه أو أمه جاز لك ضم المنادي وفتحه، وهو المختار للتخفيف ولهذه العلة يحذف تنوينه وألف ابن وابنة من الخط إن لم تكن أول سطر.

وقوله: * جارية من قيس ابن ثعلبة * شاذ.

وإذا كان مكررًا والثاني مضاف. كقول الشاعر:

يا تيمُ تيم عدِى لا أبالكُم لا يلفينَّكمُ فِي سوءة عُمُر

وقول الآخر:

يا زيدُ زيد اليعملات الذبل تطاول الليل عليك فانزل

جاز لك ضمه لكونه من المنادى ذي الحالة، التي نحن في إبانة حكم صاحبها، وجاز لك نصبه إغضاء عن الثاني وكأنه غير موجود، فيكون المنادي حينئذ ليس من المنادي ذي الحالة التي نحني في إبانة حكمها، وعليه تقول: يا غلامان غلامي صاحبي، أو يا غلامي غلامي صاحبي، ويا زيدون زيدي اليعملات، ويا زيدي زيدي اليعملات.

وإذا أردت أن تنادي بالاسم المفتتح بأل، وجب أن تفصل بينه وبين حرف النداء بكلمتي: أيها في المذكر، وأيتها في المؤنثز فكلمة أي اسم مبهم بمعنى شيء فسر بالمنادي، فالمفتتح بأل هو المنادي في الحقيقة، لكن الصناعة تلزمك أن تقول: إن كلمة أي هي المنادي المبنى على الضم في موضع نصب، وها حرف تنبيه وما بعدها صفة ليس لها حكم تابع المنادي، الذي يرد عليك تفصيل أحكامه عند الكلام على التوابع، ومثل أي في هذا اسم الإشارة، وربما جمع بينهما نحو: يا أيها الإنسان ما غرك، يا أيتها النفس المطمئنة، يا أيها الذي، يا أيهذا الرجل، يا أيتها المرأة. ولبعضهم:

أيتها النفسُ إليه اذهبي فحبه المشهور من مَذْهبي

مُفضض الثغر له نقطة مسكية في خدِه المذضهبِ

أيأســـني التوبـــة فـــي حُبـــه طلوعُـــه شَمـــسا مـــن المغـــرب

وأجازت ضرورة الشعر أن يجمع الشاعر بين يا وأل، فلا يجوز الكلام إلا إذا كان المنادى جملة جعلت علمًا نحو: يا المنطلق زيد، وإلا إذا كان لفظ الجلالة فتقول: يا ألله بقطع الهمزة على الأفصح، والأحسن: اللهم بتعويض الشديدة عن يا ولمكان التعويض شذ جمعهما في الشعر كقوله:

إنـــي إذا مـــا حـــدثٌ ألمَّـــا أقـــولُ يـــا لَّلهـــمَّ يـــا لَّلهـــمَّ

ولضرورة الشعر ينون هذا المنادي، وهو باقٍ على ضم بنائه في أصح القولين. (الحالة الثانية): أن لا يكون المنادي مطلوب الإقبال فقط، بل يكون مع طلب إقباله مستغاثًا مطلوبًا أن يكون غوثًا منقذًا من شدة ويذكر بعده صاحب الشدة. وتارة يكون هو المستغيث وتارة يكون غيره، أو يذكر بعده نفس الشدة وحينئذ يسمى المنادى: مستغاثًا، وصاحب الشدة: مستغاثًا لأجله، والشدة: مستغاثًا منه. وحكمه حينئذ أن يخفض بلام مفتوحة؛ لأن المنادى واقع موقع كاف الخطاب الضمير، ومع الضمائر تفتح اللام وهي لام الاختصاص متعلقة بالفعل المقدر وإن كان متعديًا لضعفه بالحذف، ويخفض المستغاث لأجله بلام مكسورة كما يخفض بها المعطوف إلا إذا كررت يا لكونه مستغاثًا مستقلًا فتفتح معه اللام وتخفض المستغاث منه بمن نحو: يا لزيد لعمرو، ويا لبكر لي ويا لهشام ولخالد ويا لهشام ويا لخالد، ويا لخالد من جور الأحكام، ولك أن تحذف لام المستغاث وتعوض عنها بعد آخره ألفًا نحو: يا زيدًا لعمرو، ومثل المستغاث المهدد والمتعجب منه في كيفه أو كمه نحو:

يـــالَبكرِ أنـــشِرُوا لـــي كَلَيْبًـــا يـــالبكرِ أيـــنَ أيـــنَ الفـــرارُ

في التهديد وكقول العربي حيث ينتهي إلى ماء كثير؛ نمير صاف وعشب كثير ريان ناضر: يا للماء ويا للعشب، ومنه: يا عجبًا. وكثيرًا ما يغلط القارئ، فيقول: يا عجبا. بالتنوين فحكم المهدد والمتعجب منه حكم المستغاث.

(الحالة الثالثة): أن لا يكون المنادى مفردًا معرفًا، بل إما أن يكون مضافًا وما يضارعه، وإما أن يكون نكرة وحكمه حينئذ النصب لفظًا أو تقديرًا نحو: يا أخافهم، ويا فتى الفتيان. والمراد بما يضارع المضاف ثلاثة أشياء أحدها الاسم العامل نحو: يا حسنا وجهه، ويا محسنًا أعماله، ويا بصيرًا بأمره الثاني الاسم الموصوف بجملة أو ظرف كقوله:

أعبدًا حلَّ في شُعبي غَريبًا ألُؤمًا لا أبالكَ واغترابا

وكقوله:

أيا شاعرًا لا شاعر اليوم مثلَه جرير ولكن في كليب تواضعُ

وكقوله:

أدارًا بحزْوى هجت للعين عبرة فماءُ الهوى يرْفَض أو يتَرقرق

الثالث: العدد المشتمل على العطف كأحد وعشرين واثنين وعشرين، وكل ذلك يستعمل في معين وفي غير معين ويظهر ذلك في الأوصاف؛ فعلى الأول تقول: يا غلام خدمة الماهر، ويا حسنًا وجهه المحسن، ويا ثلاثة وثلاثين الأذكياء، وعلى الثاني تقول: ماهرًا ومحسنًا وأذكياء.

غير أن الموصوف بجملة أو ظرف لا يوصف بعد بالمعرفة، كأنهم استنكروا صفة المعرفة بعد صفة النكرة، والصحيح جواز نداء النكرات

وهي ما لا يقصد بها معين موصوفة وغير موصوفة نحو: يا غافلين. وقد ترادفت المذكرات، ونحو: يا رجلًا يرجو رحمة ربه ويخاف غضبه.

هذا: ومن المنادى أسماء الأشياء التي يتوجع منها أو يتفجع عليها، ويسمى نداؤها: ندبة، ويسمى المنادي: مندوبًا. ولا يندب إلا معرفة بالعلمية أو بالإضافة إلى معين أو بصلة مشهورة فيما بين الناس نحو: وازيد. بضم آخره متفجعًا عليه ونحوه: واكبير البلد، واعظيم الكرماء، واغلامي واغلامك واغلامك إلى آخر الضمائر، وامن حفر بئر زمزم ندبة لعبد المطلب جد النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ لكونه اشتهر في ذلك الأوان بمضمون هذه الصلة، وامن وضع علم النحو لأبي الأسود الدئلي لاشتهاره بذلك. وامن بني القاهرة ندبة لجوهر القائد مملوك المعز لدين الله أول ملوك الفواطم بمصر لذلك، ولك أن تزيد بعد ما تنطق به في الندبة ألفًا، وتحذف لأجلها ما قبلها من تنوين أو ألف فنحو: واموسى. يحتمل أن تكون الألف آخر المندوب، أو زائدة وآخره محذوف وتقلب ضمة المضموم وكسرة المكسور فتحة لأجل الألف التي تزيدها وتسميها: ألف الندبة إلا إذا كانت الضمة مميزة شيئًا من شيء فإنك تزيد بعدها عوض الألف واوًا نحو: واغلامهو. فالضمة تميز ضمير المذكر من ضمير المؤنث، فلو زدت ألفًا وقلت: واغلامها: لالتبس بضمير الأنثى، وإلا إذا كانت الكسرة مميزة شيئًا من شيء فإنك تزيد بعدها ياء، نحو: واغلامكي. خطابًا لأنثى فإنك لو قلت: واغلامك. لالتبس بخطاب الذكر. ولك أن تزيد وقفًا هاء سكت، فتقول: وازيداه، واغلامكيه، واغلامهوه. ولك أن تأتي بالمندوب مجردًا من المد والهاء كما رأيت.

* * *

الترخيم

وقد حذفت العرب تخفيفًا من آخر المنادى غير المندوب، وغير المستغاث، وغير ذي الإضافة وشبهها، وغير ذي التركيب الإسنادي، وسماه النحويون: ترخيمًا.

فإذا كان المنادى مختومًا بتاء التأنيث رخم بحذفها فقط، وإذا لم يكن مختومًا بها حذف آخره إن كان علمًا زائدًا على ثلاثة أحرف، كياسعًا في سعاد، ويحذف مع الآخر ما قبله إن كان ألفًا زائدة أو واوًا قبلها ضمةن أو ياء قبلها كسرة وكانت الأحرف الثلاثة مسبوقة بثلاثة أحرف نحو: يا مرو في مروان، وياسلم في سلمان، ويا أسم في أسماء، ويا مسك في مسكين. علمًا كمسكين الدارين ويا منص في منصور.

وإن كان المنادي مركبًا مزجيًا رخم بحذف عجزه. نحو: يا بعل في بعلبك، ويا معدي في: يا معد يكرب. وإذا حذفت من المنادي ما حذفت ترخيمًا؛ فلك فيما بقى وجهان:

الأول: أن تبقيه على صورته قبل الحذف فيكون المحذوف ملحوظًا بحالته ويسمى لغة من ينتظر. أي: ينتظر المحذوف.

الوجه الثاني: أن تجعله منادي مستقلًا وتقطع النظر عن المحذوف، فتضم آخر ما بقى معك ويسمى: لغة من لا ينتظر. وإذا حصل بعدم الانتظار اشتباه وجب الانتظار، فإذا رخمت نحو: مسلمة، وجب أن تقول: يا مسلم بفتح الميم، إذ لو ضممت لاشتبه بنداء من اسمه مسلم بلا تاء. وقد عاملت لغة من لا ينتظر ما بقى معاملة الأسماء التامة؛ فأعطته ما

يستحقه حسبما أفادتك القواعد الصرفية مثلًا: إذا ناديت ثمود ورخمته لزم أن يكون اسمًا آخره واو قبلها ضمة، وقد عرفت أنه غير موجود في اللغة، فوجب لذلك قلب الواو ياء وإبدال الضمة كسرة، فتقول: ياثمي ويصير من المنقوص. وإذا ناديت نحو: حلاوة وهداية قلت: يا حلاء، ويا هداء بإبدال الواو والياء همزة، كما عرفت في نظائره: كسماء وشراء، ومن استحضر ما عرف لم يصعب عليه اعتبار ما يلزم، وبعض الأسماء لا تستعمل في الكلام إلا مناداة، وهي: نومان، فتقول: يا نومان. سبًا بالكسل والبلادة والوخامة، ولُؤمان بضم أوَّله، ومَلأمان بفتحة سبقًا بقوة اللؤم، وملكعان كملأمان سبًا بالرخاوة، ومكذبان ومخبثان، ومكرمان ومطيبان مدحًا بهما. فهذه الأسماء لا تستعمل في غير النداء ولا يقاس عليها، كما أن فل كناية عن ذكر، وفلة كناية عن أنثى مختصان بالنداء، ولا يستعملان في غير شعر، ولك أن تحول كل اسم فاعل ثلاثي يدل على معنى يسب به إلى وزن فعال، ويختص بالنداء في سب الإناث، فتقول: يا خباث محولًا عن خبيثة، ويا فجار محولًا عن فاجرة، ويا غدار محولًا عن غادرة. وليس لك أن تحول في سب الذكور. وقد ورد التحويل في سبهم إلى وزن فعل، فتقتصر على ما ورد منه نحو: يا غدر، ويا لكع، ويا فُسق، مضيًا بالحكم مع الكثرة والقلة. وقد ورد حذف يا نحو: آزر أتتخذ أصنامًا. في قراءة ضم الراء، ونحو: يوسف أعرض، يوسف أيها الصديق.

(الموضع الثالث): تراكيب يقال لها: تراكيب الاختصاص. وهي كل تركيب مشتمل على اسم يذكر في أثناء جملة أو بعدها، لتبيين الموضع الذي يخص به حكم الجملة. ويكون مطابقًا للمحكوم عليه فيها كقوله - صلى الله عليه وسلم -: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة». فلفظة: معاشر. اسم ذكر في أثناء جملة لبيان الموضع المخصوص بحكم

الجملة الذي هو ثبوت عدم الإرث، وكون المتروك صدقة المعبر عنه بنحن، وهو مطابق للمحكوم عليه، وهو نحن والفعل الناصب المحذوف وجوبًا: أخص معاشر الأنبياء، ونظيره قولهم: نحن العُرب أقرى الناس للضيف. وفي ذكر هذا الاسم رفع بهامة في نحن، وقد يكون لمجرد التعاظم نحو: أنا فتى الفتيان أكرم الضيوف وأستعمل السيوف، وكونه بعد ضمير متكلم أكثر من كونه بعد ضمير خطاب. وقد يؤتى بلفظ: أي وأية مفسرًا باسم هو المختص في الحقيقة فيلزمهما الضم، ويقال: أنهما في محل نصب، والجملة الاختصاصية جملة اعتراضية فائدتها ما سبق أو حالية.

(الموضع الرابع): تراكيب الإغراء والتحذير، ويسمى: المفعول فيها مُغري به، أو محذرًا منه نحو: الغزال الغزال. ونحو: سهمك والغزال. ونحو: إن لم تكذب فشأنك ومدح الناس إغراء. على تقدير: أطلب الغزال وخذ شأنك، واطلب الغزال وانظر شأنك، وقل مدح الناس ونحو: الأسد الأسد ورأسك والسيف تحذيرًا. على تقدير احذر الأسد وقِ رأسك وتجنب السيف. لكن شرط وجوب حذف الفعل تكرار الاسم، أو العطف كما رأيت إلا إذا ذكرت في عبارة التحذير لفظة: إياك، فإنه يجب الحذف بلا شرط. نحو: إياك الجدل في غير حق.

وإياك إيَّاك المِراء فإنَّه ... إلى الشَّر دعَّاءٌ وللشر جَالبٌ

وإياك وفعل الأراذل، وإياكم أن تعتمدوا على غير الله. على تقدير: إياك احذر الجدل، وإياك احذر، وتجنب فعل الأراذل.

(الموضع الخامس): تراكيب الاشتغال وصورتها أن تذكر اسمًا تأتي بعده بفعل، أو اسم فاعل، أو اسم مفعول متصلًا به، أو منفصلًا عنه،

وتشغله بضمير ذلك الاسم، أو بما يشتمل على ضميره، وحينئذ يسمى: المحذوف المضمر. على شريطة التفسير، ويسمى المذكور من الفعل وصاحبيه: مفسرًا. ولمكان التفسير وجب حذف المفسر لذكر المفسر، إذ لا يجتمع العوض والمعوض، لكن يلزم في الأوصاف المستعملة في هذه التراكيب أن تكون معتمدة على مبتدأ يذكر قبل المفعول المحذوف ناصبه أو بعده، أو على نفي، أو استفهام. نحو: زيد هندًا مكرمها، وعمرًا أنت محسن إليه، وما زيدًا صاحبه أخواه، وأزيدًا مربيه أبواه. فكل ذلك صحيح لو وضعت فيه الفعل موضع الأوصاف لم يكن الحكم مختلفًا. تقول: زيد هندًا يكرمها. وهكذا، بخلاف إذا لم يعتمد الوصف فإنه لا يجوز استعماله في هذه التراكيب، كما يجوز استعمال الفعل، تقول: زيدًا يكرمه أصحابه. ولا تقول: زيدًا مكرمه أصحابه. هذا والمضمر على شريطة التفسير إن أمكن تقديره من مادة المفسر فذاك، وإلا قدرت ما يناسبه ويدل عليه، فتقول في نحو: طريق الحق سلكتها. التقدير: سلكت طريق الحق. وفي نحو: مذهب الخير أنت رافع مناره. التقدير: أوضحت وبينت مذهب الخير. وفي نحو: زيدًا اشتريت غلامه بايعت أولًا بست زيدًا. وفي نحو: زيد مررت به إلى الحاكم أذهبت زيدًا، وباعتبارك هذه الأمثلة لا يصعب على ذوقك، ولا يبعد عن إدراكك تقدير ما يناسب في نحو: زيدًا ضربت عمرًا وأخاه، وشتمت رجالًا يصحبونه.

هذا واعلم أن هذا الاسم الذي نحن في إبانة كونه مفعولًا واجبًا حذف عامله، لا يلزم أن يكون كذلك إلا في بعض التراكيب. ولذلك تنقسم التراكيب المشتملة على هذا الاسم أربعة أقسام: قسم يتعين فيه نصب الاسم المذكور، وقسم يترجح فيه النصب، وقسم يستوي فيه النصب والرفع بالابتداء، وقسم يترجح فيه الرفع.

(القسم الأول): كل تركيب وقع فيه الاسم بعد ما يختص بالفعل كأدوات الشرط والتحضيض وهل. نحو: إن زيدًا أكرمته أكرمك، وهلا زيدًا تكرمه، وهل زيدًا اختبرته.

(القسم الثاني): كل تركيب وقع فيه الاسم بعد ما يغلب صحبته للفعل كهمزة الاستفهام. نحو: أزيدًا أكرمته. وحيث أجلس حيث زيدًا وجدته، أو قبل فعل ذي طلب نحو: زيدًا أكرمه وعمرًا لا تهنه، أو عطف ذلك التركيب على جملة فعلية نحو: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ﴾ [سورة النحل: ٤، ٥] أو كان نصب الاسم الواقع فيه يعين المقصود، والرفع يحتمل غيره. نحو: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [سورة القمر: ٤٩]، فإن المقصود الحكم بأن خلق كل شيء بقدر لا أن الأشياء المخلوقة بقدر.

(القسم الثالث): كل تركيب وقع بعد جملة اسمية، والخبر فيها جملة فعلية نحو: زيد كرمت شمائله، والإحسان تحققته منه.

(القسم الرابع): ما عدا تلك التراكيب، ولما كان المفعول في غير الموضع الأول مختصًا بأحكام مفصلة في مسائل ترجم النحويون لكل جملة متناسبة من تلك المسائل، فقالوا: باب النداء، وباب الاختصاص، وباب الإغراء والتحذير، وباب الاشتغال.

المفعول المطلق

مصدر يذكر بعد مشتق يكون ناصبًا له لأحد أغراض ثلاثة: توكيد معنى ناصبه؛ ليفيد أن معناه هو المراد باللفظ، وليس المراد معنى آخر عبر عنه بلفظه مبالغة. نحو قولك: ضربت زيدا ضربًا، وأنا مهينه إهانة. فلفظ ضربًا مصدر أكدت به معنى ضرب؛ لتفيد أن الحاصل منك ضرب زيد لأنواع من أنواع الأذية كالشتم عبرت عنه بالضرب مبالغة.

وبيان نوعه: نحو: ضربت زيدًا ضربًا شديدًا أو ضعيفًا، وتكلم عمرو تكلمًا حسنًا، وسار سيرًا طويلًا.

أو بيان عدد: نحو: وثبت وثبة، وقام قومة، وتكلم زيد تكلمين تكلمًا أعجب وتكلمًا لم يعجب، وشرب بكر شربات.

وينوب عن المصدر أشياء فتسمى: مفعولًا مطلقًا بالنيابة، وهي أربعة عشر لفظة، كل أو بعض مضافتين إليه. نحو: اجتهد زيد كل الاجتهاد، وتواني عمرو بعض التواني.

وذلك لبيان النوع إذ المعنى: اجتهادًا كاملًا وتوانيًا قليلًا، والإشارة إليه نحو: زجرته ذلك الزجر فلم يفد فيه لبيان النوع أيضًا، إذ المعنى: الزجر الشديد الذي اطلعت عليه. وعدده نحو: مررت به عشرين مرة، وأداة السؤال عن عدده نحو: كم مرة مررت به. والسؤال عن نوعه كأي وصف وصفت زيدًا على معنى أوصفًا حسنًا وصفت زيدًا أم وصفًا غير حسن، ومصدر فعل غير فاعله على التشبيه به بعد حذفه، وحذف أداة التشبيه نحو: قرأ زيد قراءة العلماء. على تقدير قراءة مثل قراءة العلماء، ومصدر

فعل فيه معنى فعله نحو: فرح زيد بكذا جذلًا، إذ الجذل الفرح الشديد، وسكت صمتًا إذ الصمت السكوت المقصود لخيرية السكوت، واسم عين من مادة الفعل. نحو: ﴿ أَنۢبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ [النبأ: ١٧]. واسم بمعناه يقال له: اسم المصدر. نحو: أعطى زيد عطاء. بمعنى إعطاء، وضميره نحو: أعجبني القول الذي قلته. أي النطق الذي نطقته وصفته. نحو: سرت طويلًا. أي سيرًا، ولبثنا قليلًا أي لبثًا. وآلته نحو: ضربته سوطًا أو عصوين. وفي هذا مع بيان آلة الفعل بيان عدده، أليس المعنى: ضربته ضربة بسوط وضربتين بعصا، وألفاظ وضعت لبيان أنواع أفعال نحو: رجع القهقري. أي بظهره إلى خلف، وقعد القرفصاء، واشتمل الصماء، واعتم القفداء. أي التف بثوبه ولم يرسل من عماته شيئًا، وهذه الثلاثة ممدودة وعدا الجمزي والمرطى والبشكى. أي عدوًا شديدًا، ومشي الحمار حيدي. أي ملتويًا إلى يمين مرة وإلى شمال مرة في ألفاظ أُخر، ولأبي الطيب:

ألا كلَّ ماشية الخيزلي فِدا كُل ماشيةِ الهيَّدبا

فالهيدبا: نوع من مشي الإبل. والخيزلي: نوع من مشي النساء. يقول: ترك الهزل وأخذ في الجد، فهو يفدي النوق بالنساء. والمصدر المؤكد تكرير للفعل، فمن قال: ضربت ضربًا. كأنه قال: ضربت ضربت. ولذلك لا يثنى ولا يجمع بخلاف المبين للنوع، والمبين للعدد. تقول: سرت سيري الغاوي والراشد. ويحذف ناصب المفعول المطلق إذ دل عليه دليل، ويجب حذفه إذا أقيم المصدر مقامه في الطلب نحو: قراءة للعلم. أي اقرأ العلم فهو بدل الفعل. ولذلك يؤكد ويبين نوعه وعدده، فتقول: ضربًا زيدًا ضربًا وضرب تأديب وضربات. وإذا كان بعد استفهام توبيخي نحو: أتوانيًا وقد جد الناس! أي: أتتواني.

وإذا فصل بإما. نحو: ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ [سورة محمد: ٤] أي فإما تمنون وإما يفدون، وإذا كرر وكان عامله خبرًا عن اسم لا يكون المصدر خبرًا عنه إلا مجازًا، وإذا كان مقصورًا عليه كذلك. نحو: أنت سيرًا سيرًا. أي تسير وما أنت إلا سيرًا، وإنما أنت سيرة الحكماء وإنك حفظًا حفظًا، ويجوز أن يكون منه: ما كنت إلا اشتغالًا بالخير وما وجدتك إلا حرصًا على الفائدة وابتهاجًا بالنادرة، كما يجوز أن يكون محدثًا به خبرًا في الأول ومفعولًا به في الثاني، كما لو رفعت المصدر في سابقه. وإذا كان بعد جملة مشتملة على معناه قطعًا ويسمى حينئذ: مؤكدًا لنفسه نحو: إليه مرجعكم جميعًا وعد الله. فوعد الله مفعول مطلق محذوف العامل وجوبًا يسمى: مؤكدًا لنفسه لكونه واقعًا بعد جملة تضمنت معنى الوعد قطعًا، وهي: إليه مرجعكم، فإنها إخبار بأن الله سيحيي الخلق ويعيدهم ويرجعون إلى حسابه وهو وعد منه، ونحو: لزيد على ألف إقرارًا. وإذا كان بعد جملة متضمنة معناه لا حتمًا الصدق. وإذا كان واقعًا بعد مصدر في جملة تامة على معنى التشبيه نحو: لزيد صوت حمار. وإذا بين فاعل فعله أو مفعوله بذكره بعده مضافًا إليه أو مجرورًا بلام نحو: بعدًا لزيد. أي بعد زيد بعدًا. وحكم الله. أي حكم الله حكمًا. وسقيًا لك، ورعيًا لك. الأصل: سقاك الله سقيًا، ورعاك وحفظك ورعايتك كذلك، فيحذف وجوبًا في تسعة مواضع، وجوازًا في غيرها إذا دل عليه دليل، كما إذا قيل لك: أضربت زيدًا فتقول: ضربًا. كما يجوز حذف المصدر كذلك، كأن يقال لك: هل ضربت زيدًا ضرب التأديب على ما صدر منه فتقول: ضربته. أي ضربته ضرب التأديب. كما يحذف هو وعامله لو أجبت بنعم أولا، ويتقدم المفعول المطلق ويتأخر حسب الاقتضاء حيث لا مانع.

واعلم أن الفعل من حيث الحدث يتضمن معنيين: معنى مشترك بين جميع الأفعال ويعبر عنه بالإيجاد والإيقاع والفعل إلى غير ذلك، ومعنى خاص يتعلق به ذلك المعنى ألا ترى أنك تفهم من قولنا: ضرب زيد، وقام عمرو أوجد زيد ضربًا وأوقع عمرو قيامًا؛ فالمعنى الخاص هو المفعول. ولذلك سمي الدال عليه: مفعولًا دون تقييد بفيه أو معه كما هو الحال في كل ما يسمى مفعولًا. ويوضح لك ذلك أنه ربما اعتبر المعنى العام في الفعل المتعدي، فلزم كقوله تعالى: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [سورة مريم: ٢٥]. أي أوجدي الهزبه وأوقعيه فيه، وقول العربي: يجرح في عراقيبها نصلي.

أي: بفعل الجرح بها.

* * *

المفعول لأجله

هو اسم يذكر لبيان العلة الباعثة على الفعل أو الغرض المترتب عليه، وهو ما يكون متقدمًا في التصور وتصوره باعث على الفعل ومتأخرًا في الوجود نحو: أكرمتك لإكرامك إياي، أو أكرمتك لتشكرني.

وإنما ينصب إذا كان مصدرًا وقته ووقت فعله واحد وفاعلهما كذلك نحو: قام زيد إجلالًا لعمرو. فمتى تخلف شرط من الشروط الثلاثة لم ينصب. نحو: سافر زيد للشتاء فليس مصدرًا، وأكرمت عمرًا لإكرامه إياي، فليس الفاعل واحدًا. وأكرمت زيدًا اليوم لإهانتي له أمس. فليس الوقت واحدًا.

ومنه: أزور زيدًا من أجل لطاقته، ودخلت امرأة النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض. أي: بسبب هرة. ويجوز في المستوفى للشروط أن لا ينصب، فتقول: قام زيد لإجلال عمرو، فليس المفعول لأجله من المنصوبات وجوبًا.

* * *

المفعول فيه

ويسمى: ظرفًا؛ لاشتماله على الفعل وإحاطته به اشتمال الظروف على مظروفاتها وإحاطتها بها. قد سلف لك أن جميع الألفاظ التي يربطها بالأفعال حروف الإضافة تسمى: مفعولًا به غير صريح، ومفعولًا به بواسطة. ويقال حينئذ للأفعال: أنها متعدية إليها بالواسطة في مقابلة المفعول به الصريح؛ فعلى هذا تقول في نحو: أنا جالس هنا لانتظار زيد، وخرجت للنزهة في يوم الجمعة، وجلست في مجلس فلان أحدثه ويحدثني أن لفظ لانتظار، ولفظ في يوم، ولفظ في مجلس منصوبة الموضع، لكونها مفاعيل غير صريحه، لكن اضطرد حذف الخافض في بعض المواضع والتزم في بعضها، ومن تلك المواضع المفعول لأجله، والمفعول فيه. وتراكيب أن بفتح النون المشددة، وأن بسكون المنون؛ وتلك المواضع هي التي يكون حذف حرف الإضافة فيها قياسيًا مطردًا حسبما تقرر في باب حروف الإضافة، فاتضح لك أن المفعول لأجله، والمفعول فيه منتظمان في المفعول به، لكن الاضطراد حذف الخافض منهما والتزامه في بعضهما جعلهما النحويون نوعين مستقلين من أنواع المنصوبات، وترجموا لمسائلهما نظير ما فعلوا في النداء وما معه. هذا: والذي علينا أن نعرفه في هذا الموضع، أن حذف الخافض وانتصاب المخفوض على الظرفية مطرد في جميع أسماء الأزمنة، فنذكر بعد ما فيه معنى الفعل لتعيين الزمن الذي وقع فيه الفعل نوعًا ما من التعيين نحو: سرت شهرًا، وأقمت سنة إلى غير ذلك من أسماء الأزمنة، وما أضيف إليها مما يفيد الاستغراق أو التبعيض نحو: انتظرتك كل اليوم ويومًا وبعض آخر وأكثر النهار. وأما أسماء الأمكنة فما كان منها لمحدود ذي

صورة قارّ في موقعه كالمدينة والبلد والدار والطريق، فلا يطرد فيها ذلك إلا مع: دخلت وسكنت ونزلت. تقول: دخلت دار زيد، وسكنت مصر، ونزلت بغداد. ويطرد في غير ذلك كأسماء الجهات التي هي فوق وتحت وأمام وقدام ووراء وخلف ويمنة ويسرة ويمين ويسار. وأسماء المقدرات: كفرسخ وميل وشبر، وكأسماء الأمكنة التي سبق لك أنها من المشتقات على تفصيل فيها حاصله: أن أسماء الأمكنة المشتقة من الأفعال إن كانت مأخوذة من أفعال دالة على الاستقرار والكون في مكان، فإنها كما تنصب بأفعالها تنصب بما تضمن ذلك المعنى. نحو: جلست مجلس زيد، وأقمت مجلسه. وهكذا، كالمكان والمقام والمسكن والموقف والمقيل والمبيت، وإن لم تكن على هذا الحد لم تنصب إلا بأفعالها. ومن المسموع فلا يقاس عليه نصب أسماء الأمكنة الدالة على القرب أو البعد نحو. زيد منك مزجر الكلب ومناط الثريا، ومقعد الخاتن ومقعد القابلة ومعقد الإزار. ثم إن بعض الظروف لم تستعمل إلا منصوبة أو مخفوضة بإلى أو حتى أو بإلى فقط. نحو: متى وإلى متى وإلى أين أو مخفوضة بمن التي هي للابتداء أو الظرفية نيابة عن في حسبما يقتضيه ذوقك وينساق إليه فهمك. نحو: لله الأمر من قبل ومن بعد. أي في الزمن السابق وفي الزمن اللاحق ونحو: هب لي من لدنك. وعلمناه من لدنّا. وخرجوا من عندك.

وهذه الظروف التي هذا شأنها تسمى: ظروفًا غير متصرفة، وما عداها يسمى ظروفًا متصرفة. فمعنى كونها متصرفة أنها تخرج عن الظرفية، وما ألحق بها لا أن وصف التصرف ثابت لها مع كونها ظروفًا. تقول: يوم الجمعة يوم مبارك. على الابتداء والإخبار ولا ظرفية.

وينوب عن أسماء الأزمنة مصادر؛ فتنصب بدلها نحو: آتيك خُفوق النجم، وطلوع الشمس وقدوم الحاج. أي وقت خفوق وطلوع وقدوم. ومن المصادر النائبة عن اسم زمن فيكون منصوبًا على الظرفية بالنيابة المصدر المؤول ملاحظة من مشتق بسابك ما التي تسمى: مصدرية ظرفية نحو: أنا منتظرك ما دام هذا النجم فهو على تأويل دوام هذا النجم، فدوام منصوب على الظرفية بالنيابة. والأصل: وقت دوام. ومنه: ريثما في نحو قولك: انتظرني ريثما تقرأ سورة وسطى. إذ ريث مصدر: راث بمعنى بطؤ وما التي بعدها مصدرية فقط، والتقدير: ريث قراءة على معنى وقت بطء قراءة.

وقلَّ إنابة المصدر عن ظرف المكان نحو: جريت رمية نشابة. أي مسافة رميها. وفي الحديث: «أقطع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الزبير حُضر فرسه»: أي: مسافة حضرها. والحُضر: بضم فسكون العدو وأريد به في الحديث: العدو حبسة نفس.

* * *

المفعول معه

هو اسم الشيء الذي فعل الفعل بمعيته وصحبته ومقارنته، يذكر مسبوقًا بواو بعد الفعل المنبه على أنه حصل ووقع بمقارنته تقول: سرتُ والجبل حتى وصلت لأقصى إلصعيد فمعناه: أنك فعلت السير والجبل مقارن ومصاحب لك طول سيرك. وتقول لمن سألك عن موضع: امش وهذا الطريق لا تنحرف لا يمنةً ولا يسرةً تصل إلى مقصودك. ثم المفعول معه: تارة يكون مشاركًا في الفعل، وتارة لا يكون مشاركًا فيه. غاية الأمر أنه مصاحب للفاعل حالة الفعل في الوجود والموضع، ومن حيث إن المفعول معه يكون مشاركًا تارة وغير مشارك تارة، فمتى كان مشاركًا كان عطفه على الفاعل أفصح وأرجح، إلا إذا أضعف العطف مضعف، كما إذا كان لفظ الفاعل ضميرًا متصلًا لم يفصل بينه وبين الواو بفاصل، نحو: سرت وزيد وزيدًا إلى بلد كذا، فإن النصب على كونه مفعولًا معه أرجح؛ وذلك لأن الضمير المرفوع المتصل لا يعطف عليه إلا إذا وجد فاصل بينه وبين الواون، فإذا يكون العطف أرجح في نحو: سرت أنا وزيد، وفي نحو: سرت إلى بلد كذا وزيد، وأرجحية العطف لكونه نصًا في المشاركة في الفعل، إذ قد عرفت أن المفعول معه تارة يكون مشاركًا، وتارة يكون غير مشارك فلا نص فيه على المشاركة، ومتى لم يكن المفعول معه مشاركًا وجب نصبه وامتنع العطف نحو: سرت والطريق. فالطريق غير سائر، ومتى كان الفعل من الأفعال الاشتراكية، التي لا تحصل إلا من اثنين فصاعدًا، امتنع المفعول معه ووجب العطف كاختصم زيد وعمرو، واصطف خالد وبكر ورجل، إذ وضع الباب على أن يكون الفاعل يستقل بالفعل.

وهذه الأفعال لا يمكن استقلال الواحد بها، وكما أنك تنبه على مقارنة فاعلية الفعل للمفعول معه تنبه على مقارنة مفعولية الفعل به نحو: علفتها تبنًا وماء. حيث يكون الماء حاضرًا وقت العلف لا مسقيًّا وإلا كان نصب الماء على تقدير: وسقيتها.

كقول الشاعر:

وعلفتُها تبنًا وماءً باردًا ... حتى غدت همَّالةً عيناها

وقوله:

إذا ما الغانياتُ برزنَ يومًا ... وزجَّجنَ الحواجبَ والعيُونا

أي: كحلنَّ العيون.

ونصبت العرب المفعول معه بفعل محذوف وجوبًا بعد (كيف، وما) الاستفهاميتين.

فقالوا: كيف أنت وقصعة من ثريد. الأصل: كيف تكون وقصعة؟ فكيف خبر مقدم لتكون واسمه ضمير المخاطب المتصل المستتر، فلما حذف الفعل برز الضمير وانفصل كما هو العادة، ومعنى العبارة: أقادرًا تكون على التهام القصعة أم عاجزًا عنه؟ أجاب بعضهم فقال: آكلها وأقول هل من مزيد. فذلك حطمة لهمة، ونحو: ما أنت وهذا ! لمن يتعرض لما خبرة له به. أي: ما تكون وهذا فعل به ما ذكر.

* * *

المستثنى

وهو اسم شيء ثني وصرف عنه حكم شامل له بأداة مخصوصة نحو: خرج أهل البلد إلا زيدًا. فزيدًا اسم شخص صرف عنه حكم ورد على أهل البلد الشامل لمسمى زيد وهو الخروج، وإنما يجب نصبه إذا كان بعد كلام مثبت تام كالمثال، أو كان مع كلام منفي تام وقدم على المستثنى منه نحو: ما خرج إلا زيدًا أهل البلد. فلو لم يكن متقدمًا على المستثنى منه لم يجب نصبه، بل جاز لك فيه أمران: أن تنصبه مستثنى، وأن تجعله تابعًا للمستثنى منه في إعرابه. ويسمى حينئذ: بدلًا. كما ستعرف في شرح التوابع فإذا لم يكن الكلام تامًا بأن حذف المستثنى منه قام المستثنى مقامه وعومل بما يقتضيه العامل، فإن كان المستثنى منه مرفوعًا رفعت المستثنى لقيامه مقامه. نحو: ما قام أحدٌ إلا زيدٌ. فتقول: ما قام إلا زيدٌ. وإذا كان منصوبًا نصبت المستثنى نحو: ما رأيت أحدًا إلا زيدًا. فتقول: ما رأيت إلا زيدًا فتنصبه على أنه مفعول به، وإذا كان مجرورًا جررت المستثنى ونقلت إليه الخافض نحو: ما مررت بأحد إلا زيد أو زيدًا. فتقول: ما مررت إلا بزيد وهذه عبارة القصر.

ويقال لهذا النوع من الاستثناء: الاستثناء المفرغ يعني: الاستثناء الذي فرغ فيه العامل عن الاشتغال بالمستثنى منه، وشغل بالمستثنى لعلمك أنه أقيم مقامه. وأكثر ما يكون التفريغ في النفي؛ لأن أكثر الإثباتات لا يصح فيها التفريغ مثلًا إذا قلت: رأيت إلا زيدًا. كان معناه رأيت كل أحد إلا زيدًا. وهو فاسد بخلاف قولك: ما رأيت إلا زيدًا. فإن معناه ما رأيت أحدًا إلا زيدًا. وهو صحيح لإمكانه والتفريغ الصحيح في الإثبات، نحو:

قرأت إلا سورة الرعد. فإن معناه: قرأت كل القرآن إلا سورة الرعد. وهو صحيح، وضابطه أن يكون ثبوت الفعل لكل أفراد جنس المستثنى ممكنًا، ويكون الاستثناء بحرف هو إلا وباسمين هما: غير وسوى، وبأربعة أفعال هي: ليس وخلا وعدا وحاشا، وبكلمة مركبة من فعل وحرف هي: لا يكون، فإذا كان الاستثناء بغير وسوى كان المستثنى مجرورًا دائمًا بالإضافة، وكان حكم المستثنى بإلا من وجوب نصب وجواز نصب وإتباع، ومعاملة بما يقتضيه العامل ثابتًا لكلمتي غير وسوى، وإذا كان الاستثناء بليس كان المستثنى منصوبًا أبدًا على أنه خبر لليس، واسمها ضمير مستتر وجوبًا يعود على بعض الشامل للمستثنى، فإذا قلت: خرج أهل البلد ليس زيدًا. فهو على إضمار ضمير في ليس يعود على بعض أهل البلد، فالمعنى: ليس بعض أهل البلد المحكوم لهم بالخروج زيدًا. ومثال ليس لا يكون، وإذا كان الاستثناء بخلاف وعدًا فإن أتيت قبلها بما المصدرية وجب نصب المستثنى على أنه مفعول به للفعلين، وفاعلهما ضمير مستتر وجوبًا يعود على بعض الشامل، كما في ليس ولا يكون. وإن لم تأتي بما المصدرية جاز لك نصب المستثنى على ما سبق، وجاز جره بخلا وعدا على أنهما حرفا جر؛ لأنهما يستعملان فعلين ويستعملان حرفين، كما أن حاشا كذلك. فيجوز نصب مستثناها وجره على الرعايتين، فالمستثنى ليس من المنصوبات دائمًا، وبعضه من أنواع المنصوبات السابقة خلا أن عباراته ملحوظ. فيها معنى إلا مخصوصة بحال لم تكن مقصورة عليه في غير الاستثناء.

هذا: وقد وردت إلا مكررة، فإن كان المستثنى متعددًا في اللفظ واحدًا في المعنى بأن عبرت عن شيء باسمين من أسمائه نحو: إلا الفتى إلا العلي، وإلا أبا حفص إلا عمر. كانت إلا الثانية مؤكدة للأولى تأكيدًا

لفظيًا وكان الاستثناء واحدًا، وإذا كان متعددًا لفظًا ومعنى، كانت الاستثناءات متعددة أيضًا وكانت إلا مؤسسة.

وتفصيل القول حينئذ: أنه إذا كان الاستثناء مفرغًا فإذا كانت الاستثناءات من مستثنى منه واحد أعطيت العامل واحدًا من المستثنيات، والأرجح الأول ونصب الباقي نحو: ما أقبل إلا زيد إلا عمرًا إلا بكرًا. وإذا كان لكل مستثنى مستثنى منه على حدة تعين إعطاء الأول للعامل ونصبت الباقي نحو: لا تكرم إلا الحكماء إلا الفسقة منهم إلا التائب إلا من لا تؤثر التوبة في جنايته.

وإذا لم يكن مفرغًا، فإن تقدمت المستثنيات وجب نصبها بحكم ما سلف، وإن تأخرت فإن كان الكلام إيجابيًا وجب النصب كما سلف أيضًا، وإن كان سلبيًا تخيرت في واحد بين أتباعه للمستثنى منه وهو الأرجح وبين نصبه، ونصبت الباقي إذا كان المستثنى منه واحدًا وها هنا تركيب وقع فيه اختلاف ابتنى عليه الاختلاف في حكم شرعي وهو نحو قولك في الإقرار له: على عشرة إلا أربعة إلا ثلاثة.

فبعض الفقهاء يقول: الاستثناءات من العشرة، فيكون المقربة ثلاثة؛ لأنه أخرج الأربعة والثلاثة، وهي سبعة من العشرة فبقي ثلاثة تكون هي المقربة.

وبعضهم يقول: إن استثناء كل مما قبله فيكون المقربة تسعة.

وبعضهم يقول: إن التركيب محتمل فيرجع لاستفسار المقر. وكل ذلك إذا أمكن إلا مران وإلا كان استثناء كل مما قبله، فلو قال المقر له: على عشرة إلا تسعة إلا ثمانية وهكذا إلى الواحد. كان المقر به خمسة

على رأي من يقول بالاحتمال، ومن يقول: إن استثناء كل مما قبلهن وباطل لاغٍ عند غيرهم.

* * *

الحال

وهو اسم أو ما يقع موقعه من جملة، يذكر لبيان الهيئة، التي يكون عليها الفاعل حال فاعليته للفعل أو المفعول حال مفعوليته له، ويكون الفعل مقيد الحصول بها نحو: جاء زيد راكبًا، فراكبًا اسم ذكر لبيان هيئة زيد الفاعل للمجيء التي هو عليها حالة فاعليته للمجيء، ونحو: أكرم زيدًا مجتهدًا في طلب العلم، فمجتهدًا اسم ذكر لبيان هيئة زيد المفعول التي هو عليها حال المفعولية، وأفادت أن إكرامه لا يحصل إلا حالة اجتهاده؛ فحصول الفعل مقيد بوجود الاجتهاد فلو قلت: أكرم زيدًا ولم تزد. كان المعنى أن إكرامك له يحصل مطلقًا غير مقيد بشيء.

وللحال صاحب هو المتصف بها، وعامل هو رافع صاحبها أو ناصبه مثلًا، وأكثر ما يكون صاحب الحال معرفة، ويكون نكرة إن سبق بنفي أو نهي أو استفهام أو وصف أو تقدمت عليه الحال؛ فالمعرفة نحو: جئتك زائرًا، فصاحب الحال تاء المتكلم وهو معرفة، والنكرة نحو قولك: ما جاء رجل ماشيًا ولا راكبًا، ولا يغتب أحد أحدًا محتقرًا إثم الغيبة، وأعقل الناس رجل مسلم عاملًا بعلمه داعيًا لدينه لاطفًا بحزبه وقوله: لمية موحشًا طلل.

ولا يكون صاحب الحال مضافًا إليه إلا إذا كان المضاف جزءًا منه، أو مثل الجزء نحو: خذ بيد المظلوم مستغيثًا بك، ونحو: أن اتبع ملة إبراهيم حنيفًا. وإلا إذا كان المضاف عاملًا فيه عمل الفعل، ولو بالتأويل وملاحظة المعنى نحو: أنا مكرم زيد باذلًا همته فيما يعني ونحو: أنت حسن الوجه نافعًا للناس، ونحو قولك وقد رأيت رسم باب كبير لدار

صغيرة: هذا باب الدار كبيرة. على معنى هذا يناسب الدار كبيرة، وعامل الحال: كل ما فيه رائحة الفعل ملاحظة كحرف التنبيه، واسم الإشارة، وأداة التشبيه وحرف التمني وما عدا الفعل وفروعه يُسمى: عاملًا معنويًّا؛ لأنه إنما عمل بالمعنى الفعلي الملحوظ معه نحو: هذا بعلي شيخًا. أي أُنبهكم لرؤيته في تلك الحال أو أُشير إليه فيها لأجل أن تتحققوا إمكان بشراكم، ونحو: كأن زيدًا جبل مزاحمًا شدائد الأمور.

ويحذف عامل الحال وجوبًا في أربعة مواضع:

(الأول): إذا كانت مؤكدة لمعنى جملة وسيأتي.

(الثاني): إذا كانت سادة مسد خبر حذف وجوبًا وسبق.

(الثالث): إذا كانت لبيان زيادة أو نقص، نحو: هذا يساوي ألف درهم فصاعدًا أو فنازلًا. أي: فيذهب العدد صاعدًا، وللصاحب بهاء الدين زهير:

لعنَ اللهُ صاعِدا ... وأباهُ فصاعِدا
وبنيهِ فنازِلا ... واحدًا ثم واحِدا

(الرابع): إذا وقعت في التوبيخ بالاستفهام نحو: أعاصيًا وقد أطاع الناس! أي أتبقى عاصيًا، ومنه: أتميميًّا مرة وقيسيًّا أخرى؟ وفي غير ذلك يكون كبقية الألفاظ التي يجوز حذفها اعتمادًا على القرائن. ويجوز تقديم الحال على صاحبها وعلى عاملها إن كان فعلًا متصرفًا أو اسم فاعل، أو اسم مفعول، لا غير إلا إذا كان العامل اسم تفضيل وكان المفضل والمفضل عليه كل منهما صاحب حال، أو شيئًا واحدًا فضل على نفسه باعتبار حالين؛ فالأول: كقولك: زيد منفردًا أنفع من عمرو مصطحبًا

جيشًا؛ فمنفردًا ومصطحبًا حالان، الأولى لزيد والثانية لعمرو، والعامل فيهما لفظ أنفع الذي هو اسم تفضيل وقدمت أولى الحالين عليه.

والثاني: كقولك: هذا البلح بسرًا أطيب منه رطبًا. فبسرًا ورطبًا حالان للبلح، والعامل فيهما لفظ أطيب، الذي هو اسم تفضيل، وقدمت الأولى عليه، والمفضل والمفضل عليه هو البلح باعتبار كونه بسرًا وباعتبار كونه رطبًا، وتعدد الحال وصاحبها واحد نحو: جاء زيد راكبًا لابسًا أحسن ثيابه متقلدًا سلاحه، وتعدد وصاحبها متعدد فإذا كانت من لفظ واحد ثنيت وجمعت بحسب الحال نحو: لقيت زيدًا راكبين، ولقيت العلماء متذاكرين. فإن لم يكونا من لفظ واحد، بل اختلفا في ذاتهما أو بحسب ما يتعلق بهما أتيت بكل من الحالين على حدة نحو: لقيت راكبا زيدًا ماشيًا، ولقيت زيدًا راكبًا ماشيًا. وفي هذا تكون الحال الأولى للاسم الثاني، والحال الثانية للاسم الأول، أو بالعكس حسبما تعطيه القرائن، ونحو: لقيت راكبًا حمارًا زيدًا راكبًا فرسًا، ورأيت زيدًا راكبًا حمارًا راكب فرسًا. كذلك وإذا لم يفهم معنى الحال من لفظ من الألفاظ المذكورة معها سميت: حالًا مؤسسة. وإذا فهم معناها من عاملها سميت: مؤكدة لعاملها نحو: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة: ٦٠] فإن العثو معناه: الإفساد، فلفظ مفسدين حال مؤكدة للفظ تعثوا الذي هو عاملها، وإذا فهم معناها من صاحبها سميت: مؤكدة لصاحبها نحو: ﴿ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] فجميعًا حال صاحبها لفظ من الموصول بلفظ في الأرض المؤكد بكلهم فهم منه معنى الإحاطة والشمول والعموم، وأفيد هذا المعنى بلفظ جميعًا فهي حال مؤكدة لصاحبها، وتكون مؤكدة لمعنى تضمنته جملة اسمية منعقدة من اسمين جامدين

وتسمى: مؤكدة الجملة نحو: زيد أبوك شفوقًا عليك وعمر وأخوك مساعدًا لك، وذلك حيث تكون الجملة معطية معنى الحال التزامًا حسبما تحكما به العادة، وهذه الحال في بابها نظيرة المصدر المؤكد لنفسه في بابه، وهذا من مواضع وجوب حذف عامل الحال كما سبق الوعد به، وتقديره: خلقه الله وأودعه طباعه وأظهر نتائجها شفوقًا عليك، وأثبت بعض العلماء للحال عاملًا غير ما سلف، وهو نسبة الخبر للمبتدأ وثبوته له وبه رد منع سيبويه مجيء الحال من المبتدأ معللًا ذلك بعدم ما تكون الحال قيدًا له، فإنها حينئذ تكون قيدًا للمعنى الفعلي، الذي يشم من نسبة الخبر للمبتدأ والرد غير صحيح؛ لأن الحال تكون حينئذ من ضمير المبتدأ المحمول لذلك الفعل الملحوظ، وعلى هذا تكون الحال المؤكدة للجملة المذكورة ليست محذوفة العامل، وإذا كانت الحال من الأوصاف الثابتة لصاحبها دائمًا سميت: حالًا لازمة، وحينئذ لا تفيد تقييد العامل؛ إذ معنى تقييده أنه يحصل ويوجد وقت وجودها، وينتفي حصوله وقت انتفائها وعدمها، والحال اللازمة ليس لها انتفاء نحو: سألت الله عالمًا بحال السائلين. فالعلم صفة ثابتة دائمًا لله تعالى الذي هو صاحب الحال وليست مقيدة لحصول السؤال، فإنك لا تلحظ أنك تسأله في حال ثبوت العلم له دون حال انتفائه عنه، فإنه لا ينتفي ومن اللازمة نحو: خلق الله الزرافة يديها أطول من رجليها، واليربوع رجليه أطول من يديه.

وإذا كانت من الأوصاف التي تثبت حينًا، وتنتفي حينًا كركوبك ومشيك وقعودك سميت: حالًا منتقلة. وهذه هي التي يقصد بها تقييد العامل، فإذا قلت: اضرب زيدًا مسيئًا فمعناه: أطلب منك ضرب زيد في حال كونه مسيئًا، فإذا انتفت إساءته وصار محسنًا فلا أطلب منك ضربه.

ولا تكون الحال إلا نكرة، فإذا جاءت معرفة في اللفظ فهي نكرة بحسب المعنى الملحوظ نحو: جاء زيد وحده. فلفظ وحده حال وهو معرفة بإضافته للضمير، لكن معناه: جاء زيد منفردًا فهو نكرة بحسب الملاحظة إذا لغرض من الحال بيان هيئة صاحبها وصفته، وذلك يحصل بلفظ النكرة فلا غرض في التعريف. ومنه قولهم: أقبلت الخيل بداد. كفجار علم جنس للتبدد. أي متبددة غير متجمعة، وقولهم: أرسلها العراك. أي معتركة. وهذا من تراكيب وردت عنهم مشتملة على مصدر منصور يتبادر من فحوى الكلام أنهم اعتبروه حالًا نحو: طلع بغتة، وأقبل ركضًا، وبذلك قال بعض النحويين حاكمًا بشذوذه غير مجيز القياس عليه، وأجازه بعض. ومنهم من جعله مفعولًا مطلقًا أي طلوع بغتة: ومجيء ركض.

وأكثر ما تكون الحال من المشتقات صراحة حيث عرفت أنها وصف، وجاءت مشتقة بالتأويل والملاحظة كما جاء أخوها الخبر كذلك نحو: بيع البر أردبًا بدينار أي: مسعرًا وكلمته فاه إلى فيّ أي مشافهة، وبعه كذا يدًا بيد، أي مناقدة، وكر زيد أسدًا أي مشبهًا.

ثم أن الحال تكون مفردة كما رأيت، وتكون جملة خبرية اسمية، أو فعلية ماضية، أو مضارعية مثبتة أو نافية ولا بد لها من رابط يربطها بصاحبها، ورابطها إما ضمير يعود على صاحبها، أو واو تفتتح بها الجملة نحو: جاء زيد يتبسم. فيتبسم جملة فعلية مضارعية حال من زيد مرتبطة بالضمير المستتر في الفعل العائد على زيد. ونحو: جئتك والشمس طالعة. فالشمس طالعة جملة اسمية حال من ضمير المتكلم، أو من ضمير المخاطب مرتبطة بالواو الداخلة عليها، ويكون الرابط الواو وحدها إن لم

يكن في الجملة ضمير كما رأيت، ويكون الرابط الضمير وحده كما رأيت أيضًا، وقد يجتمعان نحو: جاء زيد وهو ضاحك السن. لكن تمتنع الواو ويجب الاقتصار في الربط على الضمير في ستة مواضع:

(الأول): إذا كانت جملة الحال مؤكدة لمضمون جملة نحو: هو الحق لا شك فيه، و: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

(الثاني): إذا كانت الجملة ماضوية عطف فيها بأو التعميمية نحو: لأكرمنّ زيدًا أحسن أو أساء. معناه: متصفًا بأي صفة.

(الثالث): إذا وقعت بعد عاطف نحو: بياتًا أو هم قائلون.

(الرابع): إذا كان مضارعها منفيًا بما نحو: عهدتك ما تصبو.

(الخامس): إذا كان مضارعها مثبتًا نحو: جاء زيد يتبسم.

(السادس): إذا كان مضارعها منفيًا بلا نحو: وما لنا لا نؤمن. وتتعين الواو لربط المضارع المسبوق بقد نحو: لم تؤذونني وقد تعلمون.

* * *

التمييز

اسم يذكره المتكلم ليبين به عين مراده من اسم سابق يصلح لأن يراد به أشياء كثيرة، وهو على نوعين:

(النوع الأول): أن يذكر الاسم الصالح لأن يراد به أشياء كثيرة أولًا، ثم يذكر الاسم الذي نسميه تمييزًا لذلك الغرض.

(النوع الثاني): أن يلحظ الاسم الصالح للأشياء أولًا ولا يلفظ، ثم يذكر التمييز لذلك الغرض.

شرح النوع الأول: أسماء الكيل والوزن والعدد والمساحة مثلًا تذكر، فيعلم شيء ما مكيل أو موزون أو معدود أو ممسوح. فإذا قلت: عندي أردب، أو عندي قنطار أو عندي ذراع، أو عندي عشرة. فمعناه: عندي مكيل أردب، وموزون قنطار، وممسوح ذراع، ومعدود عشرة؛ فمكيل أردب يصلح لأن يراد به قمح مكيل أردب أو شعير أو أرز إلى غير ذلك من الأشياء التي اعتاد الناس كيلها. وكذلك موزون قنطار يصلح أن يراد به عسل موزون قنطار، أو سمن أو زيت إلى غير ذلك من الأشياء التي اعتاد الناس وزنها وهكذا في الممسوح والمعدود، وحينئذ علمت أن هذه الأسماء لا تفيد مخاطبك مرادك منها فصارت مبهمة. أي: مبهمًا مرادك غير متعين في ضمن الأشياء التي تصلح لإرادتها هذه الأسماء؛ فتذكر اسم الشيء الذي تريده ويسمى: تمييزًا. لتفيد مخاطبك مرادك، فتقول: عندي أردب برًا، أو قنطار عسلًا، وذراع قماشًا، وعشرة عبيد، فبرًا ومثله هو الذي يسمى: تمييزًا؛ لأنه ميز مرادك من الأشياء التي كان مختلطًا بها، لكن تمييز الكيل والوزن والمساحة لا يجب نصبه بل يجوز، ويجوز جره بإضافة اسم الكيل وغيره إليه، ويجوز جره بكلمة من، فلك فيه ثلاثة أوجه تقول: عندي أردب برًا بالنصب، وعندي أردب بجر الإضافة، وعندي أردب من بر. بجر من فليس تمييز، هذه الأسماء من المنصوب وجوبًا.

وأما تمييز العدد: فتمييز ثلاثة إلى عشرة، وتمييز مائة سواء كانت وحدها أو مركبة مع ثلاثة إلى تسعة أو مثناة، وتمييز ألف يجب جرها، إلا أن تمييز الثلاثة إلى العشرة يكون بلفظ جمع، وتمييز المائة والألف بلفظ

مفرد، تمييز أحد عشر إلى تسعة عشر، وتمييز عشرين إلى تسعة وتسعين يجب نصبهما، فليس تمييز العدد منصوبًا كليًا بل هو على هذا التفضيل.

تقول: عندي ثلاثة أبواب. بجر إضافة اسم العدد إلى اسم المعدود، وهكذا أربعة عبيد، وعشرة أسياف، ومائة درهم، ومائتا دينار، وثلاثة مائة عبد، وألف رجل، وأحد عشر بيتًا، وعشرين دارًا، وتسع وتسعون نعجة.

فلو قلت: عندي عشرون ألف رأس من الغنم. فألف تمييز لعشرين منصوب وجوبًا ورأس تمييز لألف مجرور وجوبًا، وثلاث مائة سنين. طريق أخرى غير طريق التمييز، سلكت لزيادة التعجب من هذه الحادثة الغريبة على معنى: أردت بالعدد سنين، لا أيامًا ولا شهورًا.

شرح النوع الثاني التمييز: هو أن تلحظ اسمًا صالحًا لأن يراد به أشياء كثيرة ولا تلفظه، ولكن تكون هذه الأشياء الكثيرة متعلقة بشيء فتذكر ذلك الشيء، الذي له تلك الأشياء انتسابًا وتعلقًا به ناسبًا إليه أمرًا بحسب الظاهر، وفي الملاحظة والاعتبار هو منسوب للاسم المبهم الملحوظ، ثم تذكر اسم مرادك بعد تمييزًا مثال ذلك أن تقول: طاب زيد. فلفظ طاب يدل على حصول الطيب، الذي هو مقابل الرداءة، أو الطيب الذي هو مقابل التفالة قاصدًا أن شيئًا من الأشياء المنتسبة لزيد هو الموصوف بالطيب، لكن لم تذكر لفظ الشيء، ونسبت طاب إلى زيد، فالتقدير: طاب شيء من الأشياء المتعلقة بزيد، وزيد يتعلق به رائحته ونفسه وأهله وغلمانه ودوره ودوابه إلى غير ذلك، ومرادك شيء من تلك الأشياء بعينه، فتذكره بعد زيد تمييزًا فتقول: طاب زيد رائحة. أي: عطرت ولم تخبث، وخبث الرائحة هو معنى التفالة، أو طاب زيد دارًا، أو طاب غلامًا أو أبًا. إلى غير ذلك من الأشياء المتعلقة به وتريد أن تصفها بالطيب.

ومنه. زيد أعلى الناس منزلة. ومنه: ما أكرم زيدًا صاحبًا. حيث تريد مدح صاحبه دونه. ومنه: لله زيدٍ فروسية أو فارسًا. وبعضهم يعرب: فارسًا حالًا، وهو ظاهر كما إذا أردت مدح زيد بقولك: ما أكرمه صاحبًا. فتعرب: صاحبًا حالًا. قال جرير:

لا تطلبنَّ خُؤولَةَ في تغلبٍ فالزّنجُ أكرمُ منهم أخوالًا

فأخوالًا يعرب حالًا لا تمييزًا، فإنك تمدح الزنج وخؤولتهم، ولا تريد أن تمدح أخوالهم حتى تكون أردت شيئًا ينسب للزنج، ثم بينته بعد كما هو شأن التمييز، ومنه: ضربت زيدًا ظهرًا وبطنًا.

وما يكون مفسر الفاعل يسمى: تمييز الفاعل، وما يكون مفسر المفعول يسمى: تمييز المفعول. وهذا النوع من التمييز منصوب وجوبًا، وناصب التمييز الاسم المفسر به.

والنحويون يسمون النوع الأول: تمييز المفرد. ويسمون النوع الثاني: تمييز النسبة وتمييز الجملة؛ لأن البهامة بحسب الظاهر في نسبة الفعل التي هي روح الجملة.

وتحقيق القول أن التمييز مفسر لمفرد مبهم دائمًا، غاية الأمر أنه ملفوظ أو ملحوظ، ولا يكون التمييز إلا نكرة، ولا يتقدم على عامل المفسر هذا، وإذا جرى ذكر العدد في هذا الموضع، فلا بأس أن نلخص لك بقية أحكامه فنقول:

اعلم أن الواحد والاثنين لا يميزان، فلا تقول: واحد رجل مثلًا استغناء بإفادة لفظ رجل وامرأة الوحدة. ولفظ رجلين وامرأتين الاثنينية بخلاف نحو: رجال. فلا دلالة له على عدد بعينه، فيذكر العدد المقصود

ويميز بالمعدود، وأنه قد خولف بألفاظ العدد من ثلاثة إلى عشرة مفردة أو مركبة طريق التأنيث والتذكير، إذ قد عرفت أن بعض الألفاظ المشتركة بين الإناث والذكور تحلقها التاء عند إرادة الأنثى، وفي العدد المذكور التاء مع المذكر، والعبرة في التأنيث والتذكير باللفظ فتقول: ثلاثة أشخاص وأنت تريد إناثًا، وثلاث أنف. وأنت تريد ذكورًا. وقد جاء اعتبارًا لمعنى.

قال عمرو بن أبي ربيعة:

وكان مجني دُون من كنتُ أَتَّقي ثلاثُ شخوص كاعبان ومُعصِرُ

والأفصح: ثلاثة أشخاص: كما عرفت وإذا تعدد التمييز وكان مذكرًا ومؤنثًا، فإن فصلت بينه وبين العدد بكلمة بين، أو بكلمة من في غير يوم وليلة، أو كان المذكر عاقلًا، فالعبرة بالمذكر تقول: ملكت خمسة بين عبد وجارية، أو بين جارية وعبد، ومن عبد وجارية وعكسه.

وتقول: لقيت خمسة عشر امرأة ورجلًا. وإذا لم تفصل ولم يكن المذكر عاقلًا فالعبرة بالسابق، وإن كان المميز يومًا وليلة فالعبرة بالليلة، فإن اعتبار التاريخ عند العرب بالليالي. قال تعالى: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٤]، وفي الحادي والثاني والثالث ترجع للأصل فتقول: المسألة الحادية عشرة، والباب الرابع عشر. وموازن فاعل هذا تارة يستعمل اسم فاعل ويضاف لما يليه من الدرجة في العدد أو ينصبه فتقول: خرجت إلى الجهة الفلانية عاشر تسعة رجال، أو عاشرًا تسعة رجال. وتارة يستعمل لفظًا دالًا على الواحد من العدد فيضاف له

فقط، فيقال: خرج فلان رابع أربعة، وجاء خامس خمسة. أي: بعض أربعة وبعض خمسة.

وإذا أردت تعريف العدد ولم يكن مضافًا أدخلت عليه أل، فتقول: هات الخمسة عشر درهمًا، وإذا كان مضافًا فالفصيح إدخال أل على المضاف إليه.

قال الشاعر في يزيد بن المهلب:

ما زالَ مُذْ عقَدتْ يداهُ إزارهُ	فسما فأدركَ خمسةَ الأشبارِ
يُدنى كتائب مِن كتائب تلتقى	فِي كلِّ مُعتَركِ العِجاج مُثار

وبعض العرب يدخل أل على الجزأين في المضاف والمركب هذا وتقول: أعطيت فلانًا كذا أو كذا كذا أو كذا، وكذا كناية عن عدد فتميزه بمميز تنصبه أو تخفضه بمن فتقول: كذا درهمًا ومن درهم، ومثل كذا في هذا الحكم كلمة كأين وكم الخبرية، التي يفاد بها التكثير نحو: كم يد لي عندك. تارة تستعمل كالعشرة فتميز بجمع مخفوض بالإضافة، وتارة تستعمل كالمائة. وكم الاستفهامية نحو: كم كتابًا ملكت. يجب نصب تمييزها إلا إذا خفضت هي بحرف نحو: بكم درهمًا اشتريت هذا. فإنه حينئذ يجوز خفضه بالإضافة وإلا إذا فصلت؛ فيجوز جره بمن نحو: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [سورة البقرة: ٢١١].

الكلام على المضاف إليه وعلى عوامل معرب الأفعال وعلى التوابع

المضاف إليه: هو الاسم الصريح أو المأول المخفوض بأحد حروف الإضافة ملفوظًا أو ملحوظًا.

فالأول: تتميم الكلام عليه أن المخفوض بمذ ومنذ، لا يكون إلا اسم وقت ظاهرًا.

والمخفوض برب لا يكون إلا نكرة، والمخفوض بالكاف والواو وحتى لا يكون إلا ظاهرًا والتاء مختصة بلفظ الجلالة ولفظ رب، ومثل قول الشاعر:

رُبّهُ فتيةً دعوتُ إلى مَا ... يُورِثُ المجدَ دائِبًا فأجابُوا

وقول الراجز (العجاج):

فَلا تَرى بعْلًا ولا حلائِلًا ... كَهُو ولا كَهُنَّ إلا حاظِلًا

شاذ. وبعض العرب يخفض بمتى، وهي عندهم بمعنى من قال شاعرهم:

شربنَ بماء البحرِ ثمَّ ترفَّعت ... متى لججٍ خُضرٍ لهُن نَئيجُ

وبعض آخر يخفض بلعل. قال شاعرهم:

فقلت ادع أَخرى وارفع الصوت ... لعل أبي المغوار منك قريبُ

ولعل في هذه اللغة مثل رب المخفوض بها جزء الكلام الواقع بعدها فهو معرب اللفظ والمحل بإعرابين مختلفين، وقد ورد: لولا أنا، ولولاي، ولولا نحن، ولولانا إلى آخر الضمائر.

وعرفت أن هذا النوع من الضمائر مشترك بين النصب والخفض نحو: غلامك أكرمك. فقال سيبويه: إن لولا إذن مثل رب. وقال آخرون: هو من إنابة ضمير عن ضمير كالإنابة في قولهم: ما أنا كأنت ولا أنت كأنا. وإذا اتصلت ما برب والكاف عملا ولم يعملا، وإذا لم يعملا دخلا على الجملتين وتسمى حينئذ كلمة ما الزائدة: كافة مهيئة لكفهما عن العمل وتهيئتهما للدخول على الجمل، كما تسمي بهذا الاسم إذا أبطلت عمل إن وأخواتها.

(النوع الثاني من المضاف): هو المخفوض بحرف يلحظ ولا يلفظ أصلًا، وذلك الحرف هو لام الملك وشبهه نحو: غلام زيد. أي: الغلام المملوك لزيد، ونحو سرج الفرس، وبرذعة الحمار. والغرضُ من الإضافة تعيين المضاف بإضافته إلى معين إن كان المضاف إليه من المعارف وتخصيصه بإضافته إلى مخصوص إن كان المضاف إليه من النكرات؛ فالأول كقولك: هذا غلامي وغلامنا وغلامك. إلى آخر الضمائر؛ فالمراد بغلام تعين بإضافته إلى الضمير الذي مدلوله متعين وهكذا بقية المعارف. والثاني كقولك: هذا غلام رجل. فمدلول غلام صار مخصوصًا بإضافته إلى مخصوص وهو جنس الرجل فإنك لو قلت: غلام. يتناول غلام الرجل وغلام المرأة، فلما أضفته تخصص بأحد الجنسين. وبعض الإضافات قد تكون بين مظروف وظرف، فيتخيل أنها على معنى في كقولك: سير الليل مبروك، ونوم الظهر مندوب. فمعناه الحقيقي السير المنسوب لليل بسبب وقوعه فيه، والنوم المنسوب للظهر بذلك، وبعضها يكون بين شيء وجنسه الذي اتخذ منه، فيتخيل أنها على معنى من كقولك: خاتم ذهب، وباب ساج، وثوب حرير فمعناه: خاتم منسوب للذهب بسبب كونه متخذًا منه وهكذا. وهذا النوع من الإضافة يسمى:

إضافة بيانية، وضابطها أن يكون المضاف إليه جنسًا للمضاف، وهنالك إضافة تسمى بالإضافة للبيان نحو: شجر الأراك. وضابطها أن يكون المضاف إليه نوعًا من المضاف، فالنسبة في الإضافة البيانية العموم والخصوص من وجه، وفي الإضافة للبيان العموم والخصوص المطلقان، وتسمى هذه الإضافة: إضافة معنوية. وثم إضافة تسمى: إضافة لفظية، وهي إضافة اسم الفاعل، أو اسم المفعول، أو الصفة المشبهة، لمعمول من معمولاتها فيكون المضاف إليه متعلقًا بالمضاف تعلق الفاعلية له أو المفعولية به، ويكون المضاف متعلقًا بالمضاف إليه تعلق الحصول منه أو الوقوع به كقولك: أنا راكب الفرس غدًا، ومسابق الفرسان، وزيد عظيم الأمل فيك، وهو مروع القلب.

فلفظ راكب اسم فاعل تعلق بالفرس تعلق الوقوع به، ولفظ الفرس متعلق براكب تعلق المفعولية إذ يصح أن تقول: أنا راكب الفرس بنصب الفرس على المفعولية.

وكذلك مسابق الفرسان، وزيد عظيم أمله. برفع الأمل فاعلًا، ومروع قلبه برفع القلب نائب فاعل فليست هذه الإضافة حقيقية، ولذلك سميت: لفظية. وفائدتها التخفيف بحذف تنوين الوصف المفرد، ونون المثني والجمع على حده، ولا يستفيد المضاف بها تعينًا وهو ظاهر، ولا اختصاصًا؛ لأنه حاصل بتعلق الفاعلية أو المفعولية كما يظهر لك عند الرجوع للأصل من نصب المفعول ورفع الفاعل. ثم إن الإضافة توجب حذف تنوين المضاف وحذف نونه إن كان مثنى أو جمع مذكر سالم، وتمنع أن تدخل أل على المضاف، لكن المضاف في الإضافة اللفظية يجوز أن تدخل عليه أل إن كان مثنى أو جمع مذكر سالم بلا شرط، وإن

كان غيرهما فجوازه مشروط بكونه مضافًا إلى ما فيه أل أو مضافًا إلى مضاف لما فيه أل نحو: هذان الراكبا فرس، والطالعو جبل، والحسن الوجه، والضارب رأس الجاني. ثم إن المضاف كما يكتسب التعين من المضاف إليه المعرفة بسبب إضافته إليه، والتخصص من المضاف إليه النكرة بسبب إضافته إليه يكتسب الظرفية منه إذا كان ظرفًا بسبب إضافته إليه نحو: أجيئك كل حين وبعض الأحيان وذات يوم وذات ليلة، وقت كل مقام لزيد، وجلست بعض مجالس عمرو، ويكتسب المفعولية المطلقة إذا أضيف لمصدر يكون لولا المضاف مفعولًا مطلقًا نحو: مشيت كل مشي وقرأت أحسن القراءة، ووقفت بعض الوقوف، ويكون مدلول لفظة كل في مثل هذا جميع أفراد جنس ما أُضيفت إليه، ومعنى بعض بعض أفراده ومعنى أحسن ومثله من كل اسم تفضيل الفرد الزائد من أفراد ما أُضيف إليه في الصفة المدلول عليها بلفظه، وكذلك يكتسب وجوب تصدره في الجملة إن كان المضاف إليه من الأمور التي يجب تصدرها كالمضاف لاسم استفهام أو اسم شرط نحو: غلام مَنْ صحبت؟ وكتاب أي شخص استعرت؟ وغلام مَنْ تكرم أكرم؟ وكذلك يكتسب منه التأنيث إن كان المضاف مذكر أو المضاف إليه مؤنثًا، ويكتسب التذكير إن كان بالعكس، ولكن شرط هذين الاكتسابين أن يكون المضاف بحيث لو حذف لبقي الحكم له صحة، أما إذا لو حذف فسد الحكم امتنع هذان الاكتسابان. صورة الصحة قولك: إنارة العقل مكسوف بطوع هوى الإنارة. مؤنث مضاف للعقل المذكر اكتسب المؤنث من المضاف إليه التذكير.

ولذلك قلت: مكسوف ولم تقل: مكسوفة، والشرط حاصل فإنك لو حذفت لفظ الإنارة وقلت: العقل مكسوف بطوع هوى. بقى الحكم صحيحًا ونظيره:

روية الفكر ما يؤول له الأمر معين على اجتناب التواني

وقولك: قطعت بعض أصابع زيد. وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [سورة آل عمران: ٣٠] صورة الفساد. قولك: جاءت فتاة زيد. لا يصح أن تقول: جاء فتاة زيد. لامتناع الاكتساب فيه، إذ لو حذفت لفظ الفتاة المضاف لفسد الحكم، فإن المجيء لم يتعلق بزيد أصلًا بخلاف القطع في: قطعت بعض الأصابع مثلًا، فإن القطع الواقع على البعض واقع على الأصابع في الجملة: فلو قلت: قطعت الأصابع بمعنى أن القطع تعلق بالأصابع، وحصل فيها من غير ملاحظة العموم كان الحكم صحيحًا.

ثم إن من الأسماء أسماء تقتضي بطبيعة معناها أن تكون مضافة فلازمت الإضافة وهي لفظ (كل وبعض) وربما حذف ما أضيفا إليه ملحوظًا، ولفظة (وحد) ولا تضاف إلا إلى ضمير كوحدي ووحدك ووحده، ومثل وحدك لبيك تثنية لب محذوف زوائد التلبية في الجواب، وسعديك ودواليك في الدعاء بالسعد والدولة، وحنانيك في الاستعطاف قال الشاعر:

أبا مُنذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعضُ الشر أهونُ من بعضِ

وهذا ذيك في طلب الإسراع، ولفظة حيث من أسماء الأمكنة، ولفظة إذ من أسماء الزمن الماضي، ولا يضافان إلا إلى جملة، وكثر تعويض التنوين عنها مع إذ، ولفظة إذا من أسماء الزمن المستقبل ولا تضال إلا

إلى جملة فعلية، ويعوض عنها التنوين أيضًا ولفظة لدن، وتضاف لمفرد وجملة نحو: من لدنا، ونحو:

صريعُ غوانٍ راقهُنَّ ورقتَهُ لدُونٌ شبَّ حتى شاب سودُ

ونصبوا بها غدوة تمييزًا، ولفظة عند ولفظة مع، ولا يضافان إلا لمفرد، وتسكن عين مع، وإذا وليها ساكن كسرت أو فتحت، وتنصب حالًا نحو: أقبلنا معًا فلا تضاف. ولفظة: كلا وكلتا، ولا يضافان إلا للفظ يدل على اثنين أو اثنتين نحو: كلا الرجلين، وكلتا المرأتين، وكلاهما وكلتاهما.

ولفظة: أي ولا تضاف إلا لما يلحظ فيه التعدد؛ لأن المقصود منها كيف استعملت واحد من آحاد ما تضاف إليه، لكن إذا استعملتها موصولة وجب أن تضاف لمعرفة نحو: يعجبني أيهم هو يتقي الله. على معنى الذي منهم هو يتقي الله، وإذا كانت صفة أو حالًا وجب إضافتها إلى نكرة نحو: زيد رجل. أي رجل. وهذا زيدٌ. أي إنسان.

وإذا كانت استفهامية أو شرطية جاز إضافتها إلى معرفة وإلى نكرة نحو: أي الرجال عندك، وأي رجل عندك. نحو: أي الرجال تكرم أكرم. وأي رجل تكرم أكرم. ولفظة: غير، وقبل، وبعد، وتحت، وفوق، وأمام، وقدام، ووراء، وخلف، وأسفل، ودون، وأول، ومن عل. ولهذه الألفاظ أربعة أحوال:

الأول: إضافتها لفظًا كما هو مقتضى طبيعة معناها.

الثاني: أن يحذف ما أُضيفت إليه ملحوظ اللفظ، فتبقى على صورتها عند وجوده.

الثالث: أن يحذف غير ملحوظ أصلًا، وتكون الكلمات مستعملة نكرات، فتعرب حسب الاقتضاء.

الرابع: أن تستعمل معارف ملحوظًا فيها تعين المدلول، فتكون متضمنة معنى أل كما سبق في قسم المعرب والمبنى تقول: جاء زيد قبل عمرو، وجاء زيد وجاء عمرو بعد أي بعده بنصبها كما كانت ونحو:
فساغَ ليَ الشرابُ وكنتُ قبلًا

أي في زمن سابق ونحو: لله الأمر من قبل ومن بعدُ. أي السابق واللاحق وحينئذ تبنى على الضم وتسمى الظروف غايات؛ لأنها صارت إذن غايات بعد أن كان الغاية غيرها. ثم كثيرًا يحذف المضاف فيقوم المضاف إليه مقامه في وظيفته من الكلام ويحذف المضاف إليه ويبقى المضاف على صورته بشرط أن يعطف عليه لفظ مضاف لمثل ما حذف منه نحو قولك: قطعوا يد ورجل القاطع. فالأصل يد القاطع ورجله، فحذف المضاف إليه ليد، فلم يبق مرجع للضمير في رجل فجيء بالاسم الظاهر، فدل على المحذوف من الأول، ثم لا يفصل المضاف من المضاف إليه إلا بمعمول المضاف، فإنه يجوز والأحسن تركه كقولك: زيد معطي درهمًا عمرو، والأحسن: معطي عمرو درهمًا.

ثم المضاف لياء المتكلم إن كان آخره صحيحًا أو ملحقًا به وجب كسره، وجاز لك فتح الياء وتسكينها كغلامي وغلاميَ، ودلوي ودلويَ، وظبي وظبيَ.

وإن كان آخره ألفًا بقيت الألف بصورتها، وتعين فتح الياء كفتايَ وعصايَ وغلامايَ.

وإن كان آخره ياء ساكنة وجب إبقاؤها بصورتها وإدغامها في ياء المتكلم مفتوحة وجوبا كغلاميَّ وزيديَّ جمع مذكر سالم.

وإذا كان آخره ياء مشددة جاز إبقاؤها بصورتها مع إسكان الياء، وجاز حذف ثانية اليائين مع فتح ياء المتكلم كقولك: هذا بني مصغرًا وبني، وهذا كُرسي وكرسي.

وإن كان آخره واوًا وهو جمع المذكر السالم، إذا كان بالواو وجب قلب واوه ياء وإدغامها في ياء المتكلم، فإن كان ما قبل الواو ضمة أُبدلت كسرة، وإن كان فتحة بقيت نحو: هؤلاء زيدِيَّ، وهم مصطفَيَّ. بفتح الفاء وكسر الدال.

وإذا كان المضاف لياء المتكلم منادى صحيحًا أو ملحقًا به جاز لك إبقاء الياء ساكنة ومفتوحة، وحذفها وقلبها ألفًا وفتح ما قبلها لأجلها، وحذف الألف وإبقاء الفتحة نحو يا غلامي وغلاميَ وغلامِ بالكسر، وغلاما وغلامَ بالفتح.

ونحو: يا بُني. محتمل، وجاز في خصوص لفظة أب ولفظة أُم حذف الياء وتعويض تاء منها فتقول: يا أبت، ويا أمتِ. مكان أبي وأُمي، فلا يجوز أن تجمع بينهما، ولك فتح التاء على أن المحذوف المعوض عنه هو الألف المنقلبة عن ياء المتكلم ولك كسرها بناء على أن المحذوف الياء. والتزمت العرب في: يا ابن أم، وابنة أم وابن عم، وابنة عم حذف ياء المتكلم دون إبدالها ألفًا؛ فيبقى ما قبلها مكسورًا وبعد إبدالها ألفًا فيبقى مفتوحًا.

* * *

الممنوع من الصرف

هـذا: وقـد عرفـت أن الأسـماء التـي لا تنـصرف أي لا تنـون تنـوين التمكـين الـذي يـسمى: صـرفًا. تخفـض بالفتحة نيابـة عـن الكـسرة إلا إذا أضـيفت أو عرفـت بـأل، فإنهـا حينئـذ تخفـض بالكـسرة، وهـذه أنـواع مـا لا ينصرف وهـي: كـل جمع لا نظير لـه في والخفض. ويعـوض عنهـا تنـوين يقال له: تنوين العوض.

وكـل مؤنـث بإحـدى الألفـين، وكـل وصـف يـوازن فعـلان بفـتح الفـاء بشرط أن يكون مؤنثه على وزن فعلى كسكران سكرى، وكـل وصـف أتـى علـى زنـة خاصـة بالفعـل أو غالبـة فيـه، ولـم يؤنـث بالتـاء، وكـان أصـلي الوصفية. وكل وصف معدول عن أصـل كموحـد وأحـاد إلـى آخر ما ورد، وآخـر المعـدول عـن الآخـر إذ قـد عرفـت أن اسـم التفـضيل لا يثنـى ولا يجمـع إلا حيـث يعـرف، فـإذا قلـت بنساء آخر كـان حقـه بنـساء آخر. أي: أشد تأخرًا.

وكل علم مركب تركيبًا مزجيًا بغيرويه، وكـل علـم زيـد في آخره ألـف ونون كحسان وعفان. من الحس والعفة لا من الحسن والعفونة.

وكـل علـم مؤنـث بالتـاء، وكـل أعـلام الإنـاث، وكـل علـم أعجمـي غيـر ثلاثي ساكن الوسط، وكل علـم جـاء علـى زنـة تخـص الفعـل أو تغلـب فيـه، وكل علـم آخره ألـف الحـاق، وكل علم معدول عـن أصـل: كعمـر المعـدول به عن عامر. وذلك لأنـه جـرت العـادة أن يـسموا عـامرًا تفـاؤلًا بالعمـارة، ثـم يعدل به لتلك الصيغة ولفظ سحر الذي أردت بـه سـحر يومـك وقطـام، ومـا

أشبهه مما لا ينصرف في لغة تميم، ومبنية على الكسر في لغة الحجاز كما سلف.

وإذا نُكِّرت الأعلام صرفت، وكذا إذا صغرت ما لم تخرج إلى نوع آخر من أنواع ما لا ينصرف كأعور إذا صغرته قلت: أعيور فيوازن أبيطر.

وينون ما لا ينصرف لضرورة الشعر ويسمى التنوين: تنوين الضرورة. وللتناسب نحو: سلاسلًا وأغلالًا. ويسمى: تنوين التناسب.

وإذا نون ما لا ينصرف للضرورة خفض بالكسرة.

* * *

الصفة المشبهة

هذا: ومما سلف لك عرفت أن الألفاظ العاملة عمل الأفعال من المصدر وغيره، قد يضاف لبعض معمولاته مثلًا تقول: يعجبني حفظ زيد لطائف الأشعار. بإضافة حفظ لزيد وبدونها وينوّن وحفظ لطائف الأشعار زيد، وتقول: معط عمرًا درهمًا، ومعطي عمرو درهمًا، ومعطي درهم عمرًا. غير أن للصفة المشبهة أحكامًا نحتاج لتفصيلها.

وحاصلة أنك إذا أجريت صفة شيء على صاحبه إخبارًا بها عنه أو نعتًا له بها نحو: زيد حسن الوجه وهو رجل سليم القلب، فالحسب والسلامة صفتا الوجه والقلب أجريتهما على صاحبيهما إخبارًا في الأول ونعتًا في الثاني، فقد نطقت بتركيب يجوز أن يكون على صور شتى. والضبط أن تقول: إن الصفة إما أن تكون بأل أو بدونها، واسم موضع الصفة بأل أو بدونها مضافًا إلى ضمير صاحبه أولًا، واسم موضع الصفة مرفوع أو منصوب أو مخفوض؛ فهذه ثماني عشرة صورة منها: صورتان باطلتان هما: الحسن وجهِهِ، والحسن وجهِ. بخفض الوجه فيهما. ومنها ثلاث ممتنعة في السعة وهي: الحسن وجهَهَ، وحسن وجهَهَ بالنصب، وحسن وجهِهِ بالخفض. ومنها صورتان غير قبيحتين وهما: الحسن الوجهَ وحسن الوجهَ بالنصب فيهما على التشبيه بالمفعول به. ومنها صورتان قبيحتان وهما: الحسن الوجهُ، وحسن الوجهُ بالرفع فيهما. ومنها صورتان أقبح من هاتين، وهما: الحسن وجهُ، وحسن وجهُ بالرفع فيهما. ومنها صورة متوسطة وهي: حسن وجهِ بالجرّ. وما عدا ذلك فصيح جيد سائر الاستعمال، وهي: الحسن وجهُهُ بالرفع، والحسن الوجهِ بجر الإضافة،

والحسن وجهًا بنصب التمييز، الأولى أصل والثنتان فرعاها، وحسن وجهه، وحسن الوجه، وحسن وجهًا كذلك.

ومتى رفعت الصفة اسم موضعها لم يكن فيها ضمير صاحبه، فهي تطابق اسم الموضع تقول: هند حسن وجهها، وزيد حسنة أخلاقه. ومتى لم ترفعه كانت مشتملة على ضمير صاحبه، فهي تطابقه نحو: هند الحسنة وجهًا، والوجه، وزيد حسن أخلاقًا والأخلاق.

* * *

بيان عوامل معرب الأفعال

معرب الأفعال كما سلف لك هو المضارع؛ فيكون مرفوعًا حيث يتجرد من ناصبٍ وجازمٍ، ويكون منصوبًا إذا دخل عليه ناصب ومجزومًا إذا دخل عليه جازم.

بيان نواصبه

هي: لن والفعل معها لا يكون إلا مستقبلًا، ولذلك يقال فيها أنها حرف نفي ونصب واستقبال.

وإذن بشرط تصدرها واستقبال منصوبها واتصاله بها، ولا يضر الفصل بقسم أو نداء. وكي مسبوقة باللام وغير مسبوقة.

ولأن ثلاثة أحوال: وجوب ذكرها، ووجوب حذفها، وجواز الأمرين.

فيجب ذكرها إذا توسطت بين اللام ولا نحو: ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩]. ويجب حذفها بعد لام الجحود وهو أشد الإنكار، وتكون مسبوقة بما كان أو لم يكن مثلًا نحو: ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٣٧]. ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣]. وأفادت العبارة الجحد بسبب أنه قد نفى الفعل بنفي الاستعداد له، فمن يقول: ما كنت لأكتم علما، يريد: أني لم أكن مستعدًا لذلك، ولم يكن من الأحوال الكونية التي تدخل تحت الاستطاعة.

ويعد أو التي تفسر بإلى أن إذا وقعت بعد فعل له امتداد وبقاء.

وبإلا أن إذا وقعت بعد غير ممتد نحو:

لأستسهلنّ الصعب أو أَدرِكَ المنى — فما انقادتِ الآمالُ إلا لصابر

فاستسهال الصعب أمر يمتد مع الأزمنة فتفسر أو بإلى أن، ونحو: لأقتلن المرتد أو يتوب. فالقتل ليس له امتداد فتفسر أو بإلا أن.

وبعد حتى الغائية الخافضة فما بعدها مستقبل لما قبلها لا الابتدائية، التي تفيد السببية وما بعدها حالي نحو: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ﴾ [البقرة: ١٨٧]. أي: إلى تبين الخيط. والابتدائية كقولك وأنت داخل مكة: سرتُ الليالي ذوات العدد حتى أدخل مكة. أي: فها أنا ذا أدخلها.

وبعد فاء تفيد سببية سابقها للاحقها فتسمى: فاء السببية. وبعد واو تفيد تعلق الحكم بالجمع بين أمرين فتسمى: واو المعية. ولا يستعملان إلا بعد نفي أو طلب، من: أمر ونهي واستفهام وتمن وعرض وحض كقوله:

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما — قد حدثوك فما راءٍ كمن سمعا

وقوله: لا تعن بالجفاء وتمدح عمرًا.

وإذا حذفت الفاء بعد الطلب جزمت الفعل بأن التي يتضمن الكلام معناها مثلًا تقول: أعطني ما سألتك فتجدني مسارعًا إلى هواك. تحذف الفاء فيصير: أعطني تجدني فمعناه: أن تعطني.

وهذه الكلمات التي هي: الواو والفاء وأو. هي أحرف العطف لكن عطفها يعتمد ملاحظة المعنى؛ فالمعطوف عليه مصدر ملحوظ من الفعل السابق فقولك: لأطلبن أو أبلغ المنى. تأويله: ليكن مني طلب أو بلوغ.

ويجوز حذف أن باقية العمل بعد لام التعليل، وبعد عاطف على اسم نحو: أزورك لتزورني أو لأن تزورني ونحو:

ولبس عباءةٍ وتقرّ عيني أحبُّ إليّ من لبس الشُّفُوف

ونحو: حال الفقراء وأبلغ المجد خبر؛ فإذا حذفت أن في غير هذا وجب رفع الفعل. قال:

ألا أيها الزاجري أحضرُ الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدي

أي: أن أحضر. فحذف ورفع.

* * *

بيان جوازمه

هي: لم، ولما، ولا الناهية، ولام الأمر، وإن الشرطية وما تضمن معناها من الأسماء وإذ ما. فلم تجزم المضارع وتنفي حصوله في الأوقات الماضية فيخرج عن أصل وضعه.

ولذلك تسمعهم يقولون: لم حرف نفي وجزم وقلب، وبينها وبين لما فرق، وذلك أن لما ينسحب نفيها على حال التكلم، ولا تستعمل إلا مع منتظر الحصول، فهي مقابلة لقد في الإثبات مثلًا تكون منتظرًا إقامة الصلاة خارج المسجد بحيث يسمعك بعض من فيه، فتقول: هل أقاموا الصلاة؟ فيجيبك لما يقيموها، فإذا أقاموها أجابك بقد أقاموها.

ولذلك يقال: قد: حرف توقع. أي: تصحب المتوقع المنتظر، والفعل الماضي مع أن في موضع جزم يظهر ذلك في العطف عليه تقول: إن

أرضاك زيد ويسع في أغراضك وجب إكرامه؛ لأن الماضي إذن مستقبل في المعنى فللماضي حالة إعراب.

* * *

بيان التوابع

خمسة أشياء من أجزاء التركيب تسمى توابع؛ لأنها تكون دائمًا تابعة في إعرابها لما قبلها، فيكون متبوعًا لها وهي: النعت، والتوكيد، وعطف البيان، وعطف النسق، والبدل. والنعت ينقسم باعتبار الغرض منه أربعة أقسام:

القسم الأول: نعت يكون الغرض منه تعيين متبوعه وتمييزه عن سائر ما عداه، فإن كان متبوعه نوعًا من الأنواع سمي النعت: معروفًا ووصفًا كاشفًا كقولك: الإنسان الحيوان الناطق نوع شرفه الله تعالى بالعقل، وصرفه فيما على الأرض، فقولك: الحيوان الناطق نعتٌ للإنسان يميزه عن سائر الأنواع، فهو معرف له ووصف كاشف عن حقيقته. وهذا النوع من النعت يصح أن تضع بينه وبين منعوته كلمة أي. وهي حرف تفسير لكون النعت مفسرًا ومبينًا ومفصلًا لمجمل فتقول: الإنسان. أي الحيوان الناطق. وضابط هذا أن يكون النعت أمرًا مشتركًا بين سائر أشخاص نوع منفردة به بحيث يعين جميع الأشخاص ويعرفها لمن اطلع عليه ويميزها من غيرها، والغالب فيه أن يؤتى به على صورة خبر لمبتدأ هو المنعوت، فيقال: الإنسان حيوان ناطق. حيث يكون الغرض مجرد التعريف.

القسم الثاني: نعت يكون الغرض منه تعيين شخص أو جماعة أشخاص، وتمييزه من مشارك في اسم أو في اسم ووصف مثلًا ويسمى:

نعتًا مقيدًا نحو: جاءني زيد التاجر. حيث يكون في معلومك على ما فهم المتكلم أشخاص كلهم مسمون بزيد إلا أن زيدًا منهم عالم، وزيدًا آخر تاجر، وزيدًا آخر زارع، فتقول: زيد التاجر. تمييزًا له من مشاركيه في الاسم مقيدًا له بوصفه. وتقول: جاءني زيد التاجر العالم. حيث يكون، ثم زيد تاجر فقط، وزيد عالم فقط، وزيد تاجر عالم. فيتعدد النعت بسبب حاجة التمييز حتى يحصل.

القسم الثالث: نعت يذكر لغرض مدح منعوته بفضيلة، أو ذمه برذيلة، وإنما يكون ذلك إذا كان المنعوت متعينًا متميزًا بدون النعت؛ لأجل أن ينصرف ذهن المخاطب إلى أن الغرض هو المدح أو الذم، كقوله تعالى: ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ [سورة المسد: ٤] فامرأة أبي لهب - أحد أعمامه صلى الله عليه وسلم - معلوم أنها أم جميل أُخت أبي جهل، فلم تكن مفتقرة إلى التعيين والتمييز، فعلمنا أن ذكر حمالة الحطب نعت إنما هو لذمها بذلك، والحطب الذي كانت تحمله هو حطب شائك كانت تلمه، ثم تلقيه وتفرقه في مسالك النبي - صلى الله عليه وسلم - تؤذيه بذلك. وكقولك: جاءنا والي البلد الهمام. ونظير ذلك الأوصاف التي تذكر للترحم والتعطف نحو: اللهم إني عبدك المسكين الضعيف.

القسم الرابع: نعت يذكر لغرض تأكيد معنى يتضمنه متبوعه كقولهم: أبعد من أمس الدابر، وأقربُ من الغدِ المقبلِ.

وجميع أقسام النعت تفيد معنى في المتبوع، لكن ليست إفادته هي الغرض بتبعيته دائمًا لما عرفت.

وينقسم باعتبار كونه صفة لمتبوعه أو صفة لشيء من متعلقات متبوعه إلى قسمين:

القسم الأول يسمى: نعتًا حقيقيًا.

القسم الثاني يسمى: نعتًا سببيًا؛ لأن وصف الغير إنما جعل وصفًا للمنعوت في الكلام بسبب كون صاحب الوصف منتسبًا ومرتبطًا بالمنعوت.

فالأول كقولك: زيد العالم. فالعلم صفة زيد حقيقة. والثاني كقولك: زيد العالم أبوه. فالعلم صفة للأب ونعت بها زيد لكون الأب من متعلقات زيد فليس العلم صفة زيد بل صفة أبيه، لكن من حيث كونه صفة أبيه حصل لزيد صفة وهي كونه عالم الأب. وللأول حكم وهو: أنه يجب أن يكون موافقًا لمتبوعه في إعرابه: رفعًا ونصبًا وجرًا، وفي تعريفه وتنكيره، وفي إفراده وتثنيته وجمعه، وفي تذكيره وتأنيثه.

ومن هنا سمي: تابعًا، فلا توصف معرفة بنكرة ولا بالعكس، ولا مفرد بغيره فتقول زيد الفاضل، ورجل صالح، والزيدان الفاضلان، ورجلان فاضلان، والزيدون الفاضلون ورجال فضلاء، وهند الفاضلة، وامرأة فاضلة إلى غير ذلك.

فيقال فيه: أنه يتبع منعوته في أربعة أشياء من عشرة هي: الرفع والنصب والجر، والتعريف والتنكير، والإفراد والتثنية والجمع، والتذكير والتأنيث.

وللثاني حكم: وهو أن يجب أن يوافق متبوعه في إعرابه، وفي تعريفه وتنكيره فقط وأما تذكيره وتأنيثه، وإفراده وتثنيته وجمعه فبحسب ما بعده، وهو صاحب الوصف المذكور حقيقة، فيقال: أنه تابع لمنعوته في شيئين من خمسة هي: الرفع والنصب والجر، والتعريف والتنكير فتقول: زيد القائمة أمه، وهند القائم أبوها، ورجل ذاهبةٌ جاريته، ولكون الوصف الرافع للفاعل أو نائبه في الحقيقة فعلًا تجرده من علامتي: التثنية والجمع. وإن اكتنفته التثنية مثلًا تقول: رأيت الزيدين الكاتب أبواهما. على معنى اللذين يكتب أبواهما، فلا تقل الكاتبين، ولا اللذين يكتبان. لكن إنما يجب إتباع النعت منعوته في إعرابه إذا لم يتعين بدون النعت.

فإذا تعين بدونه جاز لك الإتباع، وجاز لك قطع النعت بإعراب وحده، تجعله بذلك جملة مستقلة مشتملة على ذكر وصف من أوصاف شيء سبق في جملة أخرى.

وإذا كان الغرض: المدح أو الذم أو الترحم وجب حذف صدر الجملة التي فيها الوصف كقولك: جاءني زيد السهل الطباع الحميد الخصال. بنصب السهل والحميد على نية اذكر السهل وأمدحه، وكقولك: رأيت زيد المسكين ترحمًا أو الخبيث الشَّقي ذمًّا. على تقدير هو فمن أذكر إلى آخره، ومن هو إلى آخره جملة مستقلة حذف منها الفعل والفاعل أو المبتدأ ذكرت لغرض: المدح أو الذم أو الترحم. وإذا لم يكن الغرض ذلك لم يجب حذف صدر الجملة كما تقول: زارني اليوم أمير البلد المتصرف في أمور الناس وأنفسهم، مخاطبًا من يجترئ عليك، تريد بذلك التهويل عليه وإزاحة غفلته فلك أن تذكر صدر الجملة فتقول: أعني المتصرف أو هو المتصرف.

وينقسم إلى مفرد وجملة. لكن لا يوصف بالجمل إلا النكرة، فلو وقعت جمل الأوصاف بعد المعارف أعربت أحوالًا، وإذا وقعت بعد معرفة فيها تنكير أو نكرة مخصصة جاز لك الأمران كقولك: جاءني رجل يقرأ العلم. فجملة يقرأ صفة لرجل النكرة، وجاءني زيد يتكلم بما يعجب. فيتكلم حال من زيد المعرفة.

وكقولك: ادخل السوق يباع فيه اللحم فاشتر كذا. حيث لم يكن بينك وبين مخاطبك معهودية سوق بعينه، بل الغرض من التعريف الإشارة إلى الماهية المتعينة المتحققة في آحادها، فمعناه: ادخل واحدًا من تلك الآحاد المتساوية الإقدام في استحقاق اسم السوق فهو معرفة في اللفظ، نكرة في المعنى؛ فإن راعيت اللفظ جعلت الجملة حالًا، وإن راعيت المعنى جعلتها صفة.

وكقولك: رأيت رجلًا صالحًا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر. فرجلًا نكرة مخصصة بالصفة، فلك في الجملة أن تجعلها صفة ثانية، فيكون التقدير: رجلًا صالحًا آمرًا ناهيًا. أي جامعًا بين الأوصاف الثلاثة، وأن تجعلها حالًا فيكون المعنى: رأيتُ رجلًا متصفًا بالصلاح في حال أمره ونهيه.

وإن تعدد النعت لمتعدد؛ فإن كان النعت أوصافًا متخالفة، وجب ذكر كل نعت على حدة بعطف اللاحق على السابق كقولك: جاءني الزيدون العالم والتاجر والصانع.

وإن كانت من جنس ثنيت وجمعت، فتقول: الزيدان الفاضلان، والزيدون الفاضلون، والهندات الفاضلات.

وإذا تفرق المنعوت بهذا النعت في جملتين؛ فإن اتفق عاملاهما لفظًا ومعنى جاز لك الإتباع وجاز لك القطع بشرطه، نحو: جاءني زيد وجاءني عمر العالمان. بالإتباع، والعالمين بالقطع على تقدير اذكر العالمين فإن اختلف العاملان لفظًا نحو: جاء وأتى أو معنى نحو: تكلم أي نطق، وتكلم أي تجرح، وجب القطع كقولك: تكلم فأفصح زيد، وتكلم فسال دمه عمرو الشجاعين، وجاء زيد وأتى عمرو الفاضلين. كما إذا كان أحد المنعوتين مرفوعًا والآخر منصوبًا مثلًا لتعذر الإتباع إذن، وما سمعت في تعدد الخبر تجريه بعينه في الحال وفي النعت حيث كان الغرض العام في الأنواع الثلاثة: هو إثبات الأوصاف ونسبتها إلى موصوفاتها بيد أن اختلاف الأغراض الخاصة أوجب اختلاف الكيفيات والمغايرة بين الألقاب فكما تقول: هذا الرمان حلو حامض أو لا حلو ولا حامض. إلى آخره تقول: آكل الرمان حلوًا حامضًا، واشتريت فرسًا أبيض أسود.

وقد جاء الإخبار والنعت والتقييد الحالي بالمصدر مبالغة في تحقيق الوصف للموصوف نحو: هذا الرجل صدق، وهذان الرجلان عدل. بإفراد المصدر وتذكيره على معنى أنه تكون من العدل وليس شيئًا آخر وراءه.

قالت الخنساء في صفة ناقة فقدت ولدها، فهي لا تزال تقبل وتدبر في البحث عنه. فإنما هي إقبال وإدبار * وليس على التأويل ولا تقدير مضاف كما قيل؛ إذ هو خروج عن الغرض ولعل حكم النحويين بشذوذ وقوع المصدر حالًا من جهة إحداثه كيفية في التركيب، وإلا فهو مجاز سائغ مسموع نوع العلاقة كما هو شرط المجاز على ما أوضح أهل البيان.

ولا يتقدم النعت على المنعوت فإذا تقدم نعت النكرة جعل حالًا، وإذا تقدم نعت المعرفة جعل المنعوت عطف بيان وخرج إذن عن كونه

نعتًا، ولا يفصل بين النعت والمنعوت بأجنبي عنهما نحو: إن رجلًا على أبيه مجترئًا ولأمه مهينًا لرجل سوء، وإن مكرمًا أباه راحمًا له بارًا بأمه لرجل خير وبر. فنحو قولك: قراءة زيد لا تعجبني الدرج، لا يصح بل يجب: قراءة زيد الدرج لا تعجبني؛ لأن خبر المبتدأ ليس متعلقًا بمعنى المصدر فهو أجنبي من النعت والمنعوت، ويكثر حذف المنعوت فيقوم النعت مقامه، وربما التزم حيث اشتهرت الصفة لموصوفها كما في قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [سورة القمر: ١٣] أي سفينة ذات ألواح ومسامير، فلا تذكر الموصوف في مثله، وكقوله: ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ [سورة سبأ: ١١] أي: دروعًا سابغات.

وها هنا نكتة بلاغية، وهي الاقتصار في العبارة على موضع العجب كأن الكلام يناديك: انظر أيها الإنسان هداية مولاك، الذي ألهمك هذه الأعمال، حتى استخرجت من الخشب والحديد هذا الشكل، الذي سلكت به البحور كما تسلك في البرور وكيف وصلت إلى إلآنة الحديد، حتى صار كشمع تُصور منه ما شئت، وتعمل منه ما تعمل من الكتان وشبهه ثيابًا سابغة تقيك البأس، فلو قال: سفينة ودروعًا لمضى الذهن وما اعتاد، فلم يتأمل في حسن صنع الله الذي أتقن كل شيء، وفي كل شيء عجب.

ولا يحذف منعوت الجملة إلا إذا كان بعضًا من مجرور بمن أو فى نحو: القوم منهم ظعن ومنهم أقام. أي منهم فريق ظعن، ومنهم فريق أقام. والناس فيهم اجتهد في تحصيل العلم، وفيهم كسل واتبع الهوى. أي: فيهم جمع اجتهد، وجمع كسل.

ويقل حذف النعت نحو: رأيت زيدًا الصالح وعمرًا. ومن العجب اجتماعهما تريد: وعمرًا الفاسق. بدلالة الحال، وأشعار المقال.

التوكيد

لفظ يذكر بعد ذكره أولًا ويسمى: توكيدًا لفظيًا. كقولك: قام قام زيد. في تأكيد المحكوم به زيد، وكقولك: قام زيد زيد. في توكيد المحكوم عليه، وكقولك: قام زيد قام زيد. في توكيد الحكم، وتوكيد الضمائر المنفصلة بإعادة ألفاظها نحو: أنت أنت في قوله:

لم يبقَ عندي ما يباعُ بدرهمٍ   وكفاكَ شاهد منظري عن مخبري
إلا صبابةَ ماء وجهٍ صنتها   من أن تباع وأنت أنتَ المشتري

ونحن نحن الساعون في حاجتك، وإياك إياك قصدت.

والضمائر المتصلة تؤكد بإعادة ألفاظها مع ما اتصلت به نحو: أكرمت أكرمت زيدًا، أو له له توجهت. أو بضمير رفع منفصل نحو: كنت أنت، وكنا نحن، وأنا نحن، وإني أنا، وحيث يؤكد منصوبًا أو مخفوضًا فهو من وضع ضمير مكان ضمير، ولا يؤكد من الحروف إلا أحرف الجواب كقوله:

نعم نعم محضتهم   صِدق الولاء تطولًا
فما رعوا عهدًا   ولا مودَّة ولا ولا

وبقية الحروف تعاد مع ما اتصلت به نحو: لزيد لزيد قصدت. وقوله:

فلا واللهِ لا يلقى لما بي   ولا للما بِهِم أبدًا دواءُ

وقوله:

لا لا أبوحُ بحبِّ بثنةَ إنها   أخذتْ على مواثقًا وعُهودًا

من الشذوذ بمكان.

أو لفظ مخصوص يلاقي لفظًا ذكر أوَّلًا في المعنى. ويسمى: توكيدًا معنويًّا. وألفاظه: النفس والعين، وكلا وكلتا وكل وأجمع وجمعاء وأجمعون وجمع نحو: جاء زيد نفسه، ومررت بعمرو عينيه، وجاء الزيدون أنفسهم، ورأيت العمرين أنفسهم، ومررت بهند عينها، وبالهندات أعينهن، وجاء الزيدان أنفسهما، أو أعينهما بجمع التأكيد وهو الأفصح، ويجوز: الزيدان نفساهما وعيناهما بالتثنية ونفسهما وعينهما بالإفراد، ولابد من اتصال النفس والعين بضمير المؤكد المطابق له تذكيرًا وتأنيثًا وإفرادًا وتثنية وجمعًا كما رأيت، ولك أن تدخل باء على النفس والعين فتقول: جاءني زيد بنفسه. وهذا متاعي بعينه، وتقول: جاء الزيدان كلاهما، والهندان كلتاهما، ورأيت الزيدين كليهما، ومررت بهما كليهما وهكذا.

وتقول: جاء الرجال كلهم وأجمع، والنساء جمعاء وجمع. والأحسن أن تكون بعد كل، ولابد من اتصال كل وكلا وكلتا بالضمير المطابق، ولا تؤكد نكرة إلا إذا كانت محدودة بطرفين فتوكد لإفادة الشمول نحو: انتظرتك يومًا أجمع.

والغرض من التوكيد دفع توهم مخاطبك: أنك سهوت، أو غلطت، أو تجوزت عن شيء بذكر متعلقة إذ يجوز أن تقول: جاءني زيد وكنت تريد أن تقول: جاءني عمرو، فسهوت أو غلطت. وتقول: هذا كتابك لنسخة نقلت منه تجوزًا، ولذلك تقول: هذا كتابك بعينه. وللتوكيد أغراض أخر موضع شرحها علم المعاني كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى.

فاللفظ المؤكد يكون تابعًا لمؤكده في إعرابه رفعًا ونصبًا وجرًّا وجزمًا إن كان مؤكده معربًا، وما سوى النفس والعين لتوكيد الإحاطة والشمول وعموم الحكم، وقد أكدوا بلفظ عامة فقالوا: جاء القوم عامتهم. وأكدوا بجميعًا وطرًّا وقاطبة وكافة منصوبات على الحال.

* * *

عطف البيان

اسم فيه خصوص يذكر بعد اسم يعم معنى الاسم الذي تذكره بيانًا وغيره، فيكون مبينًا لخصوص مرادك من العام؛ فالبيان: إما شخص من أشخاص اشتمل عليها الأول أو جنس من أجناس كذلك، فيكون المعطوف والمعطوف عليه نكرتين نحو: من شجرة زيتونة، وجاءني اليوم إنسان رجل أو إنسان امرأة، ومعرفتين نحو: قدم صديقك خالد. ومن عطف البيان الاسم الواقع بعد اسم الإشارة المبين جنس المشار إليه، حيث يكون اشتباه كما إذا كان بين يديك كتاب وقلم فتقول: خذ هذا الكتاب أو خذ هذا القلم. ومنه الأسماء والألقاب الواقعة بعد الكني نحو: أبو حفص عمر، وأبو يزيد معاوية، وأبو الحسن علي، فلولا ما تذكر من البيان لم يعرف مرادك لعموم الاسم الأول وشموله للبيان وغيره.

وكل موصوف قدمت عليه صفته صار عطف بيان، فلو قلت: رأيت زيدًا التاجر. كان لفظ التاجر صفة فإذا قلت: رأيت التاجر زيدًا. كان عطف بيان، ويستعمل عطف البيان بكلمة أي التفسيرية فاصلة بينه وبين المعطوف عليه وبدونها تقول: عند زيد عسجد، أي ذهب. وهذا هو الغضنفر، أي الأسد أو عسجد ذهب والغضنفر الأسد، وتسمى أي حرف

عطف بياني، فعطف البيان تابع للمعطوف عليه، مبينه في إعرابه وتعريفه وتنكيره، وهنالك للتفسير والبيان حرف آخر بمنزلة أي غير أنه في موضعه لازم لا يسوغ حذفه وهو أن التفسيرية، ولا تقع إلا بين جملة مفسرة ومفرد مفسر يذكر ويحذف كقوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ ﴾ [سورة طه: ٣٨، ٣٩] وقوله: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٢٧] فللتفسير حرفان.

(عطف النسق): هو تابع بواسطة حرف يجعل الكلمتين شبه خرزتين متنسقتين أي منتظتين، وأحرفه المتفق عليها تسعة وهي: الفاء وثم والواو وحتى وأو وأم ولكن ولا وبل.

وهذه الأحرف وإن سبق القول فيها لا بأس بالتكلم عليها في هذا الموضع؛ لتكون على ثقة من كيفية استعمالها وحفظ أحكامها فتقول:

(الكلام على الفاء) الفاء إن عطفت ماله إعراب على ماله إعراب بأن عطفت مفردًا على مفرد، أو عطفت جملة واقعة موقع مفرد على جملة مثلها شركت بينهما في الحكم والإعراب، مع إفادة الاتصال الزماني وترتيب اللاحق مع السابق.

فإذا قلت: جاء زيد فعمرو. فمعناه أن زيدًا وعمرًا اشتركا في المجيء، ومجيء عمرو واقع بعد مجيء زيد على الفور، ولذلك يقال الفاء للترتيب والتعقيب.

وإذا قلت: زيد يحضر أبوه فيسافر أخوه. فجملة: يسافر أخوه، وجملة: يحضر أبوه واقعتان موقع مفردين؛ لكونهما خبر المبتدأ، فالمعنى زيد

حاضر أبوه فمسافر أخوه، فأفادت الفاء الاشتراك والتعقيب والترتيب، وإذا عطفت ما لا إعراب له على مثله، بأن عطفت جملة ليست واقعة موقع مفرد على مثلها، أفادت اشتراكهما في الحصول والترتيب والتعقيب، وفي عطف الجمل ربما أفيد بها سببية السابق للاحق تقول: جاء زيد فذهب عمرو.

(الكلام على ثم) ثم كالفاء في التشريك والترتيب، وعطف المفردات والجمل إلا أنها تفيد المهلة والتراخي وتلحقها التاء فيقال: ثمت. وإذن تختص بعطف الجمل فإذا قلت: جاء زيد ثم عمرو. فمعناه أن زيدًا وعمرًا اشتركا في المجيء، وأن مجيء عمرو بعد مجيء زيد، ولكن بين المجيئين مدة طالت أو قصرت بحيث لا يحكم العرف معها باتصالهما.

(الكلام على الواو) الواو لإفادة الاشتراك مطلقًا عن التقييد بترتيب واتصال أو تراخ، فأي واحد حصل ولم يكن الغرض إفادته بخصوصه تستعمل فيه الواو، فإذا قلت: جاء زيد وعمرو. فمعناه أنهما اشتركا في المجيء فقط، ثم تارة يكونان جاءا معًا أو مرتبًا باتصال وبدونه، فالعاطف بالواو غير متعرض لشيء من ذلك.

وتعطف الواو والمفردات والجمل على ما سبق في الفاء، ولكون هذه الأحرف الثلاثة مشركة جامعة بين الشيئين إذا وقعت بين جملتين جعلتهما جملة واحدة، بحيث متى وقعتا في المواضع المحتاجة للربط كفى وجود الرابط في المعطوفة كما إذا وقعتا صلة أو صفة أو حالًا أو خبرًا كقولك: الذي أفرح فيفرح زيد. فجملة أفرح ليس فيها ضمير يعود على الذي ولا محذور في ذلك؛ لأنها ليست صلة مستقلة بل جزء صلة؛ لأن الفاء جعلتها وجملة يفرح المشتملة على ضمير الموصول العائد الذي لابد منه

ـ لربط الصلة بالموصول جملة واحدة، فيكون المعنى: الذي يعقب فرحه فرحي ويتسبب عنه زيد، فأنت ترى بتبيين المعنى أن الجملتين صارتا جملة واحدة، وكذا البيان في نحو قولك: رأيت رجلًا يفرح زيد فيغضب، وقولك: رأيت زيدًا يغضب عمرو فيفرح وقولك: زيد يشتد الحرب فيزداد إقدامًا، وكقولك: زيد يقعد عمرو ثم يقعد وقولك: زيد يجيء عمرو ويذهب والبيان البيان، ولكون الواو لا تفيد تعقيبًا ولا ترتيبًا، فتستعمل في اشتراك المعية والمصاحبة اختصت بالعطف مع الأفعال، التي لا تحصل إلا من متعدد نحو: اصطف زيد وعمرو، واختصم بكر وخالد، وتشاجر هذا وذاك.

ومن ثم اختصت بالوقوع بعد بين نحو: اجلس بين زيد وعمرو.

(الكلام على حتى) حتى كالواو في إفادة اشتراك الشيئين، لكن لا تعطف إلا اسمًا ظاهرًا يكون بعضًا من المعطوف عليه أو بمنزلة بعضه، ولابد أن يكون بين أبعاض المعطوف عليه ترتب عقلي في الوجود أو الشرف والخسة؛ ليكون المعطوف بحتى غاية للمعطوف عليه كقولك: سرت الليلة حتى آخرها. فالليلة ذات أجزاء ترتبت عقلًا في الوجود والآخر بعضها وغايتها، فمعناه سرت الليلة وآخرها أيضًا. وكقولك: مات الناس حتى الأنبياء. فالناس أشخاص مرتبة في الشرف والأنبياء غايتهم فيه، وكقولك: قدم الحجاج حتى المشاة، وأعجبتني الجارية حتى حديثها؛ فالحديث ليس بعض الجارية لكنه بمنزلته لشدة الاتصال، وما بعد حتى مشارك ما قبلها في الحكم كما رأيت.

(الكلام على أو) أو لإفادة أحد الأمرين، فإذا قلت: جاء زيد أو عمرو. فمعناه: أن أحد الشخصين ثبت له المجيء ولم يجتمعا فيه، فإذا وقعت

بين أمرين لا يجتمعان عقلًا أو شرعًا سميت أو التخييرية؛ لكونها للتخيير بين الشيئين كقولك: اجعل هذا الثوب أسود أو أحمر. وتزوج هندًا أو أختها: فالسواد والحمرة لا يجتمعان عقلًا، وهند وأختها لا يجتمعان شرعًا؛ وإذا وقعت بين أمرين يجتمعان سميت: أو الإباحية نحو: جالس العلماء أو الحكماء ولا تجالس الجهال. فمعناه: حظر مجالسة الجهال، وإباحة مجالسة العلماء والحكماء، وإذا وقعت بين أقسام شيء سميت التقسيمية.

وتصلح مكانها الواو نحو: الكلمة اسم أو فعل أو حرف يصح اسم وفعل ويستعملها الشاك والمشكك، وتكون أو للإضراب والإعراض نحو: صلتك أقاربك حسنة أو واجبة، أعرضت عن إثبات الحسن إلى إثبات الوجوب وهو معنى بل الآتي بيانها.

وقد سلف لك أنها تكون قائمة مقام «إلى أن» أو «إلا أن».

(الكلام على أم) أم حرف يستعمله المسوي بين أمرين بكلمة سواء، ويقع بين جملتين لفظًا مفردين لحظًا ويأتي في صدر جملتها همزة تسمى: همزة التسوية، وتحذف تارة نحو: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ﴾ [البقرة: ٦]. تقديره: إنذارك وعدم إنذارك سواء. أي: متساويان.

فالجملتان اللتان تكتنفان أم هذه، منسبكتان في الملاحظة بمصدرين مبتدأ ومعطوف عليه مخبر عنهما بسواء، فأم في هذا الاستعمال بمعنى الواو. وقد ورد التركيب مصرحا فيه بالمسوى بينهما مفردين والعطف بالواو. قالت بثينة العذرية:

سـواءٌ علينـا يـا جميـلُ ابـنُ معمـر إذا مـتّ بأسـاء الحيـاةِ ولينُهـا

وتقول: سواء كان لي زيد أم كان على. فلا تذكر الهمزة وتقديره: كونُ زيد لي وكونه على سواء. أي لا ينفع ولا يضر، ويستعملها طالب التصور بهمزة الاستفهام على ما سلف بيانه. ولـذلك تـسمى أم فـي هـذين الاستعمالين: أم المتصلة وأم المعادلة؛ لأنها كما رأيت لا تقع إلا بين شيئين لابد منهما فشيئآها بمنزلة العدلين. أي: شقي الحمل.

وهي في الاستعمال الثاني كـ«أو» فى كونها لأحد الشيئين إلا أن أو لا تصح في موضعها لأنك إذا قلت: أزيد قائم أو عمرو. فمعناه: هل أحد الشخصين قائم، فتكون لـم تعلـم حصول أمر وجهلت تعينه، فهو طلب لأصل النسبة فجوابه: نعم أو لا. فإذا أجبت بنعم كان المعنى: قام أحد الشخصين، وإذا أجبت بلا كان معناه: لم يقم أحد الشخصين. ومتى أجبت بنعم علمت بوقوع النسبة من أحد الشخصين، وحينئذ فلك أن تطلب تعيينه فتسأل بالهمزة وأم المتصلة فتقول: أزيد قام أم عمرو. أو من القائم منهما. والمعنى المعني فيقال بتعيين أحد الشخصين فتقول: زيد إن كان الفاعل، وتقول عمرو إن كان إياه. فالسؤال بالهمزة وأم لا يكون إلا من عالم بأمرٍ وجاهل بآخر والسؤال بالهمزة و« أو» لا يكون إلا من جاهل محض.

فمرتبة السؤال بالهمزة و« أم » بعد مرتبة السؤال بالهمزة و« أو » وربما يظن ظان أن أحد الأمرين واقع اعتمادًا على إمارة، ويكون الواقع خلاف ما ظن فيسأل بالهمزة و«أم» فيجاب بلا، كما في حكاية غيلان ذي الرمة والعجوز التي ساقها في قوله:

تقـول عجـوز مـدرجي متروحًـا على بابها من عند أهلي وغاديًا

أذو زوجة بالمصرِ أم ذوُ خُصومةٍ أراك لها بالبصرة العام ثاويًا
فقلت لها لا إنّ أهلي جيرةٌ بمنزلةِ الدهنا جميعًا وماليا
وما أنا مذ أبصرتني في خصومة أراجع فيها يا ابنة العم قاضيا

(الكلام على لكن) لكن حرف يستعمله المستدرك على كلام سبق منه؛ ليرفع وهما غير صحيح ينشأ من كلامه السابق، ولا تستعمل إلا بعد نفي أو نهي ولا تكون عاطفة إلا إذا تجردت من واو تسبقها؛ فإذا لم يسبقها نفي ولا نهي كانت لمجرد الاستدراك وسميت: حرف ابتداء ولم تكن عاطفة، وكذلك إذا سبقت بواو فتكون الواو للعطف وهي لمحض الاستدراك؛ فالعاطفة كقولك: ما جاء زيد لكن أخوه، ولا تضرب زيدًا، لكن أخاه.

(بيان معنى الاستدراك) فيه أنك لما قلت: ما جاء زيد ومن العادة أنه إذا لم يجيء أحد الأخوين لم يجيء الآخر فيتوهم السامع عدم مجيء الآخر بمقتضى العادة، فيستدرك المتكلم ويرفع هذا الوهم ويقول: لكن أخوه. وضابطها أنك تنفي أحد أمرين متلازمين في العادة فينصرف ذهن المخاطب إلى أن النفي تعلق بالمتلازمين والواقع خلافه، فيستدرك وترفع الوهم. والابتدائية كقولك: جاء زيد لكن عمرو لم يجيء. وإذا قلت: ما جاء زيد ولكن عمرو، فالعاطف الواو فكأنك قلت: وعمرو جاء أقحمت كلمة لكن لمكان الاستدراك.

(الكلام على لا) لا حرف لنفي حكم ما قبله عما بعده، ولا يقع إلا بعد أمر أو نداء أو خبر مثبت نحو: أكرم زيدًا لا عمرًا ونحو: يا زيد لا عمرو، ونحو: جاء زيد لا عمرو.

(الكلام على بل) بل إذا وقعت بعد نفي أو نهي كانت لتقريره وإعطاء ما بعدها خلافه، فإذا قلت: ما جاء زيد بل عمرو. فمعناه أن انتفاء المجيء عن زيد متقرر، لكن المجيء ثابت لعمرو، وكذلك إذا قلت: لا تهن زيدًا بل عمرًا، وإذا وقعت بعد أمر أو إثبات كانت للإعراض عن السابق، وتنقل حكمه للاحق ويسمى: إضرابًا إبطاليًا وما قبله يسمى: إضرابًا انتقاليًا نحو: أضرب زيدًا بل عمرًا. فمعناه: غلطت في الأمر بضرب زيد ومطلوبي ضرب عمرو، ونحو: جاء زيد بل عمرو. معناه أيضًا: إظهار الغلط والتدارك بالصواب وإذا جاء بعد بل جملة لم تكن عاطفة، وسميتك حرف ابتداء كلكن إذ ما بعدهما يكون كلامًا مبتدأ، وتستعمل أو وأم هذا الاستعمال كما سلف، فتسمى أم: أم المنقطعة وتفسر بلفظة بل فقط إن كان بعدها هل نحو: هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور. فمعناه: بل هل تستوي. وهو انتقال من ضرب مثل إلى ضرب مثل آخر، وتفسر ببل والهمزة إن لم تكن بعدها هل وكان المعنى على الاستفهام نحو: أم كنتم شهداء إذ حضر. فمعناه: بل أكنتم شهداء. وربما استعملت بل في التدرج في النفي أو الإثبات أو الأمر، ويسمى: الترقي فتقول: ما جاء زيد بل عمرو تعني أنه انتفى مجيء زيد بل انتفى مجيء عمرو، حيث يكون انتفاء مجيء عمرو أبعد من انتفاء مجيء زيد وتنبه على ذلك كما تقول: ما حضر زيد بل عمرو الذي يحضر كل مأدبة، وإن لم يدع إليها وتقول: جاء الوزير بل السلطان، وتقول: أهن زيدًا بل أباه. والأحسن في هذا توسيط الواو بين بل ومدخولها فتقول: جاء الوزير بل والسلطان؛ لذلك الغرض. وأما المختلف في أنه حرف عطف أولًا، فهي كلمة إما التفصيلية التي تقع مقابلة لإما مثلها نحو: المنطلق إما زيد وإما عمرو، فقيل: إما الثانية حرف عطف. والصحيح أن إما وأختها حرفا

تفصيل يفيدان ما تفيده أو. وإن كان بينهما وبينها فرق دقيق وذلك أن أو للتردد في المحمول وهما للتفصيل والسياق مختلف، والعطف مع إما على الصحيح للواو المصاحبة لها، وأثبت بعضهم أن كلمة ليس تكون عاطفة، فتقول: جاء زيد ليس عمرون كما تقول: لا عمر. ويعطف اسم ظاهر على اسم ظاهر نحو: زيد وعمرو. وضمير منفصل على ضمير منفصل نحو: أنا وأنت وإياي وإياك قصد عمرو. ويعطف ظاهر على ضمير وبالعكس نحو: أنا وزيد ذاهبان، وزيد وأنا مقيمان، إلا أنه لا يعطف على ضمير مرفوع متصل، إلا بعد أن تفصل بينه وبين العاطف بضمير منفصل يؤتى به للتوكيد أو بفاصل آخر نحو: سرت أنا وزيد، وسلكت الطريق وعمرو فنحو: سرت وزيد نادر. لا يستعمل فينصب ما بعد الواو مفعولًا معه.

وإذا عطفت على ضمير مخفوض؛ فإن كان المعطوف ضميرًا وجب إعادة الخافض نحو: بي وبك وغلامي وغلامك، وإلا كانت الأفصح.

وكما يعطف الفعل على الفعل في نحو قولك: لم يطع ويستقم زيد. يجوزز أن يعطف الفعل على وصف بمعناه نحو: إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله. فهو على معنى: إن الذين تصدقوا واللواتي تصدقن وأقرضوا. وضمير جماعة الذكور فيه عائد على الذكور والإناث بتغليب الأشرف ونحو: زيد راكب فرسه غدًا ويسابق الفرسان. فهو في معنى زيد يركب ويسابق، ويجوز عكسه نحو: زيد يركب فرسه غدًا فمسابق، فلك في مثل هذا التركيب أربعة أوجه: راكب فمسابق، يركب فيسابق، راكب فيسابق، يركب فمسابق.

وقد يحذف من الكلام اعتمادًا على القرينة الفاء ومعطوفها، والواو ومعطوفها نحو: اضرب بعصاك الحجر فانفجرت. أي فضربه فانفجرت، ونحو: راكب الناقة طليحان. أي: راكب الناقة والناقة.

وقد يحذف عامل معطوف بالواو، وتبقى الواو ومعمول المحذوف نحو: تبوءوا الدار والإيمان. أي: وألفوا الإيمان؛ لأن الدار تسكن والإيمان لا يسكن، ويظهر أن لا تقدير ولا حذف في الآية، ويكون التبوؤ متعلقًا بالدار والإيمان، فإن لفظ الإيمان في لسان الشرع لا يقتصر فيه على ملاحظة معنى التصديق، بل يلحظ هو والآثار المترتبة عليه من وقوع الأمن بين الناس وارتفاع المخافات التي كانت لا تبرح قائمة إذ ذاك.

ومن الاشتراك في المنافع والمحافظة على الحقوق وعموم ارتفاق البعض بالبعض، حتى تكون الأمة في حالة جامعة فهي بمنزلة الأهل بين آباء وأبناء؛ فتلك الحالة تعتبر اعتبار الظروف، فكأنه قيل: جمعتهم، وأحاطت بهم، واشتملت عليهم الدار، وتلك الأحوال؛ فهو من عموم المجاز، ولا يتقدم المعطوف على المعطوف عليه.

* * *

البدل

أربعة أقسام: قسم يسمى: بدل الكل من الكل، وتأدب المتأخرون حيث لاحظوا وقوعه في أسماء الله تعالى، وتقدس عن كل وبعض فسموه: البدل المطابق.

وقسم يسمى: بدل البعض من الكل. وقسم يسمى: بدل الاشتمال. وقسم يسمى: بدل الغلط.

البدل المطابق: لفظ يراد به معنى أريد بلفظ سابق نحو: رأيت صديقك خالدًا، وأرحم أخاك زيدًا، وسمي: بدل الكل من الكل؛ لأنه أريد بلفظ البدل كل ما أريد بلفظ المبدل منه.

وأمثلة هذا القسم من البدل تشتبه بأمثلة عطف البيان، فربما تخيل متخيل أن أحدهما يغني عن الآخر، فلا حاجة إلى إثبات تابعين يخص كل منهما باسم، وهو تخيل غير صحيح؛ لأن بين عطف البيان وبين هذا القسم من البدل فرقين: فرقًا معنويًا، وفرقًا صناعيًا.

أما الفرق المعنوي: فهو أن عطف البيان إنما يذكر لبيان المراد من المعطوف عليه فحسب.

وأما البدل: فإنه يذكر لبيان خصوصية بمعناه اقتضت الحكم السابق المربوط بالمبدل منه ربطًا غير قارٍ، بل الغرض منه السلوك به إلى المراد بالبدل ملحوظًا فيه خصوصية. ومن هنا يقول النحوي: أن البدل تابع هو المقصود بالحكم، فلا يكون المبدل منه مقصودًا به بل يقول في نية

الطرح. ويقول أيضًا أنه على نية تكرار العامل، فمن ينطق بالبدل مع المبدل منه، نطق بجملتين، غاية الأمر أنه حذف من الجملة الثانية بعضها اعتمادًا على ذكر مثله في الجملة السابقة.

وبيان ذلك أنك إذا قلت: توسل إلى زيد بحبيبه خالد. فإن كنت لاحظت أن التوسل إلى زيد وإفادته ما ترجوه منه، يحصل بتوسط الحبيب من جهة كونه حبيبًا لا من جهة خصوصية في شخص خالد، حتى لو كان حبيبه غير خالد كنت آمرًا بالتوسل به وكان مفيدًا، كان لفظ خالد عطف بيان تعلم به مخاطبك الشخص الذي أردته بلفظ الحبيب الذي هو المعطوف عليه، فإذا كان التوسط لخصوصية في خالد بأن يكون أعز الأحبة، فلا يفيد التوسل إلا به، إذ ليس مجرد المحبة كافيًا في ذلك، كان لفظ خالد بدلًا كأنك قلت: توسل إليه بخصوص خالدًا الذي لا يفيد التوسل إلا به، فكان لفظ الحبيب كأنه لم يذكر.

وربما أفاد البدل كشفًا وبيانًا لكنه غير مقصود به. وكذلك تقول: ارحم أخاك زيدًا المسكين الضعيف العاجز: تجعل علة طلب رحمته كونه خصوص زيد بمسكنته وضعفه وعجزه كأنك تقول: لو لم يكن زيد أخاك لكان ينبغي أن يرحم.

وبتأمل هذا يعرف أن البدل هو المقصود بالحكم، وأنه على نية تكرار العامل، وأنه لا يغني عنه عطف البيان.

وأما الفرق الصناعي: فهو أنك تضيف لفظًا مصدرًا بأل إلى لفظ كذلك فتجوز الإضافة كقولك: رأيت الحسن الوجه. فإذا اتبعت المضاف إليه بلفظ خال من أل كقوله:

أنـا ابـنُ التـاركِ البكـري بـشرٍ … عليـه الطيـرُ ترقبـهُ وُقُوعًـا

تعين في ذلك التابع الخالي من أل كونه عطف بيان، ولا يجوز أن يكون بدلًا؛ لأنه يلزم حينئذ إضافة ما فيه أل، إلى خال منها إذ هو على نية تكرار العامل كما عرفت وهو غير جائز، فلفظ بشرٍ عطف بيان للمراد بلفظ البكري.

وتقول: يا رجلُ. نداء لمقصود العين موجهًا إليه الكلام، والمنادى الذي هذا شأنه وليس مضافًا ولا شبيهًا به يبنى على الضم كما سبق. وهو في محل نصب، فإذا عطفت عليه بيانًا جاز لك نصبه رعاية للمحل، وجاز لك رفعه رعاية للفظ كما ستعرفه في تفصيل تابع المنادى، فإذا جعلته بدلًا وجب ضمه بناء لكونه منادى مستقلًا فتقول على العطف: يا رجلُ خالدًا بالرفع وخالدًا بالنصب على الرعايتين، وعلى البدل: يا رجل خالد بالضم بلا تنوين كأنك قلت: يا رجل يا خالد. وسيأتي لهذا مزيد بيان. ومن هذا القسم من البدل بدل التفصيل كقولك: جاء الرجال زيد وعمرو وبكر.

بدل البعض من الكل: لفظ يكون المراد به بعض المراد بلفظ المبدل منه نحو: قرأ زيد الكتاب أكثره، وسرينا الليل معظمه، ولم يفهم زيد العلم شيئًا منه. وهذا البدل يجب أن يصحبه ضمير المبدل منه كما رأيت ونحو: رأيت الرجلين أكبرهما.

ولا يستعمل هذا البدل بلاغة إلا حيث يكون البعض هو المعتبر حتى كأنه الكل، وتقريبه أن إنسانًا يقول لصاحبه: فلان شرب الماء. فيقول له

صاحبه: أشربه كله؟ فيقول: أكثره. فلما كان المشروب أكثر الماء ساغ للمخبر أن يقول: شرب فلان الماء كأن الباقي عدم بعد الذاهب.

بدلا الاشتمال: لفظ يكون المراد منه شيئًا له تعلق وارتباط بالمراد من لفظ المبدل منه: كأوصافه، ومملوكاته، وأهله، ومظروفاته. نحو: أعجبني زيد كلامه، ونفعني بكر علمهُ، وطاب خالد أبوه ونحو: لا يجوز يوم العيد صيام فيه. وهذا البدل أيضًا يجب أن يصحبه ضمير المبدل منه، ولا يستعمل بلاغة إلا حيث يكون معنى البدل كان المبدل منه ليس شيئًا وراءه فمن يقول: أعجبني زيد كمه كأنه يقول: ليس زيد شيئًا وراء كلامه.

بدل الغلط: لفظ يذكره لإفادة أن ذكر المبدل منه كان غلطًا أو سهوًا نحو: جاء زيد خالد، وخذ الكتاب الفرس. واستعماله ببل أحسن.

ويستعمل هذا النوع من البدل عند تغير النية، ويسمى: بدل البداء، مثلًا إذا أمرت خادمك بإحضار الحمار، ثم تغيرت نيتك إلى الفرس فقلت: أحضر الحمار الفرس. فهو بدل البداء أي الظهور؛ لأنه ظهر لك ما لم يكن ظاهرًا، ولا يبدل اسم ظاهر من ضمير متكلم، ولا من ضمير مخاطب إلا حيث ينبه به على الإحاطة والشمول كقولك: يا بني عذرة إن العشق فيكم أولكم وآخركم، وإننا كبارنا وصغارنا راغبون إلى الله.

ويبدل الاسم الظاهر من ضمير الغائب بدل كل، ومنه ومن غيره بدل بعض واشتمال وغلط نحو: انتفعت به زيد، وأعجبتني كلامك.

وإذا أردت أن تبدل من اسم شرط أو اسم استفهام، وجب أن تذكر مع البدل من اسم الشرط كلمة أن، ومع البدل من اسم الاستفهام همزته، تقول: من عندك أزيد أم عمرو، وما تريد أذهابًا أم بقاء، ومن ذا تطلب

أزيدًا أم عمرًا أو أزيد أم عمرو وهكذا. ومن يأتك إن زيد وإن عمرو فأكرمه، وما تفعل إن خيرًا وإن شرًا تجز به. ويبدل الفعل من الفعل نحو: أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين، ونحو: نعبد الله نصلي ونصوم ونرجو ثوابه ونخاف عقابه.

فهذه التوابع يكون إعرابها إعراب متبوعاتها، والعامل في متبوعاتها هو العامل فيها إلا البدل، لكن لكل من تابعي المنادى واسم لا التبرئة تفصيل؛ لأن فيهما نوع مخالفة، فلابد من إيراده، فنقول:

تابع المنادى إن كان بدلًا أو معطوفًا عطف نسق لم يصدر بأل كان كمنادى مستقل لكون البدل على نية تكرار العامل، ولنيابة العاطف عن حرف النداء فيبنى على ما يرفع به إن كان مقصود العين غير مضاف ولا شبيه به، وينصب إن كان أحدهما سواء كان المنادى متبوعه مبنيًا أو منصوبًا، نحو: يا غلامُ بشرُ، ويا أبا عبد الله بشرُ ويا زيدُ وعمرُو، ويا أبا الفضل وعمرُو.

وإن كان التابع غير بدل وغير معطوف كذلك، فإن كان نعت أي أو اسم إشارة كان مبنيًا على ما يرفع به نحو: يا أيها الرجل، ويا أيتها المرأة، ويا أيها الرجلان، ويا أيها المؤمنون، ويا هذا الإنسان، وياتان المرأتان، ويا هؤلاء الفاضلون.

فإن لم يكن نعتًا لأي ولا اسم إشارة، فإن كان متبوعه منصوبًا كان منصوبًا، وإن كان متبوعه مبنيًا، فإن كان مضافًا وجب نصبه إلا إذا كان المضاف نعتًا مصدرًا بأل، فإنه يجوز رفعه رعاية للفظ ونصبه رعاية للمحل.

كما أن بقية التوابع إذا لم تضف كذلك في جواز الوجهين نحو: يا زيد حسن الوجه، نعتًا. ويا زيد نفسك، توكيدًا. ويا زيد أبا عمرو، عطف بيان. ويا زيدُ الحسنُ الوجه بالرفع، أو الحسن الوجه بالنصب نعتًا مصدرًا بأل، ويا تميم أجمعون أو أجمعين توكيدًا، أو يا غلام بشرٌ أو بشرًا. عطف بيان، ويا زيدُ والظريفُ الطباع أو والظريف الطباع معطوفًا عطف نسق مصدرا بأل.

(تابع اسم لا)

إذا أتبعت المبني بمتصل به نعتًا أو تأكيدًا أو بيانًا، جاز لك فتح التابع بناء لتركيبه مع متبوعه ونصبه رعاية لمحل متبوعه ورفعه رعاية لما كان له حيث كان مبتدأ كما ورد في اللغة. وإذا أتبعته بها منفصلة أو بمعطوف عطف نسق لم تكرر معه لا جاز النصب والرفع دون الفتح لامتناع التركيب إذن؛ فإن كررت لا مع المعطوف نسقًا جازت فيه الأوجه الثلاثة، وذلك حيث يكون التابع مفردًا وإلا فهو كالمنفصل، وتابع المعرب له حكم سائر التوابع والبدل جملة مستقلة.

هذا: ومن التراكيب تركيب ترجم النحويون لبيان أحكامه بالتنازع في العمل هذا موضع بيانه؛ لأنه يتعلق بما سلف من الأبواب، فاعلم أنه متى كان تركيب فالبتة يكون مشتملًا على عامل ومعمول وعمل ومقتض لذلك العمل، وبعضهم قسم النحو أربعة أقسام لذلك، ونعم ما صنع.

فالعمل هو ما نسميه إعرابًا ومقتضيه طالب التميز من الفاعلية والمفعولية وغيرهما.

والمعمول هو المعرب والعامل هو ما تنسب إليه إيجاد العمل وأحداثه فهو عندهم بمنزلة العلة الفاعلية، ومن المعقول أنه لا يمكن تأثير مؤثرين في أثر واحد؛ فمن ثم إذا وجد عاملان بعدهما معمول وجب أن تعطيه لأحدهما وتقدر للآخر، وهذا هو صورة التركيب المذكور. حاصله: أن تذكر عاملين من الأفعال وشبهها فقط، وتعقبهما بمعمول من المرفوعات أو المنصوبات أو المخفوضات فيكون المعمول لأحدهما، والثاني أولى به عند البصرية لاتصاله به، والأول عند الكوفية لسبق طلبه.

وعلى ملاحظة ما أروي من أن الصيد لمن قنصه لا لمن أثاره، فالرأي مع البصرية. فإن كان المعمول فضلة فإن أعملت الثاني أضمرت للأول ضميرًا مطابقًا للمعمول المذكور وحذفته وجوبًا، وإن أعملت الأول أضمرت في الثاني وذكرته وجوبًا نحو: أكرمت وحبوتُ زيدًا. التقدير: أكرمته فحذف الضمير على إعمال الثاني، وتقول: أكرمت وحبوته زيدًا. ذاكرًا اللضمير على إعمال الأول، وتقول: مررت وطفت بزيد. أي: مررت به، ومررت وطفت به بزيد، وخرج زيد وسافر يوم الجمعة. أي: خرج فيهن وخرج وسافر فيه يوم الجمعة. وعلى هذا القياس وجاءنا دراممًا يخالف ذلك قال: إذا كنت ترضيه ويرضيك صاحب جهازًا فكن في الغيب أحفظ للود فذكر ما الحكم وجوب حذفه. وقال آخر في صفة سيف.

بعكاظٍ يُعشى الناظرين إذا هُم لمحُوا شُعاعَه

أي لمحوه فحذف ما الحكم وجوب ذكره ومتى كان المعمول عمدة بأن كان فاعلًا أو كان مبتدأ أو خبرًا بحسب الأصل بأن كان العوامل من

النواسخ وجب الإضمار للمهمل ووجب ذكر الضمير مطلقًا مستترًا في مواضع الاستتار، وبارزًا في مواضع البروز.

تقول: أصبح زيد وأمساه قارئًا، وأصبحه زيد وأمسى قارئًا، وظننيه زيد وظننته أخًا، وظنني زيد وظننته إياه أخًا.

وعلى هذا القياس وفصل الضمائر ووصلها على ما سلفغ لك شرحه.

ومتى لم يطابق المفسر مفسره امتنع الإضمار ووجب الإظهار، وفي هذا التركيب يعود ضمير على متأخر لفظًا ورتبة، وهو أحد مواضع ستة يعود فيها الضمير على المتأخر لفظًا ورتبة، ويقال: إن مرجع الضمير تقدم حكمًا، فأقسام تقدم المرجع ثلاثة: تقدم لفظي، وتقدم رتبي، وتقدم حكمي.

بقية المواضع المذكورة هي: تركيب نعم وبئس، وتركيب ربه فتى، وتركيب مررتُ به زيد، وتركيب ضمير الشأن، وتركيب نحو قولك * هي النفس ما حملتها تتحمل، وقولك: هي العرب تقول ما شاءت.

على أن كلمتي: النفس، والعرب. خبران.

القسم الرابع في الجملة الشرطية

الجملة الشرطية: هي المصدرة بأداة شرط حرف أو اسم ضمن معناه، وقد سلفت. والغرض هنا بيان مفاد الجملة الشرطية، وما يعمل من الأدوات، وما لا يعمل إلى غير ذلك من الأحكام المتعلقة بها فنقول: أما مفاد الجملة الشرطية فهو ارتباط وقوع النسبة التي تضمنها جملة الجزاء بوقوع النسبة، التي تضمنها جملة الشرط على وجه توقفه عليه توقف المسبب على السبب أو المشروط على الشرط.

فوقوع نسبة جملة الشرط سبب أو شرط لوقوع نسبة الجزاء.

فالنسبة التي يتعلق بها الحكم في الجملة الشرطية مستقرها بين جملتي الشرط والجزاء. وهما طرفاها فهما بمنزلة المحمول، والموضوع في الجملة الخبرية فلا حكم فيهما إلا أنه إذا كان الجواب طلبًا، فإنه يكون موضع الحكم، والشرط قيد لمسنده.

وهذا هو المذهب الأخير الذي انحط عليه رأي المحققين بعد اختلاف أطيلت فيه الاعتراضات والأجوبة، فكان بعض العلماء المتقدمين على أن الحكم في الجزاء والشرط قيد لمسنده.

وبعض المتوسطين كالشريف الجرجاني وشيعته، على أن الحكم بين الشرط والجزاء مطلقًا.

وأما العامل من أدوات الشرط فهي حرفان: إن، وإذ ما. وعشرة أسماء: من. وما. وأي. ومهما. ومتى. وأيان. وأين. وحيثما. وأنى.

وكيفما، فكيفما منها منصوبة على الحالية أبدًا، وأسماء الأمكنة والأزمنة منها منصوبة على الظرفية، وغيرها معربة حسب الاقتضاء وناصب المنصوب منها هو فعل الشرط كما يظهر لك بحل التركيب لإبانة صريح المعنى مثلًا إذا قلتَ: كيفما يصل الإمام يصل المأموم. فحله لذلك إن يصل الإمام مسرعًا يصل المأموم مسرعًا ومبطئًا إن مبطئًا ومتوسطًا إن متوسطًا.

وإذا قلت: أين تجلس أجلس. فحله إن تجلس داخل المسجد أجلس داخله، وخارجه إن خارجه. وإن قلت: ما تصنع أصنع. فحله إن تصنع معروفًا أصنعه ومنكرًا إن منكرًا، وغير الحال والظروف كما يكون منصوبًا مثل ما رأيت يكون مرفوعًا مخفوضًا نحو: من تزره أزره، وحله كل شخص إن تزره أزره مبتدأ، والجملة الشرطية خبر ونحو: غلام أيهم تكرمه أكرمه، وحله غلام كل شخص إن تكرمه أكرم. ونحو: بمن تثق أثق، وحله إن تثق بزيد أثق به وبعمرو إن بعمرو. وهكذا من أعمل الفكر ينل ما يطلبه.

هذا وأما الشرط والجزاء فتارة يكونان مضارعين، وتارة ماضيين، وتارة يكون الشرط ماضيًا والجزاء مضارعًا، وتارة يكون الشرط مضارعًا والجزاء ماضيًا وهو قليل، وتارة يكون الجزاء جملة. والأول هو الأصل لموافقته مقتضى تعليق ما ليس حاصلًا على مثله وظرف الحصولين المستقبل. ولذلك يكون الماضي الواقع شرطًا هو ماض في اللفظ فقط أوقع موقع المضارع لغرض يبين في علم المعاني.

الأمثلة: إن تعودوا نعد. إن عدتم عدنا، ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ [الشورى: ٢٠] وقال عليه الصلاة والسلام: «من يقم ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له» وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «إن أبا بكر رجلٌ أسيف متى يقم مقامك رق».

وقال العربي:

من يكدني بسيءٍ كنتُ منهُ كالشَّجَا بين حلقهِ والوريدِ

وآخر:

إن تَصرِمُونا وصلناكم وإن تصلوا ملأتمُوا أنفس الأعداء إرهَابا

وآخر:

إن يسمعوا سُبَّةً طاروا بها فرحًا مِنّي وما علموا من صالحٍ دَفَنُوا

وآخر:

إن يعلموا الخير أخفوه وإن سمعوا شرا أذاعُوا وإن لم يسمعُوا كذَبُوا

وحكم الشرط والجزاء الجزم لفظًا أو محلًا، ولا إعراب للماضي كما عرفت في غير هذا الموضع. لكن إذا كان الشرط ماضيًا جاز رفع الجزاء المضارع.

قال زهير يمدح هرم بن سنان:

وإن أتاهُ خليلٌ يوم مسغبةٍ يقولُ لا غائبٌ ما لي ولا حرِمُ

وإذا كانت جملة الجزاء: جملة اسمية، أو طلبية، أو مصدرية بفعل جامد، أو بقد ولو مقدرة، أو بما النافية أو بلن أو بالسين أو بسوف، كانت

كما يحكم به الوجدان آبية عن الربط الشرطي، فأوجبت اللغة مساعدة الأداة بفاء السببية الملاقية لها معنى، وأجازت ذلك حيث يكون مضارع الجزاء منفيًا بلا، وحيث يكون ماضيها مقصودًا به الوعد أو الوعيد ولا تجوز الفاء في غير ذلك، وما ورد على خلافه مؤول بتقدير ما يجعل الجملة من مواضع الفاء نحو: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ [سورة المائدة: ٩٥] تقديره: فهو ينتقم. وحذف الفاء حيث وجدت ضرورة كقوله (من يفعل الحسنات الله يشكرها).

وقد ورد بعد أن خاصة إقامة إذا الفجائية مقام الفاء، حيث يكون الجواب جملة اسمية غير طلبية ولا مصدرة بأن المؤكدة ولا بأداة نفي نحو، ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [سورة الروم: ٣٦]، وقد ورد الربط بإذا مكان الفاء وبهما معًا بعد إذا من الأدوات غير العاملة نحو: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ۝ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

وإذا جئت بعد الجزاء بمضارع مسبوق بفاء أو واو جاز لك جزمه على العطف ورفعه على الاستئناف ونصبه بأن مضمرة بعد واو المعية وفاء السببية، ويزاد هذا على مواضعهما السالفة وبثلاثة الأوجه يروي قوله:

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيعُ الناس والبلد الحرامُ
ونأخذ بعده بذناب عيش أجبُّ الظهر ليس له سنامُ

الذناب ككتاب، والسنام كسحاب، وإذا وسطته لم يجز الرفع ويجوز حذف الجزاء نحو: ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا ﴾ [سورة الأنعام: ٣٥]. أي: فافعل ونحو: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ [سورة الرعد: ٣١] أي: لكان ويجب إذا كان الشرط ماضيًا ولو معنى وتقدم على الأداة أو اكتنفها ما يصلح أن يكون جوابًا أو تقدمها قسم لم يصحبه طالب خبر نحو: أجلس إن جلس زيد أو إن لم يجلس، وأنا إن لم يجلس جالس، ونحو: أحلف إن خرج زيدٌ لأخرجن.

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٢١]، فإن تأخر القسم أو صحبه طالب خبر لم يكن الجواب محذوفًا.

وإذا توالى شرطان فإذا عطفت بالواو كان الجواب المذكور لهما معًا، وإذا عطفت بأو أجبت أحدهما وأضمرت للآخر نحو: إن زارك زيد أو إن زارتك هند فأكرمه أو فأكرمها، وفي نحو: إن جاء زيد فإن جاء عمرو فأكرمه. الجواب الفاء ومدخولها، وإذا لم تعطف فالجواب للأول، وجواب الثاني مقدر بجملة قائمة من الشرط الأول وجوابه كقولك:

إن تستغيثوا بنا إن تُذعروا تجدُوا ... منا معاقِل عزّ زانها كرمُ

فالتقدير: إن تذعروا فإن تستغيثوا بنا تجدوا. وحذف كل الشرط قليل جدًا كقوله:

متى تؤخذوا قسرًا بظنة عامر ... ولا ينجُ في الصفادِ يزيدُ

تقديره: متى تثقفوا فعل مجهول أي: توجدوا، والظنة بكسر الظاء: التهمة والصفاد جمع صفد، واحد الأصفاد وهو القيد، وحذف بعضه كثير كقوله:

فطلقها فلست لها بكفء وإلا يعلُ مفرقك الحُسامُ

أي: وإلا تطلقها وقول الناس: إمالًا. أي: افعل هذا إن لا تفعل ذلك ونحو: وإن أحد من المشركين استجارك. وإن خيرًا فخير. وقد سلف أن كلمة أن مقدرة مع الطلب الذي جزمت ما يدل على الحاصل المرتب على امتثاله.

القسم الخامس
في بيان الجمل الإنشائية
والجمل التي لها محل من الإعراب، والجمل التي لا محل لها منه

عرفت أن المركب التام إن كان حكاية عما له وقوع وحصول، فهو الخبر والقضية، وإن لم يكن كذلك، فهو الإنشاء.

فالخبر: مركب تام مفيد بهيئته التركيبية الحكم بثبوت أمر لأمر أو انتفائه عنه، نحو: زيد قائمن وقام زيد، ويقوم عمرو، وما قام عمرو، وليس خالد بقائم. ويسمى هذا النوع من الخبر خبرًا حمليًا أو مركبًا تامًا يفيد استلزام وقوع نسبة وقوع نسبة أخرى وهو الخبر الشرطي.

فالخبر: إما حملي، وإما شرطي. وأما الجملة التي يسميها أهل المنطق: الشرطية المنفصلة. في مقابلة: الشرطية المتصلة السابقة، فهي عند النحويين داخلة في الحملية؛ فإن قولك: الشيء إما أن يكون، وإما أن لا يكون بمنزلة قولك: الشيء كائن أو غير كائن، فهو مبتدأ أو خبر.

وبين هذين التركيبين من جهة التعقل فرق دقيق، وذلك أن الحكم في الأول بالعناد والتنافر بين وقوعي النسبتين.

ولذلك تلاحظ أنه في تقدير شرطيتين متصلتين يستلزمهما، وهما إن كان الشيء كائنًا لم يكن غير كائن، وإن كان غير كائن لم يكن كائن؛ا. وبهذه الملاحظة سميت المنفصلة شرطية، والحكم في الثاني بثبوت أحد الأمرين فحسب وليس للملاحظة عمل بعد ذلك، ويسمى عندهم المحمول المردد.

والإنشاء: هو الأمر. نحو: أكرم زيدًا. والنهي نحو: لا تُهن عمرًا. والتمني نحو: ليت الحبيب حاضر، والحضُّ نحو: هلَّا أو ألَا أو لولَا أو لو ما تفعل أو فعلت، وهو في المستقبل بمعنى ينبغي أن تفعل، وفي الماضي بمعنى ما كان ينبغي أن تفعل. قيل: وهو طلب لتدارك ما يمكن تداركه، ويستعمله الزاجر؛ لأن الحض كما عرفت يكون بشدة وعنف، والعرض نحو: ألا تفعل، ويستعمله المستعطف الخاضع، وذلك أن أصله الاستفهام، فهو طلب لرأي المخاطب، ولذلك صدر بأداة النفي فكأنه قال: هل الأحسن بقاء الشيء على الانتفاء، والمقصود أن الأحسن كونه وحصوله، ولذلك يرتب عليه السبب في الحكم بحسنه كقوله:

يا ابنَ الكرامِ ألا تدنُو فتُبصِر ما ... قد حدثُوك فما راءٍ كمن سمِعا

والاستفهام وسبق تفصيله. والتعجب نحو: لله أنت، ولله درك.

وله صيغتان مشهورتان يبحث النحوي عنهما.

إحداهما: فعل ثلاثي مهموز يقبل معناه الشدة والضعف مسبوق بكلمة ما التي معناها شيء عظيم، وهي مبتدأ وفاعل الفعل المذكور ضمير واجب الاستتار يعود على ما نحو: ما أحسن زيدًا، وما أجمل عمرًا، وما ألطف خالدًا.

ما أقدر الله أن يُدْنِي على سخطٍ ... من داره الحزن ممنى داره صول

معناه شيء عظيم صير الله قادرًا، وشيء عظيم صير زيدًا جميلًا. نقل هذا التركيب من هذا المعنى الخبري المشروح لإنشاء التعجب من قوة الوصف وشدته، وكيفية السلوك للانتقال هي: أن المتكلم لما جعل حسن زيد حسنًا خارجًا عن العادة جعل له موجدًا مبهمًا غير معلوم غير الموجد

الذي علم أنه يخلق الأوصاف، ولذلك يجعل بعض النحويين كلمة ما فيه استفهامية، وهذه المعاني محالة في أنفسها باطلة. ألا ترى أن قدرة الله جل وعز ليست بإيجاد موجد، ولا بتصيير مصير حتى يقال: ما أقدر الله بذلك المعنى، بل معناه: أتعجب من قوة قدرة الله تعالى، وهو معنى صحيح.

الصيغة الثانية: فعل ثلاثي مهموز بهمزة الصيرورة محمول من صورة الماضي إلى صورة الأمر نحو: أنعم بزيد وأكرم به، وأحسن بخالد وأظرف به. أصله: أحسن زيد أي: صار ذا حسن. يتكلم بهذا المتكلم المتعجب مع من يعلم حسن زيد، فلا يحتاج لأن يخبر به فيعلم المخاطبون أنه متعجب، والباء بعده زائدة والاسم بعدها في محل رفع هو الفاعل.

يقال: أحسن بزيد. فعل ماض تعجبي جيء به على صورة الأمر، والفعل الثلاثي الذي تهمزه ليصير فعلًا تعجبيًا هو فعل من باب كرُمَ بالأصالة مثل: حسنُ من الحسن ونعم من النعمة بفتح فسكون أي الترف، أو بالتحويل كضرب وفقه المحولين عن ضرب وفقه بفتح عينهما.

ولك كما سلف ويأتي أن تستعمل أفعال هذا الباب للتعجب، وأن تهمزها لتحصيل تينك الصيغتين. والفعل المتعدي يصير بتحويله لازمًا كما هو شأن الباب.

وإذا أردت أن تذكر مفعوله أو صلته إليه بلام التعدية، وليس لها موضع سواه تقول: ضرب زيد لعمرو، وفقه لمسائل الكلام.

ثم إن فعل التعجب لا يصاغ إلا مما يُصاغ منه اسم التفضيل، وما توصلت به إلى التفضيل حيث تمتنع الصيغة تتوصل به إلى التعجب والبيان البيان.

ومن الإنشاء: نعم للمدح وبئس للذم، وما جرى مجراهما من كل فعل ثلاثي على فعل بضم العين حيث يراد به المدح ، والتعجب من قوة الوصف في صاحبه، وهذا الفعل الذي يمدح به أو يذم يرفع فاعلًا مفتتحًا بأل أو مضافًا لمفتتح بها نحو: نعم المتقى ربهن ونعم عقبى الدار، وبئس القرين. أو ضمير واجب الاستتار مذكر، ولك تأنيثه مع المؤنث كما سلف مفرد دائمًا، ويفسر باسم يذكر بعده منصوبًا على التمييز، وهذا الاسم النكرة الذي يجعل تمييزًا مفسرًا للضمير، هو الذي يجعل فاعلًا مفتتحًا باللام أو مضافًا لمفتتح بها، ومعنى هذا الاسم: هو الشيء الذي يقع المدح أو الذم من جهته ولأجله وهو اسم جنس، والشخص المعين الذي سيق الكلام لمدحه أو ذمه فرد لذلك الجنس فيذكر قبل أو بعد مبتدأ والجملة خبره.

وقيل: إذا تأخر كان خبر المبتدأ واجب الحذف، والجملة منه ومن المحذوف مستأنفة مبنية على سؤال يلزم نفس المخاطب نحو: زيد نعم الرجل ونحو: نعم الفارس عمرو فعمرو على القول الثاني خبر لهو مقدر كأن المخاطب لما سمع المتكلم يقول: نعم الفارس. سأل: من هو؟ فقال المتكلم: عمرو أي هو عمرو، ويقع بعد هذه الأفعال كلمة ما نحو: نعم ما يصنع زيد. فإن لاحظت أن المعنى نعم الشيء الذي يصنعه زيد على كون ما موعولة كانت فاعلًا.

وإن لاحظت أن المعنى: نعم شيئًا يصنعه زيد. على كونها نكرة موصوفة بالجملة كانت تمييزًا والفاعل الضمير المستتر، وعلى كل يذكر المقصود بالمدح أو الذم مثلًا تقول: نعم ما يصنع زيد تكلمه في موضع الكلام، وصمته في موضع الصمت.

والأفعال التي تستعمل في المدح والذم هي: نعم وبئس وساء وحبّ، وسائر الأفعال الثلاثية الآتية على فعل بضم العين وضعًا أو تحويلًا، فيقال: شرف الرجل زيد، ونبه المرء خالد، وظرفت المرأة دعد، وطابت الفتاة هند. وأصله طوب بواو مضمومة قلبت ألفًا. وقالوا: حبذا مدحًا ولا حبذا ذمًا. فجعلوا الفاعل اسم إشارة مذكرًا مفردًا دائمًا كما أفردوا الضمير الفاعل دائمًا فيقال: حبذا زيد والزيدان الزيدون وحبذا هند، كما يقال: نعم رجلين ورجال، وقالوا: حب الرجل زيد، وحبت المرأة هند. بضم الحاء. وحب بزيد عالمًا، وحب بهند عفيفة.

والاسم الخاص الذي سيق له المدح أو الذم يسمى: المخصوص بالمدح أو الذم.

ومن الإنشاء صيغ العقود والحلول نحو: بعت واشتريت وحبست وسبلت وفسخت وطلقت وأنت طالق وأنت حر، إذ لا يقصد بها الحكاية.

ومن الإنشاء الدعاء نحو: أصلح الله حالك، وأطال بقاءك، ولا زلت مع الحق.

ولن تزالوا كذلك ثم لا زلتُ   لكم خالدًا خُلود الجبالِ

لعدم قصد الحكاية أيضًا.

وأما الجمل التي لا يخرج الكلام عنها، ومنها: ما له محل من الإعراب. ومنها: ما لا محل له منه فهي خمس عشرة جملة: سبع لها محل من الإعراب، وثمان لا محل لها. فذوات المحل: جملةُ الخبرِ عما له خبرُ من مبتدأ وناسخ، وجملة المفعول في باب ظن إذا وقعت مفعولًا ثانيًا، أو سادة مسد المفعولين حيث يعلق الفعل عن نصب الأجزاء بإحدى المعلقات، وبقية الأفعال الإدراكية التي لم تعامل معاملة ظن؛ لعدم استحقاقها ذلك بحسب معناها يدخلها التعليق.

فالجملة بعدها مفعول نحو: ذكرت أقام زيد أم لم يقم، وشككت هل قال ما نسبوا له، وانظر إلى العظام كيف ننشزها.

وفي هذا وجه آخر: وهو أن كيف اسم لم يضمن معنى الهمزة فهو المفعول. ومنه: ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وجملة الحال، وجملة النعت، والجملة المضاف إليها، وجملة الجزاء المفتتحة بالفاء، والجملة المعطوفة على إحدى هذه الجمل كلها في محل إعراب لأنها واقعة موقع مفردات، وذلك ضابطها لو ذكرت لكانت معربة لفظًا مثلًا: زيد أبوه قائم. زيد مبتدأ وأبوه مبتدأ وقائم خبر المبتدأ الثاني، والجملة في محل رفع خبر المبتدأ الأول واقعة موقع قائم الأب، فلفظ: قائز يكون خبرًا مرفوعًا بضمة ظاهرة وعليه القياس. والتي لا محل لها: جملة فعل الشرط، وجملة جزاء الشرط التي لم تصحبها فاء، وجملة جواب القسم، وجملة الصلة لاسم أو حرف، وصلة الاسم جملة خبرية ضرورة كونها مسبوقة لتعيين المراد بسبب عهد المخاطب وسبق شعوره بحصول مضمونها، ويجب أن تشتمل كما هو شأن جميع الجمل المتعلقة بغيرها تعلقًا شديدًا على رابط بمعنى الموصول ويسمى: العائد. ويجب

كونه مطابقًا للموصول في الإفراد وفرعيه، والتذكير وفرعه إلا في الموصولات المشتركة، فيجوز فيها اعتبار اللفظ، فيفرد ويذكر ويكون مرفوعًا ومنصوبًا ومخفوضًا، ويجوز حذفه مرفوعًا إن لم يكن فاعلًا وطالت الصلة في غير أي لدفع البشاعة، ومنصوبًا بفعل أو وصف تأمين، ومخفوضًا بمضاف وصف أو حرف، وشرط الحذف تعينه بحيث يكون عين المراد بيننا، والفصيح في صلة أل كونها وصفًا جاريًا مجرى الفعل.

وفي الصلة والعائد تلطف (شرف الدين ابن عنين) حيث كان مريضًا وخاطب سلطان ديار الشأم في وقته (عيسى المعظم الأيوبي) بقوله:

انظر إليّ بعين مولى لم يزل ... يولي الندى وتلاف قبل تلافي

أنا كالذي أحتاجُ ما يحتاجُه ... فاغنم ثوابي والجزاء الوافي

وأحسن السلطان – رحم الله الجميع – جوابه، حيث زاره بنفسه ومعه بدرة دنانير، وقال: هذه الصلة وأنا العائد.

وجملة التفسير، والجملة الاعتراضية، وهي الواقعة بين أجزاء الكلام لغرض من الأغراض التي محل بيانها علم المعاني نحو: زيد والإكرام عادته أكرمني. وتقع بالواو والفاء وبدونهما نحو: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سورة النحل: ٥٧]، والجملة الاستئنافية وهي الواقعة في افتتاح النطق نحو: زيد قارئ. أو بعد انتهاء الكلام جوابًا عن سؤال مقدر: نحو أكرم زيدًا إنه عالم، أو غير جواب نحو: ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [سورة الإسراء: ٨١].

وأهل البيت يخصون اسم الاستئنافية بالواقعة جوابًا والجملة التابعة لإحدى هذه الجمل؛ فتلخص أن الكلم العربي من حيث يبحث النحوي عنه هو المركبات المتمايزة بالضوابط، فلا بحث له عن المفرد إلا من حيث كونه جزء كلام.

ولذلك عرفه بما يكون إعرابه واحدًا، إذ الألفاظُ قبل التركيب لا توصف بإعراب ولا بناء؛ لأنك قد عرفت أن الإعراب والبناء تأثيره مؤثر متحصل مصاحب وعدمه، وأنه يبحث عن المركبات من جهات خاصة، وهي كون الكلمات التي هي أجزاء التركيب معربة لفظًا وموضعًا إعرابًا ظاهرًا أو مقدرًا، أو معربة موضعًا بمنية لفظًا، أو مبنية لفظًا وموضعًا، وأنها واقعة في مواضعها التي يقتضيها لها الترتب التعقلي للمعاني أولًا التزامًا لذلك ودونه، وأنها ملفوظة بأسرها أولًا.

كذلك والأغراض المترتبة على إيراد التراكيب في تلك الصور هي مباحث علم المعاني، ولكون تلك الصور في نظر صاحب علم المعاني لأغراض لم تكن عنده صورة غير ملتزمة، والنحوي لما لم يكن باحثًا عن تلك الأغراض، ورأي التراكيب تارة وتارة أثبت الجواز؛ فتتبع أجزاء التراكيب بضبطها ضبطًا نوعيًا، وميز كلًّا باسم مناسب يخصه، فخرجت له من ذلك أبواب وفصول، ثم كما تتبع أجزاء التراكيب تتبع أنفس التراكيب بالكيفية التي تتبع بها الأجزاء.

وعلى ذلك تم له فن ضبط به اللغة العربية ضبطًا أصليًا لازمًا، إذ به تبقى اللغة التي بها وصل إلينا ديننا محفوظًا محوطًا أن يدخله شائبة تغيير أو زحزحة عن مستقر فرحم الله أولئك المجتهدين في تأييد هذا الدين المتين، صلوات الله وتسليماته على من جاء به، وعلى تابعيه أجمعين.

وقد جرت عادة النحويين أن يضعوا بابًا لاختبار حافظة الطلبة وتمرينهم على استعمال تلك القوانين، التي صرفوا لتحصيلها صدرًا من نفيس أعمارهم؛ واحتملوا له بعض الخروج عن مألوف النفوس، وسمو الإخبار بالذي والألف واللام. وصورة ذلك أن يسألك سائل: كيف تخبر بأل أو بالذي عن زيد من: مررت بزيد: فتجيبه الممرور به لي زيد أو الذي مررت به زيد. وبيان ذلك أن غرض السائل أن يأتي بتركيب ما ويطلب منك أن تحوله إلى صورة التركيب الذي تخبر فيه عن الموصولات. وضابطه: أن تأتي بأحد الموصولات حسب الاقتضاء، وتجعله مبتدأ وتجعل الاسم الذي قيل: كيف تخبر عنه خبرًا عن ذلك المبتدأ بعد أن تضع موضعه ضميرًا مطابقًا يكون خلفًا منه، فيظهر لك حينئذ أن قولهم: أخبر بالذي عن زيد فيه قلب. ووجهه: أخبر عن الذي يزيد ومن التكلف أن تجعل الباء للآلة وأن الإخبار في الحقيقة عن ذلك الاسم؛ لأن ذلك التركيب الذي يراد التحويل إليه في هذا الباب تركيب مقصود جعل فيه المسند إليه من الموصلات لأحد الأغراض المبينة له في علم المعاني.

فإذا عرفت أن الغرض تأخير اسم من التركيب لتجعله خبرًا، وأن تضع مكانه ضميرًا وأن تأتي بموصول تصدره وتجعله مبتدأ أطلقت فكرك في القواعد التي حفظتها، فقلت في نفسك إن تأخير الاسم يوجب أن لا يكون من الأسماء التي يجب تصديرها، وأن رفعه خبرًا يوجب أن لا يكون من الأسماء التي تلزم حالة واحدة، كالمصادر الملازمة للنصب والظروف غير المتصرفة. وأن لا يكون جزء مركب ذي معنى واحد، وأن وضع الضمير موضعه يوجب أن لا يكون من أجزاء التراكيب التي يجب أن تكون نكرات أو أسماء ظاهرة، وأن يكون بحيث يصح وضع الضمير موضعه بأن لا يكون مضافًا ولا موصوفًا ولا مصدرًا عاملًا، إذ الضمير لا

يضاف ولا يوصف ولا يعمل، وأن لا يحصل بذلك العمل فساد في التركيب بحيث لا يكون مفيدًا، وأن الإتيان بالموصول ليكون مبتدأ يوجب أن تكون الجملة التي يطلب فيها إجراء ذلك صالحة لأن تكون صلة، وأن يمكن صوغ صلة منها لأل حيث يكون الإخبار عنها فحينئذ متى سأل سائل: كيف تخبر عن كذا؟ وكان: اسم استفهام، أو اسم شرط، أو ضمير شأنن أو مبتدأ أو مثل: معاذ الله وعند ولدي، أو حالًا أو تمييزًا، أو مخفوضًا برب أو بحتى أو بمد إلى غير ذلك مما تمنع القواعد أن يكون عليه التركيب الذي تحول إليه المركب الذي يطلب منك تحويله قلت: لا يمكن الإخبار للمانع الذي هو كذا مثلًا يقال لك: أخبر عن الصديق الخصيص والعدو والبغيض من قولك: كان زيد الصديق الخصيص والأيام باسمة، ثم صار العدو البغيض وهي كاشرة، فتقول الذي كأنه أو إياه زيد والأيام باسمة الصديق الخصيص، ثم الذي صاره أو إياه وهي كاشرة العدو البغيض، ويقال لك: أخبر عن رجلٍ من قولك: رب رجل يعرف فضل العلم والتهذب وحسن السيرة، فتقول: لا يمكن لأن التركيب يصير هكذا الذي ربه يعرف رجل، فيلزم أن يكون مخفوض رب معرفة وهو غير سائغ.

وعليك بالفكر في القياس واستخراج ما يمكن فيه ذلك العمل ومالا يمكن، وقد التزمت شدة الاختصار في هذا الموضع إبقاء لفكرك بسطه وتفصيله حسبما تحصل معك من الأحكام ومعرفة العمل في هذا الباب.

وبعض النحويين أورد هذا الباب عند الكلام على المبتدأ والخبر، وبعضهم عند الكلام على الموصول مخالفة لوضع المتقدمين له في هذا

الموضع، ونعم ما صنع المتقدمون فإن الغرض به كما عرفت اختبار حفظك لسائر قواعد الفن.

(مسألة) كلمتا أي ومن. إذا طلبت بهما من المخاطب تعيين مراده بنكرة أو ردها في كلامه حكيت بالأولى وصلًا ووقفًا صورة تلك النكرة من الإفراد والتذكير وفروعهما وحركت آخرها، وبالثانية وقفًا فقط فتقول: أي وأية بثلاث الحركات، وأيان وأيتان وأيين وأيتين وأيات، حيث تكون النكرة جمعًا لا يصلح أن يوصف بجمع مذكر سالم، وأيون وأيين حيث تكون النكرة جمع مذكر سالم، أو جمعًا يصلح وصفه به موزعًا ذلك حسبما عرفت، وتقول: منو ومنا ومني بثلاث الحركات وأشياعها، ومنان ومنين ومنون، ومنه بفتح النون ومنتان ومنتين بسكون النون ومنات، وأي على إعرابها ومن على بنائها فلواحق الثانية من الحركات والحروف للحكاية اتفاقًا وفي لواحق الأولى خلاف، وعلى القول بكونها إعرابًا يكون الخافض عند حكاية الخفض محذوفًا، وعلى القول بكونها للحكاية فضمة أي مقدرة لكونها حينئذ مبتدأ، وإذا أورد مخاطبك في كلامه علمًا مشتركًا وطلبت تعيينه بمن دون أن تقرنها بواو أو فاء وجئت بعدها بلفظ العلم غير متبوع إلا بعطف نسق، أو وصف بابن أو ابنة جاز لك أن تنطق به على صورته في كلام المخاطب فضمته مقدرة لكونه مبتدأ أو خبرًا، والأفصح أن تنطق به حسب الاقتضاء.

* * *

خاتمة

* تحصيل علوم العربية

* اختلافه بحسب العصور

* أحسن أنواعه

الخاتمة

قد عرفت أن إفادة الكلام ما يراد به مرتبطة بهيئته الصحيحة، وذلك لا يخص لغة دون لغة، ولذلك احتاجت كل لغة لوضع فنون لضبط صورها الصحيحة، وكانت اللغة العربية أشد احتياجًا لذلك بسبب الإعراب والبناء وغيرهما، ولم يكن للعرب خلا عرب اليمن علم بالكتابة، وإنما دخلت فيهم بعد ورود الإسلام الذي جمع بين الأمم وأوجب اختلاط الكافة فاحتاج كل لمعرفة كل؛ فكتبت العرب أحرفًا دالة على مادة اللفظ دون صورته لاستغنائهم بصحة لغتهم.

ثم تنبه (الحجاج بن يوسف) فنقط المصحف حيث دخل الاشتباه وحصل اللحن بالسبب الذي سبق شرحه، وجرى العمل على الكتابة دون شكل يعرف صور الألفاظ؛ فاشتدت الحاجة لتحصيل طريقة بمعرفتها تضبط صورة اللغة، ولو اشتملت الكتابة على ما يدل على صور الألفاظ لبقيت لغة العرب صحيحة، ولم يدخلها كل ذلك التغيير المشهود في لسان من يتكلم باللغة العربية.

وهم كما سلف أهل مصر ومغربها، والشام والحجاز واليمن، ولم يطل فن النحو هذا الطول.

ولكن لما لم يكن ذلك قامت طائفة من عقلاء الأمة مجتهدين، في تحصيل الطرق التي تنضبط بها اللغة العربية من كل وجه؛ فتحصلت العلوم العربية المسماة بالفنون الأدبية نسبة إلى الأدب، وهو تعويد المتحرك بالإرادة على الحركات المستحسنة الموافقة لما جعل ذلك المتحرك له.

فلا تظن أن الأدب كما توهمه الشهرة هو: الأشعار والنوادر والحكايات وما أشبه ذلك ولا أن الأدب خاص بالإنسان، بل هو كما يقتضيه تعريفه عام لكل حي، فلكل حي أدب يليق به، فأدب الإنسان تعوده الأحوال، التي يصير بها نافعًا لنفسه ولأهل الأرض المنفعة التي يمكنه القيام بها في طائفته المشاركة له في ذلك، حسب الأوضاع الإلاهية حيث خلق كل نوع وخصه بأعمال، وجعل نوع الإنسان هو النوع الرئيس المدبر لبقية الأنواع فكثرت أعماله، واقتضى الحال تقسيمه طوائف موزعة عليها أنواع الأعمال مربوطًا بذلك حفظ حياتهم، وحسن معيشتهمن ولهذا المعنى الإشارة بقوله جل ذكره. ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ ﴾ [سورة الزخرف: ٣٢].

وأدب الجمل تعوده البروك حيث يراد منه، ونهوضه بالأثقال المحمولة عليه، انقياده بتلك السلاسة وهكذا.

وأدب حمار الركوب التصاقه بسلمه، وامتثاله لتحريكات اللجام وهلم.

إلا أن للأدب أُصولًا هي بمنزلة الأغذية، وفروعًا هي بمنزلة الفواكه، ولك التشبيه بصورة الإنسان مثلًا فوجوده حيًا بعظامه وعروقه وجميع ما لابد منه في الحياة، وجماله بأمور لا تزول الحياة بزوالها، كالشعر الأسود الأثيث المسترسل واللون الوسط، وتناسب الأعضاء إلى غير ذلك من الأمور المشروحة في الغزل.

فأصول الأدب لطائفة النجار مثلًا، معرفة إمساك: القدوم والمنشار والفأرة والمخراز والمنقرة، واستعمال تلك الآلات لتحصيل ما به الوقاية من الحر والبرد والأمن من اللص، وخروج الحيوان إلى غير ذلك، وفروعه: النقوش والتحلية والعمل على الحساب ورعاية التناسب بين أنواع مصنوعاته، فالشباك العالي يناسبه مالا يناسب الشباك السافل، وباب الدار لا يكون كباب أحد بيوتها، وباب القاعة الكبيرة غير باب المبيت.

وعليك الفكر فعلى ذلك تعرف أن أصول أدب طائفة العلماء أن يعرفوا الكتابة والقراءة وصحة الكلام مادة وصورة، ويتعقلوا كيفية تحصيل المعاني الأصلية التي تفيدها أنفس التراكيب، وذلك بمعرفة ما قبل علوم البلاغة ومقاصدها من علوم العربية وهو ما سبق تلخيصه، وكان العمل في تعليم تلك الفنون وتعلمها في صدر الإسلام أن ينتخب الشيخ بعض الأشعار والخطب والمحاورات، ويلقيها لتلامذته يتحفظونها ويتصورون هيآتها الإفرادية والتركيبية عملًا مستمرًا حتى يحصل للتلميذ صورة خيالية تكون له معيارًا وقانونًا بما تقتضيهن يتكلم حكاية، وإنشاء وإنشادًا ولم يكن ذلك كافيًا للضبط المطلوب، لما فيه من الاعتماد على الحافظة التي هي عرضة لتغييرات حوادث الأيام، فجهدوا في وضع القواعد.

وابتداء ذلك كما سلف لأمير المؤمنين عليّ – كرم الله وجهه –، واستعمل أبا الأسود الدؤلي في البناء على ما أسس له فعمل ما يسر الله له.

ثم أخذ الناس في تتميم ذلك مثل أبي عمرو، وعبد الملك الأصمعي، حتى وضع عمرو ابن بشر المشهور بسيبويه كتابه الذي صار الإمام في ذلك الفن، وصار الكتاب له علمًا بالغلبة فأقبل الناس على قراءته وشرحه وبيان معانيه، ومع ذلك لم يتركوا الحال الأولى، بل جمعوا بين معرفة القواعد وحفظها واستعمالها، وقراءة دواوين العرب ومحاوراتهم متفاوتين في ذلك حسب الاقتضاء، فمن يسعى ليكون معلمًا لا يكون كأولاد الملوك. ومن يسعى ليكون في إحدى الخدم السلطانية لا يكون كمن يريد التفقه في الدين، ليجتهد في تحصيل مذهب يستخرجه من أصول الدين المجملة، التي يحتاج من يريد استخراج أحكام الحوادث منها إلى إعمال فكر ودقة نظر، وتحصيل علوم شتى، أو ليتولى إفتاء أو قضاء وهلمَّ.

ونعم ما كانوا يصنعون، وعلى ذلك جرى عمل الناس حتى بلغ العلم غاية قوته ثم أخذ الناس في الاقتصار على معرفة بعض القواعد دون استعمال، ونظروا إلى الآلات نظر المقاصد واقفين عند ذلك الحد، فصارت علومهم بمنزلة حبوب تخزين في أماكن صالحة لذلك أو غير صالحة، حتى تصير ترابًا وينقلب بعضها حشرات وهوام بشعة المناظر رديئة الأعمال مؤذية بلدغها ونتن رائحتها، فما يستحقه ذلك من اللوم والتعنيف والمقت من الله والناس، يستحقه أولئك الناس الذين يتظاهرون بدعاوى غير مدللة.

والدعاوى ما لم يقيموا عليها بينـات أبناؤها أدعياءُ

فالطريقة المثلى كما سبق تنبيهك عليه، وإرشادك لهن أن يبتدئ الطالب بتحصيل الفنون الأصلية، صافية نقية من الشبهات والاعتراضات، وإيراد العبارات المنقوضة تحفظًا لها وعملًا بها فيما يرد عليه أثناء ذلك من الكتب التي يتعلم بها، والأشعار المضمنة فيها فإذا أتقن ذلك واعتاد لسانه أن ينطق بالكلم العربية، كما كانت العرب تنطق بها انتقل إلى معرفة الفنون البلاغية، التي يستفيد بها دقائق المعاني الإرشادية الملحوظة وراء المعاني الأصلية؛ ليبلغ بذلك درجة إتقان الإنشاء حسب اقتضاء الأحوال، فارقًا بين كل مقام وغيره؛ فخطبة المنبر غير خطبة عقد الصلح، وهما غير خطبة رفع المهادنة ونبذ العهد، وهي غير خطبة الأملاك.

والعبارات عن صيغ العقود والشهادات والمشارطات، غير عبارات التعزيات والتهنآت والبشارات وهكذا.

وطريق الوصول إلى ذلك معرفة الفنون البلاغية، وكثرة القراءة في منشآت المتقدمين، على اختلاف أنواعها بتعقل لسياقاتها ومسالكها ومباديها وأوساطها وغاياتها مع الصبر على ذلك والتأني في تعقله كما قيل:

لا تحسب المجدَ تمرًا أنت آكله ... لن تبلغَ المجدَ حتى تلعق الصَّبرا

وقيل:

ومن يصطَبِر للعلم يظفرْ بنيلهِ ... ومن يخطب الحسناءَ يصبرْ على

ومن لم يُذلَّ النفس في طَلَب العُلى ... يسيرًا يعشْ دهرًا طويلًا أخا ذُل

وكما قيل:

اطلب ولا تضجر من مطلبٍ ... فآفة الطالب أن يضْجرا

أمـا تـرى الحبْـلَ بتِكـراره   فـي الـصَّخرةِ الـصَّماء قـدْ أثَّـرا

وقيل:

مـا وهـب الله لامـرئ هبـة   أفـضلُ مـن عقلـهِ ومـن أدبـه

هُمـا حيـاةُ الفتـى فـإن فقـدا   ففقـده للحيـاة أليـق بـه

وزمن التحصيل هو زمن أنفس العمر، حيث تكون الشبيبة مشبوبة والقوى مستكملة والروح فرحًا بامتثال أمره ونهيه، وذلك يوجب الإعراض عن الشهوات، والإغماض عن كثير من اللذات، كما كان يقول أحد شيخي الحديث (مسلم بن الحجاج النيسابوري) بعد كتبه ما يتحصل له من نتائج أعماله وفرائد مكابداته: " لا ينال العلم براحة الجسم؛ فيحصل الطالب المجتهد على ذلك الحدّ على أمرٍ قلما يكون في حسابه وتحت نظره، وهو أنه إذا مسه بعض الضعف اللازم لخلقة الحيوان، واحتاج إلى سكون راحة، وتحفظ من آلام أمور لم تكن تؤثر فيه أيام التهاب شبيبته تأثيرها فيه أيام تخامدها، واستيلاء ضدها عليه من يابس البرد وبلة الرطوبة، وجد مأوى كافيًا وملبسًا واقيًا وخدمة مريحة، وما يعينه على عبادة ربه وسداد رأيه، الذي يكون إذ ذاك وظيفته المرادة منه بها، يتنفع وينفع أمته، ويكون في تلك الحالة مستقرًا في الرتبة النبوية التي ليس وراءها رتبة شرف، وبالله التوفيق لأقوم طريق.

* * *

(تم بحمد الله الجزء الأول)

كلمة لابد منها

في ختام هذا الجزء من الوسيلة الأدبية أرى من الوفاء أن أنوه بفضل الصديقين العزيزين المرحومين فوزي العنتيل وصلاح عبد الصبور. فقد كان لأولهما الفضل الأكبر في حثي على تحقيق هذا الكتاب ونشره بين الناس. وتبني صلاح الكتاب واهتم به حتى خرج للناس.

كما أتقدم بموفور الشكر للأخ الأستاذ متولي خليل عوض الله الذي قام بتصحيح هذا الكتاب.

القاهرة في أغسطس سنة ١٩٨٢

د. عبد العزيز الدسوقي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقصد الثالث في فنون البلاغة

أعلم أن هذه الفنون وغيرها من علوم العربية - كما سبقت الإشارة إليه - إنما تحصّلت لباذلي هممهم في تحصيلها بتتبع الكلم العربي يسمعونه منهم ويروونه عنهم.

وأول من تنبه لاستخراج هذه الفنون واتخاذها معيارًا لصناعة الكلام حسب ما تقتضيه الشاعران الشهيران: مسلم بن الوليد وأبو تمام حبيب بن أوس الطائي، ولكن لم يدوناها وإنما كانا يتحدثان بها ويسميانها البديع.

ولما أكثرا من استعمال مقتضياتها وتبعهما بعض شعراء ذلك العصر غالب ميلهم مع زخرفة الألفاظ كما سينكشف لك في فن البديع - إن شاء الله تعالى - أخذ الشعر هيئة غير هيئته العربية، حتى أن فحول الشعراء إذ ذاك كانوا يقولون: قد أفسد هؤلاء الشعر بذلك الشيء الذي يسمونه البديع، ولم يزل يتزايد الحديث في ذلك إلى أن جاء عبد الله بن المعتز وقدامة الكاتب فوضع كل منهما موضوعًا لطيفًا، ثم اتسع القول فيه بعد وأقبل عليه كتاب الإنشاء وسموه البيان.

وهذا أنموذج تأليف الأوائل في هذه الفنون ابتدأ بعضهم كتابه بقوله: " البلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان". ثم أخذ في بيان كل منها والاستشهاد عليه وذكر تفاوت البلغاء فيه.

ولما اتسعت دائرة القول في العلوم الفلسفية بين المسلمين حتى أفضى بها التكلم في تخليص العقائد الإسلامية، وإزاحة الشبه عنها إلى كشف حقيقة النبوة وبيان جهة إعجاز القرآن رأى الناس نفع هذه الفنون في معرفة إعجاز القرآن الذي هو برهان الدين الحق فصار من العلوم الدينية، واشتغل بها طائفة من الناس وأكثروا فيها من التآليف وأولهم الشيخ عبد القاهر، وبحسب اختلاف جهات البحث ميزوا الفنون وخصوا كلًّا بلقب وهي ثلاثة فنون: فن يبحث عن الألفاظ من حيث كونها مستعملة في معانيها التي وضعت لها أو فيما يناسبها اعتمادًا على المناسبات وسموه فن البيان، وفن يبحث عن المركبات من حيث تختلف صورها لاختلاف الأغراض منها وسموه فن المعاني، وفن يبحث عن أحوال تعرض للكلام فتكسبه حسنًا وسموه البديع.

ولنبدأ بفن البيان؛ لأن في علم المعاني إحالة عليه والبديع تابع لهما فنقول:

إن من نعم الله التي أسبغها علينا ظاهره وباطنه أن وهبنا هذا الصوت نصوره حروفًا نصوغ منها كلما نعينها لتلك الأشياء التي يتناولها تعقلنا تناولها الحس أم لا لتحضرها بها عند المدركات متى احتجنا لذلك، فتلك الأشياء حينئذ تسمى معاني وتعيين الكلم لها يسمى وضعًا وإحضارها إياها يسمى دلالة، ثم أن الشيء من الأشياء يتعلق به وينسب إليه أمور إما داخلة فيه وهي أجزاؤه، وإما خارجة عنه كأسبابه ومسبباته ومشابهاته.

والكلمة المعينة له تحضره بجميع ما يتعلق به جلية متفصلة عند العالم بها، فإحضار الكلمة إياها يسمى دلالة المطابقة، وإحضارها أجزاءه يسمى دلالة التضمن، وإحضارها ماعدا الأجزاء من المتعلقات يسمى

دلالة الالتزام، ولذلك يقال أن الكلمة الموضوعة للشيء موضوعة لجزائه وسائر متعلقاته وضعًا تبعيًا. وإذن يتبين لك أن كل ما يحضره اللفظ عند مدركتك يكون له معنى ولك أن تريده به وتقصد فهم مخاطبك إياه منه حيث تريد الحديث عنه والحكم عليه، إلا أن الشيء الذي له الرتبة الأولى من الملاحظة عند الوضع هو الذي يتبادر إلى الفهم ويوجب حكم المخاطب أنه مرادك، وإن الحديث عنه وعليه الحكم وغيره إنما يحكم المخاطب أنه مرادك إذا أصبحت اللفظ بأمر يدل على أنه مرادك.

فالألفاظ باعتبار الأوضاع الأصلية والمعاني الأولية تسمى حقائق، وباعتبار الأوضاع التبعية والمعاني الثانوية تسمى مجازات.

فاللفظ إما حقيقة وإما مجاز، والحقيقة إن وقفت بها الملاحظة عند معناها الأولى لكونه المقصود بالإفادة ولم تجعله وسيلة لإفادة بعض المعاني بنصب دليل على ذلك سميت حقيقة صريحة وإلا سميت حقيقة كناية، والمجاز والكناية كما سبقت الإشارة إليه هما موضوع هذا الفن.

الكلام على المجاز

لفظ المجاز اسم مكان من جاز الطريق إذا قطع جوزه أي وسطه وانتهى لغايته، تقول هذا الطريق مجاز لكذا تسميه مجازًا باعتبار أنك تنتهي منه وتخرج عنه إلى غيره، واللفظ المسمى مجازًا مسلك تخرج الملاحظة من معناه الأصلي إلى المعنى المناسب له الذي تريد إفادته وتفهم المخاطب إياه، ومن هذا يمكنك أن تجد المجاز بأنه اللفظ الذي تعتمد في تفهيم مرادك به العلاقة والقرينة المانعة لمخاطبك أن يفهم غير مرادك، والقرينة: هي الأمر الذي يصحب لفظ المجاز من حال أو لفظ

آخر. والعلاقة هي المناسبة والارتباط بين المعنى الأصلي والمعنى المراد.

وقد بحث العلماء عن العلاقات التي لاحظتها العرب في مجازاتها وحصروها باستقصاء التتبع وحكموا بأنه لا يصح أن يتجوّز بلفظ اعتمادًا على غير تلك العلاقات حيث كان الغرض التكلم باللغة العربية وإلا فلا حجر على المتخاطبين أن يعتبروا ما شاءوا، وغاية الأمر أنهم يكونون قد تكلموا بغير اللغة العربية بيد أنه لا يلزم إلا سماع نوع العلاقة، مثلًا سمع منهم تسمية الفئ باسم آلته قلنا أن نسمي كل شيء باسم آلته وإن لم يكن مسموعًا منهم، ثم إن المجاز لكونه خلاف الأصل لا يصار إليه إلا لفائدة كلامية تختص به لا تعطيها الحقيقة ثم مرجع جميع تلك العلاقات المعتبرة كما يعطيه تقسيم الدلالة هو: الكلية والجزئية أو التلازم بين المعنيين، لكن اختلاف جهة التلازم أوجب تعدد العلاقات وأسمائها وهي باستقصاء التتبع من أئمة الفن - رحمهم الله تعالى - عشرون: اثنتان مأخذهما التلازم بين السبب ومسببه وهما السببية، إن كان المجاز لفظ السبب والمسببية إن كان لفظ المسبب، ومأخذ اثنتين بين العام وخاصه وهما: العموم إن كان لفظ العام، والخصوص إن كان لفظ الخاص.

وهكذا البيان في بقية العلاقات التي هي: الآلية، والكلية، والجزئية، والإطلاق، والتقييد، والحالية، والمحلية، والمجاورة، والبدلية، والمبدلية، واعتبار ما كان، وما يؤل إليه الشيء، والملزومية، واللازمية، والتعلقية، والمشابهة.

الأمثلة مع بيان بعض فوائد المجاز قال بعض الشعراء:

إذا نزل السَّماء بأرض قوم رعيناهُ وإن كانوا غضابا

الضمير من رعيناه يعود للسماء وهو المطر فكأنه قال رعينا المطر، والمرعى: هو النبات الذي سببه المطر، قال تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾[النحل: ١٠]، والإسامة هي إرسال البهائم للرعي وهي سائمة؛ فاستعمل لفظ السبب في المسبب فالعلاقة السببية، وفائدة هذا المجاز توصل الشاعر به إلى وصف قومه بأنهم بلغوا من القوة غايتها ومن السلاطة نهايتها فهم سادة الناس والناس لهم تبع، وذلك أن معنى قوله أنا السابقون إلى الانتفاع بمنافع الأرض لا يعارضنا أحد في ذلك ولا يمنيه نفسه فسوائمنا على آثار الأمطار راعية أنف النبات في أول نشأته وأوان نضرته والناس في انتظار إذننا، فلو قال رعينا نبات كل أرض وإن غضب أهلها لم يكن مفيدًا كل ذلك، وقد أفرغ بعضهم هذا المعنى في قالب آخر حيث يقول:

أرى كل قومٍ قاربوا قَيْد فَحْلهم ... ونحنُ خَلَعْنا قَيْدَهُ فَهو سَارِبُ

وقال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾[يس: ٤١] ذرية الناس أولادهم، والمحمول في السفن إلى أرض العرب هو الأطعمة وما به حفظ الحياة ومنها نماؤهم والتولد منهم، فاستعمل لفظ المسبب في سببه، وفائدته: بيان أن المنة عليهم والاحتفاء بهم وكونهما في الدرجة التي ليس وراءها منتظر من الظهور بحيث تكون الغفلة عن ملاحظتهما وقلة الشكر عليهما والخروج عن حيز اختصاصه بالعبودية له وتنزيهه عن تشبيه بعض مخلوقاته به أمور تجعل أصحابها أسوأ حالًا من البهائم، كما قال: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[الفرقان: ٤٤]، وفيه مع التنبيه على موضع عظم المنة وسلطان الدلالة ذكر جميع المنافع الحيوانية والإنسانية بأخصر عبارة؛ لأن لفظ الذرية يذكر جميع مقدماتها

كما يبعث تعقل حكم الله تعالى في إنشاء هذه الأنواع، وترتيبها في سلسلة الشهود الوجودي بعد الغيبة العدمية، وإرسال الأصول في تربية الفروع إلى الحد الذي أراده، والغاية التي قدرها وعبارة الحقيقة لا تفيد كل هذا كما يظهر لمن يستعمل فكره فيما خلق لأجله.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ﴾[النساء:٥٤]، والمراد محمد - صلى الله عليه وسلم - فعبر عنه باسمه العام له ولغيره، ومن فوائد تسليم المحكي عنه من تناول ألسنة أعدائه إياه، والإشارة إلى أن الحسد قبيح تعلق بمن كان حيث ربطه بالاسم العام، وأن الفضل المحسود عليه هو منافع الكافة الحاسدين وغيرهم، ورميهم بالغاوه أو فرط العناد حيث لم يعرفوا منافعهم أو عرفوا وتركوا.

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا ﴾[آل عمران: ١٧٣]، فأفاد هذا المجاز أن المؤمنين مع كون أعدائهم يدًا واحدة في الإيقاع بهم متى قدروا وألسنتهم منطلقة بتهديدهم والإرجاف بهم على غاية من اليقين وثبات الجنان وصدق العزيمة لا يبالون بأعدائهم ما كانوا، فلو قيل: الذين قال لهم نعيم بن مسعود لم يفد ذلك.

وأسماء القبائل كتميم وقريش وتيم من استعمال الاسم الخاص عامًا، وكان تقول في أحزاب ذوي رؤساء فرق هذا على زيد وهذا على خالد.

وقال تعالى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾[البقرة: ١٩] تسمية للأنامل أصابع، ويقول أمير الجيش لجواسيسه وديدباناته إنما أنتم عيوننا إليكم نجاتنا وهذه أوطانكم مسكونة بأهلكم وعيالكم فيسميهم عيونًا؛

وذلك إنما يكون إذا كان الجزء هو المقصود من الشيء وكأن الشيء ليس إلا ذلك الجزء.

وقال تعالى: ﴿ وَاجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾[الشعراء: ٨٤] تسمية للذكر الحسن والثناء الجميل باسم آلته.

ومن استعمال المطلق في المقيد قوله تعالى: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾[المجادلة: ٣]، والمراد رقيق مؤمن. ومن استعمال المقيد في المطلق مثل قولك: جحفلة زيد، والجحفلة شفة الخيل. واعتبار ما كان مثل قوله تعالى: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ﴾[النساء: ٢]. واعتبار ما يؤل له الشيء مثل قولك: أعط رجال هذا المكتب كذا ونساءه كذا. واستعمال اسم الحال في المحل مثل قوله تعالى: ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾[آل عمران: ١٠٧]. ومقابلة مثل قوله: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾[العلق: ١٧]، والنادي مجلس القوم فيه يتحدثون. ومن استعمال اسم المبدل منه في البدل قول الشاعر:

*** أكلت دمًا إن لم أرعك بضرة ***

أي دية، وكان من العار عندهم أخذ الدية ولم يكن إلا في العاجزين عن الثأر، ومقابلة مثل قولك في ملك فلان ألف دينار لمتاع يساوي ذلك، وعلاقة اللزوم حيث لا يكون هنالك معنى خاص يؤخذ منه اسم كاستعمال الشمس في الضوء في قولك دخلت الشمس من هذه الكوة واستعمال الضوء في الشمس، واستعمال المصدر في معنى المشتق، وعكسه قيل العلاقة فيه التعلق وهو يدخل في الكلية والجزئية.

هذا والمجاز المرسل ربما فات على الملاحظة في درجة الكلام، وربما خفيت الفائدة فيه فهو يحتاج إلى دقة نظر، وأما علاقة المشابهة التي نوّعت المجاز إلى استعارة وهو ما كانت علاقته، وإلى مجاز مرسل وهو ما علاقته غيرها فإنها تظهر المجاز حيث كانت الأشياء المتشابهة أجنبيًا بعضها عن بعض، ولذلك ترى من خص علم البديع بالتأليف يشرح الاستعارة ويعدها من أنواعه.

القول في الاستعارة

أعلم أنه متى أشترك أمران في معنى أو أكثر على تفاوت بينهما فيه فثم معنى مقصود بالإفادة، وسمي بالعبارة عنه أهل البيان عبارة التشبيه، وعرفوه بأنه إلحاق أمر بأمر في صفة بأداة لغرض.

فالأمران الملحق والملحق به هما المشبه والمشبه به، والصفة المشتركة هي وجه الشبه، والأداة هي الألفاظ المفيدة لذلك مثل: وجه زيد كالقمر وكأنه قمر وتخاله قمرًا وتحسبه. وتقول أنه وهو مثل، ثم أن عبارة التشبيه تورد على صور مختلفة تقول زيد كالبحر وزيد بحر بحذف الأداة ويسمى حينئذ تشبيهًا بليغًا أي بالغًا غاية لم يبلغها الأول، فإن العبارة الأولى منادية بالفرق بين الطرفين والعبارة الثانية ناطقة بالاتحاد. وتقول رأيت اليوم قمرًا بديع الشمائل ساحر الطرف دري اللفظ بحذف الأداة وأحد الطرفين، وحينئذ يجيء اسم الاستعارة، فالاستعارة تشبيه أبلغ حيث تركت العبارة المشعرة بالاثنينية مع الفرق أو دعوى الاتحاد فليس معنا إلا أمر واحد نخبر عنه ونحكي في شأنه.

وتنقسم الاستعارة حسب اعتبارات إلى: مصرحة ومكنية، وإلى أصلية وتبعية، وإلى مرشحة ومجردة ومطلقة، وإلى تمليحية وتهكمية، وإلى تمثيلية وغير تمثيلية، فإن كان المستعار اسم جنس جامدًا ولو تأويلًا كالأعلام المشتهرة أصحابها بأوصاف كحاتم المشتهر بالجود، ومادر المشتهر بالبخل، وباقل المشتهر بالعي وكان هو المذكور؛ فالاستعارة هي المصرحة الأصلية.

وإن كان غير اسم جنس جامد فعلًا أو حرفًا أو مشتقًا فهي التبعية، وإن كان المذكور لفظ المستعار له فهي المكنية، وإن كانت الاستعارة مقرونة بما يناسب المشبه به فهي المرشحة، وإن كانت مقرونة بما يناسب المشبه فهي المجردة والمطلقة غيرهما، وإن كان المستعار لفظ أحد الضدين للآخر فإن كان على سبيل الاستهزاء فهي التهكمية، وإن كان على سبيل التلطف والتحسين فهي التمليحية، وإن كان التشبيه بين هيئتين منتزعتين من عدة أمور فهي الاستعارة التمثيلية.

والتفاوت بين طرفي التشبيه في المعنى المشترك بينهما وهو المسمى وجه الشبه في غير الاستعارة والجامع بين الطرفين فيها باعتبار كونه في المشبه به أقوى أو أعرف. والغاية في التشبيه إفادة المساواة بين أمرين أو قوة المعنى في المشبه بحيث يحسن إدعاء تساوي الطرفين فيه.

والاستعارة التبعية هي التي تقع تبعًا لاستعارة تسبقها في الملاحظة فتكون السابقة أصلية وتكون اللاحقة تبعية، وبيان ذلك أن الاستعارة إذا جرت في المشتقات وقد عرفت أن أصلها التشبيه، فالغرض إنما هو تشبيه المعاني المستقلة التي تضمنتها المشتقات غالبًا مثلًا إذا قلت: ركب فلان كتفي غريمه فلان، فقد شبهت شدة لزومه إياه ومقهوريته له، فكأنك قلت:

لزومه إياه كركوب كتفيه، فاستعرت الركوب للزوم فيكون هذا الأصل مستعملًا في غير ما وضع له، فجميع الفروع تكون مستعارة تبعًا له، وكما تكون الاستعارة في المشتقات باعتبار المادة تكون باعتبار الهيئة فتستعار الهيئة الدالة على الزمن الماضي للزمن الآتي بجامع تحقق ما يحصل فيهما والإيقان به قال تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾[النحل: ١]، فبعث الناس للحساب وفصل القضاء بينهم وإيصال كل إلى مقره المعدّ له أمر يقع في الزمن الآتي، فعبارته الدالة عليه يأتي أمر الله فلكونه متحققًا يقينيًا قيل أتى أمر الله.

وقال تعالى: ﴿ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ٢] أي المتلبسين بالتقوى، وهي اجتناب ما نهوا عنه وامتثال ما أمروا به عند استماع الأمر والنهي، فاستعير ما يدل على التلبس بالفعل لما سيحصل التلبيس به، وربما كانت الاستعارة في موضوع الصفة كما إذا قلت فلان يرى مضربه كمقتله فهو يفزع من ذلك فزعه من هذا، أو إذا جرت الاستعارة في الحروف فالتشبيه يكون في المعاني الكلية مثلًا تقول ترتب عاقبة الشيء عليه مثل ترتب المعلول على علته فيكون كل ترتب جزئي مشبهًا لترتب جزئي، فتستعار حينئذ الحروف الدالة على الترتيبات الجزئية العلية لترتبات العاقبة، قال تعالى: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[القصص : ٨]، فالغرض من التقاط موسى الانتفاع به كما ينتفع بالأبناء، ولكن ترتب على التقاطه عداوته لهم وأحزانه إياهم فوقعت العاقبة موقع الغرض فعبر عنها بعبارته.

والاستعارة بالكناية أو المكنية أي المستورة لا تكون مذكورة في الكلام، وإنما يذكر مع المستعار له بعض خواص المستعار منه فيدل

عليها وهو قرينة الاستعارة، وتارة يكون لفظ القرينة مستعارًا أيضًا، وتارة لا يكون مستعارًا ومع ذلك يسمى في الاصطلاح استعارة تخييلية. قال تعالى ﴿ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾[الرعد: ٢٥]، فالعهد مشبه بالحبل فإن الدين يعصم القلوب من افتراق الأهواء ما بقى على حالته، كما يمنع الحبل الحزمة من تفرق عيدانها ما بقى على متانته والتواء بعض طاقه على بعض، فالحبل المستعار لم يذكر وذكر النقض الذي هو تفريق طاقات الحبل وإزالة صورته وهو مستعار لتفريق الدين وإبطال صورته، فقرينة المكنية فيه استعارة تصريحية تبعية وفي قول لبيد:

وغداة ريح قد وزعت وقرة قد أصبحت بيد الشمال زمامها

تشبيه المشال والبرد بإنسان وناقة أمسك بزمامها فهو يقبل بها تارة ويدبر تارة، فاليد والزمام غير مستعارين لشيء غايته أنه يوقع في الخيال للقرة زمامًا وللشمال يدًا، والترشيح التقوية والمرشحة مقواة بذكر ما يلائم المشبه به. قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾[البقرة: ١٦]، فحديث ربح التجارة يقوّي استعارة الاشتراء، والتمثيل جعل مثال للشيء يكون على صورته وهيئته جملته كجملته وأجزاؤه كأجزائه، والاستعارة التمثيلية كذلك فمن قال:

أرى ماء وبي ظمأ شديد ولكن لا سبيل إلى الورود

مكان أن يقول: أعلم أن الحبيب وراء هذه الجدرانات العالية ودونه هذا الحرس الشديد فأنا على ما بي من حرارة الشوق وشدة الولع لا يمكنني الوصول إلى مغازلته والراحة بالمحادثة معه، فقد شبه حالة المحب هذه بهيئة ظمآن شديد الظمأ واقف على رأس جدار عال تحته ماء وليس له درج فهذه الصورة مثال تلك الصورة، ولما كان في التشبيه من

تصوير الحال والتأثير في النفوس ما لا تبلغه العبارات الأصلية كثر في الكلام كثرة بالغة لا تكاد قصة من الكلام العالي تخلو منه، وكلما كان التشبيه أغرب وأكثر معاني كانت النفوس له أميل وبه أبهج.

وسنورد عليك له أمثلة تكون منزلة رياض نضرة تنزه فيها خاطرك وترتاح إليها نفسك. قال تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ﴾[الإنسان: ١٩]، فإن تصوير حال الولدان من كونهم في الجمال والملاحة متشابهين لا يتميز بعضهم عن بعض بحيث لا تتناول العين الإ ملاحة ولا تجد النفس إلا بهجة باللؤلؤ المنثور لا يكون بأن يقال ولدان حسان رائعون يشبه بعضهم بعضًا في الجمال، وقال: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾[الواقعة: ٢٢،٢٣] أي اللؤلؤ في صدفه أو المحفوظ عما يغير نضارته ويكدر صفاء مائيته، ولما كانت الحور مقصورات في الخيام وكان الولدان مترددين في وظائف خدمهم كان اللؤلؤ المكنون مثل الحور وكان مثل الولدان اللؤلؤ المنثور.

وقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾[النور: ٣٩]، وقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾[إبراهيم: ١٨]، وقال: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[الفرقان: ٢٣] أعمال الكفار من عبادة الأصنام في العرب بأنواع العبادات التي ما لا يضر منها لا ينفع، وعبادة الهنود النار والماء والبقر والكواكب، ومعاناتهم الشدائد في ذلك أعمال باطلة لا تستعقب خيرًا غير أنها في ظاهر الأمر أعمال بر وانقياد وتسليم أنفس وأموال في طاعة الله، فضرب لها المثل من

حيث ظاهرها المطمع وباطنها المحسر بالسراب، وضرب الرماد وهو ما يبقيه إحراق النار حيث تطير به الريح الشديدة، مثلًا ليأسهم من الانتفاع بها وكذلك الهباء المنثور، ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: ١١٢]، وقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾[الفتح: ٢٩]

اعلم أن الخالق البارئ المصور قد أودع كل نوع من أنواع مخلوقاته سرًا إليه ينسب جميع ما يظهر صدوره منه في مسكنه نسبة الفعل إلى الفاعل، وبإزاء ذلك السر ومسكنه يوضع اسم النوع مثلًا نوع الإنسان نوع مستوى القامة عريض الإظفار ماش على رجليه عامل بيديه دائم الفكرة في الماضي والحاضر ونتائجهما الآتية إلى غير ذلك من الخصائص الإنسانية، فهي منسوبة لذلك السر المسمى إنسانًا.

وله باعتبارات مختلفة عدة أسماء فباعتبار لطفه ومشابهته الريح يسمى (روحًا)، وباعتبار استضافة الأجزاء التي يزداد بها حجم مسكنه يسمى (غازيًا ناميًا)، وباعتبار إفاضته الصورة يسمى (قوة مصورة)، وباعتبار حفظ الصور والمعاني يسمى (عقلًا).

وهكذا بقية الأسماء واعتباراتها فاسم الزرع موضوع بإزاء السر الذي يذهب بأعضاء النبات ممتدًا إلى الجهات المختلفة على الحدود المعينة إلى الغاية التي له، والشطأ هو المادة الحافظة له في الحبة والنواة وغيرهما، فمتى أسكنت الحبة رحم الأرض مع استيفاء شرائط النبات وجد ذلك السر مساغًا لتمديد ما معه واستضاف الأجزاء المتناسبة موزعًا

لها على أحيازها الطالبة لها حتى يكون شخص تام قائم على صورته الخاصة به فيكون شيئًا واحدًا ذا أجزاء مؤتلفة منتظمة الأعمال على نهج واحد ضرب الزرع مثلًا لأمة سرها الدين الحق الذي بدأها بواحد، ثم لم يزل يستضيف الواحد إلى الواحد والجملة إلى الجملة حتى قامت أمة مؤتلفة القلوب مجتمعة الألسنة ساعية في طريق واحدة إلى غاية ينظر إليها الكل على السواء، فأنت تجد التمثيل لها بالزرع مفيدًا مع الاختصار من الارتباط ووحدة المقصود مالا يعطيه أن يقال أمة مؤتلفة إلى آخر ما يقال من العبارة عن المعاني التي يحصرها عند فكرك التمثيل بالزرع، وفي هذا المعنى قوله- صلى الله عليه وسلم -: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»، وقوله: « المؤمن لأهل الإيمان بمنزلة الرأس للجسد»، وقوله: « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»، هذا وعليك بإطلاق الفكر في سائر التشابيه القرآنية التي هي بمنزلة الشمس من التشابيه إذ كانت صادرة عن اللطيف الخبير الذي لا تخفى عليه خافية.

وقال عليه الصلاة والسلام: « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»، وقال: « أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر»، وقال: « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم)، وقال: (ما أنتم في غيركم إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود»، وقال: « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذاك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي

أرسلت به»، وقال: « العالم في قومه كالنبي في أمته»، فأي عناية تلزم طالب الأدب باعتبار مقاصد التشبيه الذي شرفه بالاستعمال الكلام المقدس الصادر عن الحضرة الإلهية والصادرة عن حضرة الرسالة.

ثم أن الشعراء لهجوا قديمًا وحديثًا باستعماله على تفاوت عظيم بينهم في توقيعه في مواقعه وتزيينه بقرائن يناظر بعضها بعضًا في الملاحة، حتى أنه ربما كان التشبيه من المبتذلات فتجعله القرينة اللطيفة من المستغربات كقول أبي الطيب:

لم تلق هذا الوجه شمس نهاره ... إلا بوجه ليس فيه حياء

كثر على ألسنة الشعراء قديمًا التشبيه بالشمس قال النابغة الذبياني:

فإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقال العباس بن الأحنف:

هي الشمس مسكنها في السماء ... فعز الفؤاد عزاء جميلا

فلن تستطيع إليها الصعود ... ولن تستطيع إليك النزولا

فأحسن أبو الطيب التصرف فيه حيث أثبت ونفى ورفع وخفض، وإذا كان وجه التشبيه خفيًا وجب ذكره وإلا فالأحسن حذفه حتى لو زاد ظهوره كانت الاستعارة أحسن من التشبيه، فالأحسن لمن حصّل علمًا وانزاحت عنه شبهة أن يقول قد انزاحت عن قلبي ظلمة وامتلأ نورًا دون أن يقول شبهة كالظلمة وعلمًا كالنور، قال الطغرائي:

أبذل فإن المال شعر كلما ... أوسعته حلقًا يزيد نباتا

فتشبيه المال بالشعر في أن إزالة كل توجب تكاثره من التشابيه الغريبة التي لا تؤهلها إلا الفطنة بعد الفطنة.

ومما ينتهي بك إلى غاية معرفة ما بين الشعراء من التفاوت الأمر الواحد يتناول تشبيهه العدد الكثير منهم؛ وهذا أنموذج ذلك الثريا مصغر ثروي بالقصر امرأة ثروي كثيرة المال، وهواسم الكوكب الذي غلب عليه اسم النجم كما نعرفه من قول العربي: إذا طلع النجم عشاء ابتغى الراعي كساء

وهو مجموع كواكب صغار متقاربة منها ستة ظاهرة والسابع خفي يختبر الناس به حدة البصر، وكان أكمل الناس في جميع أحواله نبينا - صلى الله عليه وسلم - يعد الثريا أحد عشر كوكبًا.

أكثر الشعراء من العرب وغيرهم تشبيهه قال الهيثم بن عدي أحد علماء الأدب في الصدر الأول: كنا عند صالح بن حسان فقال: أنشدوني أحسن بيت في تشبيه الثريا، فقال قائل: بيت عبد الله بن الزبير كأمير من شعراء بني أمية:

وقد لاح في الغور الثريا كأنما به راية بيضاء تخفق للطعن

فقال صالح: أريد أحسن من هذا، فقيل بيت امرئ القيس:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

فقال: أريد أحسن من هذا، فقيل بيت ابن الطثرية:

إذا ما الثريا في السماء كأنما جمان وهي من سلكه فتسرعا

فقال: أريد أحسن من هذا، فقال الحاضرون ما عندنا شيء، فقال صالح: بيت أبي قيس ابن الأسلت:

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى   كعنقود ملاحية حين نوّرا

فهؤلاء من شعراء العرب جاهليان أبو قيس وامرؤ القيس، وأمويان يزيد بن الطثرية وعبد الله بن الزبير، وإنما كان تشبيه ابن الأسلت أحسن لكونه تضمن جميع أحوال النجم من شكل المجموع وشكل الأجزاء ومقاديرها في رأي العين وهيأتها الوضعية وقرارها في موضعها، فقد أمعن النظر قبل التشبيه ولذلك افتخر بقوله لمن رأى فليست حشوًا، والملاحية بضم الميم وتخفيف اللام أو تشديدها نوع من العنب الأبيض في حبه طو،ل وامرؤ القيس فاته بعض ذلك مع اشتمال بيته على ما ليس له دخل في التشبيه فإن مخلص لفظ التشبيه الثريا كقطعة من وشاح مفصل، وفي بيت ابن الطثرية الحركة في المشبه به مفسدة للتشبيه، وأنزل هذه التشابيه تشبيه ابن الزبير.

ويروى بيت ابن الطثرية:

جمان وهي من سلكه فتبددا   وهو أحسن.

و قال ذو الرمة:

ومن تشابيه المولدين للثريا قول ابن المعتز:

قد انقضت دولة الصيام وقد   بشر سقم الهلال بالعيد

يتلو الثريا كفاغر شره   يفتح فاه لأكل عنقود

وقوله:

زارني والدجى أحم الحواشي   والثريا في الغرب كالعنقود

وهلال السماء طوق عروس بات يجلى على غلائل سود

وقوله:

أتاني والأصباح يرفل في الدجى بصفراء لم تفسد بطنج وإحراق
فناولنيها والثريا كأنها جنى نرجس حيا الندامى به الساقي

وقول أبي الفرج: الببغا من شعراء اليتيمة المتكسبين بالشعر:

خذوا من العيش فالأعمار فانية والدهر منصرف والعيش منقبض
في حامل الكاس من بدر الدجى وفي المدامة من شمس الضحى
كأن نجم الثريا كف ذم كرم مبسوطة للعطايا ليس تنقبض

وقول الصنوبري:

في الشرق كأس وفي مغاربها قرط وفي أوسط السما قدم

ولبعضهم في شكاية طول الليل:

كأن الثريا راحة تشبر الدجى لتنظر طال الليل أم قد تعرضا
عجبت لليل بين شرق ومغرب يقاس بشبر كيف يرجى له انقضا

وقول الأشهب بن رميلة:

ولاحت لساريها الثريا كأنها لدى الأفق الغربي قرط مسلسل

فهذا أحسن ما قيل في تشبيه الثريا. قال بشار بن برد وهو من شعراء الدولتين الأموية والعباسية: مازلت منذ سمعت قول امرئ القيس في تشبيه شيئين بشيئين:

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدي وكرها العناب والحشف البالي

أعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين حتى قلت:

كأنَّ مثار النقع فوق رؤسنا — وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وتشبيه بشار هذا من آحاد التشابيه.

يحكى أنه قيل لبشار: من أين جاءك هذا التشبيه ولم تر الدنيا قط؟ فإنه ولد أعمى فقال: إن عدم الاشتغال بالمنظورات يوفر الحس ويقوي الذكاء وأنشد لنفسه:

عميت جنينًا والذكاء من العمى — فجئت عجيب الظن للعلم موئلا

وغاض ضياء العين للعلم رافدًا — لقلب إذا ما ضيع الناس حصلا

وشعر كنور الروض لائمت بينه — يقول إذا ما أحزن الشعر أسهلا

وقد استعمل بشار هذا التشبيه ونزل فيه درجة في قوله مخاطبًا:

خلقت سماء فوقنا بنجومها — سيوفًا ونقعًا يقبض الطرف اقتما

ثم إن الشعراء مشوا على أثر بشار في هذا التشبيه قال منصور النميري:

ليل من النقع لا شمس ولا قمر — إلا جبينك والمذروبة الشرع

وقال مسلم ابن الوليد:

في عسكر تشرق الأرض الفضاء به — كالليل أنجمه القضبان والأسل

وقال ابن المعز وترك الليل والنجوم:

إذا شئت أوقرت البلاد حوافرًا — وسارت وراءي هاشم ونزار

وعم السماء النقع حتى كأنه — دخان وأطراف الرماح شرار

وقال المتنبي:

فكأنما كسى النهار بها دجى ... ليل واطلعت الرماح كواكبا

فهؤلاء فحول الشعراء المعدودون ينبغي أن تتأمل كيف حالهم في المشي على أثر ذلك الشاعر الفريد، وقد ضربت صفحًا عن كثير تناولوا ذلك التشبيه كيفما تأولوه، وبيت بشار المذكور من قصيدة موجود بعضها في الكتب وهي من الشعر الرصين الذي يعرب عن نفسه بدرجة براعته، فرأيت إثبات ما وجدت منها ليتخذه طلاب الأدب سراجًا يمشون في ضوءه قال:

جفا وده فاز وراومل صاحبه ... وأزرى به أن لا يزال يعاتبه

خليلي لا تستكثرا لوعة الهوى ... ولا سلوة المحزون شطت حبائبه

إذا كنت في كل الأمور معاتبًا ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعش واحدًا أوصل أخاك فإنه ... مفارق ذنب مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذا ... ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

رويدا تصاهل بالعراق جيادنا ... كأنك بالضحاك قد قام نادبه

ومنها:

وسام لمروان ومن دونه الشجا ... وهول كلج البحر جاشت غواربه

أحلت به أم المنايا بناتها ... بأسيافنا أنا ردي من نحاربه

وكنا إذا دب العدو لمخطنا ... وراقبنا في ظاهر لا نراقبه

ركبنا له جهرًا بكل مثقف ... وأبيض تستسقي الدماء مضاربه

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصا ... وبالشوك والخطى حمرًا ثعالبه

ومنها:

بعثنا لهم موت الفجاءة أننا　　بنوا الموت خفاق علينا سبائبه
فراحوا فريق في الأسارى ومثله　　قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه
إذ الملك الجبار صعَّر خده　　مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

قال بعض رجاز العرب:

* والشمس كالمرآة في كف الأشل *

ومنه أخذ القاضي الفاضل قوله:

والشمس من بين الأرائك قد حكت　　سيفًا صقيلًا في يد رعشاء

والشهاب التلعفري قوله:

أفدى الذي زارني في الليل مستترًا　　أحلى من الأمن عند الخائف
ولاحت الشمس تحكي عند مطلعها　　مرآة تبربدت في كف مرتعش

وإدريس بن اليماني العبدي قوله:

قبلة كانت على دهش　　أذهبت ما بي من العطش
ولها في القلب منزلة　　لوعدتها النفس لم تعش
طرقتني والدجا لبس　　خلعًا من جلدة الحبش
وكأن النجم حين بدا　　درهم في كف مرتعش

ومن التشبيه نوع سموه تشبيهًا ضمنيًا أو مكنيًا عنه كقول أبي الطيب يخاطب سيف الدولة ابن حمدان:

رأيتك في الذين أرى ملوكًا　　كإنك مستقيم في محال
فإن تفق الأنام وأنت منهم　　فإن المسك بعض دم الغزال

فقد تضمن احتجاجه لدعواه تشبيه الممدوح بالمسك في أن كلًّا مباين لا صلة بخصائص جعلته حقيقة منفردة، واستعمل هذا التشبيه مرة ثانية في نفسه حيث يقول:

وما أنامتهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

ومن الطرائف ما يحكى أن بعض الناس قال لأبي الطيب: أن القافية ألجأتك إلى مقابلة المستقيم بالمحال وإنما يقابله المعوج، وماذا كنت تقول في قافية البيت الثاني لو قلت في الأول كأنك مستقيم في اعوجاج، فقال: كنت أقول فإن البيض بعض دم الدجاج، ثم أن المقابلة صحيحة إذا المحال في اللغة هو المصروف عن جهة قصده فهو معوج والمحال بمعنى الممتنع استعمال اصطلاحي بين أهل علم الكلام وليس لغويًا.

ومثل قول محمد بن وهب:

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

يسعى التشبيه المقلوب، ومثل قول أبي الطيب:

بدت قمرًا ومالت خوط بأن وفاحت عنبرًا ورنت غزالا

التشبيه المفروق، ومثل قول امرئ القيس:

* كان قلوب الطير *

التشبيه الملفوف، ومثل قوله:

حملت رديئيًا كأن سنانه سنى لهب لم يتصل بدخان

تشبيه التفصيل، وقد يترك التشبيه إلى الحكم بالتشابه فرارًا من ترجيح أحد المتساويين في رأي المتكلم مثل قول الصاحب إسماعيل بن عباد:

رق الزجــاج وراقــت الخمــر فتــشابها وتــشاكل الأمــر
فكأنمــا خمــر ولا قــدح وكأنمــا قــدح ولا خمــر

وعن هذا المعنى عبر بعض المغاربة بقوله:

خفيــت علــى شــرابها فكأنمــا يجــدون ريــا مــن إنــاء فــارغ

ومثل قول أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ:

تــشابه دمعــي إذ جــرى ومــدامتي فمــن مثــل مــا فــي الكــاس عينــي
فــوالله مــا أدري أبــالخمر أســبلت جفوني أم عن عبرتي كنت أشرب

ومن المشبه به ما يكون أمرًا وهميًا يحصل به غرض التشبيه كقول امرئ القيس في تشبيه النبال:

* ومسنونة زرق كأنياب أغوال *

يحكى أن بعض الملحدين الذين يتهالكون في طلب مثلبة يميلون بها إلى القرآن، قال في مجلس بعض الملوك: ما حسن التشبيه بما لا يعرفه الناس في قوله:

* طلعها كأنه رؤوس الشياطين *

فقال بعض العلماء الحاضرين: انصبوا لي منبرًا أجيب فوقه عن مسألة هذا فلم يزد حين علاه أن أنشد قول امرئ القيس، هذا فحرس الملحد وفرح المجلس، وقد شبه بعضهم بأمر اخترعه كقول الصنوبري:

وكــان محمــر الــشقيق إذا تــصوب وتــصعد
أعــلام يــاقوت نــشرن علــى رمــاح مــن زبرجــد

كقول القاضي التنوخي وهو من العبارات النيّرة:

وراح من الشمس مخلوقة تضمنها قدح من نهار
هواء ولكنه جامد وماء ولكنه غير جار
كأن المدير لها باليمين إذا مال بالشرب أو باليسار
تدرع ثوبًا من الياسمين له فردكم من الجلنار

وهذا وإن كان حسنًا لكنه ليس في الفضل مثل قول ابن الرومي:

ولازوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار في أطراف كبريت

فالتشبيه بين الأشياء المحققة أدل على النباهة وأعجب للنفوس، ووقع هذا التشبيه لشاعر آخر ولكن ليست عبارته في سلاسة عبارة ابن الرومي قال:

بنفسج بذكى المسك مخصوص ما في زمانك إن وفاك تنغيص
كأنما شعل الكبير منظره أوخد أغيد بالتخميش مقروص

هذا وليس كل ما ثيه الكاف أو كان يعد في نظر أهل صناعة الكلام العارفين بها الواقفين على أسرارها الملتفتين إلى دقائقها، وإنما التشبيه ما جلت فائدته وحسن موقعه من غرضه واعتبر هذا بتشبيهات نختم بها شواهد التشبيه، قال بعض العرب:

ولما بدا إلي منك ميل مع العدى علي ولم يحدث سواك بديل
صددت كما صد الرمى تطاولت به مدة الأيام وهو قتيل

والراشدين حكيمة الكاتب حيث انتهت به السن إلى ضعف عضو التناسل:

ينام على كف الفتاة وتارة ... له حركات لا يحسب بها الكف
كما يرفع الفرخ ابن يومين رأسه ... إلى أبويه ثم يدركه الضعف

ولم يبق في أيدي الناس إذ ذاك من شعر راشد هذا الإ شعره في هذا المعنى وهو كثير وفيه محاسن وتناقله المؤلفون في كتب الأدب. وقال ابن الرومي:

ما أنسى لا أنسى خبازًا مررت به ... يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... في صفحة الماء يلقى فيه بالحجر

وقال ابن رشيق:

ومهفهف يحميه عن نظر الورى ... غير أن سكنى الملك تحت قبابه
أو ماء إليّ أن ائتني فأتيته ... والفجر ينتظر من خلال سحابه
فضممته للصدر حتى استهويت ... مني ثيابي بعد طيب ثيابه
وكان قلبي من وراء ضلوعه ... طربًا يخبر قلبه عما به

ومن أحسن التشابيه في خفقان القلب قول من قال:

ولي كبد حرًا ونفس كأنها ... بكف عدو ما يريد سراحها
كان على قلبي قطاة تذكرت ... على ظمأ وردا فهزت جناحها

والتشبيه الذي يكون المشبه به فيه مركبًا فيكون وجه الشبه منتزعًا من المجموع يسمى تشبيه التمثيل، فمتى حذفت منه المشبه والأداة صار

استعارة تمثيلية، ومتى صلح لأن يستعمل في مواضع كثيرة استشهادًا أو ا
سترواحًا وتأسيًا سمي مثلًا قال:

كما أبرقت قومًا عطاشًا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت

وقال آخر:

هجرتك لا قلا مني ولكن رأيت بقاء ودك في الصدود
كهجر الحائمات الورد لما رأت أن المنية في الورود
تفيض نفوسها ظمأ وتخشى حمامًا فهي تنظر من بعيد

فلو قلت هجرت الحائمات الورد حين رأت الأرصاد فهي تنظر سبب حياتها وتخشى سبب موتها كان استعارة تمثيلية، كما قيل أخذًا من هذا أرى ماء البيت وكفاك هذا القدر من أمثلة التشبيه معيارًا تعرف به جودة ما يرد عليك منه.

ولنمض بك حينئذ في أمثلة الاستعارة قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء:٨١] الباطل هو الأحكام التي من جهتها يدخل الفساد على الحالة التي هي صلاح الكافة وبضدها تتميز الأشياء فالحق خلاف الباطل وزهوق نفس الحي مفارقتها بدنه، والباطل ليس حيوانًا فيكون لفظ الزهوق مستعملًا في غير ما وضع له وهو اضمحلال الباطل وذهابه من الكون، فيعرفنا هذا أن الباطل قد شبه بذي روح يكون به حيًا يعمل أعماله التي أعده الله لعملها وتفارقه فلا يستطيع عملًا، فالاستعارة مكنية حيث كان المذكور في الكلام من طرفي التشبيه هو المشبه والمشبه به غير مذكور مشار إليه بما هو له خاصة

وذلك هو المسمى قرينة المكنية، ويظهر لك من التقرير أنه هنا استعارة تحقيقية تصريحية تبعية.

وهذا الكلام مع شدة اختصاره يفيد بسبب الاستعارة المكنية مالا تفيده الحقيقة التي هي ذهب الباطل، ومن لم يكن آتاه الله علم أسرار الصناعة الكلامية يخيل له أن الكلام لو كان جاء الحق وذهب الباطل كان مشتملًا على حسن المطابقة التي هي من الوجوه التي تكسو الكلام حسنًا كما يعرب عنه فن البديع ويكون كقوله قبل ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾[الإسراء:٨٠].

وبيان ما تفيده الاستعارة المكنية هو تصويرها لفكر المتعقل الباطل في صوره، وقوة الحق الذي يبطلها ويزيلها وأنه يجب أن يكون إلهيًا. ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[الأنفال: ٦٣]، ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾[الأنفال : ١٧]، وطريق تصوير الباطل في صورة أنه لما شبه بذي روح دون تخصيص حيوان أوجب أن يلتفت فكرك إلى سائر أنواع الحيوان وخواص كل نوع وحينئذ تقول: الباطل مثل السباع العادية افتراسًا مجاهرة أو ختلًا أو بالمكر والحيلة، فتشبه باطلًا بأسد وباطلًا بذئب وباطلًا بثعلب وباطلًا بغراب وحدأة وباطلًا بثور وحمار إلى غير ذلك، وأشد الباطل وأنكره ما يكون شبه الإنسان حيث كان الإنسان جامعًا لسائر خصائص جميع الأنواع، فالبعض يعمل بالقهر والعدوان والسلاطة، والبعض بالمكر والحيلة والتملق، والبعض بالاختلاس والاختتال والاختطاف مثلًا قبلية طئ أو قبيلة نمير كثر فيها العدد والعدد وقبائل أخرى دونها، فكان من أحكامها الباطلة التي تنفذها بالقهر والسلاطة فتشبه السبع أنه إذا قتل

واحد من القبيلة الضعيفة واحدًا من القبيلة القوية فإما أن يطلبوا منهم للقتل في نار قتيلهم عشرة أو عشرين، فإن سلموا وإلا صبحتهم الخيل بالغارة فقتلوا الرجال وسبوا النساء جواري والأولاد عبيدًا فربما أفنت قبيلة قبلية وإن حر الضعفية وإن لم يكن القاتل بعبد القوية وإن الشيء المغصوب يسترد مضاعفًا إلى غير ذلك من الأحكام التي تطلعك عليها تواريخ تلك الأمة.

ومن الباطل الذي يحسن تشبيهه بحيوانات المكر والحيلة والختل ما يصدر عن الأشخاص الذي يفترون على الله الكذب فيدّعون أنه تعالى شأنه اختصهم بأسرار أهلتهم ليكونوا رؤساء ينظرون في مصالح جمع من الناس وتكميل أرواحهم، ويجعلون ذلك طريقة إلى أغراضهم وشهواتهم باستعباد ذلك الجمع وتسييره في تحصيلها مخيلين لهم أنهم في طاعة خالقهم، ومن باطل بعض هؤلاء ما يحسن تشبيه بالإنسان، وأما الباطل الذي يحسن تشبيه بأغبياء الحيوانات فهو باطل أولئك الناس الذين يريدون التوصل إليه بالانحياز إلى بعض الظلمة وما أشبه ذلك:

ومن يجعل الضرغام بازًا لصيده تصيده الضرغام فيمن تصيدا

ومن أراد أن يقدر كلام الله حق قدره ويعرف مقاصد البلغاء المعدودين لزمه أن لا ينصرف بالنظرة الحمقاء بل يكرر الفكر مرة بعد مرة ووقتًا بعد وقت حتى يقف على أسرار البلاغة.

قال صاحب المثل السائر: كنت أقرأ في اليوم ختمة ثم في الشهر ثم في السنة ثم ها أنا أقرأ في ختمة منذ كذا وكذا سنة ولم أفرغ منها وكلما أعدت النظر ظهر لي ما لم يكن قبل ظهر، وقد جاءت هذه الاستعارة مقرونة بأخرى في قوله جل ذكره: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ

فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[الأنبياء: ١٨]، ففيه استعارتان مكنيتان من جهتهما يخرج بك الفكر إلى تلك المعاني، فتفاوت الباطل الذي هو كتفاوت الحيوانات يوجب التفاتك إلى التفاوت بين الأحجار المقذوفة، فالفيل لا يدمغه الحجر الذي يدمغ الثعلب.

وبما تقرر تعرف أنه لا يصح الاقتصار على أن تقول شبه كذا بكذا واستعير كذا لكذا، وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الإسراء: ٨٢] كلمة الشفاء التي معناها زوال المرض تخبرنا أن في الآية استعارتين: فإن كان المعنى وننزل من القرآن آيات تشفي الجهلاء المؤمنين فالاستعارتان مكنيتان الأولى أصلية والثانية تبعية، وإن كان المعنى وننزل من القرآن أدوية تشفي المرضى المؤمنين فالاستعارتان مصرحتان أصلية وتبعية.

وفيه كما صار لا يخفى عليك التنبيه على تفاوت الجهالات والبراهين كتفاوت الأمراض والأدوية فمن الجهل ما يزول بالإشارة، ومنه ما يحتاج زواله إلى العبارة وربما لم يجد إلا تضافر الأدلة وينوّر عليك هذا النظر إلى مبدأ تحصل أمة الإسلام، وذلك أن رجلًا على أكمل ما يكون من خصائص الإنسانية قام يدّعي أن أمرًا سماويًا جاءه بغتة يعلمه ليعلم الناس ويرشدهم إلى مصالحهم فارتاع وكان أول من أخبر بما رأى السيدة خديجة فآمنت به - صلى الله عليه وسلم - - ورضى عنها- قائلة: " كلا والله لا يخزيك الله أبدًا أنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق".

فهذه السيدة وأشباهها من المؤمنين اكتفوا في تصديق دعواه بتصور أن من كان من الكمالات في تلك الدرجة لا يكون أمره شيطانيًا، وغير هؤلاء احتاجوا إلى إبانات وتنويرات مختلفة حسبما يظهر لك من الاطلاع على تواريخ إسلام المسلمين حتى قيل: "أقل الإيمان فضلًا الإيمان عن المعجزة ". وقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[البقرة: ٥] على حرف موضوع ليستعمل في ارتباطات جزئية بين شيء وما قرّ فوقه الجبال على الأرض وجدار على أساس وإنسان على دابة والهدى، هنا هو الأمر الذي كان سببًا في جزم المؤمن بحقيه ما أمر به من اعتقاد وقول وعمل وإن ذلك يصل به من السعادة إلى الغاية التي أعدت له، فإن كان الغرض تشبيه ارتباط المؤمن بذلك السبب الذي هو البرهان أو العيان الكشفي بالارتباط بين الجبل والأرض مثلًا فالاستعارة تبعية، فإن فكرك يقول الارتباط كالارتباط وهذا الارتباط المطلق الذي جرى فيه التشبيه ليس معنى الحروف ولكن جزئياته، وإذا جرى تشبيه المطلق بالمطلق فالبتة يحصل تشبيه الجزئيات بالجزئيات. فالحاصل مدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب إلى آخره بالثبات وتمام الاستقرار كما هو صفة الجبال ولا يذهب عليك ملاحظة الإشارة إلى التفاوت، وإن كان الغرض تشبيه الهدى الذي يصل بصاحبه إلى تلك الغاية بالمطية التي تصل براكبها إلى مقصده فالاستعارة مكنية، ومن قبيل هذه الاستعارة قولهم ركب مطية الجهل وغوى واقتعد غارب الهوى وقوله:

صحا القلب عن سلمى وأقصر وعرى أفراس الصبا ورواحله

وقال تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾[البقرة:٧] الختم والطبع يدل على تشبيه القلوب بصناديق مثلًا ففي الكلام استعارة مكنية قرينتها لفظ ختم، فيفيد الكلام أن أولئك بمنزلة الجمادات بحيث أنها لو كان فيها شيء لم تكن منتفعة به وقد جعلت بحيث لا يمكن أن يدخل فيها شيء فلا يطمع طامع في إيمانهم، وعلى تشبيه القلوب بالمستودعات أو المساكن مثلًا قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾[الحجرات: ١٤]، وقال عليه الصلاة والسلام: « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » إذا قلت أدخل فلان يده في جحر فلدغته لادغة ثم أعادها فلدغته مرة ثانية، فتلك استعارة تمثيلية أصلها أن تشبه بهذه الحالة حالة من يصاب بمكروه من أمر ثم يحمله فرط الشهوة والطمع على مغالطة نفسه فيعود فيصاب بما أصابه، مثلًا: يأكل إنسان طعامًا يستلذه فلا يوافق مزاجه فيمرضه فتحمله اللذة منه على أن يقول ذلك: الوقت كان حارًا وقد برد الزمن أو كان ذلك الانحراف عن الاعتدال بسبب آخر. يحكى أن الجاحظ كان على مائدة بعض الأمراء ومعهم حكيم فنهى الجاحظ عن الجمع بين اللبن والسمك، فقال الجاحظ: إن كانا حارين أو باردين فالأكل منهما كالإكثار من أحدهما، وإن كانا مختلفين عدل بعضهما بعضًا. فقال الحكيم: أعرف أن هذا يحصل عنه في العادة الفالج ولست خطيبًا، فأصبح الجاحظ مفلوجًا عفا الله عنه.

والاستعارة في كلام الله تعالى وفي كلام نبيه تجاوز حد الكثرة، وبمعرفتك معاني الألفاظ الأول فمتى وردت عليك الكلمة غير مستعملة

في معنى أوّلي لها لزمك أن تقارن بين المعنيين متفكرًا في الأمور المشتركة بين المعنيين لتعرف الغرض من الاستعارة.

وهذه أمثلة للاستعارة من أشعار البلغاء قال امرؤ القيس:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

شبه الحسناء المصونة في النضرة وطيب الملمس بالبيضة المحضونة فالاستعارة مصرحة مجردة، وفي قوله لا يرام خباؤها وصف نفسه بغاية الشجاعة ونهاية الجسارة وعدم المبالاة بما يكون كيفما يكون، فإنه يقول أن خباءها ممنوع حوله الحرس معتقلين الرماح قابضين على السيوف بحيث لا يرومه ويطلب الوصول إليه أحد، وقد وصلت إليه وقضيت منه مآربي على مهلة واطمئنان كما صرح ببعض ذلك في قوله:

فقلت يمين الله أبرح قاعدًا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

وهذا من الكناية كما ستقف عليه عند شرحها وقال:

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطي بصلبه وأردف إعجازًا وناء بكلكل

أراد أن يصف حاله من أن وساوس الأفكار وبلابل الهموم لم تزل تشتد في تقليبه من جنب إلى جنب فأودع ذلك في موج البحر، وأراد أيضًا أن يصف الليل بالطول كما هو حاله مع العشاق والمهمومين فجعله قارًا ثابتًا غير متحرك حيث شبه بالأشياء التي هي للبقاء واللبس فاستعار إرخاء السدول لإحاطة الظلم به كما استعار لها والغرض واحد يروك البعير العظيم الخلق الثقيل الجسم، والسدل بضم أوله وكسره الستر، والكلكل الصدر.

ومن استعارة بروك الجمل للثبات والقرار قول علي - كرم الله وجهه - وقد قيل له: " أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بتغيير الشيب ذلك والدين قل فأما وقد ضرب الدين بجرانه فامرؤ ونفسه". جران البعير بكسر أوّله ما أمام صدره ويضرب البعير بجرانه حيث يأخذ تمام راحته وقال زهير:

لدى أسد شاكي السلاح مقذف ... له لبدأ ظفارة لم تقلم

شاكي السلاح تامه، فاستعارة الأسد مرشحة باللبد والأظفار ولبدة الأسد شعره المتلبد على كتفيه حيث يكون في شبيبته وأوسط سنه، ولفظ السلاح جرى استعماله في المخالب والأنياب والقرون إلى غير ذلك من الأشياء التي خلقها الله للحيوانات تدافع بها عن نفسها، فلا يكون شاكي اسلاح تجريدًا، ويكون قوله أظفاره لم تقلم بمنزلة التفسير كأنه قال لدى أسد صحيح الأظفار والأنياب في أوان شدة قوته. وقال كثير عزة أو غيره:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدّت على ظهر المطي رحالنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

الأباطح تسيل بالماء والمأخوذ بأطرافه نحو الرداء فأيّ تصوير تصوّر هاتان الاستعارتان مواصلة الأحاديث بين الأحبة وأنها مع غاية فرح وأنس وملاعبة وسهولة سير الإبل واندفاعها فيه وحسن هيئة اجتماعها على كثرتها وملئها الأودية، ومن الاستعارة الأخيرة أخذ ابن المعتز قوله وقد فاتته سلاسة هاتيك العبارة في رئيس أحبته أعوانه:

سالت عليه شعاب الحي حين دعا ... أنصاره بوجوه كالدنانير

وفي كلمة على ما ليس في كلمة إلى وزيادة العربي لفظ الأعناق التي هي مظهر الحركة أفاد بها ابتهاجهم بذلك المنظر.

وقال القطامي من قصيدته التي يقول في نسيبها:

يقتلننا بحديث ليس يعلمه من يتقين ولا مكنونة بادي

فهنّ ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

نقريهم لهذميات نقدّ بها ما كان خاط عليهم كل زرّاد

القرى طعام الضيف ومن قرى ضيفه فقد أكرمه وحفظ عليه حياته وشد من قواه، والمحارب مهين لأعدائه مزيل حياتهم هادم قواهم، فالاستعارة التبعية التصريحية تهكمية وأصل هذه الاستعارة لعمرو بن كلثوم في معلقته:

نزلتم منزل الأضياف منا فأعجلنا القرى أن تشتمونا

قرينا كم فعجلنا قراكم قبيل الصبح مرادة طحونا

المرادة اسم آلة من ردي كرمي وزنًا ومعنى، وهي من الصخر الصلب.

ومن التهكمية قول بشار السابق:

مشينا إليه بالسيوف نعاتبه أصل العتاب معالجة الجلد

بالدباغ حتى يصلح فراشًا ولباسًا، وفي المثل إنما يعاتب الأديم ذو البشرة يضرب في النهى عن تأديب من لا يخاف على عرضه ولا يبالي بفوت شرفه نقل العتاب إلى ملاطفة الإخوان في التماس أعذارهم عما

يصدر من هفواتهم لتعود نقاوة أخوتهم وطهارة ذات بينهم وأين الملاطفة من طعن الرماح وضرب السيوف وسلب الأرواح. وقول بعضهم:

* تحية بينهم ضرب وجيع *

والسراج المنير في التهكمية قوله جل ذكره: ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢١].

ومن شريف الاستعارة وغريبها قول يزيد بن مسلمة بن عبد الملك في صفة فرسه:

عودته فيما أزور حبائي إهماله وكذاك كل مخاطر
وإذا احتبى قربوسه بعنانه علك الشكيم إلى انصراف الزائر

القربوس بفتحتين قائمة السرج، والشكيم واحدة شكيمة وهي الحديدة في حنك الفرس العربي ليس عنده جدار يسند إليه ظهره ولا وسادة فكان يقعدنا صبًّا فخذيه وساقيه ويدخل في حمالة سيفه أو غيرها مائلًا إلى خلف فذاك استناده وهو الاحتباء، ومن كناياتهم فلان تحل له الحبا أي هو شريف يقام له، والحبوة الاسم وفتح الحاء أكثر من ضمها.

وقال كثير في المدح بكثرة العطاء:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكًا غلقت لضحكته رقاب المال

الرداء صاحب الأزار ومجموعهما الحلة، والغمر كما يقال للماء الكثير يقال للثوب التام الشامل ماء غمر ورداء غمر، فليس الغمر كما قيل ملائمًا للعطاء وحده حتى تكون استعارة الرداء له مجردة، وقد استعار بعض العرب الرداء للسيف في قوله:

ينازعني ردائي عبد عمرو رويدك يا أخا عمر وابن بكر
لي الشطر الذي ملكت يميني فدونك فاعتجر منه بشطر

ولأبي الوليد الشاطبي في استعارة الرداء:

فوق خد الورد دمع من عيون السحب يذرف
برداء الشمس أضحى بعد ما سال يجفف

هذا وأمكن من نفسك أن أحسن التشبيه والاستعارة ما وقع موقعه من غرض تصوير حال المشبه والمستعار له والإبانة عنها بجزيل العبارة ولطيف السياق بحيث لا يكون قصد المتكلم إلى مجرد التشبيه والاستعارة كما هو كثير في كلام المولدين، فعليك أن تعتبر مواقعها بإطالة الفكر وإمعان النظر في كلام الله جل ذكره وفي كلام من يرد عليك بعض كلامه من شعراء العرب ومن حذا حذوهم واقتفى أثرهم من المولدين ليكون ذلك لك بمنزلة المحك تعرف به الزيوف من الصحاح الخلاص.

فمن جيد كلام المولدين مثل قول أبي طاهر البغدادي:

خطرت تكاد الورق تسجع فوقها إن الحمام لمولع بالبان
من معشر نشروا على هام الربى للطارقين ذوائب النيران

وهو مأخوذ من قول العربي:

يبيتون في المشتى خماصًا وعندهم من الزاد فضلات تعد لمن يقرى
إذا ضلّ عنهم طارق ورفعوا له من النار في الظلماء ألوية حمرا

ومثل قول المجد الأربلي:

أصغى إلى قول العذول بجملتي ... مستفهمًا عنكم بغير ملال
لتلقطي زهرات ورد حديثكم ... من بين شوك ملامة العذال

وهو مأخوذ من قول أبي الشيص:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس ... متأخر عنه ولا متقدِّم
أجد الملامة في هواك لذيذة ... حبًّا لذكرك فليلمني اللوَّم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغرًا ... ما من يهون عليك ممن أكرم

ومن قول أبي طاهر السابق قول بعضهم وزاد إحسانًا:

قال لي أكحل اللواحظ صف لي ... هيفي قلت يا رشيق القوام
لك قد لولا جوارح عينيك ... لغنت عليه ورق الحمام

وكان الصاحب ابن عباد كثيرًا ما يتمثل بقول عصربه عبد الله السلامي:

تبسطنا على الآثام لما ... وجدنا العفو من ثمر الذنوب

ويقول ما درى قائله أي درة رمي بها وأي غرّة سيرها وخلدها. وأقول استحسان كل شيء حسب موافقة الهوى كما قيل:

إنما تنجح المقالة في المر ... إذا صادفت هوى في الفؤاد

وأراد السلامي: أنه لولا الذنوب لم يمكن تحقق مسمى العفو وتحققه واجب حيث كان من الكمالات الإلهية ولكن الذنوب تثمر أيضًا العقاب، كما ترى أن أكثر الشهوات كما تثمر اللذة تثمر الألم.

وقد استلب السلامي قوله هذا من قول الحسن بن هانئ الحكمي المشهور بأبي نواس شاعر الرشيد:

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك واجد ربًا غفورا
ستبصر ان وردت عليه عفوًا وتلقى سيدًا ملكًا كبيرا
تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا

ولكن السلامى أوجز وأبدع قال مسلم بن الوليد في رثاء:

سلكت بك العرب السبيل إلى حتى إذا سبق الردى بك داروا
نفضت بك الآمال أحلاس المنى واسترجعت نزاعها الأمصار
فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة أثنى عليها السهل والأوعار

هذا الشعر في أرفع طبقة وصل إليها شاعر مثل حال الممدوح وأتباعه من استدامة تحصيل الكمالات واقتدائهم به في أعماله، وأنه لما تغمدته الرحمة لم يهتد العرب بعده إلى ما كان يفطنهم له بحال قوم ذوي رئيس قصدوا على أثره جهة شريفة، فلما غاب عنهم سيدهم رجعوا إلى منازلهم، والمنية وهي ما يحب الإنسان ويتمناه لما كانت تحمل صاحبها على مواصلة أعماله وتجدد آماله حسن تشبيهًا بالمركوب. والحلس بكسر فسكون كساء يجعل تحت البرذعة ونفض الحلس كناية عن الإقامة وتعطيل الدواب حيث لم تبق للسفر جدوى كالكناية في قولهم: ألقى عصا التيار، وفي قوله: فاذهب كما ذهبت من التفجع والتأسف مالا يبلغه قول أي مشكورًا لكل مكان محمودًا بكل لسان.

ومن أرصن الشعر وأشده قول عربي في المحاجاة:

وداهية داهي بها القوم مفلق شديد بعوراء الكلام أزومها

أضحت لها حتى إذا ما وعيتها رميت بأخرى يستدير أميمها
ترى القوم منها مطرقين كأنما تساقوا بكأس ما يبل سليمها
فلم ترني فها ولم تر حجتي مجلجلة أبغي لها من يقيمها

السليم: اللديغ، وأبل من مرضه: بريء، والأزوم: العض وإمساك الشيء بالأسنان، ومفلق: ذات فلق أي عجب، ودهاه: أذهله وحيره وأدهشه.

وعليك باستخراج الاستعارات ونسبتها إلى أجناسها وحيث كان حذف الأداة من تركيب التشبيه وسيلة إلى المبالغة بدعوى الاتحاد، والاستعارة كما عرفت في ذلك الغرض أقوى تسمع مثل قول العباس بن الأحنف هي الشمس مسكنها البيتين، وقول ابن العميد:

قامت تظللني من الشمس نفس أعز علي من نفسي
قامت تظللني ومن عجب شمس تظللني من الشمس

وقول بعضهم:

لا تعجبوا من بلى غلالته قد زر أزراره على القمر

الغلالة القميص، ويقال أن القمر يبلى ثياب الكتان.

وقول أبي تمام:

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماء

(القول في الكناية)

حدّ الكناية على التحقيق لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته أيضًا فيكون المراد إفادتهما جميعًا، وحينئذ يقال أنها حقيقة غير منفردة وتقابلها الحقيقة المجردة.

وتنقسم الكناية باعتبار المكني عنه إلى ثلاث أقسام:

القسم الأول

كناية يكون المكنى عنه فيها صفة كقول الخنساء:

طويــل النجــاد رفيــع العمــاد كثيــر الرمــاد إذا ماشــتا

فقولها طويل النجاد المراد به طويل القامة مدحًا ببسط الجسم، كما مدح بها تعالى في قوله: ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾[البقرة:٢٧٤]، وقولها رفيع العماد معناه كبير البيوت المرتفعة السموات وذلك إنما يكون للسادة الإشراف أي: هو سيد شريف، وقولها كثير المراد أي: هو كريم مضياف ونظم الكناية على طريق البرهان أن تقول كل من كان كريمًا مضيافًا كان كثير الضيوف، وكل من كان كثير الضيوف كان كثير الخبز والطبخ، وكل من كان كثيرهما كان كثير إحراق الخشب، وكل من كان كثيره كان كثير الرماد، فكثرة الرماد كناية عن الكرم بهذه الوسائط.

وكقول الخنساء أيضًا وقد أراد أخوها معاوية أن يزوّجها من دريد بن الصمة ولم يكن من غرضها:

تبــاكرني حميــدة كــل يــوم بمــا يــولى معاويــة بــن عمــرو

إذا لم أعط من نفسي خيارًا لقد أودى الزمان إذن بصخر
أتكرهني هبلت على دريد وقد حرمت سيد آل بدر
معاذ الله يرضعني حبركي قصير الشبر من جشم بن بكر

فقد استعاذت من تزوّجه كانية بالغاية عن البداية، فإنها إذا تزوجت أتيت وإذا أتيت حملت وإذا حملت وضعت وإذا وضعت أرضعت.

(القسم الثاني)

كناية يكون المكني عنه فيها نسبة كقول زياد الأعجم في أحد الأمراء لبني أمية عبد الله بن الحشرج أمير خراسان إذ ذاك:

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

كانت القباب لا تضرب الإ على خيام الأمراء، فالمكني عنه نسبة الإمارة والسماحة أي ابن الحشرج سمح كريم ذو مروءة وهي كمال الرجولية.

ومن هذا أخذ أبو تمام قوله:

لولا بنو جشم بن بكر فيكم كانت خيامكم بغير قباب

أي: بنو جشم سادتكم وأمراؤكم. وابن رشيق قوله:

ومهفهف يحميه البيت ومن كلامهم المجد بين ثوبيه والكرم تحت ردائه

(القسم الثالث)

كناية يكون المكني عنه فيها غير صفة ولا نسبة كقوله كناية عن القلوب:

الضاربين بكل أبيض مخذم والطاعنين مجامع الأضغان

ثم الكناية إن قلت فيها الوسائط أو لم تكن ووضحت سميت إيماء وإشارة، وإن خفيت سميت رمزًا كالكناية بعريض الوسادة وعريض القفا وعظيم الهامة عن الأبله، وبالسمين الرخو عن الغبي البليد، وبمتناسب الأعضاء المكتنز اللحم البسيط القامة عن الذكي الشجاع ذي الهمة.

وهنالك نوع دلالة للكلام يعتمد فيها على السياق والحال تسمى تعريضًا، وهو إمالة الكلام إلى عرض بضم أوّله أي ناحية كقولك رواية لقوله - صلى الله عليه وسلم - وأنت تخاصم إنسانًا: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه»، وهذا الكلام معناه الكنائي: المؤذى غير مسلم والمعرض به إليه أنت غير مسلم.

والتعريض يكون بالحقائق والمجازات والكنايات، وبعد قول زياد السابق أن السماحة يقول:

ملك أغرّ متوّج ذو نائل للمعتفين يمينه لم تشنج

يا خير من صعد المنابر بالتقى بعد النبي المصطفى المتحرج

لما أتيتك راجيًا لنوالكم ألفيت باب نوالكم لم يرتج

فملخص ما تعرفه ويبقى معك أصلًا تعتبر به ما يرد عليك في الكلام إن اللفظ مركبًا كان أوجز مركب، إما أن تعتمد في تفهيم مرادك به مجرد

الوضع الأولى بالأصالة أو بالنقل وهي الحقائق، وإما أن تعتمد مع الوضع علاقة وقرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي وهي المجازات أو غير مانعة وهي الكنايات.

وأن المجازات إن كانت علاقتها المشابهة فهي المجازات بالاستعارة وإن كانت غيرها فهي المجازات المرسلة. وإن الاستعارة أصلها التشبيه. وأن التشبيه تارة تذكر أركانه وتارة يحذف بعضها وذكر الوجه وحذفه لا يغير الاسم، وحذف الأداة مع ذكر الطرفين يغيره إلى التشبيه البليغ، ومع حذف أحد الطرفين إلى الاستعارة. وفي الاستعارة والتشبيه البليغ دعوى الاتحاد وبناء عليها كان ما عرفت.

وإن الاستعارة تنقسم باعتبار المذكور والمحذوف من الطرفين إلى مصرحة ومكنية، وباعتبار جنس المستعار إلى أصلية إن كان اسم جنس ولو تأويلًا، وإلى تبعية إن كان غيره، وباعتبار كونها في الهيات المنتزعة من متعدد أو في غيرها إلى تمثيلية وغير تمثيلية، وباعتبار كونها في الأضداد أو في غيرها إلى ما تصلح أن تكون تهكمية أو تمليحية وإلى غيره،ا وباعتبار كونها مقرونة بما يلائم أحد الطرفين أو بما يلائمهما إلى مرشحة ومجردة ومطلقة، وأن قرينة المكنية إن كانت استعارة لشيء من توابع المستعار له كانت تحقيقية والأفهى تخييلية.

وإن الكناية تنقسم بحسب المطلوب بها إلى ثلاثة أقسام، ولها باعتبار الواسطة أسماء على الطالب أن يجيد ضبط هذا ثم يأخذ في التطبيق عليه ينفعه إن شاء الله تعالى.

ثم الحقيقة والمجاز السالف تقريرهما يسميان الحقيقة والمجاز اللغويين، وثم حقيقة ومجاز يسميان حقيقة ومجازًا عقليين وهما إسناد أمر لأمر ونسبته له، فإن كان الإسناد إسناد الشيء لما هو له في المتعارف كإسناد فعل المعلوم إلى الفاعل وإسناد فعل المجهول إلى المفعول سمي حقيقة عقلية، وإن كان إسناده لغير ما هو له اعتمادًا على علاقة مدلولًا عليه بالقرينة لبعض الاعتبارات الكلامية والنكت البلاغية سمي مجازًا عقليًا كنسبة فعل المعلوم إلى المفعول بجعله فاعلًا نحو: ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾[القارعة: ٧] أي مرضية وحال مبتهجة ونعمة مغتبطة، وكنسبة فعل المجهول إلى الفاعل فيجعل مفعول نحو سيل مفعم ونعم مسرورة، وكنسبة الفعل إلى زمانه وسببه في نحو قولك: نام ليل زيد، ونشط نهاره، وسعدت أوقاته، وطابت أمكنة زيد، وخبثت مجالس عمرو، وخرجت المدينة لشكر السقيا، وأكرمتك أخلاقك، واحترمتك فضائلك، وغزا السلطان بلاد كذا، وكذلك ينسب الفعل إلى مصدره نحو جدّ جدّه، وخشع خشوعه، واطمأن اطمئنانه.

الفن الثاني علم المعاني

عرفت أن هذا العلم يبين الأغراض المترتبة على إيراد التركيب في صوره المختلفة، فموضوعه المركبات من حيث تختلف صورها لاختلاف الدواعي، ثم أن دواعي صور التراكيب لم تدخل تحت حصر فما يذكر منها في هذا الفن إنما هو كالمثال نصب لك لتحذو عليه إذا استعملت ذوقك ودقة نظرك في طلب ما يمكن اعتباره عند قراءتك لكلام رب العالمين وروايتك لأحاديث سيد المرسلين ومطالعة الآثار الصادرة عن

بلغاء صحابته ومن اقتفى آثارهم ممن جاء بعدهم وإنشاد ما يرد عليك من الأشعار للجاهليين والإسلاميين.

وبعد فمدار البحث في هذا الفن على إبانة صور التراكيب ودواعيها رسمًا للطريق الذي تسلك منه إلى اعتبار اللطائف الكلامية التي بها يسمى كل من الكلام والمتكلم به بليغًا، وقبل الشروع في المقصود لابدَّ من تعريف الفصاحة والبلاغة وما يتعلق بذلك والتنبيه على ما يوجب قسمة هذا الفن إلى أقسامه التي ينقسم إليها.

الفصاحة كلمة تنبئ استعمالاتها عن معنى الصفاء والخلوص والظهور قالوا يوم فصح بكسر الفاء ليس فيه غيم ولا قر، وأفصح اللبن زالت عنه رغوته، وأفصحت الشاة أي خلص لبنها وصفا إلى غير ذلك.

وعرفها العلماء حيث توصف بها الكلمة بكونها سالمة من تنافر الحروف الموجب ثقل النطق بها كما في لفظ (مستشزرات) من قول امرئ القيس:

* غدائره مستشزرات إلى العلى *

ومن الغرابة الموجبة فواتها على أهل العناية بنقل اللغة وإيداعها في مؤلفات كغرابة لفظ (مسرج) من قول رؤية في صفة الأنف: ومرسنا مسرجًا أي يشبه السراج في البريق واللمعان أو السيف السريجي في الدقة والاستواء.

ومن مخالفة نهج الاستعمال المبين بعلم الصرف كالمخالفة في قول أبي النجم:

* الحمد لله العلي الأجلل *

حيث فك ونهج الاستعمال الإدغام وحيث يوصف بها الكلام بكونه مؤلفًا من الكلمات الفصيحة سالمًا من تنافر الكلمات كما في قوله أبي تمام:

* كريم منى أمدحه أمدحه *

ومن ضعف التأليف بمخالفة القوانين النحوية كتقديم ما يجب تأخيره وتأخير ما يجب تقديمه وحذف ما يجب ذكره وذكر ما يجب حذفه.

ومن التعقيد اللفظي بإدخال بعض أجزاء جملة بين أجزاء أخرى بحيث يوجب عسر الفهم كما في قول الفرزدق يمدح خال هشام بن عبد الملك:

وما مثله في الناس إلا مملكًا أبو أمه حي أبوه يقاربه

ووجه الكلام وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكًا أبو أمه أبوه.

ومن التعقيد المعنوي باستعمال مجازات وكنايات لا يفهم المراد بها فتكون ألغازًا في غير موضعه، وحيث يوصف بها المتكلم بكونه دربًا ذا قوة واقتدار على استعمال الكلام الفصيح متى أراد.

(والبلاغة): مصدر بلغ من باب كرم محوّلًا عن بلغ من باب نصر بمعنى وصل إلى حدّ يقال: بلغ الرجل فهو بليغ وبلغ بفتح أوله وكسره وبلاغًا بفتح أوله وضمه مقصورًا إذا كان يبلغ بعبارته كنه مراده هذا الكلام أهل اللغة.

ومن كلام أمير المؤمنين على - كرم الله وجهه - في تفسير البلاغة: البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ومن البصر بالحجة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة وكانت الكناية أبلغ في الدرك وأحق بالظفر، فهذا كلام شريف تفسيره لا يكفي فيه كل ما شرح في علم البلاغة.

وعرفها أهل هذا الفن حيث يوصف بها المتكلم بأنها: مرونة وقوة نفسه على تأليف الكلام البليغ في الأغراض المختلفة كالتأديب والوعظ والتحريض والاستعطاف والعتاب إلى غير ذلك من المعاني، وحيث يوصف بها الكلام بأنها: مطابقة الكلامِ الفصيح لمقتضى الحال، والحال ويسمى بالمقام أيضًا هو الأمر الداعي لا يراد التركيب على بعض صوره الممكنة فيه، ومقتضى الحال ويسمى بالاعتبار المناسب أيضًا هو: تلك الصور الحاصلة بسبب الذكر والحذف والتقديم والتأخير والإطلاق والتقييد ووصل بعض الجمل ببعض بالعطف وفصلها بتركه والإيجاز والإطناب والمساواة واشتمال الكلام على المجازات والكنايات المختلفة في الوضوح عند خطاب الفطناء وكونه من الحقائق الصرفة والعبارات السهلة عند خطاب غيرهم.

وحيث كانت مسائل الفن منها ما يتعلق بالجملة وأجزائها، ومنها ما يتعلق بالجملتين فأكثر، ومنها ما هو مشترك ناسب قسمته إلى ثلاثة أبواب.

باب الجملة وأجزائها

الجملة الخبرية أصل المقصود بها إعلام السامع بمعناها أو بأن المتكلم يعلمه، ويسمى الأول فائدة الخبر، والثاني لازمها كما تقول لصاحبك أنعم الله عليك بما زادنا لك فرحًا ولله فيك شكرًا.

ثم يخرج عن الإعلام لأغراض شتى كقولك لإظهار الفرح بمقبل والشماتة بمدبر: ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾[الإسراء:٨١]، ولتوبيخ العاثر: الشمس طالعة وللتأسف كقوله:

هوأي مع الركب اليمانين مصعد جنيب وجثماني بمكة موثق

وحيث كان الغرض من الكلام الإفادة فحقه أن يقتصر منه على قدر الحاجة فإن الزيادة عنه تعدُّ من الفضول، فإذا كان الخطاب مع خالي الذهن ألقى إليه الخبر مجردًا عن مؤكد، وإذا كان مع من يشعر به وهو منكر أو شاك، ولإدراك أحد الأمرين طالب ألقى إليه الكلام مؤكدًا بحسب الحاجة، وشاهد ذلك قوله تعالى حكاية عن رسل الحق لأهل الباطل بعد التكذيب الأول ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾[يس: ١٤] وبعد الثاني ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾[يس: ١٦].

وأدوات التوكيد إن وأن ولام الابتداء وأحرف التنبيه والقسم والتكرير والحروف الزائدة وقد ونونا التوكيد وأما الشرطية، وقد ينزل العالم منزلة الجاهل لعدم جريه على ما يناسب علمه كقولك العدل حسن والظلم قبيح، وقد ينزل خالي الذهن منزلة السائل وذلك حيث يسبق ما يشير إلى جنس الخبر كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[يوسف:٥٣] بعد

قوله حكاية: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾[يوسف: ٥٣] المشير إلى أن المتكلم سيخبر عن النفس بشيء من إساآتها، وقد يجعل غير المنكر منكرًا وذلك حيث يلوح عليه ما يلوح على المنكرين كقول العربي:

جاء شقيق عارضًا رمحه ... إن بني عمك فيهم رماح

أي جاء واضع رمحه على صورة الآس الذي ليس يخشى حربًا كأنه يعتقد أن أعداءه عزل ليس معهم سلاح ولا هم أهل قتال، كما يجعل المنكر غير منكر إذا كان معه من دلائل العلم وموجبات المعرفة وهولها طارح وعن استعمال فكره فيها معرض.

يحكى أن بعض العجم قال لبعض العلماء: أن في لغة العرب فضولًا وألفاظًا زائدة تارة يقولون عبد الله قائم وتارة إن عبد الله قائم وتارة إن عبد الله لقائم، فقال له: إن لكل موضعًا يقتضيه، وكان هذا من أسباب إقبال العلماء على هذا الفن.

الجملة الاسمية للثبوت وضعًا وللدوام استعمالًا بالقرينة، وذلك إذا لم يكن في خبرها فعل. الجملة الفعلية للتجدد والزمان باختصار، وقد يفاد بالمضارع الاستمرار التجددي بمعونة المقام وقرينة تنصب لذلك، ويبني الفعل للمفعول لجهل الفاعل أو علم السامع به فيكون ذكره كالعبث أو تعظيمه والأدب في حقه تعرف ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠] فحيث ذكر الخير صرح بالفاعل.

وفي مقابله بني الفعل للمفعول أو تحقير الفاعل أو الخوف منه أو عليه وتقيد الأفعال حيث تكون القيود محط الفائدة ومتعلق الأغراض

الإشارية كما تقول ركب زيد اليوم فرسًا وزارك فلان ماشيًا على قدميه، وكرم زيد أصلًا تتكلم بالكلام لغرض التعظيم والإجلال أو التحقير والإهانة أو التعجب من أحوال الدنيا فتجد القيود في الجملة هي متعلق ذلك، والنواسخ في جملها هي قيود المسند بما لها من الأزمنة والمعاني التي سلف بيانها، ويوضع الماضي موضع المضارع للتنبيه على التحقق أو قرب الحصول، ويوضع المضارع موضع الماضي لحكاية الحال حيث يكون المعنى غريبًا ينبغي تأمله والنظر فيه فتحضر صورته في الخيال لذلك مثل: ﴿ أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾[فاطر: ٩] وقد يقصد به إفادة الاستمرار في الأوقات الماضية نحو: زيد يشرب ويطرب ويلهو ويلعب حتى أضاع طريقه وتليده، فهو الآن عبرة لمن يعتبر وذكرى لمن يريد أن يذكر.

(الجملة الشرطية)

عرفت مفادها في النحو وما بين أدوات الشرط من الاختلاف، والذي يخص هذا الفن أن لو قد يؤتى معها بلفظ المضارع لإفادة معنى الاستمرار في الأوقات الماضية مثل: ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾[الحجرات: ٧]، فمعناه انتفى عنتكم وحصول ما يسوءكم بسبب استمرار امتناع عمله على رأيكم حيث كانت نتيجة الخير في مخالفته، (وإن وإذا) لكونهما للتعليق في المستقبلات فحقهما أن يؤتى معهما بالمضارع الذي هو العبارة عن المستقبل، ولكن كثر أن يؤتى معهما بالماضي للإبراز في معرض الحاصل لقوة الأسباب أو التفاؤل أو إظهار الرغبة نحو أن ظفرت بحسن العاقبة، فإن الطالب إذا عظمت رغبته في

مطلوبه يكثر تصوره إياه فربما يتخيله حاصلًا أو للتعريض نحو ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[الزمر: ٦٥] فجيء بالماضي إبرازًا للإشراك في معرض الحاصل على سبيل الفرض تعريضًا للمشركين بأنه قد حبطت أعمالهم، ونظيره في التعريض ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[يس: ٢٢] قصدًا لإسماع الحق على وجه لا يزيد غضب المخاطبين حيث لم يصرح بنسبتهم إلى الباطل، وهذا أدخل في إمحاض النصح لهم لإشعاره بأنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ويسمى هذا الكلام المنصف ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[سبأ: ٢٤] حيث ردد الضلالة بينهم وبين نفسه ولم يقل: إنا على هدى وأنتم في ضلال تحاشيًا عن التصريح بنسبتهم إلى الباطل.

وقد تستعمل إن في غير المشكوك للتجاهل أو جهل السامع أو تجهيله: أي تنزيله منزلة الجاهل كقولك لمن يؤذى أباه: إن كان هذا أباك فلا تؤذه.

(الذكر)

يجب عند عدم القرينة ويترجح معها لكونه الأصل ولا صارف أو قلة الثقة بالقرينة لضعفها أو ضعف فهم السامع أو زيادة التقرير والإيضاح أو التعريض بغباوة السامع أو التبرك أو التلذذ أو أيهامهما أو التعجب إذا كان الحكم غريبًا نحو: زيد يقاوم الأسد أو التعظيم أو الإهانة كما في بعض الألقاب المحمودة والمذمومة، أو بسط الكلام لفائدة في مقام الافتخار ونحوه كما يقال لك: من نبيك؟ فتقول: نبينا محمد حبيب الله سيد الأنبياء والمرسلين، أو لئلا يتمكن السامع من ادعاء عدم التنبيه أو لتعين كون

المسند اسمًا أو فعلًا أو ظرفًا ليدل على الثبوت أو التجدد وهذا الوجه لذكر المسند والباقي مشترك بين ذكر المسند إليه وغيره.

(الحذف)

أما الواجب منه على ما شرح في النحو فوجوبه عليك لاتباع الاستعمال، والذي دعا العرب له وضوح المحذوف وظهوره جدًا وقصدهم الإيجاز، وربما كان الحذف أعون على تفهيم الغرض من الكلام مثلًا تقول: لا أزال أتبرك بخدمة فلان العالم الفاضل المتمسك بقطع النعت.

فالحذف أدخل في إفادة أن الغرض المسوق إليه الكلام هو المدح والمدح بالاعتقاد وزعم المادح فلا يحتمل الجدل، فلو صرح بالمبتدأ لاحتمل أنه دعوى يحاول إثباتها ويفتح للمخاطب باب المنازعة، وأما الجائز في حكمهم فيوجبه البليغ لما يذكر من دواعيه كضيق المقام من توجع ونحوه مثل:

قال لي كيف أنت قلت عليل ... سهر دائم وحزن طويل

أي أنا عليل وحالي سهر دائم فحذف لضيق المقام للتوجع أو الحزن أو للاحتراز عن العبث ظاهرًا نحو: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ ﴾[النور: ٣٦، ٣٧] على قراءة المجهول، فكأنه قيل: من يسبح له؟ فقال: رجال أي: يسبح له رجال. فحذف للاحتراز عن العبث نظرًا إلى ظاهر القرينة لا العبث في الحقيقة؛ لأن ذكر المسند والمسند إليه لا يكون عبثًا حقيقة أصلًا.

وفيه تكثير الفائدة بنيابته عن ثلاث جمل أي في هذا النظم على هذه القراءة تكثير الفائدة بكون المذكور نائبًا عن ثلاث جمل: إحداها: المذكورة، والثانية: من يسبح له، والثالثة: يسبح رجال، بخلافه على قراءة المعلوم إذ لا حذف حينئذ ولا تقدير سؤال، ويكون المسبح له عمدة؛ لأنه لما كان قوله له نائب الفاعل فقد جعل المسبح له عمدة في الكلام بخلاف القراءة الأخرى، وبكونه تفصيلًا بعد إجمال وهو أوقع في النفس، ولهذه الوجوه ترجح رواية المجهول على رواية المعلوم وفي قوله:

* ليبك يزيد ضارع لخصومة *

أو لتخييل العدول إلى أقوى الدليلين عقلي ولفظي، فإن الاعتماد عند الذكر على دلالة اللفظ وعند الحذف على دلالة العقل وهو أقوى، أو لاختبار تنبه السامع أو قدر تنبهه فالأول: هل يتنبه بالقرينة أو لا. والثاني: هل يتنبه بالقرينة الخفية أولا، أو لصونه عن لسانك أو عكسه أو إيهامها، فالأول للتعظيم والثاني للتحقير ويقرب منه الحياء من التصريح كقول عائشة - رضي الله عنها -: « ما رأى مني ولا رأيت منه » تعني العورة، أو لتعينه ولو ادّعاه نحو: ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[الرعد: ١١١٦] فإن الخلق مخصوص بالباري تعالى أو للإخفاء أو ليمكن الإنكار أو لتكثير الفائدة باحتمال أمرين نحو ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾[يوسف: ١٨] أي فأمري أو أجمل يعني أنه يحتمل كونه خبر مبتدأ محذوف أي فأمري صبر جميل وكونه مبتدأ محذوف الخبر أي فصبر جميل أجمل وأولى.

ونحو: ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي فليكن أوفا لأمر، أو للتعميم باختصار نحو: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾[يونس: ٢٥] أي

يدعو العباد كلهم إذ الدعوة عامة وهذا التعميم وإن أمكن بذكر المفعول على صيغة العام لكن يفوت الاختصار حينئذ، أو للتناسب نحو ﴿ وَمَا قَلَى ﴾[الضحى: ٣] إذ لو قيل وما قلاك فات شبه السجع، وقد يحذف المفعول نسيًا فلا يكون منويًا مقدر ولا يلاحظ تعلق الفعل به أصلًا لمجرد إثبات الفعل أو نفيه فينزل منزلة اللازم نحو: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٩] فإن الغرض مجرد إثبات العلم ونفيه من غير ملاحظة تعلقه بمعلوم عام أو خاص، والمعنى لا يستوي من تثبت له حقيقة العلم ومن لا تثبت ولا يقدر له مفعول وإلا فات هذا الغرض.

التقديم

اقتصروا في تعليل واجبه على اتباع الاستعمال، وهم مطالبون بالتماس أسباب الاستعمال كما هو مقتضى وظيفة من نصب نفسه لبيان موجبات اختلاف هيئات التراكيب العربية، وأما الجائز فقالوا أنه للاهتمام به من المتكلم أو السامع ولو ادعاء. قال الشيخ عبد القاهر لابد في تعليل تقديم اللفظ أي النطق به أولًا وإن كان موضعه الطبيعي بعد الاهتمام به والعناية من ذكر جهة خاصة توجب الاعتناء بأن يقال لكونه الأصل ولا صارف أو للتشويق إلى الخبر لتمكينه في ذهن السامع، وهذا إذا كان المسند إليه مشعرًا بغرابة الخبر نحو:

والذي حارت البرية فيه ... يحوان مستحدث من جماد

أو لتعجيل المسرة أو لمسائه تفاؤلًا أو تطيرًا إذا كان اللفظ صالحًا لهما نحو: سعد في دارك والسفاح في دار صديقك، ونحو: العفو عن فلان صدر به الأمر، ونحو: إذا ابتسم لك ثغر الأيام فنحن مقترحون عليك

ما نشاء، أو لإيهام أنه لا يزول عن الخاطر إظهار القوة المحبة؛ لأن اسم المحبوب كثيرًا ما يوجب بدل الغلط والتبرك أو التلذذ، أو كونه مجز التعجب والاستبعاد أو مقطع الحكم ومركز العناية نحو: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[الإخلاص: ٤] ترتيب الكلام ولم يكن أحد كفؤًا له فمركز العناية نفي الكون له، ثم الموضع الثاني للفظ الكفء ونحو أبعد طول التجربة تنخدع بهذه الزخارف أو أتنخدع بعد طول التجربة أو أبهذه الزخارف هذا حسبما تجده موضع التعجب والإنكار أو لبيان اتسامه بالخبر واشتهاره بمعناه وكونه صار له عادة كما تقول في جواب:كيف الخطيب؟ الخطيب يشرب ويطرب ليس غرضك أن تخبر بحصول الشرب منه في أي زمن فلا يصح في الجواب يشرب الخطيب، أو الكناية بلفظ مثل وغير. نحو: مثلك لا يبخل وغيرك لا يجود أي: أنت لا تبخل وأنت تجود، أو للنص على عموم السلب في نحو: كل ذلك لم يكن فلو أخر لفظ كل ولو رتبة بأن كان معمولًا قدّم على عامله مع النفي، أو للتقوية في الخبر الفعلي لتكرار الإسناد نحو زيد قام والحق وضح أي لتقوية الحكم إذا كان الخبر فعلًا فأنه حينئذ يكون المسند إليه مبتدأ والفعل مسندًا إلى ضميره فيتكرر الإسناد فيتقوى الحكم، بخلاف ما لو أخر فأنه يكون حينئذ فاعلًا أسند إليه الفعل فلا يتكرر الإسناد وتقوي الحكم حيث يكون الخبر مشتقًا غير فعل أنزل منه حيث يكون فعلًا؛ لأن ضمير المشتق لكونه لا يتغير كان بمنزلة المفقود.

وأمثلة التقديم لتقوية الحكم تستعمل للتخصيص بقرينة الحال فنحو: زيد فهم يكون لتقوية الحكم فمعناه زيد فهم يقينًا وأنا من غيره في شك مثلًا، ويكون للتخصيص فمعناه زيد فهم وغيره لم يفهم، ونحو: رجل

جاء للتخصيص بالجنس أو الواحد أي لا امرأة أو لا أكثر، والتقديم في نحو: ما أنا قلت للتخصيص قطعًا، ومعناه أن نفي فاعلية الفعل الحاصل مختص بي فيكون الفعل ثابتًا وإنما النزاع في فاعله، فالمتكلم يقول لست الفاعل له بل غيري فانظر من هو أو هو فلان فلا يصح: ما أنا فعلت هذا ولا غيري، ولا ما أنا ضربت إلا زيدًا فإنه حينئذ يكون تفريغًا في الإثبات حيث لا يمكن فإن المعنى غيري ضرب كل أحد إلا زيدًا والتقديم في نحو:

له همم لا منتهى لكبارها   وهمته الصغرى أجل من الدهر

للتحرز من احتمال الوصفية وفي نحو:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها   شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

لتشويق نفس السامع إلى المؤخر وعلى أمثال هذه الدواعي يدور أمر التقديم، وباب الاعتبار مفتوح لذوق المتكلم، وما ذكر من الدواعي كاف لترشيحه وتربية فطنته إلى اعتبار محاسن المقاصد الكلامية.

التعريف

حيث يكون غرضك أن تتكلم على ما يعرفه المخاطب بسبب حضوره أو عهده أو سبق ذكر له، وحينئذ تورد بعض المعارف لكن لكل معرفة موضع.

فالعلم لإحضار الشخص بالاسم الخاص المعروف وضعه له نحو: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾[الفتح: ٢٩]، و﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾[الأحزاب: ٤٠]، ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾[آل عمران:

٥٢]، (يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)[مريم: ٢٧] أو للتبرك أو التلذذ أو التعظيم أو الإهانة كما في الألقاب الصالحة لمدح أو ذم نحو: أبو الخير وأبو الفضل، فتقول حيث تستحسن شعرًا لأحمد بن الحسين المشهور بالمتنبي قال أبو الطيب: تلحظ فيه الإشارة إلى جودة ما تنشده له وطيبه، كذلك تقول قال حبيب بن أوس تعني أبا تمام، وحيث تنشد للبحتري بعض ما لا تستحسن من كلامه تقول: قال الوليد.

ومن هذه الملاحظة ملاحظة أحمد بن سليمان المشهور بأبي العلاء المعري حيث شرح دواوين هؤلاء الشعراء الثلاثة فسمي شرحًا بذكري حبيب، وشرحًا بعبث الوليد، والثالث بمعجز أحمد، والضمير لأغراض تتعلق بكلمة أنا وأنت مثلًا تقول: أنا رجوتك في هذا الأمر، وأنت كلمتني فكيف أغفل؟ وفلان هو سعى لك، وسوق الضمير الذي يتأخر مرجعه لفظًا ورتبة: للتفخيم والتعظيم والإبهام والتفسير.

وأصل الخطاب أن يكون مع معين وقد يكون لنكتة مع غير معين كما في قولك: اللئيم من إذا أحسنت إليه أساء إليك، والكريم من إذا اسأته أحسن بك واجتهد في إصلاحكَ فتعميم الخطاب ليصير نفس الفعل هو المحقق لحقيقة الكريم وحقيقة اللئيم.

وحيث يكون المتكلم حاكيًا عن نفسه فالمقام لضمير المتكلم، وحيث يكون الكلام ملقى إلى مخاطب فالمقام لضمير المخاطب وحيث يراد ذكر الشيء بعد تقديم ما يشعر به فالمقام لضمير الغائب، وقد يعدل عن مقتضى ظاهر المقام والحال إلى مقتضى الحال فيوضع الظاهر موضع الضمير لغرض يتعلق به كقول الأمير لتابعه: أميرك أمرك بكذا دون أن يقول: أنا أمرتك بكذا تعيينًا لجهة المخافة الموجبة للتحرز بالامتثال

والمسارعة إلى القيام بالوظائف. وقال تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾[النمل: ٧٩] أي: هو الله الذي من توكل عليه كفاه المؤن حيث لا معقب لحكم ولا تنفد خزائن إمداده.

وأمثلة وضع الظاهر موضع الضمير في القرآن كثيرة، يحكى أن بعض الناس حين سمع قول ابن الرومي بحضرة الصاحب ابن عباد:

يجهل كجهل السيف والسيف ... وحلم كحلم السيف والسيف مغمد

استهجنه لما فيه من التكرير، فقال الصاحب: أنه لو قال وهو لا أقول: أنه ينكسر البيت، ولكن أقول: أنه ينكسر القلب يعني أن حسن هذه العبارة من الجهة التي منها الاستهجان، فإن الغرض تربية الروعة وإبقاء الاستهالة متزايدة في نفوس الأعداء. ألا ترى أنك في مقام التهديد تكثر من ذكر المرهوبات، كما أنك في مقام التبشير وبسط النفوس تكثر من ذكر المرغوبات، واسم الإشارة للاحتياج إليه أو لكمال العناية بالمحكي عنه كقول ابن الرومي:

هذا أبو الصقر فردًا في محاسنه ... من نسل شيبان بين الضال والسمر

أو لإظهار الاستغراب والتعجب كقول القائل:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأوهام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقا

أو لإيهام بلادة المخاطبة أو فطنته، وتوضع إشارة القريب مكان إشارة البعيد وبالعكس لإظهار التعظيم أو التحقير والإشارة للمبصرات الحاضرة.

وينزل المعقول منزلة المحسوس، وغير المبصر منزلة المبصر، والغائب منزلة الحاضر لأمثال تلك الدواعي المذكورة.

قال الله تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[البقرة: ٢٥٥]، ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾[المدثر: ٣١]، ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان: ٤١]، ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[البقرة: ٢]، ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[الشورى: ٤٣]، ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾[الأعراف: ٢٦].

والموصول لعدم العلم بما يخصه سوى الصلة نحو: من دخل هذا الحصن فله كذا، أو للإخفاء أو استهجان التصريح بالاسم أو التشويق إلى ما يرد لتمكنه في الذهن وهذا إذا كان مضمون الصلة حكمًا غريبًا نحو: والذي حارت البرية البيت، أو زيادة التقرير نحو: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾[يوسف: ٢٣] أي راودت زليخا يوسف - عليه السلام - والكلام مسوق لنزاهة يوسف - عليه السلام- وكونه في بيتها أدل على نزاهته فيكون تقريرًا للغرض المسوق له الكلام، وقيل لتقرير المراودة بدلالة كونه في بيتها على كثرة الخلطة وزيادة الألفة، أو التفخيم نحو: ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾[طه: ٧٨] أي: غطاهم وسترهم موج عظيم لا يمكن وصفه، أو التحقير نحو: ومن لم يدر حقيقة الحال قال ما قال، أي: قال قولًا لا يعتد به.

وتحقيقهما أن في التعبير بالموصول إبهامًا والإبهام: إما للإشعار بأنه لا يوصف لعلوّ مرتبته عن الفهم فيفيد التفخيم، وإما للإشعار بأنه لا

يوصف لدنو منزلته عن أن يلتفت إليه فيفيد التحقير أو التنبيه على الخطأ نحو:

إن الذين ترونهم إخوانكم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا

أو تحقيق الحكم نحو:

إن التي ضربت بيتًا مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول

أو تعظيم المحكوم به نحو:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتًا دعائمه أعز وأطول

يريد بيت العز والشرف بالحسب والنسب أي فهو في الرفعة وعلو الشأن من جنس السماء. أو تعليله نحو: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾[الكهف: ١٠٧] فإن الإيمان وعمل الصالحات سبب للجنات ورفع الدرجات.

وذو الأداة حيث تكون الحكاية عن جنس أو معهود من أفراده أو جميع أفراده على ما سلف تقريره في النحو، وحيث يكون ذو الأداة خبرًا كان الكلام من عبارات التخصيص نحو: زيد هو المنطلق، والكرم التقوى، وذلك هو الرجل.

فالتخصيص حقيقي أو ادعائي والمضاف لتعيينه بالإضافة أو تخصيصه أو تشريفه أو تشريف المضاف إليه أو الاختصار نحو: (سبحان الذي أسرى بعبده) (وعباد الرحمن) وديننا الإسلام ونبينا محمد - صلى الله عليه وسلم -، ونحو: أنت تعرف رغبة فلان، واعتمدت على همتك.

التنكير

للأفراد شخصًا أو نوعًا نحو: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾[النور: ٤٥] أي: كل فرد أو نوع منها من فرد أو نوع منه، أو لأنه لا يعرف منه إلا ذلك القدر ولو ادّعاء كما تقول وقد أسمعت شعرًا: هو كلام أي ليس الألفاظ مركبًا مفيدًا بالوضع تجرده عن الوزن والتقفية والصناعة أو للإخفاء أو التكثير أو التقليل أو التعظيم أو التحقير نحو:

له حاجب عن كل أمر يشينه وليس له عن طالب العرف حاجب
فتى لا يبالي المدلجون بناره إلى بابه ألا تضيء الكواكب
يصم عن الفحشاء حتى كأنه إذ ذكرت عن مجلس القوم غائب

أي له حاجب عظيم وليس له أدنى حاجب وهو فتى أيّ فتى.

وفي الشعر ما يذكرك بكثير مما مضى ونحو:

ولله عندي جانب لا أضيعه وللهو عندي والخلاعة جانب

التقييد

ببعض التوابع لما سلف تقريره في النحو لم يذكروا في هذا الفن زيادة عنه غير أن عطف البيان يكون كالنعت للمدح نحو: الكعبة البيت الحرام، وأن الفاء وثم كما يكون معناهما بحسب الزمان يكون بحسب المرتبة والتفاوت فيها مثل أن التفسير يناسب أن يعقب المفسر نحو: ﴿جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ ﴾[يس :٨]، والتراخي بحسب التفاوت والبعد بين الحالتين تفهمه من آية خلق الإنسان ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ

خَلْقًا آخَرَ ﴾[المؤمنون: ١٤] الفصل بلفظ هو للتخصيص أو لتأكيده حيث يستفاد من غيره.

القصر

ويقال: الحصر والتخصيص يكون بعطف لا، قيل: ويختص بقصر القلب وبعطف لكن، قيل: ويختص بالإفراد ويكون بأداة نفي وإلا ويكون بإنما، ولا يعرف المقصور عليه معها إلا بتأخيره فوجب، ويكون بالتقديم اعتمادًا على القرينة لا بالوضع كسابقه، ويكون بالفصل كما سبق وبقولك فقط أو وحده.

والقصر: حقيقي وإضافي أي بالنسبة إلى صفة أخرى أو موصوف آخر.

والحقيقي في قصر الموصوف على الصفة نادر جدًا حتى قيل: أنه متعذر نحو: إنما الله كامل فليس وراء الكمال صفة.

الجمل الإنشائية

يخصها من الكلام أنها تخرج عن استعمالها في معانيها الأصلية التي عرفتها لها في النحو إلى مرادات يلزم تنبيهك لها تلحظها في كلام العامة فضلًا عن كلام الخاصة. مثل كون الأمر والنهي يراد بهما نحو التهديد ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾[فصلت: ٤٠]، والإهانة ﴿ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾[الإسراء:٥٠]، والتعجيز ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾[البقرة: ٢٣]، والتسوية ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾ [الطور: ١٦]،

وإن عبارات الاستفهام تكون لصرف الإنكار فتكون كعبارات النفي نحو: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾[الرحمن: ٦٠]، ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[آل عمران: ١٣٥]، وللتوبيخ والتعجب والتعجيب والتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار إلى غير ذلك مما ينبه المقام وسياق الكلام على اعتباره، والشيء الذي يتعلق به الاستفهام وما يتولد منه يكون واليًا للهمزة تقول: «أماشيا جاء زيد» حيث يكون الاستفهام متعلقًا بالحال، وهكذا كما سلف تقريره عند بيان كون الاستفهام لطلب التصديق أو طلب التصور، والكلام العام في هذا الموضع أنك إذا وجدت العبارة مدلولًا على أنها غير مستعملة في معناها الأصلي الذي عرفته لها طلبت المراد منها بإعانة القرائن وسياق الكلام من جنس تلك الدواعي التي عرفتها، حيث تقرر عندك أن الدواعي المذكورة في هذا الفن إنما هي أنموذج ينبهك على اعتبار ما يحسن في الذوق اعتباره، وكلمة ما من أدوات الاستفهام يطلب بها تفسير اللفظ نحو: ما العنقاء، وشرح الماهية نحو: ما هو الهواء؟ وما هي النار؟ والإعلام بحال المذكور معها نحو: ما أنت: فتقول: رسول فلان إليك في أمر كذا، وكلمة هل إن كان الاستخبار بها عن وجود الشيء سميت البسيطة، وإن كان عن غيره سميت المركبة، وعليه يقول أهل المنطق: الهلية البسيطة والهلية المركبة، وبقية الأدوات سبق لك إبانة وظائفها.

هذا وإجراء الكلام على ما تقتضيه ظواهر الأحوال حسب المتعارف يسمى إخراج الكلام على مقتضى الظاهر، وإجراؤه على خلافها يسمى إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر مثلًا إذا عرفت أن إنسانًا يعرف مضمون خبر فمقتضى ظاهر الحال ألا تخبره به حفظًا للوقت من الضياع،

بل تخبره بما تعرف جهله به استزادة في علمه لكن إذا رأيته عاملًا على خلاف علمه حسن أن تنزله منزلة الجاهل تأديبًا له وتنفيرًا عن غير الحسن فتخبره بالخبر كما هو ومقتضى هذا الحال، فمنه تنزيل العالم منزلة الجاهل وعكسه مثلًا تقول لتلميذك وأنت تعلم أنه لم يكتب: اسمعني ما كتبت كأنك تجهل عدم كتابته ليكون هو الذاكر لجنايته، ومنه وضع الظاهر موضع الضمير والماضي موضع المضارع وعكسه لما سلف، ومنه وضع الخبر موضع الإنشاء للتفاؤل في نحو: هداك الله لمحاسن الأعمال، أو لإظهار الرغبة أو للتأدب مع المخاطب بترك الأمر كما تقول: ينظر مولاي في هذه القضية ويتفضل عليّ برأيه فيها بدل انظر وأشباه ذلك، ومنه تجاهل العارف إظهارًا لشدة الوله كقول أخت بن طريف حين ترثي أخاها:

أيا شجر الخابور مالك مورقًا كأنك لم تجزع على ابن طريف

أو الفخر بالمسارعة إلى الخير نحو: أينا كتب وحفظ وفهم، ومنه التغليب فيعبر عن المغلوب بعبارة الغالب نحو: ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم: ١٢] تغليبًا للذكور، ونحو ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢] تغليبًا للعقلاء، ونحو: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾[الحجر: ٣٠] تغليبًا للكثير، ونحو: العمران لأبي بكر وعمر تغليبًا للأخف، كالحسنين والأبوان والقمران تغليبًا للمذكر، ومنه الالتفات كأن تكون في الأخبار عن شخص بأمور تعدها عليه وهو حاضر ثم تلتفت للكلام إلى خطابه بأن تقول شاكيًا منه إلى من معه المكالمة: أني دللته على رشاده وأبنت له وجوه المنفعة فيما امرته به واريته جهات الضرر في خلافه تظهر

أنه قد اشتد بك الغضب وآلت بك الحال إلى تبدل الرحمة بالقسوة كما قيل:

فقس ليزدجروا ومن يك حازمًا فليقس أحيانًا على من يرحم

فتلفت إلى خطابه قائلًا: فماذا أصنع بك أعاملك معاملة البهائم أم أخليك نقمة على نفسك وعارًا على بيتك.

فالالتفات أن تخالف الظاهر بالأخبار بعد الخطاب نحو: ﴿ (حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾[يونس: ٢٢]، والخطاب بعد الأخبار نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة: ٥] فلابد من عبارتين تخالف الثانية الأولى في التكلم والخطاب والغيبة، أو المدار على مخالفة الظاهر رأيان فقول الشاعر:

* تطاول ليلك بالأثمد *

خطابًا لنفسه من الالتفات على أحد الرأيين كأنه نظر إلي ما حقه أن يعبر به فأعرض عنه والتفت إلى غيره، والمدار في نكات الالتفات ما تستحسنه الأذواق ويصلح أن يكون داعيًا لتغيير الأسلوب ومخالفة الظاهر. مثلًا الالتفات في: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[الفاتحة: ٥] للتنبيه على أن مرتبة التوجه إلى شيء بالعبادة وطلب المعونة إنما هي بعد معرفته بكونه المبدع الحافظ المحسن بتبليغ العابد المستعين إلى حال كماله مقبلًا عليه بأتم رحمة وأسبغ نعمة وهو المتصرف في جميع أحواله لا معقب لحكمه، فيتضمن هذا تعليم العباد أنه لا ينبغي الأقدام على طلب ثمرة من شيء إلا بعد معرفة الطريق الموصلة إليها، وما يلزم من العمل والنكتة في

نحو: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[الكوثر:١،٢]التمكن من ذكر الجهة التي يسهل على كل أحد ملاحظتها داعيًا للشكر بامتثال ما أمروا به واجتناب ما نهوا عنه وهي التربية، وأن الترتيب بهذا العنوان يكون مشتملًا على بسط نفس المخاطب بوعده التمكين من ثمرة الشجرة كأنه قال: أعطيناك وسنوصلك إلى جميع منافع مالك أعطينا وعليك بالتأمل لتستخرج محاسن ما يرد عليك من الالتفاتات بالقياس على هذا.

ومنه الأسلوب الحكيم وهو تلقي المخاطب بغير ما هو يترقبه جوابًا عن كلامه لغرض كالتنبيه على محله من المعرفة ودرجته من الاعتبار.

يحكى أن خالد بن الوليد - رضى الله عنه - لما وصل بجيش الجهاد وهو أميره إلى الحيرة وتحير أهلها كان فيهم رجل معمر ذو رأي وطول تجربة يقال له عبد المسيح فقال: يا أهل الحيرة مكانكم حتى آتى هؤلاء فإن وجدتهم على حق فلا خير في خلافهم، وإن يكن غير ذلك فها أنا ذا قد استصحبت سما أتناوله إذ ذاك وشأنكم وما ترون، فلما حضر عند خالد كان من كلامه له: من أين؟ فأجاب: من صلب أبي فقال: في من أنت؟ قال في ثيابي. فقال: علام أنت؟ قال: على الأرض، فقال: كم سنك؟ قال: اثنان وثلاثون. فقال خالد: أسألك عن الشيء فتجيب بغير جوابه. فقال: لم أفعل إنما أجبتك جواب ما سألت، فقال خالد: دعني من هذا ما أنت؟ فقال: أنا رسول من ورائي. ونظر خالد إلى يده فوجده قد أطبقها على شيء فقال: ما بيدك؟ فأخبره أنه سم وما جرى بينه وبين قومه فتناول خالد السم من يده وابتلعه فغاب هنيهة وضرب بلحيته على صدره وتصبب عرقًا ثم أفاق وكلم عبد المسيح فأسلم، وهذه من معجزات نبينا - صلى الله عليه وسلم- فإن كرامات الأولياء معجزات لأنبيائهم.

ويحكى أن شاعرًا يقال له القبعثري في أيام الحجاج بن يوسف كان مع بعض أصحابه في بستان فجرى ذكر الحجاج فقال: اللهم سوّد وجهه واقطع عنقه واسقني من دمه، فبلغ ذلك الحجاج فأحضره وذكر له ما كان منه فقال: إنما أردت العنب فأخذ يتهدده فكان من كلامه: لاحملنك على الأدهم يريد القيد، فقال القبعثري: مثل الأمير من حمل على الأدهم والأشهب. فقال: أردت الحديد. فقال: لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدًا. فقال: احملوه، فتلا: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا ﴾[الزخرف: ١٣] فقال: اطرحوه فتلا: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾[طه: ٥٥] فصفح عنه وكانت تلك عادة الحجاج يهب جنايات الشخص لآدابه، فالغرض تنبيه المخاطب على خطائه وأن الأليق بإمارته وقدرته أن يصفد ويعطى لا أن يصفد ويقيد.

والنور المبين في الأسلوب الحكيم قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾[البقرة: ١٨٩] فمطلوب السائلين بأنه سبب تشكل القمر في أشكاله حيث كان سؤالهم: ما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يتزايد حتى يصير بدرًا ثم يتناقص حتى يعود كما بدأ، فحمل سؤالهم على أن مطلوبهم إبانة الحكم المترتبة على ذلك، فأجيبوا على وفقه تنبيهًا على أنه الأولى بهم إذ كان هو الذي يهمهم في أعمال دنياهم وآخرتهم.

ومن خلاف الظاهر القلب كما في قولهم: عرضت الناقة على الحوض، وأدخلت الخاتم في أصبعي.

ووجه الكلام عرضت الحوض وأدخلت أصبعي، فإن العرض أن تحضر ما لا يختار إلى ما يختار تنظر هل يفعل، تقول: عرضت الماء على الفرس غير مرة فلم يشرب كأنه جزيء برطب الخلاء عن الماء.

وهل القلب مقبول داخل في باب البلاغة ثالث الأقوال أنه إن اشتمل على نكتة تحسنه فهو مقبول قال القطامي في صفة ناقته:

فلما أن جرى سمن عليها كما طينت بالفدن السياعا

الفدن: القصر، والسياع: هو الطين الذي يبسط على ظاهر الجدران لتسويتها وتحصيل ملاستها، والسمن: الشحم وترتيب الحيوان العظم وغطاؤه اللحم وغطاء اللحم الشحم والغطاء الأخير الجلد فالشحم بمنزلة السباع.

وفي المثل: (قيل للحشم: أين تذهب؟ فقال: أسوى العوج) فكان وجه الكلام: كما طينت الفدن بالسباع ولكن لما أراد المبالغة ليفدي كثرة الشحم قلب في الكلام، وذلك أن العادة أن يكون الجدار غليظًا والساتر إنما هو طبقة رقيقة فجعل الساتر مستورًا والمستور ساترًا نقلًا للغلظ والرقة عن موضعيهما فجاءت المبالغة، ثم إن القلب لم يكثر في كلام العرب ولم يرد في أبلغ الكلام.

فهذا هو سبب الاختلاف في قبوله ويقبل منه مثل أن تقول: ما زلت أعظ لساني به فلم ينفع ثم ضربت هذه العصابة حتى تكسرت فلم ينجع، فقلت: لا تهدى من أحببت.

باب الجملتين فأكثر

وترجموا له بالفصل والوصل والمراد بالوصل العطف وبالفصل تركه والمقصود بالبحث في هذا الباب إنما هو العطف بالواو وذلك أن الواو كما عرفت لا تفيد إلا مجرد الجمع بين شيئين في حكم أن كانت في عطف المفردات أو الواقع موقعها من الجمل وفي مجرد الكون والحصول إذا كانت في عطف الجمل التي ليست واقعة موقع المفردات وإنك لا ترى نفسك تقنع بهذه الفائدة للعطف فإنك تقول لو ذكرت الجمل بدون عطف فهم أنها مشتركة في السكون والحصول وأما بقية حروف العطف فهي ظاهرة الفائدة بما لها من المعاني فوجب أن يمضي بك التعليم لتقف على أسرار البلاغة إلى إبانة مواضع فصل الجمل بعضها عن بعض ومواضع وصلها.

مواضع فصل الجمل

الموضع الأول:

الجمل المتباينة بالخبرية والإنشائية معنى نحو أكرم زيد أو زيد رجل عالم فإنك تجد من طبعك نفرة عن الجمع بين هاتين الجملتين لخلوه عن الفائدة بخلاف أكرمه فهو فاضل ونحو أكرمني زيد أكرمه الله لكن إذا كان الفصل لهذا السبب موهما خلاف المقصود وجب الوصل لتعارض المانع والمقتضى إذا وليس وراء الفصل إلا الوصل يحكى أن الصديق رضي الله عنه كان في محاورة مع أعرابي فقال الأعرابي أثناء كلامه لا رحمك الله فقال الصديق أنه لو حسن اعتقادكم لأنارت عقولكم، ألا قلت لا

ورحمك الله فكلمة لأخبر ورحمك الله إنشاء والوصل يعين دعاء اللام والفصل يوهم دعاء علي وكلام الصديق يستدعي إبانة فرب قاصد يقول ما لحسن الاعتقاد وإنارة العقول فإنها بالمعارف فتقول له أن حسن الاعتقاد عبارة عن كمال الإيمان المستدعي التخلق المأمور به في قوله تخلقوا بأخلاق الله والتأدب بآداب أنبيائه والراسخين في العلم وذلك إنما يكون بمعرفة ذلك ومدخلك إليها من قوله صلى الله عليه وسلم «أدبني ربي فأحسن تأديبي» ويحكى أن الصاحب بن عباد قال حين سمع من بعض مخاطبيه أول ما سمع لا وأيدك الله هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ على خدود الملاح.

الموضع الثاني

الجمل التي فقدت المناسبة بينها والجهة الجامعة التي سيرد عليك شرحها وتفصيلها نحو: زيد فاضل، والكلب نجس العين في رأي.

ومن هنا أخذوا على أبي تمام في قوله:

زعمت هواك عفا الغداة كما عفت ... منها طلال باللوى ورسوم
لا والذي هو عالم أن النوى ... صبر وأن أبا الحسين كريم
ما حلت عن سفن الوداد ولا غدت ... نفسي على إلف سواك تحوم

حيث عطف في واسط الأبيات دون مناسبة بين الجملتين وحاشا أبا تمام أن يشذ عليه مثل هذا وهو إمام البلاغة:

وكم من عائب قولًا صحيحًا ... وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه ... على قدر القرائح والفهوم

وبيان الجهة المحسنة للوصل في قوله بعد أن تعلم أن هؤلاء الشعراء كان تعيشهم من جوائز مدح الأمراء إذ ذاك، وكانت الأمراء متباعدة الأمكنة في أقطار الدولة فكان الشاعر منهم يقصد الأمير بمصر من بغداد والأمير بخراسان من الشام قال الحسن بن هانئ:

تقول التي من بيتها خف محملي ... عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب ... بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر ... جرت فجرى في إثرهن عبير
دعيني أكثر حاسديك برحلة ... إلى بلد فيها الخصيب أمير
فتى يشتري حسن الثناء بماله ... ويعلم أن الدائرات تدور
فما جازه جود ولا حل دونه ... ولكن يسير الجود حيث يسير

وهذه القصيدة هي التي يقول في براعة الانتهاء منها:

وأني جدير إذ بلغتك بالمنى ... وأنت بما أملت فيك جدير
فإن تولني منك الجميل فأهله ... والأفاني عاذر وشكور

يقال أن الخصيب لما سمع هذه القصيدة تحير في جائزة الشاعر، فرأى في نومه قائلًا: أجزه بنبحة كلب فأوّلها بلفظة ألف وبعد الألف حشا فمه درّا، فكان الشاعر كما ترى يصف بعده عن وطنه ومفارقته أهله وعشيرته وأحبابه ومراتع أنسه إيجابًا للحق على من قصد، فكأنه يقول له: جودك يردني إلى وطني ويجمع بيني وبين أحبتي في قرار عين وسكون خاطر، وقد كشف هذا المعنى أبو نواس في قوله:

سأشكو إلى الفضل ابن يحبي بن ... هواك لعل الفضل يجمع بيننا

وأبو الطيب في قوله:

على الأمير يرى ذلي فيشفع لي إلى التي تركتني في الهوى مثلا

وقد عيب على هذين الشاعرين من جهة المعنى لا من جهة البلاغة الشعرية حيث كان طلب الجمع بتلك العبارة لما فيها من ملاحظة القيادة، فأراد أبو تمام أن يذكر هذا المعنى بعبارة سالمة من ذلك النقد، فمعنى قوله: أن نوى الأحبة مر كالصبر وقربهم حلو كالشهد وإن أبا الحسين قادر عليه وأنه كريم غير بخيل، فهذه الجمل متناسقة وصلها حسن كما ترى.
ومن شواهد الفصل لعدم المناسبة قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِم)[البقرة: ٦] بعد ذلك الكتاب، فالجملة الأولى مسوقة لمدح الكتاب، والجملة الثانية مسوقة لذم الكفرة.

الموضع الثالث

جملة سبقتها جملتان أولهما صالحة للعطف عليها، والثانية في العطف عليها فساد فلدفع الوهم ينزل الوصل، وشاهده قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾[البقرة: ١٤] يصلح عطفها على قوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾[البقرة: ١٤]، ولكن يقوم وهم أنهم معطوفة على قوله: ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾[البقرة: ١٤]، وليس من مقول قولهم، أو على: ﴿ قَالُوا آمَنَّا ﴾[البقرة: ١٤] وليس الاستهزاء بهم مشروطًا ولبعض الشعراء:

وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلًا أراها في الضلال تهيم

يحسن عطف أراها علي وتظن لكن يتوهم عطفه على أبغي بها.

الموضع الرابع

الجمل المتحدة مقصودًا بأن تكون الثانية مؤكدة للأولى أو بيانًا لها أو بدلًا منها، فالمؤكدة كقوله تعالى: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[البقرة: ٢] وقوله: (﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فهما مؤكدتان لقوله: ﴿ ذلك الكتاب﴾ على وجه من الإعراب بأن يكون ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ مبتدأ وخبرًا، ومعناه ذلك البعيد الرتبة العالي المنزلة هو الكتاب الكامل في باب الهداية، فربما يتوهم أن هذا الكلام لما فيه من المبالغة مما يرمى به جزافًا فتأكيده بـ ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ تأكيد معنوي، وتأكيده بـ ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ تأكيد لفظي فلا يصح ولا ريب فيه وهو هدى، كمالا يصح في قولك: زيد زيد قصدك وزارك زيد ونفسه أن تقول زيد وزيد وزيد ونفسه.

والبيان كقوله تعالى: (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) [إبراهيم: ٦]، وربما عطف ما يصلح بيانًا لملحوظ آخر كالإشارة إلى كون الموصول جنسًا آخر منفردًا لشدة الفظاعة فيه كما في آية رقم(٦) من سورة إبراهيم (ويذبحون).

والبدل كقوله تعالى: (أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ)[الشعراء: ١٣٢] وهو بمنزلة بدل البعض في المفردات ولبعضهم:

أقول له أرحل لا تقيمن عندنا وإلا فكن في السر والجهر مسلما

وهذا بمنزلة بدل الاشتمال، فالأمر بالرحيل لا يعين الكراهية والبغض فإنك تقول لصاحبك: ارحل في طلب المجد والعلى، وقوله: لا تقيمن عندنا صريح في إبانة المقصود ونص عليه.

الموضع الخامس

جملة يجاب بها عن سؤال ينشأ من جملة سابقة ويسمى هذا الفصل استئنافًا، واشتهر بالاستئناف البياني والاستئناف النحوي أعم منه، وشاهده قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ ﴾[النور: ٣٦] كأنه قيل: من يسبحه؟ فأجيب: يسبحه رجال كما سلف. ومن هذا الباب قوله:

ليبك يزيد ضارع الخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

وفي قوله: * قال لي كيف أنت قلت عليل * كأنه قيل: ما سبب ذلك؟ فأجيب: سببه سهر دائم. وفي قوله:

زعم العواذل أنني في غمرة صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي

كأنه قيل: هل صدقوا. وتقول: أحسنت إلى زيد زيد حقيق بالإحسان، وأحسنت إلى خالد صديق الصدوق أولى بمعروفي.

الوصل

له موضعان سبق أحدهما والآخر الجمل المتفقة اسمية وفعلية ولا يحسن المخالفة بينهما إلا لنكتة كان يكون المقام داعيًا لجميع مستمر وغيره، كقوله تعالى: ﴿ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾[الأعراف: ١٩٣] ومع اتفاق الجملتين مثلًا في الاسمية والفعلية لابد أن يتناسبا تناسبًا تامًا بحيث يتولد من اجتماعهما معنى واحد يجعل الجملتين جملة واحدة، ولتلفت لذلك في عبارة عادية أوردها عليك مثلًا إذا كنت في مجلس نظمك وبعض أصحابك فطرأ عليكم من تكرهون حضوره معكم ليأخذ منكم من لا يتم إلا به أنسكم ولم يجد بدًا من الذهاب معه، فإنه يدخل

عليكم لذلك من الوجد والأسف ما تألم له نفوسكم فواحد منكم واقف بالباب إذا بالمحبوب قد رجع فأسرع يبشر الأصحاب بقوله: رجع زيد وذهب عمرو أي جاء الحبيب وذهب البغيض، فأنت ترى أن التناسب قرن بين هاتين الجملتين حتى تولد منهما معنى واحد جعل الجملتين جملة واحدة، وذلك المبشر يقول: ليذهب أسفكم وليراجعكم أنسكم وفرحكم.

وعليك بتأمل كل وصل في الكتاب العزيز تجد العجب العجيب قال: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾[التوبة:٨٣]، وقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[الأنفال: ٢] ، والمناسبة الجامعة للجملتين عند مفكرتك بحيث يحكم عقلك بحسن الجمع بينهما يسميها أهل المعاني الجامعة بين الجملتين فأكثر، فإن كانت المناسبات ملحوظة للعقل بلا واسطة وهم ولا خيال كالجمع بين المتماثلات والمتضايفات يسمى الجامع العقلي، وإن كان بواسطة الوهم يسمى الوهمي، وإن كان بواسطة الخيال يسمى خياليًا، فالوهم يجعل الأشياء المتشابهة والأضداد متناسبة متماثلة فعلى من يحاول أن يعرف البلاغة لكلام ينشئه أو عبارات بلاغية يفهمها أن يتقن معرفة: مواضع الفصل والوصل، ويمعن النظر في الجهة الجامعة الموجبة لوصل الجمل فيما يرد عليه من كلام الله جل ذكره وكلام بلغاء الناس من الشعراء والكتاب، وليخص الجامع الخيالي بفضل فكر، فإنه مختلف باختلاف عرف طوائف الناس حتى تجتلي بصيرته حسن العروس المجلوة على أرفع مرتبة من مراتب البلاغة في قوله تعالى في مقام الاستدلال وطلب النظر من خطاب الأعراب: ﴿ أَفَلَا

يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]، فإن هذه الأشياء لا تزال حاضرة متعانقة في خيالات الإعراب، فإن سبب حياتهم وتمام تمتعهم بها إنما هو المواشي وأعظم أنواعها عندهم الإبل لا يعدون غيرها مالًا حتى إذا أطلق لفظ المال عندهم لا ينصرف إلا إليها وهم مضطرون إلى الانتقال بها من موضع إلى موضع حسب وجود المراعي التي سببها الغيث النازل من السماء وحصونهم عند خوفهم الجبال، فتلك الأشياء لا تحضر في ذهن الحضري حضورها في ذهن البدوي ولا قريبًا منه، فعليه أن ينظر إلى أحوال الناس نظر تعلم وتعرف حتى يمكنه أن يراعى المناسبات في خطاب كل صنف ومحاورة كل فريق.

وقد أورد صاحب المفتاح أمثلة في معنى واحد على ألسنة أشخاص اختلفت حرفهم وآلات صناعاتهم ترشدك إلى ما أنت بصدده، فقال وصف جوهري لأحسن الكلام: " أحسن الكلام ما ثقبته الفكرة، ونظمته الفطنة، وفصل جوهر معانيه في سمط ألفاظه، فحملته نحور الرواة ".

ووصف الصيرفي: " خير الكلام ما نقدته يد البصيرة، وجلته عين الروية، ووزنه معيار البلاغة، فلا ينطق فيه بزائق، ولا يسمع فيه ببهرج ".

ووصف الصائغ: " خير الكلام ما أحميته بكير الفكرة، وسبكته بمشاعل النظر، وخلصته من خبث الأطناب، فبرز بروز الأبريز مركبًا في معنى وجيز ".

ووصف الحداد: " أحسن الكلام ما نصبت عليه منفاخ الروية، وأشعلت فيه نار البصيرة، ثم أخرجته من فحم الأفحام، ورفعته بفطيس الأفهام، الفطيس على وزن سكين المطرقة الكبيرة ".

ووصف الخمار: " أبلغ الكلام ما طبخته مراجل العلم، وضمته دنان الحكمة، وصفاه رواق الفهم، فتمشت في المفاصل عذوبته، وفي الأفكار رقته، وفي العقل جدته ".

ووصف البزاز: " أحسن الكلام ما صدق رقم ألفاظه، وحسن رسم معانيه، فلم يستعجم عند نشر ولم يستبهم عند ملى".

ووصف الكحَّال: " كما أن الرمد قذى العين كذا الشبهة قذى البصائر، فأكحل عين اللكنة بميل البلاغة، وأجل رمص الغفلة بمرود اليقظة ".

والجمَّال يصف بليغًا: " البليغ من أخذ بخطام كلامه فأناخه في مبرك المعنى، ثم جعل الاختصار له عقالًا، والإيجاز له مجالًا، فلم يند عن الأذهان ولم يشذ عن الآذان ".

هذا والكلام في أمر (الواو) ينبهك على مزيتها ويدعوك إلى اعتبار مواقعها في نحو كل أمره وعمله وفي نحو:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

وفي نحو ما أنت ومطارح الأنظار، كيف زيد ومسارح الأفكار؟ وفي نحو: أطلب العلم ولو بالصين.

ومن مواقعها بعض الجمل التي تريد أن تجعلها حالًا على ما عرفت تفصيله في النحو، فإنك إذا اعتبرت الجمل بأنواعها وجدت بعضها آبيًا عن الارتباط الحالي متبادرًا إلى ذهنك استئنافه، مثلًا إذا سمعت: عثر زيد الشمس مضيئة مواقع الأقداد تبادر إلى فهمك أن الجملة مسوقة على طريق الاستئناف لتوبيخ زيد بنفي عذره ونسبته لإهمال التحرز واستعمال آلة الحفظ، ويندفع ذلك بالواو فتفهم عثر في تلك الحالة فكيف به في غيرها.

وأشد الجمل افتقارًا إلى الواو الجملة الاسمية حتى قيل بوجوبها فيها، وما ورد بدونها ضعيف ساقط إلا أن بعض الجمل الاسمية تكون في حكم المفرد فلا يكون خلوها من الواو ضعيفًا كقولهم: كلمته فوه إلى في أي متشافهين وقوله:

إذا أتيت أبا مروان تسأله وجدته حاضراه الجود والكرم

والماضي المثبت قريب في الافتقار إلى الواو من الجملة الاسمية حتى قيل: أنه لا تجعل جملته حالًا إلا بقد والواو، ويرده قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠] ولا معنى لكونه على تقدير الواو وقد، فإن ذلك ليس حكمًا دينيًا تجب المحافظة عليه؛ فإن الواو وقد لأجل أن تقرب لفهمك إرادة الحال، فإن الفعل الماضي بطبيعته بصرف ذهنك إلى أن الغرض إفادة مضمون جملته لا أنها مبنية على غيرها مرتبطة به قيدًا له، فإذا سمعت: لقيت زيدًا ركب فرسه الشقراء ربما تسارع لفهمك أن ذلك أمر آخر تريد أن تفيده بعد ما أنهيت ذلك وأعرضت عنه، فإذا سمعت: لقيت زيدًا وقد ركب، فإنك لا يختلج في صدرك إلا أن المراد ثابتًا ركوبه متحققًا، فحالية الجملة معتمدة على الواو ومعنى قد،

وهذا مراد من قال من المتقدمين إن قد تقرب الماضي من الحال لا يريد الحال الزماني بل يريد الحال المقيدة للفعل بما سمعت من التأويل وبيان المعنى.

الباب الثالث
فيما يتعلق بالجمة وجزئها والجمل
وهو الإيجاز والإطناب والمساواة:

فإنها عبارة عن زيادة في الألفاظ وما يقابلها، والزائد مفرد أو جملة أو أكثر وكذلك المحذوف.

أما المساواة فهي كون العبارة مساوية لما تريد أن تفيده كعبارات أوساط الناس الذين لم يرتقوا إلى درجة البلغاء ولم ينحطوا إلى موضع أهل الحصر والعي، والاعتماد في تحقق المساواة على عرفهم في المحاورات؛ لتقاضي أغراضهم وتفهيم ضمائرهم لأعلى ما تقتضيه صناعة النحو، ولذلك صح التمثيل للمساواة بقوله - جل ذكره -: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٣] فلا يقال قد حذفت المستثنى منه، ومن وادي هذا المعنى قول الناس: النية الخبيثة ما تضر إلا صاحبها.

وبالقياس إلى عبارات الأوساط يعرف الإيجاز والإطناب ذاهبين في مراتبهما، فحدّ الإيجاز: كون العبارة أقل من عبارة المتعارف متدرجًا إلى أن تكون العبارة لو اختصرت لاختلت ولم تفهم المراد، وحدّ الإطناب: كونها أكثر منها الفائدة وإلا كان تطويلًا مثل:

* وألفى قولها كذبًا ومينا *

أو حشوًا كقوله:

* واعلم علم اليوم والأمس قبله *

قيل ومنه قول أبي الطيب:

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

فقيل لفظ (الندى) حشو مفسد وبين ذلك بأن الشجاعة لو لم يكن فيها تعريض الحياة للزوال وما يقرب منه لم تكن فضيلة والصبر عن المحبوب أو على المكروه وفي مواطن البأس نوع من الشجاعة، وأما الندى وهو الجود وبذل المال فماله ولشعوب، بل يرى أن المرء لو عرف الخلود كان بالمال أضنّ وليس كما قيل فبالمال حفظ الحياة وكمال الانتفاع بها:

حياة بلا مال حياة ذميمة وعلم بلا جاه كلام مضيع

فجود المرء بماله صدقة أو فتوّة لبقاء الذكر واغتنام الأجر عالمًا أنه لو فقد فقد بين التعلق بين الشجاعة والصبر.

ثم الإيجاز نوعان: إيجاز قصر وإيجاز حذف ويسمى اختصارًا، والأول هو كدّ البلغاء ومحك الأذكياء ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩] فهذا أوجز كلام في هذا المعنى وأحكمه وأسسه فإنك لو ذهبت تشرحه كنت تقول ولكم في مشروعية الحكم بأن متعمد القتل يجب أن يسلمه السلطان بنفسه أو نائبه إلى أولياء المقتول يشدّون وثاقه بحضرة أحبابه وأعدائه فمن باك عليه راحم له باذل عنه دية أو ديتين إلى عشر، كما وقع من أمير المؤمنين معاوية - رضي الله عنه -

في بعض من توجه عليه الحكم به، ومن شامت موبخ ضاحك إلى غير ذلك مما هو أشدّ على النفوس ولاسيما العرب من الموت، فربما قتل بعض الناس نفسه فرارًا من ذلك فارتدع الأقوياء عن الاجتراء وشيمت السيوف إلا في جهاد؛ فاستوى الناس وعم الأمن وأقبل كل على عمله وانتفع بعضهم ببعض؛ فطالت الأعمار وكثرت الذرية ونما المال فظهرت حياة كثيرة عظيمة آمنة مطمئنة بتزايد خيرها.

ويزيدك معرفة بفضل هذا الكلام أنه لا يمكنك أن توازنه بما كانت العرب ترى أنه أوجز كلام في هذا المعنى وهو قولهم (القتل أنفى للقتل) لا في اللفظ ولا في المعنى. ومن الكلم النوابغ للزمخشري - رحمه الله تعالى -:" فيما يبني العاقل عليه أمره في معاشرة الناس استند أو استفد" . فهاتان الجملتان المنتسقتان لا أذكر درًّا ولا جوهرًا ولا ما كان من نفائس هذه الدنيا يغنياك عن كتاب حافل في النصائح والآداب، وتأمل التفاوت بينهما باعتبار الوجازة والنزاهة وبين قول من قال شعرًا:

يـا معـشر الأخـوان أوصـيكم	وصـية الوالـد الوالـده
لا تنقلـوا الأقـدام إلا إلـى	مـن ترتجـي مـن عنـده فائـدة
إمـا لعلـم تـستفيدونه	أو لكـريم عنـده مائـدة

ومن إيجاز القصر في المفرد مثل أن تقول: معقول ومحسوس، ومجلود ومكثور، بدل مدرك بالعقل ومدرك بالحس ومضروب الجلد وكثيرة أعداؤه عليه.

وإيجاز الحذف يكون بحذف مفرد أو جملة أو أكثر مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا ﴾ [الأنعام: ٣٤] أي فاصبر وتأس.

وقولهم: ﴿ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ [يس: ١٩] أي: أئن ذكرتم ترجمون ويمسنا منكم عذاب أليم، وهل يصلح ذلك داعيًا فتكونوا مصيبين لا بل أنتم قوم مسرفون. وقوله: ﴿ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف:٤٥، ٤٦] أي: فأرسلوه فجاءه فبلغه عنهم ثم حضر فقالوا: يا يوسف.

ومن أمثلتهم لذلك قول أبي العلاء:

طربن لضوء البارق المتعالي ببغداد وهنا ما لهنّ ومالي

أي: طربن فأخذت أسكنها وهي لا تسكن ثم أعاودها وتدافعني إلى أن قضيت العجب من كثرة معاودتي وشدة مدافعتها.

والداعي إلى الإيجاز: تسهيل الحفظ، وتقريب الفهم، وضيق المقام، وإخفاء الأمر عمن لا تحب إطلاعه عليه، وسآمة المحادثة والإشارة للنفرة إلى غير ذلك مما سبق تنبيهك لبعضه وليس يعجزك بعد اعتبار الأمثال.

والإطناب مثل قوله تعالى في مقام الاستدلال: ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ الآية فإيجازه إن في الممكن مع تساوي طرفيه آية. وقوله في مقام الشكوى وطلب الإشكاء: ﴿رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا﴾ وإيجازه شيخت، وبين العبارتين عبارات مثل: وهن عظمي، وشاب رأسي.

وقد يعتبر الإيجاز والإطناب بتفاوت المقامات فقد يقتضي مقام كثرة الكلام لاستقصاء الصفة كالأنس على ذهاب الشباب والتضجر من حلول

المشيب، ومن هنا تسمعهم يقولون: الخطب والفخر محل إطناب، وكان يقال المدح أيضًا محل إطناب حتى قال ابن الرومي:

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فيه فقد أراد هجاء

لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاء

ومن الإطناب التخصيص بعد التعميم نحو: ﴿تنزل الملائكة والروح﴾ أي: جبريل خصه بالذكر مع دخوله تحت عموم الملائكة تكريمًا له كأنه جنس آخر. ومنه التكرير نحو: ﴿كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون﴾ للدلالة بثم على أن الإنذار الثاني أبلغ، ومنه أشياء خصت بأسماء كالإيغال والتتميم والتذييل والتكميل يأتي بيانها في فن البديع إن شاء الله تعالى.

فن البديع

أعلم أنّ العمل بهذا الفنّ إنما هو بعد العمل بسابقيه كما أنّ العمل بفن البيان بعد العمل بفن المعاني، وبيان ذلك أنك تنظر أول ما تنظر إلى المعنى الذي تريد أن تعبر عنه وأين تضع العبارة فحافظك إذا من الخطأ في تعيين العبارة حسب الموضع هو فن المعاني.

ثم إنك تنظر إلى الألفاظ فتختار منها ما تعرف أنه يبين مرادك ويجلو صورة المعنى الذي شخصته أولًا للبصائر كما تجلوا المرأة الصقيلة صورة ما يقابلها وحافظك إذا من الخطأ فنّ البيان.

ثم إذ أردت أن تزين عبارتك حتى تكون بهيجة مفرحة كالصور المنقوشة بنقوش محكمة متناسبة بعد أن أخذت الأعضاء متانتها وكمالها كما يليق بنوعها جاء العمل بهذا العلم، وليكن على ذكر كتمثيل الكلام الذي تريد إنشاءه بالبيت الذي تريد أن تسكنه من أول ما تريد أن تبنيه.

وقد أفرد المتأخرون هذا الفن بالتأليف وأدخلوا فيه كثيرًا من مباحث الفنين كأنهم قدّروا كفايته لمعرفة من أين يتميز كلام عن كلام وتشرف عبارة عن عبارة، وفصلوه إلى أنواع يزيد المتأخر فيها على المتقدم حتى بلغت عددًا كثيرًا، ولم يزل المشتغلون بمعرفة المحاسن الكلامية يعثرون على أمور إذا قيست لما ذكره أهل هذا الفن كانت مستحقة لنظمها في سلكه وتسميتها بما يناسبها، هذا والأحوال المبحوث عنها في هذا الفن تنقسم إلى: لفظية وإلى معنوية.

اللفظي منها: ما يعود حسنه على الألفاظ كالجناس والطباق، والمعنوي: ما يتعلق بالمعنى كالمبالغة أو الغلو، وهاهي تلك أنواع البديع على ترتيب التآليف المستقلة.

حسن الابتداء ويقال: براعة المطلع

قال العلماء ينبغي للمتكلم أن تزيد عنايته ويكثر اهتمامه بأربعة مواضع من كلامه، وإن كان ينبغي أن يتحرى الأجود في سائره أول الكلام وآخره ومكان التخلص من فن إلى فن وموضع الطلب، فقالوا: براعة المطلع وحسن التخلص وحسن الطلب وحسن الختام.

فبراعة المطلع بأن تكون ألفاظه مختارة سالمة عما ينفر منه السامع أو يتعلق به نقد، وإذا كان الكلام شعرًا أو نثرًا مسجعًا لزم أن يكون كل من الشطرين أو القرينتين مستقلًا بالإفادة مع شدة التناسب بينهما، وعلى المتكلم أيضًا أن يكون أول كلامه مشتملًا على إشارة لطيفة إلى مقصوده من الكلام وسمّو ذلك براعة الاستهلال، وسنورد عليك مطالع تحذر أمثالها رمت بأصحابها إذ ذاك خلف الاعتبار على أنهم من هم.

قال غيلان ذو الرمة يمدح عبد الملك بن مروان وكان بعينيه علة:

ما بال عينيك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب

الكلية بضم فسكون هنا رقعة تخرز في القربة تحت العروة فجرى الشاعر على عادتهم في ذكر العشق وأحواله من السهر والبكاء وحرارة القلب وانفطار الكبد إلى غير ذلك، ولم يلتفت إلى حال من معه الخطاب فكان جزاؤه أن قال له: مالك وهذا يا بغيض.

وافتتح جرير بقوله * أتصحو أم فؤاد غير صاح * فقال ممدوحه: بل فؤادك.

وقال إسحاق الموصلي في أول تهنئة بقصر بناه ملكه:

يا دار غيرك البلا ومحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك

فأمر بهدمه لساعته، ولبعضهم يخاطب عظيمًا يرجو إثباته:

* موعد أحبابك بالفرقة غد *

فقال: بلى أحبابك ولك المثل السوء، وقال مرة ثانية في تهنئة بيوم المهرجان:

لا تقل بشرى ولكن بشريان غرة الداعي ويوم المهرجان

فأمر بضربه خمسين: وقال إصلاح أدبه أحسن من إثباته وقال أبو تمام:

* على مثلها من أربع وملاعب *

فقال بعض الحاضرين: لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وقال بعضهم: مدحت السلطان بقصيدة وقبل عرضها عليه أطلعت كثير من حذاق الأصحاب عليها، فما منهم إلا من قدح فكره في نقدها ولم يأخذ عليّ منها في شيء ثم عرضتها على الممدوح فصادفت قبولًا، وكان مطلعها:

دعها ولا تحبس زمام المقود تطوي بأيديها بساط الفدفد

وكنت بها معجبًا فأسمعتها يومًا لبعض شبان أعيان العسكر، فقال: ما كان يؤمنك أن يقول حين يتناول درجها فيجد في صدره دعها قد فعلت ويرمى بها أما كنت تخجل فقلت: بلى ولكن الله قد وقى.

ويحكى أن صالح بن حسان قال يومًا للهيثم بن عدي أنشدني بيتًا صدره أعرابي في شملة وعجزه مخنث من مخنثي المدينة. فقال: لا أعرفه. فقال: أجلتك حولًا. فقال: ولو أجلتني عشرًا. فقال: كنت أحسبك أذكى من هذا وأنشده بيت جميل:

* ألا أيها النوام ويحكم هبوا *

هذا أعرابي في شملة:

* أسائلكم هل يقتل الرجل الحب *

ولمسلم بن الوليد:

أديرا عليّ الراح لا تشربا قبلي ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي

فهذه المطالع كافية لإرشادك إلى ما يجب احتراسك من مثله، وأزيدك ما حكى أن شاعرًا مغربيًا سمع شعر الصاحب بهاء الدين زهير المصري فحمله ذلك على أن يقصد مصر ليتعلم رقة الشعر من ذلك الوزير، فلما لقيه وعرفه الحال قال له الصاحب: أن ذلك أمر لا يعرف بطريقة تعليم علمي، وإنما يصرف الشاعر فكره فيما يرد عليه من لطائف الأشعار، ويتأمل من جهات اللطف فيها حتى تأخذ من طبعه مكانًا وحينئذ بجهد في محاكاتها، فعليك بإدمان قراءتها على ذلك الحد والآن ألقي عليك صدرًا لتعمل له عجزًا وتطلعني لأخبرك بحاله فأنشده:

* يا بان وادي الأجرع *

فأخذه المغربي وانصرف يكد فكره في تتميمه ثم جاء صبيحة ليلته إلى الصاحب فأنشده:

يا بان وادي الأجرع سقيت غيث الأدمع

فقال الصاحب الصدر يطلب غير هذا وأتمه بقوله:

* هل ملت من طرب معي *

فأنت ترى أن الميل مأخوذ من البان، وتعليله بطرب المساعدة للعاشق ومجانسته إياه في العشق، فمثل هذا ينبغي أن تكون المطالع.

ومن جياد المطالع قول النابغة الذبياني:

رحلت سمية غدوة أجمالها غضبي عليك فما تقول بدالها

وقول القطامي:

ألا أيها اللاحي كفاك عتابًا ونفسك وفق ما استطعت صوابا

ولأبي تمام في استهلاك مرثية:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

ولبعضهم في استهلال تهيئة بمولود:

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا وكوكب السعد في أفق العلى صعدا

هذا في براعة الاستهلال وحسن قوله فيها:

لم يتخذ ولدًا إلا مبالغة في صدق توحيد من لم يتخذ ولدا

الجناس والتجنيس والمجانسة والتجانس

ألفاظ يستعملها أهل هذا الفن لنوع لفظي ينبغي أن يستعمل على ما حدّه المطرزي في شرح المقامات حيث يقول: " أن أنواع الجناس لا تستحسن حتى يساعد اللفظ المعني، ولا تستلذ حتى تكون عذبة الإصدار والإيراد سهلة سلسلة المقاد، ولا تبرع حتى يساوي مطلعها مقطعها، ولا تملح حتى يوازي مصنوعها مطبوعها مع مراعاة النظير وتمكن القرائن، وإلا فما قلق في أمانه ونبا عن مواقعه فمبعزل عن الرضاء عند علماء البيان، وبمكان من البشاعة لدى أرباب النثر وأصحاب النظم، فإذا أردت أن تستوفى أقسام المحاسن وتجتنب أنواع المشائن فأرسل المعاني على

سجيتها ودعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها، فإما أن تضع في نفسك أنه لا بدَّ لك من تجنيس وتسجيع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت منه بمعرض الاستكراه على خطر من الخطر فإن ساعدك الجد كما ساعد طاهر البصري في قوله:

ناظراه فيما جنى ناظراه أودعاني أمت بما أودعاني

وأبا تمام في قوله:

وأنجدتم من بعد اتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

فذاك وإلا أطلقت لسان العتب، وأرخيت عنان الذم، وأفضى بك طلب الإحسان من حيث لم تحسنه إلى أشنع القبح، وأوقعك الولوج بالثناء عليك في ورطة القدح، وانقلب إحسانك إساءة وتحول سرورك مساءة " انتهى كلام المطرزي.

وقال ابن رشيق في الجناس: " هو من أنواع الفراغ وقلة الفائدة، ومما لاشك في تكلفه وقد أكثر منه هؤلاء الساقة المتعقبون في نظمهم ونثرهم حتى رك وبرد".

وأقول: صدق ابن رشيق فإن الجناس لا يخلو من أن يحيد بصاحبه عن الجادة، ولأهل دقة النظر من الشعراء والكتاب فقد ليس يدركه العلماء، فالمطرزي - رحمه الله – يقول: أن الجدّ أي الحظ والبخت ساعد طاهر البصري، وذلك لا يقوله أولئك فإن بيتي طاهر جائران عن سبيل الإحسان وإن كان ظاهرهما خادعًا ألا ترى أن للشاعر أن يقول قوله:

قلـت للقلـب مـا دهـاك أجنبـي قـال لـي بـائع الفرانـي فرانـي

لفظ فراني كلمة نازلة ولأجلها نقص كلمة الفراني حقها وهي بتشديد الياء جمع فرنية نسبة إلى الفرن لنوع خبز وقوله:

نـاظراه فيمـا جنـى نـاظراه أودعـاني أمـت بمـا أودعـاني

فيه الرضاء بإدخال المحبوب تحت أسر الاحتجاج وتكلف الإجابة وليس هو الجاني، وهبّ هما ناظراه أفكان يسلم ويعيش بعد أن انفرى قلبه، ثم الودائع مردودة ثم الكلام ينادي على نفسه أن إنشاءه والقصد إليه إنما هو قرن تلك الألفاظ.

ولذلك لا ترى الجناس في بليغ الكلام إلا نادرًا وحيث كان رأيته ثابتًا في موضعه متمكنًا منه أوجبه المعنى. مثلًا قوله تعالى: ﴿ينهون عنه وينأون﴾ ربما تقول أن لفظ ينأون أتى به لأجل الجناس وإلا فلفظ يبعدون يقوم مقامه، لكن إذا أعطيت الألفاظ حقها من النظر رأيتك لا تقول لشيء بعد إلا حين يجاوز مواضع القرب، وأما النأى فهو الانفصال عن الشيء لقصد البعد منه، والنفرة فمخالفتهم متصلة بفعلهم والمذمة لاحقة بهم من حيث ينهون.

وبعد فقد قيل في فائدة الجناس: أنه استدعى ميل السامع وإصغاء إلى الكلام حيث تعود اللفظة التي سمعها فيأخذه ضرب من الاستغراب ويستحسن المكرر مع اختلاف المعنى، وهو أنواع:

التام

ويكون بإيراد الألفاظ المشتركة للمعاني المختلفة وغير ذلك ورد في موضعين من القرآن: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾، ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾، ﴿يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ ويحسن منه مثل قول بعضهم:

إذا رماك الدهر في معشر ... قد أجمع الناس على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم ... وأرضهم ما دمت في أرضهم

وقول آخر:

وخر الأسنة والخضوع لناقص ... أمران في رأي النهى مرّان
والرأي فيما دونه الأمران أن ... تختار وقع أسنة المرّان

وهذا الجناس إذا كان ركناه من جنس واحد كفعلين أو اسمين سمي متماثلًا وإن اختلفا سمي مستوفى.

الجناس المطلق

يكون بتوافق ركنيه في الحروف وترتيبها دون أن يجمعهما اشتقاق كقوله - صلى الله عليه وسلم -: «أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها وعصية عصت الله ورسوله» فإن جمعهما اشتقاق مثل ﴿لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾، فقيل: يسمى جناس اشتقاق وقيل هو غير جناس.

الجناس المذيل والجناس المطرف

يكون الأول بزيادة أحد ركنيه في آخره والثاني بها في أوله مثل قول أبي تمام:

يمدون من أيد عواص عواصم ... تصول بأسياف قواض قواضب

وقول الخنساء:

إن البكاء هو الشفا ... من الجوى بين الجوانح

وقول الشيخ عبد القاهر:

وكم سبقت منه إلى عوارف ... ثنائي على تلك العوارف وارف

وكم غرر من بره ولطائف ... لشكري على تلك اللطائف طائف

الجناس المضارع والجناس اللاحق

يكون الأول باختلاف ركنيه في حرفين لم يتباعدا مخرجًا مثل: ﴿ينهون وينأون﴾، والثاني في متباعدين مثل: ﴿إنه على ذلك لشهيد * وإنه لحب الخير لشديد﴾.

الجناس اللفظي

يكون باختلاف ركنيه بالضاد والظاء أو التاء والهاء أو التنوين والنون مثل: ﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾، ومثل قول بعضهم:

إذا جلست إلى قوم لتؤنسهم ... بما تحدث من ماض ومن آت

فلا تعيدن حديثًا أن طبعهم ... موكل بمعاداة المعادات

وقول آخر:

أحسن خلق لله وجهًا وفمًا إن لم يكن أحق بالحسن فمن
حكى الغزال مقلة ولفتة من ذا رآه مقبلًا ولا افتتن

الجناس المحرّف

يكون باختلافهما في حركة مثل: الضلال والظلال، والكلم والكلم، ومنه جبة البرد جنة البرد.

الجناس المصحّف

يكون بكلمات لو زال إعجامها لم تتميز كقول بعضهم: غرك عزك، فصار قصار ذلك ذلك، فاخش فاحش، فعلك فعلك، بهذا تهدى.

الجناس المركب والجناس الملفق

يكون الأول باختلاف ركنيه أفرادًا وتركيبًا، فإن كان من كلمة وبعض أخرى سمي مرفوًا كقول الحريري:

ولا تله عن تذكار ذنبك وابكه بدمع يحاكى المزن عند مصابه
ومثل لعينيك الحمام ووقعه وروعة ملقاه ومطعم صابه

وإن كان من كلمتين فإن اتفق الركنان خطًّا سمي مقرونًا كقوله:

إذا ملك لم يكن ذاهبه فدعه فدولته ذاهبة

والأسمى مفروقًا كقوله:

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تكن بالغت في تهذيبها

فـإذا عرضـت الـشعر غيـر مهـذب ... عـدّوه منـك وساوسـا تهـذى بهـا

ويكون الملف بتركيب الركنين جميعًا كقول بعضهم:

وليـت الحكـم خمسًا وهـي خمـس ... لعمـري والـصبا فـي العنفـوان

فلـم تـضع الأعـادي قـدر شـاني ... ولا قـالوا فـلان قـدر شـاني

وقول آخر:

أرى مجلس السلطان تفضي عفاته ... إلـى روض جـود بالعطـاء مجـود

فكـم لجبـاه الـراغبين لديـه مـن ... مجـال سـجود فـي مجـالس جـود

جناس القلب

يكـون بـاختلاف ركينـه فـي ترتيـب الحـروف كقولـه: « اللهـم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا ».

الجناس المعنوي

نوعان: جناس إضمار وجناس إشارة، الأول أن تأتي بلفظ يحضر في ذهنك لفظًا آخر بمرادفة أو بطريق أخرى، وذلك اللفظ المحضر يراد به غير معناه بدلالة سياق الكلام كقول الشريف ابن طباطبا العلوي:

مـنعم الجـسم تحكـى المـاء رقتـه ... وقلبـه قـسوة يحكـى أبـا أوس

أوس شاعر مشهور من شعراء العرب واسم أبيه حجر فلفظ أبي أوس يحضر في ذهنك اسمه وهو لفظ حجر، والمراد به بدلالة قوله وقلبه قسوة الحجر المعروف، وحين ظهر استعمال هذا النوع استنكره الأدباء حتى قال مسلم بن بحر يخاطب الشريف المذكور:

أبا حسن حاولت إيراد قافيه ... مصلبة المعنى فجاءتك واهيه

وقلت أبا أوس تريد كناية ... عن الحجر القاسي فأوردت داهيه

فإن جاز هذا فاكسرن غير صاغر ... فمى بأبي القرم الهمام معاويه

ثم استحسنه المتأخرون وأكثروا منه، فمنه قول بعضهم:

إلا في سبيل اللهو كأس مدامة ... أتتنا بطعم عهده غير ثابت

حكت بنت بسطام بن قيس صبيحة ... وأمست كجسم الشنفري بعد ثابت

بنت بسطام اسمها صهباء، وقوله: كجسم الشنفري يشير إلى قوله:

فاسقنيها يا سواد بن عمرو ... إن جسمي بعد خالي لخل

يقول: أصبحت خمرًا وأمست خلًّا ولبهاء الدين زهير:

وجاهل طال به عنائي ... لازمني وذاك من شقائي

أبغض للعين من الأقذاء ... أثقل من شماتة الأعداء

فهو إذا رأته عين الرائي ... أبو معاذ وأخو الخنساء

ويكون جناس الإشارة بذكر أحد الركنين والإشارة للآخر بما يدل عليه، وذلك حيث يمنع الشعر من التصريح به فلا يكون في المنثور.

وأصله قول امرأة عربية من عقيل:

فأمكثنا دام الجمال عليكما ... بثهلان إلا أن تشد الأباعر

كأنها أرادت أن تقول: تشد الجمال لتجانس الجمال جناس التحريف فأبت عليها القافية، وأكثر المتأخرون من استعماله كقول بعضهم:

وتحت البراقع مقلوبها ... تدب على ورد خد ندي

الاستطراد

هو أن يخرج المتكلم من الفن الذي هو مترسل فيه إلى معنى يذكره باستدعاء مناسبة قوية ثم يرجع إلى تتميم ما كان فيه كقول السموأل:

وإنا أناس لا نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا واحد حتف أنفه ولا مال منا حيث كان قتيل

فسياق القصيدة للفخر وتنسيق المآثر استطرد منه إلى هجاء عامر وسلول ثم عاد إليه.

والاستطراد كثير في القرآن وفي أشعار العرب ترى الشاعر ما ضيًا في سنن فيعترضه شيء يستدعى الصفة فيصفه فإذا أتم عاد. وأصل معنى الكلمة أن الفارس يكون بين يدي قرنه؛ فيظهر أنه انهزم ويفر فيطلبه عاديًا خلفه حتى إذا استشعر صاحب المكيدة أن تابعه قد أفرغ قوته وبطل استعداده وصار في أسر ميل الطلب عطف عليه المطلوب فكان الطالب قاتل نفسه.

ومن شواهد النوع قول البحتري في صفة فرس:

يهوى كما هوت العقاب وقد رأت صيدًا وينتصب انتصاب الأجدل
ما أن يعاف قذى ولو أوردته يومًا خلائق حمدويه الأحول
جذلان ينفض عذرة في غرة يفق تسبل حجولها في جندل

المقابلة

هي أن تذكر معنيين فأكثر ثم تقابل كلًّا بضده، وأكرم شاهد لها قوله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى﴾ ومن استغنى فقد عصى ولم يتق. وقوله: ﴿فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا﴾، ثم قوله - صلى الله عليه وسلم -: «لم يكن الرفق في شيء إلا زان ولم يكن الخرق في شيء إلا شان»، ومن الشعر قول بعضهم:

على رأس عبد تاج عزيز ينه … وفي رجل حر قيد ذل يشينه

وقول الطغرائي:

حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت … بشدّة البأس منه رقة الغزل

ولأبي الطيب:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي … وانثني وبياض الصبح يغري بي

وأخذه منه بعضهم فقال:

أقلى النهار إذا أضاء صباحه … وأظل انتظر الظلام الدامسا

فأصبح يشمت بي فيقبل ضاحكًا … والليل يرثى لي فيدبر عابسا

الاستخدام

هو أن تذكر لفظًا وتعيد عليه ضميرًا تريد به معنى آخر لذلك اللفظ أو تعيد عليه ضميرين تريد بثانيهما غير ما أردت بأولهما، فمن الأول قوله:

إذا نزل السماء بأرض قوم … رعيناه وإن كانوا غضابا

ولابن نباتة المصري:

فسقى الغضا والساكنية وأنهم شبوه بين جوانح وقلوب

الفضا اسم لمكانين معروفين واسم شجر ناره شديدة لصلابته، يقال: أن ناره تمكث تحت التراب المطفئ عادة للنار ستة أشهر.

وثم استخدام آخر أثبته بعضهم وهو أن تذكر كلمة ذات معنيين وتزيدهما جميعًا ناصبًا في الكلام لكل منهما دليلًا كقول بعضهم:

دع الهوينا وانتصب واكتسب واكدح فنفس الحر كداحه

وكن عن الراحة في معزل فالصفح موجود مع الراحه

ومنه في الكتاب العزيز: ﴿لكل أجل كتاب يمحوا الله ما يشاء ويثبت﴾، ومن الاستخدام الأول فيه قوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة﴾ في أحد التفسيرين.

الافتنان

هو أن يجمع المتكلم بين فنين من المعاني مثل الغزل والحماسة، والمدح والهجاء، والتهنئة والتعزية قال تعالى: ﴿كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ صدر الآية تسلية لعامة الناس وتعزية وبيان موضع التأسي فإن الأمر متى عم هان، وعجزها تمدح بالانفراد بالبقاء والجلال أي العظمة والإكرام أي الإعظام فهمًا له لذاته وما كان منهما لغيره فبإحسانه وإفضاله.

ويحكى أنه لما أجاب أمير المؤمنين معاوية - رضى الله عنه - داعي ربه وخلفه ابنه يزيد دخل عليه الناس يوم جلوسه لهم، فلم يتكلم أحد بشيء حيرة بين المصيبة السالفة والنعمة الخالفة، حتى دخل عبد الله بن همام السلولي فقال: آجرك الله على الرزية، وبارك لك في العطية، وأعانك على الرعية، فقد رزئت عظيمًا، وأعطيت جسيمًا، فأشكر الله على ما أعطيت، واصبر على ما رزيت، فقد فقدت الخليفة، وأعطيت الخلافة، ففارقت خليلًا، ووهبت جليلًا ثم أنشد:

اصبر يزيد فقد فارقت ذائقة ... واشكر حباء الذي بالملك أصفاكا
لارزء أصبح في الأقوام نعلمه ... كما رزئت ولا عقبى كعقباكا

﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾.

كما يحكى أن أعرابية لقيت أبا جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس في طريق الحجاز وقد حج بالناس أول حجة بعد موت أخيه السفاح أوّلهم فقالت له: يا أمير المؤمنين قد أحسن الله إليك في الحالتين، وأعظم النعمة عليك في المنزلتين، سلبك خليفة الله، وأفادك خلافة الله، فاحتسب عند الله ما سلبك، وأشكر له ما وهبك، وتجاوز الله عن أمير المؤمنين، وبارك لك في أمرة المؤمنين، ثم دخل الناس بعد من هذا الباب فقالوا وأحسنوا كأبي نواس وأبي تمام ومن جاء بعدهم.

ومن الافتنان بالجمع بين الغزل والحماسة قول ذي اليمينين عبد الله بن طاهر:

نحن قوم تذيبنا الأعين النجل ... على أننا نذيب الحديدا١٠٣#
طوع أيدي الغرام تقتادنا الغيد ... ونقتاد بالطعان الأسودا

نملك الصيد ثم تملكنا البيض ... المصونات أعينا وخدودا
تتقي سخطنا لأسود ونخشى ... سخطة الخشف حين يبدي الصدودا
فترانا يوم الكريهة أحرا ... را وفي السلم للحسان عبيدا

وإذا جمع المتكلم بين معان كثيرة خص من بين الافتنان باسم التمريج أي جعل الكلام مثل المرج يشتمل على أنواع النباتات المختلفة.

اللف والنشر

هو أن تذكر متعددًا بلفظ واحد ثم تذكر متعددًا آخر مفصلًا بألفاظ لكل واحد من الأول واحد من الثاني معتمدًا في ذلك على فهم المخاطب، أو تذكر متعدد بألفاظ ثم تعقبه بمثله على ذلك فمن الأول قوله تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ فالواو في وقالوا عبارة عن اليهود والنصارى، فالمعنى: قال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، وتفهم ذلك بعلمك أن كلًّا من الأمتين تكفر صاحبتها. ومنه قول ابن حيوس:

ثمانية لم تفترق مذ جمعتها ... فلا افترقت مأذب عن ناظر شفر
يقينك والتقوى وجودك والغنى ... ولفظك والمعنى وعزمك والنصر

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ولتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾، ومنه قول على ابن الرومي في المدح:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم ... في الحادثات إذ دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح ... تجلو الدجى والأخريات رجوم

ومنه في الغرامي قول حمدونة الأندلسية:

ولما أبى الواشون إلا فراقنا   وليس لهم عندي وعندك من ثار

وشنوا على أسماعنا كل غارة   وقل حُماتي عند ذاك وأنصاري

غزوتهم من مقلتيك وأدمعي   ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

وحمدونة هذه من كبريات الأدباء وكان يقال لها خنساء المغرب، وهي صاحبة الأبيات المنسوبة غلطًا لأبي نصر المنازي وقد ذكرت في ترجمتها لمعاصريها قبل مولد المنازي بحين وهي قولها:

وقانا لفحة الرمضاء واد   سقاه مضاعف الغيث العميم

نزلنا دوحه فحنا علينا   حنو المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ زلالًا   ألذ من المدامة للنديم

يصدّ الشمس أني واجهتنا   فيحجبها ويأذن للنسيم

تروع حصاه حالية العذارى   فتلمس جانب العقد النظيم

وقد أخبرت في شعرها عن شعبها حيث قالت: وقل حماتي عند ذاك فتلك من عبارات النساء، وحديث الرضاع والفطام والحلي أليق شيء بشعر امرأة.

ومن محاسن الأدب أن يشير المتكلم في شعره أو نثره بحاله، ومنه قول علي بن بشر الكاتب من شعراء اليتيمة:

يا من يمر ولا تمرّ   به القلوب من الفَرَقْ[105]

بعمامة من خدّه   أو خدّه منها استرق

فكأنه وكأنها   قمر تعمم بالشفق

فإذا بدا وإذا انثنى   وإذا أشد وإذا نطق

شـغل الخـواطر والجـوارح والمـسامع والحـدق

وعارضه بن خفاجة الأندلسي بقوله:

ومهفهـف طـاوى الحـشا خنـث المعـاطف والنظـر
مـلأ العيـون بـصورة تليـت محاسـنها سـور
فـإذا رنـا وإذا مـشى وإذا أشـدا وإذا سـفر
فـضح الغزالـة والغمامـة والحمامـة والقمـر

ويكون النشر على ترتيب اللف الأول للأول وهكذا ويكون غير ذلك.

وحسن هذا النوع إذا سلم من العقادة ولم يتبين كون القصد إليه فقط، وما كان من بعض الشعراء من القصد إليه بتكثير العدد إنما هو لاختبار القوة وتقييد النكتة كقول بعضهم:

يقطـع بالـسكين بطيخـة ضـحى علـى طبـق فـي مجلـس لأصـاحبه
كبـدر ببـرق قـد شمـسا أهلـة لـدى هالـة فـي الأفـق بـين كواكبـه

الاستدراك

هو كما عرفت رفع وهم ينشأ من الكلام بلكن وما بعدها خلا أنه لا يعد من البديع إلا إذا اشتمل على نكتة زائدة يعترف بها الذوق.

كقول أبي دويدة يخاطب رجلًا أودع قاضيًا فادّعى ضياعها:

إن قـال قـد ضـاعت فيـصدق أنهـا ضـاعت ولكـن منك يعني لـو تعي
أو قـال قـد وقعـت فيـصدق أنهـا وقعـت ولكـن منـه أحـسن موقـع

ولصدر الدين ابن الوكيل:

وبي من قسا قلبًا ولأن معاطفًا إذا قلت أدناني يضاعف تبعيدي
أقرّ برق إذ أقول أناله وكم قالها يومًا ولكن لتهديدي

ولبعضهم:

يجمحون بالمال الذي يجمعونه حرامًا إلى البيت العتيق المحرم
ويزعم كل أن تحط ذنوبهم تحط ولكن فوقهم في جهنم

الإبهام

هو أن تأتي بعبارة تحتمل مقصدين على السواء كهجاء ومديح لتبلغ من غرضك بما لا يمسك عليك.

قال محمد بن حزم يخاطب المأمون حين تزوج بابنة الحسن ابن سهل بوران التي تنسب إليها الأطبخة البورانية:

بارك الله للحسن ولبوران في الختن
يا إمام الهدى ظفرت ولكن ببنت من

فهذا يحتمل التعظيم والتحقير أي ببنت من بلغ في العظم إلى حد خرج عن التصور أو في الحقارة.

ومنه ما يحكى أن سائلًا عجميًّا سأل ابن الجوزي الواعظ: أي الرجلين أفضل أبو بكر أم علي؟ فقال: من كانت ابنته تحته. فالضمير الأول أن عاد علي من فهو تفضيل لأبي بكر وابنته عائشة - رضي الله عنها - فالضمير الثاني يرجع للنبي - صلى الله عليه وسلم - وإن عاد الضمير

الثاني على من فهو تفضيل لعليٍ وهذا النوع هو ما يسميه النحويون إجمالًا حيث يتكلمون على الإلباس.

المطابقة

هي الجمع بين ضدين فإن كان أحد اللفظين مجاز اسميت المطابقة الإيهامية، وإن كانت الألفاظ من ألفاظ الألوان سميت تدبيجًا.

وقد تكون المطابقة بحسب المعنى أو الاستلزام كقوله تعالى: ﴿أن أنتم إلا تكذبون﴾ مع قوله: ﴿إنا إليكم لمرسلون﴾ معناه إنا صادقون. وقوله: ﴿أشداء على الكفار رحماء﴾ فالرحمة تستلزم اللين.

فمن المطابقة مثل قوله تعالى: ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾، ومن المطابقة الجمع بين إثبات شيء ونفيه مثل: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون يعلمون ظاهرا﴾ وأحسن المطابقة ما صحبها نوع آخر من البديع يكسوها جمالًا كقول فخر الدين ابن مكانس:

يا ابن عم النبي إنّ أناسًا ... قد تولوك بالسعادة فازوا
أنت للعلم في الحقيقة باب ... يا إمامي ومن سواك مجاز

إرسال المثل والكلام الجامع

هما نوعان فرق بينهما أهل البديع يكون الأول بعض بيت والثاني بيتًا كاملًا كقول أبي الطيب في إرسال المثل:

فــإن حلمــك حلــم لا تكلفـــه ليس التكحل في العينين كالكحل

وقول امرئ القيس في الكلام الجامع:

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزان

وحيث كان المقصود منهما واحدًا فالأحسن جعلهما نوعًا واحدًا، والضابط أن يكون الكلام صالحًا لأن يتمثل به في مواطن كثيرة لغرض: كتسلى المحزون، وتشجيع الجبان، وتخميد الفتنة، وتسكين سورة الغضب، وتبكيت الخصم، وتحلية العتاب، وتحسين الشكر، وتصبير الجازع إلى غير ذلك من المقاصد. وأهل الحماسات يترجمون للشعر المشتمل على مثل هذا بباب الآداب.

ومثل هذا الكلام وهو المعنى بقوله - صلى الله عليه وسلم -: (وأعطيت جوامع الكلم) يعني الكلام القليل الألفاظ الكثير المعنى الذي يؤثر في النفوس بما فيه من الحكم المعرفة المنافع التي تطلبها النفوس والمضار التي تهرب منها.

وقد أكثر الناس من التآليف في الأمثال العربية وغيرها من الشعر وغيره، وللطباع استراحة إلى الأمثال فإنك تجدها في سائر أجناس الناس يجعلونها في أحاديثهم منتهى الحجة وموضع الحكم وذريعة الإذعان والاعتراف.

قال الزمخشري: " ولضرب العرب الأمثال واستحضارهم المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة

الجامح الأبي، ولأمر ما أكثر الله تعالى في كتابه المبين، وفي سائر كتبه الأمثال،- وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكلام الأنبياء - عليهم السلام - والحكماء.

قال الله تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ ومن سورة الإنجيل سورة الأمثال ولم يضربوا مثلًا ولا رأوه أهلًا للتسيير ولا جدير بالقبول إلا قولًا فيه غرابة من بعض الوجوه ومن ثم حوفظ عليه وحمى عن التغيير انتهى.

وقد عقد جعفر بن شمس الخلافة في كتاب الآداب بابًا في ألفاظ من القرآن جارية مجرى الأمثال، وأورد من ذلك قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ ﴿الآن حصحص الحق﴾ ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾ ﴿قضى الأمر الذي فيه تستفيان﴾﴿أليس الصبح بقريب﴾ ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ ﴿لكل نبأ مستقر﴾ ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾ (قل كل يعمل على شاكلته﴾ ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾ ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾ ﴿تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى﴾ ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ ﴿لا يستوي الخبيث والطيب﴾ ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ انتهى.

قال الماوردي: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب ابن إبراهيم يقول: سمعت أبي يقول: سألت الحسين بن الفضل فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن فهل تجد في كلام الله خير الأمور أوسطها؟ قال: نعم في أربعة مواضع قوله ﴿لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك﴾ وقوله ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾ وقوله ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾، ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا﴾ قلت: فهل تجد في كتاب الله أحذر شر من أحسنت إليه؟ قال: نعم ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ قلت: فهل تجد في كتاب الله من جهل شيئًا عاداه. قال: نعم في موضعين ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾، ﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ قلت: فهل تجد ليس الخبر كالعيان؟ قال في قوله: ﴿أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ قلت: فهل تجد في الحركات بركات؟ قال في قوله: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة﴾ قلت: فهل تجد كما تدين تدان؟ قال في قوله: ﴿من يعمل سوء يجز به﴾ قلت: فهل تجد فيه لا يلدغ المؤمن من جحر مرتينز قال: ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ قلت: فهل تجد من أعان ظالمًا سلط عليه. قال: ﴿كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ قلت: فهل تجد فيه قولهم لا تلد الحية إلا الحية. قال: ﴿ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾ قلت: فهل تجد فيه للحيطان آذان. قال: ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ قلت: فهل تجد فيه الجاهل

مرزوق والعالم محروم. قال: ﴿من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا﴾ قلت: فهل تجد فيه الحلال لا يأتيك غلًا قوتًا والحرام يأتيك جزافًا. قال: ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ انتهى.

ويقال لهذه الأمثال: كَوَامِنُ القرآن تتمثل بالمثل منها وتتبعه بأن تقول، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى حيث يقول كذا مثلًا يقتضي الحال أن تتمثل بخير الأمور أوسطها فتقول: خير الأمور أوسطها، وتصديق ذلك في قوله تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾ وهكذا.

واعلم أنه يجب الحذر من التمسك ببعض الأمثال كما قال فخر الدين ابن مكانس في أرجوزة نصحبة في فصل منها يبين به آداب زيارة الأصحاب:

ولا تطفل ذقنكا ... ولا تزرهم وابنكا
ولا تقل لمن تحب ... ضيف الكرام يصطحب
فهذه أمثال ... غالبها محال

الأصحاب المؤتلفون الذين ارتفعت من بينهم كلفة الاحتشام يجدون في اجتماعهم راحة نفوسهم وسرور قلوبهم، حيث يرسلون أنفسهم على سجاياها يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون استراحة من كد الجد إلى فراغ الهزل وقتًا ما من أوقاتهم، كما قال بعضهم:

في انقباض وحشمة فإذا ... لاقيت أهل الوفاء والكرم

أرسلت نفسي على سجيتها وقلت ما قلت غير محتشم

فإذا طرأ عليهم من لا يعرفون كدر عليهم صفاء وقتهم، وألزمهم العود إلى وضع أنفسهم في أصفاد الوقار والحشمة كما هو مقتضى الاحتراس اللازم للمحافظة على أسباب الأمن، وتوفير الأعراض وتزكية الناموس، فلا يسوغ لصاحب أن يعتمد على المثل القائل: « ضيف الكرام يصطحب » كما أن ما يقال من بعض الناس في باب التشكي: « الجاهل مرزوق والعالم محروم » وهو باب واسع أكثر الناس فيه من الكلام شعرا وغير شعر، وهو كلام غير صحيح المعنى ولا يقوله عالم حقيقي فإن الله سبحانه وتعالى قسم المعيشة على حسب أسبابها التي عينها لها، وحاصل الأسباب التجارة والزراعة والصناعة فالتاجر يرزق رزق تجارته على حسبها، فمتى كانت في الأمور التي تشد حاجة الناس إليها كان كثير المبادلة سريعها فتظهر أرباحه ويكثر ماله، وإذا كانت في أمور مستغنى عنها أو الحاجة إليها نادرة كانت على خلاف ذلك، والطمع والحرص يوجب شكاية هذا من عدم بلوغه حال ذلك، ولو نظر وجد نفسه إنما أتيت من قبلها حيث لم يسع سعي ذلك فكانت شكواه من جهله ،فإذن يقال الجاهل محروم، وهكذا القول في سائر الأسباب على اختلاف أنواعها وما فيها من المنافع المطلوبة.

فإذن يتبين لك أن من صرف جميع أوقاته في تحصيل المعارف لم يكن له وقت يصرفه في استعمال سبب من أسباب الدنيا فلم يكن في أوقات تحصيله كاسبًا، ثم إذا حصلت له معارف وبلغ كمالها الذي لمثلها بحيث تمكن من استعمالها في أغراضها وغاياتها، فإذا كانت من الأمور التي يحتاجها الناس فبعد كونها تكسبه الجاه والشرف وعظم الرتبة التي

تكون دونها رتبة الملك، فإن المعارف تجعل صاحبها في رتبة الأنبياء تكسبه من الدنيا ما يعطيه راحة نفسه ورفاهة سره مع الاحترام والإجلال من الكافة.

وخلاصة الكلام أن الناس لا ينفعون إنسانًا إلا بقدر انتفاعهم به، فعليك أن تتحقق بأنه لا دخل للعلم في الحرمان أصلًا، وإنما ذلك سببه الجهل هذا.

ولنعد للكلام في إرسال المثل والكلام الجامع من كلامه - صلى الله عليه وسلم -: " آفة العلم النسيان وإضاعته أن تحدث به غير أهله". " الحزم سوء الظن". " الحياء من الإيمان". " لا ضرر ولا ضرار في الإسلام". " الظلم ظلمات يوم القيامة"." طائر كل إنسان في عنقه". " ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا". "الحكمة ضالة المؤمن". "المرء مع من أحب". "الصبر عند الصدمة الأولى". "الشاهد يرى مالا يرى الغائب". "البلاء موكل بالقول". "حليف القوم منهم". "الآمر بالمعروف كفاعله".

ومن كلام علي - كرم الله وجهه - وكلامه في هذا البحر الزخار: "لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان". "لكل أمر عاقبة حلوة أو مرة". "المنية ولا الدنية". "صحة الجسد من قلة الحسد". "قد أضاء الصبح لذي عينين". "كم أكلة تمنع أكلات". "المرء مخبوء تحت لسانه". "قلة العيال أحد اليسارين". "الهم نصف الهرم". "إضاعة الفرصة غصة". "قيمة كل امرئ ما يحسن"." فقد الأحبة غربة". "من حذرك كمن بشرك". "من أطال الأمل أساء العمل". "رب قول أنفذ من صول". "الغيبة جهد العاجز". "من لم يعط قاعدًا ألم يعط قائمًا". "من طلب شيئًا ناله أو بعضه".

هذا وأما الكلام الذي يتمثل به من الأشعار أبياتًا وأبعاض أبيات فلنورد ذلك منه جملة تكون حلية لأدبك، فمن ذلك أبيات أبي الطيب المتنبي وقد استخرجها الوزير إسماعيل بن عباد المشهور بالصاحب لسلطانه فخر الدولة بن بويه، وحين اطلع السلطان على تلك الرسالة التي ضمنها ذلك الوزير تلك الأمثال وضع وفق بعض الأبيات خاء يشير بها إلى انتخاب ما وقع من استحسانه موقعًا وهذا اللفظ الرسالة بما فيها من العلامة.

الحمد لله الذي ضرب الأمثال للناس: ﴿لا يستحي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها﴾ وصلى الله على أفصح العرب، وسر عبد المطلب، صلى الله عليه وعلى آله أخيار الأمم وأنوار الظلم، كم مثل ضرب فيه الحجة البالغة، والحكمة الواضحة.

ثم أن الله تعالى قد أحيا بالأمير السيد شاهنشاه فخر الدولة وملك الأمة أطال الله بقاءه، ونصر لواءه، دائر العلوم والآداب، وأقام برأيه ورايته أسواقهما وكانت في يد الكساد بل الذهاب، فهو يقدم على المعرفة ويقرب على التبصرة لا كالملوك الذين يقال لهم:

دع المكارم لا تنهض لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ومن نعم الله أدام الله النعم لديه: أن الله قرن ألفاظه بفصل المقال، ووشح كلامه بضرب الأمثال، وسمعته أعز الله نصره يتمثل كثيرًا بفصوص من شعر المتنبي هي لب اللب، يضع فيها الفناء موضع النقب.

وهذا الشاعر مع تمييزه وبراعته وتبريزه في صناعته له في الأمثال خصوصًا مذهب سبق به أمثاله، فأمليت ما صدر عن ديوانه من مثل واقع

في فنه بارع في معناه ولفظه، ويكون تذكرة في المجلس العالي تلحظها العين العالية وتعيها الأذن الواعية.

ثم أن أمر أعلى الله أمره أمليت بمشيئة الله ما وقع من الأمثال في كل ديوان جاهلي أو مخضرم أو إسلامي، فما أجد من الأدباء ممن عمل في ذلك كتابًا مقنعًا وجمعًا مشبعًا قرن الله السعادة بأيامه والمناجح بأعلامه أنه فعال لما يريد:

فعد بها لا عدمتها أبدًا … خير صلات الكريم أعودها

صبرًا بني إسحاق عنه تكرما … إن العظيم على العظيم صبور

يممت شاسع دارهم عن نية … أن المحب على البعاد يزور

فموتي في الوغى عيشي لأني … رأيت العيش في أرب النفوس

أهون بطول الشواء والتلف … والسجن والقيد يا أبا دلف

لو كان سكناي فيه منقصة … لم يكن الدرسا كن الصدف

غير اختيار قبلت برك بي … والجوع يرضى الأسود بالجيف

إذا قيل رفقًا قال للحلم موضع … وحلم الفتى في غير موضعه جهل

يفنى الكلام ولا يحيط بوصفكم … أيحيط ما يفنى بما لا ينفد

يفدى بنيك عبيد الله حاسدهم … بجبهة العير يفدى حافر الفرس

خير الطيور على القصور وشرها … يأوى الخراب ويسكن الناووسا

وما الكرم الطريف وأن تقوّى … بمنتصف من الكرم التلاد

وإن الجرح يفتأ بعد حين … إذا كان البناء على فساد

يجني الغني للئام لو عقلوا … ما ليس يجني عليهم العدم

هم لأموالهم ولسن لهم … والعار يبقى والجرح يلتئم

ودهـر ناسه نـاس صـغار وإن كانـت لهـم جثث ضـخام

ومـا أنـا منهم بـالعيش فيهم ولكـن معـدن الـذهب الرغـام

خليلك أنت لا من قلت خلي وإن كثـر التجمـل والكـلام

ولـو حيز الحفـاظ بغير عقـل تجنـب عنـق صـيقله الحسام

وشبه الشيء منجـذب إليـه واشـبهنا بـدنيانا الطغـام

ولـو لـم يعـل إلا ذو مَحَـلّ تعـالى الجـيش وانحـط القتـام

ومـن خيـر الغـواني فـالغواني ضـياء فـي بواطنـه ظـلام

ومـا كـل بمعـذور ببخـل ولا كـل علـى بخـل يـلام

تلـذ لـه المـروءة وهـي تـؤذى ومـن يعـشق يلـذ لـه الغـرام

وقـبض نوالـه شـرف وعـز وقـبض نـوال بعـض القـوم ذام

أقامـت فـي الرقـاب لـه أيـاد هـي الأطـواق والنـاس الحمـام

وزارك بـي دون الملـوك تحـرّج إذا عـنّ بحـر لـم يجـز لـي التـميم

ولكـل عـين قـرّة فـي قربـه حتـى كـأن مغيبـه الأقـذاء

ولكـن حبـا خـامر القلـب فـي يزيـد علـى مـر الزمـان ويـشتدّ

وأصبح شعري منهما في مكانه وفـي عنـق الحسناء يستحسن العقـد

فـي سـعة الخـافقين مـضطرب وفـي بـلاد مـن أختهـا بـدل

أبلغ ما يطلب النجاح به الطبع وعنـد التعمـق الزلـل

ومـن يـك ذا فـم مـرّ مـريض يجـد مـرًا بـه المـاء الـزلالا

ما كل من طلب المعالي نافذًا فيهـا ولا كـل الرجـال فحـولا

الحـب مـا منـع الكـلام الألـسنا وألـذ شـكوى عاشـق مـا أعلنـا

وأنـه المـشير عليـك فـيّ بـضلّة والحـرّ ممـتحن بـأولاد الزنـا

ومكايد السفهاء واقعة بهم ... وعداوة الشعراء بئس المقتنى

لعنت مقارنة اللئيم فإنها ... ضيف يجر من الندامة ضيفنا

وأنفس ما للفتى لبه ... وذو اللب يكره إنفاقه

لا افتخار إلا لمن لا يضام ... مدرك أو محارب لا ينام

ذل من يغبط الذليل بعيش ... رب عيش أخف منه الحِمام

كل حلم أتى بغير اقتدار ... حجة لاجئ إليها اللئام

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

إن بعضًا من القريض هراء ... ليس شيئًا وبعضه أحكام

وربما فارق الإنسان مهجته ... يوم الوغى غير قال خشية العار

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن ... يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

فقر الجهول بلا عقل إلى أدب ... فقر الحمار بلا رأس إلى رَسن

لا تعجبن مضيمًا حسن بزتة ... وهل يروق دفينا جودة الكفن

أنعم ولذ فللأمور أواخر ... أبدًا كما كنت لهن أوائل

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني كامل

في الناس أمثلة تدور حياتها ... كمماتها ومماتها كحياتها

ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ولا ينفع الإمكان لولا سخاؤه ... وهل نافع لولا الأكف القنا السمر

ومن نكد الدنيا على الحر أن ... عدوًا له ما من صداقته بد

وأكبر نفسي عن جزاء بغيبة ... وكل اغتياب جهد من لا له جهد

فما في سجاياكم منازعة العلى ... ولا في طباع التربة المسك والندّ

من الحلم أن تستعمل الجهل ... إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله   فإذا الذي تغني كرام المناصب

والهم يخترم الجسيم نحافة   ويشيب ناصية الصبى ويهرم

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

والناس قد نبذوا الحفاظ فمطلق   ينسى الذي يولى وعاف يندم

لا تخدعنك من عدو دمعة   وارحم شبابك من عدو ترحم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

والظلم من شيم النفوس فإن تجد   ذاعفة فلعلة لا يظلم

ومن البلية عذل من لا يرعوي   عن جهله وخطاب من لا يفهم

والذل يظهر في الذليل مودّة   وأود منه لمن يود الأرقم

ومن العداوة ما ينالك نفعه   من الصداقة ما يضر ويؤلم

أفعال من تلد الكرام كريمة   وفعال من تلد الأعاجم أعجم

خ ولكن الغيوث إذا توالت   بأرض مسافر كره الغماما

خ فطعم الموت في أمر حقير   كطعم الموت في أمر عظيم

خ يرى الجبناء أن العجز عقل   وتلك خديعة الطبع اللئيم

خ وكل شجاعة في المرء تغنى   ولا مثل الشجاعة في حكيم

خ وكم من عائب قولًا صحيحًا   وآفته من الفهم السقيم

ولكن تأخذ الأذهان منه   على قدر القرائح والفهوم

كلام أكثر من تلقى ومنظره   مما يشق على الآذان والحدق

ألف هذا الهواء أوقع في الأنفس   أن الحمام مر المذاق

والأسى قبل فرقة الروح عجز   والأسى لا يكون بعد الفراق

والغنى في يد اللئيم قبيح   قدر قبح الكريم في الإملاق

خ ويظهر الجهل بي وأعرفه والدر در برغم من جهله

فصرت كالسيف حامدًا يده ما يحمد السيف كل من حمله

وقد يتزيا بالهوى غير أهله ويصطحب الإنسان من لا يلائمه

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

فكثير من الشجاع التوقي وكثير من البليغ السلام

خ ولو جاز الخلود خلدت فردًا ولكن ليس للدنيا خليل

خ ومن لم يعشق الدنيا قليل ولكن لا سبيل إلى وصال

خ نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

خ ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال

خ وما التأنيث لاسم الشمس ولا التذكير فخر للهلال

خ فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

إلى م طماعية العاذل ولا أرى في الحب للعاقل

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

خذوا ما أتاكم به واغنموا فإن الغنيمة في العاجل

خ أعلى الممالك ما يبنى على والطعن عند محبيهن كالقبل

ولا يجير عليه الدهر بغيته ولا تحصن درع مهجة البطل

بذي الغباوة من إنشادها ضرر كما تضر رياح الورد بالجعل

إذا ما تأملت الزمان وصرفه تيقنت أن الموت ضرب من القتل

هل الولد المحبوب ألا تعلة وهل خلوة الحسناء إلا أذى البعل

وما الدهر أهل أن يؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

وربما قالت العيون وقد يصدق فيها ويكذب النظر

أعـــاذك الله مـــن ســـهامهم ومخطـــئ مـــن رميـــه القمـــر
وإذا وكلـت إلـى كـريم رأيـه فـي الجـود بـأن مذيقـه مـن مخضه
دون الحـلاوة فـي الزمـان مـرارة لا تُختطـــي الأعلـــى أهوالـــه
وهـل تغني الرسـائل فـي عـدو إذا مـا لـم يكـن ظُبـيّ رقاقـا
فمـا تُرجَّى النفـوس مـن زمـن أحمـد حاليـه غيـر محمـود
مـن يعـرف الـشمس لا ينكـر أو يبـصر الخيـل لا يـستكرم الرمكا
خ ومـا ذاك بخـل بـالنفوس على ولكـن صـدم الـشر بالـشر أحـزم
أهـل الحفيظـة إلا أن تجـربهم وفـي التجـارب بعـد العـي مـا يـزع
خ لا تحسبوا من أسرتم كان ذا فلـيس تأكـل إلا الميـت الـضبع
خ من كان فوق محل الشمس فلـيس يرفعـه شـيء ولا يـضع
خ فقد يظن شجاعًا من به خرق وقـد يظـن جبانًـا مـن بـه زمـع
أن السلاح جميع الناس يحمله ولـيس كـل ذوات المخلـب الـسبع
وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى ولا الأمـن إلا مـا رآه الفتـى أمنـا
خ وحيد من الحلان في كل بلدة إذا عظـم المطلـوب قـل المـساعد
بـذا اقـضت الأيـام مـا بـين أهلها مـصائب قـوم عنـد قـوم فوائـد
وكل يرى طرق الشجاعة والندى ولكـن طبـع الـنفس للـنفس قائـد
فإن قليل الحب بالعقل صالح وإن كثيـر الحـب بالجهـل فاسـد
وقـد فـارق النـاس الأحبـة قبلنـا وأعيـا دواء المـوت كـل طبيـب
وفـي تعـب مـن يحـسد الـشمس ويجهـد أن يـأتي لهـا بـضريب
ومـن صـحب الـدنيا قليلًا تقلبت علـى عينـه حتـى يـرى صـدقها كـذبا
ومـن تكـن الأسـد الـضواري يكـن ليلـه صـبحًا ومطعمـه غـصبا

خ أعيذها نظرات منك صادقة ... إن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

خ وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

خ إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث يبتسم

إن كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة ... أن المعارف في أهل النهى ذمم

شر البلاد مكان لا صديق به ... وشر ما يكسب الإنسان ما يصم

وشر ما قنصته راحتي قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم

وإن كان ذنبي كل ذنب فإنه ... محا الذنب كل الذنب من جاء تائبا

وما صبابة مشتاق على أمل ... من اللقاء كمشتاق بلا أمل

والهجر أقتل لي مما أراقبه ... أنا الغريق فما خوفي من البلل

خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زُحَل

إن كنت ترضى بأن يعطو الجزى ... بذلوا منها رضاك ومن للعور بالحول

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

لأن حلمك حلم لا تكلفه ... ليس التكحل في العينين كالكحل

وما ثناك كلام الناس عن كرم ... ومن يسد طريق العارض الهطل

خ وليس يصح في الأفهام شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

خ وما كمد الحساد شيء قصدته ... ولكنه من يزحم البحر يغرق

خ وإطراق طرف العين ليس ... إذا كان طرف القلب ليس بمطرق

خ ومن كنت بحرًا له يا عليّ ... لا يقبل الدر إلا كبارا

ليالي بغد الظاعنين شكول ... طوال وليل العاشقين طويل

أيدري ما أرابك من يريب ... وهل ترقى إلى الفلك الخطوب

خ وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ... ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف ... مضر كوضع السيف في موضع الندى
وقيدت نفسي في ذراك محبة ... ومن وجد الإحسان قيدًا تقيدا
وأتعب من ناداك من لا تجيبه ... وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما تركوك معصية ولكن ... يعاف الورد والموت الشراب
ترفق أيها المولى عليهم ... فإن الرفق بالجاني عتاب
خ وما جهلت أياديك البوادي ... ولكن ربما خفي الصواب
خ وكم ذنب مولده دلال ... وكم بعد مولده اقتراب
خ وجرم جره سفهاء قوم ... وحل بغير جارمه العذاب
على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم
تفيت الليالي كل شيء أخذنه ... وهنّ لما يأخذن منك غوارم
ومن طلب الفتح الجليل فإنما ... مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم
أينكر ريح الليث حتى يذوقه ... وقد عرفت ريح الليوث البهائم
وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا ... إذا لم يكن فوق الكرام كرام
فإن كنت لا تعطي الذمام طواعه ... فعوذ الأعادي بالكريم ذمام
وشر الحمامين الزؤامين عيشة ... يذل الذي يختارها ويضام
وما الحسن في وجه الفتى شرف ... إذا لم يكن في فعله والخلائق
وما بلد الإنسان غير الموافق ... ولا أهله الأدنون غير الأصادق
وما يوجع الحرمان من كف ... كما يوجع الحرمان من كف رازق
أن خير الدموع عينًا لدمع ... بعثته رعاية فاستهلا

وإذا لم تجد من الناس كفؤا ... ذات خدر تمنت الموت بعلا
ولذيذ الحياة أنفس للنفس ... وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما مل ... حياة وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب ... فإذا وليا عن المرء ولى
خ أبدًا تسترد ما تهب الدنيا ... فيا ليت جودها كان بخلا
خ وهي معشوقة على الغدر لا ... عهدًا ولا تتمم وصلا
والعيان الجلي يحدث للظن ... زوالًا وللمراد انتقالا
وإذا ما خلا الجبان بأرض ... طلب الطعن وحده والنزالا
أقسموا لا رأوك إلا بقلب ... طالما غرت العيون الرجالا
إنما آنس الأنيس سباع ... يتفارسن جهرة واغتيالا
من أراد التماس شيء غلابًا ... واغتصابًا لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنى ... أن يكون الغضنفر الرئبالا
ورفلت في حلل الثناء وإنما ... عدم الثناء نهاية الإعدام
خ الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني
خ ولربما طعن الفتى أقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى إلى شرف من الإنسان
وتوهموا للعب الوغى والطعن ... الهيجاء غير الطعن في الميدان
عقبى اليمين على عقب الوغى ... ماذا يزيدك في أقدامك القسم
وإذا خامر الهوى قلب صب ... فعليه لكل عين دليل
وإن تكن تغلب العلياء عنصرها ... فإن في الخمر معنى ليس في العنب
وعاد في طلب المتروك تاركه ... أنا لنغفل والأيام في الطلب

فـلا تنلـك الليـالي إن أيـديها إذا ضـربن كـسرن النبـع بـالغرب
ولا تعـر عـدوًا أنـت قـاهره فـإنهن يـصدن الـصقر بـالخرب
وإن سررت بمحبوب فجعن بـه وقـد أتينـك فـي الحـالين بالعجـب
ومـا قـضى أحـد منهـا لبانتـه ولا انتهـى أرب إلا إلـى أرب
ومـن تفكـر فـي الـدنيا ومهجتـه أقامـه الفكـر بـين العجـز والتعـب
إذا كنـت ترضـى أن تعيش بذلـة فـلا تـستعدن الحـسام اليمانيـا
فما ينفع الأسد الحياء من الطوى ولا تتقـي حتـى تكـون ضـواريا
فـإن دمـوع العـين غـدر بربهـا إذا كـنّ إثـر الغـادرين جواريـا
إذا الجود لـم يـرزق خلاصًـا مـن فـلا الحمـد مكـسوبًا ولا المـال باقيـا
وللنفس أخلاق تـدل علـى الفتـى أكـان سـخاء مـا أتـى أم تـساخيا
خلقـت الوفـا لـو رحلـت إلـى لفارقـت شـيء موجـع القلـب باكيـا
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفـي البـداوة حـسن غيـر مجلـوب
فمـا الحداثـة عـن حلـم بمانعـة قـد يوجـد الحلـم فـي الـشبان والـشيب
أبـى خلـق الـدنيا حبيبًـا تديمـه فمـا طلبـي منهـا حبيبًـا تـرده
وأسـرع مفعـول فعلـت تغيـرًا تكلـف شـيء فـي طباعـك ضـده
وأتعـب خلـق الله مـن زاد همـه وقـصر عمـا تـشتهي الـنفس وجـده
فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مـال فـي الـدنيا لمـن قـل جـدّه
وفـي النـاس مـن يرضـى بميسور ومركوبـه رجـلاه والثـوب جلـده
ومـا الـصارم الهنـدي إلا كغيـره إذا لـم يفارقـه النجـاد وغمـده
ومـا منزل اللـذات عنـدي بمنزل إذا لـم أبجـل عنـده وأكـرم
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصـدق مـا يعتـاده مـن تـوهم

أصادق نفس المرء من قبل | وأعرفها في فعله والتكلم
وأحلم عن خلي وأعلم أنه | متى أجزه حلمًا على الجهل يندم
وما كل هاو للجميل بفاعل | ولا كل فعال له بمتمم
ولم أرج إلا أهل ذاك ومن يرد | مواطر من غير السحائب يظلم
فأحسن وجه في الورى وجه | وأيمن كف في الورى كف منعم
خ وأشرفهم من كان أشرف همة | وأكثر إقدامًا على كل معظم
خ لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد | سرور محب أو إساءة مجرم
إنما تنجح المقالة في المر | إذا وافقت هوى في الفؤاد
قد يصيب الفتى المشير ولم | ويشوى الصواب بعد اجتهاد
وإذا الحلم لم يكن في طباع | لم يحلم تقدم الميلاد
وأطاعتك أسد دهرك والطاعة | ليست خلائق الآساد
وإذا كان في الأنابيب خلف | وقع الطيش في صدور الصعاد
كيف لا يترك الطريق لسيل | ضيق عن أتيه كل واد
خ وما الخيل إلا كالصديق قليلة | وإن كثرت في عين من لا يجرب
إذا لم تشاهد غير حسن شياتها | ولباتها فالحسن عنك مغيب
لحا الله ذي الدنيا مناخًا لراكب | فكل بعيد الهم فيها معذب
وكل امرئ يولي الجميل محبب | وكل مكان ينبت العز طيب
ولو جاز أن يحووا علاك وهبتها | ولكن من الأشياء ما ليس يوهب
وأظلم أهل الظلم من بات | لمن بات في نعمائه يتقلب
وقد يترك النفس التي لا تهابه | ويحترم النفس التي تتهيب
فما يدوم سرور ما سررت به | ولا يرد عليك الفائت الحزن

يا من نعيت على بعد بمجلسه ... كل بما زعم الناعون مرتهن
ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
غير أن الفتى يلاقي المنايا ... كالحيات ولا يلاقي الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحي ... لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بدّ ... فمن العجز أن تكون جبانا
كل ما لم يكن من الصعب في ... الأنفس سهل فيها إذا هو كانا
فإن يك إنسانًا مضى لسبيله ... فإن المنايا غاية الحيوان
قال الزمان له قولًا فاسمعه ... إن الزمان على الإمساك عذال
القاتل السيف في جسم القتيل به ... وللسيوف كما للناس آجال
يروعهم منه دهر صرفه أبدًا ... مجاهر وصروف الدهر تغتال
لطفت رأيك في وصلي وتكرمني ... أن الكريم على العلياء يحتال
لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والأقدام قتال
وإنما يبلغ الإنسان طاقته ... ما كل ماشية بالرحل شملال
أنا لفي زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال
ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ... ما فاته وفضول العيش أشغال
ولما صار ود الناس خبًا ... جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه ... لعلمي أنه بعض الأنام
وآنف من أخي لأبي وأمي ... إذا ما لم أجده من الكرام
أرى الأجداد تغلبها كثيرًا ... على الأولاد أخلاق اللئام
ومن يجد الطريق إلى المعالي ... فلا يذر المطى بلا سنام
ولم أرفي عيوب الناس شيئًا ... كنقص القادرين على التمام

ويصدق وعدها والصدق شين ... إذا ألقاك في الكرب العظام

وللسر مني موضع لا يناله ... نديم ولا يفضي إليه شراب

وما العشق إلا غرة وطماعة ... يعرض قلب نفسه فيصاب

وغير فؤادي للغواني رمية ... وغير بناني للزجاج ركاب

خ أعز مكان في الدنا ظهر سابح ... وخير جليس في الزمان كتاب

خ أيا أسدًا في جسمه روح ... وكم أسد أرواحهن كلاب

وقد تحدث الأيام عندك شيمة ... وتنعمر الأوقات وهي يباب

إذا نلت منك الود فالمال هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

ولكنك الدنيا إلى حبيبة ... فما عنك لي إلا إليك ذهاب

خ لا شيء أقبح من فحل له ذكر ... تقوده أمة ليست لها رحم

إذا أتت الإساءة من وضيع ... ولم ألم المسيء فمن ألوم

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها ... أني بما أنا باك منه محسود

خ جود الرجال من الأيدي ... من اللسان فلا كانوا ولا الجود

العبد ليس لحرّ صالح بأخ ... لو أنه في ثياب الخز مولود

لا تشتري العبد إلا والعصا معه ... أن العبيد لأنجاس مناكيد

إن امرءًا أمة حبلى تدبره ... لمستضام سخين العين مفئود

خ من علم الأسود المخصى ... أقومه البيض أم آباؤه الصيد

خ أم أذنه في يد النخاس دامية ... أم قدره وهو بالفلسين مردود

وذاك أن الفحول البيض عاجزة ... عن الجميل فكيف الخصية السود

وما كل من قال قولًا وفي ... وما كل من سيم خسفا أبي

ولابد للقلب من آلة ... ورأى يصدع صم الصفا

وكـل طريــق أتــاه الفتــى ... علــى قــدر الرجــل فيــه الخطــا

خ لقد كنت أحسب قبل الخصى ... أن الــــرؤوس محـــل النهـــى

خ فلمــا نظــرت إلــى عقلــه ... رأيــت النهــى كلهــا فــي الخـصى

ومــن جهلــت نفــسه قــدره ... رأى غيــره منــه مــا لا يــرى

الحــزن يقلـق والتجمـل يـردع ... والـــدمع بينهمـــا عـــصى طيـــع

خ أنـي لأجبن مـن فـراق أحبتي ... وتحــس نفــسي بالحمــام فأشــجع

خ ويزيدني غضب الأعادي قسوة ... ويلــم بــي عتــب الـصديق فــأجزع

تـصفو الحيـاة لجاهـل أو غافـل ... عمــا مــضى منهــا ومــا يتوقــع

ولمـن يغـالط فـي الحقيقـة نفسه ... ويــسومها طلــب المحــال فتطمــع

وإذا حـصلت مـن الـسلاح علـى ... فحــشاك رعــت بــه وخــدك تقــرع

أيـن الـذي الهرمـان مـن بنيانـه ... مــا قومــه مــا يومــه مــا المــصرع

تتخلـف الآثـار عـن أصـحابها ... حينًــا ويــدركها الفنــاء فتتبــع

تـسوّد الـشمس منا بيض أوجهنا ... ولا تــسود بــيض العــذر واللمــم

وكـان حالهمـا فـي الحكـم واحـدة ... لــو احتكمنــا مــن الــدنيا إلــى حكــم

خ حتـى رجعـت وأقلامـي قوائـل ... المجـد للـسيف لـيس المجـد للقلـم

خ ولـم تـزل قلـة الإنـصاف قاطعة ... بــين الأنــام ولــو كــانوا ذوي رحــم

هـوّن علـى بـصر مـا شـق منظـره ... فإنمــا يقظــات العــين كــالحلم

ولا تــشك إلــى خلـق فتــشمته ... شـكوى الجـريح إلـى العقبـان والـرخم

وكـن علـى حـذر للنـاس تـستره ... ولا يغــرك منهــا ثغــر مبتــسم

غـاض الوفـاء فمـا تلقـاه فـي عـدة ... وأعــوز الـصدق فـي الأخبـار والقـسم

ذريني أنـل مـا لا ينـال مـن العلـى ... العلـى فـي الـصعب والـسهل فـي الـسهل

تريدين لقيان المعالي رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل

إن في الموج للغريق لعذرا واضحًا أن يفوته تعداده
ما سمعنا بمن أحب العطايا واشتهى أن يكون فيها فؤاده
خ وغيظ على الأيام كالنار في ولكنه غيظ الأسير على القد
خ وليس حياء الوجه في الذئب ولكنه من شيمة الأسد الورد
لو أفكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه لم يسبه

هذه أكثر أمثال شعر أبي الطيب المتنبي، وكان للناس بها ولع عظيم لما وجدوه من نفعها في تحلية رسائلهم المنشأة في مختلفات أغراضهم وتفصيل أحاديثهم في مجالسهم، كما قال أبو منصور الثعالبي في كتابه الملقب (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) عند ترجمة المتنبي ليس اليوم مجالس الدرس أعمر بشعر أبي الطيب من مجالس الأنس، ولا أقلام كتاب الرسائل أجرى به من ألسن الخطباء في المحافل، ولا لحون القوالين والمغنيين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين. انتهى.

ولطرفة ابن العبد:

وأعلم علمًا ليس بالظن أنه إذا ذل مولى القوم فهو ذليل
وإن لسان المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل

ولجرير بن عبد المسيح الملقب بالمتلمس من شعراء الجاهلية:

قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد
وحفظ المال خير من فناه وجول في البلاد بغير زاد

وللبيد:

أكـــذب الـــنفس إذا حــــدثتها إن صـــدق الـنفس يـزرى بالأمـــل
وإذا رمـــت رحـــيلًا فارتحـــل واعـص مـا يـأمر توصـيم الكـسل

ولكعب بن زهير:

إذا أنـت لـم تعـرض عـن الجهـل أصـبت حليمًـا أو أصـابك جاهـل

ولحسان بن ثابت - رضي الله عنه -:

رب حلـــم أضـــاعه عـــدم المـــال وجهـــل غطـــى عليـــه النعـــيم
مـــا أبـــالي أنـــب بـــالحزن تـــيس أم لحـــاني بظهـــر غيـــب لئـــيم

وللنجاشي الحارثي:

إنـي امـرؤ قـل مـا أثنـي علـى أحـد حتـى أرى بعـض مـا يـأتي ومـا يـذر
لا تمـــدحنّ امـــرءًا حتـــي تجرّبـــه ولا تـــذمن مـــن لـــم تبلـــه الخبـــر

وللكميت بن زيد:

فيـــا موقـــد نـــارًا لغيـــرك ضـــوؤها ويـا حاطبًـا فـي غيـر حبلـك تحطـب

وله أيضًا:

إذا لـــم يكـــن غيـــر الأســـنة مركبًـــا فـــلا رأى للمـــضطر إلا ركوبهـــا

ولعدى بن الرقاع العاملي:

وإذا نظـــرت إلـــى أميـــري زادنـــي ضـــنا بـــه نظـــري إلـــى الأمـــراء
والقـــوم أشـــباه وبـــين حلـــومهم بـــون كـــذاك تفاضـــل الأشـــياء
بـل مـا رأيـت جبـال أرض تـستوي فيمـــا غـــشيت ولا نجـــوم ســـماء

والبــرق منـــه وابــل متتـــابع ... جـــود وآخـــر لا يجـــود بمـــاء

ولكثير عزة:

ومن لا يغمض عينه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

ومـن يتتبـع جاهـدًا كـل عثـرة ... يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

ولإبراهيم الصولي:

أولـى البريـة طـرًا أن تواسـيه ... عند السرور الذي وافاك في الحزن

إن الكـرام إذا مـا أسـهلوا ذكـروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن

يحكى أن تاجرًا كان له مملوك نبيه وكان معه في سعة من العيش فلم تزل به الأيام حتى افتقر، فعرض عليه ذلك المملوك أن يبيعه وينتفع بثمنه فبعد طول امتناع من ذلك لم يجد بدًا منه، ثم أنه بعد حين من الزمان رجع إلى المدينة التي باع فيها ذلك المملوك فوجده قد ارتقت به الأحوال حتى صار أميرًا كبيرًا ولم يتمكن من لقائه فكتب له بيتين وهما:

كنـا جميعـين فـي بـؤس نكابـده ... والقلب والطرف منا في أذى وقذا

والآن أقبلـت الـدنيا عليـك بمـا ... تهـوى فـلا تنسني إن الكـرام أذا

ولعلي بن الجهم:

هـي الـنفس مـا حملتهـا تتحمـل ... وللـدهر أيـام تجـور وتعـدل

وعاقبـة الـصبر الجميـل جميلـة ... وأفـضل أخـلاق الرجـال التفـضل

ولا عـار أن زلـت عـن الحـر نعمـة ... ولكـن عـارًا أن يـزول التجمـل

ولابن شبل البغدادي:

صـحة المـرء للـسقام طريـق ... وطريـق الفنـاء هـذا البقـاء

بالــذي تغتــذي نمــوت ونحيـا   أقتـل الـداء للنفـوس الـدواء
مـا لقينـا مـن غـدر دنيـا فـلا   كانـت ولا كـان أخـذها والعطـاء
راجـع جودهـا إليهـا فمهمـا   يهـب الـصبح يـسترد المـساء
صـاف تحـت راعـد وشـراب   كرعـت فيـه مـومس خرقـاء
ليـت شـعري حلمًـا تغـر بـه الأيـام   أم لـيس تعقـل الأشـياء
مـن فساد يكـون فـي عـالم الكـون   فمـا للنفـوس منـه اتقـاء
وقليلا مـا تـصحب المهجة الجسم   ففـيم الـشقا وفـيم العنـاء
قـبح الله لـذة لـشقانا   نالهـا الأمهـات والآبـاء
نحـن لـولا الوجـود لـم نـألم الفقـد   فإيجادنـا علينـا بـلاء

وفي هذا القدر كناية وطالب الأدب لا يهدأ من الاطلاع والبحث في كلام أسلافه حتى يصير هلاله بدرًا وهنالك يكمل جماله ويعم الناس فضله وأفضاله.

التخيير

تقفية البيت بأمكن قواف ممكنة أن تتمم البيت دون خلل كقول الحريري:

إن الغريـب الطويـل الـذي ممـتهن   فكيـف حـال غريـب مـا لـه قـوت

يمكن أن يتمّ البيت ما له مال أو نشب ولتكن ما له قوت أمكن رعاية لغرض الشكوى وصفة الفاقة.

والمشهور في التمثيل لهذا النوع قول عبد السلام الحمصي المعروف بديك الجن:

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي عند المنام
عند الرقاد عند الهجوع عند الهجود عند الوسن
فعسى أنام فتنطفي نار تأجج في العظام
في الفؤاد في الضلوع في الكبود في البدن
جسد تقلبه إلا كف على فراش من سقام
من قتاد من دموع من وقود من حزن
أما أنا فكما علمت فهل لوصلك من دوام
من معاد من رجوع من وجود من ثمن

النزاهة

البعد عما تنفر منه النفوس وأراد به أهل البديع أن يسلم شعر الهجاء من الإفحاش، والأحسن أن تفسر بسلامة الكلام في أي معنى كان من الألفاظ المستكرهة.

قال أبو عمرو بن العلاء: خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا تستحي منه، واستشهد لذلك بقول أوس:

إذا ناقة شدت برحل ونمرق إلى حسن بعدي فضل ضلالها

وقول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

وقال ابن بسام في الذخيرة - وكان عفا الله عنه -: " هجاء الهجاء ينقسم قسمين: فقسم يسمونه هجاء الإشراف وهو ما لم يبلغ أن يكون سبابًا مقذعًا وهجوًا مستبشعًا وهو طأطأ قديمًا من الأوائل وثل عروش القبائل إنما هو توبيخ وتعبير وتقديم وتأخير.

والقسم الثاني: أكثر منه جرير وطبقته وتبعه الناس فيه بعد، وكان يقول: إذا هجوتم فأضحكوا وهذا النوع لم يهدم قط بيتًا ولا عيرت به قبيلة انتهى.

مثال الأول قول الحطيئة:

دع المكـــارم لا ترحـــل لبغيتهـــا وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ومثال الثاني قول جرير:

والتغلبـــي إذا تنجـــنح للقـــرى حـــك أســـته وتمثـــل الأمثـــالا

ولجرير من القسمين:

ويقضي الأمر حين تغيب تيم ولا يـــستؤمرون وهـــم شـــهود

وإنـــك إن لقيـــت عبيـــد تـــيم وتيمًـــا قلـــت أيهـــم العبيـــد

وذم أعرابي قومًا فقال: "هم أقل الناس ذنوبًا إلى أعدائهم، وأكثرهم جرمًا إلى أصدقائهم، يصومون عن المعروف، ويفطرون على المنكر، ألسنة مملوءة بالوعد، وقلوب خربة من المجد".

التهكم والهزل الذي يراد به الجدّ

هذان النوعان متشابهان والفرق بينهما أن الأول ظاهره الجدّ وباطنه الاستهزاء، والثاني عكسه.

فمن الأول مثل قوله تعالى: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ وقوله: ﴿ذق أنك أنت العزيز الكريم﴾ وقوله: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وحاصل تعريفه أنه ذكر الألفاظ الدالة على ما يلائم النفوس من الإجلال والتعظيم والتبشير والتهنئة على سبيل السخرية مدلولًا على ذلك بقرينة.

ومن الثاني مثل قوله - صلى الله عليه وسلم - على سبيل المداعبة وكان صلى الله عليه وسلم يداعب أي يمازح ولا يقول إلا حقًّا لعجوز: « أنه لن يدخل الجنة عجوز » فضاقت لذلك فتبسم عليه الصلاة والسلام وأخبرها أن المراد كون أهل الجنة يدخلونها شبابًا.

وقد اشتمل على ما يصلح للنوعين شعر أبي نواس حين حبسه الفضل بن الربيع يستتيبه وهو:

أنت يا ابن الربيع علمتني الخير ... وعودتنيه والخير عادة
فأرعوي باطلي وراجعني الحلم ... وأحدثت توبة وزهادة
من خشوع أزينه بنحول ... وإصفرار مثل إصفرار الجرادة
التسابيح في ذراعي والمصحف ... في لبتي مكان القلادة
فادع بي لأعدمت تقويم مثلي ... وتأمل بعينك السجادة

تـرا أثـرًا مـن الـصلاة بـوجهي تـوقن الـنفس أنـه مـن عبـادة
لـو رآهـا بعـض المـرائين يومًـا لاشـتراها يعـدها للـشهادة
ولقـد طالمـا أبيـت ولكـن أدركتنـي علـى يـديك الـسعادة

القول بالموجب

هو نوعان: أحدهما أن يقع في كلام أحد إثبات صفة لشيء وترتيب حكم عليها فينقل السامع تلك الصفة إلى غير ذلك الشيء ساكنًا عن الحكم كقوله تعالى: ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾، أثبت المنافقون لأنفسهم صفة الأعزية وللمؤمنين صفة الأذلية، ورتبوا على ذلك الإخراج من المدينة، فنقلت صفة العز للمؤمنين وأبقيت للمنافقين صفة الذل.

وثانيهما: أن يثبت المتكلم أمرًا فيوافقه المخاطب ولكن يصرفه إلى غير مقصوده كقوله تعالى: ﴿ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم﴾ يقال فلان أذن أي يسمع كل ما يقال ويعمل على موجبه دون فكر ورويه وتمييز لمقبول من غيره، فوافقهم في إثبات أنه أذن وصرفه عن مقصودهم أي: هو أذن ليكن ليس أذن سوء كما قصدتم بل هو أذن خير، ومن شواهده قول بعضهم:

لقنتـه العـذر عـن تـرك حـاجتي لـو تـصوّر
فقلـت أنـسيتها والنـسيان أمـر مقـدر
فقـال لـست بنـاس فقلـت مـولاي أخبـر

وقول آخر:

قلت للأهيف الذي فضح الغصن كلام الوشاة ما ينبغي لك
قال قول الوشاة عندي ريح قلت أخشى ياغصن أن يستميلك

وهذا النوع إذا كان الغرض منه التنبيه على ما هو الأولى والأليق سمي الأسلوب الحكيم.

التسليم

هو أن تنفي شيئًا ثم تفرض ثبوته وتبين أنه لا فائدة فيه كقوله:

إذا أنا عاتبت الملول فإنما أخط بأقلامي على الماء أحرفا
وهبة أرعوي بعد العتاب ألم تكن مودته طبعًا فصارت تكلفا

فإن معناه أن الملول النافر عن المودة لا يعطفه العتاب إليها ولو عطفه لم يكن مفيدًا.

الاقتباس

هو أن يزين المتكلم كلامه بعبارة من القرآن يظهر أنها منه وإنما يحسن، ويكون مقبولًا إذا وطن لها في الكلام بحيث تكون مندرجة فيه داخلة في سياقه دخولًا تامًا، وكان ذلك في المقامات الشريفة كالوعظ والتذكير والزهد والمدائح النبوية وما إلي ذلك.

وأما الاقتباس في المواضع الخسيسة فبعد كونه من إساءة الأدب فلا يبعد أن يكون مجمعًا على حرمته وإن لم ينص عليه إلا بعض المالكية كقول القائل:

رب فلاح مليح قال يا أهل الفتوة

كفنـــــي أضـــعف خـــصري فــــــــأعينوني بقــــــــوة

وإنما يكون اقتباسًا إذا لم يكن إيراد ما يورد على سبيل الحكاية وإلا كان استدلالًا واستشهادًا، كما يقال بعد حكاية كلام فالله يقول كذا، أو قال كذا، أو اقرؤوا إن شئتم كذا.

فمن الاقتباس الحسن ما وقع لعبد المؤمن الأصبهاني في مقالاته التي سمّاها أطباق الذهب كقوله من مقالة: "واعلم أن الدنيا والآخرة ضرتان لك إليهما كرتان: إحداهما: حرة خريدة، والأخرى أمة مريدة، فاجعل للحرة يومين فإن لها قسمين، وللأمة قسمًا فإن لها في كتابك اسمًا، وأضعف نصيب العقبي ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ واحفظ القسمة العادلة ولا تكن ممن يحبون العاجلة، فالويل كل الويل أن تميلوا كل الميل، واتق الميل بالقلب، ﴿فكل أولئك كان عنه مسؤولًا﴾. وإن كان ولابد ﴿فللآخرة خير لك من الأولى﴾، فإن تفيت الزيغ فطلق الدنيا فإنها زائلة، وإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة".

(ولابن معصوم في التذكير والوعظ: " انتبه يا نائم فقد هبت النسائم، ودع المنام فقد انقشع الظلام، هذا الصبح قد لاحت تباشيره، وهذا النجح قد وافاك بشيره، فإلام هذه الغفلة والغرة، وحتَّام هذه الفضيحة والمعرة، أرُكونًا إلى الدنيا الدنية، واشتغالًا عن المنية بالأمنية، ما أراك إلا قد تورطت، فبادر نفسك قبل أن تقول: ﴿يا حسرتا على ما فرطت﴾، وذر الكبر والزهو ﴿فما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾، فتبًا لمن نسى وفاته حتى ذهب أمره وفاته، وطوبى لمن عمل لغده ولم يرضى من العيش برغده، فكم هذا التسويف يا ماطل، والحق لا يدرك بالباطل، فلا يغرنك قوم

أعرضوا عن العلم والعمل ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل﴾ إن الذين آمنوا لا يسوّفون من يوم إلى يوم ومن عام إلى عام، ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام﴾.

(وله) من عجيب أمر الإنسان وكل أمره عجيب أن يدعو فيرجو الإجابة، ويدعي فلا يجب أليس كما يدين يدان، وهل يجزى إلا بما دان، عقل في قفارة الجهالة هائم، وقلب في تيار الضلالة عائم، يرجو ولا يخاف إيمان ظاهر وكفر خاف.

والخوف والرجاء للمؤمن كالجناحين للطير، متى قص أحدهما هوى في هوة الضير، فيا أيها المغرور بأمله، المسرور بعمله، إنك في حبائل الشيطان واقع، ألما تصح والشيب وازع، فانظر لحالك قبل ترحالك، واعمل في يومك لغدك قبل فوات الأمر من يدك، ولا تكن عن الآخرة باللاه، ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾ ولا يعجبنك أمر قوم رضوا من الدنيا الدنية بالدون، ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾

(وله) لله در عصابة هم أهل الإصابة ذاقوا شهد الدهر وصابه، وقاسوا محنه وأوصابه؛ فنبذوا الدنيا وراءهم ظهريًا، امتطوا من عزمهم جملًا مهريًا، يرون ببصائرهم ما لا يرون بأبصارهم، وينتصرون بالله سبحانه لا بأنصارهم، هم أعلام الهدى ومعالمه، وأركان التوحيد ودعائمه، أنفسهم في عالم الملكوت سائحة، وقلوبهم في غمار الرهبوت سابحة، نطقهم حكمة وذكر، وصمتهم عبرة وفكر، إذا خوطبوا أحسنوا السمع، ﴿وإذا

سمعوا ما أنزل لي الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾ أكفهم بالبذل مبسوطة، وأوصافهم بالفضل منوطة، يبذلون من المال خلاصه، ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾، يهدون بالحق وبه يعدلون، ويصدون عن الباطل وعنه يعدلون، يأمرون بالصلح وهم المصلحون، ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾.

ثم أن الاقتباس كما يكون من القرآن يكون من الحديث الشريف ومن سائر الفنون العلمية كقول الصاحب في الحديث:

قال لي أن رقيبي سيئ الخلق فداره
قلت دعني وجهك الجنة حفت بالمكاره

ولفظ الحديث « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات »، وكقول تقي الدين بن دقيق العبد من أصول الفقه:

قالوا فلان رجل عالم فأكرموه مثل ما يرتضى
فقلت لما لم يكن عالمًا تعارض المانع والمقتضى

وقول ابن العفيف:

قضاة الحسن ما صنعي بطرف تمنى مثله الرشأ الربيب
رمى فأصاب قلبي باجتهاد صدقتم كل مجتهد مصيب

ولابن العفيف من المنطق:

للمنطقيين أشتكى أبدًا عين رقيب فليته هجعا
راقبها من أحبه فأبى أن نختلي ساعة ونجتمعا
كيف غدت دائمًا وما انفصلت مانعة الجمع والخلو معا

ولبعضهم:

تـالله مـا لمعـذبي فـي حـسنه ... شـبه فـأي حشى عليـه لـم يهـم

لام العـذار ومـيم مبـسمه علـى ... مـا أدعـى مـن حـسنه برهـان لـم

ولأبي المحاسن الشواء من النحو:

هاتيـك يـا صـاح ربـا لعلـع ... ناشـدتك الله فعـرج معـي

وأنـزل بنـا بـين بيـوت النقـا ... فقـد غـدت آهلـة المربـع

حتى نطيل اليوم وقفًا على الساكن ... أو عطفًـا علـى الموضـع

ولبعض من البيان:

قـد قلـت للبـدر التمـام منزهًـا ... عنـه معـذب مهجنـي تنزيهـا

أشـبهته لمـا اسـتعرت جمالـه ... والاسـتعارة تقتـضى التـشبيها

ولصاحب هذين البيتين واسمه عبد على بن رحمة من البديع:

وحـوراء العيـون إذا تجلـت ... لجـيش الهـم آذن بالـشتات

إذا التفتـت فـأدتني نـشاطًا ... وذلـك وجـه حـسن الالتفـات

ولأبي إسحاق الغزى من علم الهيئة:

لست أنسى قول سلمى ذات يوم ... مـا لهـذا المنحنـى الظهـر ومـا لـي

أنا شمس في الضحى وهو هلال ... وكسوف الشمس من قرب الهلال

المواربة

هي أن يجعل المتكلم كلامه بحيث يمكنه أن يغير معناه بتحريف أو تصحيف ليسلم من المؤاخذة، فيكون قد وصل إلى غرضه مع سلامة العاقبة.

يحكى أن أبا منهال عتبان بن وصيلة، وكان من قوم خرجوا في أيام عبد الملك بن مروان ثم انقادوا فوفد عليه بعد أن بلغه عنه قوله:

وأبلغ أمير المؤمنين رسالة ... وذو النصح لو يدعى إليه قريب

فلا نصح مادامت منابر أرضنا ... يقوم عليها من ثقيف خطيب

وإنك إلا ترض بكر بن وائل ... يكن لك يوم بالعراق عصيب

فإن يك منكم كان مروان وابنه ... وعمرو ومنكم هاشم وحبيب

فمنا حصين والبطين وقعنب ... ومنا أمير المؤمنين شبيب

فقال: ألست القائل يا عدو الله ومنا أمير المؤمنين. فقال: إنما قلت أمير المؤمنين. فنصب ما كان مرفوعًا فأفرده بالإمارة بعد أن أشرك فيها شبيبًا أو خصه بها وإثباتها أولًا لعبد الملك يكون على زعمه.

ودخل الخطير أسعد بن مماتي القاضي على عبد الرحيم الفاضل، وكان في عصره قاضي القضاة وصاحب الكلمة لا يصدر سلطانه يوسف صلاح الدين أمرًا لا عن رأيه، فكان معيبًا جدًا مخشيًا فوجده جالسًا وبين يديه أترجة كبيرة مساوية لرأسه، وكان الفاضل أحدب فأخذ يندر على نفسه بمقارنة تلك الأترجة مسابقة بما يخطر في أنفس المشاهدين لتلك

الحالة، وهو يقول لأسعد: كان هذا يمر بفكرك. فقال له: لا سيدي أعزك الله وإنما حضرني وأنشد:

لله بـــــل للحـــــسن أترجــــــة تـــذكر النـــاس بـــأمر النعـــيم
كأنهـــا قـــد جمعـــت نفـــسها مـن هيبـة الفاضـل عبـد الـرحيم

فلما خرج قال له بعض من كان حاضرًا: أما خشيت أن يتنبه الرجل لقولك من هيبة التي تصحيفها من هيئة أي: بإبدال الباء همزة فيكون الكلام تنديرًا. فقال أسعد: ما قصدت ذلك وسلم الله. فمن الواجب على من يخاف الانتقاد في خطاب أن يفتش ألفاظه حذرًا من مثل ذلك.

وتكون المواربة بغير التصحيف والتحريف والمدار فيها على تأويل قريب يصرف الكلام عن المعنى المكروه.

يحكى أن المتوكل رمي عصفورًا فأخطأ، فقال بعض حاضريه: أحسنت يا سيدي فغضب فقال لهم: إلى العصفور، فسرى عنه وضحك.

ويحكى أن رافضيًا وقع في أيدي سنيين، فقال: أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا من أبغض واحدًا منهم فهو كافر وامرأته طالق فخلص منهم ومراده بالواحد عليّ.

التقويف

هو أن يأتي الشاعر بجمل متناسقة متتابعة وحسنه إذا سلم من الركاكة المؤدية لثقل النطق كقول ابن زيدون:

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع سـر إذا ذاعـت الأسـرار لـم يـذع
يـا بائعًـا حظـه منـي ولـو بـذلت لـي الحيـاة بحظـي منـه لـم أبـع

يكفيك أنك أن حملت قلبي ما لا يستطيع قلوب الناس يستطع
تهْ احتمل واستطل أصبر وعزاهن وول أقبل ومر أسمع وقل أطع

وهذا يقال له التفويف بالجمل المتوسطة، وهنالك تفويف بالجمل الطويلة، وتفويف بالجمل القصيرة وذلك أحسنها وليس يخلو الثالث من تعسف، وإن تهافت عليه بعض الشعراء كأنهم يظهرون به الاقتدار كقول المتنبي:

أقل أنل أقطع أحمل عل سل أعد زد هش بش تفضل أدن سرصل

من « أقال عثرته »: أي سامحه، وأناله: أي أعطاه، وأقطعه: ملكه قطعة أرض ينتفع بها، وحمله: أعطاه فرسًا، وعلى قدره: أي رفع شأنه، وسلاه: أي أفاده السلاوة عن فائت لنفسه به تعلق، وأعاد: أي كرر له مسؤله وزاده خيرًا، وهش وبش: أي أظهر البشر وتفضل عليه، وأدناه: قربه، وسراه: أي أعطاه جارية للفراش، فأنت ترى أن بعض هذا الألفاظ ليست إلا تكميلًا للعدد.

المراجعة:

حكاية ما جرى بين متخاطبين بقال وقلت مثلا وملاحتها إذا كانت العبارة رشيقة والنسق مستغربًا كقول البحتري:

وندیم حلو الشمائل كالدينار محض النجار عذب المصفى
بت أسقيه صفوة الراح حتى وضع الكاس مائلًا يتكفى
قلت عبد العزيز تفديك نفسي قال لبيك قلت لبيك ألفا
هاكها قال هاتها قلت خذها قال لا أستطيعها ثم أغفى

وكقول بعض أجواد العرب:

قالت أما ترحل تبغى الغنى قلت فمن للطارق المعتم
قالت فهل عندك شيء له قلت نعم جهد الفتى المعدم
فكم وحق الله من ليلة قد طعم الضيف ولم أطعم
إن الغنى بالنفس يا هذه ليس الغنى بالثوب والدرهم

وشرط حسن هذا النوع أن يتم المعنى الذي فيه المحاورة.

المناقضة:

هي تعليق الشيء على ممكن يقدم وغير ممكن يؤخر كقول النابغة في الهجاء:

وإنك سوف تحلم أو تناهى إذا ما شبت أو شاب الغراب

أي سوف يكون لك حلم أي عقل أو تتظاهر بالنهي إدراكًا لفضيلة العقل، فكثيرًا ما يتعاقل غير العاقل، وهذا النوع حسنه لما فيه من الهزل أو الأطماع والتيئيس.

المغايرة:

هي مدح الشيء بعد ذمه وعكسه وفيه الإبانة عن نباهة المتكلم وقوة حفظه وفهمه؛ إذ يكون أدرك من الشيء محاسنه ومساويه.

يحكى أن الخليل بن أحمد قال للنظام يومًا، وقد أحضره أبوه له في صغره ليعلمه، وكان بحضرتهما قدح زجاج، يا بني: صف لي هذا القدح، فقال: مدحًا أو ذمًا، قال: مدحًا، فقال: يريك القذى ولا يقبل الأذى ولا

يستر ما ورا، قال: فذمه، قال: سريع الكسر بطيء الجبر. وكان هنالك نخلة، فقال: صف هذه مدحًا وذمًا، فقال: حلو مجتناها باسق منتهاها ناضر أعلاها صعبة المترقي بعيدة المجتنى محفوفة بالأذي، فقال الخليل: يا بنى نحن أحوج إلى التعلم منك.

ويحكى أن عبد الله بن عامر أيام إمارته على الكوفة حفر نهرًا ظهرت منافعه لأهل تلك الناحية، فاتفق أن مرّ ذاك الأمير يومًا ومعه غيلان الضبي، فقال: ما أنفع هذا النهر يا غيلان، فقال: نعم هو سقيًا البلد وفيه تصل إليهم مبرتهم وتتعلم السباحة صبيانهم.

ثم زالت عن الكوفة إمارته وخلفه زياد، وتولع بإزالة آثاره، ولم يتمكن من طم النهر وكان بغيته فمرّ يومًا مع غيلان المذكور، فقال: ما أضر هذا النهر يا غيلان، فقال: نعم أصلح الله الأمير، أنه مخل بأساس الدور وبه يكثر البعوض في البلد وفيه تغرق الولدان. قيل لبعض ظرفاء الكتاب وكان ساكنًا في دار كراء: انظر للهلال، فقال: لا أنظره لبغضي له، قيل: ولمه، فقال: لعيوب لو كانت في حمار لرد، فسئل بيانها فقال: أنه يهدم العمر ويقرب الأجل، ويحل الدين ويوجب كراء المنزل، ويقرض الكتان، ويشحب الألوان، ويسخن الماء، ويفسد اللحم، ويعين السارق، ويفضح العاشق الطارق.

وإذا وصلت من مقامات الحريري إلى صفة الدينار، ونعت الكاتبين: كاتب الحساب وكاتب الإنشاء، وذكر الكبر والشيب، رأيت الغريب من هذا النوع، وقال أبو تمام:

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل

فغايره آخر فقال:

نقل فؤادك حيث شئت فلن ترى   كهوى جديد أو كوصل مقبل
مالي أحسن إلى خراب مقفر   درست معالمه كأن لم يوهل

وراعى آخر الجهتين فقال:

أنا مبتلى ببليتين من الهوى   شوقي إلى الثاني وذكر الأول
قسم الفؤاد لحرمة وللذة   في الحب من ماض ومن مستقبل

يشير إلى المثل المشهور «لكل جديد لذة ولكل قديم حرمة»:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

كان الناس لسانًا واحدًا في تقريظ بني برمك والثناء عليهم في كلامهم وإشعارهم؛ حيث كانوا إذ ذاك غاية في جلال المحل وكرم الفعال، وهم يحيى بن خالد وهو الذي ربى الرشيد وكان يسميه أباه، وابناه الفضل وجعفر أصغرهما وأحظاهما عند الرشيد، حتى كان أيام إقبال الأيام عليه وشغفه بهم يحلف بالله أن جعفرا: أفصح من قس بن ساعدة، وأشجع من عامر بن الطفيل، وأسوس من عمر بن الخطاب، وأكتب من عبد الحميد بن يحيى، وأعف من يوسف بن يعقوب، فلما تحوّلت بهم الأحوال وآل أمرهم إلى ما آل إليه حتى قال قائلهم:

سألونا عن حالنا كيف أنتم   من هوى عرشه فكيف يكون
نحن قوم أصابنا عنت الدهر   فظللنا لحكمه نستكين

غاير الناس فيهم القول وطلبوا لهم المثالب قال أبو نواس:

قالوا امتدحت فما أعطيت قلت لهم   خرق النعال وأخلاق السراويل

قالوا فسم لنا هذا فقلت لهم نعتي له يعدل التفسير في القيل
ذاك الأمير الذي طالت علاوته كأنه ناظر في السيف بالطول

فندعوك ربنا بما دعاك به نبيك عليه أفضل صلواتك وأشرف تسليمانك: « اللهم أنا نعوذبك من الحور بعد الكور».

التوشيح:

هو كون فاتحة الكلام دالة بمعناها على خاتمته، وشاهده قوله تعالى ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ وجميع القرآن شواهد لذلك، وهذا النوع يرشدك إلى أنه ينبغي أن يكون الكلام من قوة التلاؤم وشدة الائتلاف يبعث بعضه الفهم إلى بعض، وذلك يستدعى صفاء فكر وقوة ذوق ولطف رعاية، ومن أمثلته قول أبي فراس الحارث بن حمدان في ابن عمه سيف الدولة علي:

فلما نار سيف الدين ثرنا كما هيجت آساد إغضابًا
أسنته إذا لاقى طعانًا صوارمه إذا لاقى ضرابًا
دعانا والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا

التذييل:

وهو بعض أنواع الأطناب الملقبة التي سبق بها الوعد، وهو تعقيب جملة تامة بجملة تشتمل على معناها منطوقًا أو مفهومًا لتقريره وتمكينه من قلوب السامعين.

وهو إما أن يكون مستقلًا خارجًا مخرج المثل، ومن شواهده قوله تعالى جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، ومن أمثلته قول النابغة:

ولست بمستبق أخًا لا تلمه   على شعث أي الرجال المهذب

وقول جرول:

تزور فتى يعطي على الحمد ماله   ومن يعط أثمان المحامد يحمد

ومن غير المستقل مثل قوله الحماسي:

ودعوا نزال فكنت أول نازال   وعلام أركبه إذا لم أنزل

وقول ابن نباتة السعدي:

قد جدت لي باللهى حتى ضجرت   وكدت من ضجري أثني على البخل

لم يبق جودك لي شيئًا أؤمله   تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

ومن ضروب الإطناب المذكورة التكميل، ويكون بجملة وبغير جملة؛ لرفع وهم فيما يسبقه من الكلام، والسابق على موضع الوهم لدفعه قبل حصوله يسمى احتراسًا كقوله:

فسقى ديارك غير مفسدها   صوب الربيع وديمة تهمى

وأوجز هذا مهيار في قوله:

بكر العارض تحدوه النعاما   فسقاك الري يا دار أماما

والإيغال: ويكون في الفواصل والقوافي بكلمة أو جملة؛ لغرض التحقيق والتوكيد والمبالغة في المعنى كقول الخنساء:

وإن صخر لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وقولها وقد استنشدها أمير المؤمنين عمر:

ترى الأمور سواء وهي مقبلة وفي عواقبها تبيان ما التبسا
ترى الجليس يقول القول تحسبه نصحًا وهيهات ما نصحا به التمسا
فاسمع مقالته واحذر عداوته وألبس له ثوب شك مثل ما لبسا

تشابه الأطراف

هو جعل عجز جملة صدر تاليتها أو قافية بيت صدر ما يليه كقوله تعالى ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ وقوله ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ وفي مديح ليلى الأخيلية للحجاج ابن يوسف:

إذا نزل الحجاج أرضًا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القناة سقاها
سقاها دماء المارقين وعلها إذا جمحت يومًا وحف أذاها

التتميم:

هو زيادة كلمة أو أكثر تزيد المعنى تمامًا وتفيد الكلام حسنًا بحيث تراه لو طرحت منه لصار مبتذلًا قال ابن المعتز:

وخيل طواها القود حتى كأنها أنابيب سمر من قنا الخط ذبل
صببنا عليها ظالمين سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل

وقال زهير:

من يلق يومًا على علاقته هرمًا يلق السماحة منه والندى خلقًا

وقال أبو العلاء في مدح عرب بالبادية:

الموقدون بنجد نار بادية لا يحضرون وفقد العز فى الحضر

إذا همى القطر شبتها عبيدهم تحت الغمائم للسارين بالقطر

الهجو في معرض المدح:

هو أن يكون الهجو بالعبارات التي تستعمل في المدح مقرونة بما يصرفها إلى الهجاء كقول الحماسي:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إذن لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانًا

كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانًا

فليت لي بهم قومًا إذا ركبوا شنوا الإغارة ركبانًا وفرسانًا

وقول النجاشي:

إذا الله جازى أهل لؤم بذمة فجازى بني العجلان رهط ابن مقبل

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورّاد عن كل منهل

وما سمي العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد

أولئك أبناء الهجين وأسرة | اللئيم ورهط العاجز المتذلل
تعاف السباع الضاريات لحومهم | وتأكل من أشلاء كعب ونهشل

ولبعضهم:

له حق وليس عليه حق | ومهما قال فالحسن الجميل
وقد كان الرسول يرى حقوقًا | عليه لغيره وهو الرسول

وللسرى الرفاء:

وشيخ طاب أخلاقًا فأضحى | أحب إلى الشباب من الشباب
له دار إذا استخفيت فيها | أمنت فلم تنلك يد الطلاب
طرقناه وقنديل الثريا | يحط وفارس الظلماء كابي
فرحب واستمال وقال حطت | رحالكم بأفنية رحاب
وحض على المناهدة الندامى | بألفاظ مهذبة عذاب
وقال تيمموا الأبواب منها | فكل جاء من تلقاء باب
فهذا قال قدر من طعام | وهذا قال دن من شراب
وهذا قال ريحان ونقل | وثلج مثل رقراق السراب
وسمح القوم من سمحت يداه | بخد غريرة بكر كعاب
فتم لهم بذلك يوم لهو | غريب الحسن عذب مستطاب
إذا العبء الثقيل توزعته | رقاب القوم خف على الرقاب

الاكتفاء

هو الاقتصار من كلمة على بعضها أو من كلام على جزء منه اقتصارًا يشبه الاقتصار على بعض الكلمة.

ونقل أهل هذا الفن ندرة وقوعه في كلام العرب ورووا فيه قوله – صلى الله عليه وسلم –: « كفى بالسيف شا» أي شاهدًا ، وأكثر منه المتأخرون كابن نباتة المصري وأهل عصره ومن قبله بقليل، ولم يستعمله من تقدمهم من الشعراء.

وأحسن الاكتفاء ما كان فيه بعض الكلمة المقتصر عليه كلمة تامة، فيكون الكلام بذلك مشتملًا على التورية كقول بعضهم:

نزل الطل بكرة وسروري تجددا
والندامي تجمعوا فأجل كاسي على الندا

فلفظ الندا من الندامى، ورشح للتورية بقوله نزل الطل.

وشاهد النوع الآخر قول بعضهم:

لا انتهى لا أرعوي لا أنثني ما دمت في قيد الحياة ولا إذا

الاحتباك

هو نوع من الاختصار ولخصوص هيئته عدّ من المحسنات وأفرد بالاسم، وضابطه أن يجعل الكلام شطرين ويحذف من كل منهما نظير ما يثبت في الآخر، وشاهده من القرآن: ﴿ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾ أي إن شاء فلا يتوب عليهم أو يتوب عليهم فلا يعذبهم.

ومن قول بعض العرب.

وأنــي لتعرونـــي لـــذكراك هـــزة كمـا انـتفض العـصفور بللـه القطـر

أي: هـزة وانتفـاض كمـا اهتـز وانـتفض، ومـن القـرآن أيـضًا: ﴿قـل أن افتريته فعلى إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾ ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء﴾ وهو فيه كثير.

اتصال النتائج

هو مثل قوله - صلى الله عليه وسلم- « من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به »، وقول على - كرم الله وجهه - " من كثر كلامه كثر خطأه ومن كثر خطأه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار". ولبعضهم:

تأمـــل بعينيـك كيـــف الـــذهاب فــــإن لكــــل حيــــاة مماتــــا

فمـن عـاش شـب ومـن شـب شـاب ومـن شـاب شـاخ ومـن شـاخ ماتـا

ولبعضهم:

قـــــريش خيــــار بنـــــي آدم وخيــــر قــــريش بنــــو هاشـــم

وخيـــر بنـــي هاشـــم أحمـــد رســـول الإلـــه إلـــى العـــالم

ردّ العجز على الصدر

هو تكرير كلمة في الشطرين من الشعر أو الفقرتين من السجع كقول بعضهم:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه ... وليس إلى داعي الندى بسريع

وما أشبه ذلك.

الاستثناء

هو المعروف وإنما يعد من البديع إذا كان مثل قول النميري حيث يخاطب الحجاج وكان فرّ خائفًا منه ولم يجد فراره نافعًا:

فهاك يدي ضاقت بي الأرض رحبها ... وإن كنت قد طوّفت كل مكان

فلو كنت كالعنقاء أو في أطومها ... لخلتك إلا أن تصدّ تراني

فإنه مشتمل على تأكيد المبالغة في صفته بزيادة القدرة وقوة السلطان وشدة الضبط. يقول أنه لا يفوته فائت ولا ينجو منه إلا من اختار نجاته، فلابد أن يشتمل الاستثناء على مزية من جنس ما يذكر في علم البلاغة من دواعي صور التراكيب.

مراعاة النظير

هي أن يذكر الشيء وما هو من واديه كقول البحتري في صفة إبل أنحلها السير:

يترقرقن كالسراب وقد خضن ... غمارًا من السراب الجاري

كالقسي المعطفات بل الأسهم ... مبرية بل الأوتار

فلما أراد أن يترقى في تصوير نحولها لم يخرج عن وادي القوس.

وللشريف الرضي:

هن القسي من النحول فإن سما طلب فهنّ من النجاء الأسهم

ولأبي العلاء:

إذا صدق الجدّ افترى العم للفتى مكارم لا تكرى وإن كذب الخال

المراد بالجدّ: الحظ والبخت، وبالعم: جماعة الناس، وبالخال: الظن.

ومتى سلك هذا الطريق في العبارة فالانحراف عنه بكلمة أجنبية يعد عيبًا كما وقع لأبي نواس في قوله:

وقد حلفت يمينًا مبرورة لا تكذب
برب زمزم والحوض والصفا والمحصب

ولو قال: والبيت لسلم من ذلك.

التوجيه

هو أن يعبر بألفاظ هي أسماء لناس أو غيرهم مثل قول بعضهم:

وما حسن بيت له زخرف تراه إذا زلزلت لم يكن

وقول الوداعي:

من أمّ بابك لم تبرح جوارحه تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والكف على صلة والقلب عن جابر والإذن عن حسن

التمثيل

هو تقرير المعنى بذكر نظائره وفيه تشبيه ضمني كقوله - صلى الله عليه وسلم - لشخص رآه قد أنهك نفسه بالعبادة: « أن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا أظهرًا أبقى» مثل حال ذلك العابد بحال مسافر قد استجاد دابته فترك الرفاق واشتد في السير حتى كلت راحلته فلا هو وصل المقصد ولا أبقى راحلته.

وكقول حبيب:

أخرجتموه بكره عن سجيته والنار قد تنتضي من ناصر السلم

أو طأتموه على جمر العقوق ولو لم يحرج الليث لم يخرج من

يخاطب بهذا الكلام قومًا أغضبوا رئيسهم بالتورط في مخالفاته، حتى اضطروه إلي مفارقة سجايا من العطف عليهم والرأفة وإصلاح أحوالهم إلى تأديبهم بما يعيدهم إلى ما هو لهم صلاح.

القسم

هو من المؤكدات كما عرفت في المعاني، ويكون القسم بعبارات كثيرة وأحسنه ما كان موافقًا للغرض المسوق له الكلام.

وتعرف ذلك في أقسام الكتاب العزيز فإنها في حيز الاستدلال لإثبات عقائد الإسلام وتراها متضمنة ذلك، ومن المنبغي أن يتجنب القسم بما ينفر عنه سمع المسلم مثل: برئت من الإسلام، وانحرفت عن الهدى كما وقع لبعض المستهترين.

وليكن مثل قول الأشتر النخعي الذي يقول فيه علي - كرم الله وجهه - " الأشتر لي كما كنت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -":

بقيت وفري وانحرفت عن العلى ولقيت أضيافي بوجه عبوس
إن لم أشن على ابن هند غارة لم تخل يومًا من نهاب نفوس
خيلًا كأمثال العالي شربًا تعدّو ببيض في الكريهة شوس
حمى الحديد عليهم فكأنه ومضان برق أو شعاع شموس

ولقد أحسن بعض أصحاب البديعيات عند التمثيل للقسم بما صدر عن أحمد بن المنير المشهور بمهذب الدين الشيعي في إيراد قصيدتيه المشتملتين على القسم فلا بأس باتباعه في ذلك.

وسبب القصيدة الأولي أنه كان أهدى لنقيب الإشراف في عصره ببغداد من بلده طرابلس الشام عبدًا أسود، فكتب له الشريف: لو رأيت عددًا أقل من الواحد ولو ناشرًا من السواد لأهديته يداعبه بذلك، فخجل ابن المنير من ذلك وجهز له هدية وأرسلها مع مملوك له كان شقيق روحه واسمه تتر، فظنه الشريف بعض الهدية وطلبه ابن منير، وعلم الشريف شدة شغفه به فتوانى عن إرساله على سبيل المزح فكتب له بهذه القصيدة:

عذبت طرفي بالسهر وأذبت قلبي بالفكر
ومزجت صفو مودتي من بعد بُعدك بالكدر
ومنحت جثماني الضني وكحلت عيني بالسهر
وجفوت صبًا ما له عن حسن وجهك مصطبر
يا قلب ويحك كم تخادع بالغرور وكم تغر
ولأم تكلف بالأغن من الظباء وبالأغر

ريم يفوق إن رماك   بسهم ناظره النظر
تركتك أعين تركها   من بأسهنّ على خطر
ورمت فأصمت عن   قسي لا يناط بها وتر
جرحتك جرحًا لا يخيط   بالخيوط ولا الإبر
تلهو وتلعب بالعقول   عيون أبناء الخزر
فكأنهنّ صوالج   وكأنهنّ لها أكر
تخفي الهوى وتسره   وخفي سرك قد ظهر
أفهل لوجدك من مدى   يفضي إليه فينتظر
نفسي الفداء لشادن   أنا من هواه على خطر
عذل العذول ومارآ   ه وحين عاينه عذر
قمر يزين ضوء صبح   جبينه ليل الشعر
وترى اللواحظ خدّه   فيرى لهنّ به أثر
هو كالهلال ملثمًا   والبدر حسنًا إن سفر
وبلاه ما أحلاه في   قلبي الشجي وما أمر
نومي المحرّم بعده   وربيع لذاتي صفر
بالمشعرين وبالصفا   والبيت أقسم والحجر
وبمن سعى فيه وطاف   به ولبى واعتمر
لئن الشريف الموسوي   ابن الشريف أبو مضر
أبدى الجحود ولم يرد   إلى مملوكي تتر
واليت آل أمية الطهر   الميامين الغرر
وجحدت بيعة حيدر   وعدلت عنه إلى عمر

وإذا جرى ذكر الصحابة   بين قوم واشتهر

قلت المقدم شيخُ تيم   ثم صاحبه عمر

ما سل قط ظبي على   آل النبي ولا شهر

كلا ولا صد البتول   عن التراث ولا زجر

وأثابها الحسنى ولا   شق الكتاب ولا بقر

وبكيت عثمان الشهيد   بكاء نسوان الحضر

وشرحت حسن صلاته   جنح الظلام المعتكر

وقرأت من أوراق مصحفه   براءة والزمر

ورثيت طلحة والزبير   بكل شعر مبتكر

وأزور قبرهما وأزجر   من نهاني أو زجر

وأقول أم المؤمنين   عقوقها إحدى الكبر

وافت على جمل لتصبح   من بنيها في زمر

وأتت لتصلح بين جيش   المسلمين على غرر

فأتى أبو حسن وسل   حسامه وسطا وكر

وأذاق أخوته الردى   وبعير أمهم عقر

ما ضره لو كان كف   وعف عنه إذ قدر

وأقول إن إمامكم   ولّي بصفين وفر

وأقول إن أخطأ معاوية   فما أخطأ القدر

هذا ولم يغدر معاوية   ولا عمرو ومكر

بطل بسوأته يقاتل   لا بصارمه الذكر

والأشعري بما يؤول   إليه أمرهما شعر

قـــال انـــصبوا لـــي منبـــرًا فأنـــا البـــريء مـــن الخطـــر
فعــلًا وقــال خلعــت صــاحبكم وأوجـــــز واختـــــصر
وجنيــت مــن ثمــر النواصــب مـــا تتمـــر واختمـــر
وأقـــول ذنـــب الخـــارجين علـــى علـــيّ مغتفـــر
لا ثـــائر بقتـــالهم فـــي النهـــروان ولا أثـــر
وأقـــول أن يزيـــد مـــا شـــرب الخمـــور ولا فجـــر
ولجيـــشه بـــالكف عـــن أبنـــاء فاطمـــة أمـــر
وحلقــت فــي عــشر المحــرم مـــا اســتطال مـــن الـــشعر
ونويـــت صـــوم نهـــاره وصـــيام أيـــام أخـــر
ولبـــست فيـــه أجـــل ثـــوب للملابـــس يـــدخر
وســهرت فــي طــبخ الحبــوب مـــن العـــشاء إلـــى الـــسحر
وغـــدوت مكـــتحلًا أصـــافح مـــن لقيـــت مـــن البـــشر
ووقفـــت فـــي وســـط الطريـــق أقـــص شـــارب مـــن عبـــر
وأكلـــت جرجيـــر البقـــول بلحـــم جـــرى الحفـــر
وجعلتهـــا خيـــر المآكـــل والفواكـــه والخـــضر
وغـــسلت رجلـــي ظلـــة ومـــسحت خفـــي فـــي الـــسفر
وأمـــين أجهـــر فـــي الـــصلاة كمـــن بهـــا قبلـــي جهـــر
وأســـن تـــسليم القبـــور لكـــل قبـــر يحتفـــر
وإذا جـــرى ذكـــر الغـــد يـــر أقـــول مـــا صـــح الخبـــر
ولبـــست فيـــه مـــن الملابـــس مـــا اضـــمحل ومـــا دثـــر
وســـكنت جلّـــق واقتـــديت بهـــم وإن كـــانوا بقـــر

وأقــــول مثــــل مقــــالهم بالفاشـــر يـــا قـــد فـــشر
مـــــصطيحتي مكـــــسورة وفطيرتـــي فيهـــا قـــصر
بقـــر تـــرى برئيـــسهم طـــيش الظلـــم إذا نفـــر
وخفـــيفهم مـــستثقل وصـــواب قـــولهم هـــذر
وطبـــاعهم كجبـــالهم جبلـــت وقـــدت مـــن حجـــر
مـــا يـــدرك التـــشبيب تغريـــد البلابـــل بالـــسحر
وأقـــول فـــي يـــوم تحـــار لـــه البـــصرية والبـــصر
والـــصحف ينـــشر طيهـــا والنـــار ترمـــي بالـــشرر
هـــذا الـــشريف أضـــلني بعـــد الهدايـــة والنظـــر
فيقـــال خـــذ بيـــد الـــشريف فمـــستقر كمـــا ســـقر
لواحـــة تـــسطو فمـــا تبقـــى عليـــه ولا تـــذر
والله يغفـــر للمـــسيء إذا تنـــصل إلا لمن جحد الوصي ولاءه ولمن
فـــاخش الإلـــه بـــسوء فعلـــك واحتـــذر كـــل الحـــذر
وإليكهـــــا بدويـــــة رقـــت لرقتهـــا الحـــضر
شـــامية لـــو شـــامها قـــس الفـــصاحة مـــا افتخـــر
حبرتهـــا فغـــدت كزهـــر الـــروض بـــاكره المطـــر
وإلـــى الـــشريف بعثتهـــا لمـــا قرأهـــا وابتهـــر
ردّ الغـــلام ومـــا اســـتمر علـــى الجحـــود ولا أصـــر
وأنـــابني وجزيتـــه شـــكرًا وقـــال لقـــصد صـــبر

هذه القصيدة وأمثالها من الشعر كأشعار الصاحب بهاء الدين زهير يقال له السهل الممتنع؛ وذلك أنه يخيل لقارئه القدرة على مثله فمتى ذهب يطالب طبعه بحكايته وجده ينكص ويأبى عليه.

والقصيدة الثانية قوله:

من ركب البدر في صدر الرديني ... وموّه السحر في حد اليماني

وأنزل النير الأعلى إلى ذلك ... مداره في القباء الخسرواني

طرف رنا أم قراب سل صارمه ... وأغيد ماس أم أعطاف خطي

أذلني بعد عز والهوى أبدًا ... يستعبد الليث للظبي الكناسي

أما وذائب مسك من ذوائبه ... على أعالي القضيب الخيزراني

وما يجن عقيقي الشفاه من ... الريق الرحيقي والثغر الجماني

لو قيل للبدر من في الأرض تحسده ... إذا تجلى لقال ابن الفلاني

أربي علي بشتى من محاسنه ... تألفت بين مسموع ومرئي

أباء فارس مع لين الشام مع ... الظرف العراقي والنطق الحجازي

وما المدامة بالألباب أفتك من ... فصاحة البدو في ألفاظ تركي

حسن التخلص

جرت عادة الشعراء قديمًا أنهم إذا أرادوا أن يمدحوا افتتحوا الكلام بنوع من الغزل وغيره لمقاصد منها: إدخال السرور على الممدوح، وتفريح قلبه، واستحضار نشاطه بتذكيره محاسن الملاح وأحوال الغرام إلى غير ذلك من الأمور التي تكون بها قلوب أهل القدرة بها أشغف وإلى التفكه بثمراتها أميل.

ومنها: شكو الشاعر انقطاع الوسائل الواصلة بينه وبين أحبته، حتى ألجأه ذلك إلى اقتحام المفاوز ومواصلة الأسفار ومعاناة الشدائد يبعث بذلك رحمة الممدوح ويوجب الحق عليه وغير ذلك، فإذا أرادوا أن ينتقلوا من ذلك إلى المقصود فذلك مكان التخلص.

وقال أهل البديع: ينبغي أن تزيد العناية به زيادتها بالمطلع والمقطع وموضع الطلب، وذلك يكون بحسن التحيل في إدخال ابتداء المديح في غضون انتهاء الغزل، حتى ينتقل السامع دون شعور وكأنه لم يزل في استماع المعنى الأول فيسمى حينئذ حسن التخلص.

وكان يقع للمتقدمين على سبيل الاتفاق وهو الذي نبه المتأخرين على اعتبار ذلك وقصده وإدخاله في الصناعة وغير ذلك يسمى اقتضابًا، وهو الغالب في شعر أبي تمام والبحتري ومن قبلهم حتى كان الصاحب بن عباد يقول: البحتري يسقط من السطح إلى المدح.

ولبعض الشعراء.

يغتابني فإذا التفت أبان عن محض صحيح

وثبا كثوب البحتري من النسيب إلى المديح

ويحسن الاقتضاب إذا أنهى الشاعر المعنى الأول بحيث لم يبق فيه ما تتشوف إليه النفس.

ويقول العارف بصناعة الشعر: أنه لا تمكن الزيادة على ذلك كقول أبي تمام وقد ذكر الشيب وذم آثاره وتوجه من صحبته واسترسل في ذلك حتى ختمه بالاستدلال عليه فقال:

لـو رأى الله أن فـي الـشيب خيـرًا جاورته لما الولدان في الخلد شيبا

فكأنه يستحضر السامع لأن يتلقى فنًا آخر من الكلام، فكأنه ابتدأ المديح ابتداء ولم يجعل له مقدمة، ومع ذلك فقد ولع الاتفاق على استحسان ما سموه حسن التخلص. فمن ذلك في شعر المتقدمين قول زهير:

إن البخيـل ملـوم حيـث كـان ولكـن الكـريم علـى علاتـه هـرم

وقول ربيعة بن مقروم الضبي:

وجـسرة أجـد تـدمى مناسـمها أعلمتهـا بـي حتـى تقطـع البيـدا

كلفتهـا فـرأت حتمًـا تكلفهـا ظهيـرة كـأجيج النـار صـيخودا

في مهمه قذف يخشى الهلاك به أصـداؤه لاتنـي بالليـل تغريـدا

لا تـشكت إلـى الأيـن قلـت لهـا لا تستريحين ما لم ألق مسعودا

لا ويتجاوز مثل هذا ما تأنق فيه المتأخرون إلا يسيرًا إن كان كقول لسان الدين بن الخطيب:

شمت المنى وحمدت إدلاج السرى وزجـرت للآمـال كـل سـنيح

فكأنمـا ليلـى نـسيب قـصيدتي والـصبح فيـه تلخـصي لمـديحي

ولبديع الزمان الهمداني:

أبـي المقـام بـدار الـذل لـي كـرم وهمـة تـصل التخويـد والخببـا

وعزمـة لا تـزال الـدهر ضـاربة دون الأميـر وفـوق المـشتري طنبـا

وجميع انتقالات الكتاب العزيز شواهد على حسن تخلص.

الاطراد

هو أن يذكر اسم شخص فينسبه بذكر أبيه وجده، وذلك يزيد حسنه في الشعر؛ لأنه مع حكم الوزن إذا كان سهلًا سلسلًا منحدرًا يشبه الماء في اطراده وجريانه ورد على نفس السامع مستغربًا متعجبًا منه، وهو في غير الشعر كقوله - صلى الله عليه وسلم -: « أن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ».

وفي الشعر كقول بعض العرب:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم ... بعتيبة بن الحارث بن شهاب

وقول دريد بن الصمة:

قتلنا بعون الله خير لداته ... ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب

وقول الأعشى:

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد ... وأنت الذي ترجو بقاءك وائل

وقوله أيضًا:

فنعم أخو الجلي ومستنبط الندى ... وملجأ محزون ومفزع لاهث

عياذ بن عمرو بن الحسين بن غانم ... بن زيد بن منصور بن زيد بن

جعل البيت كله اطرادًا كقول السراج الوراق من المتأخرين:

فله الجمال غدًا بغير منازع ... ولي الجوى فيه بغير قسيم

وكذا العلي لمحمد بن محمد بن ... بن علي بن محمد بن سليم

بتنوين علي لإقامة الوزن.

وزاد بعضهم في حد الاطراد لزوم ذكر كنية الشخص ولقبه مع نسبه وقبيلته، أو ما أمكن من ذلك فلا يعد ذكر النسب وحده اطرادًا كقول بعضهم:

أبي الشيخ الجليل أبي علي   محمد بن عيسى الدامغاني

وقول آخر:

إن الرواية والدراية خاتم   حقًا أقول ولست فيه يزاعم

وأبو علي أحمد بن محمد   بن عمير الجشمي فص الخاتم

العكس

هو مثل قولهم: عادات السادات سادات العادات، وكتب الأحباب أحباب الكتب، وكلام الأمير أمير الكلام.

وكقول بعض شعراء العرب:

رمى الحدثان نسوة آل حرب   بمقدار سمدن له سمودا

فرد شعورهنّ السود بيضًا   ورد وجوههنّ البيض سودا

الحدثان: بكسر فسكون من أسماء ما جرت عادة العرب بنسبة الأفعال له كالدهر والزمن، وكقول بعضهم وقد سئل عن الشعر: هو أدنى مروءة السرى وأسرى مروءة الدنى.

ومن العكس الاتفاقي قول الحسن بن سهل: لا سرف في الخير، وقد قيل له: لا خير في السرف. وقول أبي تمام وقد أنشد ابتداء من ابتداآته الوعرة: لم لم تقل ما يفهم لم لم تفهم ما يقال.

الترديد

تكرير اللفظ مختلف التعليقات كقوله تعالى في: سورة الرحمن، وسورة المرسلات، وسورة الشعراء، ويكون المردد جملة ومفردًا اسمًا أو فعلًا أو حرفًا وأقله تكرير الكلمة مرتين كقول أبي نواس:

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء

وهذا النوع تعرف حسنه بتأمل مواقعه واعتبار آثاره.

المناسبة

هي أن يأتي المتكلم بألفاظ متوازنة وأحسنها مقفاها كقول مروان ابن حفصة:

هم القوم أن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

الجمع

هو أن يذكر أمرين أو أكثر ليجعل المتعدد متحدًا بمعنى مشترك كقوله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة﴾، ومنه قول أبي العتاهية:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

الانسجام

يقال انسجم الغيث إذا اتصل انهماله في سهولة، وهذا النوع من البديع حاصله: أن يكون الكلام حسن التأليف حروفًا وكلمًا بحيث لا

يجد المتكلم به عسرًا ما على آلات النطق، حتى كأنه لسلاسته يمضي وحده مع النفس دون عمل.

وسبب ذلك هو السبب الذي من جهته تميز الشعر حيث كانت عبارته مفصلة الحركات والسكنات على أوضاع معينة، فإذا قويت مراعاة ذلك التفصيل بكون الحروف متلائمة مفصلة حركاتها بالسكنات على حد التناسب ممدودة بأحرف المدّ إلى غير ذلك مما يوجب سهولة النطق أخذ الكلام هيئة لا تختلف النفوس في استحسانها، وتلك الهيئة هي المسماة بالانسجام.

وجميع الكتاب العزيز شاهد لذا النوع، واعتبر ذلك بقراءة القراء إذا مدوا أصواتهم في قراءته، فإنك لا تجد ذلك يتفق في كلام ولا يمكن أن يعطيهم الحالة التي يعطيها القرآن إياهم.

ومن إساءة الأدب وقلة التحفظ بنقصان المعرفة ما وقع في هذا الموضع لبعض المتكلمين في فن البديع من قوله: أن الكلام بانسجامه يصير شعرًا دون قصد؛ حيث جعل المرجع إلى موافقة الشعر مع أن الشعر قليل فيه المنسجم؛ ولذلك بحثوا عن أبيات من قصائد في العصور المتتابعة ليجعلوها أمثلة للانسجام، ومتى كان المرجع في أمر الانسجام إلى اختبار نطقك بالكلام ولم تكن من أهل العي لم تكن مفتقرًا إلى اعتباره بشعر أو بغره.

ومما لا يستحسنه الأدب أن يقال: قوله تعالى: كذا هو من البحر الفلاني، ويعتذرون في تنزيه القرآن عن الشعر بكون الوزن غير مقصود،

وإذا كان الشعر محدودًا بالكلام الموزون المقفى فلا يتحقق إلا ببيت كامل فلست محتاجًا لذلك الاعتذار إذ ليس في القرآن ما يشبه بيتًا أصلًا.

هذا ولأجل أن تنظر الانسجام في كلام الناس نورد عليك أشياء مما مثلوه به فمن ذلك قول امرئ القيس.

فظللت في دمن الديار كأنني نشوان باكره صبوح مدام

وقول المنخل اليشكري:

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير

والكاعب الحسناء ترفل في الدمقس وفي الحرير

فدفعتها فتدافعت مشي القطاة إلى الغدير

ولثمتها فتنفست كتنفس الظبي البهير

فدنت وقالت يا منخل ما بجسمك من فتور

ما شف جسمي غير حبك فاهدئي عني وسيري

يقول فيها:

وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري

ولقد شربت من المدامة بالصغير وبالكبير

فإذا سكرت فإنني رب الخورنق والسدير

وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

يا رب يوم للمنخل قد لهوت فيه قصير

ومن نواحيات الخنساء ما هو غاية في الانسجام كقولها:

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندا

ألا تبكيـــان الجـــواد الجميـــل ألا تبكيـــان الفتـــى الـــسيدا
طويـــل النجـــاد رفيـــع العمـــاد ســـاد عـــشيرته أمـــردا
إذا القـــوم مـــدّوا أيـــاديهم إلـــى المجـــد مـــدّ إليـــه يـــدا
فنـــال الـــذي فـــوق أيـــديهم مـــن المجـــد ثـــم مـــضى مـــصعدا
يحملـــه القـــوم مـــا عـــالهم وإن كـــان أصـــغرهم مولـــدا
إذا ذكـــر المجـــد ألفيتـــه تـــأزر بالمجـــد ثـــم ارتـــدى

ولسحيم عبد بني الحسحاس:

أشوقًا ولما يمض لي غير ساعة فكيف إذا خب المطي بنا عشرا
وما كنت أخشى مالكًا أن يبيعني بشيء وإن أضحت أنامله صفرا
أخوهم ومولاهم وحافظ سرهم ومن قد ثوى فيهم وعاشرهم دهرا

يحكى أن هشام بن عبد الملك حج قبل أيام إمارته، فلما أراد ان يطوف وجد المطاف شديد الازدحام، فوضع له كرسي ناحية ينتظر خفة الزحمة ومعه أتباعه من أهل الشام وغيرهم وفيهم أبو فراس همام بن غالب المشهور بالفرزدق، فبيانهم كذلك إذ دخل زين العابدين على بن الحسين بن علي بن أبي طالب فانفرج له الزحام واحترمه الناس.

فقال بعض أهل الشام: من هذا الذي هابه الناس هذه المهابة، فقال هشام: لا أعرفه تجاهله خوفًا أن يميل له أهل الشام. فقال الفرزدق: لكن أنا أعرفه. فقيل له: من هو يا أبا فراس، فارتجل قصيدة هي من أكرم شواهد هذا النوع وإذا قرنتها بسائر شعره وجدت الماء والصخر وهي هذه:

هـذا الـذي تعرف البطحـاء وطأتـه والبيـت يعرفـه والحِـلُّ والحـرم

هـذا ابـن خيـر عبـاد الله كلهـم | هـذا التقـي النقـي الطـاهر العلـم
إذا رأتـه قـريش قـال قائلهـا | إلـى مكـارم هـذا ينتهـي الكـرم
ينمي إلى ذروة العز التي قصرت | عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكـاد يمسـكه عرفـان راحتـه | ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
يغضي حياء ويُغْضَي من مهابته | ولا يكلم إلا حين يبتسم
من جدّه دان فضل الأنبياء له | وفضل أمته دانت له الأمم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله | بجدِّه أنبياء الله قد ختموا
الله شرفه قِدمًا وفضله | جرى بذاك له في لوحه القلم
فليس قولك من هذا بضائره | العرب تعرف من أنكرت والعجم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره | يزينه اثنان حسن الخلق والكرم
حمال أثقال أقوام إذا فدحوا | حُلْوُ الشمائل تحلو عنده نعم
لا يخلف الوعد ميمون نقيبته | رحب الفناء أريب حين يعتزم
من معشر حبهم دين وبغضهم | كفر وقربهم منجى ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم | أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم
لا يستطيع جواد بُعْدَ غايتهم | ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت | والأسد أسد الشرى والبأس محتدم
لا ينقص العسر بسطًا من أكفهم | سيان ذلك أن أَثْرَوا وإن عدموا
يستدفع السوء والبلوى بحبهم | ويسترب به الإحسان والنعم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم | في كل بدء ومختوم به الكلم
يأبى لهم إن يحل الذم ساحتهم | خيم كريم وأيد بالندى هضم
أي الخلائق ليست في رقابهم | لأولية هذا أوله نعم

مــن يعــرف الله يعــرف أوليــة ذا والــدين مــن بيــت هــذا أنالــه الأمــم

ولكثير عزة:

خليلــي هــذا ربــع عــزة فــاعقلا قلوصَيكما ثـم ابكيـا حيـث حَلَّـت
وما كنت أدري قبل عزة ما البكي ولا موجعـات القلـب حتـى تولـت
فـلا يحسـب الواشـون أن صبابتي بعــزة كانــت غــرة فتجلــت
فــوالله ثــم الله مــا حــل قبلهــا ولا بعـدها مـن خلـة حيـث حلـت
ومــا مـرّ مـن يـوم علـى كيومهـا وإن عظمـت أيـام أخـرى وجلـت
وكانـت لقطـع الحبـل بينـي وبينهـا كنــا ذرة نــذرا فأوفــت وحلــت
فقلـت لهـا يـا عـز كـل مـصيبة إذا وطنـت يومًـا لهـا الـنفس ذلـت
أباحت حمى لم يرعه الناس قبلها وحلـت تلاعـا لـم تكـن قبـل حلـت
أريــد ثــواء عنــدها وأظنهــا إذا مـا أطلنـا عنـدها المكـث ملـت
فــوالله مــا قاربــت إلا تباعــدت لهجــري ولا أكثــرت إلا أقلــت
يكلفهــا الغيـران شـتمي ومـا بهـا هــواني ولكــن للمليـك اسـتذلت
هنيئًــا مريئًــا غيــر داء مخــامر لعـزة مـن أعراضـنا مـا اسـتحلت
فـإن تكـن العتبـى فـأهلًا ومرحبًـا وحقـت لهـا العتبـى لـدينا وقلـت
وإن تكــن الأخــرى فــإن وراءنــا مهامه إن سارت بها العيس كلت
أســيئ بنــا أو أحــسني لا ملومــة لــدينا ولا مقليــة إن تقلــت
فمــا أنــا بالــداعي لعــزة بــالردا ولا شــامت أن نعـل عـزة زلـت
وإنــي وتهيــامي بعــزة بعــدما تخليــت عنهــا برهــة وتخلــت
لكــالمرتجى ظــل الغمامــة كلمــا تبــوّأ منهــا للمقيـل اضـمحلت
كــأني وإياهــا غمامــة ممحــل رجاهــا فلمــا جاوزتــه اسـتهلت

كأني أنادي صخرة حين أعرضت ... من العصم لو تمشي بها العصم
صفوحًا فما تلقاك إلا بخيلة ... فمن مل منها ذلك النيل ملت
فما أنصفت أما النساء فبغضت ... إلي وأما بالنوال فضنت
فواعجبًا للقلب كيف اغتراره ... وللنفس لما وطنت كيف زلت
وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا ... فلما تواثقنا شدّدت وحلت
وكنا سلكنا في صعود من الهوى ... فلما توافينا ثُبتُ وزلت
فإن تسأل الواشون كيف سلوتها ... فقل نفس حر سليت فتسلت
وللعين تذراف إذا ما ذكرتها ... وللقلب وسواس إذ العين ملت
فكنت كذى رجلين رجل صحيحة ... وأخرى رمي فيها الزمان فشلت
فليت قلوصي عند عزة قيدت ... بحبل ضعيف بان عنها فضلت
وأصبح في القوم المقيمين رحلنا ... وكان لها باغ سواي فسلت
تمنيتها حتى إذا ما رأيتها ... رأيت المنايا شرعًا قد أظلت
أصاب الردى من كان يبغي لها الردا ... وجن اللواتي قلنّ عزة جنت
عليها تحيات السلام هدية ... لها كل حين مقبل حيث حلت

ولابن الدمينة من متأخري العرب:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... فقد زادني مسراك وجدًا على
أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى ... على فنن غض النبات من الرَّنْدِ
بكيت كما يبكي الوليد ولم تكن ... جزوعًا وأبديت الذي لم تكن تبدي
وقد زعموا أن المحب إذ دنا ... يمل وإن البعد يشفي من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ... إذا كان من تهواه ليس بذي ودّ

وليزيد بن الطثرية منهم أيضًا:

برغمي أطيل الصدّ منها وإن نأت ... أحاذر أسماعًا عليها وأعينا

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

ولبشار بن برد:

عبد إني إليك بالأشواق ... لتلاق وكيف لي بتلاق

أنا والله أشتهي سحر عينيك ... وأخشى مصارع العشاق

وعبدة اسم حبيبة له كثيرًا ما يهتف بها في شعره كقوله:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ... ونفى عني الكرى طيف ألم

روحي يا عبد عني واعلمي ... أنني يا عبد من لحم ودم

ولمسلم بن الوليد وهو عصري أبي نواس - وكان الناس مختلفين في المفاضلة بينهما - وأهل فن الكتابة على تفضيل مسلم:

أديرا على الكأس لا تشربا قبلي ... ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي

فما جزعي أني أموت صبابة ... ولكن على من لا يحل لها قتلي

كتمت تباريح الصبابة عاذلي ... فلم يدر ما بي واسترحت من العذل

أحب التي صدّت وقالت لتربها ... دعوة الثريا منه أقرب من وصلي

أماتت وأحيت مهجتي فهي عندها ... معلقة بين المواعيد والمطل

سأنقاد للذات منبعث الهوى ... لا مضى هما أو أصيب فتى مثلي

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا ... وتغدو صريع الكاس والأعين النُّجل

يقال أن الرشيد لما سمع هذا البيت عند إنشاد القصيدة لقب مسلمًا (صريع الغواني) ولعلي بن الجهم وهو عصري أبي عبادة الوليد البحتري:

عيون المها بين الرصافة والجسر — جلبن الهوى من حيث ندري ولا
أعدن لي الشوق القديم ولم أكن — سلوت ولكن زدن جمرًا على جمر
سلمن وأسلمن القول كأنما — تشك بأطراف المثقفة السمر
خليلي ما أحلى الهوى وأمرّه — وأعرفني بالحلو منه وبالمرّ
كفى بالهوى شغلًا وبالشيب زاجرًا — لو أن الهوى مما ينهنه بالزجر
بما بيننا من حرمة هل علمتما — أرق من الشكوى وأقسى من الهجر
وأفضح من عين المحب لسره — ولاسيما أن أطلقت عَبْرَةٌ تجري
وما أنس م الأشياء لا أنس قولها — لجارتها ما أولع الحب بالحر
فقالت لها الأخرى فما لصديقنا — معنى وهل في قتله لك من عذر
صليه لعل الوصل يحييه واعلمي — بأن أسير الحب في أعظم الأسر
فقالت أذود الناس عنه وقلما — يطيب الهوى إلا لمنهتك السر
وأيقنتا أني سمعت فقالتا — من الطارق المصغي إلينا ولا ندري
فقلت فتى إن شئتما كتم الهوى — وإلا فخلاع الأعنه والعذر
على أنه يشكو ظلومًا وبخلها — عليه بتسليم البشاشة والبشر
فقالت هجينًا قلت قد كان بعض ما — ذكرت لعل الشر يدفع بالشر
فقالت كأني بالقوافي سوائرًا — يردن بنا مصرًا ويصدرن عن مصر
فقلت أسأت الظن بي لست شاعرًا — وإن كان أحيانًا يجيش به صدري
صلي وسلي من شئت يخبرك أنني — على كل حال نعم مستودع السر
وما أنا ممن سار بالشعر ذكره — ولكن أشعاري يسيرها ذكري
وللشعر أتباع كثير ولم أكن — له تابعًا في حال عسر ولا يسر
ولكن إحسان الخليفة جعفر — دعاني إلى ما قلت فيه من الشعر

فسار مسير الشمس في كل بلدة وهب هبوب الريح في البر والبحر
ولو جل عن شكر الصنيعة منعم لجل أمير المؤمنين عن الشكر
ومن قال أن القطر والبحر أشبها نداء فقد أثنى على القطر والبحر
ولو قرنت بالبحر تسعة أبحر لما بلغت جدوى أنامله العشر

ومن القصائد التي ينبغي لكل متأدب روايتها قصيدة محمد بن زريق البغدادي، وكان قصد الأندلس في طلب الغنى فلم يرجع لبغداد - رحمة الله عليه -:

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلت حقًا ولكن ليس يسمعه
جاوزت في لومه حدًّا أضر به من حيث قدرت أن اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلًا من عنفه فهو مضني القلب موجعه
قد كان مضطلعًا بالخطب يحمله فضيقت بخطوب البين أضلعه
يكفيه من لوعة التفنيد أن له من النوى كل يوم ما يروّعه
ما آب من سفر إلا وأزعجه رأى إلى سفر بالعزم يجمعه
كأنما هو من حل ومرتحل موكل بفضاء الأرض يذرعه
إذا الزماع أراه في الرحيل غنى ولو إلى السند أضحى وهو يزمعه
تأبى المطامع إلا أن تجشمه للرزق كدًّا وكم ممن يودّعه
وما مجاهدة الإنسان توصله رزقًا ولا دعة الإنسان تقطعه
والله قسم بين الخلق رزقهم لم يخلق الله مخلوقًا يضيعه
لكنهم ملئوا حرصًا فلست ترى مسترزقًا وسوى الغايات يقنعه
والسعي في الرزق والأرزاق قد قسمت بغي ألا إن بغي المرء يصرعه
والدهر يعطي الفتى ما ليس يطلبه يومًا ويمنعه من حيث يطمعه

استودع الله في بغداد لي قمرًا ... بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودّعته وبودّي لو يودّعني ... صفو الحياة وأني لا أودّعه
وكم تشفّع أني لا أفارقه ... وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى ... وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب العذر منخرق ... عني بفرقته لكن أرقعه
إني أوسع عذري في جنايته ... بالبين عنه وقلبي لا يوسعه
أعطيت ملكًا فلم أحسن سياسته ... كذاك من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدًا لابسًا ثوب النعيم بلا ... شكر الإله فعنه الله ينزعه
اعتضت عن وجه حلي بعد فرقته ... كأسًا أجرع منها ما أجرعه
كم قائل لي ذنب البين قلت له ... الذنب والله ذنبي لست أدفعه
هلا أقمت فكان الرشد أجمعه ... لو أنني يوم بأن الرشد أتبعه
إني لأقطع أيامي وأنفذها ... بحسرة منه في قلبي تقطعه
بمن إذا هجع النوّام بت له ... بلوعة منه ليلي لست أهجعه
لا يطمئن لجنبي مضجع وكذا ... لا يطمئن له مذ بنت مضجعه
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني ... به ولا أن بي الأيام تفجعه
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد ... عسراء تمنعني حظي وتمنعه
بالله يا منزل القصف الذي درست ... آثاره وعفت مذ غبت أربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا ... أم الليالي الذي أمضته ترجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله ... وجاد غيث على مغداك يمرعه
من عنده لي عهد لا يضيعه ... كماله عهد صدق لا أضيعه
ومن يصدع قلبي ذكره وإذا ... جرى على قلبه ذكرى يصدّعه

لأصبرن لدهر لا يمتعني ... به ولأبي في حال يمتعه
علمًا بأن اصطباري معقب فرجًا ... وأضيق الأمران فكرت أوسعه
عَلَّ الليالي التي أضلت بفرقتنا ... جسمي ستجمعني يومًا وتجمعه
وأن تنل أحدًا منا منيته ... فما الذي بقضاء الله يصنعه

يحكى أن بعض ملوك مصر من العبيديين الفواطم جلبت له جارية مغنية من جواري بغداد وكانت من أظرفهنّ، فاشتد بها إعجابه وتاه فيها لبه فكان أول ما غنت: استودع الله في بغداد فورد عليه من الطرب ما أذهله حتى قال له:ا تمني عليّ. فقالت: كأئنًا ما كان. فقال: كائنا ما كان. فقالت: أغني هذا الصوت ببغداد. فبهت لذلك ساعة ثم التفت لشيخ كان له سميرًا وبه خصيصًا يقال له أبو علي الأسكري، فقال له: قد رأيت ما نزل بنا ولابدّ من الوفاء ولا أثق بغيرك فتجهز للحج وخذها معك، فإذا فرغت فاجعل طريقك على بغداد فإذا بلغت أمنيتها فأسرع الانحدار إلينا؛ فكان ذلك حتى وصل بها إلى محل يسمى القادسية وهو أول سواد بغداد، وكان الحجاج ينزلون به في ذهابهم وإيابهم، فلما مضى شطر من الليل رفعت تلك الجارية صوتها بهذه الأبيات التي هي غاية في الانسجام وهي لموسى الكاتب الأصبهاني:

لما وردنا القادسية ... حيث مجتمع الرفاق
وشممت من أرض الحجاز ... نسيم أنفاس العراق
أيقنت لي ولمن أحب ... بجمع شمل واتفاق
وضحكت من فرح اللقا ... كما بكيت من الفراق
لم يبق لي إلا تجشم ... هذه السبع البواق
حتى يطول حديثنا ... بصفات ما كنا نلاق

فلما فرغت ضج الحجيج وقالوا: بالله يا صاحب الصوت أعد. فلم تفعل وبعد ساعة جاءت خادمتها إلى أبي علي وقالت: أن سيدتي ليست في هودجها فأطالوا البحث عنها ولم يقفوا لها على خبر وعادوا بحسرتها إلى الملك فلم ينتفع بحياته بعد.

وشعر مهيار الديلمي تلميذ الشريف محمد الرضي أكثره متمكن في هذا الباب، وهو وإن لم يبلغ تجويد أستاذه فلقد بلغ من الإحسان منزلة لم يحلها أحد بعده وقل من ألم بها قبله، فمن ذلك والقطرة تشهد لسائر البحر قوله:

يا نسيم الريح من كاظمة ... شدَّ ما هجت الجوى والبرحا

من عذيري يوم شرقي الحمى ... من هوى جد بقلب مزحا

الصبا إن كان لابد الصبا ... أنها كانت لقلبي أروحا

يا نداماي بسلع هل أرى ... ذلك المغبق والمصطبحا

اذكرونا مثل ذكرانا لكم ... رب ذكري قربت من نزحا

فارحموا صبا إذا غنى بكم ... شرب الدمع وعاف القدحا

وقوله:

بطرفك والمسحور يقسم بالسحر ... أعمد؛ا رماني أم أصاب ولا يدري

تعرض لي في القانصين مسدد ... الإشارة مدلول السهام على النحر

رنا اللحظة الأولى فقلت مجرّب ... فكررها أخرى فأحسست بالشر

فهل ظن ما قد حرم الله من دمي ... مباحًا له أم نام قومي عن الوتر

بنجد ونجد دار جود وذمة ... مطال بلا عسر وبخل بلا عذر

وسمراء ودّ البدر لو حال لونه ... إلى لونها في صبغة الأوجه السمر

خليلـي هـل مـن وقفـة والتفاتـة إلى القبة السوداء من جانب الحجر
وهل ما أرانا الحج بالخيف عائد إلـى مثلهـا أم عـدّها حجـة العمـر
ولله مـا أوفـى الـثلاث علـى منـى لأهل الهوى لم لم تحسن ليلة النفر
لقـد كنـت لا أوتـي مـن الـصبر قلة فهل تعلمان اليوم أين مضى صبري
وكنــت ألــوم العاشــقين ولا أرى مزيّـة مـا بـين الوصـال إلـى الهجـر
فأعـدي إلـي الحـب صـحبة أهلـه ولـم يدر قلبي أن داء الهوى يسري
أيــشرد لبــي يــا غزالــة حــاجر وأنـت بـذات البـان مجموعـة الأمـر
خذي لحظ عيني في الغصون إضافة إلى القلب أوردّي فؤادي إلى صدري

وقوله:

بكــر العــارض تحــدوه النعــامى فــسقاك الــري يــا دار أمامــا
وتمــشت فيــك أرواح الــصبا يتــأرّجن بأنفــاس الخزامــى
أجنــدي المــزن ومــاذا أرَ بــي إن تجــودا المــزن إطــلالًا رمامـا
وقلــيلًا قبــل أن أدعــو لهــا مــا رآنــي الله أســتجدي الغمامـا
أيــن ســكانك لا أيــن هــم أحجــازًا أوطنوهــا أو شــآما
صــدعوا بعــد التئــام فغــدت بهــم أيــدي المرامــي تترامــى
يــا لــواة الــدين عــن ميــسرة والــضنينات ومــا كــنَّ لئامـا
قــد وقفنــا بعــدكم فــي ربعكــم فقــضيناه اســتلاما والتثامـا
وبجرعــاء الحمــى قلبــي فعــج بـالحمى واقـرأ على قلبي السلاما
وترجـــل فتحـــدث عجبًـــا إن قلبًــا ســار عــن جــسم أقامـا
قـل لجيـران الغـضى آهـا علـى طيب عيش بالغضى لو كان داما
تــصل العــام ومــا أنــساكم وقـصارى الوجـد أن أسـلخ عامـا

حملــوا ريــح الــصبا نــشركم قبــل أن تحمــل شــيحًا وثمامــا
وابعثـوا أشـباحكم لـي فـي الكـرى إن أذنـــتم لجفـــوني أن تنامـــا
وقــف الظــامي علــى أبــوابكم أفيقـضي وهـو لـم يـشف أواما
مــا يبــالي مــن ســقيتن اللمــى مــنعكن المــاء عنــه والمــداما
أشــتكيكم وإلــى مــن اشــتكي شــمل الــداء فمــن يبــري الــسقاما

ولابن الخياط الدمشقي:

خـذوا مـن صـبا نجـد أمانًـا لقلبـه فقــد كــاد رياهــا تطيــر بلبــه
وإيـــا كمـــا ذاك النـــسيم فإنـــه متى هب كان الوجد أيسر خطبه
خليلـــي لـــو أحببتمـــا لعلمتمـــا محل الهوى من مغرم القلب صبه
تـذكروا الـذكرى تـشوق وذو الهـوى يتـوق ومـن يعلـق بـه الحـب يـصبه
غـرام علـى يـأس الهـوى ورجائـه وشـوق علـي بعـد المـزار وقربـه
وفـي الركـب مطـوي الـضلوع علـى متــى يدعــه داعــي الغــرام يلبــه
إذا خطـرت مـن جانـب الرمـل نفحة تــضمن منهــا داءه دون صــحبه
ومحتجــب بــين الأســنة معــرض وفي القلـب مـن أعراضه مثل حجبه
أغــار إذا آنــست فــي الحــي أنــه حــذارًا وخوفًــا أن تكــون لحبــه

هذا وإنما جلبت لك هذا القدر وأمسكت عن الزيادة ليكون باعثًا لك على طلب مثله والاعتناء بتحفظه والتروي بعذوبة موارده، حتى تضرب صفحًا عن التغلغل في وعورات الصعوبات.

وإذا انتهى بنا القول - إن شاء الله تعالى - في الشعر فهنالك يحسن إيراد ما يختار منه عصرًا فعصرًا من الله نستمد وعلى معونته نصمد.

ائتلاف المعنى مع المعنى

هو أن يقرن بالمعنى ما يناسبه ويشتد ارتباطه به، وتارة لا يكون الملائم المذكور مزاحمًا بملائم آخر، وتارة يكون مزاحمًا بملائم آخر يظهر في بادئ الرأي أنه الأولى، وعند التحقيق يعلم أن المذكور هو الملائم فمن القسم الأول قول أبي الطيب:

فالعرب منه مع الكدري طائرة والروم طائرة منه مع الحجل

فقرن بين العرب الذين بلادهم في المفاوز والسهول من الأرض التي هي مساكن القطا، وقرن بين الروم الذين مساكنهم الجبال التي هي مساكن الحجل، وبين ما يناسب كلًّا من الفريقين يعني أن وقائع الممدوح ورهبته عمت السهل والجبل.

ومن الثاني قول امرئ القيس:

كأني لم أركب جوادًا للذة ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخيلي كرى كرة بعد أجفال

وقول أبي الطيب:

وقفت وما في الموت شك لو أقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

يقال أن سيف الدولة على بن حمدان لما سمع قصيدة هذين البيتين طرب لها وأعجب بها غير أنه قال لأبي الطيب: أني أنتقد عليك في قولك وقفت. البيتين بمثل ما أنتقد به على امرئ القيس في قوله: كأني لم

أركب، وهو أن الملاءمة بين المعاني تقتضي تصدير كل من البيتين بصدر صاحبه.

فقال أبو الطيب: ليس المنتقد على امرئ القيس أعلم منه بالشعر، فإن معرفة البزاز بالثوب ليست كمعرفة ناسجه أراد امرؤ القيس أن يجمع بين مركبي اللذة: وهما خيل الصيد والنساء، وبين الكرم والشجاعة. ولو جمع بين الصيد والشجاعة وبين الكرم والنساء لقالت له الصناعة دعني فما أنت من أهلي، وأنا لما أردت ذكر الثبات وصدق العزم وحسن الطمأنينة ضربت المثل في الإحاطة والأمن وعدم المبالاة بالكون في جفن الردى وهو نائم. ولما ذكرت مرور الكلمى المهزومين وهم العابسون الباكون طابقت بذكر وضاحة الوجه والابتسام فعند التأمل صار الملائم الظاهر غير ملائم.

وهذا النوع في الكلام من المداحض يستدعي من مريد الإنشاء أو فهم كلام الغير شدّة فكر ودقة نظر ليعرف حسن الملاءمة في مثل قوله تعالى: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب﴾ حيث وصف المؤمنين بأنهم لا يزالون ملاحظين في أعمالهم الخير المحض والرحمة الصرفة، فهم لا يخشون ويخافون بعلة كونه جبارًا شديد العقاب، بل هو مجلون له معظموه مستحضرًا لهم بصفات الحنان والرحمة. وفي مثل قوله: ﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى * وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ ويبين لك هذا حق الإبانة ما يحكى عن بهاء الدين زهيرا لمصري مع الشاعر المغربي الذي قصده من بلاده ليتعلم منه الرقة المشرقية.

فقال له أن ذلك ليس تعليمه بالقواعد وإنما يحصل بإدمان مطالعة كلام البلغاء مع التأمل في تأليفه، ولكن سألقي عليك صدر بيت وأنت تجتهد في تكميله فسمع منه قوله:

* يا بان وادع الأجرع *

فجاءه من الغد وأنشده:

يا بان وادي الأجرع سقيت غيث الأدمع

يخطر بالبال عند ذكر الشجر أنه يحتاج للسقي، وأنه إذا سقي الكفاية كان أنضر له وأنمى.

ومن حيث كون المقام مقام ذكر العشق والغرام جعل السقيا لذلك البان من دموعه ولم يتذكر أنه لا معنى لهذا الدعاء، فإنه يستلزم دوام بكائه أو كثرته وتتابع أحزانه وإن انتفاع الشجر بالماء العذب لا بدموعه الملحة، فقال له الصاحب زهير هلا قلت:

يا بان وادي الأجرع هل ملت من طرب معي

فصفق المغربي وكاد يطير فرَحا وقال: ذلك ما لا يتأتى لمثلي.

المبالغة ويقال التبليغ

هي والإغراق والغلو ثلاثتها مشتركة في أنها المجاوزة بالصفة حدّها الذي لها في نفسها كناية عن كثرتها أو قوتها أو غير ذلك، كقوله - صلى الله عليه وسلم - «إن فلانًا لا يضع العصا» كناية عن إدامة السفر أي: هو مديم السفر لا يقيم، وهو كناية عن كثرته جدًا حتى صارت الإقامة لقلتها

إلا يلتفت إليها ولا تعد قاطعة للسفر. فالمعنى الكنائي أو المجازى هو محط الصدق والكذب ومتعلق البر والحنث، لكن إذا كانت المجاوزة المذكورة بما يمكن عقلًا وعادة فهي المبالغة، وإن كانت بما يمكن عقلًا لاعادة فهي الإغراق كقوله تعالى: ﴿يكاد البرق يخطف أبصاره﴾ ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ ولا يصح التمثيل بمثل هذا للغلو كما فعل بعض علماء البديع، فإن على مذهبنا من الممكن عقلًا أن يخلق الله في الزيت الإضاءة مسته نار أو لم تمسه، وإن كانت بما لا يمكن لا عقلًا ولا عادة فهي الغلو كقولك: يكاد فلان بفطنته يعلم الغيوب.

ومن الغلو ما أوقع بعض الشعراء فيما هو فسق أو كفر ويعبر عنه حينئذ بالتعجرف كقول علي بن جبلة المشهور بالعكوك في مدح بعض الناس:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها	وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مدت مدى طرف إلى أحد	إلا قضيت بأرزاق وآجال

ذلك لله وحده لا شريك له، فكان ذلك سببًا لأن أمر المأمون بسل لسانه من قفاه. واللائق في هذا المعنى من وصف ملك بالجلالة وقوة السلطان قول شاعر آخر:

له نظرات عن حفافي سريره	إذا كرهًا فيها عقاب ونائل

وكقول ابن هانئ الأندلسي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار	فاحكم فأنت الواحد القهار
فكأنما أنت النبي محمد	وكأنما أنصارك الأنصار

عامله الله بما يستحقه ما هذا التفاوت رفع ممدوحه ذلك الرفع ثم هوى به هذا الهوى وقوله:

اتبعته فكري حتى إذا بلغت غاياتها بين تصويب وتصعيد

رايت موضع برهان يبين وما رأيت موضع تكييف وتحديد

فلا ينبغي لأحد أن يحط من دينه ليرفع من ممدوحه والرضا بذلك من الممدوحين أنكر وأفظع، وبحصول ذلك من المسلمين والسكوت عليه لحقوا بمن قيل:فيهم: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ فسلط الله عليهم ما سلط وأوهن منهم ما أوهن فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وحاصل القول: إن المبالغة وأخويها مجازًا وكناية ينبغي أن تكون عبارتها منزهة عما يوجب القدح وحسنها هو حسن المجاز والكناية.

التفريق

هو أن تذكير شيئين متشابهين وتفرق بينهما بحالين مختلفين ذهابًا بذلك لتفضيل أحدهما على الآخر كقول بعضهم:

ما نوال الغمام يوم ربيع كنوال الأمير يوم سخاء

فنوال الأمير بدرة عين ونوال الغمام قطرة ماء

وقول آخر:

قاسوك بالبان في التثني قياس جهل بلا انتصاف

هذا كغصن الخلاف يدعي وأنت غصن بلا خلاف

وقول آخر:

مـــن قـــاس جـــدواك يومًـــا بالـــسحب أخطـــأ مـــدحك
فالـــسحب تعطـــي وتبكـــي وأنـــت تعطـــي وتـــضحك

التلميح

هو أن يشير المتكلم في كلامه لآية أو حديث أو شعر مشهور أو مثل سائر أو قصة كقول بعضهم:

أستودع الله أحبابًا فجعت بهم بـانوا فمـا زوَّدونـي غيـر تعـذيب
بـانوا ولـم يقـض زيـد منهم وطـرًا ولا انقضت حاجة في نفس يعقوب

ولآخر:

مـا فـي الـصحاب وقـد سـارت إلا محب لـه فـي الركـب محبـوب
كأنمـا يوسـف فـي كـل راحلـة والحي فـي كـل بيـت منه يعقـوب

ولآخر:

يـــا بـــدر أهلـــك جـــاروا وعلمـــوك التجـــري
وقبحـــوا لـــك وصـــلي وحـــسنوا لـــك هجـــري
فليـــصنعوا مـــا أرادوا فـــإنهم أهـــل بـــدر

يسير بذلك إلى حديث حاصله: أن صاحبيًا ممن غزا غزوة بدر يقال له حاطب بن أبي بلتعة كان ذا مال بمكة ولم يكن له هنالك عشيرة تحميه له من الأعداء، فأراد أن يتخذ له يدًا عندهم حتى يحصل على ما له فتأول في نفسه جواز أمر صنعه؛ وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسرّ إلى أصحابه أنه يريد النهوض إلى مكة فكتب لهم بذلك حاطب، فلما اطلع النبي - صلى الله عليه وسلم - على ذلك وسأل حاطبًا وقبل

اعتذار قال عمر: « دعني يا رسول الله أضرب عنق المنافق » فقال - صلى الله عليه وسلم -: « ما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

ومن الإشارة إلى الشعر المشهور ما يحكى أن عبد الله بن ثعلبة المحاربي دخل على عبد الملك بن يزيد الهلالي أمين أرمينية إذ ذاك، فقال له: ماذا لقينا البارحة من شيوخ محارب منعونا النوم بضوضائهم ولغطهم. فقال له عبد الله: أعز الله الأمير أنهم أضلوا برقعًا فكانوا في طلبه. أشار الأمير لما قيل في محارب:

تكش بلا شيء شيوخ محارب   وما خلتها كانت تريش وتبرى
ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت   فدل عليها صوتها حية البحر

وأشار عبد الله لما قيل:

لكل هلالي من اللؤم برقع   ولابن يزيد برقع وجلال

وكان سنان بن أحمس النميري يسائر الأمير عمر بن هبيرة الفزاري وهو على بغلة له فتقدمت البغلة على فرس الأمير فقال: اغضض بغلتك يا سنان، فقال: أنها مكتوبة أصلح الله الأمير، فضحك وقال: قاتلك الله ما أردت ذلك. قال: ولا أنا أراد ابن هبيرة قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

وأراد سنان قول الأخطل:

لا تأمنن فزاريا خلوت به   على قلوصك واكتبها بأسيار

العنوان

هو أن يذكر المتكلم لمناسبة أغراضه ما يدل على أخبار شهيرة لأجل التأسي أو الاستشهاد أو الافتخار أو غير ذلك من المقاصد.

وأكثر الناس استعمالًا لهذا النوع شعراء المغاربة ومنشئوهم لا يكاد كلام من كلامهم يخلو منه، قال الحارث الحمداني المشهور بأبي فراس وقد كتب إليه بعض أصحابه أيام أسره في بلاد الروم يأمره بالصبر ويحثه على الثبات:

ندبت لحسن الصبر قلب نجيب ... وناديت للتسليم خير مجيب

ولم يبق مني غير قلب مشيع ... وعود على ناب الزمان صليب

وقد عَلِمَتْ أمي بأن منيتي ... بحد سنان أو بحد قضيب

كما علمت من قبل أن يهلك ابنها ... بمهلكة في الماء أم شبيب

ففي هذا البيت الإلمام بخبر شبيب أحد رؤوس الخوارج في إمارة الحجاج لعبد الملك ابن مروان، وكان الحجاج متوليًا قتال شبيب هذا ولقي منه بلاء عظيمًا، وكان غريبًا في الشجاعة رأت أمه وهي حامل به أنها ولدت نارًا فطارت في الجو وانتشرت في الآفاق ثم سقطت في ماء فطفئت، فكانت ترى أن ابنها لا يموت إلا غريقًا، فإذا فبهل لها قتل أو مات لم تصدق حتى قيل لها قد غرق فناحت عليه؛ وذلك أن فرسه وثب به في نهر يقال أن عسكر الحجاج غاصوا عليه وأخرجوه وشقوا عن قلبه فوجدوه في صلاته الحجر، ثم فتحوه فوجدوا فيه قلبًا آخر على شكل الكرة ومن هذه القصيدة قوله:

تحملت خوف العار أعظم خطة ... وأملت نصرًا كان غير قريب

وللعـار خلـي رب غـسان ملكـه وفـارق ديـن الله غيـر مـصيب

أومأ في هذا إلى خبر جبلة بن الأيهم آخر ملوك غسان بالشام؛ وذلك أنه قدم على عهد عمر بن الخطاب المدينة للإسلام في خمسمائة فارس من رجاله، فأسلموا وفرح بهم المسلمون وأكرمهم أمير المؤمنين، فلما كان موسم الحج من تلك السنة خرج مع الناس للحج، فبينما هو يطوف بالبيت وطئ رجل على إزاره فانحل فالتفت إليه مغضبًا ولطمه فترافع معه الرجل إلى عمر، فقال له: إما أن ترضيه وإما أن أقيده منك، فقال: أتقيده مني وهو سوقة وأنا ملك. فقال: ذلك حكم الله لا فضل لأحد على أحد وقد سوى بينهم الإسلام، فقال: دعني أنظر في أمري الليلة. فقال: ذلك لك فلما كان بعض الليل خرج ابن الأيهم في قومه ولحق بقيصر الروم وأنزله منزلًا شريفًا وأجرى عليه ما يليق بالملوك، ثم كان ابن الأيهم بعد يتأسف على ذلك ويقول: يا ليتني أطعت عمر بقول أبو فراس أن خوف العار وشرف النفس مما يقذف بصاحبه في المهالك وشاهد ذلك ما كان من جبلة.

التسهيم ويسمى الأرصاد

وهو أن يجعل الكلام بحيث يدل أوله على آخره من جهة لفظه أو من جهة معناه، فمن الأول قول بعضهم:

ولـي فـرس بالجهـل للجهـل ملجـم ولـي فـرس بـالحلم للحلـم مـسرج

فمن رام تقويمي فإني مقوم، هذا يدل على أنه يقول بعده:

* ومن رام تعويجي فإني معوّج *

وقول ابن هانئ الأندلسي:

فإذا حللت فكل واد ممرع وإذا ظعنت فكل واد ما حِل

وإذا بعدت فكل شيء ناقص، هذا يدل على أنه يقول:

* وإذا قربت فكل شيء كامل *

ومن الثاني قول عمر بن أبي ربيعة:

تشط غدًا دار جيراننا وللدار بعد غدٍ أبعد

يحكى أن عمر لما أنشد صدر البيت لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - سبقه بإنشاد العجز فقال: كذلك قلت، فقال: هكذا ينبغي أن يقال.

وقول عدي بن الرقاع العاملي في صفة الغزالة وولدها من قصيدته التي مطلعها:

عرف الديار توهمًا فاعتادها

تزجي أغن كان أبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

يحكى أنه حين كان ينشد هذه القصيدة عرض للملك شغل فقطع الإنشاد على صدر البيت، وكان الفرزدق وجرير حاضرين فقال الفرزدق لجرير: ما تراه يتمم البيت؟ فقال: لعله يستلب مثلًا. فقال الفرزدق: أراه يقول قلم أصاب.

وهذا لا يسهل في درج الكلام الأعلى من أكثر مزاولة المعاني والعبارات عنها، فعرف أن كل ابتداء له انتهاء وأن الأشياء يستتبع بعضها بعضًا.

التشريع

هو أن تجعل الكلام على سجعتين في النثر وعلى قافيتين في الشعر أو أكثر من ذلك؛ بحيث لو وقفت على سجعة من السوابق أو على قافية منها لتمّ الكلام أو بيت من الشعر.

فمن مشهور ذلك قول الحريري:

يا خاطب الدنيا الدنية أنها ... شرك الردي وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت في يومها ... أبكت غدًا تبًا لها من دار
وإذا أظل سحابها لم ينتقع ... منه صدى لجهامه الغرار

فالقافية الأولى بهذه الأبيات هي في قوله الردي وغدًا وصدًا تنشدها قصيدة ثانية فتقول:

يا خاطب الدنية ... إنها شرك الردي
دار متى ما أضحكت ... في يومها أبكت غدا
وإذا أظل سحابها ... لم ينتقع منه صدى

المذهب الكلامي

هو إيراد الحجج في الكلام على الطريقة التي استعملها المتكلمون في مواضع الاستدلال، فمنه قول النابغة يخاطب النعمان وكان غضب عليه بسبب مدحه لملوك غسان بالشام:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بُلِّغْتَ عني خيانة ... لمبلغك الواشي أغش وأكذب
ولكنني كنت امرأ لي جانب ... من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما مدحتهم ... أحكم في أموالهم وأقرب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم في مدحهم لك أذنبوا

فحاصل الاحتجاج لو كان مادحو من أحسن إليهم في رأيك مذنبين لكان مادحوك مذنبين فيه لكنهم غير مذنبين فمادحوا من أحسن إليهم غير مذنبين.

ولبعضهم:

دع النجوم لطرقي يعيش بها ... وبالعزائم فانهض أيها الملك
إن النبي وأصحاب النبي نهوا ... عن النجوم وقد أبصرت ما ملكوا

نفي الشيء بإيجابه

وهو أن تقصد إلى أثر شيء يظهر في الكلام ثبوته فتنفيه ليكون نفيه نفيًا للشيء على طريق الكناية من باب نفي الملزوم بنفي اللازم، والاعتماد في ذلك على معونة المقام وقرائن الأحوال كقول امرئ القيس:

* على لَاحِب لا يهتدي بمناره *

ظاهر الكلام أن اللاحب له منار فلما نفي الاهتداء به نفاه إذ لو كان لكان الاهتداء به.

ومنه قوله تعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ النفي منصب على القيد فكأنه قيل: لا يطاع لهم شفيع أي: لا شفيع لهم إذ لو كان لا طيع، وتقول: لا ينتفع في هذا البلد بعاقل أي: ليس فيه عاقل إذ لو كان لا نتقع به.

ومن فوائد هذا النوع التفادي من التصريح بحقيقة المقصود تقليلًا لسورة الجفاء.

الرجوع

هو أن يحكم بحكم يرى أنه الواقع ثم يرجع عنه إظهارًا القوة المعني الذي يريد إفادته بالكلام من رضاء بأمر أو افتخار أو صفة عشق وشوق أو غير ذلك، تقول: فلان لا يحس القراءة والكتابة بل هو أقرأ من فلان وأكتب من فلان لا يباري في معارفه وحسن صناعته.

ومن أصول شواهده قول زهير:

قف بالديار التي لم يعفها القدم ... بلى وغيرها الإِرْوَاُح والديم

كأنه قال: هل هي التي لم يعفها القدم بلى، هي التي عفاها القدم وغيرها الأرواح والديم، ففي ذلك إطالة النفس في شكوى تغير الأحوال الموجب للتأسف والتوجع.

التورية

هي لفظ يحتمل معنيين قريب يتبادر فهمه من الكلام، وبعيد هو المراد بالإفادة.

وهي باعتبار ما يقارنها من ملائمات المعنيين تنقسم إلى: مجردة: وهي المقرونة بملائمين كل واحد منهما الواحد من المعنيين، أو لم تقرن بملائم أحدهما. وإلى مرشحة: وهي المقرونة بملائم المعنى القريب يذكر بعدها أو قبلها، وإلى مبينة: وهي المقرونة بما يلائم المعنى البعيد كذلك إن لم يكن تحقق التورية موقوفًا عليه وإلا سميت مهيأة.

وهذه أمثلة تورد عليك تستعمل ذهنك في رد كل تورية إلى جنسها حسبما عينته لك تلك الضوابط.

لسراج الدين عمر الوراق من شعراء مصر وكانت الوراقة حرفته وكان لهجًا بالتورية في لقبه وحرفته فمن ذلك قوله:

إلهي لقد جاوزت سبعين حجة ... فشكرًا لنعماك التي ليس تكفر

وعمرت في الإسلام فازددت بهجة ... ونورًا كذا يبدو السراج المعمر

وعمم نور الشيب رأسي فسرني ... وما ساءني أني السراج المنور

وقوله:

بني اقتدي بالكتاب العزيز ... وراح ليرى سعيًا فراجا

وما قال لي أف مذ كان لي ... لكوني أبًا ولكوني سراجا

وقوله:

وكنــت حبيبًــا إلــى الغانيــات فألبــسني الــشيب هجــر الحبيــب
وكنــت ســراجًا بليــل الــشباب فأطفــأ نــوري نهــار المــشيب

وقوله:

بكتبــك راج لــي أملــي وقــصدي وفــي يــدك النجــاح لكــل راج
ولــولا أنــت لــم يرفــع منــاري ولا عــرف الــورى قــدر الــسراج

وقوله:

أمولانــا ضــياء الــدين دم لــي وعــش فبقــاء مولانــا بقــائي
فلــولا أنــت مــا أغنيــت شــيئًا ومــا يغنــي الــسراج بــلا ضــياء

وقوله:

يــا خجلتــي وصــحائفي مــسودة وصــحائف الأبــرار فــي إشــراق
ومــوبخ لــي فــي القيامــة قائــل أكــذا تكــون صــحيفة الــوراق

وقوله:

نــصب الحــشا غرضًــا فقــرطس أو وهــي القلــوب ســهامها الأحــداق
وســألته وصــلًا فقــال بحجــة يــا ليــت شــعري أينــا الــوراق

وله من غير ذلك:

أصــون لقــاء وجهــي عــن أنــاس لقــاء المــوت عنــدهم الأديــب
ورب الــشعر عنــدهم بغــيض ولــو وافــى بــه لهــم حبيــب

وقوله:

ومهفهــف عنــي يميــل ولــم يمــل يومًــا إلــيَّ فقلــت مــن ألــم الجــوى

لـم لا تميـل إلـيّ يـا غـصن النقـا فأجاب كيف وأنت من جهة الهوى

وقوله:

وأحمـــق ضـــيفنا ببقلـــة لنـــسبة بينهمـــا ووصـــله

فمـــن أقـــل أدبًـــا مـــن سـفلة قـد مـدّ فـي وجـه الـضيوف رجلـه

يقـال للخـضراء المـشهورة بالرجلـة البقلـة الحمقـاء؛ لكونهـا تنبـت فـي مجـاري الـسيول ومـواطئ الأقـدام فـلا تتخير موضـعًا يـصونها فحمقوهـا لذلك.

ولأبي الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزار حرفة من شعراء مصر أيضًا:

أنـي لمـن معـشر سـفك الـدماء لهـم دأب وسلْ عنهم إن رمت تـصديقي

تـضيء بالـدم إشـراقًا عراصـهم فكـــل أيـــامهم أيـــام تـــشريق

وله:

أيـا علـم الـدين الـذي جـود كفـه براحتـه قـد أخجـل الغيـث والبحـرا

لـئن أمحلـت أرض الكنانـة أننـي لأرجو لها من سحب راحتك القطرا

وله:

تـــزوّج الـــشيخ أبـــي شـــيخة لـــيس لهـــا عقـــل ولا ذهـــن

لـو بـرزت صـورتها فـي الـدجى مـــا جـــسرت تبـــصرها الجـــن

كأنهـــا فـــي فرشـــها رمـــة وشـــعرها مـــن حولهـــا قطـــن

وقائـــل لـــي قـــال مـــا سـنها فقلـــت مـــا فـــي فمهـــا سـن

ولنصير الدين الحمامي:

لـــــي منـــــزل معروفـــــه ينهـــــل غيثًـــــا بالـــــسحب
أقبـــــل ذا العـــــذر بـــــه وأكـــــرم الجـــــار الجنـــــب

وله:

أصـــبحت مـــن أغنـــى الـــورى وطـــــائرًا بـــــالفرح
عنـــدي خمـــر ذهـــب اكتالـــــه بالقـــــدح

وللأمير ناصر الدين حسن بن النقيب:

أقـــول لنوبـــة الحمـــى اتركينـــي ولاتـك منـك لـي مـا عاشـت أوْ بـه
فقالـت كيـف يمكـن تـرك هـذا وهـل يبقـى الأميـر بغيـر نوبـه

وله:

جـودوا لنـسجع بالمـديح علـــى علاكـــم ســـرمدا
فـالطير أحـسن مـا يغـرد عنـــدما يقـــع النـــدى

ولمحبي الدين بن عبد الظاهر:

شـــكرًا لنـــسمة أرضـــكم كـــم بلغـــت عنـــي تحيـــة
لأغـــزو إن حفظـــت أحاديـــث الهـــوى فهـــي الذكيـــة

وللشيخ عبد العزيز الأنصاري الحموي:

لا تـنس وجـدي بـك يـا شـادنا بحبـــه أنـــسيت أحبـــابي
مـا لـي علـى هجـرك مـن طاقـة فهـل إلـى وصـلك مـن بـاب

ولبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي:

وحديقـــة مطلولـــة باكرتهـــا | والشمس ترشف ريق أزهار الربى
يتكسر الماء الزلال على الحصى | فإذا جرى بين الرياض تشعبا

وله:

أدر كؤوس الراح في روضة | قد نمقت أزهارها السحب
الطير فيها شيق مغرم | وجدول الماء بها لصب

وله:

وذي قوام أهيف | بين الندامى قد نشط
قام يقط شمعة | فهل رأيت البدر قط

وله:

رفقًا بصب مغرم | أبليته صدًا وهجرا
وأتاك سائل دمعه | فرددته في الحال نهرا

ولبدر الدين الصاحب:

فأخرت الأقلام سمر القنا | والسعد في الأقسام مكتوب
فقلت للخطي لا تستطل | كلاكما للخط منسوب

ولشهاب الدين الحاجي:

لم أنس أيام الصبا والهوى | لله أيام النجا والنجاح
ذاك زمان مر حلو الجنى | ظفرت فيه بحبيب وراح

ولبعضهم:

كان ما كان وزالا | فاطرح قيلًا وقالا

أيهـــا المعـــرض عنـــا حـــسبك الله تعـــالى

وهذه الأمثلة التي أوردت للتورية اتفق على التمثيل بها مشاهير أهل البديعيات، وإذا كانت التورية لفظًا يحتمل معنيين كل منهما يحتمله الكلام غير أن قوة القرينة تصرف للمراد، فأرى بعض هذه الأمثلة غير منطبق على هذا الحد، فمثل قوله تعالى وقوله حبيب وراح لا شبهة في كونه تورية، وحيث تحققت من الضابط لم يعسر عليك تمييز المضبوط من غيره.

الاعتراض

هو أن يفصل المتكلم بين أجزاء الكلام أو الكلامين المتصلين معنى بعطف أو بيان أو بدلية أو غير ذلك بجملة فأكثر لغرض كالاستعجال بالتنزيه وتقريع المخطئ حال ذكر أخطائه، كقوله تعالى ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾، وبيان سبب الأمر الغريب مبادرة يدفع الاستغراب عن نفس المخاطب كقول الشاعر:

فلا صرمه يبدو ففي اليأس راحة ولا وصله يصفو لنا فنكارمه

فإن تمنى المحب أن يبدو صرم الحبيب وهجره أمر مستغرب، فاستعجل بيان السبب حيث قال: فإن اليأس إحدى الراحتين وشدة الاحتراس من انصراف الفهم عن هجو مهجو أو مدح ممدوح كقول بعضهم:

لـو أن الباخلين وأنـت منهم رأوك تعلمـوا منـك المطـالا

وقول آخر:

فآيـة طربـة للعفـوان الكـريم وأنـت معنـاه طـروب

فلـو قـال الأول: لـو أن البـاخلين رأوك تعلمـوا، والثـاني أن الكـريم طروب لفهـم أن المخاطب في الأول بخيل وفي الثاني كريم، لكـن ربما يتوهم أن المطال بسبب غير البخل، وأن الطرب للعفو وقع اتفاقًا وأن الطرب صفة الكرام.

ويكـون الاعتـراض مقرونًـا بـالواو وبالفـاء ومجـردًا، ويقـال للحـرفين الواو والفاه الاعتراضيتان.

ولبعضهم أن الاعتراض يكون بعد الكلام، ومن أمثلته على رأيه قوله تعـالى: ﴿وقـل جـاء الحـق وزهـق الباطـل أن الباطـل كـان زهوقـا﴾، ومعنـى الاعتراض على هذا أنه فصل بين الكلام وبين ما يترقبه السامع من كلام آخر، فكأنه وصل بين الكلام المذكور وما يؤمله فاعترض المتكلم يذكر ما يتعلق بالكلام السابق.

وربما يشتبه الاعتراض بالحال فعلى المتفهم أن يلاحظ أن المعنى إن كـان يـستدعي التقييـد وللتقييـد غـرض صـحيح، فالجملـة حـال وإلا فاعتراض.

وهذه أمثلة للاعتراض من الشعر قال العباس بن الأحنف:

قـد كنـت أبكـي وكنـت راضـية حـذار هـذا الـصدود والغـضب

إن تـم ذا الهجـر يـا ظلـوم ولا تـم فمـالي فـي العـيش مـن أَرَب

ولأبي الوليد محمد بن يحيى بن حزم:

أتعجـب مـن دمعـي وأنـت سـكبته ومـن نـار أحـشائي وأنـت لهيبهـا

وتزعم أن النفس غيرك علقت وأنت ولا منّ عليك حبيبها

وللشريف محمد الرضي:

لا تحسبيه وإن أسأت به يرضى الوشاة ويقبل العذلا
لو كنت أنت وأنت مهجته واشي هواك إليه ما قبلا

وللتهامي:

إني لأطرف طرفي عن محاسنها تكرمًا وأكف الكف عن أمم
ولا أهم ولي نفس تنازعني استغفر الله إلا ساعة الحلم

وقد نزل التهامي حالًا عن المتنبي حيث يقول:

يرد يدًا عن ثوبها وهو قادر ويعصى الهوى في طيفها وهو راقد

ولبعضهم:

سعاد تسبني ذكرت بخير وتزعم أنني ملق خبيث
وإن مودتي كذب ومَيْنٌ وإني بالذي أهوى بثوث
وليس كذا ولا ردٌّ عليها ولكن الملول هو النكوث
رأت شغفي بها ونحول جسمي فصدت هكذا كان الحديث

ولابن النبيه:

سقيًا لا يأمنا التي سلفت كانت بطيب الحياة مقترنة
لو بيع يوم منها وكيف به كنت بعمري مسترخصًا ثمنه

وللسيد عز الدين المرتضى:

أفي الحق أن تمضي ثلاث وأربع وخمس وسبع بعدهن ثمان

وما أن أرى شمس الضحى قمر ... ولا هو حاشاه الخسوف يراني
نأى لا نأى لما دنا الهجر لا دنا ... فيا ليت ذا ناء وذلك دان

وللسراج الوراق:

إن عيني وهو عضو دنف ... ما علئ ما كابدته جلد
ما كفاها بعدها منك إلي ... إن دهاها وكفيت الرمد

وللفقيه عمارة اليمنى:

له راحة ينهل جود بنانها ... ووجه إذا قابلته يتهلل
يرى الحق للزوار حتى كأنه ... عليهم وحاشا قدره يتطفل

ولابن اللبانة في ناصر الدولة صاحب ميورقه من الأندلس:

وعمرت بالإحسان أفق ميورقة ... وبنيت فيها ما بني الإسكندر
فكأنها بغداد أنت رشيدها ... ووزيرها وله السلامة جعفر

حصر الجزئي وإلحاقه بالكلي

أرادوا بمسمى هذا الاسم أن يقصد المتكلم إلى جميع أنواع تجمعها ملاحظة تحت جامع، بحيث تكون تلك الأنواع هي أقسام ذلك الجامع فيحصرها في بعض جزئياتها الغرض التعظيم أو غيره، بمعنى أنه يدعي أن ليس للكلي فرد غير ذلك المخصوص.

ومثال ذلك قول عبد الله السلامي:

إليك طوى عرض البسيطة جاعلًا ... قصارى المطايا أن يلوح لها القصر
فسرت وعزمي في الظلام وصارمي ... ثلاثة أشباح كما اجتمع النسر

فبشرت آمالي بملك هو الورى ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

فقد جمع أنواع العالم من الأشخاص والأمكنة والأزمنة، وحصرها في الملك والدار ويوم اللقيا وقد أغار عليه إلارجاني في ذلك وقصر تقصيرًا بينًا مع انحطاط درجة العبارة في قوله:

يا سائلي عنه لما جئت مدحه هذا هو الرجل العاري من العار
رأيته فرأيت الناس في رجل والدهر في ساعة والأرض في دار

فلفظ الناس ليس كلفظ الورى ولفظ الأرض ليس كلفظ الدنيا، والفاتح لهذا المعنى أبو نواس في قوله يمدح الفضل بن يحيى ويخاطب الرشيد:

أنت على ما بك من قدرة فلست مثل الفضل بالواجد
ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

الجمع والتفريق

هو أن يجمع بين شيئين في معنى ثم يفرق بينهما بعد، وهو يزيد على التفريق الماضي بسبق الجمع ويخالفه أيضًا بان التفريق هنا ليس الغرض منه تفضيل أحد الأمرين مثاله قول مهيار:

حتى إذا الليل قضى ما قضى خفت مع الفجر خطاها الثقال
أبكى وتبكى غير أن الأسى دموعه غير دموع الدلال

وقول البحتري:

ولما التقينا والتقا موعد لنا تعجب رائي الدرّ منا ولا قطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

الجمع مع التقسيم

هو أن يذكر مجملًا ثم يقسمه أو يذكر مفصلًا ثم يجمله في معنى كقول أبي الطيب في الأول:

حتى أقام على أرباض خرشنة تشقى به الروم والصلبان والبيع
للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

فقد أثبت أولًا شقاء الروم وشقاؤهم بما يلحقهم من الشدائد، وتلك الشدائد هي السبي والقتل والنهب والإحراق.

وقول حسان - رضي الله تعالى عنه - في الثاني:

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فهيم غير محدّثة أن الخلائق فاعلم شرها البدع

الجمع مع التفريق والتقسيم

هو أن يجمع متعددًا في معنى ثم يفرق بينهما بالصفة ثم يضيف لكل ما أراد أن يثبت له ويخصه به.

وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ جميع الأنفس في السكوت حتى يصدر الإذن بالكلام، ثم فرقهم شقيًا وسعيدًا ثم نص ما أعد لكل.

ولابن شرف القيرواني:

لملتمسي الحاجات جمع ببابه فهذا له فن وهذا له فن

فللخامل العليا وللمعدم الغني ... وللمذنب الرحمي وللخائف الأمن

التوشيع

هو كقوله - صلى الله عليه وسلم - « يشيب ابن آدم ويشب معه خصلتان: الحرص وطول الأمل »، وقوله: « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا »، ولتاج الدين بن أبي الحسين الكندي البغدادي:

دع المنجم يكبو في ضلالته ... إن ادّعى علم ما يجري به الفلك

تفرد الله بالعلم القديم فلا ... الإنسان يشركه فيه ولا الملك

أعدّ للرزق من إشراكه شركًا ... فبئست العدتان الشِّرك والشَرك

التكميل

هو أن يأتي المتكلم بالمعنى تامًا ثم يعقبه بمعنى يزيده كمالًا كقول سعد بن كعب الغنوى:

حليم إذا ما الحلم زين أهله ... مع الحلم في عين الرجال مهيب

وقول البحتري:

هل العيش إلا أن تساعفنا النوى ... بوصل سعاد أو يساعدنا الدهر

على أنها ما عندها لمواصل ... وصال ولا عنها لمصطبر صبر

الاحتراس

هو أن يأتي المتكلم بزيادة على الكلام لدفع فساد في معناه ولو احتمالًا كقوله تعالى: ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾

فاليد تكون بيضاء بعلة البهق. وقوله ﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ فنسبة الفعل توهم القصد ومن ناله الأذى يعترض على من قصده دون من لم يشعر به وهو في القرآن كثير.

ومن شواهد الاحتراس قول الفرزدق من هجائه لجرير:

لعن الإله بني كليب إنهم لا يغدرون ولا يفون لجار

فقوله: لا يغدرون معناه متى أخذ عليهم عهد عجزوا عن نقضه ولو نابتهم بسببه النوائب، والقرينة على ذلك ما سبق من اللعن ليكن يحتمل أنه استثنى لهم صفة من صفات الكرم فاحترس بقوله ولا يفون وقوله لجار من الإيغال.

وقال طرفه:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمى

وقد فات هذا الاحتراس المتنبي حيث يقول:

وإذا ارتحلت فشيعتك سلامة حيث اتجهت وديمة مدرار

وقد استعار بعض كتاب المغرب هذا الكلام في رسالة توديعية يخاطب فيها سلطانه وانتقد على المتنبي حيث يقول:

سر حل حيث تحله النوار وأراك فيك مرادك المقدار

وإذا ارتحلت فشيعتك سلامة وغمامة لا ديمة مدرار

تنفي الهجير بظلها وتنيم بالرش القتام وكيف شئت تدار

وقضى الإله بأن تعود مظفرًا وقضت بسيفك تحبها الكفار

هذا ما تمناه الولي لا ما تمنها الجعفي، فإنه قال: حيث ارتحلت وديمة وما تكاد تنعقد معها عزيمة وإذا سفحت على ذي سفر فما أحراها بأن تعوق عن الظفر، ونعتها بمدرار فكان أبلغ في الاضطرار.

الإيغال

هو أن يأتي المتكلم بعد تمام الكلام بلفظ يزيد في معناه كقول تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ فقوله وما كانوا مهتدين إيغال لتمام الكلام قبله وزيادة فيه، وقوله: ﴿ياقوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون﴾ ومن كلام الناس كقول الخنساء:

وإن صخر التأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فقولها في رأسه نار ورد بعد تمام المعنى ليزيد فيه، وقول امرئ القيس:

كأن عيون الوحش حول خبائنا وارحلنا الجزع الذي لم يثقب

قال الأصمعي: عيون الظباء والبقر إذا كانت حية لم يظهر فيها البياض، فإذا ماتت ظهر، والشعر في ذكر يوم صيد فهو يقول في كثرة الصيد حتى أن عيون الوحش صارت منتشرة حول رحالهم في صورة الجزع، وهو خرز فيه بياض وسواد يجلب من اليمن، وقوله لم يثقب زيادة لتحقيق التشبيه كقول زهير:

كأن فتاة العهن في كل منزل نزلت به حب الفنا لم يحطم

شجاعة الفصاحة

قال مثبته أبو الفتح عثمان بن جني: هو حذف شيء من لوازم الكلام ثقة بفهم السامع، ومثّل له بأمثلة يرجع فيها ضمير الغائب على ما يلزم علمه من الكلام دون ذكره كقوله تعالى: ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ بعد قوله: ﴿إذ عرض عليه بالعشي﴾ وكقول لبيد:

حتى إذا ألقت يدًا في كافر   وأجن عورات الثغور ظلامها

الفرائد

هذا النوع عبارة عن كلمات رائعة ظاهرة الفصاحة يكون لها تميز بين قرائنها فتشبه الجوهرة الفريدة في العقد المتماثل، ومثلوا له بقوله تعالى: ﴿الآن حصحص الحق﴾ وقوله: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ وقوله: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾.

ومن الشعر قول أبي كبير الهذلي:

ومبرأ من كل غبر حيضة   وفساد مرضعة وداء مغيل

فقوله: غبر بضم الغين من الفرائد لا يقوم مقامها عقب حيضة، وكل في هذا البيت داخلة على المعدود بعدها أي: هو مبرأ من كل ما يوجب ضعفًا ونقصًا في الخلق، والمغيل اسم فاعل من أغيل يقال: أغيلت المرأة ولدها دون إعلال وأغالته بالإعلال فهي مغيل، ومغيل إذا أرضعته وهي حامل جعله صفة للداء مبالغة في شناعته كأن المرأة إذا أرضعت ولدها وهي حامل لم تكن هي المرضعة وإنما المرضع داء، والمراد بفساد

المرضعة أن لا تكون من ذوات اللبن الجيد، فإن النساء وبقية الإناث من الحيوانات متفاوتة الألبان تفاوتًا عظيمًا، فهو فساد أصلي وفساد المغيل عارض فلا يغني أحدهما عن الآخر.

وهذا البيت شاهد للعرب بكمال النباهة وجودة الالتفات واعتبار التجارب، فإن المرأة بعد الحيض لا تكون قد صفت من الخبث وبرئت من الضعف وتمت سورتها لقبول البذر، فهي كالأرض الندية التي لم تبلغ الصلاحية لقبول الحب وحسن الفعل فهو يخرج ضعيفًا وقوة الغذاء باللبن لها ما بعدها.

وكانت العرب قد عرفت بعض القبائل بجودة اللبن فكانوا يرضعون فيهم أولادهم، وفي معنى حديث: « مالي لا أكون أفصح العرب وأنا من قريش واسترضعت في بني سعد » فأنت تراه نفي التعجب من قوة الفصاحة بإثبات ما يوجبها وهو سببان: أحدهما: حسن الرضاة لاستتباعه قوة البنية وجودة استعداد الأعضاء لتتميم أعمالها. والسبب الآخر: كونه من قريش الذين هم أهل المجالس التي كانت العرب تتحاكم إليها في موسم الحج.

وتلك مقامات أنواع الكلام ومواضع إمكان الاختيار كما سبقت الإشارة إليه في الكلام على اللغة، وأما الغيلة فذلك حكمها بمقتضى التجربة وعليه قال - صلى الله عليه وسلم -: « هممت أن أنهي عن الغيلة إلا أني رايت فارس والروم يفعلون ذلك فلا يضرهم » فمعناه أنه همّ بتحريم ذلك ولكن لدفع الحرج فيه ترك إلى التجربة فمن وجد فيه ضررًا كان منهيًا عنه بعموم النهي عن الأذى.

الاشتقاق

قال مثبته أبو هلال العسكري: هو أن تشتق من الاسم العلم معنى في غرض مدح أو ذم.

ومن أمثلته قول ابن دريد في هجاء نفطويه النحوي:

لو أوحى النحو إلى نفطويه ... وما كان هذا النحو يغدى إليه
أحرقه الله بنصف اسمه ... وصير الباقي صراخًا عليه

وللصاحب ابن عباد وقد استأذن حاجبه للطرسوسي مداعبة الطرّ في لحيته والسوس في حنطته، ودخل محمد العباسي الملقب أبا العبر وكان مشهور بالهزل وله نوادر ظريفة على رجل يسمى كلثوم فسأل محمدًا عن اسمه فقال له: كل بصل. فقال: ما معنى هذا الاسم. فقال: معناه معنى كلثوم.

وكتب ابن سكرة إلى صديق له يلقب الملحي:

يا صديقًا أفادنيه زمان ... فيه ضن بالأصدقاء وشح
بين شخصي وبين شخصك بعد ... غير أن الخيال بالوصل سمح
إنما باعد التألف منا ... أنني سكر وأنك مسلح

فكتب يجيبه:

هل يقول الأخوان يومًا لخل ... شاب منه محض المودة قدح
بيننا سكر فلا تفسدنه ... أو غدًا بيننا وبينك ملح

وفي هذا الجواب تفضيل الملح لا رفع المنافرة بين النوعين، ولابن الرومي:

كـأن أبـاه حـين سـماه صـاعدًا رأى كيف يرقى في المعالي ويصعد

السلب والإيجاب

هو إثبات شيء ونفيه من جهتين كقوله:

خلقـوا ومـا خلقـوا لمكرمـة فكـأنهم خلقـوا ومـا خلقـوا

رزقـوا ومـا رزقـوا سـماح يـد فكـأنهم رزقـوا ومـا رزقـوا

وقول آخر:

لا يفطنـون لعيـب جـارهم وهـم لحفـظ جـواره فطـن

ولا يلزم التصريح بالجزئين فيعد منه قول الخنساء:

ومـا بلغـت كـف امـرئ متنـاولًا من المجد إلا والذي ثلث أطول

ولا بلـغ المهـدون للنـاس مدحـة وإن اطنبـوا إلا الـذي فيـك أفـضل

فإنه على تقدير بلغ الناس متناولًا من المجد وما بلغوا ما بلغت وبلغ الشعراء مدح الأجواد وما بلغوا مدحك.

المشاكلة

هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته مجازًا كقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ وقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ وقد يكون المشاكل ملحوظًا غيره موجود في الكلام

فتسمى المشاكلة تقديرية كقول بعض الشعراء وقد نظر إلى أمير يغرس فسيلًا:

إن الولايـــة لا تـــدوم لواحـــد إن كنـــت تنكـــره فـــأين الأول

فأغرس من الفعل الجميل غرائسًا فـــإذا عزلـــت فإنهـــا لا تعـــزل

كأنه قال أنت تغرس نخلًا فاغرس فعلًا.

ما لا يستحيل بالانعكاس

هو عبارة عن لفظ يقرأ من آخره لأوله كما يقرأ من أوله لآخره كقوله تعالى: ﴿كل في فلك﴾، ﴿ربك فكبر﴾.

ومن كلام الناس: كن كما أمكنك، ومن النوادر أن العماد الكاتب كان يساير القاضي الفاضل فقال العماد: سر فلا كبا بك الفرس فأجابه القاضي بديهة بقوله: دام علا العماد وللقاضي الأرجاني:

أحـــب المـــرء ظـــاهره جميـــل لـــصاحبه وباطنـــه ســـليم

مودتـــه تـــدوم لكـــل هـــول وهـــل كـــل مودتـــه تـــدوم

وشرط حسنه أن يكون سلسًا ليس فيه تكلف.

التقسيم

هو على نوعين أحدهما أن يذكر قسمة ذات جزئين أو أكثر ويضيف لكل ما يليق به، والثاني أن يستوفى جميع الأقسام الممكنة.

فمن الأول قول المتلمس:

فما يقيم على ضيم يراد به   إلا الأذلان غير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته   وذا يشج فلا يرثى له حسد

وقول ربيعة الرقي:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى   يزيد سليم والأغر ابن حاتم
يزيد سليم سالم المال والفتى   فتى الأزد للأموال غير مسالم
فهمُّ الفتى الأزدي إتلاف ماله   وهم الفتى القيس جمع الدراهم

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا يجعل من يشاء عقيما﴾.

ويحكى أن الحسن البصري كان يقول: " لا تقبل توبة قاتل المؤمن عمدًا" فدس إليه عمرو بن عبيد رجلًا يقول له: لا يخلو أن يكون مؤمنًا أو كافرًا أو منافقًا أو فاسقًا، فإن كان مؤمنًا فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾، وإن كان كافرًا فإنه تعالى يقول: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾، وإن كان منافقًا فإنه تعالى يقول: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجدلهم نصيرا إلا الذين تابوا﴾، وإن كان فاسقًا فإنه تعالى يقول: ﴿أولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا﴾ فقال الحسن للرجل: من أين لك هذا. قال: شيء اختلج في صدري. فقال: محال صدقني. فقال: عمرو بن عبيد. فقال الحسن: عمرو وما عمرو وإذا قام بأمر قعد به وإذا قعد بأمر قام به.

وحكى أنه قدم وفد من العراق على هشام بن عبد الملك وفيهم رجل من بني أسد فقال: يا أمير المؤمنين أصابتنا سنون ثلاث: أما الأولى

فأذابت الشحم، وأما الثانية فنحضت اللحم، وأما الثالثة فهاضت العظم، وفي أيديكم فضول أموال فإن كانت لله فبثوها في عباد الله، وإن كانت لهم فلا تمنعوهم إياها، وإن كانت لكم فتصدقوا إن الله يجزي المتصدقين.

فقال هشام: ما ترك لنا في واحدة عذرًا، ثم قال له: قد قلت في حاجة العامة فقل في حاجة نفسك. فقال ما لي حاجة في خاصة دون عامة.

ولأبي تمام في مجوسي أحرق:

صلى لها حيًا وكان وقودها ميتًا ويدخلها مع الكفار

ولعمرو بن الأهتم:

أشربًا ما شربتما فهذيل من قتيل أو هارب أو أسير

الإشارة

هو عبارة عن إيجاز في العبارة مع كثرة المعنى كأنه يشير إليه إشارة ولم تتناوله العبارة كقوله تعالى في صفة الجنة: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾ وقوله: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ وقوله: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ ولامرئ القيس:

فظل لنا يوم لذيذ بنعمة فقل في مقيل نحسه متغيب

فهذه عبارات وجيزة أريد بها أشياء كثيرة.

الترتيب

قال مستخرجه شرف الدين التيفاشي: هو ذكر أوصاف لموصوف واحد مرتبة على الترتيب الطبيعي كقول مسلم بن الوليد:

هيفاء في فرعها ليل على قمر   على قضيب على حقف النقا

المشاركة

ويقال الاشتراك: وهو أن يأتي بلفظ مشترك بين معنيين ليوهم السامع أنه أراد أحدهما لكونه جعل الكلام بحيث يتبادر منه وهو يريد الآخر فيعقب الكلام بما يحقق مراده كقول كثير عزة:

وأنت التي حببت كل قصيرة   إليّ ولم تعلم بذاك القصائر

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد   قصار الخطا شر النساء البحاتر

البحاتر: جمع بحتر - ضم فسكون - القصير المجتمع الخلق.

التوليد

هو على نوعين: أحدهما لفظي والآخر معنوي، فاللفظي أن يستحسن الشاعر أو الناثر لفظًا من كلام غيره في معنى فيستلبه ويضعه في معنى آخر، فإن كان استعماله إياه أجود وكان الموضع الذي وضعه فيه به أليق انتظم في المقبول المستحسن وإلا عد من المردود أو المترذل كقول ابي تمام:

لها منظر قيد النواظر لم يزل   يروح ويغدو في خفارته الحب

كلمة القيد مستلبة من قول امرئ القيس في صفة الفرس:

وقد اعتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

الأوابد: جمع آبدة وهي الوحش، ومعناه أن هذا الفرس شديد السرعة بحيث متى طلب عليه صيد أدركه ومنعه من الحركة فهو وبمنزلة القيد له، فأنت ترى أنه استعمل لفظ القيد مع الحيوان الذي هو موضعه وبلغ به غرضه، وأبو تمام استلبه واستعمله مع النواظر فكان في غير موضعه.

والمعنوي هو أن يجد الشاعر أو الناثر معنى لغيره فيأخذه ليزيد فيه ويحسن العبارة عنه فيعد بديعًا لما فيه من التنبه والنقد الذي يحصل بمثله التعليم والدلالة على الأدب كقول أبي الطيب:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

توليدًا من قول عبد الله بن المعتز:

لا تلق إلا بليل من تواصله فالشمس نمامة والليل قوّاد

فالنميمة هي نقل الكلام عن الغائب وليس فعل الشمس، والإغراء هو تحريض حاضر على حاضر وهو فعل بياض الصبح، واستعمال الشفاعة التي تقتضي صحبة الإعانة مع شرف اللفظ أحسن من استعمال القيادة، وكقول أبي الطيب أيضًا:

همام إذا ما فارق الغمد سيفه وعاينته لم تدر أيهما النصل

توليدًا من قول أبي تمام:

يمدون بالبيض القواطع أيديا فهن سواء والسيوف القواطع

فانظر تفاوت ما بين البيتين، وكقول الأخطل:

وأن أميــــر المـــؤمنين وفعلــــه لكالـدهر لا عـار بمـا فعـل الـدهر

توليدًا من قول النابغة:

وعيرتنـــي بنـــو ذبيـــان خـــشيته وهـل علـيّ بـأن أخشاه مـن عـار

وكقول بعضهم:

فلا تغل في شيء من الأمر واقتصد كــلا طرفــي كــل الأمــور ذمــيم

توليدًا من قول آخر:

عليـك بالقـصد فيمـا أنـت طالبـه أن التخلُّـق يـأتي بعـده الخلـق

توليدًا من قول القطامي:

قـد يـدرك المتـأني بعـض حاجتـه وقـد يكـون مـع المـستعجل الزلـل

وهو عقد لقوله - صلى الله عليه وسلم -: « من تأنى أصاب أو كاد ومن استعجل أخطأ أو كاد ».

الإبداع

بالباء الموحدة هو أن يكون البيت من الشعر أو الفصل من النثر أو الجملة المفيدة مشتملًا على عدة ضروب من البديع.

ولم يوجد في هذا النوع من الكلام مثل قوله تعالى: ﴿وقيل ياأرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾ فإنها اشتملت على ثلاثة وعشرين نوعًا من البديع وهي سبع عشرة لفظة الأول: المناسبة التامة بين أبلغي

وأقلعي. الثاني: الاستعارة فيهما. الثالث: الطباق بين الأرض والسماء. الرابع: المجاز في قوله ﴿يا سماء﴾ فإن الحقيقة يا مطر السماء. الخامس: الإشارة في ﴿وغيض الماء﴾ فإنه عبر به عن معاني كثيرة؛ لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء وتبلغ الأرض ما يخرج منها من عيون الماء فيغيض الحاصل على وجه الأرض من الماء. السادس: (الإرداف) في قوله ﴿واستوت على الجودي﴾ فإنه عبر عن استقرارها في المكان بلفظ قريب من لفظ المعنى. السابع: التمثيل في قوله وقضى الأمر فإنه عبر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ بعيد عن الموضوع. الثامن: التعليم فإن غيض الماء علة الاستواء. التاسع: صحة التقسيم فإن استوعب أقسام الماء حالة نقصه إذ ليس إلا احتباس ماء السماء والماء النابع من الأرض ويغض الماء الذي على ظهرها. العاشر: الاحتراس في قوله وقيل ﴿بعداً للقوم الظالمين﴾ إذ الدعاء يشعر بأنهم مستحقو الهلاك احتراسًا من ضعيف يتوهم أن الهلاك لعمومه ربما شمل غير مستحق. الحادي عشر: المساواة لأن لفظ الآية لا يزيد على معناها. الثاني عشر: حسن النسق فإنه تعالى قص القصة وعطف بعضها على بعض بحسن الترتيب. الثالث عشر: ائتلاف اللفظ مع المعنى؛ لأن كل لفظة لا يصلح معها غيرها.

الرابع عشر: الإيجاز فإنه تعالى أمر فيها ونهى وأخبر ونادى ونعت وسمى وأهلك وأبقى وأسعد وأشقى وقص من الأنباء ما لو شرح لجفت الأقلام. الخامس عشر: التسهيم لأن أول الآية يدل على آخرها. السادس عشر: التهذيب لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن كل لفظة سهلة مخارج الحروف عليها رونق الفصاحة سليمة عن التنافر بعيدة عن البشاعة وعقادة التركيب. السابع عشر: حسن البيان لأن السامع لا يتوقف في فهم

معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه. الثامن عشر: الاعتراض وهو قوله وغيض الماء واستوت على الجودي. التاسع عشر: الكناية فإنه لم يصرح بمن غاض الماء ولا بمن قضي الأمر وسوى السفينة ولا بمن قال وقيل بعدًا، كما لم يصرح بقائل ﴿يا أرض ابلعي ويا سماء اقلعي﴾ في صدر الآية سلوكًا في كل واحد من ذلك سبيل الكناية.

أن تلك الأمور العظام لا تتأتى إلا من ذي قدرة قهار لا يغالب، فلا محال لذهاب الوهم ألى أن يكون غيره جلت عظمته قائل: يا أرض ويا سماء ولا أن يكون غائض ما غاض ولا قاضي مثل ذلك الأمر الهائل غيره.

العشرون: التعريض فإنه تعالى عرض لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلمًا وأن الطوفان وتلك الصور الهائلة ما كانت إلا لظلمهم. الحادي والعشرون: التمكين لأن الفاصلة مستقرة في محلها مطمئنة في مكانها غير قلقة ولا مستدعاة. الثاني والعشرون: الانسجام الذي هو شاهد هذا النوع وفي هذه الآية الكريمة تفريعات أخر مثلًا: أن الاستعارة منها في موضعين وأمثال ذلك مما يستنبط بقوة النظر والاستقراء بمعرفة الناقد البصير، وقد أفردت بلاغة هذه الآية بالتأليف.

وفي العجائب للكرماني أجمع المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية بعد أن فتشوا جميع كلام العرب والعجم فلم يجدوا مثلها في فخامة ألفاظها وحسن نظمها وجودة معانيها في تصوير الحال مع الإيجاز من غير إخلال انتهى من لفظ ابن معصوم - رحمة الله علي -.

النوادر

وكان قدامة يسميه الأغراب بالغين المعجمة، وهو: أن يقصد المتكلم إلى معنى قد ابتذلته الشهرة وكثرة الاستعمال فيبرزه في صورة يتخيلها فتكسوه غرابة وكأنه لم يكن مستعملًا كقول أبي الطيب المتنبي في التشبيه بالشمس:

لم تلق هذا الوجه شمس نهاره ... إلا بوجه ليس فيه حياء

وكقول القاضي الفاضل عبد الرحيم البسياني في التشبيه بالقمر:

تراءى ومرآة السماء صقيلة ... فأثّر فيها وجهه صفحة البدر

ولأبي الفتح البستي فيه إغراب آخر:

أرأيت ما قد قال لي بدر الدجى ... لما رأى طرفي يديم سهودا

حتّام ترمقني بعيني ساهر ... أقصر فلست حبيبك المفقودا

ومن المعاني المشهورة دعوى أن الطير تتبع الجيش لاعتيادها الوقوع على قتلاه لكثرة وقائعه ونصرته فيها قال النابغة:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم ... عصائب طير تهتدي بعصائب

وتبعه مسلم بن الوليد بقوله:

قد عود الطير عادات وثقن بها ... فهن يتبعنه في كل مرتحل

وأكثر الشعراء في ذلك بعبارات قريب بعضها من بعض حتى قال المتنبي فأغرب:

يطمع الطير فيهم طول أكلهم ... حتى تكاد على هاماتهم تقع

التطريز

هو على معنيين أحدهما أن يؤتى بأمور متقابلة على حد قول أبي تمام:

أعوام وصل كاد ينسى طيبها ذكر النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أعقبت بؤسًا فخلنا أنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

والآخر أن يبتدأ بمتعدد ثم يخبر عنه بصفة واحدة متكررة على حد قول ابن الرومي:

أموركم بني خاقان عندي عجاب في عجاب في عجاب
قرون في رؤوس في وجوه صلاب في صلاب في صلاب

وقول ابن لنكك البصري:

أقول لصاحبي والراح روح لجسم الكأس في كف النديم
وقد حبس الدجى عنا بواك تسل نفوسها فوق الجسوم
شموعك والكؤوس مع الندامى نجوم في نجوم في نجوم

التنكيب

هو أن يخص المتكلم شيئًا بالذكر لا يستحق الاختصاص لذاته، بل هو وغيره سواء لكونه دل على أمر انفرد به، ولذلك يطلب عند سماعه فيقال: لم خص هذا بالذكر؟ كقوله تعالى: ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾، ﴿وهو رب كل شيء﴾ فيقال: لم اختص الشعرى بالذكر؟ والأمر الذي أوجب لها

ذلك هو أن أمة من العرب كانت تعبدها وإمامهم في ذلك رجل كان يقال له ابن أبي كبشة قيل: وهو المراد في قول أهل مكة حين كانوا يستسخرون أمر ابن أبي كبشة تشبيها للنبي - صلى الله عليه وسلم - به في مفارقة عبادة الأصنام، وقيل نسبوه إلى بعض أجداده لأمه.

ومن شواهد التنكيت قول الخنساء:

يذكرني طلوع الشمس صخرًا وأذكره لكل غروب شمس

خصت الوقتين لكونهما وقت إطعام وتلقى المساكين والضيفان.

ولأبي تمام من التنكيت قوله:

تسعون ألفًا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

من قصيدة لها خبر يعرف منه نكتة اختصاص التين والعنب بالذكر حتى اعترض عليه من لم يعرف الخبر؛ وذلك أنه بلغ المعتصم وهو في مجلس شرابه أن في بلد يقال لها عمّورية - بتشديد الميم - من بلاد الروم أسيرة هاشمية تصرخ: وامعتصماه، فقال المعتصم: لبيك لبيك وأمر بالختم على الكأس وحلف أن لا يشربه إلا بعد فتح البلد وإنقاذ الأسيرة، فقال المنجمون: إن هذا الوقت غير صالح للغزو فلم يحفل بكلامهم وخرج. وكان المنجمون يقولون أيضًا: إذا لم تفتح البلد قبل أوان نضج التين والعنب لم تفتح أبدًا فقدر الله - سبحانه وتعالى - أنه وصل إلى البلد وفتحها واستنقذ الأسيرة، فقام أبو تمام وأنشده قصيدة البيت وأولها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

وهي من جيد شعر أبي تمام.

حسن الاتباع

هو عبارة عن أن يقصد الشاعر إلى معنى سبقه به غيره فيأخذه ليخرجه في صورة أحسن من الصورة التي كان عليها حتى يستحقه وكأنه لم يسبق به؛ ولذلك يقال من سرق واسترق فقد استحق كقول بشار:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فأخذه تلميذه سلم الخاسر فاختصر وبالغ حيث يقول:

من راقب الناس مات غمًّا   وفاز باللذة الجسور

وقال ابن المعتز:

وتحت زنانير شددن عقودها   زنانير أعكان معاقدها السرر

فأخذه التهامي في قوله:

لولاه لم يقض في أعدائه قلم   ومخلب الليث لولا الليث كالظفر

ما صرّ إلا وصلت بيض أنصله   في الهام أو أطلت الأرماح في الثغر

وغادرت في العدى طعنًا يحف به   ضرب كما حفت الأعكان بالسرر

وقال جرير:

إذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهم غضابا

وتبعه أبو نواس بقوله:

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد

وقال البحتري:

أخجلتني بندا يديك فسوّدت ... ما بيننا تلك اليد البيضاء

صلة غدت في الناس وهي قطيعة ... عجبًا وبرّاح وهو جفاء

فتبعه أبو العلاء بقوله:

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم ... والعذب يهجر للإفراط في الخصر

ومن يقرأ الأشعار يجد شيئًا كثيرًا من ذلك.

التفريع

هو نوعان: أحدهما: أن يحكم لمتعلقي أمر بحكم على وجه يشعر بتفريع الأول على الثاني كقول العربي:

أحلامكم لسقام الجهل شافية ... كما دماؤكم تشفى من الكلب

قيل: أن الكلب تعتريه حالة كالجنون، فإذا عض إنسانًا في هذه الحالة جن، ويقال: كلب كلبًا من باب فرح، فدواءه أن يشرب من دم شريف وأنكر ذلك بعض الأدباء وأنه المراد في البيت، وقال: أن معنى البيت مدحهم بالشرف والسؤدد، وأنهم إذا أصيبوا في أخذ النار كانوا شفاء من الغم والحقد وحرارة القلب على القتلى حتى يقال: هو ثار منيم إذ كانت العرب لا تعتد في أخذ الثار بقتل الأوضاع.

والثاني: من نوعي التفريع هو نفي زيادة شيء موصوف بصفات على شيء آخر كقول كثير:

ما روضة من رياضة الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها مسيل هطل

يضاحك الشمس منها كوكب شرق ... مــؤزر بعمــيم النبــت مكتهــل
يومًــا بأطيــب منهــا نــشر رائحــة ... ولا بأحــسن منهــا إذ دنــا الأصــل

التدبيج

هو عبارة عن ذكر عدة ألوان كقوله تعالى: ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود﴾ ومن الشعر كقول حسين بن مطير:

مخـضرة الأوسـاط زانـت عقودهـا ... بــأكثر ممــا زينتهــا عقودهــا
بــصفر تراقيهــا وحمــر أكفهــا ... وســود نواصــيها وبــيض خــدودها

وقول ابن حيوس:

إن تــرد علــم حــالهم عــن يقــين ... فــالقهم يــوم نائــل أو نــزال
تلــق بــيض الوجــوه ســود مثــار ... النقــع خـضر الأكنـاف حمـر النـصال

ومن النثر كقول الحريري:" فذا غبر العيش الأخضر، وأزورّ المحبوب الأصفر أسود يومي الأبيض، وأبيض فودي الأسود، حتى رثى لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر".

ولآخر في ذكر وقعة:" فأوردنا الحديد الأخضر في دم الوريد الأحمر من عدو الله الأزرق من بني الأصفر".

التفسير ويقال التبيين

هو عبارة عن أن يأتي المتكلم في أوَّل كلامه بما فيه إبهام، ولا يستقل الفهم بمعرفة المقصود منه فيعقبه بما يكشفه ويبين الغرض منه كقول بعضهم:

صالوا وجادوا وضاؤوا وأحتبوا فهم أسد ومزن وأقمار وأجبال

لو وقف على قوله: واحتبوا لم يكن الغرض من الكلام مفهومًا وهو مدحهم بتمام الشجاعة والسخاء وسماحة الوجوه ورجاحة الأحلام، وكقول ابن الرومي:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجون نجوم

منها معالم للهدى ومصابح تجلوا الدجى والأخريات رجوم

فلو وقف على قوله: دجون لم يكن مقصوده مفهومًا فبينه بأنها تشبه النجوم ثم فسر بما للنجوم من الخصائص على سبيل التقسيم، وقول محمد بن وهب:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

يحكى أفاعيله في كل نائبة الغيث والليث والصمصامة الذكر

سياقة الإعداد ويقال التعديد

هو عبارة عن ذكر مفردات على نسق فإن اقترنت بمحسن آخر كازدواج أو مقابلة كان أتم، كقوله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف

والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾ ومن الشعر كقول أبي الطيب:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وكقول محمد بن هانئ:

للناس إجماع على تفضيله حتى استوى اللؤماء والكرماء
واللكن والفصحاء والبعداء والقرباء والخصماء والشهداء
في الناس يسري جوده وجنوده وعديده والحزم والآراء
نزلت ملائكة السماء بنصره وأطاعه الأصباح والإمساء
والفلك والفلك المدار وسعده والغزو في الدأماء والدأماء
والدهر والأيام في تصريفها والناس والخضراء والغبراء

حسن النسق

هو على نوعين: أحدهما: سرد أوصاف لموصف كقوله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ الآية وما أشبهها من الآيات.

والثاني: عطف عدد من الألفاظ المتلائمة معناها كقوله تعالى: ﴿ياأرض ابلعي ماءك﴾ الآية، ومن الشعر قول ابن هانئ الأندلسي:

قد جالت الأوهام فيك ودقت الألباب عنك وجلَّت الآلاء
فعنت لك الأمصار وانقادت لك الأقدار واستحيت لك الأنواء

حسن التعليل

هو عبارة عن تعليل صفة شيء بعلة ادعائية فيها غرابة، وهو على أربعة أنواع؛ لأن الصفة إما ثابتة أو غير ثابتة يدعي ثبوتها، والثابتة إما أن لا يظهر لها علة في العادة وإما أن يظهر، وغير الثابتة إما أن تكون ممكنة الثبوت أو غير ممكنة.

فالأول كقول أبي الطيب:

لم تحك نائلك السحاب وإنما حملت به فصبيبها الرحضاء

فإرسال السحاب المطر ثابت لا يظهر له علة في العادة، وادعى تعليله باحتمامها من حسد ممدوحه وغيظها من القصور عنه حتى عرقت وانصب عرقها وهو الرحضاء.

وكقول أبي هلال العسكري:

زعم البنفسج أنه كعذاره حسنا فسلُّوا من قفاه لسانه

فخروج ورقة من البنفسج إلى خلفه ثابت لا تظهر له علة، وادعى أن علته الافتراء. والثاني كقول أبي الطيب:

ما به قتل أعاديه ولكن يتقي أخلاف ما ترجو الذئاب

فالقتل ثابت وعلته عداوة المقتول وإزالة ضرره؛ فادعى له علة غير تلك وهي اتقاؤه وتحاشيه من أخلاف ما رجته الذئاب عند رؤية خروجه بالجيش من حصول ما اعتادته من الشبع على أثر قفوله من غزواته.

وكقول ابن المعتز فيمن أصابه الرمد:

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من كثرة القتل نالها الوصب
حمرتها من دماء ما قتلت والدم في النصل شاهد عجب

وكقول بعضهم:

أتتني تؤنبني في البكا فأهلًا بها وبتأنيبها
تقول وفي قولها حشمة أتبكي بعين تراني بها
فقلت إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبها

والثالث كقول مسلم بن الوليد:

يا واشيًا حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنساني من الغرق

فحسن إساءة الواشي غير ثابت فأثبته وعلله.

والرابع كقول الخطيب القزويني ترجمة لشعر فارسي:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

التعطف

هو أن يأتي بلفظ في صدر البيت ثم يأتي في العجز به أو شيء من مشتقاته كقول أبي الطيب:

فساق إلى العرف غير مكدر وسقت إليه المدح غير مذمم

ومما أنشد الأصمعي للرشيد وقد سأله التذكير:

فلا تعجل على أحد بظلم فإن الظلم مرتعه وخيم
ولا تفحش وإن ملئت غيظًا على أحد فإن الفحش لوم

ولا تقطع أخًا لك عند ذنب   فإن الذنب يغفره الكريم

ولا تجزع لريب الدهر واصبر   فإن الصبر في الدنيا سليم

الاستتباع

وسمَّاه بعض: التعليق، وبعض: المضاعفة، وبعض: التوجيه، وهو عبارة عن أن يتضمن الكلام في أوله نوعًا من المدح أو غيره وفي آخره نوعًا آخر منه كقول أبي الطيب:

نهبت من الأعمار ما لم حويته   لهنئت الدنيا بأنك خالد

فأول الكلام يتضمن مدحه بنهاية الشجاعة وعلو الهمة، وآخره يتضمن مدحه بأن ذلك ليس عدوانًا وظلمًا إنما هو لإصلاح الأرض وإزالة الفساد وتحصيل الفرح العام حتى أن أهل الدنيا يهنئون بتخليده، وكقول ابن هانئ في الذم:

إن لفظًا تلوكه لشبيه   بك في منظر الجفاء الجليف

التمكين

هو جعل قافية البيت أو قرينة السجع في مكانها الذي يقال عند سماعها أنه لها وهو السبب الأكبر في حسن الكلام ومتانته، فليس أشد على مهرة الشعراء من سماع القوافي القلقة.

والطريق التي يسلكها الشاعر أو الناثر لأجل التمكين هي أن يستحضر أولًا الألفاظ التي يريد أن يجعلها نهايات، ثم يأخذ في إحضار المعاني اللائقة بمعناها واختيار العبارات المناسبة لها، فمتى تهيأ له ذلك

تم له التمكين وأشبه كلامه بعضه بعضًا وكان آخره مفهومًا من أوله كقول علي بن الرقاع العاملي من قصيدته التي أولها:

عــرف الـــديار توهمًـــا فاعتادهـــا ... فـــــي صـــــفة غزالـــــة
ترجــى أغــنُّ كـــان إبـــرة روقــه ... قلـم أصـاب مـن الـدواة مـدادها

وأكثر أشعار من اشتهرت أشعارهم بالجودة على ذلك.

تأكيد المدح بما يشبه الذم

ويقال: المدح في معرض الذم هو عبارة عن ذكر صفة مدح ثم الاستثناء منها صفة مدح أخرى بحيث يوهم أنه يريد الاستدراك بإثبات صفة ذم كقوله تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قيلا سلاما سلاما﴾، وقوله - صلى الله عليه وسلم - « أنا أفصح العرب بيد أني من قريش »، ومن الشعر قول النابغة الذبياني:

ولا عيـب فـيهم غيـر أن سـيوفهم ... بهـنَّ فلـول مـن قـراع الكتائـب

وقول النابغة الجعدي:

فتـى تـم فيـه مـا يـسر صـديقه ... علـى أن فيـه مـا يـسوء الأعاديـا
فتـى كملـت أخلاقـه غيـر أنـه ... جـواد فـلا يبقـى مـن المـال باقيـا

الإيضاح

هو أن يأتي بمبهم مفردًا أو جملة ثم يوضحه ويبينه كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾، وقوله: ﴿إن

الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا﴾، ومن الشعر كقول أوس:

الألمعي الذي يظن بك الظن كان قد رأي وقد سمعا

وقول أبي الطيب:

وكم لظلام الليل عندي من يد تخبر أن المانوية تكذب

وقاك أذى الأعداء تسري إليهم وزارك فيه ذو الدلال المحجب

المانوية: نسبة إلى ماني وهو إمام مذهب الزنادقة الذين يقولون بإلهين: هما النور وهو إله الخير، والظلمة وهو إله الشر.

التوهيم

هو أن يأتي المتكلم بكلمة عقب لفظ يوهم غيرها لفظًا أو إعرابًا أو معنى كقوله تعالى: ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء﴾ فلفظ ﴿أشاء﴾ جيء بها بعد ﴿عذابي أصيب به﴾، فالكلام يوهم أنها أساء من الإساءة.

وكقولهم: ﴿إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾ الكلام يوهم ثم لا ينصروا بالجزم عطفًا. والغرض ابتداء الأخبار.

وكقوله: ﴿الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان﴾ المراد بالنجم الزرع. وبعض أمثلة التوهيم تشبه التورية غير أن أحد المعنيين في التوهيم يكون فاسدًا لا يصلح أن يراد كقول الصفي الحلي:

وساق من بني الأتراك طفل أتيه به على جمع الرفاق

أملّكه قيادي وهو رقي وأفديه بعيني هو ساقي

الألغاز

عدُّوا هذا النوع من البديع، وجعله فنًا مستقلًا أليق؛ لأنه عبارة عن مؤلفات يسلك فيها طرق في العبارات حتى يعسر فيهم المراد منها.

وقد خص بالتأليف لبيان تلك الطرق ثم لأهل النباهة بعد قوة على اختراع طرق في الألغاز غير ما ذكر، ومنه ما تستعمله العامة من الحوازير، ومن أمثلته قول يحيى بن أكثم في العين:

وباسطة بلا نصب جناحًا وتسبق ما يطير ولا تطير
إذا ألقمتها الحجر اطمأنت وتجزع أن يباشرها الحرير

وقول آخر في الضرس:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فمذ وقعت عيني عليه تفارقنا إلى الأبد

ولآخر في قصب السكر:

وذي هيف كالغصن قدًّا إذا بدا يفوق القنا حسنًا بغير سنان
وأعجب ما فيه يرى الناس أكله مباحًا قبيل العصر في رمضان

الإرداف

هو بعض أنواع الكناية المبينة في علم البيان.

الاتساع

هو أن يأتي المتكلم أثناء كلامه بما يحتمل أن يفسر بكثير من المعاني لصلاحه لكل منها، ومثلوا له بقوله تعالى: ﴿والشفع والوتر﴾ فقد أمكن تفسيرها بثلاثة وعشرين معنى جعلت أقوالًا للعلماء.

(الأول): قال أبو مسلم: الزوج والفرد وهو تذكير بالحساب لعظم نفعه وما يضبط به من المقادير وهو قول الحسن البصري.

(الثاني) قال ابن زيد والجبائي: جميع الخلق لكونها زوجًا أو فردًا.

(الثالث): الشفع: الخلق لكونه أزواجًا كالسماء والأرض والليل والنهار والبرد والبحر والإنس والجن والكفر والإيمان، والوتر: الله وهو مروي من حديث أبي سعيد الخدري. (الرابع): صفات الخلق لكونها قدرة وعجزًا وحياة وموتًا وعلمًا وجهلًا إلى غير ذلك، والوتر صفات الله.

(الخامس): الصلاة وهو مروي من حديث عمران ابن حصين.

(السادس): الشفع يوم النحر، والوتر يوم عرفة أي شفع الليالي العشر ووترها. (السابع): يوم التروية ويوم عرفة وهو مروي عن جعفر الصادق وأبيه محمد الباقر. (الثامن): شفع العشر الأخيرة من رمضان ووترها.

(التاسع): الليالي والأيام ويوم القيامة.

(العاشر): الشفع والوتر لليالي العشر التي أتم الله بها ميقات موسى.

(الحادي عشر): الصفا والمروة والكعبة.

(الثاني عشر): يوما منى أو ثلاثتها، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه.

(الثالث عشر): آدم وحواء والله تعالى.

(الرابع عشر): آدم وحواء وآدم قبل حواء.

(الخامس عشر): صلاة المغرب ركعتان وركعة.

(السادس عشر): درجات الجنة ثمان، ودركات النار سبعة.

(السابع عشر): هما الله تعالى ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ الآية. (الثامن عشر): مسجد لمكة والمدينة والأقصى.

(التاسع عشر): قران الحج والتمتع والأفراد.

(العشرون): الفرائض والسنن.

(الحادي والعشرون): الأعمال والنية.

(الثاني والعشرون): العبادة المتكررة من صوم وصلاة وغيرها وغير المتكررة كالحج. (الثالث والعشرون): الروح والجسد والروح وحده.

هذا ومن الشعر كقول الحماسي:

بيض مفارقنا تغلى مراجلنا نأسوا بأموالنا آثار أيدينا

فالاتساع في قوله: بيض مفارقنا، فقيل: أراد بذلك الطهارة والعفاف كقولهم: أبيض العرض والشيم والحسب. وقيل: أراد أنهم كهول ومشايخ

قد حنكتهم التجارب وليسوا بالأغمار. وقيل: أراد أنهم ليسوا بعبيد؛ لأن فرق الإنسان إذا كان أبيض كان جميع جسده أبيض. وقيل: أراد انحسار الشعر عن مقدم رؤوسهم لمداومتهم لبس البيض والمغافر. وقيل: معناه نحن أصحاب حروب فقد شابت مفارقنا من كثرة الشدائد. وقيل: معناه نحن كرام نكثر استعمال الطيب فابيضت مفارقنا لذلك؛ ويقال: من أكثر استعمال الطيب أسرع الشيب إليه. وقيل معناه: نحن مكشوفوا الرؤوس لا عيب فينا فعبر عن النقاء بالبياض، والعرب تقول في مدح الرجل أبيض. وقيل معناه: نحن كرام فشابت مفارقنا دون القفا؛ لأن شيب الكرام يبدو في المفارق كما قيل:

فشيب لئام الناس في نقرة القفا ... وشيب كرام الناس يعلو المفارقا

وقيل: المفارق هنا الطرق يقول: قد ابيضت مفارق الطرق التي تؤدي إلى رحالنا لكثرة ما يأتينا من العفاة، فهي بيض لائحة لم تعف لكثرة سالكيها وهذا الوجه أولى لمشاكلته ما بعده وهو قوله: تغلي مراجلنا والمراجل: القدور الكبار من نحاس.

ذكر ذلك أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب في شرح كتاب الحماسة، وقال الصنعاني في كتاب (الجملة والذيل والصلة):" قد قيل في البيت المذكور مائتا قول وقد أفرد لتفسيره كتاب، وأقرب الأقوال لما هو المتبادر من لفظ المفارق أنه كناية عن الشرف والسؤدد، فمعنى الكلام: نحن قوم أشراف نعمر مجالسنا للمؤانسة والمحادثة والمنادمة، وهذه الخدم مترددة حولنا في أعمالهم لا نباشر عملًا ولا نتردد في مهنة، فنحن نظاف ليس على مفارقنا غبار كما هو شأن من يباشر أعمال الخدمة والمتكفل بإفادة ذلك قوله تغلي مراجلنا".

جمع المؤتلف والمختلف

هو أن يستوي بين شخصين في المدح وهو يريد أن يفضل أحدهما، فيسلك لذلك سبيلًا لا ينقص فيه الآخر كقول الخنساء تفضل أخاها على أبيها وقد تسابقا:

جاري أباه فأقبلا وهما يتعاوران ملاءة الحضر

فهما كأنهما وقد برزا صقران قد حطا إلى وكر

حتى إذا نزت القلوب وقد لزت هناك العذر بالعذر

وعلا هتاف الناس أيهما قال المصيب هناك لا أدري

برزت صفيحة وجه والده ومضى على غلوائه يجري

أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكبر

الإيداع

ويقال التضمين: هو أن يضمن الشاعر كلامه مصراعًا أو أكثر من كلام غيره، وربما خص اسمًا لتضمين المصراع.

وهو لأغراض منها دلالة الشاعر على أنه يعارض قصيدة المضمن كقول النواجي في آخر قصيدته التي يتابع فيها قصيدة كعب - رضي الله عنه -:

إن لم أفز بقبول في متابعتي بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

ولبعض أعيان العصر سامي القدر والشعر من قصيدة يعارض بها لامية الطغرائي المشهورة بلامية العجم:

أنـي امـرؤ حلـب الأيـام أشـطرها وشـد فحـل الهـوى فـي أوثـق العقـل
مـا زلـت أبغـي الـصبا حتـى إذا أصـالة الـرأي صـانتني عـن الخطـل
فـإن يكـن مـر لـي عـصر أطعـت بـه حكـم التَّـصابي فـأني اليـوم ذو جـدل

ومنهـا: الانتقـاد علـى صـاحب المـضمن بأنـه وضـع الكـلام فـي غيـر موضعه.

ومنها: الزيادة في المضمن. ومنها: ثقله إلى غير معناه كما يتبين ذلك في أمثلته المتأخرين تضمينًا وقد أتى فيه بالعجيب الغريب مجير الدين بن تميم ولذلك يقول:

أطـالع كـل ديـوان أراه ولـم أزجـر عـن التـضمين طيـري
أضـمن كـل معنـى مـستجاد فـشعري نـصفه مـن شـعر غيـري

فمن تضمينه قوله:

لـو كنـت فـي الحمـام والحنـا علـي أعطافـه ولجـسمه لألاء
لرأيـت مـا يـسبيك منـه بقامـة سـال النـضار بهـا وقـام المـاء

وقوله تضمينًا لهذا الشطر أيضًا:

لـو كنـت شـاهدنا وقـد جليـت لنـا فـي كأسـها ولـضوئها لألاء
لرأيت أحسن ما يرى من أكـؤس سـال النـضار بهـا وقـام المـاء

وهذا الشطر وهو

* سال النضار بها وقام الماء *

من قول المتنبي في مدح علي ابن هارون وكان أقام في بلد أيام الشتاء وقد جمد الماء بالثلج وبيت الشطر:

وكذا الكريم إذا أقام ببلدة سال النضار بها وقام الماء

فأنت ترى أن قوله: وقام الماء لا يدخل في جزاء الشرط وتصحيحه أن تجعل الجملة حالًا، ويكون المعنى أن الممدوح يكثر إنفاقه وإحسانه حال اشتداد البرد ويكون كقول العربي:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآداب فينا ينتقر

وكذلك يخصون الشتاء بظهور جود الجواد لكونه الوقت الذي يعوق المسكين عن الضرب في البلاد في ابتغاء فضل الله تعالى.

وقد أجاد مجير الدين في تضمينه، وله في تضمين قول المتنبي أيضًا في بيت يتخلص منه إلى المدح:

لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبد الله بعرانا

ومعشر عذلوا لما ركبت علي أحوي محاسنه قبحن فعلهم

دع يعذلوا ما استطاعوا إنني رجل لو استطعت ركبت الناس كلهم

ومن ظريف التضمين ما حكاه القاضي شمس الدين بن خلكان في تاريخه: أن الحيص بيص الشاعر خرج ليلة من دار الوزير شرف الدين بن طراد الزينبي فنبح عليه جروٌ وكان متقلدًا سيفًا فوكزه بعقب السيف فمات، فبلغ ذلك أبا القاسم هبة الله بن المفضل المعروف بابن القطان الشاعر فنظم أبياتًا وضمنها بيتين لبعض العرب قتل أخوه ابنًا له فقدم إليه ليقتاد منه فألقى السيف وأنشدهم.

والبيتان المذكوران يوجدان في الباب الأول من (كتاب الحماسة)، ثم أن ابن المفضل المذكور جعل الأبيات في ورقة وعلقها في عنق كلبة لها جراء ورتب معها من يطردها وأولادها إلى باب الوزير المذكور كالمستغيثة فأخذت الورقة من عنقها وعرضت على الوزير فإذا فيها:

يا أهل بغداد إن الحيص بيص أتى بفعلة ألبسته الخزي في البلد
أبدى شجاعته بالليل مجترأ على جرو ضعيف البطش والجلد
وليس في يده مال يديه به ولم يكن بيواء عنه في القود
فأنشدت جعدة من بعدما احتسبت دم الأبيلق عند الواحد الصمد
أقول للنفس تأساء وتعزية إحدى يدي إصابتي ولم ترد
كلاهما خلف من بعد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

وللشيخ عز الدين الموصلي:

نادمت قومًا لأخلاق لهم ولا ميل إلى طرب ولا سمار
يستيقظون إلى نهيق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار

البيت الثاني لبعض العرب يهجو قومًا بالجبن وأنهم لا يقدرون على أخذ ناراتهم وهي الأوتار ونقلها الشيخ إلى أوتار العيدان

الالتزام ويقال: (لزوم ما لا يلزم)

وهو أن يلتزم الشاعر أو الناثر قبل حرف الانتهاء حرفًا أو أكثر كقول الطغرائي في مطلع اللامية:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل

وكقول عمر بن أبي ربيعة:

بالله قولي له في غير معتبة ماذا أردت بطول المكث في اليمن
إن كنت حاولت دنيا أو رضيت بها فما أفدت بترك الحج من ثمن

ولعمرو بن أحمد الباهلي:

ومن يطلب المعروف من غير أهله يجد مطلب المعروف غير يسير
إذا أنت لم تجعل لعرضك جُنَّةً من الذم سار الذم كل مسير

وللحسن بن علي الواسطي:

يراني الهوى بَرْيَ المدى وأذابني صدودك حتى صرت أنحل من أمس
فلست أرى حتى أراك وإنما يبين هباء الذرِّ في أفق الشمس

ولأبي العلاء ديوان شعر كله من هذا النوع، وإنما يحسن الالتزام إذا حسن معه الكلام وإلا استحق صاحبه ما قال الأبيوردي:

شعر المراغي وحوشيتم كعقله أسلمه أسقم
يلزم ما ليس له لازمًا لكنه يترك ما يلزم

المزاوجة

وهو أن يرتب فعلًا واحدًا مختلف المتعلق على شرط وجزائه كقول البحتري:

إذا ما نهى الناهي فلجَّ بي الهوى أصاخت إلى الواشي فلجَّ بها الهجر

وقوله:

إذا احتربت يومًا ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

التجريد

هو أن تجرد من شيء آخر للمبالغة في المعنى كقول القائل:

ترى منهم الأسد الغضاب إذا سطوا   وتنظر منهم في اللقاء بدورا

ويكون بمن كهذا، وبالباء مثل: أنك لتلقى بفلان البحر، وبفي كقوله تعالى: ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ وبغير ذلك كقول الأعشى:

يا خير من يركب المطي ولا   يشرب كأسًا بكف من بخلا

كأنه قال هو يشرب بكف كريم.

ومن التجريد ما في خطاب المرء نفسه كقول أبي الطيب:

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

إيهام التوكيد

هو تكرير لفظ لتأسيس المعاني فيوهم التوكيد كقوله تعالى ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال﴾، ومن الشعر كقول علي بن أحمد المروزي:

لقد حل بي عجب عاجب   تقاصر وصفي عن كنهه

رأيت الهلال على وجه من   رأيت الهلال على وجهه

وكقول آخر:

قالت لترب معها منكرة   لوقفتي هذا الذي نراه مَنْ

قالت فتى يشكو الهوى متيم   قالت بمن قالت بمن قالت بمن

الترصيع

هو أن يجعل الشاعر أو الناثر جميع ألفاظ الشطرين أو الفقرتين على نهاية واحدة سوى لفظة الضرب في الشعر، كقول الحريري في (المقامة الأولى) يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه، ولرشيد الدين العمري المشهور بالوطواط قصائد من هذا النوع منها قوله:

جناب ضياء الدين للبر مرتع ... وباب ضياء الدين للحر مربع

وسيرته الزهراء للحق معلم ... وسدته الشماء للخلق مجمع

فجدد منه للمراشد أرسم ... وشيد منه للمحامد أربع

وعلياه فيها للخواطر مسرح ... ولقياه فيها للنواظر مرتع

فمنهل من يروي ثناءك مفعم ... ومنزل من ينوي جفاءك بلقع

وصولك للأشرار متو ومتلف ... وطولك للأخيار مَزو ومشبع

وجاء منه في الكتاب العزيز مثل قوله تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم﴾ وقوله: ﴿إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم﴾.

الحذف

هو التزام إخلاء الكلام من حرف أو أكثر ومن نوع كالمعجم، فيكون الكلام من الحروف المهملة أو المهمل فيكون من المعجمة، وللحريري في (المقامات) من هذين النوعين كلام طويل.

ومن المروى: أنه اجتمع ناس من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فيهم علي - كرم الله وجهه - فتذاكروا أكثر الحروف دورانًا،

فقيل: الألف فخطبهم - رضي الله عنهم - خطبة أخلاها منها وتسمى (المونقة) وهي هذه:

« حمدت من عظمت منته، وسبغت نعمته، وسبقت رحمته، وتمت كلمته، ونفذت مشيئته، وبلغت حجته، وعدلت قضيته.

حمدته حمد مقر بربوبيته، منخضع لعبوديته، متنصل من خطيئته، معترف بتوحيده، مؤمل من ربه مغفرة تنجيه، يوم يشغل عن فصيلته وبنيه، ونستعينه ونسترشده ونؤمن به ونتوكل عليه.

وشهدت له بضمير مخلص موقن، وفردته تفريد مؤمن متقن، ووحدته توحيد عبد مذعن، ليس له شريك في ملكه، ولم يكن له ولي في صنعه، جلَّ عن مشير ووزير، وتنزه عن مثل ونظير، علم فستر وبطن فخبر، وملك فقهر، وعصى فغفر، وحكم فعدل، لم يزل ولن يزول وليس كمثله شيء، وهو قبل كل شيء وبعد كل شيء، رب متفرد بعزته، متمكن بقوته، متقدس بعلوه، متكبر بسموه، ليس يدركه بصر، ولم يحط به نظر، قوي منيع، بصير سميع، علي حكيم، رؤوف رحيم، عجز في وصفه من يصفه، وضل في نعته من يعرفه، قرب فبعد، وبعد فقرب، يجيب دعوة من يدعوه، ويرزق عبده ويحبوه، ذو لطف خفي، وبطش قوي، ورحمة موسعة، وعقوبة موجعة، رحمته جنة عريضة مونقة، وعقوبته جحيم مؤصدة موبقة.

وشهدت ببعث محمد عبده ورسوله، وصفيه وحبيبه وخليله، بعثه في خير عصر، وفي حين فترة وكفر، رحمة لعبيده، ومنة لمريده، ختم به نبوته، وقوي به حجته، فوعظ ونصح، وبلغ وكدح، رؤوف بكل مؤمن،

ولي سخي زكي رضي، عليه رحمة وتسليم، وبركة وتكريم من رب غفور رحيم، قريب مجيب.

وصيتكم معشر من حضرني بتقوى ربكم، وذكرتكم بسنة نبيكم، فعليكم برهبة تسكن قلوبكم، وخشية تذري دموعكم، وتقية تنجيكم قبل يوم يذلكم ويبليكم، يوم يفوز فيه من ثقل وزن حسنته، وخف وزن سيئته.

ولتكن مسئلتكم مسألة ذل وخضوع، وشكر وخشوع، بنوبة ونزوع، وندم ورجوع، وليغتنم كل مغتنم منك صحته قبل سقمه، وشبيبته قبل هرمه، وسعته قبل عدمه، وخلوته قبل شغله، وحضره قبل سفره، قبل هو يكبر ويهرم، ويمرض ويسقم، ويمله طبيبه، ويعرض عنه حبيبه، ويتغير عقله وينقطع عمره.

ثم قيل هو موعوك، وجسمه منهوك، ثم جد في نزع شديد، وحضره كل قريب وبعيد، فشخص ببصره وطمح بنظره، ورشح جبينه وجذبت نفسه، ونكبت عرسه وحفر رمسه، ويتم ولده، وتفرق عنه عدده، وقسم جمعه، وذهب بصره وسمعه، وغمض ومدد ووجه، وجرد وغسل ونشف، وسجي وبسط له وهيئ، ونشر عليه كفنه، وشد منه ذقنه، وقمص وعمم، ولف وسلم، وحمل فوق سرير، وصلى عليه بتكبير، ونقل من دور مزخرفه، وقصور مشيده، وحجر منجده.

فجعل في ضريح ملحود، ولحد ضيق مرصوص بلبن منضود، يسقف بجلمود، وهيل حفره، وحثى عليه مدره، فتحقق حذره، ونسي خبره، ورجع عنه وليه ونسيبه، وتبدل به قريبه وحبيبه، وصفيه ونديمه، فهو حشو قبر ورهين قفر، يسعى في جسمه دود قبره، ويسيل صديد من منخره،

ويسق بدنه ولحمه، وينشف دمه ويرم عظمه، حتى يوم حشره فينشر من قبره حتى ينفخ في صور ويدعى لحشور ونشور، فثم بعثرت قبور، وحصلت سريرة صدور، وجيء بكل نبي وصديق، وشهيد منطيق، وتوحد لفصل عند رب قدير، بعبيده خبير بصير، فكم من زفرة تفنيه، وحسرة تنضيه، في موقف مهول عظيم،، ومشهد جليل جسيم بين يدي ملك كريم، بكل صغير وكبيرة عليم، حينئذ يلجمه عرقه، ويحفزه قلقه، عبرته غير مرحومة، وصرخته غير مسموعة، وحجته غير مقبولة، ونول صحيفته، وتبين جريرته، ونطق كل عضو منه بسوء عمله، فشهدت عينه بنظره، ويده ببطشه، ورجله بخطوه، وجلده بمسه، وفرجه بلمسه، ويهدده منكر ونكير، وكشف عنه بصير، فسلسل جيده، وغلت يده، وسيق يسحب وحده فورد جهنم بكرب شديد، وظل يعذب في جحيم، وسقي شربة من حميم تشوي وجهه، وتسلخ جلده، يضربه زبانيته بمقمع من حديد، يعود جلده بعد نضجه بجلد جديد، يستغيث فعرض عنه خزنة جهنم، ويستصرخ فيلبث حقبة يندم، نعوذ برب قدير من شر كل مصير، ونسئله عفو من رضي عنه، ومغفرة من قبل منه، فهو ولي مسئلتي، ومنجح طلبتي، فمن زحزح عن تعذيب ربه سكن في جنته بقربه، وخلد في قصور مشيده، ومكن من حور عين وحفده، وطيف عليه بكؤوس، وسكن حظيرة فردوس، وتقلب في نعيم، وسقي من تسنيم، وشرب من عين سلسبيل، ممزوجة بزنجبيل، مختومة بمسك وعبير، مستديم للحبور، مستشعر للسرور، يشرب من خمور في روض مشرق مغدق، ليس يصدع من شربه وليس ينزف.

هذه مثوبة من خشي ربه، وحذّر نفسه، وتلك عقوبة من جحد منشيه، وسولت له نفسه معصية مبدية.

ذلك قول فصل، وحكم عدل، خير قصص قص، ووعظ نص، تنزيل من حكيم حميد، نزل به روح قدس مبين، على قلب نبي مهتد مكين، صلت عليه رسل سفره، مكرمون برره، عدت برب رحيم، من شر كل رجيم، فليتضرع متضرعكم، وليبتهل مبتهلكم، فاستغفر رب كل مربوب لي ولكم انتهت ». وفي سلوك هذه الطرق دلالة على سعة الحفظ وقوة الاستحضار، وأكثر الكلام الطويل جاء من المهمل لسعته، ولبعضهم تفسير على القرآن كله مهمل.

التسميط

هو نوعان: الأول: أن يجعل البيت على ثلاثة أجزاء من روي واحد ثم القافية كقول جنوب الهزلية:

وحرب وردت وثغر سددت ... وعلج شددت عليه الحبالا

ومال حويت وخيل حميت ... وضيف قربت يخاف الوكالا

والثاني: هو التخميس المعروف كقول امرئ القيس:

ومستلئم كشف بالرمح ذيله ... أقمت بغضب ذي شقائق ميله

فجعت به في ملتقى الكر خيله ... تركت عتاق الطير تحجل حوله

كأن على سرباله نضح جريال

وعلى هذا المثال حذا من يعمد إلى الأبيات أو القصيدة فيضيف لها ثلاثة أشطار ليكون شعرًا مخمسًا، ومن حيث أنه يلزم فيه أن يكون الكلام متلائمًا جديد المعاني منسجمًا مع الأصل كان الإحسان فيه قليلًا.

يحكى أن بعض الشعراء المجيدين خطر على باله وهو في الروضة الشريفة بين القبر والمنبر أن يخمس همزية أبي سعيد الأبوصيري فأسعفه الله بالفاتحة وهي قوله:

بـــابن عمـــران شـــرفت ســـيناء وبـــإدريس والمـــسيح الـــسماء

ولـــك العـــرش مـــوطن ووطـــاء كيـــف ترقـــى رقيـــك الأنبيـــاء

يـــا ســـماء مـــا طاولتهـــا ســـماء

ثم أخذته سنة فرأى النبي - صلى الله عليه وسلم- يقول: له حسبك فإنه ما كان يقدر أن يستمر على هذا النمط.

التجزئة

هي أن يجزأ البيت أجزاء عروضية مسجوعة برويين مختلفين أحدهما يوافق القافية والآخر يخالفها كقول القائل:

هنديـــــة لحظاتهـــــا خطيـــــة خطراتهـــــا داريـــــة نفحاتهـــــا

سلامة الاختراع

هو عبارة عن أن يبدع الشاعر أمرًا شعريا لم يسبقه أحد إليه، وموضع ذلك الطبقات المتأخرة عن الطبقات الأول التي آخرها طبقة بشار.

وتحصيل سلامة الاختراع لا يصل إلى اليقين إلا بعد معرفة كل ما قيل، وإن كان المعنى مخترعًا بحسب عدم اطلاع صاحبه عليه فلا يعد سارقًا ولكن لا يقال: أنه مخترع بل توارد خاطره وخاطر سابقه.

فمن المذكور شاهدا لسلامة الاختراع من كلام المتأخرين قول ابن الرومي من أهل القرن الثالث:

تـــوددت حتـــى لـــم أدع متـــوددًا وأفنيـــت أقلامـــي عتابًـــا مـــرددا

كـــأني أســـتدني بـــك ابـــن حنيـــة إذا النـــزع ادنـــاه مـــن الـــصدر أبعـــدا

وكقول أبي الطيب من أهل القرن الرابع في مدح كافور الأخشيدي وكان أسود:

فجـــاءت بنـــا إنـــسان عـــين زمانـــه وخلـــت بياضًـــا خلفهـــا ومآقيـــا

وقوله:

صـــدمتهم بخمـــيس أنـــت غرتـــه وســـمهريته فـــي وجهـــه غمـــم

فكـــان أثبـــت مـــا فـــيهم جـــسومهم يـــسقطن حولـــك والأرواح تنهـــزم

أول البيتين من قول الحماسي:

فلـــو أنـــا شـــهدنا كـــم نـــصرنا بـــذي لجـــب أزب مـــن العـــوالي

الأزب من الإبل: كثير شعر الوجه، وعبر مكانه المتنبي بالغمم.

ولأبي العلاء:

والـنجم تستـصغر الأبـصار طلعتـه والذنب للعين لا للنجم في الصغر

ولابن القيسراني:

هـو الـذي سـلب العـشاق نـومهم أمـا تـرى عينـه مـلآى مـن الوسـن

المخترع له حسن التعليل وإلا فالوسن في الأعين من المعاني الأول من لطيفه في كلام العرب:

وكأنهـــا بـــين النـــساه أعارهـــا عينيــه أحــور مــن جــآذر جــائم
وســنان أقــصده النعــاس فرنقــت فـــي عينـــه ســـنة ولـــيس بنـــائم

ائتلاف اللفظ مع المعنى

هــو أن تكــون الألفــاظ موافقــة للمعــاني فتختــار الألفــاظ الجزلــة، والعبارات الشديدة لمعاني الفخر والحماس والكلمات الرقيقة، والعبارات اللينة للغزل والنسيب وصفة الكأس والساقي والنديم والمغني ومجلس الشراب، كما قيل: لكل مقام مقال.

ويرشدك لذلك ما حكى أن خلادًا قال لبشار بن برد: أنك لتجيء بالشيء المتفاوت. قال: وما ذاك. قلت: بينما تقول شعرًا تثير به النقع وتخلع به القلوب مثل قولك:

إذا مـــا غـــضبنا غـــضبة مُـــضَرِيَّة هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا مـــا أعرنـــا ســـيدًا مـــن قبيلـــة ذرا منبـــر صـــلى علينـــا وســـلما

إلى أن تقول:

ربابـــــة ربـــــة البيـــــت تـــصب الخـــل فـــي الزيـــت
لهـــــا عـــــشر دجاجـــــات وديـــــك حـــــسن الـــــصوت

فقال: لكل شيء وجه وموضع، فالقول الأول جيد. وهذا قلته في جاريتي ربابة وأنا لا آكل البيض من السوق فربابة هذه لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع لي البيض وتحفظها فهذا من قولي عندها أحسن من * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *.

ومن كتاب (الوساطة) للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني قوله في وصية الشاعر والكاتب، فهو يعلمك مواقع أنواع الكلام، لا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحدًا، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على مراتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك، ولا هزلت بمنزلة جدك، ولا تعريضك مثل تصريحك، بل ترتب كلا مرتبته وتوفيه حقه، فتتلطف إذا تغزلت، وتفخم إذا افتخرت، وتتصرف للمديح تصرف مواقعه، فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللياقة والظرف، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والندام، ولكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به وطريق لا يشاركه الآخر فيه، وليس ما رسمته لك في هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة ولا يختص بالنظم دون النثر، بل يجب أن تكون كتابتك في الفتح أو الوعيد وخلاف كتابتك في الشوق أو التهنئة، وخطابك إذا حذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنيت انتهى.

وإذا تأملت الكتاب العزيز في تصرف العبارات للوعد والوعيد، وخطاب الحضري والأعراب، والتذكير ونص الأحكام إلى غير ذلك من الأنواع مر بك ذلك في المحجة البيضاء.

وأن ائتلاف اللفظ مع المعنى هو أعظم أركان البلاغة، ومن جهته ينحط شأن البليغ أو يرتفع.

ائتلاف اللفظ مع الوزن

هو أن يكون الكلام المنظوم بمنزلة الكلام المنثور بحيث لا يضطر الوزن الشاعر إلى تقديم وتأخير يبعد فهم المعنى ولا إلى مخالفة لغة أو إعراب كما وقع للفرزدق في قوله:

وما مثله في الناس إلا مملّكا   أبو أمه حي أبوه يقاربه

وكقول المتنبي:

أنى يكون أبا البرايا آدم   وأبوك والثقلان أنت محمد

أي وأبوك محمد والثقلان أنت، وكقول الكميت:

لا كعبد المليك أو كوليد   أو سليمان بعد أو كهشام

أي عبد الملك.

فالخلاصة أن لا يحيل الشاعر على ضرورة الشعر، فإذا لزم عليه ذلك لضعفه وجب أن يترك حتى يقوى ليستريح ويريح.

ائتلاف الوزن مع المعنى

أراد البديعيون أن يسلم الشعر من القلب الكائن في مثل قول القطامي:

* كما طينت بالفدن السياعا *

وقد سبق القول في القلب في فن المعاني.

ائتلاف اللفظ مع اللفظ

هو عبارة عن كون ألفاظ العبارة من واد واحد في الغرابة والتأهل كقوله تعالى: ﴿تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا﴾ لما أتى بالتاء التي هي أغرب حروف القسم أتى معها بتفتأ الذي هو أغرب أفعال الاستمرار وجاورهما بقوله ﴿حرضًا﴾، وكذلك و﴿تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ مكان والله لأكسرن أصنامكم بعد أن تذهبوا.

الموازنة

هو أن يجعل أجزاء البيت العروضية كقول امرئ القيس:

أفـاد فـساد وقـاد فـزاد وسـاد فجـاد وعـاد فأفـضل

وقول ابن هانئ:

وعـوانس وقـوانس وفـوارس وكـوانس وأوانـس وقنابـل

السجع

هو تقفية الكلام المنثور على نهايات متماثلة قيل، ولا يقال في القرآن سجع بل يقال فواصل، وأحسن السجع ما كانت ألفاظه على ترتيب معانيه بحيث لا يظهر لأجله تكلف بتقديم وتأخير، وما قصرت فيه القرائن أحسن مما طالت فيه، وكذلك تساوى القرائن أحسن من طول الثانية عن الأولى، وعكسه غير حسن.

قيل للصاحب ابن عباد: ما أحسن السجع؟ قال: ما خف على السمع. قيل: مثل ماذا: قال: مثل هذا.

ولنورد لك بعض فصول من كلام رؤساء الصناعة لتكون لك مثالًا تتمكن به من معرفة محاسن السجع. كتب الصاحب بن عباد إلى القاضي أبي بشر الفضل بن محمد الجرجاني، وقد بلغه أنه وافد عليه وأرسل بها مع غلام بريدي ليعود إليه بتعيين يوم وصوله:

تحدثت الركاب بسير أروى ... إلى بلد حططت به خيامي

فكدت أطير من شوق إليها ... بقادمة كقادمة الحمام

أفحق ما قيل من أمر القادم أم ظن كأماني الحالم، لا والله بل هو درك العيان، وأنه ونيل المنى سيان، فمرحبًا براحلتك ورحلك، وأهلًا بك وبجميع أهلك، ويا سرعة ما فاح نسيم مسراك، ووجدنا ريح يوسف من رياك، فحث المطى تزول علتي بلقياك، وتبرد غلتي بسقياك، ونص على يوم الوصول نجعله عيدًا مشرفًا، ونتخذه موسمًا ومعرفًا، ورد الغلام أسرع من رجع الكلام، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر، وإن يترك الصبا في عقال أسر، والسلام.

وكتب مهنئًا بمولودة: أهلًا وسهلًا بعقيلة النساء، وكريمة الآباء وأم الأبناء، وجالبة الأصهار والمبشرة بأخوة يتناسقون ونجباء يتلاحقون:

فلو كان النساء كمثل هذي ... لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ... ولا التذكير فخر للهلال

فادّرع اغتباطًا وتهنَّ نشاطًا، فالدنيا مؤنثة ومنها خلقت البرية وفيها كثرت الذرية، والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب،

والنفس مؤنثة وبها قوام الأبدان وملاك الحيوان، والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون وفيها ينعم المرسلون، فهنيئًا مريئًا ما أوليت، وأوزعك الله شكر ما أعصيت.

ولبديع الزمان الهمذاني:

" انظر إلى الكلام وقائله فإن كان وليًا فهو الولاء وإن خشن، وإن كان عدوًا فهو البلاء وإن حسن، ألا ترى إلى العرب تقول قاتله الله ولا يريدون الذم، ولا أباله في الأمر إذا تم.

(وله) فائدة الاعتقاد أفضل في الانتقاد، والسماح يكسر الرماح، والصفح يفل الصفاح، والجود انصر من الجنود، وكشف الضر عن الحر أجمل من كشف الصدف عن الدر، ومن عرف بالمنح قصد بالمدح، وخير الأخوان من ليس بخوان، وده ميمون، وغيبه مأمون، فهو يحالفك ولا يخالفك، ويرافقك ولا يفارقك، ويوافقك ولا ينافقك، إذا حضرت حنا عليك، وإذا غبت حن إليك.

(وله) ما أشبه وعد الشيخ في الخلاف إلا بشجر الخلاف. خضر في العين ولا ثمرة في البين. فما ينفع الوعد ولا إنجاز من بعد، ومثل الوعد مثل الرعد ليس له خطر إن لم يتله مطر.

(وله) كتابي من هراة ولا هراة فقد طحنتها المحن كما يطحن الدقيق، وقلبتها كما يقلب الرقيق، وبلعتها كما يبلغ الريق، وقد خدمت الشيخ سنين، والله لا يضيع أجر المحسنين، ونادمته والمنادمة رضاع ثان، ومالحته والممالحة نسب ذان، وسافرت والسفر والأخوة رضيعا لبان، وقمت ببين يديه والقيام والصلاة شريكا عنان، وأثنيت عليه والثناء من الله

بمكان، وأخلصت له والإخلاص محمود بكل لسان، يشير بقوله والثناء من الله بمكان إلى ما ورد لا شيء أحب إليه المدح من الله .

(وله) للشيخ من الصدور ما ليس للفؤاد، ومن القلوب ما ليس للأولاد، كأنما اشتق من جميع الأكباد، وولد بجميع البلاد، سواء الحاضر فيه والباد، فكل أفعاله غرة في ناصية الأيام، وزهرة في جنح الظلام، إلا أن ما أحبه لفلان روض أنا وسميه، وغصن أنا قمريه، وعود جمره لساني وجود شكره ضماني.

(وله) المرء جزوع لكنه حمول، والإنسان في النوائب شموس ثم ذلول، ولقد عشت بعد الشيخ ليكن عيشة الحوت في البر، وبقيت لكن بقاء الثلج في الحر.

(وله) كتابي إلى البحر وأن لم أره، فقد سمعت خبره والليث وإن لم ألقه، فقد تصورت خلقه، والملك وإن لم أكن لقيته فقد لقيني صيته، ومن رأى من السيف أثره فقد رأى أكثره، وهذه الحضرة وإن احتاج إليها المأمون، ولم يستغن عنها قارون، فإن الأحب إلى أن أقصدها قصد موال لا قصد سؤال، والرجوع عنها بجمال أحب إلي من الرجوع عنها بمال، قدمت التعريف وأنا أنتظر الجواب الشريف.

(وله) حضرته التي هي كعبة المحتاج إن لم تكن كعبة الحاج، ومشعر الكرام إن لم تكن المشعر الحرام، ومني الضيف إن لم تكن مني الخيف، وقبلة الصلات إن لم تكن قبلة الصلات.

(وله) حرس الله هذه الدنانير، ورزقنا منها الكثير، أنها لتفعل ما لا تفعل التوراة والإنجيل، وتغني ما لا يغني التنزيل والتأويل، وتصلح ما لا

يصلح جبريل ومكائيل. (وله) هذا الذي تاه علينا بحسن قدّضه، وزها علينا بورد خده، قد نسخ الدهر آية حسنه، وأقام مائل غصنه، وانتصر لنا منه بشعرات كسف هلاله، وأكسفت باله ومسخت جماله وغيرت حاله.

فمن لك بالعين التي كنت مرة إليك بها في سالف الدهر انظر

أيام كنت تتلفت، والأكباد تتفتت، فاقصر الآن عما صار وكان فإنه سوق كسد، ومتاع فسد، ودولة أعرضت، وأيام انقضت، ويوم صار أمس، وحسرة بقيت في النفس، فحتام تدل وإلى مه، وكم تحتمل وعلى مه؟.

ولأبي بكر محمد بن أحمد اليوسفي: الشوق الذي أقاسي، والذي مر براسي يهد الجبال الرواسي، من نواكب أوهت المناكب، وعوارض شيبت العوارض، ومحن عظام أثرت في العظام، وللأيام دول متعاقبة، وللصبر الجميل أحمد عاقبة.

وللقاضي أبي أحمد منصور بن محمد الهروي وكتب إلى صديق إهداء وردة:

وصلت الوردة الفردة، لازال ذكره كرياها عرفًا، ودهره كفصلها ظرفًا، وحال أوليائه كأغصانها خضره، ووجوه أعدائه كلونها صفرة، فسرت القلب، وسرت الكرب وأدت الإرب، وأهدت الطرب، ودعت إلى الرسم المألوف، وأمرت بالمنكر المعروف، وافتنا والليل قد حط رواقه، وحل نطاقه، والصبح قد بسط رداءه، ورفع لواءه، والندى طل، والنسيم مبتل، والمزن منسجم، وثغر الصبح مبتسم، ونحن نبوح بما في الصدور، ونطير بأجنحة السرور، فوضعت الوردة على الرؤوس، وأديرت مع الكؤوس،

ونطقت الأوتار، وصدحت الأطيار، ولكل ذي فطنة فتنة، ولكل ذي توبة أوبه، وعند كل لفتة حيرة، ومع كل دورة سكره.

وله يهنئ من عادت له الوزارة: الشمس في رأد الضحى، والبدر في جنح الدجى، والماء في حر الصدى، والغيث جاد على الثرى، والمزن تضحك في الربى، والورد جمشه الندى. والصبح تقدم الصبا، والعيش في زمن الصبى، والقرب صب على النوى، والقلب رق مع الهوى، والطرف غازله الكرى، والصفو باعده القذى، والحلي في ثغر الدمى، ومنازل لك بالحمى، وعهود سعدي باللوى، والدهر بسعف بالمنى، والبرء في عقب الضنى، والفقر يطويه الغنى، والبشر يتبعه الندى، والنشر من بعد البلا، والود في أثر القلا، والمحل يطرده الحيا، والعتب يمحوه الرضا، والكف تسمح باللهى، ومذاكرات ذوي النهى، والرأي يعضده الحجا، والجد ساعد واعتلى، والحظ أدرك ما رجا بها وبما لها من الأمثال سارت سوائر الأمثال فيما يوافق النفوس والطباع، ويؤنس الأبصار والأسماع، وأحسن من كل هذا التمثيل أيام الشيخ الجليل وقد أتاه اسم لم يزل معناه:

فيا حسن الزمان وقد تحلى ... بهذا الفخر والإقبال صدره
وكان الدهر يغدر بعد هذا ... فحل وفاؤه وانحل غدره
تصدر للوزارة مستحق ... تساوى قدرها أبدًا وقدره
فقال في النصل وافقه نصاب ... وقل في الأفق أشرق فيه بدره

والحمد لله الذي زان الشجر بالثمر، وحلى البرج بالقمر، وآنس العرين بالأسد، وأهدى الروح إلى الجسد، ولم أنس أدام الله علو مولانا رسم التصدير، وما يجب مراعاته على الصغير والكبير، ولكن التهنئة المرسومة يتهاداها الأكفاء، ويتعاطاها النظراء، فأما الخدم مع الصدور،

والنجوم التاليات مع الأهلة والبدور، فالعادة ثم أن تعذرت الإرادة ولم تساعد السعادة، فالدعاء موصولًا منشورًا، والثناء منظومًا منثورًا، وعلى هذه الجملة عملت، وإلى هذا الجانب عدلت، فأصدرت كلمة نتجها الود الصريح، ونسجها الولاء الصحيح:

فجاءت تؤدّي وجوه الرياض أضاحكها العارض الهامع
وليس لها غير عين الرضا لديك ذمام ولا شافع

وللفاضل عبد الرحيم في صفة القلم: وقد أثمر هذا القلم أكرم الثمر وهو يابس، وأبر جودًا على أخضر المغارس، وأتى أكله كل حين ووقت، وطال وإن كان القصير فقصر عنه كل نعت.

وعلى ذكر القلم قد عنَّ لي أن أورد هنا رسالة القلم لخاتمة المحققين (جلال الدين الدواني) لما اشتملت عليه من المعاني الغريبة، التي هي بمنزلة الرياض الخصيبة، تريك نتائج الأفكار، وتحلو عليك عرائس الأسجاع في أرق شعار، رحم الله من أنشأها، وهدى بها من قرأها، وهي:

نون والقلم وما يسطرون، إن هذه تذكرة لقوم يعقلون، يا من فاق في البراعة سألتني عن وصف اليراعة، فاستمع لما يتلى عليك، ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا﴾ أنه فتى من أصحاب الكهف والرقيم نشر له ربه من رحمته وهيأ له مرفقًا، ووقع له بخط مستقيم نبي بعث من سرة البطحاء، وأيد بفصاحة أبكت مصاقع البلغاء، كليم خص بالطور والكتاب

المسطور، والرق المنشور، سفير بليغ نذير، قد جاء بالبينات والزبر والكتاب المنير، قد بلغ من ذروة الشرف منتهاه، ومن سنام المعالي أعلاه، ينمى في شجرة النسب إلى أول ما خلق الله ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين﴾.

يقول: إذا برز من بطن النون وشرع في الزبور ﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ إلف يقارن نونًا، وإلف يؤلف درًا مكنونًا، إذا شددت به أنّ، وإن لنت به اطمأنّ، عالم من أهل الكتاب علا كعبه في الأحبار، مر على سائر الكتب السماوية من الصحف والأسفار، ذو القرنين يسير المغرب والمشرق في أقصر ساعة، استولى على الأقاليم كلها ومدّ فيها باعه، فصيح جزل الكلام، لكن لا ينفك كلامه عن الأبهام، وإشراقي في طريق التعلم والتعليم، لكنه من المشائين بنميم، منتصب القامة بادي البشرة أسود الرأس، ناطق فصبح ماش على قدميه لكن ليس من الناس، أرى قدمه أراق دمه، ولسانه مهد عدمه، كف نفسه عن الراحة، وزاحم بالركب أهل الفصاحة، حتى صار يضرب به المثل بين الأمائل، ويذعن لنظمه ونثره الأفاضل، ذو اللسانين وذو البيانين، قد هدي النجدين، واقتحم العقبتين، وجمع بين العلم والعين، مهندس ينقش الخطوط على السطوح للتعاليم، منجم يصلح الزيجات والتقاويم، ينقص بالأصابع ظل الإقدام، ويرقم على الرخامات دقائق لليالي والأيام، لا يأبى السلاطين ما رسمه، ولا تتجاوز الأساطين عما رقمه، أعجم يعرف اللغات كلها، أدهم قد طوى المقامات جلها، يقول حين يبرز في نادي البيان:(عند الامتحان يكرم المرء أو يهان)، صوفي قطع المنازل وبلغ

الغايات، ورجع القهقري لتصحيح البدايات، أن لم يقطع لسانه لم يفصح بيانه، وإن لم يشق رأسه لم ينطق لسانه، عربي واسطي أصله، هندي زنجي نسله، طوطي أسود المنقار، كأن منقاره من قار، ذو ذؤابة يعلم من مسيره طول حلول الآجال، ويفهم من ظهوره انتقال الدولة وتداول الأقيال وتحول الأحوال، أحرز قصبات السبق في مضمار البيان، حتى صار بحيث تشير إليه المهرة في ذلك الفن بالبنان، كأنه عصى موسى وقد ألقيت فإذا هي حية تسعى، أبو قلمون يتقلب في الأطوار، ويتحول من شعار إلى شعار، طورًا أتراه ينظم القوافي والأشعار، وتارة تلقاه ينثر لآلئ الحكم والأسرار، ساعة تبصره أنيس الإعلام ذوي البراعة، وكرة تصادفه سمير أهل المجون والخلاعة، سحار يأتي بالغرائب، مكار يرى الناظرين العجائب، كاتب شهيد، وحاسب عتيد، تجرع مرارة مذاق الكد، حتى تضلع من فنون العلوم وتحمل الصبر على استنشاق دخان السراج، حتى برع ببين الفضلاء ذوي الفهوم، لا يزال رطب اللسان في شكر باريه، عذب البيان بذكر أياديه، محدث تحدث عنه الآثار، وتنقل عنه الأخبار في الأقطار، بازي يمتطي أيدي الصناديد، لا يطير من أيديهم ويصيد، له إشارة مبهمة، وعبارة مفهمه، انقطع عن عترته لنيل طلبته، حتى بلغ مبلغ الرجال ونال من الشرف ما نال، فحق أن ينشد فيه قول من قال:

ورث النجابة كابرًا عن كابر كالرمح أنبوبًا على أنبوب

حكيم تنطوي إشاراته على تلويحات إلى قانون الشفاء، وتحتوي تعليقاته على تنبيهات المناهج النجاة عن درك الجهل والشقاء، له مواقف يحقق فيها مقاصد الكلام، وعوارف معارف يكشف بها عن وجوه الفرائد اللثام، يقرض ذات الشمال وهو من أهل اليمين، ويصدق في أكثر الأقوال ولكنه قد يمين، لا تنتظم مصالح الأنام إلا بحسن مساعيه، ولا تنضبط

حوادث الأيام الا بيمن مراعيه، أجوف وهو مصدر المثال، مهموز سالم من الاعتلال، لفيف مفروق من أخوانه، خفيف ناقص من أوزانه، أصل واحد تصدر عنه الأمثلة لمعان مقصودة لا تحصل إلا به، نصل شاهد لا ينصاب غرض المطالب إلا بنابه، نموم يسعى في هتك الأستار، غشوم تعود كشف الأسرار، تقي لا يزال مولعًا بافتضاض أبكار بنات الأفكار، خضر خاض الظلمات، حتى ارتوى من ماء الحيات، مستوف قد أحاط بأبواب حواصل الأقاليم جمعًا وخرجًا، وزير قد نظم غوامض أمور الممالك هرجًا ومرجًا: مشير ذوي النهي في النوائب ومؤانسهم (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم) رشيق القد أسيل الخد أليف الكد طويل المدّ، قد جاوزت شمائله حد العد ألف ممدود لا يمنع الصرف، مالك مرتاض لكنه يعبد الباري على حرف، تعمم بشعار آل العباس، وأقام أمر النجدة والباس، فقال يا أيها الناس:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

أجوف لا يحفظ السر في قلبه، لا فرق في لغة العجم بين اسمه وقلبه، له أسماء في لغة العرب تقاليبها كلها مستعملة، وذلك من خصاله التي قلما يتفق فيها شريك له، آلة تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ والنسيان، ينوب عن اللسان في البيان، وعن السنان المحدد بالسنان إذا رقى البنان، فهو ملك لكنه يستكتب، فإذا أدّى نجوم الكتابة خلى سبيله أين يذهب، نسخ محقق توقيعاته على الرقاع أدراج الياقوت، قد أقرّ بريحان قامته عيون ابن مقلة وياقوت، شكله اسطواني وهو مخروط، شاب مترعرع لكنه مخطوط، يحبه الناس ويراودونه، لكن إذا ظهر الشعر على عذاره طووا الكشح دونه، مسافر يسفر عن أخبار المشارق والمغارب، عارف محيط بجميع الأذواق والمشارب، لسانه نضناض، وبيانه فضفاض، وحكمه

ماض في السواد والبياض، يقضي فيهما ما هو قاض، جارية تجري في البحر بإذن الباري، فتأتي بدرر معان كأنها غرر الدراري، ولقد أحسن من قال فيه ملغزًا، ولبعض أوصافه الغريبة مبرزًا:

وما غلام راكع ساجد أخو نحول دمعه جار
ملازم الخمس لأوقاتها معتكف في خدمة الباري

كأنه وهو في يد السلطان ابن السلطان أبي المظفر يعقوب خان قصب السكر وقد نبت على ساحل عمان، عم الورى نائله، وآوى السائلين ساحله، كلا أن نوال البحر إلى فيض كفه نزر، ليس له قدر كيف لأوله مدًّا يعقبه جزر:

فلن أشبهه بالبحر إن له مدًّا يعاقبه جزر بإرجاء

أو هو والحالة هذه خط تخيل في نواظر الأوهام، من قطرة نازلة من غمام، وأي غمام يدر بدر نواله على عواطف الأنام، من الخواص والعوام، وتغمر منحه الجسام، رياض آمال الأفاضل الأعلام، بكل مقام، أين جود الغمام من جوده العميم، أم أين مدراره من مدرار كرمه الجسيم:

ما نوال الغمام وقت ربيع كنوال الأمير وقت سخاء
فنوال الأمير بدرة مال ونوال الغمام قطرة ماء

اللهم خلد نفاذ أرقام أقلامه، على صفحات الأقاليم ما دام القلم الأعلى، ونفذ مراد أعوان دولته بامتداد زمان صولته ما دامت نقوش الأنقاش في صحائف القراطيس تتلى، ومآثر السلاطين الكبار على صفحات الأوراق تروى، بحق من نسخ الكتب السالفة، ولم يركب بنانه قلم، وهدى الحائرين إلى أقوم لقم، بعد ما وقب غواسق الظلم انتهت.

السهولة

هذا النوع ربما تخيل الاستغناء عنه بالانسجام وبينهما بعد، فالانسجام عبارة عن سلاسة اللفظ بحيث لا يتعثر اللسان عند النطق به، سواء كان غريبًا أو أهليا وكان معناه خفيًا أو جليًا.

وأما السهولة فهي عبارة عن كون الألفاظ أهلية أو قريبة منها، جلية المعاني سهلة المتناول على الخاصة والعامة تطمع المفحم في أن يحاكيها وتقعد بالماهر وقد أخذه الطرب عن أن يعاني أن يضاهيها، وإذا كانت في كلام فهو المعنى باسم السهل الممتنع فمن أمثلته قول عربي:

ألـيس وعـدتني يـا قلـب إنـي ... إذا مـا تبـت علـى ليلـى تتـوب
فهـا أنـا تائـب عـن حـب ليلـى ... فمـا لـك كلمـا ذكـرت تـذوب

وللحكم بن عمرو الشاري:

ويلي على من أطار النوم وامتنعا ... وزاد قلبـي علـى أوجاعـه وجعـا
كأنما الشمس من أعطافه لمعت ... حسنًا أو البدر من أزراره طلعا
مستقبل بالذي تهوى وإن كثرت ... منه الذنوب ومعذور بما صنعا
في وجهه شافع يمحو إساءته ... من القلوب وجيه حيثما شفعا

ومن بدائه أبي الفتح ابن الأستاذ ابن العميد وقد جرى في مجلس أبيه إنشاد أبيات استحسنوا وزنها وطرزها أولها:

لـئن كففـت وإلا ... شـققت منـك ثيـابي

وأبو الفتح مصغ إليهم وهو في حداثة سنه قوله:

يـا مولهـا بعـذابي ... أمـا رحمـت شـبابي

تركت قلبي جريحًا ... نهب الأسى والتصابي
إن كنت تنكر ما بي ... من لوعتي واكتئابي
فارفع قليلًا قليلًا ... عن العظام ثيابي

ولأبي الفرج المعروف بالوأواء الدمشقي:

بالله ربكما عوجًا على سكني ... وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرِّضا بي وقولا في حديثكما ... ما بال عبدك بالهجران تتلفه
فإن بدا لكما من سيدي غضب ... فغالطاه وقولا ليس تعرفه
وإن تبسم قولًا في ملاطفة ... ما ضر لو بوصال منك تسعفه

ولمؤيد الدولة أسامة بن مرشد:

شكا ألم الفراق الناس قبلي ... وروَّع بالنوى حي وميت
وأما مثل ما ضمت ضلوعي ... فإني ما سمعت ولا رأيت

وهذا النوع يتفق للشعراء اتفاقًا ولا يكون شعر شاعر كله على هذا النمط خلا الصاحب بهاء الدين زهير المصري؛ فإنه قد انقاد له هذا النوع انقياد في سائر شعره كأنك عند استماعه في محادثة إنسان ظريف من لطفاء المصريين، وهو وإن كان ديوانه مشهورًا في الأيدي لا أحب أن أخلي الكتاب من تحليته ببعض فرائده فمن نسيم شعره قوله:

ومدام من رضاب ... بحباب من ثنايا
كان ما كان ومنه ... بعد في النفس باقيا

ومنه:

إن أمري لعجيب ... ما يرى أعجب منه

كـــل أرض لـــــي فيهـــا غائـــــب أســـأل عنـــه

ومنه:

شـــوقي إليـــك شـــديد كمـــا علمـــت وأزيـــد
وكيـــف تنكـــر شـــيئًا بـــه ضـــميرك يـــشهد

ومنه:

أوحـــشتني والله يـــا مـــالكي قطعـــت يـــومي كلـــه لـــم أرك
هـــذا جفـــاء منـــك مـــا اعتدتـــه فليتنـــي أعـــرف مـــن غيـــرك

ومنه:

ســـيدي قلبـــي عنـــدك ســـيدي أوحـــشت عبـــدك
أتـــرى تـــذكر عهـــدي مثـــل مـــا أذكـــر عهـــدك
أتـــرى تحفـــظ ودي مثـــل مـــا أحفـــظ ودك
قـــم بنـــا إن شـــئت عنـــدي مـــسرعًا أو شـــئت عنـــدك
أنـــا فـــي داري وحـــدي فتفـــضل أنـــت وحـــدك

ومنه:

هـــذا كتـــاب محـــب قـــد زاد فيـــك غرامـــه
أضـــناه فـــرط اشـــتياق فـــرق حتـــى كلامـــه
أمـــا تـــرى كيـــف أضـــحى مثـــل النـــسيم ســـلامه

ومنه:

كلمنـــي والمـــدام فـــي فمـــه قـــد نفحـــت مـــن حبـــاب مبـــسمه

وماس كالغصن في تمايله سكران يشتط في تحكمه
بالله يا برق هل تحدثه عن نار وجدي وعن تضرمه
وهل نسيم سرى يبلغه رسالة من فمي إلى فمه
عجبت من بخله عليّ وما يذكره الناس من تكرمه
هم علموه فصار يهجرني رب خذ الحق من معلمه

ومنه:

كتبت إليك أشكو في كتابي أمورًا من فراقك اشتكيها
وفي سوق الهوان عرضت نفسي رخيصًا لم أجد من يشتريها
فهل وعد إلى سنة فإن لم يكن فيها يكن فيما يليها
وقد أنهيت من شوقي فصولًا لمولانا علو الرأي فيها

ومنه:

ملكتموني رخيصًا فانحط قدري لديكم
فأغلق الله بابًا دخلت منه إليكم
حتى ولا كيف أنتم ولا السلام عليكم

ومنه:

أنا أدري بأنني قل قسمي لديكم
فإلى كم تطلعي والتفاتي إليكم
كان ما كان بيننا وسلام عليكم

ومنه:

أما تقرر أنا فلم تأخرت عنا

وما الذي كان حتى حللت ما قد عقدنا
ولم يكن لك عذر ولو يكون علمنا
فلا تلمنا فإنا قلنا وقلنا وقلنا

ومنه:

قال ما ترجع عني قلت لا قال ما تطلب مني قلت شيء
فانثني يحمرّ مني خجلًا وثناه التيه عني لا إلى
كدت بين الناس إن ألثمه آه لو أفعل ما كان عليّ

ومنه:

قالوا كبرت عن الصبا وقطعت تلك الناحية
فدع الصبا لرجاله واخلع ثياب العارية
ونعم كبرت وإنما تلك الشمائل باقية
ويميلني نحو الصبا قلب رقيق الحاشية
فيه من الطرب القديـ ـم بقية في الزاوية

ومنه:

من لي بقلب اشتريه من القلوب القاسية
وإليك يا ملك الملاح وقفت أشكو حاليه
أني لا طلب حاجته ليست عليك بخافية
أنعم علي بقبلة هبة وإلا عارية
وأعيدها لك لأعدمت بعينها وكما هيه
وإذا أردت زيادة خذها ونفسي راضية

ومنه:

إن شكا القلب هجركم مهّد الحب عذركم
لو أمرتم بما عسى ما تعديت أمركم
قصروا عمر ذا الجفا طوّل الله عمركم
شرفوني بزورة شرف الله قدركم
كنت أرجو بأنكم شهركم لي ودهركم
قد نسيتم وإنما أنا لم أنس ذكركم
لو رأيتم محلكم من فؤادي لسركم
لو وصلتم محبكم ما الذي كان ضركم

ومنه:

تعيش أنت وتبقى أنا الذي مت عشقا
حاشاك يا نور عيني تلقى الذي أنا ألقى
ولم أجد بين موتي وبين هجرك فرقا
يا أنعم الناس بالًا إلى متى فيك أشقى
سمعت عنك حديثًا يا رب لا كان صدقا
وما عهدتك إلا من أكرم الناس خلقا
لك الحياة فإني أموت لاشك حقا
يا ألف مولاي مهلًا يا ألف مولاي رفقا
قد كان ما كان مني والله خير وأبقى

الإدماج

هو أن يكون آخذًا في معنى فيهتف منه بمعنى آخر من غير إشعار بالقصد إليه، كقول أبي الطيب في استطالة الليل:

أقلب فيه أجفاني كأني أعذبها على الدهر الذنوبا

فقد أدمج فيه الشكوى من الدهر، وكقول الصاحب ابن عباد من إدماج الفخر في مدح ابن العميد بهذه القصيدة النفيسة:

من لقلب يهيم في كل وادي وقتيل للحب من غير وادي
إنما أذكر الغواني والمقصد سعدي مكثرًا للسواد
وإذا ما صدّقت فهي مرامي ومرادي وروضتي ومرادي
وندى ابن العميد أني عميد من هواها ألية الأمجاد
لو دري الدهر أنه من بنيه لازدري قدر سائر الأولاد
ورأى الناس كيف يهتز للجود لما عدّدوه في الأطواد
أيها الآملون خطوا سريعًا برفيع العماد وارى الزناد
فهو أن جاد ذم حاتم طي وهو أن قال قل قس إياد
وغذا ما ارتائى فأين زياد من دهاه وأين آل زياد
أقبل العبد يستعير حلاه من علاه العزيزة الأنداد
سيضحى فيه بمن لا يواليه ويبقى بقية الأعياد
ومديحي أن لم يكن طال أبياتًا فقد طال في مجال الجياد
أن خبر المداح من مدحته شعراء البلاد في كل ناد

ألمَّ في هذا البيت الأخير وفيه الشاهد بقول يزيد بن محمد المهلبي:

إن أكن مهديًا لك الشعر إنني لابن بيت تهدي له الأشعار

حسن البيان

هو كون العبارة وافية بمقصودها دون استعانة بتأويل وإرادة مجردة عن كل ما ليس له دخل في خلاصة المقصود.

ويكفيك شاهدًا لذلك قول عرابة الأوسي، وقد قال له معاوية - رضي الله عنه - بم استحقيت قول الشماخ فيك:

رأيت عرابة الأوسي يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

وبم سدت قومك؟ قال: والله ما أنا بأكرمهم حسبًا ولا بأفضلهم نسبًا، ولكن أعرض عن جاهلهم، واسمح لسائلهم، فمن عمل مثل عملى فهو مثلي، ومن زاد فهو أفضل مني، ومن قصر فإني أفضل منه، وقول بعض العرب من الشعر:

وإني من القوم الذين هم هم إذا مات منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كما انقض كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجذع ثاقبة
وما زال منهم حيث كانوا مسوَّد تسير المنايا حيث سارت ركائبه

العقد والحل

الأول نظم المنثور، والثاني نثر المنظوم فالأول كقوله:

إن القلوب لأجناد مجندة بالإذن من ربها تهوى وتأتلف

فمـا تعـارف منهـا فهـو مؤتلـف　　　ومـا تنـاكر منهـا فهـو مختلـف

عقد قوله -صلى الله عليه وسلم - :« الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »، ومنه تعرف انه لا يلزم الإتيان بجميع ألفاظ المعقود وكقول أبي الطيب:

الظلم من شيم النفوس فإن تجد　　　ذاعفـة فلعلـة لا يظلـم

عقد فيه قول حكيم: "الظلم من طباع النفوس، وإنما يصدها عنه إحدى علتين: دينية وهي خوف المعاد، أو سياسية وهي خوف القتل"، وكقول أبي تمام في التعزية:

أتـصبر للبلـوى عـزاء وحـسبة　　　فتـؤجر أم تـسلو سُـلُو البهـائم

عقد قول على - رضي الله عنه - للأشعث: « إن تصبر صبر الأحرار، وإلا سلوت سلو البهائم ».

والثاني كقول بعض المغاربة: " فلما قبحت فعلاته، وحنظلت نخلاته، لم يمزل سوء الظن يقتاده، ويصدق توهمه الذي يعتاده، حل فيه قول أبي الطيب:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه　　　وصـدق مـا يعتـاده مـن تـوهم

التشطير

هو أن يسجع كلًّا من شطرى البيت بسجعتين تخالف الأوليان الثانيتين كقول أبي تمام:

تـدبير معتـصم بـالله منـتقم　　　لله مرتغـب فـي الله مرتقـب

براعة المطلب

هو أحد المواضع الأربعة التي سلف أنه ينبغي للتكلم الاعتناء بها والاجتهاد في تحسينها؛ وذلك بأن يكون الطلب خاليًا من الضراعة إلا في الطلب من الله - جل وعلا - ومن الإلحاح وأحسن ما استشهد به لهذا النوع قول أبي الطيب:

إذا سأل الإنسان أيامه الغنى وكنت على بعد جعلتك موعدا

وقيدت نفسي في هوالك محبة ومن وجد الإحسان قيدًا تقيدا

وقوله:

وكل امرئ يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

ولا أرى مثل قوله:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي كلام عندها وخطاب

وما هو أصرح من ذلك أولى أن لا يكون من براعة الطلب وإن أوردوه من شواهده؛ حيث كان ينبغي أن يكون الطلب تلميحًا وإشارة لا تصريحًا وعبارة، فحسب الطالب أن يجزل الثناء على من يقصده، ثم يصف نفسه بالصبر وأنفة الشكوى واحتمال الأيام، وأنه قد وصل إلى موئل منها وحمى من حوادثها، وأمثال ذلك من المعاني مختارًا له العبارات.

براعة الانتهاء ويقال حسن الختام

وهو عبارة عن كون آخر الكلام نظمًا كان أو نثرًا متميز الحسن رائع الجودة مشعرًا بالانتهاء يحسن السكوت عليه، فإنه آخر ما يصل إلى السمع ويبلغ النفس ويتعلق به الحفظ كقول أبي الطيب:

إذا بقيت سالمًا أبا علي فالملك لله العلي ثم لي

وتأمل في ذلك خواتم السور الشريفة تجدها منه في أرفع رتبة وأكمل صفة.

فنا العروض والقافية

العروض: هو فن معرفة الموازين التي كانت شعراء العرب تزن بها أشعارها، فإن الشعر كما عرفت: كلام موزون مقفى.

وتلك الموازين بشهادة الاستقراء ستة عشر، وسمَّاها ناقلوها بحورًا لكل واحد اسم يخصه.

الأول: (الطويل) وأجزاؤه ثمانية: فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن.

الثاني: (المديد) وأجزاؤه ستة: فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن.

الثالث: (البسيط) وأجزاؤه ثمانية: مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن.

الرابع: (الكامل) وأجزاؤه ستة: متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن. الخامس: (الوافر) وأجزاؤه ستة: مفاعلتن مفاعلتن فعولن مفاعلتن مفاعلتن فعولن. السادس: (الرجز) وأجزاؤه ستة: مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن.

السابع: (الهزج) وأجزاؤه: مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن.

الثامن: (الرمل) وأجزاؤه: فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن.

التاسع: (السريع) وأجزاؤه: مستفعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن مستفعلن فاعلن. العاشر: (المنسرح) وأجزاؤه: مستفعلن مفعولات - دون تنوين- مستفعلن مفعولات مستفعلن.

الحادي عشر: (الخفيف) وأجزاؤه: فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن. الثاني عشر: (المضارع) وأجزاؤه: مفاعيل - دون تنوين- فاع لاتن مفاعيل فاع لاتن.

الثالث عشر: (المقتضب) وأجزاؤه: فاعلات - دون تنوين- مفتعلن فاعلات مفتعلن.

الرابع عشر: (المجتث) وأجزاؤه: مستفع لن فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن.

الخامس عشر: (المتقارب) وأجزاؤه: فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن. السادس عشر: (المتدارك) وأجزاءه: فاعلن فاعلن

فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن. هذا والجزء الأخير من الشطر الأول يسمى (عروضًا) ومن الثاني يسمى (ضربًا) ويسمى الشطر (مصراعًا).

ولهذه الأجزاء تجزئة إلى مجموعات من أحرف لكل مجموع اسم، فالمجموع من متحرك وساكن يسمى (سببًا خفيفًا)، ومن متحركين يسمى (سببًا ثقيلًا)، ومن متحركين بعدهما ساكن يسمى (وتدًا مجموعًا)، ومن متحركين بينهما ساكن يسمى (وتدًا مفروقًا).

وهذه الأجزاء يدخلها تغييرات تنقسم إلى نوعين: نوع يسمى (زحافًا)، ونوع يسمى (علة)، والزحاف: مفرد ومزدوج.

فالمفرد منه ثمانية: (الخبن) وهو حذف ثاني الجزء ساكنًا. (والأضمار): إسكانة متحركًا. (والوقص): حذفه متحركًا. (والطي): حذف رابعه ساكنًا. (والقبض): حذف خامسه ساكنًا. (والعصب): إسكانه. (والعقل): حذفه متحركًا. (والكف): حذف سابعه ساكنًا.

والمزدوج أربعة: الطي مع الخبن خبل، وهو مع الإضمار خزل، والكف مع الخبن شكل، وهو مع العصب نقص.

والعلل زيادة فزيادة سبب خفيف على ما آخره وتد مجموع (ترفيل)، وحرف ساكن على ما آخره وتد مجموع (تذييل)، وعلى ما آخره سبب خفيف (تسبيغ ونقص)، فذهاب سبب خفيف (حذف)، وهو مع العصب (قطف)، وحذف ساكن الوتد المجموع وإسكان ما قبله (قطع)، وهو مع الحذف (بتر)، وحذف ساكن السبب وإسكان متحركه (قصر)، وحذف وتد مجموع (حذذ ومفروق صلم)، وإسكان السابع المتحرك (وقف)، وحذفه (كسف).

والعلة: إذا أريدت لزمت في جميع الأبيات، ومحلها: العروض، والضرب، والزحاف لا يلزم ومحله ثواني الأسباب.

تفصيل القول في الأوزان
الطويل

لم تستعمل العرب عروضه إلا مقبوضة، فوجب اتباعهم إذا لم يكن تصريع فقد استعملوها تامة كقول امرئ القيس:

ألا عمَّ صباحًا أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر

وقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان وربع عفت آياته منذ أزمان

واستعملوا ضربه على ثلاثة أوجه صحيحًا ومقبوضًا فيصير مفاعلن، ومحذوفًا فيصير فعولن، فالأول كقوله:

إذا المرء لم يحزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزاني

وتقطيعه:

إزال مر وتد وسبب ألم يح زن وتد وسببان على وتد وسبب- حذف ثانية فالجزء مقبوض لسانه وتد وسببان حذف ثاني أولهما فالجزء مقبوض وهو العروض وسبق لزوم قبضها فلي س على شيء إن سواه بخززاني والثاني كقوله:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل

والثالث كقوله:

لعمـرك مـا حـسن الوجـوه بنـافع إذا كانـت الأعـراض غيـر حـسان
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى فمـا كـل مـصقول الحديـد يمـاني

المديد

له ثلاث أعاريض وستة أضرب الأولى صحيحة وضربها مثلها وبيته:

يـا لبكـر أنـشر ولـي كليبًـا يـا لبكـر أيـن أيـن الفـرار

الثانية محذوفة وأضربها ثلاثة الأوَّل مقصور وبيته:

لا يغـرن امـرءًا عيـشه كـل عـيش صـائر للـزوال

الثاني أبتر وبيته:

إنمـا الـذلفاء ياقوتـة أخرجـت مـن كـيس دهقـان

الثالث محذوفة مخبونة ولها ضربان الأول مثلها وبيته:

للفتـى عقـل يعـيش بـه حيـث تهـدي سـاقه قدمـه

والثاني أبتر وبيته:

رب نـار بـت أرمقهـا تقـضم الهنـدي والغـارا

البسيط

له ثلاث أعاريض وستة أضرب الأولى مخبونة، ولها ضربان الأول مثلها وبيته:

يـا حـار لا أرمـين مـنكم بداهيـة لـم يلقهـا سـوقة قبلـي ولا ملـك

الثاني مقطوع وبيته:

قد أشهد الغارة الشعواء تحملني جرداء معروفة اللحيين سرحوب

الثانية مجزوءة صحيحة أي سالمة من تغير لا يكون في الحشو، وأضربها ثلاثة. الأول مجزوء مذال وقولهم مجزوءة، ومجزوء من تسمية الجزء باسم الكل فإن المجزوء اسم للبيت الذي حذف منه عروضه وضربه وبيته:

أنا ذممنا على ما خيلت سعد بن زيد وعمرو من تميم

الثاني مثلها وبيته:

ماذا وقوفي على ربع عفي مخلولق دارس مستعجم

الثالث مجزوء مقطوع وبيته:

سيروا معًا إنما ميعادكم يوم الثلاثاء بطن الوادي

الثالثة مجزوءة مقطوعة وضربها مثلها وبيته:

ما هيج الشوق من أطلال أضحت قفارًا كوحي الواحي

ويسمى حينئذ مخلعًا ومكبولًا، وقد أكثر المولدون من استعماله ملتزمين خبن عروضه وضربه لخفته إذن كقول بعضهم:

يا غصنا في الرياض مالا عليه بدر السما تلالا

يا رائحًا بعد ما سباتي حسبك رب السما تعالى

الوافر

له عروضان وثلاثة أضرب الأولى مقطوعة وضربها مثلها وبيته:

لنـــاغنم نـــسوقها غـــزار كـــأن قـــرون جلتهـــا العـــصي

الثانية مجزوءة صحيحة ولها ضربان الأول مثلها وبيته:

لقـــد علمـــت ربيعـــة أن ن حبلـــك واهـــن خلـــق

الثاني مجزوء معصوب وبيته:

أعاتبهـــا وأمرهـــا فتغـــضبني وتعـــصيني

الكامل

له ثلاث أعاريض وتسعة أضرب الأولى تامة، وأضربها ثلاثة الأول مثلها وبيته:

وإذا حصوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي

الثاني مقطوع وبيته:

وإذا دعونـــك عمهـــن فإنـــه نـــسب يزيـــدك عنـــدهن خبـــالا

الثالث أخذ مضمر وبيته:

لمـــن الـــديار بـــرامتين فعاقـــل درســـت وغبّـــر أيهـــا القطـــر

الثانية حذاء ولها ضربان الأول مثلها وبيته:

دمـــن عفـــت ومحـــا معالمهـــا هطـــل أجـــش وبـــارح تـــرب

الثاني أخذ مضمر وبيته:

ولأنـــت أشـــجع مـــن أســـامة إذ دعيـــت نـــزال ولـــج فـــي الـــذعر

الثالثة مجزوءة صحيحة وأضربها أربعة الأول مجزوء مرفل وبيته:

ولقـــــد ســـــبقتهمو إلـــــي ى فلـــم نزعـــت وأنـــت آخـــر

الثاني مثله وبيته:

جـــــدث يكـــــون مقامـــــه أبدًا بمختلف الرياح الثالث مثلها

الرابع مقطوع وبيته:

وإذا همـــــوا ذكـــــرو الإســـــا ءة أكثـــــروا الحـــــسنات

الهزج

له عروض وضربان الأول مثله وبيته:

عفـــــى مـــــن آل ليلـــــى الـــــسهب فـــالأملاح فـــالغمر

الثاني محذوف وبيته:

ومـــــا ظهـــــري لبـــــاغي الـــــضيم بـــــالظهر الـــــذلول

الرجز

له أربع أعاريض وخمسة أضرب الأولى تامة، ولما ضربان مثلها وبيته:

دار لـــسلمى إذا ســـليمي جـــارة قفـــري تـــرى أياتهـــا مثـــل الزبـــر

الثاني مقطوع وبيته:

القلـــب منهـــا مـــستريح ســـالم والقلـــب منـــي جاهـــد مجهـــود

الثانية مجزوءة صحيحة وضربها مثلها وبيته:

قـــد هـــاج قلبـــي منـــزل   مـــن أم عمـــرو مقفـــر

الثالث مشطورة وهي الضرب وبيته:

مـــا هـــاج أخرانـــا   وشـــجوا قـــد شـــجا

والشطر: هو جعل البيت ثلاثة أجزاء فيتحدا العروض والضر وعليه أكثر رجز العرب.

الرابعة منهوكة وهي الضرب وبيته:

* يا ليتني فيها جذع *

الرمل

له عروض وستة أضرب الأولى محذوفة، وأضربها ثلاثة الأول تام وبيته:

مثل سحق البرد عفي بعدك القطر مغناه وتأويب الشمال.

الثاني مقصور وبيته:

أبلـــغ النعمـــان عنـــي مالكًـــا   أنـــه قـــد طـــال حبـــسي وانتظـــار

الثالث مثلها وبيته:

قالـــت الخنـــساء لمـــا جئتهـــا   شـــاب بعـــدي رأس هـــذا واشـــتهب

الثانية مجزوءة صحيحة وأضربها ثلاثة الأول مجزوء مسبغ وبيته:

يـــا خليلـــي أربعـــا   واســـتخبرا ربعـــا بعـــسفان

الثاني مثلها وبيته:

مقفـــــــرات دارســـــــات مثــــــل آيـــــات الزبــــــور

الثالث مجزوء محذوف وبيته:

مـــــا لمـــــا قـــــرت بـــــه العينـــــان مـــــن هـــــذا ثمـــــن

السريع

له أربع أعاريض وستة أضرب الأولى مطوية مكسوفة، وأضربها ثلاثة:

الأول مطوي موقوف وبيته:

أزمان سلمى لا يرى مثلها الرّاؤون فـــي شـــام ولا فـــي عـــراق

الثاني مثلها وبيته:

هـاج الهـوى رسـم بـذات الغـضا مخلولـــق مـــستعجم محـــول

الثالث أصلم وبيته:

قالـــت ولـــم تقـصد لقيـل الخنـا مهـــلًا لقـــد أبلغـــت أســـماعي

الثانية مخبولة مكسوفة وضربها مثلها وبيته:

النـــشر مـــسك والوجـــوه دنـــا نيـــر وأطـــراف الأكـــف عـــتم

الثالثة موقوفة مشطورة وضربها مثلها وبيته:

* يوزغن في حافاته بالأبوال *

الرابعة مكسوفة مشطورة وضربها مثلها وبيته:

* يا صاحبي رحلي أقلا عذلي *

المنسرح

له ثلاث أعاريض وثلاثة أضرب الأولى صحيحة وضربها مطوي وبيته:

إن ابن زيد لا زال مستعملًا للخير يفشى في مصره العُرفا

بضم الراء.

الثانية موقوفة منهوكة وضر بها مثلها وبيته:

* صبرًا بني عبد الدار *

الثالثة مكسوفة منهوكة وضربها مثلها وبيته:

* ويل أم سعد سعدا *

الخفيف

ومستفعلن فيه، وفي المجتث مفروق الوتد له ثلاث أعاريض وخمسة أضرب:

الأولى صحيحة ولها ضربان الأول مثلها وبيته:

حل أهلي ما بين درنا فبادوا لي وحلت علوية بالسخال

الثاني محذوف وبيته:

ليت شعري هل ثم هل آتينهم أم يحولن من دون ذاك الردي

الثانية محذوفة وضربها مثلها وبيته:

إن قــدرنا يومًــا علــى عــامر تتــصف منــه أو ندعــه لكــم

الثالثة مجزوءة صحيحة ولها ضربان الأول مثلها وبيته:

ليــت شــعري مــاذا تــرى أمُّ عمــرو فــي أمرنــا

الثاني مجزوء مخبون مقصور وبيته:

كــل خطــب إن لــم تكونــوا غــضبتم يــسير

المضارع

وفاع لاتن فيه مفروق الوتد، وبعض العروضين يوجب كف أوله وثالثه كما في الشاهد له عروض وضرب وبيته:

دعــاني إلــى ســعادي دواعــي هــوى ســعادي

المقتضب

له عروض وضرب مطويان وبيته:

أقبلــت فــلاح لهــا عارضــان كالــسيح

المجتث

له عروض وضرب وبيته:

الــبطن منهــا خمــيص والوجــه مثــل الهــلال

المتقارب

له عروضان وستة أضرب الأولى صحيحة وأضربها أربعة.

الأول مثلها وبيته:

فأمـــا تمـــيم تمـــيم بـــن مـــر   فألفـــاهم القـــوم روبـــي نيامـــا

الثاني مقصور وبيته:

ويـــأوى إلـــى نـــسوة بائـــسات   وشـــعث مراضـــيع مثـــل الـــسعال

الثالث محذوف وبيته:

وأروي مـــن الـــشعر شـــعرًا عويـــصًا   يغنـــي الـــرواة الـــذي قـــد رَوُوا

الرابع أبتر وبيته:

خليلـــي عوجـــا علـــى رســـم دار   خلـــت مـــن ســـليمي ومـــن ميـــه

الثالث مجزوءة محذوفة ولها ضربان الأول مثلها وبيته:

أمـــــن دمنـــــة أقفـــــرت   الـــــسلمى بـــــذات الغـــــضا

الثاني مجزوء أبتر وبيته:

تعفـــــف ولا تبتـــــئس   فمـــــا يقـــــض يأتيكـــــا

المتدارك

له عروضان وأربعة أضرب الأولى تامة وضربها مثلها وبيته:

جاءنـــا عـــامر ســـالمًا صـــالحًا   بعـــدما كـــان مـــا كـــان مـــن عـــامر

الثانية مجزوءة صحيحة وأضربها ثلاثة الأول مجزوء مخبون مرفل وبيته:

دار ســـعدي بـــشحر عمـــان   قـــد كـــساها البلـــى الملـــوان

الثاني مجزوء مذال وبيته:

هـــذه دارهـــم أقفـــرت   أم زبـــور محتهـــا الـــدهور

الثالث مثلها وبيته:

قـــف علـــى دارهـــم وأبكـــين   بـــين أطلالهـــا والـــدمن

والخبن فيه حسن وبيته:

كـــرة طرحـــت بـــصوالجة   فتلقفهـــا رجـــل رجـــل

والقطع في حشوه جائز وبيته:

مـــا لـــي مـــال إلا درهـــم   أو برذونـــي ذاك الأدهـــم

وقد اجتمعا وبيته:

زمـــت أبـــل للبـــين ضـــحى   فـــي غـــور تهامـــة قـــد ســـلكوا

القافية

هي من آخر البيت إلى أول متحرك قبل ساكن بينهما فهي في قوله:

* بمنجرد قيد إلا وابد هيكل *

كلمة هيكل، ولكل حرف تشتمل عليه اسم؛ فالحرف الذي تنسب إليه القصيدة كاللام فيقال: لامية العرب، ولامية العجم. والهمزة فيقال: همزية فلان يسمى رويًا، والحرف الذي يعقبه من مدًّا وهاء كيف كانت يسمى وصلًا، والمد المتصل بهاء الوصل يسمى خروجًا، والمد قبل الروي يسمى ردفًا، والألف التي قبل الروي بحرف إن كانت من كلمته أو من غيرها وكان ضميرًا أو بعض ضمير يسمى تأسيسًا.

والحرف المتحرك بعد التأسيس يسمى دخيلًا، وكذا حركاتها فحركة الروي تسمى مجرى، وحركة الوصل تسمى نفاذًا، وحركة ما قبل الردف تسمى حذوًا، وحزكة الدخيل تسمى إشباعًا، وحركة ما قبل التأسيس رسًا، وحركة ما قبل الروي المقيد تسمى توجيهًا.

والقافية إما مطلقة وهي متحركة الروي، وإما مقيدة وهي ساكنته.

والمطلقة: إما مجردة أو مردوفة أو مؤسسة موصولة باللين أو الهاء. والمقيدة: إما مجردة وإما مردوفة وإما مؤسسة.

فهذه تسعة أقسام يقال لها أنواع القافية، ولفظ القافية أن توالى فيه أربع حركات بين ساكنيها يسمى متكاوسًا، وأن توالي ثلاث يسمى متراكبًا، وان توالى اثنتان سمي متداركًا، وأن فصل بينهما حركة سمي متواترًا، وإن اجتمع الساكنان سمي مترادفًا. وعيوب القافية (الإيطاء): وهو إعادة كلمة الروي لفظًا ومعنى، (والتضمين): وهو تعليق البيت بما بعده تعليق تتميم معنى، (والإقواء): وهو اختلاف المجرى بكسر وضم، (والإصراف): وهو اختلاف المجرى بفتح وغيره، (والإكفاء): وهو

اختلاف الروي بحروف متقاربة المخارج، (والإجازة): وهو اختلافه بحروف متباعدة.

(والسناد): وهو اختلاف ما يراعي قبل الروي من الحروف والحركات وهو خمسة: (سناد الردف): وهو ردف أحد البيتين دون الآخر، (وسناد التأسيس): وهو تأسيس أحدهما دون الآخر، (وسناد الإشباع): وهو اختلاف حركة الدخيل، (وسناد الحذو): وهو اختلاف حركة ما قبل الردف، (وسناد التوجيه): وهو اختلاف حركة ما قبل الروي المقيد.

هذا وإذا كان يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، فمعرفتك هذا القدر من هذين الفنين لتلاحظ وزن ما يرد عليك من الأشعار، وتزن ما تريد أن تقول كافية وصرف الزمن للتوسع في غير زوائد هذين الفنين أحسن.

وهذه قصائد أثبتها في هذا الموضع تعوّد فيها ذهنك سرعة ملاحظة زنة الأشعار، فإن من اللازم للمتأدب أنه إذا ورد عليه الشعر لم يلبث أن يعرف وزنه ويلاحظه حال القراءة؛ ليساعده على إجاة الإنشاد، ويعصمه من فوات الخلل عليه.

قال ابن النبيه - من الطويل والقافية من المتواتر مجردة موصولة بالألف -:

رنا وانثني كالسيف والصعدة السمرا ... فما أكثر القتلى وما أرخص الأسرى

خذوا حذركم من خارجي عذاره ... فقد جاء زحفًا في كتيبته الخضرا

غلام أراد الله إطفاء فتنة ... بعارضه فاستؤنفت فتنة أخرى

تكلفني السلوان عنه عواذلي ... أما علموا أني بطلعته مغري

فـزرفن بالأصـداغ جنـة خـده وأرخـى عليـه مـن ذوائبـه سـترا
أغَـنٌّ يناجي شـعره حلـي خصره كما يعتب المعشوق عاشقه سرا
وصلت بداجي شعره ليل وصله فلم أخش صبحًا غير غرته العرا
أخوض عباب الموت من دون ثغره كذاك يخوض البحر من طلب الدرا
غزال رخيم الدل في يوم سلمه وليث له في حربه البطشة الكبرى
دري بحمل الكأس في يوم لذة ولكن بحمل السيف يوم الوعا
* أهيم به في عقده ونجاده فلابد في السراء منه وفي الضرا
*وصامتة الخلخال إن وشاحها فهذا قد استغنى وهذا شكى الفقرا
*تلألأ دار العقد تيهًا بجيدها وساكن ذاك النحر لا يسكن البحرا
لها معصم لولا السوار يصده إذا حسرت أكمامها لجرى نهرا
دعتني إلى السلوان عنه بحبها وما كنت أرضى بعد إيماني الكفرا
بأي اعتذار ألتقي حسن وجهه إذا خدعتني عنه غانية عذرا
تقول وقد أزري بها حسن وصفه لحي الله رب الشعر لو نظم الشعرا
ألم ترني بين السماطين منشدًا كأني على شاه أرمن أنثر الدرا
مليك كريم باسل عم عدله فمن حاتم وابن الوليد ومن كسرى
أبي سخيٍّ تحت سطوته الغنى فخف وتيقن أن في عسره يسرا
هو البحر بل استغفر الله أن في بنان يديه للندا أبحرًا عشرا
هو البحر إذا قام ينميه الخطيب تأود تيهًا واكتسى ورقًا خضرا
لحي الله حربًا لم يكن قلب جيشها ومجلس عدل لا يكون به صدرا
أطل على أخلاط يوم قدومه بلجّة جيش يملأ السهل والوعرا
وقد برزت في شكة موسوية فلو أمرت بالزحف ما خالفت أمرا

تلقاه من بعد المسافة أهلها فذ رافع كفا ودا ساجد شكرا
فشككت أن الناس قد حشروا أم الناس يستسقون ربهم القطرا
تسير ملوك الأرض تحت ركابه وأعناقهم من هول هيبته صغرا
إذا انفرجت عنه بروق سيوفهم رأيت النجوم الزهر قد قارنت بدرا
إذا انفرجت فالله يوم عم بلنيس وسارت إلى أرض العراق به
إذا انفرجت تهن أمير المؤمنين بمثله نصيرًا يسد الثغر أو يفتح الثغرا
حسام إذا هزته يمناك هزة ترقرق ماء والتظى حده جمرا
طراز على كم الخلافة مذهب وجوهرة في تاجها تكسف البدرا
أبا الفتح شكرًا الاختصاص صنيعة فحسبك في الدنيا جلال وفي

وقال من البسيط والقافية من المتراكب:

الله أكبر ليس الحسن في العرب كم تحت لمسة ذا التركي من عجب
صبح الجبين بليل الشعر منعقد والخد يجمع بين الماء واللهب
تنفست عن عبير الراح ريقته وافترَّ مبسمه الشهدي عن حبب
لا في العذيب ولا في بارق غزلي بل في لمي فمه أو ثغره الشنب
ثغر إذا ما الدجى ولي تنفس عن ريح من الراح أو ضرب من الضرب
كأنه حين يرمي عن حنيته بدر رمى عن هلال الأفق بالشهب
يا جاذب القوس تقريبًا لوجنته والهائم الصب منها غير مقترب
أليس من نكد الأيام يحرمها فمي ويلثمها سهم من الخشب
لدن المعاطف قاسي القلب مبتسم لا عن رضي معرض عني بلا غضب
فكم له في اختلاق الذنب من سبب وليس لي في قيام العذر من سبب
تميل أعطافه تيهًا بما حملت كما تميل رماح الخط بالعذب

أشار نحوي وجنح الليل معتكر ... بمعصم من شعاع الكأس مختضب

بكر جلاها أبوها قبل ما جليت ... في حجرة الدَّن أوفى قشرة العنب

حمراء تفعل بالألباب ما فعلت ... سيوف شاه أرمن في عسر الجب

ملك يفرق يوم السلم ما جمعت ... يمناه في الحرب بالهندية القضب

ثبت تحف جماهير الجيوش به ... كأن أفلاكها دارت على القطب

دم العدى وصليل المرهفات له ... أحلى وأطيب من كأس على طرب

في غير موسى أحاديث الندا ... وهو الكريم بلا شك ولا ريب

الأشرف الواهب الآلاف مبتسمًا ... وذاك تعجز عنه عبسة السحب

صحت له كيمياء المجد إذ سبكت ... يمناه للبذل أكسيرًا من الذهب

*لا تعجبن لأموال يفرقها ... على العفاة بقاها أعظم العجب

الطاهر النسب ابن الطاهر النسب ... ابن الطاهر النسب ابن الطاهر النسب

نفس لآبائها من نفسها شرف ... كذا الثمار لها فضل على الخشب

*عليه نور إلهي أشعته ... تغنيه عن كثرة الحجاب والحجب

مت يا حسود انتظارًا إن مولده ... قد كان في برج سعد غير منقلب

وقف على جو زهر الرأس عاشره ... وبيت أعدائه وقف على الذنب

يا كوكبًا أسعد الأيام طالعه ... وهو الوباء لأهل الشرك والصلب

لا خيب الله في ذات العيد عودة من ... رجاؤه في ندا كفيَّك لم يخب

وقال: من الكامل والقافية من المتدارك:

أفديه أن حفظ الهوى أو ضيعا ... ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه ... حلوًا فقد جهل المحبة وادعى

يا أيها الوجه الجميل تدارك الصبرا ... الجميل فقد عفا وتضعضعا

هـل فـي فـؤادك رحمـة لمتـيم ضـمت جوانحـه فـؤادًا موجعـا
هـل مـن سـبيل أن أبـث صـبابتي أو اشـتكى بلـواي أو أتوجعـا
إنـي لاسـتحي كمـا عـوَّدتني بـسوى رضـاك إليـك أن أتـشفعا
يـا عـين عـذرك فـي حبيبك واضـح سـحي لرفقتـه دمًـا أو أدمعـا
الله أبـدى البـدر مـن أزراره والشمس من قسمات موسى أطلعا
الأشرف الملك الـذي سـاد الـورى كهـلًا ومكتمـل الـشباب ومرضـعا
ردت به شمس السماح على الـورى فاستبـشروا ورأوا بموسـى يوشـعا
سـهل إذا لمـس الـصفا سـال النـدا صـعب إذا لحـظ الأصـم تـصدَّعا
دان ولكـن مـن سـؤال عفاتـه سـام علـى سـمك الـسماء ترفعـا
يـا بـرق هـذا منـك أصـدق شـيمة يـا غيـث هـذا منـك أحـسن موقعـا
يـا روض هـذا منـك أبهـج منظـرًا يـا بحـر هـذا منـك أعـذب مـشرعا
يـا سـهم هـذا منك أصـوب مقـصدًا يـا سيـف هـذا منـك أسـرع مقطعـا
يـا صـبح هـذا منـك أسـفر غـرة يـا نجـم هـذا منـك أهـدى مطلعـا
حملـت أناملـه الـسيوف فلـم تـزل شـكرًا لـذلك سـجدًا أو ركعـا
حلـت فـلا برحـت مكانًـا لـم يـزل مـن در أفـواه الملـوك مرصـعا
أمظفـر الـدين استمع قـولي وقـل لعثـار عبـد أنـت مالكـه لعـا
أيـضيق بي حـرم اصـطناعك بعـدما قـد كـان منفرجًـا علـى موسـعا
هـذا وقـد طـرّزت باسـمك مدحـة لا ترضـى شـنف الثريـا مـسمعا
عـذراء مـا قعـد الزمـان بربهـا إلا وقـام بهـا خطيبًـا مـصقعا
وعلـى كـلا الحـالين أنـي شـاكر داع لأن الله يـسمع مـن دعـا

وقال من الرجز والقافية من المتدارك:

وحق من بدل نومي بالسهر وعذب القلب بأنواع الفكر
وأسقم الجسم بسقم جفنه وأسهر الطرف وللقلب أسر
ما خلت ذاك الوجه لما أن بدا في جنح ليل شعره إلا قمر
وهو فما ظن دموع مقلتي لما جرى من فيضها إلا مطر
أحور والفتور حشو طرفه يا حبذا ذاك الفتور والحور
مر بنا يخطر في مشيته والقلب من خطرته على خطر
هزلنا من قده رمحًا ومن الحاظه ياعاذلي سيفًا شهر
مخالف إن قلت دع زيارتي زار وإن قلت له صلني هجر
والله ما غدرته إلا وفى ولا وفيت عهده إلا غدر

وقال: من السريع والقافية من المتدارك:

يا نار أشواقي لا تخمدي لعل ضيف الطيف أن يهتدي
حسبته ماء فصادفته لمع سارب ليس يروي الصدى
تكلفت عيني له هجعة كنغبة الطائر في المورد
صوّر في مرآتها صورة تجل عن لمس فم أو يد
أن نعمت في الليل روحي به فسوف يشقى جسدي في غد
الصد والهجران قد جمعا بالله قل لي فمن اقتدى
أشكو إلى الله ملولًا إذا قلت انتهى في هجره يبتدي
البدر في مكسر سربوشه حف بليل الشعر الأسود
ريان في قرطقه جدول لكن له قلب من الجلمد
كأنما هميانه برزخ يمنع موج الردف أن يعتدي
غازلنا من نرجس ذابل وافترَّ عن نور أقاح ندى

وقــام يلــوي عطفــه قــائلًا ... لا تغتــرر بــي فكــذا موعــدي
فقلــت بــالله مــات الوفــا ... فقال موسى لم يمت خذ يدي
الملــك الأشــرف شــاه أرمــن ... رب المعــالي والنــدا والنــدي
ملــك لــه الفــضل علــى تبــع ... والفــضل لا يكــسب بالمولــد
لــو لــم تــر إلا مــلاك فــي وجهــه ... غرتــه الغــراء لــم تــسجد
الطــاعن الــسنجلاء مكحولــة ... نــاب لهــا النقــع عــن الأثمــد
والــضارب الفوهــاء مفتــرة ... عــن صــارم كالمبــسم الأدرد
يــصدى إذا أرواه مــاء الطلــى ... وأعجــب الأشــياء ري الــصدى
تقــول للخرصــان أســيافه ... بنــا كفيــت الطعــن لا ترعــد
نحــن بــسد الثغــر أو فتحــه ... أدري وقــد قمنــا بــه فاقعــد
سـله تجـد أفتـى جميـع الـورى ... فليهتــد الــسائل أو يجتــدى
يـزري علـى قـبح عبـوس الحيـا ... حيــاؤه الطلــق الجميــل النــدى
يــا ملــك الأرض وإن كــان فــي ... حــصونه يــا ملــك الفرقــد
ملأتهـا بالخيـل والرجـل والبـيض ... المواضــي والقنــا الأملــد
تكــاد أن تزحــف يــوم الــوغى ... إلــى العــدى مــن أفقهــا الأبعــد
لبــست منهــا تــاج ملــك علــى ... كــسرى أنوشــر وأن لــم يعقــد

وقال من المنسرح والقافية من المتراكب:

يــا بارقًــا اذكــر الحــشى شــجنه ... منزلنــا بــالعقيق مــن ســكنه
أمرتــع اللهــو يــانع خــضر ... أم غيــر الــدهر بعــدنا دمنــه
يا بـرق هـذا جـسمي يـذوب ضـنا ... ومهجتــي بــالعقيق مرتهنــه
يــا بــرق أشــكو عــساك تخبــرهم ... وكــل مــن هــام يتــشكي شــجنه

بلـغ حـديث الحمـى وسـاكنه | لمغـرم أنحـل الهـوى بدنـه
اسـمعه ذكـر الحبيـب مقتربًـا | فقـد أصـمت عـذا لـه أذنـه
هـم آنـسوه لكـن بوحـشتهم | ونفـروا عـن جفونـه وسـنه
أشـقى المحبـين عـادم وطـرًا | فكيـف أن كـان عادمًـا وطنـه
سـقيًا لا يأمنـا التـي سـلفت | كانـت بطيـب الوصـال مقترنـه
لـو بيـع يـوم منهـا وكيـف بـه | كنـت بعمـري مسترخـصًا ثمنـه
إليـك يـا عـاذلي فلـست أنـا | أول صـب جمـالهم فتنـة
فكـم لنفـسي علـى سـيئة | وكـم لموسـى علـى مـن حـسنه
مجـازف فـي عطـاء آملـه | محـرر الـرأي عنـد مـن وزنـه
للأجـر والـشكر خـازن أبـدًا | ولـم يـصن مالـه ولا خزنـه
مؤيـد الـرأي مـن ينافـسه | تحت حـضيض الخمـول قـد دفنـه
لـو لـم تقـيض للجـود راحتـه | لـم نعتـرف فرضـه ولا سـننه
لـه بنـان تهـدي لنـا منحًـا | ومـن يعاديـه يـشتكي محنـه

وقال: من الخفيف والقافية من المتواتر:

قمـت ليـل الـصدود إلا قلـيلًا | ثـم رتلـت ذكـركم تـرتيلا
ووصـلت الـسهاد أقـبح وصـل | وهجـرت الرقـاد هجـرًا جمـيلا
مـسمعي كـل عـن كـلام عـذول | حـين ألقـى عليـه قـولًا ثقـيلا
وفـؤاد قـد كـان بـين ضـلوعي | أخذتـه الأحبـاب أخـذًا وبـيلا
قـل لراقـي الجفـون أن لعينـي | فـي بحـار الـدموع سـبحًا طـويلا
مـاس عجبًـا كأنـه مـا رأى غـصنًا | رطيبًـا ولا كثيبًـا مهـيلا
وحمـى عـن محبـه كـأس ثغـر | حـين أضـحى مزاجهـا زنجبـيلا

بان عني فصحت في أثر العيس ارحموني ومهلوهم قليلا

أنا عبد للفاضل بن علي قد تبتلت بالثنا تبتيلا

لا تسمه وعدًا بغير نوال أنه كان وعده مفعولا

وإذا كان خصمك الدهر والحكم إلى الله فاتخذه وكيلا

راع أعداءه بصفر اليراعات فأنسى صريرهن الصليلا

إن مدحي له أشد وطاء وقريضي أقوى وأقوم قيلا

فاستمع لفظه وَلُذْ بحماه تلق قولًا جزلًا ونيلًا جزيلا

جل عن سائر الخلائق فضلًا فاخترعنا في مدحه التنزيلا

لا أذم الزمان إذ أنت فيه يا سحاب الندا لرزقي كفيلا

لي ديون على علاك وهذا وقت يسر فوَفِّ واصنع جميلا

أتمنى رزق المقيم على الله وإن رمت رحلة ونزولا

وقال الحسن بن هانئ الحكمي أبو نواس من المديد والقافية من المتراكب:

أيها المنتاب من عفره لست من ليلى سمره

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

فاتصل إن كنت متصلًا بقوى من أنت من وطره

خفت مأثور الحديث غدًا وغدًا دان لمنتظره

خاب من أسري إلى بلد غير معلوم مدا سفره

وسدتني ثنى ساعده سنة حلت إلى شفره

فامض لا تمنن على يدًّا منك المعروف من كدره

رب فتيان ربأتهم مسقط العيوق في سحره

فـــاتقوا بـــي مـــا يـــريبهم ... إن تقـــوى الـــشر مـــن حـــذره
وابـــن عـــم لا يكاشـــفنا ... قـــد لبـــسناه علـــى غمـــره
كَمُـــنَ الـــشنآن فيـــه لنـــا ... كمكـــون النـــار فـــي حجـــره
ورضـــاب بـــت أرشـــفه ... ينقـــع الظمـــآن مـــن خـــصره
علنيـــه خـــوط أســـحلة ... لان ثنيـــاه لمهتـــصره
*ذا ومغبـــر مخارمـــه ... تحـــصر الأبـــصار عـــن قطـــره
لا تـــرى عـــين البـــصير بـــه ... مـــا خـــلا الآجـــال مـــن نفـــره
خـــاض بـــي لجيـــه ذو جـــزر ... يفعـــم الفـــضلين مـــن ضـــفره
يكتـــسي عثنونـــه زبـــدًا ... فنـــصيلاه إلـــى نحـــره*
*ثـــم يعـــتم الحجـــاج بـــه ... كاعتمـــام الفـــوف فـــي عـــشره
ثـــم تـــذروه الريـــاح كمـــا ... طـــار قطـــن النـــدف عـــن وتـــره
*كـــل حاجـــاتي تناولهـــا ... وهـــو لـــم يـــنقض قـــوى أَشَـــره
ثـــم أدنـــاني إلـــى ملـــك ... يـــأمن الجـــاني لـــدى حجـــره
تأخـــذ الأيـــدي مظالمهـــا ... ثـــم تـــستذري إلـــى عـــصره
كيـــف لا يـــدنيك مـــن أمـــل ... مـــن رســـول الله مـــن نفـــره
فأســـل عـــن نـــوء تؤملـــه ... حـــسبك العبـــاس مـــن مطـــره
*ملـــك قـــل الـــشبيه لـــه ... لـــم تقـــع عـــين علـــى خطـــره
لا تغطـــي عنـــه مكرمـــة ... بربـــا واد ولا خمـــره
ذلـــت تلـــك الفجـــاج لـــه ... فهـــو مختـــار علـــى بـــصره
ســـبق التفـــريط رائـــده ... وكفـــاه العـــين مـــن أثـــره
*وإذا مـــج القنـــا علقًـــا ... وتـــراءى المـــوت فـــي صـــوره

-راح في ثني مفاضته ... أسدًا يدمي شبا ظفره
-تتابا الطير غدوته ... ثقة بالشبع من جزره
وترى السادات ماثلة ... لسليل الشمس من قمره
فهم شتى ظنونهم ... حذر المظنون من فكره
وكريم الخال من يمن ... وكريم الجد من مضره
قد لبست الدهر لبس فتى ... أخذا الآداب عن غيره

وقال كمال الدين ابن النبيه - من الرمل والقافية من المتراكب -:

إن عينًا منكمو قد ظمئت ... قد سقاها الدمع حتى رويت
آه من وجد جديد لم يزل ... وعظام ناحلات بليت
أنا والإظعان من شوق معًا ... نحوكم أعناقنا قد لويت
أنتم الأنجم مذ غيبتمو ... بسوى أنواركم ما هديت
ساكني الفسطاط لو أبصرتكم ... جليت مرآة عين صديت
إن أعاد الله شملي بكمو ... سعدت آمال نفس شقيت
إن أرضًا أنتمو سكانها ... غنيت عن أن تقولوا سقيت
فوجوه كرياض أزهرت ... ورياض كوجوه جليت
يأبي منكم غزال مهجتي ... بظبي ألحاظه قد غزيت
ساحر الألحاظ ألوى وعده ... فهو كالأصداغ لما لويت
بلّغيه يا نسيم الريح عن ... مهجة المشتاق ماذا لقيت
أن أسرار الهوى ما نشرت ... وأحاديث الضنى ما طويت
ولقد كان لنفسي جلد ... وأراها اليوم فيه دهيت
لي عذر في النوى عن أرضكم ... فسقتها أدمعي إن رضيت

إنمـــا منـــبج موســـى جنـــة عنـــدها أوطاننـــا قـــد نـــسيت
ملـــك مـــذ جـــردت هيبتـــه أغمـــد الأســـياف حتـــى صـــديت
هـــو فـــي الهيجـــاء نـــار تلتظـــى وهـــو فـــي الـــسلم جنـــان جنيـــت
لا يبـــالي أن خلـــت أكياســـه ولـــه الأرض بـــشكر مليـــت
خـــذ أحاديـــث عـــلاه أنهـــا بأســـانيد مـــديحي رويـــت
قـــام بالـــدنيا والأخـــرى معًـــا فهـــي ضـــرات بـــه قـــد رضـــيت
حـــسن الظـــاهر للنـــاس ولله منـــه حـــسنات خفيـــت
يخـــضع الجبـــار مـــن هيبتـــه والرعايـــا فـــي حمـــاه حميـــت
يـــا مليـــك الـــدين والـــدنيا ويـــا صـــفوة المجـــد التـــي قـــد بقيـــت
ويـــح أعـــدائك بـــل ويـــل لهـــم معـــشر أبـــصارهم قـــد عميـــت
كـــل يـــوم لـــك فـــي أكبـــادهم بمعاليـــك جـــراح دميـــت

وقال - من الوافر -:

أمانًـــا أيهـــا القمـــر المطـــل فمـــن جفنيـــك أســـياف تـــسل
يزيـــد جمـــال وجهـــك كـــل يـــوم ولـــي جـــسد يـــذوب ويـــضمحل
ومـــا عـــرف الـــسقام طريـــق جسمي ولكـــن دل مـــن أهـــوى يـــدل
يميـــل بطرفـــه التركـــي عنـــي صـــدقتم إن ضـــيق العـــين بخـــل
إذا نـــشرت ذوائبـــه عليـــه تـــرى مـــاء يـــرف عليـــه ظـــل
وقـــد يهـــدي صـــباح الخـــد قومًـــا بليـــل الـــشعر قـــد تـــاهوا وضـــلّوا
أيـــا ملـــك القلـــوب فتكـــت فيهـــا وفتكـــك فـــي الرعيـــة لا يحـــل
قليـــل الوصـــل ينفعهـــا فـــإن لـــم يـــصبها وابـــل منـــه فطـــل
أدر كـــأس المـــدام علـــى النـــدامى فمـــن خـــديك لـــي راح ونقـــل

فنيرانـــي بغيـــرك لـــيس تطفـــا وأحزانـــي بغيـــرك لا تبـــل
بمنظـــرك البـــديع تَـــدِلّ تيهًـــا ولـــي ملـــك بدولتـــه أدل
أبـو الفـتح الكـريم الطلـق موسـى فتـى يعطـي الجزيـل ويـستقل
بـه أضـحت فجـاج الأرض خـصبًا فمـا للمحـل فـي بلـد محـل
أغـرّ علـي سـرير الملـك منـه سـليمان وأهـل الأرض نمـل
ويمـلأ غيـره كيـسًا فكيـسًا ومـلء زمانـه كـرم وعـدل
وقـالوا حفـظ هـذا المـال عقـل فقلـت نعـم وبعـض العقـل جهـل
فلـيس يذمـه إلا مطايـا إلـى أبوابـه تطـوى وسـبل
تملكـه الـبلاد قنًـا وجـرد وبتـر مـن يطاولهـا يـذل
إذا انبثـت عـساكره اتـساعًا تـضايق دونهـا حـزن وسـهل
بوارقهـا لعـين الأفـق داء وعثيرهـا العـين الـشمس كحـل
لمولانـا الخليفـة فيـه رأي حديـد لا يفـل ولا يقـل
تأمـل فـي الكنانـة منـه سـهمًا سـديدًا لا يطـيش ولا يـزل
فهيـأه وأرسـله اختـصاصًا وروّاه الحـديث وذاك فـضل
فـدامت هـذه النعمـى عليـه ودام فإنـه للخيـر أهـل

وقال - من المتقارب-:

دع النـوح خلـف حـدوج الركائـب وسـل فـؤادك عـن كـل ذاهـب
ببيض الـسوالف حمـر المراشـف صـفر الترائـب سـود الـذوائب
فمـا العـيش إلا إذا مـا نظمـت بثغـر الحبـاب ثنايـا الحبائـب
أحاشـيك مـن وقفـة بـالطلول تبـل الـصدا بـصداها المجـاوب
تكلـف صـم الحجـار الكـلام وكم في جنون الهوى من عجائب

ولـو كنـت تـشكو الهـوى صـادقًا لمـا عللتـك الأمـاني الكـواذب
تأمـل كـؤوس عتيـق الرحيـق تـرى المـاء يجمـد والجمـر ذائـب
لهـا فـي الزجاجـة رقـص الـشباب ومفرقهـا أشـمط اللـون شـائب
وترعـد غيظًـا إذا أبـرزت مـن الـدِّن كالمحـصنات الكواعـب
كـأن الحبـاب علـى رأسـها جـواهر قـد كللـت فـي عـصائب
لحرمتهـا صـح عنـد المجـوس أن الـسجود إلـى النـار واجـب
شـهدنا ومطربنـا خاطـب زواج ابنـة لكـرم بـابن الـسحائب
فمـن قطـرات الـرذاذ النثـار ومـن وشـى زهـر الربيـع المراتـب
ريـاض كخـضرة جـوّ الـسماء وأزهارهـا مثـل زهـر الكواكـب
فللـوحش سـرب بقيعانهـا وللطيـر فـي جوهـا سـطر كاتـب
برزنـا إلـى اللهـو فـي حلبـة حـسان الوجـوه خفـاف المراكـب
بنـادقهم فـي عيـون القـسى كأحـداقهم فـي قـسى الحواجـب
فتلـك لهـا طـائر فـي الـسماء وهـذه لهـا طـائر القلـب واجـب
وحلـت سـوابق شـهب خواطـف حجـن المناسـر حـق المخالـب
بـزاة لهـا حـدق الأفعـوان وأظفارهـا كحمـاة العقـارب
فللأفـق نـسران ذا واقـع وذا طـائر حـذر المـوت هـارب
وأطلـق كلابنـا ضـاريًا يبـاري هبـوب الـصبا والجنائـب
تطيـر بـه أربـع كالريـاح ويفتـر عـن مرهفـات قواضـب
ويـضرب فـي ليـل جلبابـه شـعاع شـهاب مـن العـين ثاقـب
وعـدنا نجـر ذيـول الـسرور والطيـر والـوحش مـلء الحقائـب
كمـا ابتهجـت مـن سـرور خـلاط وقـد جـاء موسـى يجـر المواكـب

مليـــك إذا ســـار بـــين الـــسيوف ... تـرى البـدر بين اشـتباك الكواكـب

وتــزأر مـــن تحــت ذاك الركــاب ... أَسُــودٌ لهــا مــن ظباهــا مخالــب

فتلـــك اللهـــاذم زهـــر النجـــوم ... ومعتكــر النقــع جـنح الغياهــب

بـدا فهـوت فـي التـراب الثغـور ... كمــا انـتظم الــدر فــوق الترائــب

ينادونـــه بـــاختلاف اللغـــات ... كتلبيــة الحــج مــن كــل جانــب

يخيفهمـــو بـــأس بـــرق الحديـــد ... ويطمعهــم ســح ســحب المواهــب

تـــؤم الجـــوارح أعلامـــه ... تــروح بطانًــا وتغــدو ســواغب

كـــأن الــــصناجق أوكارهـــا ... فكـم عـصبة تحـت تلـك العـصائب

أيـــا ملـــك الأرض حقًّـــا إليـــك ... مـــآل مـــشارقها والمغـــارب

ســـتفتح قـــسنطينة عنـــوة ... ومــا كــان للــروم ومنهــا يقــارب

كـــأني بأبراجهـــا قـــد هـــوت ... وصــخر المجــانيق فيهـا ضــوارب

وقد زحـف البـرج زحـف العـروس ... إليهـــا يجـــرّ ذيـــول الكتائـــب

ومــا لبــسه غيــر نــسج الحديــد ... ومــا حليــه غيــر بــيض القواضــب

وأضــرمت النــار حــشو النقــوب ... وثــار الــدخان كجــنح الغياهــب

ولـــيس الكهانـــة مـــن شـــيمتي ... ولكـــن حزبـــك بـــالله غالـــب

لـــك الله مـــن قائـــل قاتـــل ... يقاتــل بالكتــب قبــل الكتائــب

فمــا مجلـس العـدل يـوم القـضاء ... بــأولى بــه مــن ســروج الــسلاهب

وقال زهير – من المجتث–:

مـــولاي كـــن لـــي وحـــدي ... فـــإنني لـــك وحـــدك

وكـــن بقلبـــك عنـــدي ... فـــإن كلـــي عنـــدك

لـــي فيـــك قـــصد جميـــل ... لا خيَّـــب الله قـــصدك

حاشـــــاك تـــــوثر بعـــــدي ولـــــست أوثـــــر بعـــــدك
إن تـــنس عهــــدي فـــإني والله لـــــم أنـــــس عهـــــدك
أضـــــعت ودّ محـــــب مـــــا زال يحفـــــظ ودّك
مـــالي عليـــك اعتـــراض أدّب كمـــا شـــئت عبـــدك
مـــولاي إن غبـــت عنـــي وأســـوء حـــالي بعـــدك

وأوزان هـذه القـصائد علـى تفاوتهـا فـي كثـرة الاسـتعمال هـي الأكثـر استعمالًا وبقيتها قليل تقرأ الديوان الكبير فلا تجد منها بيتًا.

هذا ولم يزل الناس مقتصرين على الأوزان العربية حتى مضى صدر من الإسلام، ثـم تكلـم النـاس بعد بكـلام مـوزون معرب وملحـون موافـق لـلأوزان العربيـة وغيـر موافـق. ونوّعـوه إلـى سـتة أنـواع أضـافوها للـشعر وسموها: (الفنون السبعة) وعملوا فيها رسائل وعرفوا الشعر: بأنه الكلام الموزون بالأوزان العربية الذي لا يجوز فيه اللحن المقفى.

الفن الثاني المواليا

وأول من تكلـم بهـذا النـوع بعـض أتبـاع البرامكـة بعـدما حـصل لهـم فكانوا ينوحون عليهم به ويكثرون من قولهم: يا موالي: فصار يعرف بهذا الاسم وهو مشهور فلا حاجة لتمثيله.

الفن الثالث فن التوشيح

وغالب ما كان منه معرَّب وهو مختلف الأوزان والأوضاع، والسبب في ذلـك أن تـأليف التوشيح كـان لغرض تطبيق ألفـاظ علـى مؤلفـات مـن

الأصوات بمقتضى صناعة الموسيقى؛ فكان أهل تلك الصناعة يؤلفون من الأصوات التي تخرجها الضربات على الأوتار المختلفة مثلًا مؤلفًا يناسب أن تقابل الأصوات المندرجة فيه بحروف متحركة أو ساكنة، فكان مؤلف التوشيح تابعًا لما تقتضيه تلك الأصوات فتارة توافق الأوزان العربية وتارة تخالفها.

وقد ذكر كثير من التواشيح في كثير من الكتب الأدبية: مثل كتاب نفح الطيب، وسفينة الشيخ محمد شهاب - رحمه الله تعالى-، ومن ألطفها توشيح القاضي هبة الله المشهور بابن سناء الملك فلا بأس بإيراده مثالًا لهذا النوع وهو:

كلّلي يا سحب تيجان الربى بالحلى   واجعلي سوارك منعطف الجدول

(دور)

يا سما فيك وفي الأرض نجوم وما   كلما أغربت نجمًا أشرقت أنجما

وهي ما تهطل إلا بالطلى والدمى

(قفلة)

فاهطلي على قطوف الكرم كي   وانقلي للدن طعم الشهد والفوفل

(دور)

تنقد كالكوكب الدري للمرتصد   يعتقد فيها المجوسي بما يعتقد

فاتئد يا ساقي الراح بها واعتمد

(قفلة)

وأمل لي حتى تراني عنك في معزل   قلل فالراح كالعشق إن يزد يقتل

(دور)

من ظلم في دولة الحسن إذا ما فالدم يجول في باطنه والندم

والقلم يكتب ما سطر فوق القمم

(قفلة)

من ولى في دولة الحسن ولم يعدل يعزل إلا لحاظ لرشا الأكحل

(دور)

لا أريم عن شرب صهبان وعن ريم فالنعيم عيش جديد ومدام قديم

لا أهيم إلا بهذين فقم يا نديم

(قفلة)

وانهل من أكؤس صوّرن من صندل أفضل من نكهة العنبر والمندل

(دور)

هل يعود عيش قطعناه بوادي زرود والجنود في حضرتي تضرب جنكًا

والحسود في معزل عنا غدًا لا يسود

(قفلة)

عذلي لا تعذلوني فالهوى لذلي ما الخلى في الحب مثل العاشق

(دور)

أسفرت ليلتنا بالأنس مذ أقمرت بشرت بملتقى المحبوب واستبشرت

شمرت فقلت للظلماء مذ قصرت

(قفلة)

طولي يا ليلة الوصل ولا تنجلي   واسبلي سترك فالمحبوب في منزلي

(دور المديح)

يا نسيم بلغ سلام المستهام السقيم   لكريم طه إمام المرسلين العظيم

عن أليم وجدي به حدِّث وشوقي القديم

(قفلة)

ليس لي من ملجأ سوى الحمى   الجلي وآله أولى الجناب العلي

الفن الرابع فن الدوبيت

وهذا الاسم من كلمتين: فارسية وهي (دو) بمعنى اثنين، وعربية وهي (بيت) أحد أبيات الشعر، وبه سمي هذا النوع لكونه ينتظم بيتين بيتين يتصور الناظم معنى ويسكنه فيهما.

وهو مشهور عند العجم بالرباعي ولبعض شعرائهم اختصاص بشهرة إجادة الرباعيات وأجزاؤه فعلن بسكون ثانيه متفاعلن، وتارة يغير إلى متفاعيل بتقديم ساكن الوتد على متحركه الثاني فعولن فعلن بتحريك ثانيه، ومثاله قول بعضهم:

أهوى رشأ حوى من الحسن فنون   عيناه تقول للهوى كن فيكون

غنِّي فتمايل الندامى طربًا   لاشك هو النسيم والقوم غصون

وقول سيدي عمر بن الفارض:

أهوى رشأ رشيق القد حلي   قد سلطه الغرام والوجد عليَّ

إن قلت خذ الروح يقل واعجبًا   الروح لنا فهات من عندك شي

الفن الخامس الزجل

ويقال أن أول من تكلم به صبي مغربي يقال له ابن قزمان؛ وذلك أنه وهو في المكتب عشق بعض صبيانه فرفع أمره للمؤدب فزجره ومنعه من مجالسه حبيبه، فكتب في لوحه قوله هذا:

المـــلاح ولاد أمـــاره ولـــو حـــاش ولاد نـــصاره
وبـــن قزمـــان جـــا يغفـــر مـــا قبلـــوا لـــشيخ غفـــاره

فاطلع عليه المؤدب فقال: قد هجوتنا بكلام مجزول؛ فيقال أنه سمي زجلًا من هذه الكلمة ثم صار ابن قزمان هذا شيخ صناعة هذا الفن.

وهو فن العامة الذين لا يعرفون الإعراب فأذكياؤهم ينظمونه بلغتهم، وأوزانه كثيرة جدًا حتى أن أهله يقولون: صاحب ألف وزن ليس بزجال، ويسمون ما يناظر القصيدة منه حملاً، ومن ظريفه حمل ابن الفحام وهو:

مطلع ودائرة

فــي بحــر عــشقك ولغــرام لغــريم كــم مــن هلــك يــا مــن حــلا منهلــك
ون كــان عــذولي شــبهك بــالهلال يــا بــدر مــن لا يعرفــك يجهلــك

(دور في البحر)

في بحر عشقك زد شجوني شجن مــن مــدمعي بحــر لجــوى قــد وفــى
أضحي بغير مقيس تجنى لجنون وزد علــى أعلــى لفــسيح مــا خفــي
وصبح منــادى لــشوق عليــا ســأل بالوجــد ولبلبــال وطــل واكتفــى
ونبــت أشــجاني لعبــو هــواك وصــرت غــارق فــي لجــاج لهلــك
ون كــن عــذولي شــبهك بــالهلال يــا بــدر مــن لا يعرفــك يجهلــك

دور في القمر

مـن بـن يكـون يـا بهجـة لعاشـقين / للبــدر حـسنك ولقـوام لرشـيق
ومـين يـشبه طلعتـك فـي لكمـال / بطلعـــة لبـــدر لمنيــر لـــشريق
ومـين يقـس فرقـكْ يفرقـوا إذا / فرقــت عنــو يــا غــزال الفريــق
إن شـافك لبـد سـتحي وختفـي / منـك وأطـرق فـي ظـلام لحلـك
ون كـن عـذولي شـبهك بـالهلال / يـا بـدر مـن لا يعرفـك يجهلـك

دور في تشبيه الخال

خالـك بخـدك جـل مـن قـد صـنع / نقطـه مـن لعنبـر علـى لـح نـضار
أو صـفر كاتـب فـي صـحيفة عقيـق / أو عبـد زنجـي يحـرس لجلنـار
أو هـو مجوسـي مـن كبـار لمجوس / رام الـسجود لمـا رأى لخـدنار
فـي مـا صـفا لـن خـدك لعنـدمي / يظهـر سـود عـن كـل مـن أم لـك
ون كـن عـذولي شـبهك بـالهلال / يـا بـدر مـن لا يعرفـك يجهلـك

دور في اللحاظ

لمـا علـى عـرش الخديـد ستوى / خالـك وهـو رب لجمـال لعظـيم
أرسـل نـذيل للخـط يـدع لقلـوب / لـسبل عـشقك ولغـرام لغـريم
وسـن هجـرك ولجفـا أفرضـه / نـادت وقلبـي بالمحبـه كلـيم
آمنـت بـالله يـا نـذير للحـاظ / هـا أنـت سـاحر ولهـوى أرسـلك
ون كـن عـذولي شـبهك بـالهلال / يـا بـدر مـن لا يعرفـك يجهلـك

دور في الثغر

لنـا روى خـدك صـحيح لخبـر / عـن عارضـك عـن خالـك لعنبـري

عن نكهة لرق عن رحيق للماعن مبسمك عن ريقك لمنكري
بأن في رشفو حياة لنفوس وصح أسند ثغرك لجوهري
فكيف تعجب من صحيح لخبر يروه نذير للحظ عن سلسلك
ون كن عذولي شبهك بالهلال يا بدر من لا يعرفك يجهلك

دور في العذار

وحن علينا جر عذار لدقيق ولعارض لام حترمت لمنام
جاني عذل جاهل قليل لأدب عارض ولم في حب عارض ولام
لما رأيته ما قبل معذره ولا رثى في الحب نادت سلام
يا لائمي في عارضن عارضين كم صب من جور العوارض هلك
ون كن عذولي شبهك بالهلال يا بدر من لا يعرفك يجهلك

دور في جمع أوصاف الجمال

يا ظبي رائع في رياض لحشا يا بدر مشرق في سماء لجمال
يا شمس في برج لحمل أشرقت يا غصن في روض لبهامس ومال
يا جامع وصاف لجمال لجميل يا مفرد لحسن لحسن ولدلال
يا عن حياتي كن طبيب لكئيب بحق من بالحسن قد كملك
ون كن عذولي شبهك بالهلال يا بدر من لا يعرفك يجهلك

دور

هل تدور بالله يا فريد لجمال من علم الظبي لنفور لنفار
أو من أعار البدر حسن السنا ولنرا ذا لح في دجى الاعتكار
وسحرها روت لبديع لحلال إيش هو لسبب فه أو لأيش ستعار

شاف لغزل حسنك وشاف لقمر نورك وذل لسحر من عزلك
ون كن عذولي شبهك بالهلال يا بدر من لا يعرفك يجهلك

دور في قصة سيدنا يوسف

نسا زليخا لو رأوا يا عزيز حسنك وشكلك ولجمال لجميل
وطابع لحسن لحسن ولدلال وللحظ والطرف لغضيض لكحيل
لقطعو منهم بدال لكفوف أكبد ولا بالقطع يشفى لغليل
وتخرس لألسن إذا ما رأوك وهم يقولوا ملك أو ملك
ون كن عذولي شبهك بالهلال يا بدر من لا يعرفك يجهلك

دور في جهات الحجاز

بالله يا ريم لنقا ولعذيب بحسن تر وجناتك الأبرقين
جد بالشفا واسمح بلثم لشفا على افز يا بدر بالشقوتين
وكمن مفرح من صبا منحنى تروى دموع لسح من كل عين
يا كعبة لعشاق ومروى لصفا ريقك شفا يا سعد من قبلك

دور المديح

يا فاتح لخر يا ختام الرسل يا منتهى للعلم يا مبتدى
يا مصطفى أنت لصراط لقويم ياسر عين لغيب لمن اهتدى
ها أنت باب لله حياة لنفوس وخالقك قد أرسلك للهدى
وليلة الأسرى كما أرخوا أدنك وبالخلق لحسن كملك
ون كن عذولي شبهك بالهلال يا بدر من لا يعرفك يجهلك

الفن السادس والسابع
فن كان وكان وفن القومة

وهما كما قال أصحاب هذه الفنون فرعان من الزجل، وإنما أفردوهما نوعين بسبب تغيرات لا تكون في الزجل مثال الأول:

يا رايحن لزبكيه ... بالله خدوني معكم

إيك أرى باب لهوى ... وشاهد الأقمار

ومثال الثاني:

يا رب يا ستار ... لا تكشف الأستار

وغفر لعبدك ذنوبه ... إنك كريم غفار

فهرس